

كارلوت بروني

# جين اير

نقلها الى العربية  
مُنيّر البعلبكي

# هذا الكتاب



\* «جين إير» بالعربية؟  
ومترجمة بنصها الكامل؟  
ذلك حدث أدبي عظيم!  
كذلك هتف أستاذ الأدب  
الانكليزي في إحدى  
الكليات الأجنبية في  
بيروت عندما علم بإقدام  
دار العلم للملايين على  
هذا الصنيع الأدبي الفذ ..

\* ولكن لماذا؟ لأن «جين إير» من الآثار الخالدة التي لا يتيسر  
نقلها كاملة إلا لأولي العزم من الكتاب والمترجمين ، ولأن  
معظم الترجمات التي صدرت لها باللغات الأوروبية نفسها كانت  
ناقصة مشوهة .

ومع ذلك فهذه هي الترجمة الكاملة لـ «جين إير» باللغة  
العربية ، لم ينقص منها حرف واحد ، ولم تفقد شيئاً من حرارتها  
الأولى التي تلفح كل من يقرأ الأصل الانكليزي لفحاً .

\* والواقع ان «جين إير» تعتبر أروع أثر روائي في الأدب  
الانكليزي كله ، لما انطوت عليه من نزعة إنسانية غامرة ،  
وتحليل لأدق مشاعر الحب والبغض والخوف والحسرة والندم ،  
ولوحات فنية تزرى بريشة رافاييل ودافينشي ، وتشويق آسر  
يأخذ بمجامع القلوب ويغريك بمطالعة الكتاب في ليلة واحدة  
إن استطعت إلى ذلك سبيلاً .

\* أما شارلوت برونتي ( ١٨١٦ - ١٨٥٥ ) فروائية من  
أضخم الروائيات اللواتي اطلعنهن العالم في مختلف العصور .  
وانك لتلمح في كل سطر من سطور «جين إير» قسماً من  
حياة شارلوت برونتي نفسها ...

شارلوت برونتي

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الحصرية والرائعة بجودة عالية على موقع

<https://jadidpdf.com>

جَانِلْ يَابِر

نقله الى العربية

مُنِير البعلبكي

دار العالم للملايين

<https://jadidpdf.com>

**JANE EYRE**  
by  
**CHARLOTE BRONTË**



# دار العلم للملايين

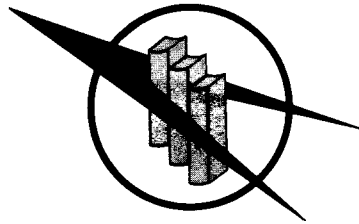
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مسار الياسين - خلف مكتبة المثلو

ص ب ١٠٨٥ - تلفون: ٣٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩

رقيا : ملايين - تلكن: ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثامنة

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٥

## مقدمة

لما كان وضع مقدمة للطبعة الاولى من «جين Jane Eyre» امرا غير ضروري فاني لم اصدرها بأية مقدمة . ولكن هذه الطبعة الثانية تحتاج الى بضع كلمات فيها شكر وفيها ملاحظات مختلفة .

وانما يتعين علي ان اوجه شكري الى ثلاثة فقاء :  
الى جمهور القراء للاذن الواعية التي اعاروها هذه القصة الساذجة التي لا تدعي اشياء كثيرة .  
والى الصحافة لما افسحته من حيز رحب ، في صفحاتها ، لناشئة مغمورة .

والى ناشر «جين اير» الذي اسدى بحصافته ، ونشاطيته ، وروحه العملية ، وتحرره الصريح ، عوناً غير يسير الى مؤلفة مجهولة لا تتمتع بايما ترقية .

ان الصحافة والجمهور ، ليسا عندي ، غير تشخيصين غامضين ، ومن اجل ذلك يتعين علي ان ازجي اليهما الشكر في صيغ غامضة . أما ناشر قصتي هذه فهو كائن راهن محدد ، وكذلك كان بعض نقادي الاسخياء الذين شجمنوني كما يشجع الرجال ذوو القلوب الكبيرة والعقول الرفيعة ، دون غيرهم من الناس ، غريبة مناضلة ، فاليهم ، اعني الى ناشري وناقدي قصتي المختارين ، اقول في اخلاص : « ايها السادة اني اشكركم من قلبي . »

حتى اذا اديت واجب الشكر الى اولئك الذين طوقوا عنقي بعونهم وتزكيتهم ، التفت الى فئة اخرى ، فئة صغيرة ، على قدر ما أعلم ولكن هذا لا يدعو الى اغفالها البتة . اعني اولئك النفر القلائل المروعي الفؤاد أو المولعين بالتنقيب عن المزالق ،

الذين يرتابون في نزعة كل كتاب من مثل « جين ايير » ، والذين يبدو كل ما هو غير مألوف شيئاً غير صحيح في اعينهم ، والذين تكشف آذانهم في كل احتجاج على التعصب - ابي الجريمة - اهانة للورع ، الذي هو نائب الله على الارض . اني احب ان انبه امثال هؤلاء المتشككين الى بعض الفروق الواضحة - احب ان اذكرهم ببعض الحقائق البسيطة .

ان التقاليدية شيء والاخلاقية شيء آخر ، والرياء ليس هو الدين . ومهاجمة الاول لا تعني شن حملة على الآخر . ان نزع القناع عن وجه الفريسي لا يعني انك ترفع يدا كافرة الى « تاج الاشواك » ❀

ان هذه الاشياء والاعمال لعلی طرفي نقيض . انها لتتمايز تمايز الرذيلة عن الفضيلة . ولكن كثيراً ما يخلطون بينها ، وهو امر يجب ان لا يحدث . يجب ان لا نتوهم المظهر حقيقة . والمذاهب البشرية الضيقة ، تلك التي لا تنزع الا الى تعظيم فئة قليلة وتبجيلها ، يجب ان لا تستبدل بعقيدة المسيح الفادية للعالم كله . ان نمة - وكرر ذلك - لفرقا . وانه لعمل صالح ، لا عمل طالح ، ان نرسم في وضوح بالغ الخط الفاصل بينهما .

قد لا يرتاح الناس الى رؤية هذه الآراء يُنزل بها الاذى ، ذلك بانهم تعودوا ان يؤلفوا ما بينها ، واجدين من المناسب أن يعتبروا المظهر الخارجي شيئاً اصيلاً ينطوي على قيمة حقيقية ، وان يدعوا الجدران المطلية بالكلس تضمن الهياكل النظيفة . انهم قد يكرهون ذلك الذي يجرؤ على فحص الاشياء والكشف عن حقيقتها ، على ازالة القشرة الذهبية واظهار ما تحتها من معدن خسيس ، على اقتحام الضريح المقدس ، وبعبارة ما بقي فيه من عظام . الا فليبغضوه ما شاءوا . انهم يظنون برغم ذلك مدينين له .

ان آخاب ❀ لم يحب ميخا ❀❀ لانه لم يتنبأ له في ايام يوم من الايام بغير الشر ، ولعله قد احب ابن شنعان المتملق اكثر . ومع ذلك فقد كان في امكان آخاب ان ينجو من موت دام لو انه اوصد اذنيه دون المللق والتزلف ، وفتحهما للنصيحة المخلصة .

❀ تقصد ان نزع الاقنعة عن وجوه المرئيين لا يعني التناول على مقام المسيح ( العرب )

Ahab احد ملوك التوراة ( العرب )

Micaiah احد انبياء التوراة ( العرب )

ان في ايماننا هذه لرجلا لم تُصنَّ كلماته لتدغدغ الأذان الرقيقة ، رجلا يسمو في رأيي على افذاذ المجتمع كما سما ابن املح \* على ملوك يهوذا واسرائيل المتوجين ، وينطق بالحق عميقا كما نطق به ، قويا وحيويا على نحو نبوي - سيماء لا تقل عنه بسالة وجراة . هل كان ساخر رواية « معرض الزهو » Vanity Fair موضع الإعجاب في الاوساط العالية ؟ لست ادري ولكني لا استطيع الا ان اتساءل : لو ان بعض اولئك الذين قذفهم بنار سخريته الاغريقية ورماهم بصواعق تشهيره افادوا من تحذيراته في الوقت المناسب اما كان في ميسورهم ، هم او ذريتهم ، ان يتجنبوا مصيرا بالغ الشؤم ؟

لماذا الممت الى هذا الرجل \* ؟ لقد المعت اليه ، أيها القاري ، لاني احسب اني ارى فيه مفكرا اعمق واكثر تفردا مما اقر به معاصروه . لاني اعتبره مجدد العصر الاجتماعي الاول - لاني اعتبره سيد تلك الكتيبة العاملة التي سوف توفق الى رد نظام الاشياء الضال الى الطريق القويم . لاني اعتقد انه ما من معلق على كتاباته عشر حتى الان على التشبيه الذي يلائمه ، والتعابير التي تبرز مزايا موهبته على الوجه الصحيح . يقولون انه مثل فيلدينغ ، ويتحدثون عن ذكائه وظرفه ومقدرته الهزلية . انه يشبه فيلدينغ كما يشبه عقاب نسرا : كان في امكان فيلدينغ ان يحط على جثة ، ولكن ثاكاري ما كان قادرا على مثل ذلك قط . ان ذكائه لمشرق ، وان ظرفه لجذاب ، ولكن كلا من ذكائه وظرفه يمت الى عبقريته الجدية بمثل الصلة التي تربط با بين مجرد برق خافق يومض تحت حافة سحابة الصيف وبين شرارة الموت الكهربائية المخبوءة في رَحِمِهِ . واخيرا لقد المعت الى مستر ثاكاري لاني اهديت اليه - اذًا ما قَبِلَ - مقدمة فتاة غريبة عنه تماما - هذه الطبعة الثانية من « جين اير » .

٢١ ديسمبر ١٨٤٧

شارلوت برونتي

\* كان املح معلما في مدرسة الانبياء على عهد الملك آخاب وكان ابنه يتنبا للملك باحداث مشؤومة . (المعرب)  
\* \* \* تعني وليام ثاكاري صاحب « معرض الزهو » (المعرب)

كان من المتعذر علينا ان نقوم ، ذلك اليوم ، بنزهة على الاقدام .  
والواقع اننا كنا قد سلخنا ساعة من ساعات الصباح في التطواف في مجتمع  
الشجيرات التي عرّيت من اوراقها . ولكن ريح الشتاء الباردة كانت قد  
حملت معها منذ الغداء ( ذلك ان مسز ريد كانت تتناول طعام الغداء باكرا  
حين لا يكون ثمة ضيوف ) سحبا قاتمة جدا وامطارا نافذة جدا حتى لقد  
اصبح كل تفكير في القيام ، آنذاك ، بنزهة اضافية امرا غير وارد .

وسرني ذلك ، فانا لم احب في ايما يوم من الايام الانطلاق في نزهات  
طويلة على الاقدام ، وبخاصة في الاصائل الباردة . وكنت ارهب العودة الى  
البيت في الفسق الرطب ، باصابع خدرها البارد الذي اضر بيدي وقدمي ،  
وبقلب احزنه تعنيف بيبي ، الحاضنة ، وتأنيبها ، واذله الشعور ، بدونيتي  
البدنية ازاء اليزا ، وجون ، وجورجيانا ريد .

وكانت اليزا ، وجون ، وجورجيانا ، المشار اليهم ، يتحلقون الان حول  
امهم في حجرة القعود ، وقد استلقت هي على اريكة قريبة من المستوقد ،  
يحيط بها اولادها ( غير آخذين ، موقتا ، باسباب الشجار والصياح ) وبدت  
على وجهها امارات السعادة كاملة غير منقوصة . اما انا فكانت مسز ريد قد  
اعفنتني من الانضمام الى الحلقة قائلة انها « تأسف لاضطرابها الى ابقائي على  
مبعدة منها ، وانها سوف يتعين عليها حقا ( الا اذا سمعت من بيبي او  
استطاعت ان تكتشف بملاحظتها هي اني احاول في كثير من الجد ان اكتسب  
نزعات أليق بالطفولة وادني الى المخالطة والعشرة وعادات احفل بالجاذبية  
والمرح ... شيئا أكثر رقة وصراحة وطبعية ) ان تحرمني الامتيازات التي  
جعلت لصغار الاطفال القانعين السعداء ليس غير » .

وسألتها : « وما تقوله بيبي عني ؟ »

— « جين . انا لا احب المكابرين والمستجوبين ، والى هذا ، فان من  
المقيت حقا ان تقاطع طفلة ، من هو اكبر منها سنا ، وتعتمد الى تصحيحها على  
هذا النحو . اقعدي في مكان ما . واعتصمي بالصمت الى ان تؤانسي في



نفسك القدرة على الكلام بطريقة مهذبة . »

وكانت تحاذي حجرة القعود حجرة صغيرة مخصصة لتناول طعام الصباح . فانسللت الى هناك ، وكان في تلك الحجرة الصغيرة مكتبة ما لبثت ان اخترت منها مجلدا حرصت على أن يكون حافلا بالرسوم . وارتقيت الاربعة المحاذية ، وضممت احدي رجلي الى الاخرى وجلست متربعة على الطريقة التركية ، حتى اذا جذبت الستارة الحمراء المزخرفة جذبا شبه كامل وجدت نفسي مصونة في عزلة مزدوجة .

كانت طيات من ستائر قرمزية تحجب الرؤية عن عيني ، من ناحية اليمين . ومن ناحية الشمال كانت ألواح الزجاج الصافية تقيني مسن ذلك النهار القاتم الكئيب ، من نهارات تشرين الثاني ( نوفمبر ) ولكن من غير ان تفصلني عنه . وفي ما بين الفينة والفينة رحت استجلي - وانا اقلب صفحات كتابي - طلعة ذلك الاصيل الشتوي . لقد تكشفت ، في المدى البعيد ، عن افق شاحب من ضباب وسحاب . في حين وقعت عينا ، غير بعيد عني ، على مرجة ندية وشجيرات اضرت بها العاصفة ، وعلى مطر موصول كانت هبات ريح طويلة فاجعة تسوقه امامها في وحشية .

ورجعت الى كتابي : « تاريخ الطيور البريطانية » لمؤلفه بيويك . ولم اكن لاهتم ، على الجملة ، بالنص المطبوع الا قليلا ، ومع ذلك فقد كانت ثمة صفحات تهديدية لم يكن في وسعي - رغم حداثة سني - ان امر بها مر الكرام . كانت هي تلك الصفحات التي تتحدث عن مساكن طيور البحر ، وعن « الصخور المنعزلة ورؤوس الهضاب المندفعة نحو البحر » التي لا يأوي اليها غير تلك الطيور ، وعن شاطئ الترويج المرصع بالجزر من اقاصم الجنوبي ، المعروف باللنديينيس Lindenness او ناييز Naze ، الى الرأس الشمالي North Cape

« حيث المحيط الشمالي في دواماته الضخمة يغلي حول

جزر « تول » القصية ، الكئيبة ، العارية ، وحيث امواج

الاطلسي تتوالب بين جزائر « هبريد » \* العاصفة . »

لا ، ولم استطع ان امر مر الكرام بوصفه للشيطان الباردة المفتوحة بوجه الرياح في لابلاندا ، وسيبيريا ، وسبيتزبيرغن ، ونوفا زامبلا ، وآيسلنده ، وغرينلاندة ، وتصويره « لامتدادات منطقة القطب الشمالي المترامية ، وتلك الاصقاع المهجورة ذات الامداء الموحشة - مستودع الصقيع والثلج ذاك ، حيث حقول الجليد الراسخة المتراكمة خلال قرون من فصول الشتاء ، المتوهجة في قمم البنية \* فوق قمم البنية ، تطوق القطب وتستقطب قساوات البرد القصوى المتضاعفة . » ومن هذه الدنيوات التي يرين عليها بياض كيباض الموت كونت فكرة ذاتية : فكرة وهمية مثل جميع الفكرات نصف المفهومة التي

\* جزائر هبريد Hebrides او هبريد الغربية ، وتقع غربي اسكتلندا . ( الحرب )

\* \* \* نسبة الى ببال « الالب » .

تطفو على نحو ضبابي في عقول الاطفال ولكنها برغم ذلك تأخذ بمجامع القلوب على نحو عجيب . كانت الكلمات في تلك الصفحات التمهيدية تتصل بالرسوم الصغيرة التي تلت ، وتضفي مغزى على الصخرة المنتصبة وحدها في بحر من الامواج المتلاطمة ذات الرذاذ المتطاير ، وعلى الزورق المحطم الذي جنح عند شاطئ مهجور ، وعلى القمر البارد الرهيب الذي كان يختلس النظر عبر قضبان من السحب الى حطام سفينة ما تزال تأخذ سبيلها الى الفرق .

كانت عاطفة مستغلقة على فهمي تلف فناء الكنيسة المتوحد الساكن بشواهد قبوره المنقوشة ، وقد احاط ببابه وبشجرتيه الاثنتين وبأفقه الخفيض حدار متهدم ، ونهض الهلال الطالع منذ قريب دليلا على هبوط الليل . اما السفينتان اللتان اخلدتا الى السكون فوق بحر هامد خدر فقد حسبتهما شبحين بحريين .

واما الشيطان الذي كان يحمل على ظهره صرة لص فلم اقف عنده الا قليلا . لقد كان مشهدا راعيا .

وكذلك كان ذلك الشيء الاسود ذو القرنين ، الجالس على انفراد فوق احدى الصخور ، المستغرق في مراقبة حشد قصي يحيط بمسئقة .

لقد روت كل صورة من صور الكتاب قصة ، قصة كثيرا ما كانت مبهمة على مداركي الفجة ومشاعري الناقصة ، ولكنها برغم ذلك مائعة كل الامتاع ، مائعة كحكايات بيسي التي كانت تقصها علينا احيانا في ليالي الشتاء كلما اتفق ان كانت هادئة النفس رائقة المزاج ، وكلما اجازت لنا ، بعد ان تدني منضدة الكي الى مستوقد حجرة الاطفال ، ان نتخلق حولها ، وراحت تغذي انتباهنا اللاهف - فيما هي تكوي اطواق مسز ريد الموشاة ، وتجعد حواشي طاوية نومها - بمقاطع حب ومغامرة منتزعة من قصص الجن العتيقة والقصائد القصصية الشعبية الاشد عتقا ، او من صفحات « بامبلا » ( كما اكتشفت في فترة متأخرة ) و « هنري سيد مورلند » .

واستشعرت آنذاك ، وكتاب بيويك على ركبتي ، اني سعيدة ، سعيدة على طريقتي الخاصة على الاقل . كنت اخشى شيئا واحدا ليس غير : ان يقطع علي تأملاتي طارئ ما . وما هي الا لحظات حتى كان ما خفت ان يكون .

نقد فتح باب حجرة الفطور وصل صوت جون ريد : « بوه ! مدام موب ! » ثم انه توقف . لقد بدت له الحجرة خالية ليس فيها احد . وبعد لحظة صاف : « يا للشيطان ! اين هي ؟ ليزي ! جورجي ! ( مناديا اختيه ) جين نيست هنا . قولاما انها فرت تحت وابل المطر . . البهيمة الشريرة ! »

وقلت في ذات نفسي : « حسنا فعلت عندما جذبت الستارة ! » وتمنيت في حرارة ان لا يهتدي الى مخبائي . ولقد كان خليقا به ان لا يهتدي اليه بنفسه ، اذ كانت تعوزه رشاقة البصر بقدر ما تعوزه رشاقة الادراك ، ولكن ليزي ما لبثت ان اقحمت رأسها من وراء الباب وقالت في الحال : « انها جالسة ، من غير شك ، على المقعد المجاور للنافذة ، يا جاك ! »

وغادرت مخبئي في الحال ، فقد ارتعدت اوصالي حالما تصورت « جاك »  
ذاك يسحبني منه سحباً . وسألت في تهيب اخرق : « ماذا تريد ؟ »

فكان الجواب : « قلبي : ماذا تريد يا سيد ريد ؟ انا اريد منك ان تجيئي  
الى هنا . » وقعد على كرسي ذي ذراعين ، واوما الي بما معناه ان علي ان  
اقترب وامثل بين يديه .

كان جون ريد تلميذا في الرابعة عشرة ، اكبر مني بربع سنوات ، اذ  
كانت سني لا تعدو العاشرة . كان ضخما قوي البنية بالنسبة الى سنه ، ذا  
بشرة قاتمة لا تؤذن بصحة جيدة ، واسارير غليظة في وجه عريض ، واوصال  
ثقيلة ، واطراف كبيرة ، وكان من دأبه ان يلتهم الطعام ، على المائدة ، التهاما ،  
حتى لقد اصبح صفراويا معرورا ، وحتى لاصبح بصره اغبش راشحا ،  
ووجنتاه مترهلتين . كان خليقا به ان يكون الان في المدرسة ولكن امه كانت  
قد جاءت به الى البيت ليقضي فيه شهرا أو شهرين « بسبب من صحته  
الرقيقة » . لقد اكد مستر مايلز ، ناظر المدرسة ، ان صحة جون خليق بها  
ان تتحسن كثيرا اذا ما تلقى من البيت مقدارا اقل من الحلويات والسكريات ،  
ولكن قلب الام اعرض بجانبه عن هذا الرأي الموغل في القسوة ومال الى فكرة  
ارق حاشية ، فكرة تقول بان شحوب جون ناشئ عن الارهاق ، وربما عن  
الحنين الى البيت .

ولم يكن صدر جون لينطوي على حب كبير لاهله واخوته . اما انا فلم يكن  
يستشعر نحوي غير الكراهية . كان ينتهرني ويعاقبني ، لا مرتين أو ثلاث  
مرات في الاسبوع ، ولا مرة أو مرتين في اليوم ، ولكن علي نحو موصول .  
كان كل عصب من اعصابي يخافه ، وكانت كل مضغة من مضغ اللحم التي  
تكسو عظامي تنقبض اذا ما اقترب مني . ولقد اتت علي لحظات شدهت فيها  
بسبب من الذعر الذي كان يوقعه في ذات نفسي ، اذ لم يكن لي أي مفرج الجأ  
اليه من تهديداته وعقوباته . فقد كان الخدم لا يحبون ان يفضبوا سيدهم  
الفتى بالانتصار لي منه ، وكانت مسز ريد صماء عمياء في هذا الموضوع : انها  
لم تره في ايما يوم يضربني ولم تسمعه يشتمني ، على الرغم من انه كان لا  
يتورع ، بين الفينة والفينة ، عن القيام بالفعلين جميعا في حضرتها هي . بيد  
انه كان يقدم على ذلك ، من وراء ظهرها في الاعم الغلب .

واذ كان من مألوف عادتي ان اذعن لاوامر جون فقد تقدمت نحو كرسيه .  
واذا كان من مألوف عادتي ان اذعن لاوامر جون فقد تقدمت نحو كرسيه .  
لقد انفق نحو من ثلاث دقائق في اخراج لسانه في وجهي اقصى ما استطاع  
ان يخرج من غير ان يؤذي جذوره . . . . . وكنت اعلم انه سوف يضربني  
وشيكاً ، وفيما انا ارتعد خوفا من الضربة رحت اتأمل أي وجه كريبه بشع  
كان وجه الفتى الذي سينهال بها علي في الحال . واني لاتساءل هل قرأت تلك  
الفكرة على وجهي ، اذ انه ما لبث ان ضربني ، من غير ان ينطق بكلمة ، ضربا  
مفاجئا ومبرحا . وترنحت ، حتى اذا استعدت توازني ارتددت مبتعدة عن

كرسيه ، خطوة أو خطوتين .  
وقال : « هذا من اجل الوقاحة التي اظهرتها في الرد علي ماما منذ لحظات ،  
ولاسلوبك الجبان في الاختباء خلف الستائر ، وللنظرة التي التمعت في  
عينيك ، أيتها الفأرة ، منذ دقيقتين . »  
واذ كنت قد الفت سباب جون ريد فلم يخطر ببالي قط ان ارد عليه . كان  
كل همي ان ابحث عن طريقة تمكنني من احتمال الضربة التي ستعقب الاهانة  
من غير ريب .

وسأل : « ما الذي كنت تفعلينه خلف الستارة ؟ »

- « كنت اقرأ »

- « أريني الكتاب ! »

عندئذ انقلبت الى النافذة لاجيئه به من هناك .

- « ليس من شأنك ان تأخذي كتبنا . ماما تقول انك عالة علينا . انت  
لا تملكين مالا ، فأبوك لم يخلف لك منه شيئا . كان خليقا بك ان تشعدي ،  
لا ان تعيشي هنا مع امثالنا من أولاد السادة ، ولا ان تَطْعَمِي مآكلنا نفسها ،  
وترتدي الشباب على نفقة ماما . والان ، سوف اعلمك كيف تعيشين برفوف  
مكتبتني ، لان هذه الكتب هي كتبتي انا . ان البيت كله ملكي ، او سيصبح  
ملكى بعد بضعة سنوات . اذهبي وقفي قرب الباب ، بعيدا عن المرأة  
والنوافذ . »

وصدعت بما امرت ، غير مدركة بادى الامر ما الذي كان ينتويه .  
ولكنني ما ان رأيته يرفع الكتاب ويوازنه ويقف لكي يقذفني به حتى وثبت ،  
بحكم الغريزة ، جانبا مطلقة صبيحة دعر . بيد ان وثبتني لم تكن سريعة على  
نحو كاف . فقد قذف بالجلد ، فأصابني ، فسقطت على الارض ، فارتطم  
رأسي بالباب ، فجرح . وسال الدم من الجرح ، وكان الالم حادا . حتى اذا  
تخطى دعري اوجه تعاقبت علي مشاعر اخرى . .

وقلت : « أي ولد شرير ووحشي انت ! انت اشبه بقاتل . . . انت  
اشبه بسائق العبيد . . . انت مثل الاباطرة الرومان ! »

كنت قد قرأت « تاريخ رومة » لفولد سميث وكونت فكرة خاصة عن  
نيرون ، وكاليفولا النح . بل لقد كنت ، في ما بيني وبين نفسي ، قد عقدت  
بعض التشبيهات والمقارنات ولكن من غير ان يخطر لي قط اني سوف اصرح  
بها ، جهارا ، كما فعلت الان .

فصاح : « ماذا ؟ ماذا ؟ هل قلت ذلك لي ؟ هل سمعتها يا اليزا ؟ هل  
سمعتها يا جورجيانا ؟ سوف اخبر ماما بذلك ، ولكن علي اولا . . . »

واندفع نحوي : لقد احسست به يمسك بشعري وبكتفي ، وينقض علي  
في يأس . ورأيت فيه - حقا - طاغية من الطفافة ، قاتلا من القتل . واستشعرت  
قطرة دم او قطرتين تسيلان من رأسي وتتحدران علي جيدي ، واحسست  
بالآلم لاسعة . وهيمنت هذه الاحاسيس علي دعري ، مؤقتا ، فرددت له

الضربات على نحو مسعور . انا لا ادري جيدا ما الذي فعلته بيدي الاثنتين ولكنه صرخ « فأرة ! فأرة » ، وانشأ يخور . واسعفته النجدة في الحال : كانت اليزا وجورجيانا قد هرعتا الى مسز ريد - وكانت قد صعدت الى الدور العلوي - فأقبلت الى ميدان المعركة تتبعها « بيسي » و « أبوت » وصيفتها . وفصلن احدنا عن الآخر . وسمعت الكلمات التالية :

« يا الهي ! يا الهي ! أي سعار هذا ؟ اتهمين على السيد جون ؟ »

« هل قدر لاي امرئ ان يرى مثل هذا الانفعال من قبل ؟ »

ثم ان مسز ريد الحقت هذه الكلمات بقولها :

« ابعداها الى الحجرة الحمراء ، واغلقا عليها بابها . »

وفي الحال انقضت علي ايد اربع ، وحملت الى الدور العلوي .

## ٢

وقاومت وقاومت طوال الطريق : شيء جديد بالنسبة الي ، حدث غير مألوف قوى الى حد بعيد الفكرة السيئة التي كانت بيسي ومس أبوت مياليتين الى تكوينها عني . وفي الحق اني كنت مهتاجة بعض الشيء ، او خارجة عن طوري بعض الشيء كما يقول الفرنسيون . ذلك اني ادركت ان تمردي لحظة كان قد عرضني لعقوبات غريبة ، ومثل أي عبد نائر استشعرت العزم ، في يأسى البالغ ، على المجازفة بكل شيء .

« امسكي بذراعيها ، يا مس أبوت . انها مثل قطة مسعورة . »

فصاحت وصيفة السيدة : « يا للعار ! أي سلوك مخجل هذا الذي سوغ لك ، يا مس ايبير ، ان تضربي سيذا فتى ، ان تضربي ابن ولية نعمتك ! سيدك الصغير . »

« سيدي ؟ ما الذي يجعله سيدي ؟ هل انا خادمة ؟ »

« لا ، انت اقل من خادمة . لانك لا تأتين عملا ما مقابل لقمة الخبز التي تقيم اودك . كفى ، واجلسي وفكري في خباثتك وسوء خلقك . »

وكانتا قد انتهتا بي ، الان ، الى الحجرة التي اشارت اليها مسز ريد وقذفتا بي على كرسي خفيض لا ظهر له . ودفعني حافز غرزي الى النهوض واثبة عن الكرسي مثل نابض أو زنبرك ، فما كان من ايديهما الاربع الا ان صدتني ، في الحال ، عما كنت بسبيله .

وقالت بيسي : « اذا لم تلزمني مكانك في سكينه اضطررنا الى ان نحكم وثاقك الى الكرسي . مس أبوت ، اعيريني رباط ساقك ! فلو وثقتها برباط ساقي انا اذن لمزقته في الحال . »

واستدارت مس أبوت لتجرد رجلها القوية من القيد الضروري . وكان في هذا الاستعداد لتقييدي وما يفيد من خزي اضافي ما ذهب ببعض احتياجاتي .



وصحت : « لا تخلعيهما • انا لن اتحرك قيد شعرة ! »

ولكي اثبت لهما ذلك سمرت نفسي الى مقعدي بيدي الاثنتين •

فقلت ببسي : « الويل لك ان تحركت ! » وحين وثقت من انني جنحت للسكينة حقا ارخت قبضتها عني بعض الشيء • ثم انها وقفت هي ومس آبوت متصالبتي الاذرع ، ناظرتين الى وجهي في عبوس وارتياب ، وكأنهما كانتا لا تصدقان اني سليمة العقل •

واخيرا قالت ببسي ملتفتة الى الوصيفة : « انها لم تفعل قط شيئا مثل هذا من قبل • »

فاجابتها الوصيفة : « ولكني كنت اتوقعه دائما منها • وكثيرا ما انابت سيدتي برأيي في الطفلة ، فاقرنتي سيدتي عليه • انها مخلوقة صغيرة مرائية • انا لم ارق قط في حياتي فتاة في مثل سنها تنطوي على هذا المكر كله • »

ولم تحب ببسي بشيء • بيد انها ما عثمت ان وجهت الخطاب الي فقالت : « يجب ان تعي ، ايتها الانسة ، انك مدينة لمسز ريد بشيء كثير • فهي تعيلك وتصونك ، ولو قد خطر لها ان تطردك اذن لتعين عليك ان تذهبي الى ملجأ المعوزين • »

وما كان لدي ما ارد به على هذه الكلمات • انها لم تكن جديدة علي ، فذكريات وجودي الاولى نفسها اشتملت على الماعات من الضرب ذاته • وكان تعييري بانني احيا عالة على مسز ريد قد امسى في اذني اغنية رتيبة غامضة ، اغنية مؤلة تسحق النفس سحقا ولكنها نصف مفهومة •

وضمت مس آبوت صوتها الى صوت ببسي فقالت : « ويتعين عليك ان لا تتوهمي نفسك مساوية للآنستين ريد والمسيد ريد لمجرد ان سيدتي تتلطف وتجز لك ان تنشأي معهم تحت سقف واحد • انهم سوف ينعمون بمقدار ضخم من المال ، في حين انك لن تنعمي بشيء من ذلك • ان وضعك هذا يجعل من واجبك ان تتضعي وان تحاولي ان تحببي نفسك اليهم • »

واضافت ببسي في صوت لا غلظة فيه : ان ما نقوله لك هو في صالحك • يجب ان تحاولي ان تكوني نافعة قريبة الى النفس ، فقد يساعدك ذلك علي ان تجدي ههنا مأوى تفيئين اليه • اما اذا غدوت ذات حدة وفظاظة ، فعندئذ تعتمد السيدة ، وانا واثقة من ذلك ، الى طردك • »

فقلت مسز آبوت : « والى هذا ، فان الرب سوف يعاقبها ، انه قد يميته في غمرة سورة من سوروات نفسها • والى اين سيكون مصيرها عندئذ ؟ هيا ، يا ببسي ، فلنتركها وشأنها • انا لا ارتضي ان يكون لي مثل مزاجها ولو اعطيت في ذلك ملك الارض • ردي صلواتك ، يا مس اير ، حين تخلين الى نفسك ، لان شيئا رديئا قد يجاز له ، اذا لم تستغفري لذنبك ، أن يهبط من المدخنة ويتخطفك • »

ثم انهما خرجتا موصدتين الباب ، محكمتين اغلاقه بالمزلاج •

كانت الحجرة الحمراء حجرة احتياطية ، لا ينام فيها احد الا في النادر ، وفي ميسوري ان ازعج ، في الواقع ، ان احدا ما كان لينام فيها الا اذا اتفق لتدفق الزائرين على قصر « غايتسهيدي » ان جعل من الضروري ان يغيد القوم من كل زاوية من زواياه . ومع ذلك فقد كانت واحدة من ارحب حجرات القصر وافخمها . كان سرير ذو دعائم ضخمة من خشب الماهو غاني اسدلت عليه ستائر من دمس احمر قاتم ، ينتصب كالخباء في وسطها . وكانت النافذتان الكبيرتان ، بمصاريعهما الموصودة على نحو موصول ، نصف مكسوتين بحبال تزيينية صنعت من الدمس نفسه . وكانت السجادة حمراء ، وكانت المنضدة القائمة عند قدم السرير مكسوة بغطاء قرمزي ، وكانت الجدران ذات لون اصهب خفيف تشوبه مسحة وردية ، وكانت خزانة الثياب ، ومنضدة الزينة ، والكراسي مصنوعة كلها من خشب ماهو غاني قديم صقل صقلا قاتما . ومن بين هذه الظلال الغامقة المطوَّقة للحجرة من اقطارها ارتفعت حشايا السرير ووسائده المركومة ، عالية ببيضاء الوهج منشورا فوقها لحاف ثلجي صنع من ذلك النسيج القطني القوي المعروف باسم « مرسيليا » . ولم يكن ليقل عن هذه الحشايا والوسائد بروزا كرسي ضخم وثير قائم قرب مقدم السرير ، وكان ذلك الكرسي ابيض ايضا ، وضع امامه مسند للقدمين ، فهو اشبه ما يكون ، في ما بدا لي ، بعرش صاحب .

وكانت هذه الحجرة باردة ، لانها نادرا ما شهدت النار توقد فيها ، وكانت صامتة بسبب من بعدها عن حجرة الاطفال وعن المطابخ ، وكانت موحشة لما اشتهر من ان احدا لم يكن ليدخلها الا في النادر النادر . كانت الخادمة وحدها تقبل اليها مرة كل يوم سبت لتنفذ عن الاثاث والمرايا ما استقر عليها ، خلال اسبوع بكامله ، من غبار كثيف . وكانت مسز ريد نفسها تزورها من حين الى حين لتتفقد محتويات درج سري بعينه في خزانة الملابس ، درج كانت تدخر فيه وائسق مختلفة وعلبة حليها ، ورسم زيتها مصغرا لزوجها المتوفى . وفي هذه الكلمات الاخيرة يكمن سر الحجرة الحمراء - الرقية التي أبقتها مهجورة الى هذا الحد برغم فخامتها .

كان مستر ريد قد قضى نحبه منذ تسع سنوات ، وكان قد لفظ انفاسه الاخيرة في هذه الحجرة . ههنا سجي في ابهة ، ومن ههنا حمل رجال الدفان نعشه . ومنذ ذلك اليوم ران على الحجرة حس قداسة رهيبه جعلها في مأمن من انتهاك الحرمة انتهاكا مكرورا .

وكان المقعد الذي تركتني بيسي ومسز آبوت الوحشية مسمرة عيه متكتنا خفيضا قائما على مقربة من المستوقد الرخامي . وتجاهي كان ينتصب السرير ، والى يميني كانت خزانة الملابس الداكنة الشامخة التي كانت انعكاساتها الواهنة المكسرة توقع شيئا من التباين في لمعان الواحها الخشبية . والى يساري كانت النافذتان المفلعتان بالسجف ، وكانت امرأة كبيرة قائمة بينهما تنم عن مثل الفخامة الحمقاء التي تطبع كلا من السرير والججوة . ولم

أكن اعلم علم اليقين هل احكمنا اغلاق الباب بالمزلاج أم لم تحكماه ، حتى اذا آنست في نفسي الجراءة على الحركة نهضت ومضيت لارى . وأسفاه ! لقد اكتشفت انهما لم تغفلا عن ذلك ، وإن الناس لم تعرف قط سجننا اشد تحصينا من سجنى ذاك . حتى اذا انقلبت الى موضعي الاول تعين علي ان اجتاز بالمرأة ، وعلى نحو غير ارادي راحت نظرتي الذاهلة تستطلع الاعماق التي كشفت عنها . ان كل شيء قد بدا في هذا الفراغ الشبحي اشد برودة وقامسا مما هو في الواقع . ولقد أوقعت تلك الصورة الصغيرة الغريبة التي كانت تحديق هناك الي ، بوجهها الشاحب حتى البياض وذراعيها اللتين بدتا وكأنهما رقعة بيضاء وسط الدجنة وعينيها اللامعتين بالخوف المتحركتين حيث كل شيء كان ساكنا - أوقعت تلك الصورة في نفسي مثل الاثر الذي تحدثه روح حقيقية . لقد خيل الي انها اشبه شيء بتلك الاشباح الضئيلة ، التي كان نصفها جنيا ونصفها عفريتيا ، والتي صورتها حكايات بيسي المسائية وكأنها منبثقة من الاودية الموحشة يكسوها نبات الخنشار في الاراضي السبخة ، وتنتصب امام اعين المسافرين المتخلفين عن مواعيدهم . ورجعت الى مقعدي .

كانت الخرافة تواكبني آنذاك ، ولكن الساعة التي قدّر لها فيها ان تنتصر علي انتصارا كاملا لم تكن قد حانت بعد . كان دمي لا يزال حارا ، وكان مزاج العبد الرقيق الثائر لا يزال يمدني بعزمه المرير . ولقد تعين علي ان اصد سبيلا عرما من ذكرياتي الماضية قبل ان انكص في وجه الحاضر الاشام الرهيب .

لقد برزت اضطهادات جون ريد العنيفة كلها ، ولا مبالاة اختيه المتعجرفة كلها ، ومقت امه كله ، وتعصب الخدم علي . . برزت جميعها على صفحة عقلي المضطرب كما تختلج الرواسب القاتمة في بئر عكرة . هل قدّر علي ان اتعذب علي نحو موصول ، وان اكون مهانة ابدا ، متهمه ابدا ، مدانة ابدا ؟ ما الذي يجعلني عاجزة دائما عن ارضاء من حولي ؟ لم كان من العبث الذي لا طائل تحته ان احاول كسب حظوة ما عند احد ؟ فاليزا العنيدة الانانية ، كانت موضع احترام . وجورجيانا ، التي افسدها الدلال والتي يغلب عليها الخبث اللاسع ، والسلوك المتشامخ العياب كانت موضع تقاض وتسامح من القوم جميعا . لقد بدا وكان جمالها ، ووجنتيها الورديتين ، وخصل شعرها الجعداء كانت ترفع البهجة في نفس كل من ينظر اليها ، وتشترى لها عفوا عن كل غلطة من غلطاتها . وجون كان لا يجد من يتصدى لمعارضته بله لمقابته ، برغم انه كان يلوي اعناق العمائم ، ويقتل فراخ الطواويس الصغيرة ، ويشير الكلاب على الخراف ، ويجرد عرائش الدفيئات ❀ من ثمارها ، ويقصف براعم النباتات المختارة النادرة في المستنبت الزجاجي . وكان يدعو امه « الفتاة العجوز ، ايضا ، ويعيرها احيانا ببشرتها الداكنة التي تشبه بشرته هو ،

ويستخف برغباتها في غلظة ، وكثيرا ما كان يمزق ويتلف اريدتها الحربية ، ومع ذلك فقد ظل هو « حبيب قلبها » . وكنت أنا لا اجرؤ على ارتكاب ايما خطأ ، وكنت احاول أن اؤدي واجباتي كلها ، ومع ذلك فقد كانوا يبنزونني من الصباح الى الظهر ومن الظهر الى المساء بقولهم اني شريرة ، متعبة ، نكدة ، مداحية .

وفي غضون ذلك ، كان رأسي لا يزال يؤلمني من أثر الضربة والسقطة اللتين اصابتاني ، وكان الدم لا يزال يسيل منه . ان احدا لم يؤنب جون لضربه اياي في نزق وطيش ، على حين انهم اثقلوني بضروب الاهانات المخزية لا لشيء الا لانني تصديت للرد عليه باللغة نفسها لادرأ عني غائلة اندفاعه في مزيد من العنف المجنون .

- « ظلم ..! ظلم ..! » كذلك قال عقلي لي وقد استشاره ذلك المنبه الموجه حتى التبريح وبعث فيه قوة فضحت قبل الاوان ولكنها سريعة الزوال . وحداني كل ما بي من عزم ، وقد استثير هو الآخر على نحو مماثل ، الى ان التمس مختلف الذرائع القريبة للنجاة من الاضطهاد الذي لا يطاق ، كان اولي قرارا ، او كان امتنع - اذا لم أوفق الى ذلك - عن الطعام والشراب حتى أموت جوعا .

أي ذعر لف روحي في ذلك الاصيل الموحش ! وأي جلبة اعتملت بدماغي كله ، وأي ثورة عصفت بغواذي ! ومع ذلك ففي أية ظلمة وفي غمرة من اية جهالة مطبقة دارت رحي تلك المعركة الذهنية ! أنا لم استطع ان اجيب عن السؤال الذي ما برح يضع في باطني : لماذا يتعين علي ان أقاسي هذا العذب كله ؟ اما الان ، وقد اصبحت تفصلني عن ذلك العهد سنوات لن انص على عددها - فان في ميسوري ان افهم السبب احسن الفهم .

لقد كنت في « قصر غايتسهيدي » نغما ناشزا . كنت لا أشبه احدا من نزلائه ، ولم يكن ثمة ايما تناغم بيني وبين مسز ريد او اولادها أو لفيف خدمها المختار . ولئن كانوا يضمنون علي بحبهم لقد كنت أنا ، في الواقع ، قليلا ما اضمر لهم شيئا من حب . وما الذي كان يحتم عليهم ان ينظروا بعين العنان الى شيء لم يكن يجد ايما مشاركة وجدانية بينه وبين أحد منهم ، شيء متنافر يختلف عنهم في المزاج ، والموهبة ، والميول ، شيء حقير غير قادر على ان يخدم اغراضهم او يزيد في متعتهم ، شيء فاسد يفضو في ذات نفسه جرثومة السخط على معاملتهم والازدراء لتفكيرهم . أنا اعلم انني لو كنت طفلة حادة الطبع ، ذكية الفؤاد ، شديدة الاهتمام ، كثيرة المطالب ، وسيمة ، نزاعة الى اللعب الصاحب اذن لاحتملت مسز ريد وجودي على نحو احفل بالرضا ، واذن لحاول اولادها ان يفضوا في نفوسهم قدرا من المودة والصداقة اعظم ، واذن لكان خليقا بالخدم ان يكونوا اقل نزوعا الى جعلني « كبش فداء » حجرة الاطفال .

وشرع ضياء النهار يهجر الحجرة الحمراء . كانت الساعة قد تجاوزت

الرابعة ، وكان الاصيل الغائم يجنح نحو غسق كئيب . وسمعت المطر وهو يقرع ، ما يزال ، نافذة السلم قرعا موصولا ، والرياح تعوي في الفيضة القائمة خلف القصر . وشيئا بعد شيء تمشى البرد في مفاصي حتى لقد اصبحت وكأنني قطعة من حجارة ، ومن ثم غارت شجاعتي . واذا بمزاجي المألوف ، مزاج الذل والشك في النفس والسكابة البائسة ، يسقط سنقوط الندى على جمرات غيظي الخامد . لقد زعموا كلهم انني شريرة ، ومن يدري ، فقد اكون شريرة حقا ! والا فما الذي جعلني لا افكر في شيء غير تجويع نفسي حتى الموت ؟ لقد كان ذلك التفكير جريمة من غير ريب ، والى هذا ، فهل كنت على استعداد للموت ؟ وهل كان السرداب الممتد تحت مذبح كنيسة غايتهسيد مصيرا مغريا الى هذا الحد ؟ لقد قيل لي ان مستر ريد قد دفن في ذلك السرداب ، وهذه الفكرة قادتني الى استحضار صورته في ذهني ، واطللت التفكير في ذلك بذعر متعاطف . ولم استطع ان اتذكره ، ولكنني عرفت انه كان خالي - شقيق والدتي - وانه كان قد حملني وانا طفلة يتيمة الاب والام الى بيته ، وانه كان قد سال مسز ريد ، في لحظاته الاخيرة ، ان تعده بان تنشئني وتعلمني وكاني ولد من اولادها . واغلب الظن ان مسز ريد اعتقدت انها وقت بهذا العهد ، واني لاجروء على القول انها قد وقت حقا على قدر ما تجيز لها طبيعتها ذلك . ولكن اني لها ، في الحق ، ان تحب مخلوقة دخيلة ليست من ذريتها ، مخلوقة لا يربطها بها - بعد وفاة زوجها - رابط ما ؟ ولا ريب في انه كان مما يضجرها ويرهقها الى ابعد الحدود ان تجد نفسها ملزمة بعهد انتزع منها عنوة بان تقوم مقام الام من طفلة غريبة لم تستطع ان تحبها ، وأن ترى الى هذه الفتاة الدخيلة ذات الطباع غير المؤتلفة مع طباعها تفرض الى ابد الدهر على اسرتها الخاصة .

والتمعت في ذهني فكرة فريدة . انا لم اشك - لم اشك قط - في انه لو كان مستر ريد حيا اذن لعاملني في احسان . والان ، فيما كنت جالسة انظر الى السرير الابيض والجدران التي رانت عليها الظلال - ملقية بين الفينة والفينة ايضا نظرة ذاهلة نحو المرأة المومضة على نحو ناهت - شرعت استحضر في ذهني ما كنت قد سمعته عن الموتى الذين اقلقهم الخروج على رغباتهم الاخيرة واقض مضاجعهم في اجدائهم فانقلبوا الى الارض لكي يعاقبوا الحائشين بالعهد ويشأروا للمظلومين والمضطهدين . وخطر لي ان روح مستر ريد ، وقد غاظتها ضروب الظلم المنزلة بأبنة اخته ، قد تغادر مثواها ، سواء اكان هذا المثوى في سرداب الكنيسة او في عالم الراحلين المجهول ، وتنتصب امامي في هذه الغرفة . وكفكت عبراتي ، وكبحت تنهداتي ، خشية ان يكون في ايما اماره من امارات الاسى العنيف ما يحفز صوتا غيبيا الى مؤاساتي ، او ما يطلع من الدجنة وجها تحيط به هالة من نور فينحني نحوي في شفقة غريبة . واستشعرت ان هذه الفكرة - المواسية نظريا - خليق بها ، اذا ما تحققت ، ان تكون رهيبه ، فبذلت غاية جهدي لكي اخنقها . بذلت غاية جهدي للاحتفاظ برباطة جأشي .



وبهزة رددت بها الشعر عن عيني رفعت رأسي وحاولت أن اجيل ط في ، بكثير من الجراءة في ارجاء الحجرة المظلمة . وفي تلك اللحظة التمع ضوء على الجدار . وهل كان هذا الضوء - كذلك سألت نفسي - شعاعاً قمرياً تسلل من فرجة ما في مصراع النافذة ؟ لا . أن اشعة القمر ساكنة ، وهذا الشعاع يضطرب . وفيما كنت احقق الى الجدار انساب الى السقف وارتعش فوق رأسي . لقد امسى في ميسوري الان ان احبس ، في غير تردد ، ان عرق الضياء ذاك كان في اغلب الظن ضوءاً منبعثاً من مصباح يحمله امرؤ يتخذ سبيله في المرجة المحيطة بالقصر . ولكن عقلي كان مستعداً آنذاك للذعر واعصابي كانت متوترة بالاهتياج فحسبت ذلك الشعاع المضطرب في رشاقة نذيراً برؤيا مقبلة من عالم آخر . ووجب قلبي وجيباً متسارعاً ، واشتعل رأسي ، وملاً صوت ما اذني ، صوت توهّمته اندفاع اجنحة . وبدا لي وكأن على مقربة مني شيئاً ما ، وألم بي حصر في الصدر ، وكدت اختنق : لقد انهارت قدرتي على الاحتمال ، فاندفعت الى الباب وهزّزت القفل في جهد يائس . وانطلقت عبر المجاز الخارجي خطى تعدو ، ودار القفل ، ودخلت بيبي وآبوت .

وقالت بيبي : « مس ايير أمريضة انت ؟ »  
وهتفت آبوت : « اية ضجة رهيبة ! لقد نفذت الى اعماقي ! »  
فكانت صيحتي : « أخرجاني من هنا ! اتركاني اذهب الى حجرة الاطفال ! »  
فسألتنني بيبي من جديد : « لماذا ؟ هل اصبت باي اذى ؟ هل رأيت شيئاً ؟ »

- « أوه ! لقد رأيت ضوءاً ، ولقد خيل الي ان شبحاً سوف يبرز لي . كنت الان قد امسكت بيد بيبي ، فلم تنتزعها مني . فاعلنت آبوت في شيء من التقرّز : « لقد صرخت لفرض في نفسها . واية صرخة ! ولو كانت تقاسي ألماً عظيماً اذن لكان في ميسور المرء ان يعذرها ، ولكنها لم تفعل ذلك الا لكي تجشمنّا كلنا عناء المجيء الى هنا . انا اعرف حيلها الشيطانية . »

وهنا تسأل صوت آخر تساؤلاً حاسماً : « علام هذا الصياح كله ؟ »  
واقبلت مسز ريد مجتازة الرواق ، وقد اطارت الريح جنبات قبعتها ، وسمع لردائها حفيف عاصف . « آبوت ، بيبي ، اعتقد اني اصدرت اسري بان تترك جين ايير في الحجرة الحمراء حتى افد عليها انا بنفسي . »  
فاعتذرت بيبي متضرعة : « لقد اطلقت مس جين صراخاً شق عنان السماء ، يا سيدتي . »

فكان الجواب الوحيد : « اطلقي يدها . اطلقي يد بيبي ، ايتها الطفلة . انك لن توفقي ، بهذه الاساليب ، الى الخروج من هنا ، كوني على ثقة . انا اكره الاحتياط ، وخاصة اذا قام به الاطفال . ومن واجبي ان اريك ان

الحيل لا تفيد . عليك ان تبقي هنا ساعة اضافية ، ولن اطلق سراحك عندئذ الا اذا اظهرت خضوعا وسكينة كاملين . »

— اوه ، يا امرأة خالي ، ارحمني ! اغفري لي ! اننا لا نستطيع احتمال هذا . . . دعيني اعاقب على نحو آخر ! سوف يقضى علي اذا . . . »

— « احرصني ! ان هذا العنف الذي تظهرينه شنيع تشمئز منه النفس »  
وليس من ريب في انها استشعرت ذلك حقا . لقد كنت في عينيها ممثلة نبقت قبل الاوان . ولقد كانت تنظر الي ، في خلوص نية ، نظرتها الى مزيج من اهواء مؤذية وروح وضيفة ونفاق خطر .

حتى اذا انسحبت بيسي وآبوت وضائق مسز ريد ذرعا باوجاعي المسعورة وتنهديات الضارية ردتني الى الورا في غلظة بالغة ، واغلقت باب الحجرة علي ، من غير ان تضيف الى حديثها اللفظ ايما كلمة جديدة . وسمعتها تمضي لسبيلها ، وما ان انقضت على ذلك لحظات حتى اصابني في ما احسب ، ضرب من النوبة : لقد اسدلت النقيوبة الستار على هذا المشهد .

### ٣

واول شيء اذكره بعد ذلك هو اني افقت مستشعرة ان كابوسا رهيبا كان قد الم بي ، واني رأيت امامي وهجا احمر فظيعا تعترضه قضبان سوداء غليظة . ولقد سمعت ايضا ، اصواتا تتحدث في جرس غائر ، وكأنما يخمدونها اندفاع ريح او مياه : وتعاون الاهتياج ، والشك ، وشعور بالدعر عارم على تشويش ملكاتي كلها . وما هي غير فترة يسيرة حتى وعيت ان شخصا ما كان يحركني بيديه ، ويرفعني الى اعلى ويساعدني على الجلوس ، وكل ذلك على نحو احفل بالركة مما قدّر لي ان ارفع أو اسند في أيما وقت من الاوقات . لقد ارحت رأسي على وسادة او على ذراع ، وغلب علي شعور بالراحة والطمأنينة .

وبعد خمس دقائق تبددت سحابة الانشداه : لقد عرفت معرفة اليقين اني كنت في فراشي ، وان الوهج الاحمر لم يكن غير النار المضرمة في المستوقد بحجرة الاطفال . كانت الدنيا ظلاما ، وكانت على المنضدة شمعة تحترق . كانت بيسي واقفة عند قدم السرير حاملة في يدها حوضا ، وكان احد الرجال جالسا على كرسي قرب وسادتي وكان منحنيا فوقي .

واستشعرت طمأنينة تمتنع على الوصف وثقة مهدئة بأنني في حفظ وامان عندما عرفت ان في الحجرة رجلا غريبا ، فردا لا يمت بصلة الى قصر غايتسهيده ولا يشده الى مسز ريد نسب ما . حتى اذا اشعت بوجهي عن بيسي ( على الرغم من ان وجودها كان ادعى الى الارتياح واقل اثارا للمقت من وجود آبوت لو اتفق ان كانت محلها ، مثلا ) انعمت النظر في وجه

الرجل . لقد عرفته . انه مستر لويد ، وهو هيدلاني يتعاطى الطبابة ، كانت مسز ريد تدعوه الى القصر احيانا اذا ما لزم بعض الخدم فراش المرض . اما اذا المت بها هي او باحد اولادها علة ما فعندئذ كانت تستعين بطبيب .

وسألني : « حسنا ، من انا ؟ »

ولفظت اسمه ، باسطة يدي ، في الوقت نفسه ، نحوه . فامسك بها مبتسما وقال : « لن تنقضي غير فترة وجيزة حتى تستعيدي صحتك ونشاطك . » ثم اضعفني على السرير ووجه الخطاب الى بيسي فكلفها ان تحرص كل الحرص على تجنبني خلال الليل كل داعية من دواعي الازعاج . حتى اذا زودها ببعض التوجيهات الاضافية وألمح الى انه سوف يعودني ، من جديد ، في اليوم التالي غادر الحجرة ، مخلفا في نفسي شيئا من حسرة . فقد احسست طوال جلوسه على مقربة من وسادتي اني في نجوة من الاذى وان جوا من الصداقة يكتنفني . وحين اوصد الباب خلفه رانت الظلمة على الحجرة كلها وغار قلبي كرة اخرى : لقد اثقله اسى يعجز البيان عن تصويره .

وسألتنني بيسي في جرس هو الى الرقة اقرب : « هل تراودك رغبة في النوم ، اينها الانسة ؟ »

ولم اجرؤ على الاجابة الا قليلا . فقد خشيت ان تكون الجملة التالية فظة غليظة . وقلت : « سوف احاول . »

- « هل تحبين ان تشربي او تستطيعين ان تأكلي شيئا ؟ »

- « لا ، شكرا يا بيسي . »

- « اذن فأحسب اني سأري الى فراشي ، ذلك بان الساعة تجاوزت الثانية عشرة ، ولكن في امكانك ان تنادينني اذا ما احتجت الى ايما شيء خلال الليل . »

يا له من لطف رائع ! لطف جرأني على ان اسألها هذا السؤال : « بيسي ، ما الذي اصابني ؟ أمريضة انا ؟ »

- « احسب انك سقطت صريعة المرض لشدة ما بكيت في الحجرة الحمراء . ولسوف تتحسن حالك وشيكاً من غير ريب . »

ومضت بيسي الى حجرة الخادمة القائمة غير بعيد . وسمعتها تقول : « سارة ، تعالي ونامي معي في حجرة الاطفال . انا لا اجرؤ ، حتى ولو كلفني ذلك حياتي ، على ان ابقي وحدي مع تلك الفتاة المسكينة هذه الليلة . انها قد تموت . وانه لمن الغريب ان تصيبها تلك النوبة . ويخيل الي انها رأت شيئا . لقد كانت سيدتي شديدة القسوة عليها في ما اعتقد . »

ورجعت سارة معها ، وآوتا كلتاها الى الفراش . وظلنا نصف ساعة تتبادلان حديثا مهموسا قبل ان تستسلما للرقاد . ووفقت الى التقاط نثف من حديثهما استطعت ان استنتج من خلالها ، في وضوح كثير ، موضوع

« لقد اجتاز بها شيء يجلبه البياض من قمة رأسه الى اخمص قدميه ثم اختفى . » « وكان وراءه كلب اسود ضخيم . » « ثلاث طرقات صارخة على باب الحجرة . » « ضوء في باحة الكنيسة فوق ضريحة تماما . » الخ . الخ .

واخيرا استسلمنا كلناهما للرقاد . وخمدت النار في المستوقد ، وذابت الشمعة . اما بالنسبة الي فقد تصرمت ساعات ذلك الليل الطويل في ارق رهيب . كانت اذناي وعياني وعقلي كلها متوترة بالرعب . . . بذلك الرعب الذي لا يستطيع ان يستشعره احد غير الاطفال .

ولم يتل حادثة الحجرة الحمراء هذه مرض جسماني خطير او متناول : لقد اصابت اعصابي بصدمة ليس غير ، صدمة ما زلت استشعر ترجيعها حتى يوم الناس هذا . اجل ، ايتها السيدة ريد ، انا مدينة لك ببعض غصص الالم العقلي الرهيبة . ولكن علي ان اغفر لك ، ذلك لانك لم تعرفي ما الذي بدر منك : لقد خيل اليك ، وانت تمزقين نياط قلبي ، انك تستأصلين ميولي الرديئة من جذورها ليس غير .

وفي اليوم التالي ، حوالي الظهر ، نهضت من فراشي وارتديت ثيابي ، وجلست متدثرة بشال على مقربة من مستوقد حجرة الاطفال . لقد استشعرت اني واهنة الجسم خائرة القوى ، ولكن اسوأ آلامي انبعثت من كآبة تستعصي على الوصف ، بؤس روحي ما فتى يستل مني دموعا صامتة ، فلا اكاد امسح عن وجنتي قطرة مألحة حتى تعقبها قطرة مألحة . ومع ذلك فقد خيل الي انه كان خليقا بي ان اكون سعيدة ، اذ لم يكن ثمة احد من آل « ريد » . كانوا كلهم قد انطلقوا في العربة مع امهم . وآبوت ايضا كانت تخطط في غرفة اخرى . اما بيبي فكانت تضطرب في ارجاء القصر ، رافعة الدمى المطروحة ههنا وههناك ومرتبة الادراج ، وكانت توجه الي بين الفينة والفينة كلمة حنان غير مألوفة . وكان قمينا بي أن اعتبر هذا الوضع جنة امن وسلام ، اذ كنت قد تعودت من قبل حياة من التوبيخ الموصول والارهاق المحجود . ولكن اعصابي المنهارة كانت الان ، في الواقع ، في حال يعجز ايما هدوء عن تهدئتها ويتعذر على ايما بهجة ان تشيرها على نحو مرغوب فيه .

وكانت بيبي قد هبطت الى المطبخ ثم صعدت حاملة الي كمكة محشوة بالفاكهة على طبق من الخزف الصيني مزدان بصورة مشرقة تمثل عصفورا من عصافير الجنة اتخذ لنفسه من اوراق اللبلاب الملتفة ومن براعم الورد عشا ، طبق كان من دأبه ان يشير في اعجابا حماسيا بالفا جعلني التمس في كثير من الاحيان ان يجاز لي تقليبه بين يدي لكي انعم النظر اليه عن كذب ، ولكنهم اعتبروني دائما غير جديرة بالتمتع بهذا الامتياز .

هذا الطبق النفيس كان قد وضع الان على ركبتني ، وكنت قد دعيت في حرارة الى التهام قرص الحلوى الرقيق ذاك الذي كان متربعا في وسطه .

يا لها من منة عابثة لا طائل تحتها ! منه اقبلت بعد فوات الاوان مثل معظم المنن الاخرى التي يطول ارجاؤها والتي كثيرا ما يتوق المرء اليها . فانا لم نستطع ان آكل الكعكة ، ولقد بدا ريش العصفور والسوان الزهور وكان اشراقها قد خبا على نحو عجيب ، فاقصيت كلا من الطبق والكعكة عني . وسألني ببسي : « هل آتيك بكتاب ؟ » فحدثت لفظة « كتاب » في نفسي مثل اثر المنبه السريع الزوال ، فرجوتها ان تجيئني من المكتبة بـ « رحلات جيلفر » . وكنت قد قرأت هذا الكتاب مرة ومرة في ابتهاج ، واعتبرته حكاية واقعية واكتشفت فيه عرق متعة أقوى من ذلك الذي وجدته في قصص الجن . ذلك باني كنت قد التمسست الجنيات بين اوراق « كف الثعلب » والاجراس ، تحت نبات الفطر ، وفي زوايا الجدران العتيقة التي تحجبها اوراق « عاشق الشجر » \*\*\* حتى اذا ذهب بحني كله ادراج الرياح استسلمت للواقع الاليم وهو انها قد رحلت بقضها وقضيضها عن انكلترة متوجهة الى بلد من البلدان المتوحشة حيث الغابات اشد كثافة وادعى الى الفطرة الهمجية ، وحيث الناس اقل عددا . على حين ان « ليليوت » \*\*\* و « بروبد يغناغ » \*\*\* كانتا ، في اعتقادي ، اجزاء فعلية من سطح الارض ، ولم اشك قط في انه قد يقدر لي ذات يوم ، من طريق القيام برحلة طويلة ، ان ارى بعيني رأسي اقزام احد هذين العالمين ، وحقوله وبيوته واشجاره الصغيرة ، وابقاره واغنامه وطيوره الضئيلة ، وان ارى ثاني هذين العالمين يحقول قمحه السامقة كالغابات ، وكلايه الجبارة ، وقطله العملاقة ، ورجاله ونسائه الضخام كالابراج . ومع ذلك ، فحين وضع هذا المجلد الاثير لدي في يدي ، وحين قلبت صفحاته والتمست في رسومه العجيبة ذلك السحر الذي ما زلت اقع عليه ، حتى الان ، في ثناياه تراهي لي كل شيء مفزعا موحشا ، وتبدى لي العملاقة غيلانا مهازيل ، والاقزام غفاريت صغيرة شريرة رهيبة ، وجيلفر رحالة بائسا تائها في احفل الاصقاع بالرعب والخطر . واغلقت الكتاب ، بعد ان امسيت لا اجرؤ على قراءته . ووضعت على المنضدة الى جانب الكعكة التي لم تمس ولم تذق .

كانت ببسي قد فرغت الان من ترتيب الحجرة ونفض الغبار عن اثائها . حتى اذا غسلت يديها فتحت درجا صغيرا حافلا بقطع نفيسة من الحرير والاطلس وانشأت تصنع طاوية جديدة لدمية جورجيانا . وفي غضون ذلك راحت تتفنى بهذه الاغنية :

« في تلك الايام التي مضينا فيها نضرب في الارض كالنفجر  
وذلك منذ زمن بعيد »

\*\*\* ضرب من النبات \*\*\* نبات متسلق سرمدى الخضرة ذو اوراق براقية .  
\*\*\* جزيرة خيالية تحدث عنها سويغت في كتابه «رحلات» ، وسكانها كلهم من الاقزام (المغرب)  
\*\*\* جزيرة خيالية ايضا ورد ذكرها في «رحلات جيلفر» ، وسكانها كلهم من العملاقة (المغرب)



لقد طالما سمعت هذه الاغنية من قبل ، وسمعتها في ابتهاج غامر دائما ،  
فقد كان لبيسي صوت عذب - في ما كنت احسب ، على الاقل - اما الان ،  
وعلى الرغم من ان عذوبة صوتها لم تفارقه البتة ، فقد وجدت في اغنيتها  
حزنا يستعصي على الوصف . وكانت احيانا تنشد ، وقد استغرقت في  
عملها . « لازمة » الاغنية في اناة بالغة وتمهل مغالى فيه ، فيطلق هذا البيت  
« وذلك منذ زمن بعيد » وكأنه الإيقاع الاحفل بالاسى من ترنيمة جنازية .  
ثم انها انتقلت الى اغنية قصصية ، وكانت اغنيتها هذه المرة حزينة حقا :

« لقد تفرحت قدماي ووهنت ساقاي ،  
ان طريقي لطويلة ، وان الجبال لمقفرة  
ولسوف يطبق الفسق ، عما قريب ، كئيبا لا قمر فيه  
على دروب اليتيم الصغير البائس . »

« لماذا بعثوا بي وحدي الى مثل هذه المطارح النائية ،  
هناك حيث تنبسط الاراضي السبخة وتكدس الصخور الرمادية؟  
ان الناس لغلاظ القلوب ، والملائكة الكرام هم وحدهم الذين  
يرعون خطي اليتيم الصغير البائس

« ومع ذلك فنسيم المساء يهب عليلا نائيا ،  
وقد خلت السماء من السحب وارسلت النجوم الساطعة  
اشعتها الرقيقة . »

ان الله ، ذا الرحمة ، لا يرضن بالحماية والعزاء والامل على  
اليتيم الصغير البائس .

« وحتى ولو قدر علي ، في طريقي ، ان اسقط فوق الجسر المحطم ،  
او اتيه في المستنقعات وقد خدعتني اضاء كاذبة ،  
فان ابي الاله ، سوف يضم الى صدره ،  
في بركة واعدة ، اليتيم الصغير البائس .  
« ان ثمة فكرة توقع في نفسي القوة :  
حتى ولو حرمت المأوى وذوي القربى معا ،  
فالسما ، مثوى ، مثوى لن تعوزني فيه الراحة .  
ان الله صديق لليتيم الصغير البائس . »

وقالت بيسي حين ختمت اغنيتها : « لا ، لا ، يا مس ابير ، لا تبكي ! »  
ولو قد قالت للنار : « لا تضطرمي ! » اذن لكان مطلبها ادنى الى التحقيق .  
ولكن انى لها ان تكتشف بالحدس ذلك الالم السوداوي الذي كنت ضحيته ؟  
وفي الصباح ، وقد مستر لويدي علي كرة اخرى .  
وقال وهو يدخل حجرة الاطفال : « ماذا ؟ مستيقظة في هذه الساعة  
المبكرة ؟ ! حسنا ، ايتها العاضنة ، كيف حالها ؟ »

فاجابته بيسي قائلة ان صحتي تتحسن تحسنا كبيرا .  
- « اذن فقد كان ينبغي ان تبدو اكثر جبورا . تعالي الى هنا ، مس

جين . اسمك جين ، أليس كذلك ؟

« اجل ، يا سيدي ، جين ايير » .

« حسنا ، لقد كنت منخرطة في البكاء يا مس جين ايير . فهل تستطيعين ان تنبئيني بالسبب الذي حملك على ذلك ؟ هل تشكين الما ما ؟ »  
« لا ، يا سيدي » .

وهنا سارعت بييسي الى القول : « اوه ! في استطاعتي ان اقول انها تبكي لانها لم تستطع ان ترافق سيدتي في العربة » .

« لست اظن ذلك البتة . فهي في سن تربا بها عن مثل هذا النكد » .  
« وكان هذا هو اعتقادي انا ايضا . واذ جرح احترامي الذاتي بهذه التهمة الباطلة فقد سارعت الى الاجابة : « انا لم ابك قط لشيء مثل هذا في حياتي كلها . انا اكره التنزه في العربة . انني ابكي لاني فتاة بائسة » .  
فالت بييسي : « اوه ، تبا لك ايها الانسة ! »

وبدا الصيدلي الصالح مشدوها بعض الشيء . كنت واقفة امامه ، فركز عينيه علي تركيزا موصولا ، وكانت عيناه صغيرتين رماديتين ، غير شديدتي البريق ، ولكن في ميسوري ان اقول ، لو رأيتهما الان ، انهما تموران بالذكاء . وكان وجهه صارم الاسارير ولكنه مع ذلك راسخ بدماثة الخلق . حتى اذا انعم النظر في وجهي مليا ، قال : « ما الذي الزمك فراش المرض امس ؟ »

فالت بييسي مقحمة نفسها ، كرة اخرى ، في الحديث : « لقد وقعت على الارض » .

« وقعت على الارض ؟ وهذا من شيم الاطفال ايضا ! اليسست قادرة ، وقد بلغت هذه السن ، على المشي في اتران ؟ لا ريب في انها قد بلغت ربيعها الثامن او التاسع » .

وكان في هذه الطعنة الجديدة لغروري الذاتي ما اطلق لسانني بهذا التفسير الفظ : « لقد اوسعوني ضربا حتى سقطت مفشيا علي » . ثم اضفت بينا كان مستر لويد يحشو انفه بقبضة من سعوط : « ولكن ذلك لم يكن هو علة مرضي » .

وفيما كان يعيد العلبة الى جيب صدرته قرع جرس صارخ يؤذن بأن موعد غداء الخدم قد حان . ولم يكن ذلك الجرس غريبا على مستر لويد ، فقال : « هذا لك ، ايها الحاضنة » . في استطاعتك ان تنزلي . سوف اعطي مس جين بعض العظاات ريشا ترجعين » .

ولو قد كان الامر بيد بييسي اذن لآثرت البقاء ، ولكنها كانت مضطرة الى الانصراف لان تناول وجبات الطعام في مواعيدها كان قاعدة تطبق فسي قصر غايتسهيد تطبيقا صارما .

واردف مستر لويد حين مضت بييسي لسبيلها : « ان الوقعة لم تكن هي علة مرضك . حسنا ، فما الذي الزمك فراش المرض اذن ؟ »

- « لقد حجزوني في حجرة كان فيها شبح . حجزوني الى ما بعد العتمة . »

ورأيت مستر لويد يبتسم ويقطب في آن معا . وقال : « شبح ! ولكنك طفلة برغم كل شيء ! اتخافين الاشباح وقد بلغت هذه السن ؟ »

- « اجل ، انا اخاف شبح مستر ريد ، فقد توفي في تلك الحجرة ، وسجى هناك . وبيسي نفسها ( وكل امرئ اخر ) تخشى الدخول اليها ليلا وتتمنى ان لا تضطر الى ذلك ابد الدهر . ولقد كان حجزني هناك وحدي ، ومن غير ما شمعة ، عملا وحشيا - وحشيا الى درجة يخيّل الي معها اني لن انساه ما حييت . »

- « هراء ! أهذا ما يجعلك بائسة الى هذا الحد ؟ هل تستشعرين ، الان ، خوفا ما في وضع النهار ؟ »

- « لا . ولكن الليل سوف يهبط كرة اخرى ، عما قريب ، والى هذا ، فاني غير سعيدة ، غير سعيدة الى حد بعيد ، لاسباب اخرى . »

- « ما هي هذه الاسباب الاخرى ؟ هل لك ان تنبئيني ببعضها . »

لشد ما تمنيت لو اجيب عن هذا السؤال اجابة وافية ! ولشد ما كان عسيرا علي ان اصوغ جوابا ما ! ان في استطاعة الاطفال ان يحسوا ، ولكن ليس في استطاعتهم ان يحلّلوا احساسهم . وحتى لو وفقوا الى اجراء ذلك التحليل ، في الذهن ، اجراء جزئيا فانهم يظلون عاجزين عن التعبير عن نتيجة تلك العملية في كلمات . بيد اني خشيت ان اخسر هذه الفرصة الاولى والوحيدة للتنفيس عن كربتي من طريق الافضاء بها ، فحاولت جاهدة ، بعد شيء من الروية المضطربة ، ان اصوغ جوابا هزيبا ناقصا ، ولكنه برغم ذلك حقيقي .

لقد قلت : « اولاً ، لانه لا اب لي ولا ام ، ولا اخوة ولا اخوات . »

- « ولكن لك امرأة خال كريمة وابناء خال كراما . »

وكبحت جماح نفسي كرة اخرى ، ثم اعلنت في ارتباك وخرق :

- « ولكن جون ريد اوسعني ضربا حتى الاعماء ، وامرأة خالي حجزتني في الحجرة الحمراء . »

وكرة اخرى اخرج مستر لويد غلبة السعوط من جيب صدرته . ثم

سألني : « الا تعتقدين ان قصر غايتسهيد موطن بارع الجمال ؟ الا

تحمدين الله حمدا كثيرا على ما اتاح لك من نعمة العيش في مثل هذا

البيت الرائع ؟ »

- « انه ليس بيتي ، يا سيدي . وآبوت تقول ان حقي في العيش هنا

اقل من حق خادمة . »

- « بوه ! انك لا يمكن ان تكوني من السخف بحيث تتمنين مفادرة

مثل هذا البيت البهي ؟ »

- « لو كان لي بيت اخر افزع اليه اذن لكان خليقا بي ان ابتهج

بمفادرة هذا القصر . ولكنني لن أوفق الى الرحيل عن غايتسهد حتى ابلغ مبلغ النساء .

- « لعلك ان توفيقي . . من يدري ؟ الك انسباء اخرون غير مسز ريد ؟ »

- « لست اظن ذلك ، ياسيدي . »

- « اليس لك عمومة او ابناء عمومة ؟ »

- « لست ادري . لقد سألت مسز ريد ، مرة ، فكان جوابها ان من

الجائز ان يكون لي انسباء فقراء حقيرون يدعون باسم « ايير » ولكنها لم تكن تعرف عنهم اي شيء . »

- « لو صح ان لك مثل هؤلاء الانسباء فهل تحدثك نفسك في الماضي

اليهم ؟ »

ورحت افكر . ان الفقر ليبدو في اعين الكبار كالحج الوجه بشما ، ولكنه في اعين الاطفال اشد كلوحا واعظم بشاعة : فالاطفال لا يفهمون ما قد ندعوه الفقر الكادح ، العامل ، ذا المظهر اللائق او المقبول . انهم لا يتصورون هذه الكلمة الا مقرونة بالاسمال البالية ، والطعام النزر ، والمواقد التي لا نار فيها ، والمسالك الشرسة ، والرذائل التي تحط من قدر اصحابها . ومن هنا كان الفقر عندي مرادفا للخزي .

واجبت : « لا . انا لا احب ان احيا مع اناس فقراء . »

- « حتى ولو عاملوك بلطف واحسان ؟ »

فهزئت برأسي . فلم يكن في وسعي ان افهم كيف يستطيع الفقراء ان يصطنعوا اللطف والاحسان . وفوق هذا فالحياة مع الفقراء تقتضي ان اتعود الكلام مثلهم ، ان اقتبس عاداتهم ، ان احرم التربية والثقافة ، ان انشأ مثل واحدة من النسوة الفقيرات اللواتي كنت اراهن احيانا يرضعن اطفالهن او يفسلن ثيابهن لدى ابواب الاكواخ في قرية غايتسهد . لا ، انا لا املك من البطولة ما يجعلني اشترى الحرية بهذا الثمن الباهظ : الذل والهوان .

- « وهل هم فقراء الى هذه الدرجة ؟ هل ينتسبون الى طبقة العمال ؟ »

- « لا يستطيع ان اجيب على وجه انضبط . ان امرأة خالي ، « ريد » ،

تقول : اذا كان لي انسباء فلا ريب في انهم جهمرة من الشحاذين . ولست احب ان اضرب في الارض مستندية اكف المحسنين . »

- « اتحبين ان تذهبي الى المدرسة ؟ »

واستغرقت في التفكير كرة اخرى . كنت لا اكاد اعرف ما المدرسة . فقد كانت بيستي تتحدث عنها في بعض الاحيان بوصفها مكانا تجلس فيه السيدات الصغيرات على مقاعد شبيهة بالادهاق ، ويحملن على ظهورهن الواحا خشبية صغيرة ابتغاء تقويم جلستهن ، مكانا يفترض في نزلاته ان

يكن في غاية الاناقة والدقة . كان جون ريد يمقت مدرسته ويشتم استاذة ، ولكن ذوق جون ريد لم يكن عندي قاعدة واجبة الاتباع . واذا كانت روايات بيسي عن النظام المدرسي القاسي ( وهي روايات جمعتها من افواه فتيات احدى الاسر العريقة التي عملت في خدمتها قبل وفودها الى غايتسهيد ) اقول اذا كانت هذه الروايات مرعبة بعض الشيء ، فقد بدا من ناحية ثانية ان احاديثها عن البراعات التي اكتسبتها هاتيك الفتيات انفسهن ، وخاصة في حقل الحياة الاجتماعية ، كانت مغرية على قدر متكافئ . كانت بيسي تظهر اعتزازها باللوحات الزيتية الجميلة التي رسمتها اناملهن ، وهي لوحات تمثل مشاهد طبيعية وازهارا ، وبالاغاني التي كان في مسورهن ان يغنينها ، والقطع الموسيقية التي كن قادرات على عزفها ، والجزادين التي كان في امكانهن ان يجبنكها ، والكتب الفرنسية التي استطعن ان يترجمنها ، حتى لقد اغريت فيما كنت استمع الى حديثها بان احاول منافستهن في ذلك . اصف الى هذا ان المدرسة كان خليقا بها ان تعني ، بالنسبة الي ، تغييرا جذريا : فقد كانت تنطوي على رحلة طويلة ، وعلى انفصال كامل عن غايتسهيد ، وعلى شروع في حياة جديدة .

وكانت النتيجة المسموعة لاستغراقي في التفكير قولي : « يخيّل الي ، في الحق ، اني اتمنى لو اذهب الى المدرسة » .

فقال مستر لويد وهو ينهض : « حسن ، حسن ، من ذا الذي يدري ما قد يحدث » . ثم اضاف مخاطبسا نفسه : ان الطفلة لفي حاجة الى تغيير الهواء والبيئة . فأعصابها ليست في حالة جيدة » .

ورجعت بيسي . وفي اللحظة نفسها سُمعت العربية تدرج على حصباء المجاز .

وسألها مستر لويد : « أهذه مولاتك ، ايها الحاضنة ؟ اني لاحب ان اتحدث اليها قبل ان امضي لسبيلي » .

ودعته بيسي الى المضي نحو حجرة الفطور ، وتقدمته اليها . وفي المقابلة التي جرت بعد ذلك بينه وبين مسز ريد غامر الصيدلي - على ما بدا لي من بعض احداث الايام التالية - فأوصى السيدة بارسالي الى المدرسة ، فتقبلت وصيته هذه قبولا حسنا ، من غير ريب ، بدليل اني سمعت آبوت تقول ، فيما كانت تتحدث مع بيسي في هذا الموضوع بينا كانتا تخططان في حجرة الاطفال ، دات ليلة ، بعد ان اويت انا الى فراشي وخيل اليهما اني مستغرقة في النوم : « نعم ابتهجت مولاتي ابتهاجا غير يسير بهذه الفكرة ، لما تتيحه لها من الحس من مثل تلك الطفلة المتعبة القليلة التهذيب ، التي تبدو ابدا وكأنها ترقب الناس جميعا ، وتحرك المؤامرات في الخفاء » . ويخيّل الي ان آبوت اعتبرني ، في وصفها هذا ، نسخة طفلية عن « غاي فوكس » ❀

وفي تلك المناسبة نفسها عرفت ، للمرة الاولى ، مما افضت به مس آبوت الى بيبي ، ان ابي كان قسا فقيرا ، وان امي كانت قد تزوجت منه مخالفة في ذلك رغبات اصدقائها الذين اعتبروا انها اختارت لنفسها زوجا ليس لها بكفؤ ، وان تمردها اثار غضب جدي الى حد حمله على ان يحرمها في وصيته من وراثة شلن واحد ، وانه لم تكد تنقضي سنة واحدة على زواجها من ذلك القس ، ابي ، حتى اصيب بالتيفوس بينما كان يقوم بزيارة الفقراء في مدينة صناعية كبرى كانت مقر خورنيته ، مدينة كان ذلك الداء قد تفشى آنذاك فيها ، وان امي ما لبثت ان اصببت هي الاخرى بالتيفوس ، بعد ان اعداها ابي ، وانهما ماتا كلاهما اخر الامر في موعدين متقاربين ليس يفصل ما بينهما غير شهر واحد .

وحين سمعت بيبي هذه القصة تنهدت وقالت : « ومس جين المسكينة جديرة بأن يرتى لحالها ، ايضا ، يا آبوت ، » .

فاجابت آبوت : « لو كانت طفلة مهبدة جميلة اذن لكان في يتمها ما يثير الشفقة في نفس المرء . ولكن المرء لا يستطيع ، في الحق ، أن يكلف بضدعة صغيرة مثلها » .

فاقرتها بيبي على ذلك قائلة : « اجل ، ليس في استطاعة المرء ان يكلف بمثلها كثيرا . ذلك امر لا ريب فيه . وعلى اية حال ، فان فتاة بارعة الجمال مثل مس جورجيانا خليك بها ان تكون اقدر على انتزاع العطف لو اكتفتها ظروف مماثلة » .

فصاحت آبوت الغيور : « اجل ، انا متيمة بمس جورجيانا ! جورجيانا الحبيبة الصغيرة ، بشعرها الاجعد الطويل ، وعينيها الزرقاوين ، وذلك اللون العذب الذي تزهو به بشرتها . لكانها لوحة رسمتها ريشة فنان ! بيبي ، انا اشتهي أن أعشى المينة ارنبا من ارانب ويلز » .

« وكذلك انا . ارنبا مع بصل مشوي . هيا . فلننزل » ، وغادرتا الحجرة .

## ٤

من حديثي مع مستر لويد ، ومن الحوار الذي دار بين بيبي وآبوت والذي اوردته في الفصل السابق انتزعت مقدارا من الامل كافيا لحلمي على تمنى الشفاء والسعي بسبيله . لقد تراءى لي ان الايام القريبة التالية سوف تجود علي بتغير محمود ، فاخذني الشوق الى ذلك ورحلت انتظره في صمت . بيد انه تباطأ . فقد تصرمت ايام واسابيع ، واستعدت عافيتي ، ولكن ايما تلميح جديد الى الموضوع الذي كنت اطلل التفكير فيه لم يصدر عن احد من سكان القصر . كانت مسز ريد تهتم النظر الي ، في بعض الاحيان ، بعين قاسية ولكنها نادرا ما كانت توجه الخطاب الي . كانت منذ مرضتي قد

جعلت الخط الفاصل بيني وبين اولادها اعرض واعمق منه في اياما وقت مضى . لقد افردت لي حجرة ضيقة انام فيها متوحدة واصدرت حكمها علي بان اتناول الطعام على انفراد ، وان اقضي وقتي كله في حجرة الاطفال ، علي حين كان اولاد خالي لا يكادون يفارقون حجرة الاستقبال . وايا ما كان ، فانها لم تلمع ولو الماعة يسيرة الى موضوع ارسالي الى المدرسة . ومع ذلك فقد خامرني يقين غرزي انها لن تحتل بقائي معها ، فترة طويلة ، تحت سقف واحد . ذلك بان نظراتها انتهت الان الى ان تصبح ، كلما وجهت الي ، حافلة بمقت لم تعرف مثله من قبل مناعة وعمق جذور .

واخذت اليزا وجورجيانا تقتصدان في حديثهما معي جهد الطاقة ، وكان واضحا انهما انما تلتقا الامر بذلك من أهمها . وراح جون يتهم علي كلما رأيته ، ولقد حاول ذات مرة ان يعاقبني بالضرب ، حتي اذا انقضضت عليه في الحال - يحدوني الغيظ العميق والتمرد اليائس نفسيهما اللذان اثاراني من قبل - وجد ان من الخير له ان يحجم عما هم به وانشأ يعدو مطلقا اللعنات ، مقسما انني قد هشمت انفه . والحق اني كنت قد سددت الى انفه البارز ذاك ضربة افرغت فيها كل ما في جُمع كفي من قوة . وحين رأيت ان هذه الضربة ، او نظرتي الضارية ، قد اربعته ، مالت نفسي اعظم الميل الى اللحاق به والافادة الى ابعد حد من الضعف الذي تكشف عنه ، ولكنه كان قد امسى الان بين يدي امه . وسمعتة وقد بدأ يقص عليها ، في صوت ناشج ، كيف وثبت « جين اير القذرة » عليه مثل قطعة مسعورة . ولكن امه صدته عن سبيله في شيء من القسوة : - « لا تتحدث الي عنها يا جون . لقد قلت لك ان لا تدنو منها . انها غير جديرة بان يلتفت المرء اليها . انا لا اريد ان اراك او ان ارى شقيقتيك تعاشرونها . »

عندئذ صحت فجأة ، وقد اتكأت على درابزون السلم ، من غير ان افكر في كلماتي اقل تفكير :

- « انهم ليسوا اهلا لمعاشرتي . »

كانت مسر ريد امرأة ضخمة هي الى البسدانة اقرب منها الى الهزال ، ولكنها ما ان سمعت هذا الاعلان الغريب الوقع حتى راحت ترتقي السلم في خفة ، وجرفتني في عنف ، وكأنها زوبعة ، اتي حجرة الاطفال ، ثم طرحتني على حافة سريري ، وتحدثني في صوت جازم ان انهض من ذلك الموضع او انطق بمقطع من كلمة بقية ساعات النهار بطولها .

- « اي شيء كان خليقا بخالي ريد ان يقوله لك لو كان حيا يرزق ؟ ذلك كان سؤالي الذي انطلق من بين شفتي على نحو كاد ان يكون غير ارادي . اقول : « كاد ان يكون غير ارادي » لان لساني . في ما بدا لي ، نطق بتلك الكلمات من غير ان توافق ارادتي على ارسالها . كانت قوة ما ، ليس لي عليها اي سلطان ، هي التي اتخذت من لساني وسيلة للتعبير . »

وفالت مسر ريد في همس : « ماذا ؟ » وفجأة بدت عيناها الرماديتان

وكان شيئا كالخوف قد عكر عليهما هدوءهما واطمئنانهما المألوفين . وافلتت ذراعي ، وحدقت الي وكأنها لم تدر ، حقا ، طفلة انا أم عفريته . ولكنني كنت الان قد تورطت .

« ان خالي يريد هو الان في السماء ، وانه لقادر على ان يرى كل ما تفعلينه وتفكرين فيه . وكذلك شأن ابي وامي . انهم يعرفون كيف حبستني طوال النهار ، وكيف تتمنين لي الموت . »

وسرعان ما استعادت مسز ريد شجاعتهما ، فهزتني اعنف ما يكون الهز ، ولطمتني على اذني الاثنتين ، ثم تركتني من غير ان تنبس ببنت شفة . فما كان من بيبي الا ان ملأت ذلك الفراغ بموعظة طويلة استغرقت ساعة اثبتت فيها بما لا يحتمل الشك اني طفلة شريرة لم يظَل اي سقف من السقوف اردأ منها ولا أعرق في الفساد . وصدقتها بعض الشيء ، ذلك بأنني في الواقع لم أكن احس بغير المشاعر الطالحة تصطبخ في صدري .

وتصرم تشرين الثاني ( نوفمبر ) وكانون الاول ( ديسمبر ) ووصف كانون الثاني ( يناير ) . واحتفل بعيدي الميلاد ورأس السنة في قصر غايتسهيده بمثل الابتهاج الفامر الذي تعودت الاسرة ان تستقبل به هذين العيدين كل عام . وكانت الهدايا قد تبودلت ، والموائد قد اقيمت ، والسهرات قد احييت . وكنت قد اقصيت ، طبعا ، عن كل من تلك المباحج : ان نصيبي من الاستمتاع اقتصر على مشاهدة اليزا وجورجيانا تتخذان زينتتهما كل يوم ، ورؤيتهما تهبطان الى حجرة الاستقبال ، رافلتين بفستانين حريريين رقيقين وزنارين قرمزيين ، وقد عقص شعرهما حلقات حلقات في عناية بالغة ، ثم على الاستماع الى البيانو او القيثارة يعزف عليهما في الدور الارضي ، وعلى تأمل الساقى والخدام وهما يذرعان المكان جيئة وذهويا ، وعلى الاصاخة الى اصطفاق الانية الزجاجية والخزفية عند تقديم المرطبات والى مهمة الحديث المنقطعة كلما فتحت ابواب حجرة الاستقبال واوصدت . حتى اذا مللت هذه المهمة انسحبت من قمة السلم الى حجرة الاطفال المعزولة الصامتة ، وهناك لم اكن استشعر ، رغم ما كان يلم بي من حزن طفيف ، اني بائسة . والحق انني ما كنت اهفو الى الاختلاط بالقوم قط ، اذ كان وجودي الى جانبهم لا يلفت انظارهم نحوي الا نادرا . ولو كانت بيبي دمثة الخلق حلوة المعاشرة اذن لاعتبرت قضاء السهرة معها ، في هدوء ، متعة من المتع ، ولآثرت ذلك على قضائها تحت ناظري مسز ريد الرهيبيين في حجرة تفص بالسيدات والرجال . ولكن بيبي كانت لا تكاد تتم لباس سيدتيها الصغيرتين حتى تهرع الى المطبخ والى حجرة مدبرة المنزل - وهما موطنان حافلان بالحيوية والنشاط - حاملة معها الشمعة عادة . وهكذا قعدت ، عندئذ ، ووضعت ديمتي على ركبتي ، حتى اخذت نار الموقد في الخمود ، مجيلة الطرف في ما حولي ، بين الفينة والفينة ، لكي استيقن ان الحجرة المظلمة لا تنطوي على احد غيري . وحين خبا



وهج الجمرات خلعت ثيابي في سرعة ، ناثرة العقد والخيوط كيفما اتفق ، وفزعت الى سريري الصغير اتقي فيه البرد والظلام . والى هذا السرير كنت احمل دميتي دائما ، فالكائنات البشرية يجب ان تحب شيئا ما ، واذ عدمت ما هو اجدر بحبي فقد بذلت غاية الجهد لكي اجد متعة ما في حب هذه اللعبة الناصلة ، الوسخة مثل نطار \* قزم . ويذهلني الان ان اتذكر باي اخلاص سخيف تدلهمت بتلك الدمية الصغيرة متصورة ، او اكاد ، انها ذات حياة وقادرة على الاحساس . كانت عيناى لا تعرفان الغمض الا اذا دثرتها بقميص نومي . حتى اذا اضطجعت هناك آمنة دافئة استشعرت بعض السعادة ، متوهمة انها سعيدة هي الاخرى .

وبدت الساعة التي انتظرت ، خلالها ، انصراف الضيوف طويلة الى ابعد الحدود ، واصغيت الى وقع قدمي بييسي على السلم . فقد كانت احيانا تصعد الى الدور العلوي ، اثناء فاصل ما ، لكي تبحث عن كشتبانها او عن مقصها ، او ربما لكي تحمل الى على سبيل العشاء - كعكة منظوية على فاكهة مجففة او قطعة كاتو بالجبن - ثم تجلس على السرير ريثما آكلها . حتى اذا فرغت من ذلك احكمت تغطيتي بالبطانية وطبعت على جبيني قبلتين وقالت : « طابت ليلتك ، يا مس جين . » والحق ان بييسي كانت تبدو في عيني ، كلما اصطنعت اللطف على هذا النحو ، خير المخلوقات كلها واجملها واكرمها نفسا . وكنت اتمنى ، في كثير من الحرارة ، لو تأخذ دائما باسباب المودة واللطف ، ولو تقلع عن دفعي في قسوة وعنف ، او عن انتھاري او عن توبيخي لغير ما سبب كما كان من دأبها ان تفعل . ويخيل الي ان « بييسي لي » كانت : من غير ريب ، فتاة ذات مقدرة فطرية غير يسيرة ، اذ كانت تجيد كل ما تنهض به من عمل ، وتتمتع بموهبة رائعة في رواية الحكايات ، او هذا على الاقل ما استنتجته من الانطباع التي خلفتها في نفسي حكاياتها في حجرة الاطفال . وكانت وسيمة ايضا ، اذا صحت الصورة التي اتمثلها الان لوجهها وجسمها . اني اراها بعيني ذاكرتي شابة ممشوقة القوام ذات شعر اسود ، وعينين داكنتين ، وقسمات فاتنة ، وبشرة رقيقة صافية . ولكنها كانت نزقة متقلبة الاطوار سريعة الانفعال ذات آراء تنم عن اللامبالاة بكل ما يتصل بالعدالة او بالمبدأ . ومع ذلك فقد آثرتها ، على علاتها هذه ، على ايما امرى آخر في قصر غايتسهيد .

نحن الان في اليوم الخامس عشر من كانون الثاني ( يناير ) ، حوالي الساعة التاسعة صباحا . كانت بييسي قد هبطت الى الدور الادنى لتناول طعام الصباح ، وكان اولاد خالي قد دعوا للمشول بين يدي امهم ، وكانت اليزا منهمكة في الاعتماد بطاقيتها وارنداء معطفها الثقيل ، المخصص لفترة العمل في الحديقة ، لكي تلقي الحب الى الدجاج ، وهي مهمة كانت بها مولعة .

النطار : ( بضم النون ) الخيال المنسوب بين الزارع .

ولم يكن ولوعها هذا ، على اية حال ، باعظم من ولوعها ببيع البيض لمديرة شؤون المنزل وادخار المال الذي تكسبه على هذا النحو . كانت ذات ميل الى المتاجرة ، ونزوع خاص الى التوفير والاقتصاد . ولم يتجمل ذلك ببيع البيض والدجاج فحسب بل بالمساومات المتطاولة التي تجريها مع الجنائني حول جذور الازهار وبذورها وشتلاتها ، بعد ان اصدرت مسز ريد اوامرها الى هذا الخادم بأن يشتري من تلك السيدة الصغيرة كل ما رغبت في بيعه من نتاج حديقها الصغيرة . ولقد كانت اليزا لا تجد غضاضة في بيع شعر رأسها اذا ما عاد عليها ذلك بربح حسن . اما اموالها فكان من دأبها بادئ الامر ان تخبئها في هذه الزاوية او تلك ، او تلفها في خرقة بالية او في قصاصة عتيقة من السورق الخاص بعقص الشعر وتجعيده . حتى اذا اكتشفت مديرة المنزل هذه المدخرات خشيت اليزا ان تخسر كنزها النفيس في يوم من الايام ، فوافقت على ايداعه خزانة امها متقاضية على هذه الوديعة ربا فاحشا - خمسين في المئة او ستين في المئة - وهو ربا كانت تأخذه عنوة مرة كل ثلاثة اشهر ، مدونة حساباتها في سجل صغير بدقة لاهفة .

وكانت جورجيانا قاعدة على كرسي عال لا ظهر له تسرح شعرها امام المرأة ، شابكة في خصلاته المعقوصة زهورا صناعية وريشا ناصلا كانت قد عثرت على ذخيرة منه في درج من ادراج العلية . وكنت انا ارتب سريري بعد ان تلقيت من بيبي اوامر صارمة بانجاز هذه المهمة قبل عودتها ( ذلك بان بيبي كانت قد شرعت الان تستخدمني ، بين الفينة والفينة ، كحاضنة مساعدة ، فتعهد الي في تنظيف الغرفة وترتيبها ونفض الغبار عن الكراسي الخ ) حتى اذا بسطت اللحاف وطويت قميص نومي تقدمت نحو المقعد المجاور للنافذة لارتب بعض كتب الصور واثاث منزل اللعبة المتناثر هناك . ولكن امرا مفاجئا من جورجيانا بان ادع لعبها وشأنها ( فقد كانت الكراسي والمرايا الصغيرة ، والاطباق والكؤوس الجنية ملكا لها ) صدني عما كنت بسبيله . واذ لم تكن لدي اية مهمة اخرى اخذت انفخ على « زهرات الصقيع » التي كانت تكتنف النافذة ، وبذلك جعلت جزءا من زجاجها شفافا اطل منه على حديقة القصر ، حيث كان كل شيء ساكنا متحجرا تحت وطأة صقيع قاس .

كانت هذه النافذة تطل على كوخ البواب وطريق العربات . ولم اكد اذيع جانبا من الحجاب المضي الابيض المسدل على الالواح الزجاجية حتى رايت الباب يفتح على مصراعيه وعربة تدرج من خلاله . وفي لامبالاة رحت اراقبها وهي تصعد في المجاز . فقد كانت العربات كثيرا ما تفد على قصر غايتسهيد ، ولكن ايا منها لم تحمل قط زائرين يمكن ان يثيروا اهتمامي . ووقفت العربة ازاء المنزل ، ورن جرس الباب رنيننا صارخا ، وادخل الوافد الجديد . واذ لم يعن ذلك كله شيئا عندي فان انتباهي الخلي ما لبث ان وجد متعة أحفل بالحيوية في مشهد هزاز ( أو ابي حناء ) صغير جائع أقبل يفرد على افنان شجرة كرز عريت من اوراقها ، شجرة كرز مسمرة الى الجدار قرب

**النافذة .** وكانت بقايا فطوري المؤلف من الخبز والحليب مطروحة على المائدة، فانقلبت اليها ورحت افنت كسرة من خبز . وفيما كنت انتر مصراع النافذة الزجاجي لكي اضع الفتات على عتبة النافذة الخارجية صعدت بيبي السلم رقبا ودخلت على حجرة الاولاد قائلة : « مس جين ، اخلي مئزرك ! ما الذي تفعلينه هناك ؟ هل غسلت يديك ووجهك هذا الصباح ؟ »

ونترت المصراع فترة اخرى قبل ان اجيب ، ذلك باني اردت ان اري الهزار وقد فاز بخبزه . وارتفع المصراع بعد لاي ، ونثرت الفتات للهزار - فاما بعضه فعلى العتبة الحجرية واما بعضه الاخر فعلى غصن شجرة الكرز الرئيسي - ثم اغلقت النافذة واجبت : « لا ، يا بيبي ، لقد فرغت اللحظة من نفص الغبار . »

- « اية فتاة متعبة مهمة انت ! ما الذي تفعلينه هنا ؟ ان الدم ليشيع في وجهك وكانك على وشك ان تقترفي حماقة ما . لاي سبب كنت تفتحين النافذة ؟ »

وكفيت مؤونة الاجابة ، ذلك بان بيبي كانت عجلت على نحو بالغ لا يعجز لها الاستماع الى اي تفسير . لقد جرتني الى المفصلة وراحت تفرك وجهي ويدي ، على نحو لا يرحم ولكنه لحسن الطالع موجز ، بالصابون والماء وبمنشفة خشنة . وسوت شعري بفرشاة قاسية ، وجردتني من مئزري ، ثم دفعتني امامها الى اعلى السلم ، وامرتني بان اهبطها في الحال ، اذ ثمة من ينتظرني في حجرة الفطور .

وكنت اود ان اسأل من الذي ينتظرني ؟ واسأل هل كانت مسز ريد هناك ؟ ولكن بيبي كانت قد انصرفت ، وكانت قد اوصدت باب حجرة الاولاد خلفي . وهبطت السلم في اناة . فمئذ ثلاثة أشهر تقريبا لم ادع للمشبول بين يدي مسز ريد . وكان في اقامتي الجبرية ، فترة غير يسيرة ، في حجرة الاطفال ، ما جعل حجرة الفطور وحجرة الغداء وحجرة الاستقبال مواطن رهيبة عندي ، مواطن يقع الدخول اليها رعدة في اوصالي كلها .

وانتهيت الى الرواق الخالي . كان باب حجرة الفطور تجاهي ، ووقفت ثمة مرتجفة مخلوعة الفؤاد . اي جبانة صغيرة بائسة كان الخوف - الناشء عن العقوبة الظالمة - قد جعل مني في تلك الايام ! لقد خفت ان ارجع الى حجرة الاولاد ، وخفت ان امضي قدما الى حجرة الاستقبال . وانفتحت عشر دقائق واقفة يتجاذبني تردد منفعل . ولكن رنين جرس غرفة الفطور العنيف وضع حدا لترددي : لقد تعين علي ان ادخل .

وسألت نفسي فيما كنت ادير بيدي مقبض الباب القاسي الذي قاوم جهودي ثانية او ثاينتين : « من عساه يرغب في رؤيتي ؟ ومن الذي سوف يقدر لي أن اراه ، بالاضافة الى امرأة خالي ريد ، في الحجرة ؟ أرجل هو أم امرأة ؟ » ودار المقبض ، وانفتح الباب ، ودخلت محيصة بانحناء مغالي فيها . ولم اكد ارفع رأسي حتى وقعت عيناى على ... عمود اسود ! هكذا

على الأقل بدا لي ذلك الشكل المستقيم ، الضيق ، المتشعب بالسواد ، المنتصب على السجادة . كان الوجه الكالح الذي في اعلى ذلك العمود اشبه بقناع منحوت ، وضع هناك ليقوم منه مقام التاج .

كانت مسز ريد تشغل مقعدها المألوف الى جانب نار المستوقد . واومات الي ان أدنو . ودنوت ، فقدمتني الى الشكل الغريب الجامد كالتمثال : « هذه هي الفتاة الصغيرة التي طلبت مساعدتك بشأنها . »

وادار الرجل رأسه في اناة - فقد كان صاحب ذلك الشكل رجلا - الى حيث كنت واقفة ، حتى اذا انعم النظر في بعينه الفضوليتين الرماديتين اللتين تألفتا تحت حاجبين اثنيين قال في وقار بصوت خفيض : « انها قصيرة القامة . ما عمرها ؟ »

« عشر سنوات . »

فكان الجواب المثلث بالشك : « عشر سنوات ؟ » وأطال تأمله في بضع دقائق . وسرعان ما وجه الي الخطاب التالي قائلا : « ما اسمك ايها الفتاة الصغيرة ؟ »

« جين ايير ، يا سيدي . »

ورفعت بصري وانا انطق بهذه الكلمات . لقد بدا لي رجلا فارغ الطول ، ولكن ينبغي ان لا ننسى انني كنت آنذاك ضئيلة الجسم الى حد بعيد . كانت قسما وجهه ضخمة ، وكانت هي وجميع خطوط جسمه قاسية ودقيقة .

« حسنا ، يا جين ايير ، وهل انت فتاة عاقلة ؟ »

واذ كان من المتعذر علي ان اجيب عن هذا السؤال بالاجاب - بسبب من ان عالمي الصغير كان له في ذلك رأي مخالف - فقد اعتصمت بالصمت . واجابت مسز ريد نيابة عني بهزة من رأسها ذات مغزى لتضيف في الحال قائلة : « يخيّل الي انه كلما اختصرنا في الكلام على هذا الموضوع كان ذلك خيرا وابقى ، يا مسز بروكلهورست . »

« انا آسف حقا لسماع ذلك ! ولكن من واجبي ان اتحدث اليها حديثا ما . »

« وانحنى عن خطه العمودي واستوى على الكرسي ذي الذراعين ، قبالة مسز ريد ، وقال لي : « تعالي الى هنا . »

وخطوت عبر السجادة ، فواقفني امامه وجها لوجه . ويا لذلك الوجه الذي كان له ، بعد ان امسى في مستوى بصري تقريبا ! اي أنف ضخمة ! اي وجه ! اية اسنان كبيرة ناتئة !

واستهل حديثه بالقول : « ليس ثمة مشهد ادعى الى الحزن من طفل مشاغب مكر ، وبخاصة اذا كان هذا المشاغب الماكر بنتا صغيرة . هل تعلمين الى اين يذهب الاشرار بعد الموت ؟ »

فكان جوابي المباشر المنسجم مع المعتقد الديني : « انهم يذهبون الى جهنم . »

- « وما هي جهنم ؟ هل تستطيعين ان تقولي لي ما هي ؟ »

- « هاوية ملأى بالنار . »

- « وهل تحبين ان تسقطي في تلك الهاوية ، وان تحترقي هناك الى

الابد ؟ »

- « لا ، يا سيدي . »

- « وما الذي يتعين عليك ان تفعليه لتلافي ذلك ؟ »

رفكرت لحظة . وكان جوابي ، حين وفقت الى الاجابة ، موضح

اعتراض : « يجب ان احتفظ بعافيتي وان لا اموت . »

- « ولكن اني لك ان تحتفظي بعافيتك ؟ ان الموت يخطف كل يوم اطفالا

اصغر منك سنا . ولقد دفنت منذ يوم او يومين ليس غير طفلا صغيرا في

الخامسة - طفلا صغيرا صالحا تقيم روحه الان في السماء . والذي اخشاه

ان لا يكون في مقدوري ان اقول الشيء نفسه عنك لو توفاك الله اليه . »

واذ كنت في حال لا تساعدني على تبديد شكوكه فقد اجتزأت بخفض

بصري الى القديمين الضخمتين المسمرتين الى السجادة ، وتنهدت ، متمنية لو

كنت بعيدة عن ذلك المكان .

- « ارجو ان تكون زفرتك هذه صادرة من القلب ، وان تكوني قد ندمت

على ما سببت لولية نعمتك الكريمة من ازعاج . »

فقلت في ما بيني وبين نفسي : « ولية نعمتي ! ولية نعمتي ! انهم كلهم

يدعون مسز ريد ولية نعمتي . اذا صح ذلك فعندئذ تكون ولية النعمة شيئا

مقيتيا . »

فاردف مستجوبي قائلا : « هل ترددين صلواتك صباحا ومساء ؟ »

- « نعم ، يا سيدي . »

- « هل تقرأين الكتاب المقدس ؟ »

- « في بعض الاحيان . »

- « بمتعة ؟ هل انت مولعة به ؟ »

- « انا احب سفر الرؤيا ، وسفر دانيال ، وسفر التكوين ، وسفر

صموئيل ، وقليل من سفر الخروج ، وبعض اقسام من سفر الملوك ، وسفر

الاخبار ، وسفر ايوب ، وسفر يونا . »

- « والمزامير ؟ ارجو ان تكوني تحبينها . »

- « لا ، يا سيدي . »

- « لا ؟ ولكن هذا رهيب ! ان لي ولدا صغيرا ، اصغر منك ، حفظ

سته من المزامير عن ظهر قلب . واذا سأله المراء ايا تفضل : ان تلتهم قطعة

من حلوى الزنجبيل مع البندق او ان تحفظ بيتا من أحد المزامير ؟ اجاب :

« أوه ! ان احفظ بيتا من مزموه ! الملائكة تتغنى بالمزامير . وانا اتمنى

ان اكون ملاكا صغيرا هنا على الارض . » وعندئذ يفوز بقطعتين من حلوى

الزنجبيل جزاء تقواه الطفلية هذه . »

فلاحظت : « المزامير غير مائعة » .

- « هذا يثبت ان لك قلبا شريرا ، وان عليك ان تصلي داعية الله ان يغير قلبك هذا ، ان يمنحك قلبا جديدا طاهرا ، ان يجردك من قلبك الذي قد من صخر ، ويهبك قلبا من لحم ! »

وكنيت على وشك ان اطرح سؤالا يمس الطريقة التي كان مفروضا في عملية تغيير قلبي هذه ان تتم بها ، عندما اقحمت مسز ريد انفها في الحوار طالبة الي ان اجلس . ثم اردفت ناهضة بنفسها بعبء الحديث :

- « اعتقد ، يا مستر بروكلهورست ، انني المعت في الرسالة التي كتبتها اليك منذ ثلاثة اسابيع الى ان هذه الفتاة الصغيرة لا تتمتع بالخلق القويم والنزعة الصالحة اللذين كنت اتمناها لها ، فاذا ما ارتضيت ان تقبلها في مدرسة ليوود فثق اني اكون سعيدة اذا ما سئلت المدير والمعلمات ان يراقبنها مراقبة شديدة ، وان يحترسن قبل كل شيء من عيبتها الاسوأ اعني نزعتها الى الخداع . انا اذكر هذه الحقيقة على مسمع منك ، يا جين ، لكي لا تحاولي ان تحتالي على مستر بروكلهورست » .

كان طبيعيا ان اهرب مسز ريد وان لا احبها . ذلك بانها كانت مفطورة على جرحي في فسوة . فانا لا اذكر اني سعدت في ايما يوم من الايام في حضرتها . كنت مهما حرصت على طاعتها ومهما بذلت من جهد في سبيل ارضائها تقابل محاولاتي هذه بالصد وتكافئها بجمل من مثل التي نقلتها في الفقرة السابقة . اما وقد نطقت الآن بهذا الاتهام امام شخص غريب فقد استشعرت ان طعنيتها نفذت الى قلبي نفسه ، وأدركت على نحو غامض انها كانت تسعى حتى في تلك اللحظة الى جعل مرحلة الحياة الجديدة التي قدرت لي هي نفسها ان ادخلها مرحلة يائسة لا ياتلق فيها ايما امل . واحسست ، برغم اني كنت اعجز من ان اعبر عن ذلك الاحساس ، بانها كانت تنثر بذور المقت والفسوة في طريقي المقبلة . لقد رأيت نفسي وقد حولت تحت بصير مستر بروكلهورست الى طفلة مأكرة بغیضة ، وما الذي استطيع ان افعله لمحو الاثر السيء الناشيء عن هذا الظلم ؟

وقلت في ذات نفسي ، وانا اناضل تكبت زفرة تريد ان تنطلق : « لا شيء ! لا شيء ! » وسارعت الى كفكفة بضع عبارات كانت بينات قوية على الالم المبرح الذي عصف بي .

فقال مستر بروكلهورست : « الخداع ، في الواقع ، عيب محزن في الاطفال . انه صنو الكذب . وجميع الكذابين سوف ينالون جزاءهم في البحيرة الملتهبة بالنار والكبريت . بيد انها سوف توضع تحت المراقبة ، يا مسز ريد . سوف احدث مسز تامبل والمعلمات في ذلك » .

فواصلت ولية نعمتي حديثها : « اني اتمنى ان تعمدوا الى تربيته على نحو يتلاءم مع مركزها ووضعها الاجتماعي ، فتعلموها كيف تجعل من نفسها عنصرا نافعا وكيف تلزم جادة التواضع . اما العطل المدرسية فأرى ، بصد موافقتك طبعاً ، ان تنفقها كلها في ليوود » .

فقال مستر بروكلهورست : « ان قراراتك لتتطوي على حكمة بالغة » .  
 ان الاتضاع فضيلة مسيحية ، وهي لائقة على نحو مخصوص بطلاليات لوود .  
 من اجل ذلك اصدرت اوامري بضرورة بذل اقصى الجهد لتنشئتهن على هذه  
 الفضيلة . ولقد درست افضل السبل الى اماتة عاطفة الغرور الديوية فسي  
 نفوسهن ، ولم اقع الا منذ ايام قلائل على برهان سار يثبت نجاحي .  
 فقد مضت ابنتي الثانية ، اوغوستا ، مع والدتها لزيارة المدرسة ، حتى اذا  
 رجعت من هناك هتفت : « اوه ، يا ابي العزيز ، كم تبدو فتيات لوود كلهن  
 هادئات بسيطات . انهن يشعرهن المرجل خلف آذانهن ، وبمنازرهن  
 الطويلة ، وتلك الجيوب الهولندية الصغيرة التي في خارج جلابيبهن ليظهرن  
 للرائي وكأنهن بنات الفقراء ! » ثم اضافت : « ولقد رحن ينظرن الى فستاني  
 وفستان ماما وكأنهن لم يرين من قبل ثوبا حريريا قط » .

فقالت مسز ريد : « ذلك هو الوضع الذي اقره اقرارا كاملا . ولو اني  
 طوفت في طول انكلترا وعرضها باحثه منقبة اذن لما وجدت نظاما تربويا  
 اكثر ملاءمة لطفلة مثل جين ايير . الصرامة ، انا اوصي بالصرامة في كل  
 شيء » .

« الصرامة ، يا سيدتي ، هي رأس الواجبات المسيحية ، ولقد  
 روعيت في كل تدبير متصل بمؤسسة لوود : طعام عادي ، لباس بسيط ،  
 وتجهيزات غير معقدة ، وعادات قاسية ناشطة : تلك هي الحالة السائدة في  
 المدرسة وبين تزيلاتها » .

« حسن جدا ، يا سيدي . في استطاعتي ان اطمئن اذن الى ان هذه  
 الطفلة سوف تسجل طالبة في لوود ، وانها سوف تدرب هناك تدريبا يتفق  
 ومركزها وما ينتظرها من مستقبل ؟ »

« في استطاعتك ان تطمئني الى ذلك ، يا سيدتي . انها سوف تدخل  
 الى تلك المدرسة التي لا تحضن الا النباتات المختارة ، وانا واثق من انها سوف  
 تنكشف عن اعظم الشكر لاختيارنا اياها دون غيرها ، وهو امتياز لا  
 يقدر بمال » .

« سوف ارسلها ، اذن ، على اسرع وجه ممكن يا مستر  
 بروكلهورست . ذلك باني اشعر ، وفي استطاعتي ان اؤكد لك ذلك ، بالتوف  
 الشديد الى التخفف من تبعة امست الان مرهقة اكثر مما ينبغي » .

« من غير ريب ، من غير ريب ، يا سيدتي ، والان امنى لك نهارا  
 سعيدا . سوف اعود الى « بروكلهورست هول » بعد اسبوع او اسبوعين .  
 ان صديقي الطيب ، رئيس الشمامسة ، لن يجيز لي مفارقتها قبل ذلك .  
 ولسوف ابعث الى مسز تامبل بمذكرة تحيطها علما بان فتاة جديدة سوف تفد  
 على المدرسة عما قريب ، حتى لا يكتنف استقبالها صعوبة ما . الى اللقاء ! »  
 « الى اللقاء ، يا مستر بروكلهورست . احمل تحياتي الى مسز ومس  
 بروكلهورست ، والى اوغوستا وتيودور ، والى الاساتذ بروتون » .

- « سوف افعل ، يا سيدتي . اما انت ، ايتها الفتاة الصغيرة ، فدونك هذا الكتاب الموسوم بـ « مرشد الطفل » . اقرأيه مع الصلاة ، ولا سيما ذلك القسم الذي يشتمل على « قصة وفاة مرتا ج . . . الرهيبة المفاجئة » ، ومارتا هذه طفلة شريرة انغمست في الكذب والخداع » .

قال مستر بروكلهورست هذه الكلمات ووضع في يدي كراسة رقيقة ذات غلاف مخيط ، وغادر المكان بعد ان قرع الجرس مستدعيا عربته .

وخلفت انا ومسز ريد وحدنا . وتصرفت بضع دقائق في صمت . كانت مسز ريد تخطي ، وكنت انا اراقبها . ولعلها كانت آنذاك في السادسة والثلاثين من عمرها اوفي السابعة والثلاثين . كانت امرأة قوية البنية ، ذات كتفين مربعتين ، واوصال صلبة ، غير طويلة القامة ، وغير بدينة ورغم ما يتصف به جسمها من امتلاء . كانت ذات وجه عريض بعض الشيء ، وكان فكها الاعلى ضخما جدا وصلبا جدا . وكانت ذات جبين منخفض ، وذقن عريضة بارزة ، وفم وأنف عاديين . وتحت حاجبيها الرقيقين التمتعت عينان يعوزهما الحنان . كانت بشرتها داكنة معتمة ، وكان شعرها ضاربا الى الشقرة . اما جسمها فكان سليما مثل جرس ، ذلك بأن الامراض لم تقترب منها في اي يوم من الايام . وكانت مدبرة دقيقة بارعة ، يخضع كل من في بيتها وجميع مستأجري مزرعتها لسيطرتها الكاملة . وكان اطفالها هم وحدهم الذين يتحدثون سلطتها في بعض الاحيان ، ويسخرون منها . كانت حسنة البزة ، وكانت سيماها ومشيتها تعززان اناقتها وتزيدها وضوحا .

وفيما كنت جالسة على كرسي منخفض لا ظهر له ، على بضع ياردات من كرسيها ذي الذراعين ، رحت اتأمل وجهها واتصفح قسماته ، وكنت امسك في يدي تلك الكراسي الدينية المشتملة على حكاية موت الكاذبة الفجائي ، وهي الحكاية التي لفت نظري اليها كما يلفت الى انذار ملائمة . كان ما جرى منذ لحظة ، وما قالته مسز ريد بصددى لمستر بروكلهورست ، وكامل فحوى حديثهما ، اقول كان كل ذلك لا يزال جديدا ، طريا ، يلسع ذهني لسماع . كنت قد استشعرت كل كلمة في حدة لا تقل قوة عن الوضوح الذي سمعتها به ، فاذا بحق شديد يعتمل في ذات نفسي . ورفعت مسز ريد بصرها عن عملها ، واستقرت عينها على عيني ، وفي الوقت نفسه كفت اصابعها عن حركاتها الرشيقة .

واصدرت الي امرها : « اخرجي من الغرفة ! » فلا ريب ان نظرتي او شيئا اخر كانت قد آذتها وازعجتها ، ذلك بانها نطقت بتلك الكلمات في احتياج بالغ ، ولكنه مكظوم . فنهضت ، ومضيت الى الباب ، ولكني ما لبثت ان عدت ادراجي : لقد مشيت عبر الحجرة الى النافذة ، ثم تقدمت حتى اصبحت على مقربة دانية من مسز ريد .

كان يتعين علي ان اتكلم ، فقد ديسست كبريائي في قسوة ، وكان



يتعين علي ان ارد، ولكن كيف؟ واي قوة كانت لي حتي اثار من عدوتي؟ وأخيرا حشدت قواي كلها ، وقذفتها بها في هذه الجملة الفظة :

« انا لست مخادعة . ولو قد كنت مخادعة اذن لقلت لك اني احبك . ولكنني اعلن اني لا احبك : اني اكرهك اكثر مما اكره ايما امرئ في العالم باستثناء جون ريد . اما هذا الكتاب الذي يروي قصة « الكاذبة » ففي استطاعتك ان تقدميه الى ابنتك ، جورجيانا ، لانها هي التي تطلق الاكاذيب ، لا انا ! »

وظلت يدا مسز ريد جامدتين فوق عملها ، وظلت عينها الجليدية مستقرة على عيني استقرارا قارسا .

« ما الذي تريدان ان تقوليه بعد ؟ » كذلك سألتني في جرس هو اشبه بذلك الذي يصطنعه المرء حين يخاطب خصما راشدا ، منه بذلك الذي يصطنع في مخاطبة طفل من الاطفال .

والواقع ان عينها تلك ، وصوتها ذاك اثارا في نفسي كل ما انطوت عليه من بغض ونفور . وارتعدت من قمة رأسي الى اخمص قدمي ، وعصف بي احتياج ممتنع على الكبح ، فاردفت قائلة : « انا سعيدة لان ايما قرابة لا تشدني اليك ، واني لن ادعوك خالتي بعد اليوم ما دمت على قيد الحياة . انا لن اعود ، ابد الدهر ، لرؤيتك عندما اشب عن الطوق ، وأذا ما سألني امرؤ هل احبك وكيف كنت تعامليني فليسوف اقول له ان مجرد التفكير فيك يفريني بالتقيؤ ، وانك عاملتني في قسوة تثير الرثاء » .

« كيف تجرؤين على توكيد ذلك ، يا جين ايبير ؟ »

« كيف أجرو ، يا مسز ريد ؟ كيف أجرو ؟ لان هذه هي الحقيقة . انت تحسبين اني مجردة من العواطف ، وان في استطاعتي ان احيا من غير ذرة من حب او حنان . لا ، انني لا استطيع ان احيا على هذا النحو ، وان قلبك خلو من الرحمة . سوف اذكر ما دام في عرق ينبض كيف دفعتني - كيف دفعتني في خشونة وغلظة - الى الحجرة الحمراء ، وحبستني هناك ، على الرغم من الآلام المبرحة التي قاسيتها ، وعلى الرغم من اني صحت متوسلة اليك ، وانا اختنق بالكرب والضنك : « ارحميني ! ارحميني ! ايتها الخالة ريد ! » سوف اذكر تلك العقوبة التي انزلتها بي لان ولدك الشرير ضربني ، لانه طرحني ارضا لغير ما سبب جنيته . سوف ادوي هذه القصة بحذافيرها على مسمع كل من يسألني عنك . ان الناس يحسبون انك امرأة صالحة ، ولكنك رديئة ، قاسية الفؤاد . انت امرأة مخادعة ! »

وقبل ان انهي هذا الجواب انتعشت روحي وتهللت جسدة بأغرب احساس بالحرية والنصر قدر لي أن اعرفه ، لقد بدا وكان رباطا غير منظور قد انقسم ، واني قد اندفعت في سبيلي الى حرية لم اكن اتوقع الفوز بها . وما كان ذلك لغير ما سبب : فقد بدت مسز ريد مذعورة

مروعة ، وكان القماش الذي خاطته قد زل عن ركبته ، وكانت ترفع يديها ، مترنحة ذات اليمين وذات الشمال ، بل كانت تفضن قسما وجهها وكأنها على وشك ان تسفح العبرات .

وقالت : « جين ، انت مخطئة . ماذا دهاك ؟ لماذا ترتعدين هذا الارتعاد العنيف كله ؟ هل ترغبين في قليل من الماء ؟ »

- « لا ، يا مسز ريد . »

- « هل ثمة شيء اخر ترغبين فيه ، يا جين ؟ اؤكد لك اني اود ان اكون صديقة لك . »

- « هذا غير صحيح . لقد قلت لمستر بروكلهورست ان خلقي رديء ، واني نزاعة الى الخداع . ولسوف اعلم كل من في ليوود بحقيقتك ، وبالذي فعلته بي . »

- « جين ، انت لا تفهمين هذه الامور : ان علينا ان نعاقب الاطفال كلما ارتكبوا اثما . »

فصحت بصوت عال تغلب عليه الضراوة : « انا لم ارتكب اثما ، والخداع ليس من خصالي . »

- « ولكنك سريعة الانفعال ، يا جين ، وهذا شيء يجب ان تسلمي به . والان ، ارجعي الى حجرة الاطفال ، يا عزيزتي ، واضطجعي قليلا . »

- « انا لست عزيزتك . وليس في استطاعتي ان اضطجع . عجلي في ارسالي الى المدرسة ، يا مسز ريد ، فانا اكره ان احيا هنا . »

فغمغمت مسز ريد في همس : « سوف ارسلك الى المدرسة على جناح السرعة . بقي من ذلك . »

ثم انها للممت اشغالها ، وغادرت الحجرة على نحو مفاجيء .

وبقيت ثمة وحدي ، منتصرة في ميدان المعركة . كانت أعنف معركة قدّر لي أن اخوضها ، وكان أول نصر أحرزته : لقد وقفت برهة قصيرة على السجادة ، حيث سبق لمستر بروكلهورست ان وقف ، ونعمت بعزلة الظافر . وبادى الامر ، ابتسمت لنفسي ، واخذني الازدهاء والعجب ، ولكن هذا الشعور الضاري ما لبث ان خمد في ذات نفسي بمثل السرعة التي هدأت فيها نبضات قلبي المتسارعة . فليس في ميسور الطفل أن يتشاحن مع افراد أسرته الذين يكبرونه سنا - كما قد فعلت انا - وليس في ميسوره ان يطلق العنان لاحتياجه الهائجة - كما قد اطلقت انا العنان لاحتياسي - من غير ان يستشعر بعد ذلك غصة الندم ورعدة ردة الفعل . كان عقلي ، عندما اتهمت مسز ريد وهددتها ، اشبه شيء بركام من الوقود مضطرم ، متحفز ، يطلق الشرر ، ويفغر فاه للالتهام . ولقد كان خليقا بهذا الركام نفسه ، الركام الذي غدا أسود خامدا بعد ان مات لهيبه ، ان يمثل احسن تمثيل لحالتي التي تلت ذينك الاتهام والتهديد ، عندما كشفت لي ثلاثون دقيقة من الصمت والتفكير عن حماقة سلوكي ، وعن

كتابة موقفي المكروه والكاره في آن معا .

لقد ذقت ، للمرة الاولى في حياتي ، طعم الانتقام . ومثل الخمر الزكية بدا لي طعمه ، حين تجرعتة ، دافئا حاد المذاق . حتى اذا انقضت على ذلك لحظات امسى طعمه معدنيا مصدنا اورثني احساسا بانني قد جرعت سما . ولقد كان خليقا بي الان ان امضي ، من تلقاء نفسي ، والتمس صفح مسز ريد وعفوها ، ولكنني عرفت - من تجربتي السابقة وبالغريزة ايضا - ان تلك كانت هي السبيل الى حملها على صدي في احتقار مزدوج ، مشيرة بذلك من جديد كل لواعج طبيعتي الهائجة .

كان من الخير لي ان افزع الى ملكة افضل من ملكة الكلام الضاري ، ان اعمد الى تغذية عاطفة اقل شيطانية من عاطفة السخط القاتم . وهكذا تناولت كتابا - كتابا يشتمل على بعض الحكايات العربية ، واستويت قاعدة ، وحاولت ان اقرأ . ولكنني لم افهم من موضوع الكتاب شيئا ، فقد كانت افكاري لا تفتأ تطفو مترددة ما بيني وبين الصفحة التي طالما وجدتها من قبل فائنة آسرة . وفتحت الباب الزجاجي في حجرة الفطور ، فاذا بشجيرات الخيملة ساكنة سكونا تاما : لقد كان الصقيع القاتم يغطي الارض كلها ، بعد ان عجزت الشمس والنسيم عن كسره . وغطيت وجهي وذراعي بذيل فستاني ، وخرجت ابتغاء المشي في جزء من الخيملة منعزل . ولكنني لم اجسد اي متعة في مشهد الشجرات الصامتة ، واكواز الشربين الساقطة ، وفي بقايا الخريف المنجمدة ، تلك الاوراق الخمرية اللون ، التي ركمتها الرياح السالفة اكوما اكوما ثم تصلبت الان بعضها فوق بعض . واستندت الى احد الابواب ، واجلت بصري في حقل خاو لا اغنام ترعى فيه ، فاذا العشب القصير ذاو اذبله الصقيع . كان يوما قاتما جدا ، وكانت السماء تتموج فوق الثلج وكانت تغطي كل شيء بمظلمة معتمة الى ابعد الحدود . ثم ان رقايات الثلج راحت تسقط بين الفينة والفينة ، لتستقر على المجاز المعبد ، والمسرح الاشيب ، من غير ان تذوب . ووقفت ، وهل كنت الا طفلة غارقة في الشقاء ، ورحت اهمس بيني وبين نفسي متسائلة مرة بعد مرة : « ما الذي سوف أعمله ؟ » ما الذي سوف أعمله ؟ » .

وفجأة ، سمعت صوتا واضحا ينادي : « مس جين ! اين انت ؟ تعالي لتتناول طعام النداء » .

وعرفت جيدا ان بيسي كانت هي التي نادتنني ، ولكنني لم آت بحركة ، وسمعت وقع قدميها الرفيق وهي تجري في المجاز بخفة ورشاقة .

وقالت : « يا لك من شقية صغيرة ! لماذا لا تقبلين حين يناديك المرء ؟ »

ان وجود بيسي ، بالقياس الى الافكار التي كانت تراودني ، بدا لي شيئا بهيجا ، برغم انها كانت ، كمألوف عاداتها ، نكدة بعض الشيء . فالواقع اني بعد نزاعي مع مسز ريد وانتصاري عليها كنت غير ميالة الى الاهتمام كثيرا بغضب الحاضنة المؤقت ، لقد غلب علي النزوع الى الاصطلاء

بمرحها الفتى . فما كان مني الا أن طوقتها بذراعي وقلت : « تعالى ، يا بيسي ! لا تنتهريني ! »

كانت بادرتي هذه اكثر صراحة واشد جرأة مما جرت به عادتي . وسرها ذلك بطريقة ما .

وقالت وهي تخفض بصرها نحوي : « انت طفلة غريبة ، يا مس جين ، مخلوقة صغيرة هائمة على وجهها ، متوحدة . ولسوف تذهبين الى المدرسة ، على ما اظن ؟ » \*

وهززت برأسي . فاضافت : « ولن يحزنك كثيرا ان تفارقي بيسي المسكينة ؟ »

- « وما الذي يحمل بيسي على الاهتمام بامري ، وهي التي لا تفتأ تعنفني تعنيفا موصولا ؟ »

- « لانك مخلوقة صغيرة ، غريبة ، مروعة ، خجول ، الى ابعد الحدود . يجب ان تكوني اكثر جرأة » .

- « ماذا ؟ لكي اتلقى صفعات وضربات اضافية ؟ »

- « هراء ! ولكنك مضطهدة بعض الشيء ، هذا امر لا ريب فيه . ولقد قالت امي ، عندما وفدت لزيارتي في الاسبوع الماضي ، انها لا ترغب في ان ترى واحدة من صغيراتها في مكانك . والان . تعالى ، ان عندي نبا سارا يتصل بك » .

- « لست اظن ان عندك مثل هذا النبا ، يا بيسي » .

- « أيتها الطفلة ! ماذا تعنين ؟ بأية عينين محزونتين تحديقين الي ؟ ولكن سيدتي والسيدات الصغيرات والسيد جون يعتزمون احتساء الشاي ، هذا الاصيل ، خارج القصر ، ولسوف تحتسين الشاي معي . اني سأطلب الى الطاهية ان تخبز لك كعكة صغيرة ، وبعد ذلك سوف تساعديني في القاء نظرة على ادراجك ، لاني سأعد لك عما قريب حقيبة سفرك . ان سيدتي معتزمة ان تطلب اليك مغادرة غايتسهيد بعد يوم او يومين ، ولسوف تختارين من الدمى ما يحلو لك ان تأخذه معك » .

- « بيسي ، يجب ان تعديني بانك لن تنتهريني بعد اليوم ، حتى امضي لسبيلي » .

- « حسن ، اعدك بذلك . ولكن احرصني على ان تكوني فتاة طيبة جدا ، ولا يساورك اي خوف مني . لا تجفلي اذا ما اتفق لي ان كلمتك في قليل من الحدة ، فهذا يثيرني جدا » .

- « لست اظن اني سوف اخافك بعد اليوم ، بآية حال من الاحوال ، يا بيسي لاني الفتك ، ولسوف اجد عما قريب مجموعة اخرى من الناس اخافها واحسب لها حسابا » .

- « اذا خفتهم ابغضوك » .

- « كما تبغضيني انت ، يا بيسي ؟ »

- « انا لا ابغضك ايتهال الانسة . انا اعتقد اني احبك اكتر مما يحبك اي شخص آخر » .

- « ولكنك لا تظهرين ذلك » .

- « يا لك من مخلوقة صغيرة لاذعة اللسان ! يبدو انك اكتسبت طريقة في الكلام جديدة كل الجدة . ما الذي يجعلك جسورة شديدة البأس الى هذا الحد ؟ »

- « ولكنني سوف افارقكم عما قريب . والى هذا . . . » كنت على وشك ان اقول شيئاً عما جرى بيني وبين مسز ريد ، ولكنني وجدت من الخير لي ، بعد شيء من الروية ، ان اعتصم بالصمت في ما يتصل بهذه المسألة .

- « وهكذا فانت سعيدة بالابتعاد عني ؟ »

- « لا ، على الاطلاق ، يا بيسي . الواقع اني في هذه اللحظة اقرب الى الاسى والحزن » .

- « في هذه اللحظة ! واقرب الى ! وباية برودة بالغة تنطق سيدتي الصغيرة بهذه الكلمات ! في استطاعتي ان اقول الان انني لو سألتك قبلة لما جدت علي بها ، ولقلت لي انك تؤثرين ان لا تفعلي » .

- « اوه ، لا . سوف اقبلك في سرور . احني رأسك قليلا » .

فخففت بيسي رأسها . وتعانقنا ، وتبعتها الى البيت وقد سري عن نفسي . وانقضى ذلك الاصيل في سلام وتناغم . وفي المساء روت لي بيسي بعضاً من حكاياتها الاشد سحراً ، وانشدتني بعضاً من اغانيها الاكثر عذوبة . وحتى بالنسبة الي كان للحياة ، أحياناً ، ومضاتها المضمخة بضياء الشمس !



لم تكد دقائق الساعة تعلن الخامسة صباحاً من اليوم التاسع عشر من كانون الثاني ( يناير ) حتى حملت بيسي شمعة الى مخدعي ، فاذا بها تجدني وقد غادرت فراشي وفرغت ، او كدت ، من ارتداء ملابسني . كنت قد افقت قبل وفودها علي بنصف ساعة ، وكنت قد غسلت وجهي وارتديت ثيابي على ضوء هلال آفل منذ لحظة ، هلال تدفقت اشعته عبر نافذة ضيقة قرب سريري ذي الحاجزين . كان علي ان اغادر غايتسهيد ، ذلك اليوم ، بمرحلة تجتاز بكوخ البواب في الساعة السادسة صباحاً . وكانت بيسي هي الشخص الوحيد الذي استيقظ في تلك الاونة ، وكانت قد اضرمت ناراً في حجرة الاطفال ، حيث راحت الان تعد لي فطوري . ان قليلاً من الاطفال ليقدرّون على تناول الطعام حين تهيج نفوسهم خواطر السفر ، وكذلك كان حالي انا . وحثنتي بيسي ، ولكن عبثاً ، على التهام

بطع ملاعق من الحليب المغلي ومن الخبز اللذين كانت قد اعدتهما لي ، فلفت بضع بسكويئات في ورقة ووضعتها في جرابي . ثم انها ساعدتني على ارتداء معطفي والاعتماد بقبعتي الصغيرة ، وتلفتت بشال وغادرت حجرة الاطفال معي . حتى اذا اجتزنا بحجرة نوم مسز ريد ، قالت : « هلا دخلت وقلت لسيدتي كلمة وداع ؟ »

- « لا ، يا بيسي . لقد اقبلت الى سريري ، الليلة البارحة ، عندما ذهبت انت لتناول العشاء ، وسألتني ان لا ازعجها في الصباح او ازعج ابناء خالي ايضا ، لقد قالت لي ان علي ان اذكر انها كانت ، دائما ، صديقتي الفضلى ، وطلبت الي ان اتحدث عنها بروح الاعتراف بجميلها نحوي . »

- « وماذا قلت لها ، ايتها الانسة ؟ »

- « لا شي . » لقد حجبت رأسي بغطاء السرير ، واشحنت بوجهي عنها مستقبلة الجدار .

« لقد اسأت صنعا ، يا مس جين . »

- « لقد احسنت صنعا . ان سيدتك لم تكن صديقتي . » لقد كانت عدوتي .

- « اوه ، مس جين ! لا تتكلمي هكذا ! »

وصحت حين اجتزنا الرواق وانتهينا الى الباب الامامي : « وداعا يا غايتسهيدي ! »

كان القمر قد افل ، وكان الظلام دامسا . وحملت بيسي فانوسا سفح ضياءه على درجات السلم الندية ، وعلى حصاء الطريق المخضلة بثلج حديث العهد بالذوبان . كان الصباح الشتوي رطبا قارسا ، ولقد اصططكت اسناني وانا اندفم مسرعة في المجاز . وكان كوخ البواب مضاء ، حتى اذا بلغناه وجدنا زوجة البواب ، ما تزال تضرم نارها . وكانت حقيبة امتعتي ، التي حملت الى هناك الليلة البارحة ، منتصبة عند الباب ، موثقة بالجمال . كانت الساعة هي السادسة الا بضع دقائق ، وقبل ان تعلن الساعة تمام السادسة بقليل ، اعلنت جلبة عجلات نائية ان المركبة قادمة . فمضيت الى الباب ، وراقبت مصابيحها تخترق الدجنة على جناح السرعة . وتساءلت زوجة البواب : « أهي مرتحلة وحدها ؟ »

- « نعم . »

- « وكم تبلغ المسافة التي ستجتازها ؟ »

- « خمسين ميلا . »

- « يا لها من رحلة طويلة ! اني لاعجب كيف اجازت مسز ريد لفتاة مثلها ان تجتاز هذه المسافة الطويلة من غير رفيق ؟ الا تخشى ان يصيبها مكروه ؟ »

وتقدمت المركبة ، حتى انتهت بجيادها الاربعة الى باب القصر . كان

متنها مثقلا بالمسافرين • ولم تكد تقف حتى صاح الحارس والحوذي طالبيين الي أن أسرع في امنطاء المركبة • فرفعت حقيبتني اليها ، وانتزعت عن عنق بييسي انتزاعا ، وكنت قد تعلقت بها ورحت اغمرها بقبلاتي •

وصاحت مخاطبة الحارس فيما كان يرفعني ويلقي بي في داخل المركبة : « احرص على العناية البالغة بها » •

فكان جوابه : « أجل ! أجل ! » واوصد الباب ، وهتف صوت : « حسن جدا » • وانطلقت المركبة بنا • وهكذا فُصلت عن بييسي وغايتسهيده ، وهكذا حملت نحو اصقاع مجهولة ، نحو ما اعتبرته آنذاك اصقاعا نائية محاطة بالاسرار •

انا لا اذكر الان من تلك الرحلة غير النزر اليسير • كل ما اعرفه هو ان النهار بدا لي طويلا الى حد غير طبيعي ، واننا كنا نطوي طريقا تمتد مئات الاميال • لقد اجتزنا بمدن عديدة ، وفي احداها - وكانت مدينة كبيرة جدا ، وقفت المركبة • وحل وثاق الجياد ، وترجل المسافرون ليتناولوا طعام الغداء • واقتادوني الى نزل صغير ، حيث طلب الي الحارس ان اصيب شيئا من غداء • ولكني لم اكن اجد ايما شهوة الى الطعام ، فخلفني في حجرة مترامية الاطراف ، يقوم في كل زاوية من زواياها مستوقد ، وتتدلى من سقفها ثريا ، وتنبثق من احد جدرانها ، على ارتفاع بعينه ، شرفة حمراء صغيرة تفص بالآلات الموسيقية • وهنا رحت اذرع المكان جيئة وذهوبا ، فترة غير قصيرة من الزمان ، مستشعرة وحشة بالغة ، موجسة خيفة ، الى حد مميت ، من ان ينسل امرؤ ما ويختطفني ، ذلك بأنني كنت اؤمن بوجود المختطفين ، بعد ان تمثلت مآثرهم على نحو متواتر ، في حكايات بييسي التي كانت ترويها لي قرب المستوقد • واخيرا ، رجع الحارس ، وكرة اخرى وضعت في موضعي من المركبة ، واستوى حارسي على مقعده ، ونفخ في بوقه ذي الصوت الغائر ، فانطلقت بنا العربة مجلجلة في شارع « ل • • • » الحافل بالحجارة •

واقبل الاصيل رطبا ، مثقلا بالضباب بعض الشيء • حتى اذا جنحت الشمس للمغيب ، انشأت استشعر اننا كنا نعمن في الابتعاد ، حقا ، عن « غايتسهيده » • اننا ما عدنا نمر بمدن ، ولقد تغير وجه الريف ، وانبثقت الكثبان الرمادية الضخمة حول الافق • حتى اذا احلوك الظلام ، هبطنا واديا ملتف الاشجار على نحو قائم ، وبعد ان حجب الظلام مجالي الطبيعية ، سمعت عزيف ريح صرصر تندفع خلل الاشجار •

وهدهدتني الضجة ، فاستسلمت اخر الامر للنوم ، ولم اكد انعم بالرقاد حتى ايقظني وقوف المركبة وقوفا مفاجئا ، وفتُح باب المركبة ، وانتصبت عنده امرأة تبدو عليها سيماء الخدم : لقد رأيت وجهها وفستانها على ضوء مصابيح المركبة •

وتساءلت تلك المرأة : « هل توجد هنا فتاة صغيرة اسمها حن بير ؟ »

فأجبتها : « أجل ! » وبعد ذلك حُملت الى خارج المركبة ، ووانزلت حقيبتى ، وفي الحال انطلقت المركبة ماضية لسبيلها .

كانت أوصالى قد تصلبت من أثر القسود المتطاوول ، وكانت جلبة المركبة وحركتها قد ذهبتا بصوابي . حتى اذا جمعت شتات تفكيري اجلت البصر في ما حولي . كانت الريح ، والمطر ، والظلام تسد الافق ، ومع ذلك فقد تبينت ، على نحو ضبابي ، جدارا منتصبا امامي ، وبابا ينفتح فيه . ومن خلال هذا الباب تقدمت مع مرشدتي الجديدة . واغلقت المرشدة الباب ثم قفلته خلفها . لقد بصرت الان بيتا او بيوت عديدة - فقد كان البناء متطاولا جدا ، وكانت تتخلله نوافذ كثيرة ، تلتهم الاضواء في بعضها . وصعدنا في مجاز عريض مفروش بالحصي ، حافل بالحفر التي يغمرها الماء ، ودخلنا بابا فتح في وجهنا . ثم ان الخادم قادتني عبر لمحمد المرات الى حجرة تضطرم النار في مستوقدها ، وخلفتني هناك وحدي .

ووقفت لحظة ادفى اصابعي الخدرة من اثر البرد ، ثم اجلت الطرف في ما حولي . لم يكن ثمة شمعة ، ولكن ضوء المدفأة القلق كشف لناظري ، بين فينة واخرى ، عن جدران يكسوها الورق وعن بساط ، وسجف ، واثاث مصنوع من خشب الماهوغاني اللامع . كانت الحجرة قاعة استقبال ليست على مثل اتساع قاعة الاستقبال في « غايتسهد » او على مثل روعتها ، ولكنها تنعم بقدر كاف من اسباب الرفه . وكنت احاول فهم موضوع احدى الصور المعلقة على الحائط عندما فتح الباب ، ودخل علي شخص يحمل شمعة ، يتبعه على الاثر شخص اخر .

كان الشخص الاول سيدة فارعة الطول ذات شعر داكن ، وعينين سوداوين ، وجبين شاحب عريض . وكان شال يحجب وجه هذه السيدة ، على نحو جزئي ، وكانت سيماها صارمة ، وقامتها منتصبة .

وقالت وهي تضع سمعتها على الطاولة : « الطفلة اصغر من ان ترسل الى هنا من غير ما رفيق يصحبها » .

ثم انها راحت تمعن النظر الي ، في انتباه بالغ ، طوال دقيقة او دقيقتين ثم اضافت قائلة : « كان من الخير ان تقاد الى فراشها مباشرة . انها تبدو مرهقة » .

وسألنتي ، واطعة يدها على كتفي : « هل انت متعبة ؟ »

« بعض الشيء ، يا سيدتي » .

« وجائعة ايضا ، من غير شك . ايتها بشيء من طعام قبل ان تأوي الى الفراش ، يا مس ميلر . اهذه هي اول مرة تفارقين فيها والديك للمجيء الى المدرسة ، يا بنيتي ؟ »

واوضحت لها اني يتيمة الاب والام . فسألنتني منذ متى كانت وفاتهما ، وكم ابلغ من العمر ، وما اسمي ، وهل اعرف القراءة والكتابة وقليلًا من الخياطة . ثم مست وجنتي بسبابتها مس رفيقا ، ودعتني الى



الانصراف مع مس ميلر ، راجية ان اكون بنتا طيبة .

ولعل السيدة التي فارقتها كانت في نحو التاسعة والعشرين . اما تلك التي مضت معي فبدت اصغر منها ببضع سنوات . لقد راغني من الاولى صوتها ، وطلعتها ، وسيماها . اما مس ميلر فكانت اكثر بساطة . كانت بشرتها متوردة ، برغم ما غلب على محياها من امارات الهم والغم ، وكانت رشيقة الخطى سريعة الى العمل ، شأن من يتعين عليه دائما اداء جمهرة من المهام المتلاحقة . ولقد بدت ، في الواقع - كما ظهر لي بعد فعلا - معلمة ثانوية . وبقيادتها رحت اتقدم منتقلة من جناح الى جناح ، ومن مجاز الى مجاز ، في مبنى ضخم غير قياسي ، حتى خرجنا اخر الامر من ذلك الصمت الكلي ، الموحش بعض الشيء ، الذي ساد ذلك القسم الذي اجتزناه من البيت ، لتطرق آذاننا دندنة اصوات مختلطة ، ولندخل في الحال حجرة طويلة رحبة حافلة بالطاولات ، في كل ركن من اركان الحجرة طاولتان اثنتان ، وعلى كل منهما شمعتان موقدتان ، وقد جلست حولها جميعا ، على مقاعد خشبية ، جمهرة من الفتيات من مختلف الاسنان ، فبعضهن في التاسعة ، وبعضهن في العاشرة ، وبعضهن في العشرين . وحين لمحتهن عيني ، على ضوء الشموع الباهت ، بدا لي وكان عددهن ممتنع على الاحصاء ، برغم انه لم يزد في الواقع على ثمانين . لقد كن يرتدين ملابس موحدة قوامها ثوب اسمر غريب الزي ، ومئزر هولندي طويل . كانت ساعة المذاكرة ، وكانت الفتيات منهنكات في حفظ دروس الغد . وكانت الدندنة التي سمعتها هي الثمرة المشتركة لاعادتهن المهموسة .

واومات مس ميلر الي بالجلوس على مقعد قرب الباب . ثم انها مضت الي الطرف الاخر من الحجرة الطويلة ، وصاحت « ايتها العريقات ، اجمعن الكتب وضعنها جانبا ! »

عندئذ نهضت من بعض الطاولات المختلفة اربع فتيات فارعات الطول ، وطوفن بالحجرة ، فجمعن الكتب ووضعنها جانبا ، ثم ان مس ميلر عادت فاصدرت امرها من جديد :

« ايتها العريقات ، ايتين بصينيّات العشاء ! »

فانطلقت الفتيات الاربع الفارعات الطول ثم رجعن في الحال ، وقد حملت كل منهن صينية نضدت فوقها شرائح من شيء لم ادر ما هو ، ووضع في وسط كل منها ابريق ماء وكوز . ووزعت الشرائح على الفتيات ، وكانت الراغبات في جرعة من الماء يتناولنها من الكوز المشترك . حتى اذا حان دوري شربت ، ذلك باني كنت اشكو الظمأ ، ولكنني لم امس الطعام بعد ان جعلني الاهتياج والتعب عاجزة عن الاكل . بيد اني رأيت الان ان الشرائح كانت كناية عن كعكة رقيقة من الشوفان جزئت الى قطع صغيرة .

حتى اذا انتهت فترة الطعام تلت مس ميلر الصلوات ، وانتظمت طالبات كل صف من الصفوف اثنتين اثنتين ، وارتقين السلم . واذا غلب

علي الارهاق فاني لم الاحظ ، الا بشق النفس ، اي نوع من المكان كانت  
حجرة النوم : كل ما رأيته هو انها كانت مثل حجرة المذاكرة طويلة جداً .  
وتلك الليلة كان علي ان اقسام مس ميلر سريرها ، ولقد ساعدتني في خلع  
ملابسي ، حتى اذا اضطجعت القيت نظرة على صفوف الاسرة الطويلة ،  
وقد سارعت فتاتان اثنتان الى احتلال كل سرير منها . وما هي غير دقائق  
عشر حتى اطفئ الضوء المفرد . وفي غمرة الصمت والظلام الكامل  
استسلمت للرقاد .

وتقضي الليل في سرعة : لقد كنت من الارهاق بحيث تعذر علي حتى  
ان احلم . ولم افق من نومي الا مرة واحدة لكي اسمع الريح تعصف في  
هبات مسعورة ، والمطر يهطل مدرارا ، ولاستشعر ان مس ميلر كانت قد  
اتخذت مكانها الي جانبي . حتى اذا فتحت عيني من جديد ، كان جرس  
يقرع في قوة : كانت الفتيات قد استيقظن من رقادهن واخذن في ارتداء  
ملابسهن . لم يكن الضحي قد ارتفع بعد ، وكانت شمعة او اثنتان من  
الشموع المصنوعة من قش مغسوس في الدهن تضيئان في الحجرة . ونهضت  
انا ايضا علي كره . كان البرد قارسا جدا ، فارتديت ملابس علي احسن ما  
اجاز لي الارتعاد ان ارتديها ، وغسلت وجهي عندما شفر حوض من  
الاحواض ، وهو شيء لم يتم وشيكا ، اذ لم يكن ثمة غير حوض واحد لكل  
ست بنات ، وكانت هذه الاحواض تقوم علي ركائز منصوبة في وسط  
الحجرة . وقرع الجرس كرة اخرى ، فاصطفت الفتيات اثنتين اثنتين ،  
وبهذا النسق هبطن السلم ودخلن حجرة الدرس الباردة الباهتة الضوء .  
وهنا تلت مس ميلر الصلاة ، ثم صاحت بعد ذلك : « شكلن صفوفكن » .

وعقبت هذا جلبة ، دأمت بضع دقائق كانت مس ميلر تهتف خلالها  
علي نحو مكرور : « الصمت ! ، و النظام ! » ، حتى اذا خمدت رأيتهن  
جميعا منتظمت في اربعة انصاف دوائر ، امام اربعة كراسي وضعت عند  
الطاولات الاربعة . كن كلهن يحملن بايديهن كتبا ، وكان كتاب ضخيم ، كانه  
الكتاب المقدس ، موضوعا علي كل طاولة ، امام المقعد الشاغر . وانقضت  
بضع ثوان من الراحة ، اقمعت بدندنة خفيفة مبهمة كتلك التي تنبعث  
كلما اجتمعت اعداد كبيرة في مكان واحد . وراحت مس ميلر تنتقل من  
صف الي صف ، عاملة علي اخماد هذه المضجة المبهمة .

ورن جرس ناه ، وفي الحال دخلت الحجرة سيدات ثلاث ، تقدمت  
كل منهن نحو طاولة واستوت علي كراسيها . اما مس ميلر فاحتلت  
المقعد الرابع الخالي ، الذي كان ادناها الي الباب ، والذي تحلقت  
حوله اصغر البنات سنا . وبهذا الصف التمهيدي الحقت انا ، واجلسنت  
في مؤخرته .

وبدا العمل : لقد رددت صلاة الصباح ، وتليت آيات من الكتاب  
المقدس ، ثم عقببت ذلك قراءة متطاولة لبعض فصول التوراة ، استغرقت

ساعة كاملة . ولم تكد هذه الرياضة الروحية تنتهي حتى كانت الشمس قد غمرت الكون بضياؤها . وقرع الجرس ، الذي لا يكل ، للمرة الرابعة . فاصطفت الفتيات من جديد ، وسرن الى حجرة اخرى لتناول الفطور . وما كان اعظم ابتهاجي لان المح خيال شيء من الطعام التهامه ! فقد كنت أتصور جوعا ، اذ لم اصب في اليوم السابق غير بلغة سيرة .

كانت قاعة الطعام رحبة ، قاتمة ، منخفضة السقف . وعلى مائدتين طويلتين كان البخار يتصاعد من آنية حوت شيئا ساخنا ما ، انبعثت منه ، على نحو اوقع في نفسي الرعب ، رائحة هي ابعد ما تكون عن اثار الشهوة الى الطعام . ولم تكد ابخرة ذلك الغذاء تصافح خياشيم اولئك الذين قدر عليهم ان يزددنه حتى لمحت امارات الاستياء الشامل على وجوههن . ومن مقدمة الموكب اطلقت بنات الصف الاول الفارعات الطول هذه الكلمات المهموسة : « يا للقرف ! لقد احترق الثريد من جديد ! »

— « صمت ! » كذلك صاح صوت ، لم يكن هذه المرة صوت مس ميلر ، ولكن صوت واحدة من مدرسات الطبقة الاولى : امرأة ضئيلة الجسم ، سمراء البشرة ، انيقة البزة ، ولكنها ذات سيماء نكدية بعض الشيء ، اتخذت مقعدها عند رأس احدى المائدتين الطويلتين ، في حين ترأست سيدة ، اكثر امتلاء ، المائدة الثانية . ورحت ابحت ، ولكن على غير طائل ، عن تلك السيدة التي كانت اول من رأيت ، الليلة البارحة . انها لم تكن هناك لقد احتلت مس ميلر رأس المائدة التي جلست انا اليها ، في حين احتلت المقعد المجال عنده رأس المائدة الاخرى سيدة عجوز ذات سيماء اجنبية غريبة ، كانت هي مدرسة اللغة الفرنسية كما عرفت في ما بعد . وتليت صلاة طويلة من صلوات المائدة . ورتلت ترنيمة ، وبعد ذلك اقبلت خادم تحمل شيئا من الشاي الى الملمات . وشرعنا في تناول الطعام .

واذ كان الجوع والدوار يعصفان بي فقد التهمت ملقعة او ملعقتين من حصتي من غير ان افكر في مذاقها ، ولكن ما ان انكسرت حدة الجوع الاولى حتى ادركت ان بين يدي اكلة تنقز النفس منها : فالثريد المحروق لا يكاد يقل رداءة عن البطاطا العفنة ، والجوع نفسه سرعان ما يصاب بالغثيان بسبب منها . وتحركت الملاعق في تؤدة : لقد رأيت ان كل فتاة تعتمد الى تذوق حصتها من الطعام وتحاول ان تبتلعه ، ولكن الكثرة الكبيرة من الفتيات ما لبثت ان اطرحت هذا الجهد العايب واقلعت عنه . وانتهى الوقت المخصص للفطور ولما تقطر اي منهن . حتى اذا رفعنا صلاة الشكر على شيء لم ننعم به ، رتلنا ترنيمة اخرى ، وغادرنا قاعة الطعام الى حجرة الدرس . وكنت انا بين اللواتي كن اخر من غادر القاعة ، وفيما كنت اجتاز بالمائدتين بصرت باحدى الملمات تتناول وعاء من اوعية الثريد وتذوقه . ثم انها نظرت الى زميلاتها . كانت امارات الاستياء تبدو على وجوههن ، وهمست احداهن — المعلمة ذات الجسم الممتلىء — قائلة :

« طعام كربه ! يا للعار ! »

وانقضت قبل ان تبدأ الدروس من جديد خمس عشرة دقيقة كانت حجرة الدرس خلالها مسرحا لوضوء مجيدة . فقد بدا وكأنها اجيز للفتيات ، طوال تلك الفترة ، ان يتكلمن بصوت عال وفي حرية اكثر ، ولقد عرفن كيف يفدن من هذا الامتياز . والواقع ان الحديث كله دار حول الفطور . فكانت كل واحدة منهن تحمل عليه حملة شعواء وتنتقده في غير هوادة . يا للمخلوقات البائسات ! كان ذلك هو عزاءهن الاوحد . وكانت مس ميلر هي المعلمة الوحيدة التي بقيت ، الان ، في الحجرة ، وقد تحلقت حولها مجموعة من الفتيات الكبيرات كانت كل واحدة منهن تتحدث في انفعال وتشير بيديها اشارات جدية مفضضة . وسمعت اسم مستر بروكلهورست على بعض الشفاه ، ولحمت مس ميلر تهز برأسها ، لدن سماعها هذا الاسم ، هزة استنكار ، ولكنها لم تبذل كبير جهد لكبح جماح النعمة العامة : كانت من غير ريب تشارك الفتيات نقمتن هذه .

ودقت ساعة في حجرة الدرس معلنة التاسعة . فلم يكن من مس ميلر الا ان غادرت حلققتها لتقف في وسط الحجرة وتصيح : « صمت ! الى مقاعدكن ! »

وهيمن الانضباط : فما هي غير خمس دقائق حتى اخلد الحشد المضطرب الى النظام ، وحتى اخمد الصمت النسبي صخب الالسن المختلط . وسرعان ما اتخذت المدرسات الرئيسيات مقاعدهن ، ومع ذلك بدا الجميع وكأنهن ينتظرن شيئا . كانت الفتيات الثمانون مرصوفات على المقاعد الخشبية المحاذية لجدران الحجرة ، وكن منتصبات الجلسة جامدات لا يأتين حراكا . لقد بدون لعين الناظر مجموعة غريبة الى ابعد الحدود . كن جميعا ذوات شعر سبط مرجل الى الوراء فلسست ترى فيه خصلة معقوصة البتة . وكن يرتدين ثيابا سمراء داكنة ذات قبة مرتفعة ويطوقن اعناقهن بياقات محكمة ، ويحملن جيوبا هولندية صغيرة « تشبه اكياس الدراهم الاسكتلندية ، شنت الى مقدمات جلابيهن ، واريدين بها ان تؤدي وظيفة اكياس الشغل . وكن كلهن ، ايضا ، يلبسن جوارب صوفية وينتعلن احذية ريفية الصنع مشدودة بابازيم نحاسية . وكان بين هاته الفتيات المرتديات هذا الزي اكثر من عشرين فتاة كاملة النمو ، او على الاصح اكثر من عشرين امرأة شابة . والواقع ان ذلك الزي لم يناسبهن البتة ، وانه خلع سيما من الفراغة حتى على املحن وجها .

وكنت لا ازال اتأملهن وانعم النظر ، بين الفينة والفينة ، الى المعلمات ، ولكن ايا من هؤلاء المعلمات لم تنتزع اعجابي بالمعنى الدقيق للكلمة . فقد كانت البدينة فظة غليظة القلب بعض الشيء ، وكانت ذات البشرة الداكنة ضاربة الى حد غير يسير ، والاجنبية قاسية مضحكة ، وكانت مس ميلر ، ويا لها من مخلوقة بائسة ، تبدو ارجوانية اللون ،

مسفوعة البشرة ، مجهدة - اقول كنت لا ازال اتأملهن وكانست عيني تطوف من وجه الى وجه عندما انتصبت المدرسة كلها واقفة في آن معا ، وكأننا حركها نابض مشترك .

ما الذي حدث ؟ ان اياما امرلم يطرق اذني . واستبد بي الذهول . وقبل ان استرد صوابي كانت الفتيات والمعلمات قد اتخذن مقاعدهن كرة اخرى ، ولكن الاعين كلها كانت مصوبة الان نحو نقطة واحدة ، فاتبعت عيناى هذا الاتجاه ، فالتقنا الوجه الذي كان قد استقبلني الليلة البارحة . كانت واقفة في اقصى الحجرة الطويلة ، قرب المستوقد ، ذلك بانه كان ثمة نار موقدة في كل طرف من اطرافها ، ولقد راقبت صفتي البنات في صمت ووقار . وتقدمت مس ميلر نحوها ، وبدت وكأنها توجه اليها سؤالا ، حتى اذا تلقت جوابه انقلبت الى مكانها وقالت في صوت عال : « احضري الكرات الارضية يا عريفة الصف الاول ! »

وفيما كانت العريفة تنفذ الامر الصادر اليها راحت السيدة التي استشيرت تخطو في الحجرة خطوات وثيدة . واحسب اني املك قدرة غير يسيرة على الاحترام ، اذ لا ازال اذكر حتى اليوم باي قدر من الرعب المشوب بالاعجاب تتبععت خطواتها . حتى اذا تبدت ، الان ، لعيني ، في وضوح النهار ، الفيتها فارعة الطول ، مليحة الوجه ، رشيقة القوام . وكانت عيناى داكنتان ذواتا بريق عذب واهداب طويلة فاتنة تكشف عن بياض جبينها العريض . وعند كل صدغ من صدغيها كان شعرها الفاحم معقوصا على شكل حلقات ، وفقا للزي الشائع في ذلك العصر ، يوم لم تكن العصائب الناعمة وحلقات الشعر الطويلة شديدة الذبوع . وكان ثوبها ، وفقا لزي العصر ايضا ، مصنوعا من قماش ارجواني ، وكان يخفف من رتابته ضرب من الزركشة الاسبانية بمخمل اسود . وكانت تلتصق في حزامها ساعة ذهبية ، ولم تكن الساعات مألوفة كشأنها اليوم . وليضف القارئ الى هذا ، لاستكمال الصورة ، قسما وجه ناعمة ، وبشرة نقية برغم شحوبها ، وسيماء نبيلة ، ومشية وقورا ، يكون ، على الاقل ، صورة دقيقة - الى اقصى ما تستطيع الكلمات ان ترسم صورة ما وتوضحها - عن مظهر مس تامبل الخارجى . . مس ماريلا تامبل ، وهو اسمها الكامل كما رأيته في ما بعد مرقوما على كتاب صلاة عهد الي في ان احمله الى الكنيسة .

حتى اذا اتخذت مديرة لوود مقعدها ( فقد كانت هذه السيدة هي مديرة المدرسة ) امام كرتين ارضيتين موضوعتين على احدى الطاولات ، دعت فتيات الصف الاول الى التحلق حولها وراحت تعطيهم درسا في الجغرافية . اما الصفوف الدنيا فهضت المعلمات بعبء التدريس فيها ، حيث استمر تسميع المستظهر من التاريخ والنحو وغيرهما ساعة كاملة . وتلا ذلك درس الخط ودرس الحساب ، واعطت مس تامبل دروسا في الموسيقى لبعض الفتيات الاكبر سنا . وكانت ساعة الحائط تحدد المدى

الزمني لكل درس . حتى اذا دقت هذه الساعة معلنة الثانية عشرة نهضت المديرية وقالت : « لدي كلمة اود ان اوجهها الى الطالبات » .

وكانت جلبة الفراغ من الدروس قد شرعت تطلع رأسها ، ولكنها سرعان ما خمدت عندما سمعت الطالبات صوت المديرية .

واضافت قائلة : « لقد قدّم اليكن هذا الصباح طعام لم تستطعن اساغته . ولا ريب انكن جائعات ، من اجل ذلك اصدت امرى بان يقدم الى الجميع غداء مؤلف من خبز وجبن » .

ونظرت المعلمات اليها في ضرب من الدهش - فاضافت في نبرة قصدت بها ان تشرح الموقف لهن : « وسيتم ذلك على مسؤوليتي » . ثم غادرت الحجرة على التو .

وفي الحال جيء بالخبز والجبن ، فوزعا على الطالبات ، فغمرت المدرسة كلها موجة من الابتهاج العارم . وعلى الاثر صدر اليها الامر : « الى الحديقة » ، فاعتمرت كل منا بقعة من قش غليظ ذات اشربة من نسيج قطني ملون ، وارتدت معطفا من نسيج صوفي خشن رمادي اللون . وجهزت انا ايضا بمثل هذا الجهاز ، واندفعت مع التيار متخذة سبيلي الى الهواء الطلق .

كانت الحديقة ارضا رحة تحيط بها اسوار ساهقة يتعذر معها على العين ان تلمح اي مشهد من مشاهد الارض القائمة خلفها . وكانت في ناحية من هذه الحديقة شرفة مظلة ، وكانت مجازات عريضة تطوق رقعة وسطى مقسومة الى عشرات من المزهري \* الصغيرة ، ولقد افردت هذه المزهري لتكنون حدائق تزرعها الطالبات . وكان لكل مزهر مالكة تتعهد بهناتها . والواقع ان منظرها ، اذ تحفل بالرياحين ، كان رائعا من غير شك . ولكنها كانت الان ، في الجزء الاخير من كانون الثاني (يناير) ، مجرد ذبول كئيب ، وهزال اسمر . وارتعدت حين وقفت واجلت الطرف في ما حولي : كان يوما عاصفا لا يصلح للرياضة في الهواء الطلق . انه لم يكن مطرا بالمعنى الحقيقي للكلمة ولكنه كان قائما . يرنقه ضباب اصفر مرفق برذاذ يسير . كانت الارض تحت اقدامنا لا تزال ندية من اثر السيول التي غمرتها بالامس . وكانت اشد الفتيات بأسا يركضن ههنا وهناك مستغرقات في بعض الالعاب الناشطة ، ولكن سائر الفتيات الشاحبات الممزولات استسربن \* \* \* بلمتسات الدفء والوقاية من الرذاذ تحت سقف الشرفة . وبين هؤلاء تناهى الي مرة تلو مرة صدى سعال غائر كان يطرق سمعي كلما نفذ الضباب الى اجسامهن العجاف المرتعدة . وكنت حتى تلك اللحظة لمّا اتحدث الى اي منهن ، ولم تكن اي منهن

\* جمع مزهر ، وهو جزء من الحديقة تزرع فيه الزهور .

\*\* اجتمعن في سرب او قطع .

قد انتبهت الى وجودي . لقد وقفت في معزل ، ولكن الشعور بالهزلة كان امرا تعودته والفن فلم يوقع في نفسي كثيرا من الاسى . واستندت الى عمود من اعمدة الشرفة ، واحكمت التدثر بمعطفي الرمادي ، وحاولت ان اتناسى البرد الذي كان يلذعني من خارج والجوع غير المشبع الذي كان يقرضني من داخل ، واستغرقت في المراقبة والتفكير . وكانت تأملاتي منقطعة غير محدودة فليس فيها ما يستحق التدوين : كنت لا ازال اجهل ، او اكاد ، اين انا ، ولقد بدا لي وكأن « غايتسهيد » وحياتي الماضية قد امعنا في الطفو بعيدا وان مسافة لا سبيل الى قياسها تفصلني عنهما . وكان الحاضر غامضا وغريبا ، اما المستقبل فلم استطع ان اكون عنه ، من طريق الحزر والتخمين ، ايا صورة . واجلت بصري في الحديقة ، الشبيهة بحديقة دير ، ثم رفعته نحو المنزل ، فاذا هو بناء ضخم بدا نصفه مربدا عتيقا ، ونصفه الاخر بالغ الجودة . وكان القسم الجديد ، المشتمل على حجرة الدرس وقاعة النوم ، يستقبل اشعة الشمس من خلال نوافذ ذات حواجز مستطيلة ومستعرضة تخلع عليه مظهرا شبه كنسي . وعلى الباب كانت لوحة حجرية تحمل النقش التالي :

« معهد لورود . - هذا الجزء جددت بناءه عام ٠٠٠ ب.م.م ناوموي بروكلهورست ، من بروكلهورست في هذا الاقليم » . « فليضيء نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا اعمالكم الحسنة ويجدوا اباكم الذي في السموات » . ( انجيل متى ١٦: ٥ ) .

وقرات هذه الكلمات مرة ومرة ومرة ، وشعرت انه لا بد ان يكون لها تفسير لاني عجزت عن النفاذ الى حقيقة معناها نفاذا كاملا . وكنت لا ازال اتفكر في مدلول كلمة « معهد » ، واحاول ان اكتشف العلاقة بين الكلمات الاولى وبين الآية الانجيلية عندما دعاني الى الالتفات صوت سعال دان. انبعث من ورائي . فاذا بعيني تقعان على بنت جالسة على مقعد حجري قريب . كانت منكبة على كتاب ، وكانت تبدو مستغرقة كل الاستغراق في مطالعته . ومن موقعي ذاك كان في ميسوري ان المح العنوان : لقد كان هو « راسيلاس » Rasselas ، وهو اسم وقع في نفسي انه غريب وانه بالتالي جذاب . وافق للبننت ان رفعت بصرها ، فيما هي تقلب صفحة من صفحات الكتاب ، فسألته مباشرة :

- « هل هو كتاب ممتع ؟ » وكنت قد عقدت النية على ان اطلب اليها اعارتي اياه ذات يوم .

فاجابتنى بعد ثانية او ثانيتين كانت خلالهما تتأملني : « انه يعجبني » . عندئذ سألتها ، وانا لا اكاد ادري اين وجدت الجراءة على استهلال محادثة مع شخص غريب : « وما موضوعه ؟ » فقد كانت هذه الخطوة مناقضة لطبيعتي وعاداتي ، ولكنني احسست ان انكبابها على الكتاب مسر وترا من المشاركة الوجدانية في مكان ما من نفسي ، فقد كنت انا ايضا احب المطالعة ،

مهما تكن قراءاتي خفيفة اطفالية . الواقع انه ما كان في امكاني ان اضم او افهم الموضوعات الجدية او الدسمة .

فاجابتنى الفتاة وهي تقدم الكتاب الي : « في امكانك ان تلقي نظرة عليه » .  
وفعلت ذلك . فاقنعتني التصفح السريع ان محتويات الكتاب كانت اقل اغراء واسرا من عنوانه . لقد بدا « راسيلاس » في نظر ذوقي الهزيل ، كتابا تافها . فانا لم اقع فيه على شيء يتصل بالسعالى ، لم اقع فيه على شيء يتصل بالجن ، ولقد خلت صفحاته ذات السطور المزروزة من ايما تنوع مشرق . فاعدته اليها ، فتلقته في هدوء ، ومن غير ان تقول شيئا بدت وكأنها على وشك الاستغراق في المطالعة كرة اخرى . وهذه المرة ايضا غامرت بصرفها عن الكتاب ، وقلت : « هل تستطيعين ان تخبريني ما معنى الكلمات المنقوشة على ذلك الحجر الذي يبدو فوق الباب ؟ ما هو معهد لوود ؟ »

« انه البيت الذي اقبلت للاقامة فيه » .

« ولماذا يدعونه « معهدا » ؟ هل يختلف بطريقة ما عن المدارس الاخرى ؟ »

« انه ، الى حد ما ، مدرسة خيرية . فانت وانا وسائر الطالبات هنا بنات الاحسان . ويخيل الي انك يتيمة : لقد مات ابوك او ماتت امك ، ليس كذلك ؟ »

« لقد ماتا كلاهما قبل ان تنطبع صورتهم في ذاكرتي » .

« حسنا ! ان كلا من رفيقاتنا هنا قد فقدت واحدا من ابويها ، او فقدتهما كليهما . وهذه المؤسسة تدعى « معهد لتعليم اليتيمات » .

« الا ندفع أي رسم مالي ؟ هل يعملوننا بالمجان ؟ »

« ان كل واحدة منا تدفع ، او يدفع عنها اصداؤها ، خمسة عشر جنيها في العام » .

« واذن فلماذا يدعوننا بنات الاحسان ؟ »

« لان الخمسة عشر جنيها لا تكفي لتغطية نفقات المنامة والطعام والتعليم ، ولان العجز المالي يغطى بالتبرعات » .

« ومن الذي يتبرع ؟ »

« بعض السيدات والسادة من ذوي النفوس المطبوعة على الخير في هذا الاقليم وفي لندن » .

« ومن كانت ناوومي بروكلهورست ؟ »

« السيدة التي شيدت الجزء الجديد من هذا المبنى ، كما تنص اللوحة الحجرية ، والتي يشرف ابنها على كل شيء ويدير كل شيء هنا » .  
« لماذا ؟ »

« لانه أمين صندوق المؤسسة ومديرها » .

« واذن فهذا المبنى ليس ملكا لتلك السيدة الفارعة الطول التي تحمل



- ساعة ، والتي قالت انها أصدرت أمرها باعطائنا شيئا من الخبز والجبن ؟ »
- « لمس تامبل ؟ اوه ، لا ! ليته كان ملكا لها ! الواقع انها مسؤولة تجاه مستر بروكلهورست عن كل عمل من أعمالها . ان مستر بروكلهورست يشتري كل ما نحتاج اليه من طعام وثياب . »
- « وهل يقيم هنا ؟ »
- « لا ، انه يقيم على مبعدة ميلين ، في قصر ضخمة . »
- « وهل هو رجل طيب ؟ »
- « انه رجل دين . ويقولون انه فعال للخير . »
- « هل قلت ان السيدة الفارعة الطول تدعى مس تامبل ؟ »
- « أجل . »
- « وما أسماء المدرسات الاخريات ؟ »
- « أما ذات الخدين المتوردين فتدعى مس سميث . انها تشرف على اعمال الخياطة ، وتفصل لنا ثيابا - ذلك بأننا نقوم بخياطتها بانفسنا - كما تفصل جلابينا وكل شيء . وأما المعلمة ذات الجسم الضئيل والشعر الاسود فتدعى مس سكاتشيرد ، وهي تدرس مادتي التاريخ والنحو وتختبر طالبات الصف الثاني في دروسهن المستظهرة عن ظهر قلب . وأما ذات الشال وذات المنديل المثبت الى جنبها بشريط اصفر فهي مدام بييرو . انها من «ليل» من أعمال فرنسة ، وهي تعلم اللغة الفرنسية . »
- « وهل تحبين المعلمات ؟ »
- « أجل ، أحبهن . »
- « وهل تحبين المعلمة السمراء ، ذات الجسم الضئيل ومدام . ؟ أنا لا أستطيع أن ألفظ أسمها كما تلفظينه . »
- « ان مس سكاتشيرد سريعة الانفعال . وينبغي أن تحاذري اغضابها . أما مدام بييرو فليست رديئة . »
- « ولكن مس تامبل هي أفضلهن ، أليس كذلك ؟ »
- « مس تامبل طيبة جدا ، وبارعة جدا . أنها اعلاهن قدرا ، لأن معرفتها تفوق معرفتهن بكثير . »
- « هل انقضى على وجودك هنا زمان طويل ؟ »
- « سنتان . »
- « هل أنت يتيمة ؟ »
- « لقد ماتت أُمِّي . »
- « وهل انت سعيدة هنا ؟ »
- « يخيّل الي انك تسألين أكثر مما ينبغي . ولقد قدمت اليك من الاجوبة ما يكفي في الوقت الحاضر . واني أود الآن أن أنصرف الى المطالعة . »
- ولكن الجرس قرع في تلك اللحظة مؤذنا بموعد الغداء . فاذا بالطالبات كلهن يعاودن الدخول الى الدار . ان الرائحة التي ملأت قاعة الطعام ، الآن ،

لم تكن أكثر اغراء من تلك التي داعبت انوفنا ساعة الفطور ، الا قليلا : لقد جيء بالغداء في وعائين صفيحيين ضخمين انبعث منهما بخار قوي عابق بريح دهن زنج . واكتشفت أن الطعام كان يتألف من بطاطا تافهة مطهوة مع شرائح غريبة من لحم ناصل اللون . وعلى صحن كل من الطالبات بكمية غير يسيرة من هذا المزيج . وأكلت ما استطعت أن آكله ، وتساءلت في ما بيني وبين نفسي : ترى هل سيكون الطعام ، كل يوم ، على هذه الشاكلة ؟

وبعد الغداء انتقلنا ، في الحال ، الى حجرة الدرس . واستأنفت الدروس ، ولم تنته الا في الساعة الخامسة .

كانت الحادثة الوحيدة البارزة التي لفتت نظري ، ذلك الاصيل ، هي اخراج مس سكاتشيرد للفتاة التي كنت تحدثت اليها في الشرفة ، اخراجا مخريا . من صف التاريخ : لقد فرضت عليها أن تقف وسط حجرة الدرس الرحبة . والواقع ان هذه العقوبة بدت لي شائنة الى أبعد الحدود ، وبخاصة بالنسبة الى فتاة في مثل هذه السن المتقدمة ، اذ تراءى لي انها في الثالثة عشرة من العمر ، أو أكثر قليلا . وتوقعت ان تنكشف الفتاة عن امارات من الغم والخجل الشديدين ، كم كان دعشي عظيما حين وجدت انها لم تذرف دمعة ولم تحمر خجلا : لقد وقعت ثمة مكفهرة الوجه من غير ريسب ولكنها رابطة الجأش تنطلع اليها الاعين كلها . وسألت نفسي : « كيف تأتي لها ان تحتمل القصاص بمثل هذا الهدوء كله وهذه الرزانة كلها ؟ لو اني كنت في مكانها اذن لتمنيت ، في ما يبدو لي ، لو انشقت الارض وابتلعتني . انها تبدو وكأنها تفكر في شيء أبعد من عقوبتها . . . أبعد من وضعها ، في شيء ليس حولها ولا أمامها . ولقد سبق لي أن سمعت باحلام اليقظة . . فهل هي في حلم من احلام اليقظة الآن ؟ كانت عيناها مصوبتين الى الارض ولكنني واثقة من انهما لا تريانها - لقد بدا وكأن نظرها مرتد الى باطنها . يحاول ان ينفذ الى فؤادها : انها تستعرض ما تستطيع أن تتذكره ، في ما اعتقد ، لا ما يحيط بها فعلا . أنا لا اقضي العجب من أمر هذه الفتاة وما ادري أهى بنت طيبة أم بنت خبيثة .

وبعيد الساعة الخامسة تناولنا وجبة اخرى تتألف من قدح صغير من القهوة ونصف شريحة من خبز أسمر . والتمت شريحتي وشربت قهوتي في تلذذ بالغ ، بيد انه كان خليفا بي أن أبتيج لو أصبت من ذلك قدرا أكبر . . . فقد كنت لا أزال جائعة . وعقبت ذلك فترة من الاستجمام دامت نصف ساعة ، ثم فترة المذاكرة ، ثم كأس الماء وقطعة حلوى الشوفان . فالصلوات ، فالايواء الى الفراش . ذلك كان هو يومي الاول في نووود .

٦

وبدأ اليوم التالي كما بدأ اليوم الاول سواء بسواء : لقد نهضنا من فرشنا وأرتدينا ملابسنا على ضوء شمعات القش المغموسة في الدهن .

ولكننا اضطررنا ، هذا الصباح ، الى التجاوز عن مراسيم الاغتسال : لقد كانت المياه متجمدة في الاباريق . كان تطور قد طرأ على الاحوال الجوية في الليلة البارحة . وكانت ريح شمالية شرقية عاتية ، صافرة طوال الليل من خلال الفجوات في نوافذ مخدعنا ، قد جعلتنا نرتعد في فرشنا ، وأحالت محتويات الجرار الى جليد .

وقبل أن تنقضي فترة الصلوات وتلاوة الكتاب المقدس ، وهي فترة طويلة استغرقت ساعة ونصف ساعة ، استشعرت اني على وشك أن أقضي نحبي من الزمهير . ثم أن موعد الفطور حان ، آخر الأمر ، وهذه المرة لم يكن الشريد محروقا . كان النوع سائغا في الحلق وكانت الكمية صغيرة . ولشد ما بدت حصتي ضئيلة ! لقد تمنيت لو انها ضوعفت .

وخلال النهار سجلت طالبة في الصف الرابع ، وعهد الي في القيام بهام واعمال نظامية . لقد كنت حتى ذلك الحين مجرد متفرجة اشهد مسرحية الحياة في لورود ، أما الآن فقد عدت هذا الطور واصبحت احدى الممثلات المشتركات في تلك المسرحية . واذا لم آلف من قبل عادة الحفظ عن ظهر قلب ، الا قليلا ، فقد بدت الدروس لي ، في بادئ الامر ، طويلة وعسيرة في آن معا ، وكان في الانتقال المتواتر من مهمة الى مهمة ما شوشني وأربكني ، أيضا ، ومن أجل ذلك ابتهجت عندما دفعت الي مس سميث ، حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر ، قطعة من الموسلين يبلغ طولها ياردتين ، وابرة وكشتبانان الخ وطلبت الي أن أجلس في زاوية هادئة من حجرة الدرس وكلفتني أن أهدب تلك القطعة . وفي تلك الساعة كانت الكثرة الكبيرة من الفتيات منهمكات في عمل مماثل ، ولكن طالبات أحد الصفوف كن لا يزلن متحلفات حول كرسي مس سكاتشيرد يقرآن ، واذا كان كل شيء هادئا فقد كان في ميسور المرء أن يسمع موضوع دروسهن ، وطريقة كل فتاة في الاداء ، وتقيب مس سكاتشيرد لهذا الاداء أو ثناءها عليه . كان درسا في التاريخ الانكليزي ، وبين القارئ لمحت وجه البنت التي كنت قد تعرفت اليها في الشرفة . ان مكانها كان ، عند بداية الدرس ، في مقدمة الصف ، ولكنها ما لبثت ان نقلت الى مؤخرته لخطأ في النطق ارتكبته ، أو لعدم انتباه الى مواطن الوقف . وحتى في موضعها المقصور ذاك ، ظلت مس سكاتشيرد تجعل منها موضوع ملاحظات موصولة : انها لم تنقطع عن مخاطبتها بأمثال هذه العبارات :

— « بيرنز » ( كان ذلك هو اسمها في ما يبدو ، وكانت الفتيات هنا ، ينادين باسماء عائلاتهن ، كما ينادى الفتيان في مكان آخر ) ، « بيرنز انت تميلين رجلك الى حرف حذائك ، سارعي الى اتخاذ وضع سوي » . « بيرنز ، أنت تدفمين ذقنك الى أمام على نحو ليس اشنع منه ، ردي ذقنك الى الوراء » ، « بيرنز ، أنا أصر على ضرورة رفع رأسك عاليا ، أنا لا أرضى أن تتخذي أمامي مثل هذا الوضع » . الخ . الخ .

حتى اذا تلي احد الفصول مرتين متواليتين أغلقت الكتب وأخضعت

الطالبات لامتحان . كان الدرس قد اشتمل على جزء من عهد الملك تشارلز الاول ، وكانت ثمة اسئلة مختلفة عن حمولة السفن بالاطنسان وبلاارطال الانكليزية والضرائب المفروضة في زمن الحرب على الموانئ البحرية ، وهي اسئلة بدت كثرة الطالبات عاجزة عن الاجابة عنها . ومع ذلك فقد كانت كل صعوبة صغيرة تحل مباشرة حين تنتهي الى بيرنز : لقد بدت وكان ذاكرتها قد استوعبت مادة الدرس كله ، ولقد كانت مستعدة ابدا للاجابة عن كل سؤال . وظللت ارتقب أن تعمد مس سكاتشيرد الى اطراء حسن انتباه بيرنز ، ولكنها بدلا من ذلك صاحت فجأة :

« يا لك من بنت قدرة بغيضة ! انك لم تنظفي اظافسرك ، البتة ، هذا الصباح ! »

ولم تحر بيرنز جوابا . وأدهشني صمتها .

وفكرت في ما بيني وبين نفسي : « ولكن لماذا لا توضح لها انه لم يكن في وسعها ان تنظف اظافرها او ان تغسل وجهها بسبب من تجمد الماء ؟ »

وصرف انتباهي عن ذلك عندما طلبت مس سميث الي أن أمسك شلة خيوط . وفيما هي تلف هذه الخيوط راحت تتحدث الي بين الفينة والفينة ، سائلة اياي هل دخلت مدرسة ما من قبل ، وهل أعرف الرسم واللفق والحبك الخ . ولم يكن في مستطاعي أن أوصل ملاحظتي حركات مس سكاتشيرد الا بعد أن صرفتني مس سميث . حتى اذا عدت الى مقعدي كانت تلك السيدة تصدر أمرا من أوامرها لم أدرك مضمونه ، ولكن بيرنز غادرت الصف في الحال ، ومضت الى حجرة داخلية صغيرة ، حيث 'تحفظ الكتب ، لتعود ادراجها بعد نصف دقيقة وفي يدها حزمة من القضبان شُد بعضها الى بعض عند واحد من طرفيها . وقدمت بيرنز هذه الاداة المشؤومة الى مس سكاتشيرد في كياسة راشحة بالاحترام ، ثم انها حلت مئزرها في هدوء ، ومن غير أن يطلب اليها ذلك ، فسارعت المعلمة الى ضربها على العنق ، بحزمة القضبان ، ضربا مبرحا . ان دمعة واحدة لم تنفر الى عيني بيرنز . وكفت أصابعي عن اللفق ، بعد ان ارتعشت لهذا المشهد بغضب عاجز غير مجد . وفي خلال ذلك لم تغير أي من قسماات وجهها المستغرق في التفكير تعبيرها العادي .

وصاحت مس سكاتشيرد : « فتاة عديمة الاحساس ! ليس ثمة ما يستطيع أن يحملك على اطراح عاداتك القذرة . أعيدي حزمة القضبان الى موضعها ، » .

وامثلت بيرنز الامر . وانعمت النظر اليها فيما كانت تغادر حجرة الكتب : كانت في تلك اللحظة بالذات تعيد منديها الى جيبها ، وكان يلتصق على خدها الناحل أثر دمعة .

وكانت فترة الاستراحة الليلية هي ، في ما خيل الي ، أجمل ساعات اليوم ، في لووود ، واكثرها ابهاجا للنفس . ذلك بأن كسرة الخبز وجرعة القهوة اللتين التهنأهما في الساعة الخامسة كانتا قد أحيتا ذابل نشاطنا ، ان لم تسكتنا جوعنا ، وبين بح النهار الطويل قد تراخي ، وبأن حجرة

الدرس أمست أشد دفنا مما كانت في الصباح ، بعد ان اجيز لنيرانها أن تضطرم على نحو اكثر اشراقا بعض الشيء ، لكي يستعاض بها عن الشموع التي لم تحمل الى الحجرة الا في ما بعد . كان في الشفق المتوهج ، والهدير المباح ، وتبلبل الاصوات ما أوقع في نفسي شعورا بالحرية سائغا .

وفي مساء اليوم الذي شهدت فيه مس سكاتشيرد تجسّد تلميذتها ، بيرنز ، طوفت كمألف عادتي بين المقاعد الخشبية الطويلة والطاولات والجماعات الضاحكة ، متوحدة من غير رفيق ، ومع ذلك فاني لم أشعر بشيء من الوحشة ، وحين اجتزت بالنوافذ رحت أرفع بين الفينة والفينة مصراعا من المصاريع وأطل منه . كان الثلج يتساقط متلاحقا ، وكانت كومة منه قد تشكلت خلف الواح النافذة الزجاجية الدنيسا . حتى اذا أدنيت أذني من النافذة استطعت أن أميز أنين الريح الكثيب في الخارج من الجلبة البهيجة في الداخل .

ولعله كان خليقا بي - لو اني كنت قد فارقت منذ قريب بيتا طيبا وأبوين كريمين - أن أجد تلك الساعة ادعى ما تكون الى اثاره أسقي للبعاد . ولعله كان جديرا بالريح أن تحزن فؤادي ، وبهذا العماء المظلم أن يعكر علي صفو طمانينتي . أما وحالي كما عرف القاري فقد استمددت منهما كليهما احتياجا غريبا . واذ كنت طياشة عارمة النشاط فقد تمنيت لو تعوي الريح في ضراوة أشد ، ولو تحلّوك الظلمة لتسمي ليلا دامسا ، ولو تستفحل البلبلة وتستحيل صخبها .

وشفقت طريقي ، واثبة فوق المقاعد الخشبية الطويلة زاحفة تحت الطاولات ، الى أحد المواقف . وهناك وجدت بيرنز ، راكعة قرب حاجز النار الحديدي ، مستغرقة ، صامتة ، منصرفة عن كل ما حولها برفقة كتاب كانت تظالعه على وهج الجمرات القاتم .

وسألتها وأنا اقترب نحوها من خلاف : « ألا تزالين تظالعين كتاب راسيلاس ؟ »

فأجابت : « أجل ، ولقد فرغت من مطالعته اللحظة . »  
وبعد خمس دقائق أغلقتها . وسرني ذلك وقلت في ذات نفسي : « لعلني أن أوفق الآن الى حملها على الكلام . »  
وقعدت بحذائها على الارض .  
وسألتها : « ما اسمك الاول ؟ »

- « هيلين . »

- « هل انت من بلد يبعد كثيرا عن هذا المكان ؟ »

- « أنا من بلد شمالي ناء . أنه يقع على حدود اسكتلندة تماما . »

- « وهل ستترجعين الى هناك يوما ؟ »

- « أرجو ذلك . ولكن أحدا لا يستطيع أن يكون على مثل اليقين من

تسفييل . »

- « انك ترغيبين في الرحيل عن لووود ، من غير شك ؟ »  
- « لا ، وما الذي يحملني على ذلك ؟ لقد 'ارسلت الى لووود طلبا للعلم ، ولن يكون ثمة جدوى في الرحيل الا بعد أن أحقق هذا الهدف » .  
- « ولكن لماذا تعاملك تلك المعلمة ، مس سكاتشيرد ، هذه المعاملة الوحشية كلها ؟ »

- « تعاملني معاملة وحشية ؟ لا ، على الاطلاق ! انها صارمة ، انها تكره اخطائي » .  
- « لو كنت في مكانك اذن لكرهتها ، اذن لقاومتها . ولو قد ضربتني بذلك القضيب اذن لانتزعته من يدها وكسرتة على مرأى منها » .

- « اغلب الظن انك لن تفعلي شيئا من مثل ذلك . اما اذا فعلت فعندئذ يفصلك مستر بروكلهورست من المدرسة ، وعندئذ يكون ذلك مبعث اسى عظيم لذويك . ولان يحتمل المرء ، في اضطبار ، الما واخزا لا يحس به غيره خير الف مرة من ان يقدم على عمل طائش تمتد آثاره السيئة الى كل من له صلة به . والى هذا ، فالكتاب المقدس يأمرنا بان نرد على العمل السيء بعمل صالح . »

- « ولكن من الخزي ان يجلد المرء ، وان يطلب اليه الوقوف وسط حجرة غاصة بالناس ، خاصة وانت بنت كبيرة : انا اصغر منك سنا ، ولست اقدر على احتمال ما احتملته » .

- « ومع ذلك فان من واجبك احتماله ، ان لم توفيقي الى اجتنابه . وانه لمن الضعف والحماقة ان تقولي انك « لا تقدرين على احتمال » ما قدّر عليك ان تطالبي باحتماله » .

كنت اسمع الى هذا الكلام في دهش : فانا لم استطع ان افهم مذهب الاحتمال هذا ، ولقد كنت أقل فهما لذلك الحلم الذي تكشفت عنه نحو المرأة التي عاقبتها بالضرب وأقل تقديرا له . ومع ذلك فقد شعرت بان هيلين بيرنز نظرت الى الاشياء على ضوء محجوب عن عيني . وداخلني ظن بأنها قد تكون على حق وان ما ذهبت اليه انا باطل . ولكنني لم ارغب في تعمق هذه المسألة ، مؤثرة ، مثل فيلكس ، ان ارجى بحثها الى فرصة انسب .

وهكذا قلت : « تقولين ، يا هيلين ، ان لك اخطاء ، فما هي ؟ انك تبدين في عيني بنطا طيبة جدا » .

- « اذن فتعلمي مني ان لا تحكمي على الامور بمظاهرها . اني ، كما قالت مس سكاتشيرد ، فتاة قادرة . انا لا اضع الاشياء في اماكنها الا نادرا ولا ارتبها البتة . انا فتاة مهمة . انا انسى النظم والقواعد . انا أقرأ في اللحظة التي يتعين علي فيها ان احفظ دروسي . وليس لي منهج او طريقة . وفي بعض الاحيان اقول ، كما تقولين ، اني لا اطيع ان اكره على الخضوع لقانون . وهذا كله يشير مس سكاتشيرد الى ابعاد الحدود ، مس سكاتشيرد التي هي بطبيعتها نظيفة ، دقيقة ، موسوسة » .

فاضفت : « ونزقة ، ووحشية » ، ولكن هيلين رفضت اقرارا ما اضفته .  
لقد اعتصمت بالصمت .

« وهل تعاملك مس تامبل بمثل قسوة مس سكاتشيرد ؟ »  
ولم اكد اللفظ اسم مس تامبل حتي رفت على محياها المكفهر ابتسامة عذبة وقالت : « مس تامبل زاخرة بالطيبة ، وانه ليوجعها ان تكون قاسية على اياما مخلوق ، حتى على اسوأ طالبة في المدرسة . انها ترى اخطائي وتنبهني اليها في تلطف . واذا ما وفقت الى عمل جدير بالشناء اغدقت علي الثواب في سخاء . ومن الادلة القوية على طبعي المعتلة الى حد يبعث على الرثاء ان اعتراضاتها نفسها ، وهي اعتراضات معتدلة ومنطقية الى ابعد الحدود ، تعجز عن شفائي من اخطائي . وحتى ثناؤها ، برغم اني اقدره حق قدره ، لا يستطيع ان يحفزني الى التعلق باهداب العناية وتدبر العواقب » .  
فقلت : « غريب هذا . فمن اسهل الامور على المرء ان يتعلق باهداب العناية » .

« لست اشك في ان ذلك سهل عليك انت . لقد راقبتك في صفك هذا الصباح فرأيت انك كنت شديدة الانتباه . ان افكارك لم تشرذ قط ، في ما بدا لي ، بينا كانت مس ميلر تشرح الدرس وتوجه الاسئلة اليكن . اما انا فموزعة النفس ابدا . فحين يتعين علي ان اصغي لمس سكاتشيرد وان احيط بكل ما تقوله في انتباه بالغ اجدني اغفل حتي عن صوتها نفسه : اني استغرق في شبه حلم . وفي بعض الاحيان يخيل الي اني في نوثامبرلند ، وان الضجة التي اسمعها من حولي هي خرير جدول يجري عبر « ديدن » ، قرب بيتنا - حتي اذا جاء دوري في الاجابة احتجت الى من يوقظني ، وعندئذ لا يكون في متناولي أي جواب جاهز لاني لم اسمع شيئا مما تلي ، نتيجة لاصاختي الى الجدول الخيالي » .

« ومع ذلك فقد اجبت احسن ما تكون الاجابة ، هذا الاصيل » .  
« كان هذا مصادفة محضة . فقد اتفق ان راق لي الموضوع الذي كنا نقرأه . وبدلا من ان احلم ، هذا الاصيل ، بـ « ديدن » كنت افكر متعجبة كيف يستطيع رجل راغب في العمل الصالح ان يأتي اعمالا موعلة في الظلم والخلل ، فعل تشارلز الاول احيانا . وقلت في ذات نفسي : كم هو مؤسف ان يعجز هذا الملك ، برغم نزاهته وضميره الحي ، عن النظر الى ما هو ابعد من امتيازات التاج . ليته استطاع ان ينظر الى بعيد ، وان يدرك اتجاه ما يسمونه روح العصر !... »

كانت هيلين تتحدث الان وكأنها تخاطب نفسها : كانت قد نسييت انه لم يكن في ميسوري ان افهمها فهما جيدا - اني كنت جاهلة ، او شبه جاهلة ، للموضوع الذي عالجتة . فسألتها ، محاولا ان اردھا الى مستوى فهمي :  
« وحين تعلمك مس تامبل هل تشرذ افكارك ايضا ؟ »

« لا ، من غير ريب ، واذا شردت فانها لا تشرذ في معظم الاحوال » .

لان لدى مس تامبل ، عادة ، ما تقوله ، ولان ما تقوله اكثر جدة من خواطري .  
ان لغتها لتستهويني ، والمعرفة التي تنقلها اليها كثيرا ما تكون هي عين ما  
ارغب في اكتسابه .

« واذن فانت في صف مس تامبل فتاة طيبة ؟ »

« نعم ، بطريقة سلبية : انا لا ابذل اي جهد ، انا اتبع نزوعا يهديني  
سواء السبيل . وليس لي في مثل هذه الطيبة فضل ما . »

« على العكس ، ان لك فضلا كبيرا : انت طيبة مع من يعاملك معاملة  
طيبة . وهذا اقصى ما اطمع انا فيه ، ابد الدهر . ولو ان الناس تعلقوا دائما  
بأهداب اللطف مع من يعاملهم في وحشية ، وظلم ، ولو انهم خضعوا دائما  
لهم ، اذن لمضى الاشرار على هواهم ، واذن لما استشعروا الخوف ابدا ، ولما قدر  
لهم ان يغيروا ما بانفسهم : على العكس ان ذلك خليق به ان يزيدهم امعانا في  
الغي والضلال . وحين نضرب لغير ما سبب يتعين علينا ان نرد ، في قوة  
وعنف ، بضربة مماثلة . انا واثقة من انه يتعين علينا ذلك - وفي قسوة كافية  
لتلقيين من يضربنا درسا يجعله لا يعود الى مثلها كرة اخرى . »

« سوف تغيرين رأيك ، في ما ارجو ، يوم تبلفين سنا اعلى ، ذلك  
بانك لا تزالين فتاة غرة جاهلة . »

« ولكنني احس بهذا يا هيلين : يجب علي ان ابغض اولئك الذين  
يصرون على ابغاضي مهما عملت لارضائهم ، يجب علي ان اقاوم اولئك الذين  
يعاقبونني ظلما وعدوانا . وهو موقف طبيعي بقدر ما هو طبيعي ان احب  
اولئك الذين يظهرون لي الود والحنان ، وبقدر ما هو طبيعي ان اخضع للعقوبة  
حين استشعر اني استحقها . »

« ان القبائل الوثنية والوحشية هي التي تؤمن بهذه العقيدة ، اما  
الشعوب المسيحية والمتمدنة فتكرها . »

« كيف ؟ لست افهم . »

« ان العنف ليس خيرا ما يتغلب على البغض ، والثار ليس خيرا بلسم  
لجراح الظلم والاذي . »

« وما هو ذلك البلسم اذن ؟ »

« اقرأي العهد الجديد من الكتاب المقدس ولاحظي ما يقوله المسيح ،  
وكيف يسلك . اتخذي من كلامه قاعدة ، ومن مسلكه مثلا يحتذى . »

« وماذا يقول ؟ »

« احبوا اعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، احسنوا الى مبغضيكم وظالميك . »

« واذن فيتعين علي ان احب مسز ريد ، وهذا عمل لا استطيعه . »

ويتعين علي ان ابارك ابنها جون ، وهو شيء مستحيل . »

وبدورها سألتني هيلين بيزنز ان اوضح ما قلته ، فرحت اقص عليها ،  
بطريقتي الخاصة ، حكاية آلامي واحقادي . واذ كنت فريسة المرارة والشراسة ،  
كدأبي كلما استبد بي الهياج ، فقد تحدثت على نحو ما شعرت ، في غير ما



تحفظ ولا تلطيف .

واصاغت هيلين الي ، في صبر بالغ ، حتى النهاية . وتوقعت ان تطلق عندئذ ملاحظة ما ، ولكنها لم تنبس بكلمة .

وسألتها بفروغ صبر : « حسنا ، اليسست مسز ريد امرأة رديئة غليظة القلب ؟ »

- « لقد كانت قاسية عليك ، من غير ريب ، لانها ، كما ترين ، تبغض نوع خلقتك كما تبغض مسز سكاتشيرد نوع خلقي . ولكن ما اشد الدقة التي تتذكرين بها كل ما فعلته بك وكل ما قالت لك ! واية انطباعة عميقة الى حد فريد يبدو ان اضهادها اياك قد خلفها في فؤادك ! ان مشاعري لم تعرف مثل هذه الانطباعة قط لاني لم اتعرض لظلم مماثل . اليس خنيقا بك ان تكوني اكثر حظا من السعادة لو حاولت ان تنسي قسوتها والعواطف المحتاجة التي اثارتها في ذات نفسك ؟ ان الحياة تبدو لي اقصر من ان تنفق في اذكاء البغض او تسجيل المظالم . اننا كلنا -- ويجب ان نكون كذلك -- مثقلون بالاخطاء في هذا العالم ، ولكني واثقة من اننا سوف نخلمها عما قريب لحظة نخلع اجسادنا القابلة للفساد ، عندما ينفصل عنا الفس والاثم بسقوط هيكل اللحم المربك هذا ، فلا يبقى غير شرارة الروح - اصل الحياة والفكر وجوهرهما اللطيف الذي لا يدرك باللمس - نقية طاهرة كيوم فارقت الخالق لتوجد المخلوق . هذه الشرارة لا بد عائدة من حيث جاءت ، ولعلها ستعود لتنفخ من جديد في كائن اسمى من الانسان - وربما لكي ترقى في معارج المجد ، من النفس البشرية الهزيلة الى النفس الملائكية المتألقة ! وليس من ريب في انها لن يجاز لها الانحدار بحال من الاحوال ، بالانتقال من انسان الى شيطان . لا ، انا لا استطيع ان اصدق ذلك : اني اؤمن بعقيدة اخرى ، لم يلقني اياها احد البتة ، عقيدة نادرا ما المص اليها ، ولكني اجد فيها ابتهاجا غامرا ، فانا حريصة على التعلق بها ، لانها تبعث الامل في نفوس الناس جميعا ، وتجعل الابدية راحة - منزلا رائعا ، لا هولا ولا هاوية . والى هذا ، فان هذه العقيدة تتيح لي ان اميز في كثير من الوضوح ، ما بين المجرم وجريمته ، وتمكنني من ان اغفر ، في كثير من الاخلاص ، للاول فيما امقت الاخرى . وبفضل هذه العقيدة ، يتعذر على الانتقام ان يزعم فؤادي ، ويستحيل على التحقير ان يثير اشمئزازي اثاره اعظم مما ينبغي ، ويمتنع على الظلم ان يسحق روحي ويذلها اشد الذلال : اني احيا في طمأنينة ، متطلعة الى اللحظة التي يجي فيها اجلي ، »

والنوى رأس هيلين ، المنحني ايدا ، التواء اضافيا عندما اتمت هذه الجملة . لقد لمحت من نظرتها انها ما عادت راغبة في التحدث الي ، وانها تؤثر ان تتحدث الى افكارها الخاصة . ولكن فترة التأمل التي اتبعت لها لم تكن طويلة . فما هي الا لحظات حتى اقبلت عريفة من العريفات ، وهي فتاة كبيرة حلقة ، وصاحت في نبرة كومبرلندية قوية :

- « هيلين بيرنز ، اذا لم تذهبي وترتبي درجك وتطوي اشغالك في هذه

اللحظة فسوف اسأل مس سكاتشيرد ان تأتي وتري كل ذلك بنفسها !  
وزفرت هيلين اذ رأت ان حلمها ينقطع ، ونهضت من مكانها ممثلة امر  
العريفة في غير ما ابطاء ، ومن غير أن تحير جوابا .

## ٧

لقد بدا فصلي الدراسي الاول ، في ليوود ، وكأنه عصر ، بيد انه لم  
يكن عصرا ذهبيا على اية حال . لقد انطوى على نضال مرير مع مصاعب  
اعترضت سبيل اخذ نفسي بالخضوع لقواعد جديدة ومهام غير مألوفة .  
والواقع ان خوف الاخفاق في ذلك كان اشد وطأة على نفسي من المصاعب  
المادية التي واجهتها ، برغم ان هذه الاخيرة لم تكن هنات هينات .

وفي خلال كانون الثاني ( يناير ) وشباط ( فبراير ) وجزء من آذار  
( مارس ) حال تراكم الثلج ، وبعد ذوبانه حالت الطرق التي تعذر اجتيازها  
او كاد ، دون تجاوزنا اسوار الحديقة ، الا ابتغاء الذهاب الى الكنيسة . ولكنه  
كان علينا ان نقضي ، ضمن هذه الحدود ، ساعة كل يوم في الهواء الطلق .  
وكانت ثيابنا اعجز من ان تقينا غائلة البرد القارس ، ولم تكن ننتعل احذية  
طويلة الساق فكان الثلج ينفذ الى احذيتنا ويذوب فيها . وكانت اكفنا غير  
المقفزة تنمل وتخدّر ، وكانت بشرتها تتشقق وتثورم من اثر البرد .  
والشيء نفسه كان يصيب اقدامنا . وانا اذكر جيدا ذلك الالتهاب المزعج الذي  
كنت احتمله من جراء هذا كل ليلة ، عندما تتقرح قدمي ، وذلك العذاب  
الناشئ عن اقحام اصابع قدمي المتورمة ، المقرورة ، المتصلبة ، في حذائي كل  
صباح . ثم ان زادنا الهزيل من الطعام كان يوقع الاسى في النفس : فقد كنا ،  
برغم ما استشعرناه من شهوة بالغة الى الطعام يتميز بها الاطفال في دور النمو ،  
لا نكاد نفوز بما يكفى لاسماك الرمق على مريض موهون القوى . ولقد نشأ عن  
هذا النقص في التغذية مسلك جائر كان شديد الوطأة على التلميذات الاصغر  
سنا : كانت الفتيات الكبيرات المتضورات جوعا لا يدعن فرصة سانحة الا  
اغتنمنها للاستيلاء على حصص الصغيرات ، بالمداينة حيناً وبالتهديد حيناً .  
وما اكثر ما اقتسمت مع اثنتين من المفتصات تلك القطعة النفيسة من الخبز  
الاسمر الموزع في ساعة الشاي ، حتى اذا تخللت لمغتصبة ثالثة عن نصف ما  
اشتمل عليه فنجان قهوتي ، تجرعت البقية الباقية مصحوبة بعبرات صامتة لم  
ينترعها من عيني غير الجوع الممض .

وكانت ايام الاحد اياما كثيفة في فصل الشتاء ذاك . كان علينا ان  
نسير ميلين اثنين الى كنيسة بروكلبريدج ، حيث كان راعي المدرسة يقوم  
بالخدمة الدينية . كنا نمضي الى الكنيسة مرتعدات من البرد ، وكنا نبلغها  
ونحن اشد ارتعادا ، اما خلال الخدمة الدينية الصباحية فكان البرد يوقع  
الشلل في اوصالنا او يكاد . وكانت الكنيسة من البعد بحيث يتعذر علينا

العودة لتناول طعام الغداء ، فكانت تقدم لنا بين الخدمتين الدينتين انصبه من الخبز واللحم البارد لا تقل ضالة وهزالا عن انصبتنا في الوجبات العادية .

وبعد انقضاء خدمة الاصيل الدينية كنا نعود سالكات طريقا مكشوفة وعرة حيث كانت ريح الشتاء القارسة تهب فوق سلسلة من قمم الجبال الشمالية المكسوة بالثلج فتكاد تسليخ جلد وجوهنا .

واستطيع ان اتذكر مس تامبل وهي تمشي في خفة وسرعة الى جانب صفوفنا الخائرة ، مُحكمة التدثر بعباءتها الصوفية التي عشت بها الريح المثلوجة ، وتشجعنا - من طريق الوعظ والاسوة العملية - على الاحتفاظ بمعنويتنا العالية ، والمضي قدما ، كما قالت ، « كالجنود البواسل » اما المدرسات الاخريات - وما كان أبأسهن من مخلوقات ! - فقد كن من خور النفس وفتور الهمة بحيث تعذر عليهن ان يحاولن تنشيط الاخريات وتشجيعهن .

ولا تسل كم كان توقنا عظيما ، لدن بلوغنا المدرسة ، الى الضياء والحرارة ينبعثان من نار موقدة ! ولكن الصغيرات منا ، على الاقل ، حرمن هذه النعمة : كان صف مزدوج من الفتيات الكبيريات يتحلق ، على التو ، حول كل مستوقد من المستوقدات القائمة في حجرة الدرس ، وخلفهن كانت البنيات يحمن جماعات ويفطين اذرعهن المهزولة باطراف مآزرهن .

وعند ساعة الشاي كنا ننعم بعزاء ضئيل يأتينا على شكل جراية من الخبز مضاعفة - شطيرة كاملة عوضا عن نصف شطيرة - اضيفت اليها مسحة من الزبدة رقيقة ولذيذة : كانت هي الوليمة الاسبوعية التي كنا نرتقبها كلنا في لهفة بالغة ، من الاحد الى الاحد . وكنت اوفق ، عادة ، الى الاحتفاظ بجزء من هذه الوليمة السخية لنفسى . اما سائرنا فكانت اضطر الى التخلي عنه في كل مرة .

وامسية الاحد كنا نقضيها في ترديد « دروس التعليم المسيحي » عن ظهر قلب ، وترديد الاصحاح الخامس والاصحاح السادس والاصحاح السابع من انجيل متى ، وفي الاصحاح الى عظة طويلة تتلوها علينا مس ميلر ، التي كانت تشاؤباتها الممتنعة على الكبح تشهد على مبلغ ما اصابها من كلال وارهاق . وكان من دأب عدد من البنيات ، يبلغ نصف ذينة تقريبا ، ان يقطعن تسلسل هذه الاعمال بتمثيلهن دور يوتيوخوس ، اذ كان يغلبهن النعاس فيسقطن لا من العملية الثالثة ، مثل يوتيوخوس ، ولكن من على المقعد الرابع ، ليحملن بعد نصف ميتات . وكان العلاج ينلخص في دفعهن الى منتصف حجرة الدرس واكرامهن على الوقوف هناك حتى تنجز العظة . وكانت اقدامهن تخونهن ، في بعض الاحيان ، فيتهاوين على الارض متراكمات بعضهن فوق بعض . عندئذ كان يؤتى بكراسي العريقات العالية ، التي لا ظهر لها ، لكي تساعدن على الوقوف وتقيهن شر السقوط .

انا لما الم بعد الى زيارات مستر بروكهورست ، والواقع انه كان غائبا

عن المدرسة خلال الجزء الأكبر من أول شهر انقضى على التحاقها بها ، ولعله أطال مقامه مع صديقه رئيس الشمامسة . ولقد أورتني غيابه شيئاً من الراحة والطمأنينة ، وما أظن أنني في حاجة إلى النص على أنه كانت لدي أسبابي الخاصة التي تدعوني إلى التوجس خيفة من مقدمه . ولكنه قدم ، ورغم ذلك ، آخر الأمر .

و ذات أصيل ( وكنت قد سلخت ثلاثة أسابيع في لورود ) ، بينا كنت جالسة وفي يدي لوح حجري أجهد نفسي في أداء عمل من أعمال القسمة الطويلة ، لمحت عيناى وقد شردتا نحو النافذة ، شخصا يجتاز بالمكان . وتبينت ، على نحو غرزي تقريبا ، هوية ذلك الطيف النحيل . حتى إذا وقف كل من في المدرسة ، حتى المعلمات أنفسهن ، بعد ذلك بدقيقتين ، وقفة رجل واحد ، لم أعد بحاجة إلى رفع ناظري لكي استيقن حقيقة الوفد الذي عبرن عن ترحيبهن على ذلك النحو بمقدمه . لقد زرعت حجرة الدرس وإذا بالعمود الأسود نفسه ، الذي قطب في وجهي على نحو مشؤوم إلى أبعد الحدود من فوق بساط المستوقد في غايتسهيد ، يقف فجأة إلى جانب مس تامل التي كانت قد نهضت هي أيضا مع الناهضات . عندئذ اختلست النظر ، على نحو جانبي ، إلى هذه « التحفة المعمارية » . أجل ، لقد كنت على صواب : كان هو مستر بروكلهورست ، مرتديا معطفا مزرا حتى العنق ، وقد بدا في عيني أطول قامة ، وأشد هزالا ، وأكثر تيبسا من أيما وقت مضى .

وكانت لي أسبابي الخاصة التي تدعوني إلى الذعر من هذا الظهور الشبحي : فقد تذكرت جيدا تلك الملاحظات الخاتلة التي قدمتها مسز ريد إليه في ما يتصل بنزعاتي وميولي ، والعهد الذي أخذه مستر بروكلهورست على نفسه بأن يلفت نظر مس تامل وانظار المعلمات إلى طبيعتي الخبيثة . والحق أنني كنت طوال الوقت أخشى الوفاء بهذا العهد ، - كنت أنتظر يوما وفود « الرجل القادم » الذي كان مقدرا لمعلوماته عن حياتي الماضية وعن مسلكي أن تسمني إلى الأبد بـ « طفلة خبيثة » . وها هو ذا الآن هناك . لقد وقف إلى جانب مس تامل ، كان يهمس في أذنها : ولم يساورني ريب في أنه كان يسر إليها بحديث دناوتي وخباثتي ، وراقبت عيناها في قلق مومج ، متوقعة كل لحظة أن أرى أنسانها الأسود يحدنني بنظرة اشمزاز واحتقار . وارهفت السمع أيضا ، وإذا اتفق أن كنت جالسة في مقدمة الحجرة تماما فقد تلقفت معظم ما قاله ، فسرّى فحواه عني وحررني من خوفاي المباشر .

- « أنا أحسب ، يا مس تامل ، أن الخيط الذي اشتريته من لوتون مناسب . لقد وقع في نفسي أنه هو الصنف الملائم كل الملاءمة لقمصان الخام ، ولقد صنفت الأبر لتوافقه . ويحسن بك أن تعلمي مس سميث أنني نسيت أن أضع مذكرة حول أبر الرفو ، ويتعين عليها أن لا تقدم بأية حال أكثر من أبرة واحدة إلى كل طالبة . اننا أن اعطيناهن أكثر من ذلك نزعن إلى الإهمال وفرطن في الأبر واضعنها . آه ، يا سيدتي ! أنني لآتمنى لو حظيت الجوارب الصوفية

بغاية اكبر ! فيوم جئت الى هنا في المرة الاخيرة قصدت الى فناء المطبخ وفحصت الملابس المنشورة على جبل الغسيل لتجف ، كان ثمة كمية من الجوارب الطويلة السوداء في حال رديئة جدا : ومن حجم الثقوب التي تبدو فيها ايقنت انها لم تترتق بين الفينة والفينة رتقا حسنا .

وصمت لحظة فقالت مس تامبل : « ان اوامرك ستكون موضع الاحترام ، يا سيدي . »

فواصل كلامه قائلا : « والى هذا ، يا سيدتي ، فقد انبأني الفسالة ان بعض الفتيات يُعطَيْن صُدَيرَتَيْن نظيفتين كل اسبوع . هذا اكثر مما ينبغي . ان الانظمة تقضي باعطائهن صديزية واحدة ليس غير . »

.. « احسب ان في استطاعتي ان اشرح الملابس التي دعت الى ذلك ، يا سيدي ، فقد دُعيت اُغْنِيس وكاترين جونسون لتناول الشاي مع صديقات لهما في لوتون يوم الخميس الماضي ، وقد اجزت لهما ان ترتديا ، لهذه المناسبة الخاصة ، صديريتين نظيفتين . »

فهز مستر بروكلهورست رأسه ثم قال : « حسنا ، في امكاني ان اغض الطرف عن ذلك بعد ان ادركت انه لم يحدث الا مرة واحدة ، ولكني ارجوك ان لا تجيزي لمثل هذه الملابس ان تتكرر كثيرا . وثمة مسألة اخرى ادهشتني : لقد اكتشفت ، عند تسوية الحسابات مع مدبرة شؤون الدار ، ان وجبة صباحية مؤلفة من خبز وجبن قد تقدمت الى البنات مرتين اثنتين خلال الاسبوعين الماضيين . فكيف جاز ذلك ؟ لقد راجعت انظمة المعهد فلم اجد فيها اي ذكر لمثل هذه الوجبة الاضافية . من الذي احدث هذه البدعة ؟ وما السلطة التي تحولت ذلك ؟ »

فاجابت مس تامبل : « يجب ان تتلقى تبعة ذلك علي يا سيدي . لقد كان فطور الصباح مطهوا على نحو رديء جدا تعذر معه على الفتيات ان يزدردنه ، ولم ابرؤ على تررهن صائمات حتى موعد الغداء . »

.. « اسمحي لي لحظة ، يا سيدتي . انت تعلمين ان خطتي في تنشئة هاته الفتيات لا تهدف الى تعويدهن الترف ولين العيش بل تهدف الى تعليمهن الجراءة والجلد وانكار الذات . فاذا اتفق لشهوتهن الى الطعام ان اصبحت بخيبة ضئيلة ، بسبب من افساد الطعام ومن ابقائه على النار اقل مما ينبغي او اكثر مما ينبغي مثلا ، فليس يجوز ان يمحي ذلك الحادث بالتعويض عن الرفه الضائع بتقديم وجبة افضل ، وبذلك نرفه الجسد وننحرف عن الغرض الذي انشئ هذا المعهد من اجله . ان علينا ان نفيد من تلك الخيبة ونتخذها وسيلة لتهديب الطالبات روحيا من طريق تشجيعهن على التجلّد في حالات الحرمان المؤقت . ومن المناسب في امثال هذه الحالات القاء كلمة صغيرة على الطلاب ينتهزها المدرس الحكيم فرصة سانحة للاشارة الى آلام المسيحيين الاولين ، وعذابات الشهداء ، والى مواعظ السيد المسيح المبارك نفسه التي دعا فيها الى حواريه الى ان يحملوا صلبانهم ويتبعوه ، والى

تحذيراته القائلة بان الانسان لا يحيا بالخبز وحده ولكن بكل كلمة تنطلق من فم الله ، والى تعزياته المقدسة : « طوبى لكم اذا قاسيتم الجوع والظما من اجلي . » اوه ، يا سيدتي ، انك حين تضعين خبزا وجبنا ، بدلا من تريد محترق ، في افواه هاته البنيات قد تغذين من غير ريب اجسادهن الدنيئة ولكنك قلما تفكرين الى اي حد تجيعين نفوسهن غير الفانية ! »

وامسك مستر بروكلهورست عن الكلام ، كرة اخرى - ولعله فعل ذلك تحت وطأة الاحاسيس التي هيمنت عليه . وكانت مس تامبل قد غضت من بصرها عندما استهل حديثه معها ، ولكنها حدقت الان الى امام تحديقا مباشرا ، فبدا وجهها - الشاحب بطبيعته شحوب الرخام - وكأنه اكتسب برودة هذه المادة وثباتها ايضا ، وعلى الاخص ثغرها ، المطبق وكان فتحته يحتاج الى ازميل نحات ، وجبينها الذي تغضن آخذا سبيله تدريجيا نحو صرامة متحجرة .

وفي غضون ذلك راح مستر بروكلهورست ، وقد وقف قرب المستوقد شابكا يديه خلف ظهره ، يراقب المدرسة كلها في مهابة وجلال . وفجأة اختلجت عينه ، وكأنما وقعت على شيء بهر انسانها او صدمه ، فاستدار وقال في نبرات اشد تلاحقا مما اصطنع حتى ذلك الحين :

- « مس تامبل ، مس تامبل ! من هي تلك الفتاة ذات الشعر المعقوص ؟ شعر احمر ، يا سيدتي ، معقوص - معقوص كله من اقصاء الى اقصاء ؟ » قال ذلك ورفع عصاه مشيرا بها الى الشيء الرهيب ، وقد ارتجفت يده فيما هو يفعل ذلك .

فاجابت مس تامبل في سكونة بالغة : « انها جوليا سيفرن . »

- « جوليا سيفرن ، يا سيدتي ! ولماذا تعقص هي ، او تعقص اية فتاة اخرى ، شعرها ؟ لماذا تلتزم الزي الشائع التزاما مكشوبا الى هذا الحد ، جاعلة من شعرها كنلة من الحلقات المعقوصة ، متحدية بذلك جميع انظمة هذه الدار ومبادئها ؟ - واين ؟ في مؤسسة انجيلية خيرية ! »

فأجابته تامبل ، في سكونة اشد حتى من سكونتها الاولى : « ان شعر جوليا متجعد بطبيعته . »

- « بطبيعته ؟ اجل ، ولكن الواجب يقتضي ان لا ندعن للطبيعة . انا اريد ان تكون هاته الفتيات بنات الفضيلة المسيحية ، وعلام هذا الترف كله ؟ لقد اشرت مرة ومرة الى اني اود ان تسرح البنات شعرهن على نحو مرسل ، بسيط ، غير متكلف . مس تامبل ، ان شعر هذه الفتاة يجب ان يقص كله ، ولسوف تبعث غدا بحلاق . . . واني لارى فتيات اخريات يلجأن اكثر مما ينبغي الى « تصفيف » شعرهن ورفعهن الى اعلى . . . وهذه الفتاة الطويلة - قلتي لها ان تستدير . قلتي لجميع طالبات الصف الاول ان ينهضن ويوجهن وجوههن نحو الجدار . »

وامرّت مس تامبل مندبها فوق شفتيها ، وكأنما لتمحو الابتسامة غير

الارادية التي باعدت ما بينهما ، ومع ذلك ، فقد اصدرت امرها بذلك . وحين وفقت بنات الصف الاول الى فهم ما طلب اليهن فعله امتثلن الامر . ومن طريق الانحناء قليلا الى الوراء فوق مقعدي الخشبي الطويل استطعت ان المح مختلف النظرات وحركات الوجه الهازئة التي علقن بواسطتها على هذه « المناورة » . ومن اسفل ان مستر بروكلهورست لم يستطع ان يراهن ، كما رأيتهن انا . ولو قد استطاع ذلك اذن لكان من الجائز ان يدرك انه مهما يفعل بظاهر الكأس والطبق فان باطنهما يظل في نجوة من تدخله ، اكثر مما يظن او يتخيل .

واستعرض ظهور هذه « المداليات » الحية متفحصا اياها نحو من خمس دقائق ، ثم لفظ حكمه . ولقد سقطت كلماته على رؤوسنا وكأنها النفخ في الصور :

« جميع هذه الخصل العليا يجب ان تُجتزأ ! »

وبدت مس تامبل وكأنها تحتج .

وواصل مستر بروكلهورست كلامه : « سيدتي ، ان لي سيذا اخدeme مملكته ليست في هذا العالم . ورسالتني هي ان أميت في هؤلاء البنات شهوات الجسد ، ان اعلمهن الاحتشام والرصانة فلا يظهرن ابدا بشعر معقوص وحلة نفيسة . ان في رأس كل من الفتيات اللواتي امامنا ، هنا ، خصلة من الشعر مجدولة ، ولعل يد الزهو هي التي جدلتها . اكرر القول ان هذه الجدائل يجب ان تُجتزأ . فكثري في الوقت المهدور وفي الـ . . . . »

لقد حيل ، هنا ، بين مستر بروكلهورست وبين اكمال حديثه ، بعد ان دخلت الحجرة ثلاث زائرات - ثلاث سيدات . وكان يحسن بهاته النسوة ان يقدن قبل ذلك بقليل ليسمعن محاضراته عن الملابس ، ذلك بأنهن كن يرقلن بالمحمل والحرير والفراء ، على نحو باذخ . كانت الاثنتان الاصغر سنا بين الزائرات الثلاث ( وهما فتاتان وسيمتان في السادسة عشرة والسابعة عشرة ) تعتمران بقبعتين رماديتين من جلد السمور - وكان هذا النوع من القبعات زيا شائعا آنذاك - مظلمتين بريش النعام . ومن تحت حافتي هاتين القبعتين البديعتين تدلت جمهرة من الذوائب الصغيرة المعقوصة عقصا معقدا . وكانت السيدة الكهلة تتشع بشال مخملي نفيس مقلّم بفراء من جلد القاقم ، وتزين جبينها بحليقات من الشعر المستعار ، على الطريقة الفرنسية .

واستقبلت مس تامبل هاته السيدات في جفاوة واحترام بوصفهن السيدة والآنستين بروكلهورست ، وقادتهن الى مقاعد الشرف في صدر الحجرة . ويبدو انهن قد وفدن في المركبة مع نسيبهن المبجل ، ومن ثم انصرفن الى اجراء تفتيش دقيق لغرف الدور العلوي بينا انهمك هو في مناقشة مدبرة شؤون الدار الحساب ، وفي استنطاق الفاسلة ، وفي القاء محاضرة على مديرة المدرسة . ولم يكدن يبلغن مقاعدهن حتى رحن يوجهن ملاحظات وتعنيفات مختلفة الى مس سميث التي كان موكولا اليها امر العناية بالبياضات

المنزلية وتفتيش حجرات النوم • ولكنني لم اجد متسعاً من الوقت للاصغاء الى ما قلته ، فقد صرفتني عنه شؤون اخرى استأثرت بانتباهي كله •

وبرغم انصرافي ، حتى ذلك الحين ، الى تلقف ما دار بين من مستر بروكلهورست ومس تامبل من حديث فاني لم اعمل ، في الوقت نفسه ، اتخاذ الاحتياطات التي تكفل سلامتي الشخصية ، هذه السلامة التي اعتقدت انها سوف تتعرض للاذى الا اذا وفقت الى البقاء في نجوة عن الانظار • من اجل ذلك كنت قد نايت بنفسي الى مؤخرة الصف ، ورجت اظهار بالانهماك في حل مسألتني الحسابية ممسكة بلوحي الحجري على نحو يحجب وجهي عن الابصار • ولقد كان خليقا بي ان اجتنب وقوع العين عليّ لو لم يزل لوحني الغادر ، من يدي ، بطريقة ما ، محدثا قرعة متطفلة لفتت اليّ جميع العيون في الحال • وادركت الان ان كل شيء قد انتهى ، وبينما انحنيت لالتقاط قطعتي اللوح المكسور استجمعت قواي انتظارا لما هو اسوأ •

وكان ما خفت ان يكون ، فقال مستر بروكلهورست : « فتاة مهملة ! » ثم اضاف بعد ذلك مباشرة : « انها الطالبة الجديدة في ما ارى • »

وقبل ان اوفق الى اخذ نفس ، قال : « يجب ان لا انسى ان لدي كلمة اود ان اقولها بشأنها » ثم اردف بصوت عال ، وما اشد ما بدا لي صوته ذاك عاليا ! « ايتي بالطفلة التي كسرت لوحها الحجري الى هنا ! »

ولم يكن في وسعي ان اتحرك من تلقاء نفسي • كنت قد اصبت بالشلل ، ولكن الفتاتين الكبيرتين اللتين جلستا الى جانبي انهضتاني على قدمي ودفعتاني نحو القاضي الرهيب ، ومن ثم اخذت مس تامبل بيدي في رفق وساعدتني على المشول بين يديه ، فسمعتها تهمس في اذني قائلة :

« لا تجزعي يا جين ، لقد رأيت ان ذلك كان مجرد مصادفة • انك لن تعاقبي • »

ونفذت الهمسة الشفوق الى فؤادي مثل خنجر •

وقلت في ذات نفسي : « لن تنقضي دقيقة اخرى حتى تعتبرني فتاة مرئية وتنظر اليّ في ازدراء • »

وعند هذه الادانة عصفت في عروقي غيظ عارم على ريند ، وبروكلهورست ، وشركائهما • فانا لم اكن فتاة من طراز هيلين بيرنز •

وقال مستر بروكلهورست مشيرا الى كرسي عال ، لا ظهر له ، كانت احدى العريقات قد نهضت عنه منذ لحظة : « فلتأني احداكن بهذا الكرسي • »

وجيء بالكرسي ، فقال مستر بروكلهورست : « ضعن الطفلة فوقه ! » ووضعتم حيث ارادني ان اوضع ، وما دريت من الذي وضعني هناك ، فلم اكن في وضع يمكنني من ملاحظة التفاصيل • كل ما ادركته هو اني رفعت الى مستوى انف مستر بروكلهورست بحيث امسى على مدى ياردة مني ، وبحيث انبسط تحتي وتموّج بحر من جلايب حريرية ارجوانية وبرتقالية متغيرة الوانها كل لحظة ، وسحابة من ريش فضي •



وتنحج مستر بروكلهورست ، وقال ملتفتا الى اسرته : « سيداي ،  
مس تأمل ، ايتها المدرسات والطالبات الصغيرات ، هل تريسن كلكن هذه  
الفتاة ؟ »

وقد رأييني من غير ريب . ذلك بانني احسست باعينهن مصوبة على  
بشرتي المسفوعة وكان تلك الاعين عدسات محرقة .

« انتن ترين انها لا تزال صغيرة ، انتن تلاحظن انها تتمتع بشكل  
الطفولة العادي . فقد انعم الله عليها بالصورة التي وهبنا كلنا اياها ، وليس  
ثمة فيها عاهة ملحوظة تنبئ بانها ذات شخصية تلفت النظر . من ذا الذي  
يستطيع ان يتصور ان « الشرير » قد وجد فيها خادما له واتخذ منها اداة لتنفيذ  
مآربه ؟ ومع ذلك ، فيحزنني ان اقول لكن ان هذا هو حالها ، »

وامسك عن الكلام لحظة شرعت فيها اهدى اعصابي الثائرة ، واشعر  
اني اجتزت مرحلة اللارجوع ، وان من واجبي ، بعد ان تعذر علي الفرار من  
وجه المحنة ، ان احتملها في عزم وثبات .

واستأنف الكاهن الرخامي الاسود كلامه في نبرة تشير الشجون :  
« صغيراتي العزيزات ، انها المناسبة محزنة كثية ، فقد اصبح من واجبي ان  
احذر كن فاقول ان هذه الفتاة ، التي قد تكون واحدة من خراف الرب ، هي  
منبوذة صغيرة . انها ليست عضوا من اعضاء القطيع الصالح ، بل دخيلة  
عليه واجنبية عنه . ان عليكن ان تأخذن حذر كن منها ، عليكن ان لا تنهجن  
نهجها : واذا دعت الضرورة ، فاجتنبن معاشرتها ومرافقتها ، حظرن عليها  
الاسهام في العابكن ، ولا تجزن لها ان تشارك في احاديثكن . اما انتن ،  
ايها المعلمات ، فعليكن ان تراقبنها : سمرن اعينكن على حركاتها ، ورزن  
كلماتها روزا حسنا ، وتحريين اعمالها ، وعاقبن جسدها لكي تنقذن روحها ،  
اذا كان مثل هذا الخلاص ممكنا ، في الواقع ، لان هذه . . . ( وان لساني  
ليتلعث اذ اقول ذلك ) ، الفتاة ، هذه الطفلة ، هذه البنت المولودة في ديار  
مسيحية ، والتي هي اردا من كثير من الوثنيات الصغيرات اللواتي يرفعن  
صلواتهن لبراهما ويسجدن لـ « يَغَرُ نوط » \* . . هذه الفتاة هي : كذابة ! »

ورأ ان الصمت بعد ذلك ، عشر دقائق لاحظت خلالها ( وكنت قد استعدت  
رباطة جأشي استعادة كاملة ) جميع سيدات اسرة بروكلهورست يخرجسن  
مناديلهن من جيوبهن ، ويغطين بها اعينهن ، بينا راحت السيدة الكهلة تترنح  
الى امام والى وراء ، واخذت الآنستان الشابتان تتهاامسان : « يا للهول ! »

واستأنف مستر بروكلهورست كلامه : « ذلك شيء عرفته من ولية  
نعمتها ، من السيدة الورعة المحسنة التي تبنتها يوم كانت يتيمة وربتها  
وكانها ابنتها ، والتي كان جواب الفتاة التمسة على حنانها وكرمها نكرانا  
لنجميل بشعا ورهيبا الى حد اضطرت معه راعيتها المتأازة الى فصلها عن

صفارها خشية ان تسري عدوى سلوكها الشائن الى طهرهم . ولقد ارسلتها الى هنا لكي تعالج ، كما كان اليهود القدماء يرسلون مرضاهم الى بركة بيتسدا العكرة . ايتها المعلمات ، ايتها المديرية ، ارجوكن ان لا تدعن المياه تركد من حولها . »

حتى اذا لفظ مستر بروكلهورست هذه الخاتمة السنوية ، عدل زرع معطفه الاعلى وهمس في آذان اسرته بشيء ما ، فنهض وانحنى لمس تامبل . ومن ثم انسحبت الشخصيات البارزة كلها من الحجرة ، في ابهة وجلال . حتى اذا انتهى قاضي الى الباب استدار وقال :

— « فلتبق نصف ساعة اخرى فوق ذلك الكرسي الذي لا ظهر له ، ولتتمتع كل منكن عن التحدث اليها بقية ساعات اليوم . »

واذن فقد كنت ' ثمة منصوبة ' مرفوعة : انا التي سبق لي ان اعلنت اني لن اقوى على احتمال عار الوقوف على قدمي الطبيعيتين في وسط الحجرة ، كنت معروضة لانظار الجماعة كلها فوق قاعدة الخزي والشئار . ما الاحاسيس التي غلبت علي ؟ ذلك ما تعجز ايما لغة عن وصفه . ولكن ما ان جاشت هذه الاحاسيس كلها خانقة انفاسي عاصرة حنجرتي حتى اقبلت احدى الفتيات ومرت بالقرب مني . لقد رفعت عينيها فيما كانت تجتاز بي . اي ضياء غريب كان يلتمع فيهما ! اي احساس استثنائي اوقعه ذلك الضياء في جوانحي ! ويا للشجاعة التي اورثني اياها هذا الاحساس الجديد ! لكأن شهيدا من الشهداء او بطلا من الابطال ، قد اجتاز بعد رقيق او بضحية من الضحايا فنفخ فيه القوة والعزم . وتقلبت على الهستيريا الجاشنة في ذات نفسي ، ورفعت رأسي الى اعلى ، واثبت قدمي فوق الكرسي الذي لا ظهر له . لقد وجهت هيلين بيرنز الى مس سميت سؤالا صغيرا حول مسألة متصلة باشغالها اليدوية ، فزجرت لتفاحة ذلك السؤال ، وعندئذ انقلبت الى مكانها وابتسمت لي لحظة اجتازت بي كرة ثانية . ويا لها من ابتسامة ! اني لا ازال اتذكرها حتي في هذه الساعة ، وانا اعلم انها كانت هي فيض العقل السامي والشجاعة الحق . لقد اضاءت اساريرها المتفضنة ، ووجهها الهزيل ، وعينها الرمادية الفائرة ، وكأنها انعكاس عن وجه ملاك . ومع ذلك ، فقد كانت ذراع هيلين بيرنز مطوقة في تلك اللحظة بسمة تعلن انها « عديمة الترتيب » . فقبل ساعة او اقل كنت سمعت مس سكاتشيرد تحكم عليها بان يقتصر غذاؤها في غد على الخبز والماء ، لان بعض بقع الحبر لطخت دفترها فيما كانت تنسخ عليه تمرينا ما . تلك هي طبيعة الانسان التي يعوزها الكمال ! ان امثال هذه البقع لتبدو على صفحة اكثر الكواكب سطوعا ، ومع ذلك فان عينين كعيني مس سكاتشيرد لا تريان غير هذه العيوب الطفيفة ، وتعميان عن تألق الكوكب الكلي .

وقبل ان تنقضي الدقائق الثلاثون دقت الساعة معلنة الخامسة . لقد  
 'علقت الدروس ، وشخصت الجماعة كلها الى حجرة الطعام لتناول الشاي .  
 عندئذ جازفت فنزلت عن الكرسي الذي لا ظهر له : كان الغسق حالكا ،  
 فانتحيت زاوية وقعدت على الارض . كانت الرقبة التي مكنتني من  
 احتمال الاذى حتى تلك اللحظة قد شرعت تتبدد ، ليعاودني الانفعال  
 والضيق . وسرعان ما استبد بي اسى طاغٍ أوهى جلدي فسقطت  
 مستقبلة الارض بوجهي ، وانخرطت في البكاء : ان هيلين بيرنز لم تكن هناك  
 لتشد اذري . واذا خلقت وحدي فقد استسلمت لعواطفي ، فاذا بعبراتي  
 تروي ارضية الحجرة الخشبية . كنت قد عقدت العزم على ان اكون فتاة  
 صالحة جدا ، وعلى ان احقق في ليوود اشياء كثيرة : ان اكسب اكبر عدد  
 من الصديقات . وان افوز بالاحترام ، وانتزع المودة والعطف . وكنت قد  
 احزنت ، فعلا ، بعض التقدم المحسوس . ففي ذلك الصباح بالذات كنت  
 قد وافقت الى احتلال المنزل الاولي في صفي ، وكانت مس ميلر قد ائتمت  
 علي ثناء حارا . كانت مس تايل قد ابتسمت لي ايذا برضاها عني ،  
 وكانت قد وعدت بان تعلمني الرسم وبان تجيز لي تعلم الفرنسية اذا ما  
 واصلت احراز تحسن مماثل طوال شهرين اضافيين . والى هذا ، فقد  
 تلقتني زميلاتي بقبول حسن ، وعاملني اترابي معاملة الند للند ، ولم تعتمد  
 ايما فتاة الى مضايقتي . وها انا ذا الآن ملقاة على الارض ، من جديد ،  
 مسحوقة مدوسة بالاقدام ، فهل يقدر لي ان انهض كرة اخرى ؟

وقلت في ذات نفسي : « لا ، ابد الدهر . » وتمنيت ، في حرارة بالغة ،  
 لو اموت . وفيما كنت اتنهد معبرة عن هذه الامنية في نبرات مهشمة تقدم  
 نحوي شخص ما . واجفلت . كانت هيلين بيرنز على مقربة مني ، هذه المرة  
 ايضا ، وكانت الجمرات الخامدة قد ارتني اياها تتقدم عبر الحجرة الطويلة  
 الخالية : لقد حملت الي شيئا من القهوة والخبز .

ووجهت الي الخطاب قائلة : « هيا ، كلي شيئا » . ولكنني نحيت  
 كلا من القهوة والخبز عني ، شاعرة وكان ايما نقطة او كسرة منهما خليق  
 بها ، في حالتها تلك ، ان تخفني خنقا . وانعمت هيلين النظر الي ، ولعلها  
 فعلت ذلك في دهش : لقد عجزت الان عن احماذ اهتياجي ، برغم ما  
 بذلت من جهد عنيف ، ولقد واصلت البكاء في صوت عال . عندئذ قعدت  
 قربي على الارض ، مطوقة ركبتيها بذراعيها ، واسندت رأسها اليهما ،  
 واعتصمت في وضعها ذاك بحبل الصمت ، وكأنها مخلوقة من الهند .  
 وكنت انا اول من بدأ بالكلام :

— « هيلين ، لماذا تلازمين فتاة يعتقد العالم كله انها كذابة ؟ »

— « العالم كله يا جين ؟ عجبا ، ان عدد الذين سمعوك تنعتين بهذا

النعمة لا يتجاوز الثمانين شخصا ، والعالم يحتوي مئات الملايين . »  
- « ولكن اي شأن لي بهذه الملايين ؟ ان الثمانين شخصا اللواتي  
اعرفهن لينظرن اليّ في احتقار » .

- « جين ، انت مخطئة : واغلب الظن انه ليس في المدرسة شخص  
واحد يحتقر او يكرهك . بل اني واثقة من ان كثيرات يرثن لخالك الي  
حد بعيد . »

- « كيف يستطيعن ان يرثن لخالك بعد ان قال مستر بروكلهورست  
ما قاله ؟ »

- « مستر بروكلهورست ليس الها ، بل انه ليس برجل عظيم متمتع  
باعجاب الناس . انه لا ينعم هنا بأكثر من حب ضئيل ، ولا عجب ، فهو  
لم يحاول في ايما يوم من الايام ان يجعل من نفسه شخصا محبوبا . ولو  
قد حاباك في المعاملة اذن لوجدت من حولك عدواً كثيراً ، بعضهن يجاهرن  
بعداوتهن وبعضهن يخفينها . اما في حالتك الحاضرة فخليق بالكثرة العظمى  
من الفتيات ان يبسطن لك يد العطف اذا جَسَرْنَ على ذلك . ان المعلمات  
والطالبات قد ينظرن اليك في برود ، طوال يوم او يومين ، ولكن قلوبهن  
تكنّ لك مشاعر ودية . واذا واطبت على انتهاج السبيل الصالح فلن  
ينقضي طويل وقت حتى تقوى هذه المشاعر الى درجة يتعذر معها كبتُها  
كبتاً مؤقتاً . والى هذا ، يا جين . . . »

وكفّت عن الكلام ، فقلت واضعة يدي على يدها : « ماذا تريدان ان  
تقوليا يا هيلين ؟ »

ففركت اصابعي فركا رقيقا لكي تدفئها ، ثم تابعت قائلة : « لو ان  
العالم كله ابغضك واعتقد بأنك شريرة ، وكان ضميرك مطمئنا الى ما تعملين  
مبرئاً لك من التهمة ، فلن تعذمي بعض الاصدقاء والصديقات . »

- « لا ، انا اعلم ان من واجبي ان احسن الظن بنفسي ، ولكن هذا  
ليس كافيا : اذا ضنّ عليّ الآخرون بالحب فعندئذ اؤثر الموت على الحياة -  
انا لا احتمل رؤية نفسي منبوذة مكروهة ، يا هيلين . اسمعي ، اني لمستعدة ،  
من اجل اكتساب بعض المحبة الصادقة منك او من مس تامبل او من ايما  
شخص آخر احبه حبا خالصا ، ان أسلمَ عظم ذراعي للكسر ، او ان اجيز  
لاحد الثيران ان ينطحني ، او ان اقف وراء حصان رافس وادعه يقذف  
صدري بحافره . . . »

- « هش ، جين ! انت تفكرين اكثر مما ينبغي بحب الكائنات البشرية ،  
انت عاطفية اكثر مما ينبغي ، مرهفة الحس اكثر مما ينبغي : ان اليد  
العليا التي خلقت جسدك ونفخت فيه الحياة قد زودتك بموارد اخرى غير  
نفسك الضعيفة او غير المخلوقات الضعيفة مثلك . فبالاضافة الى هذه  
الارض وبالإضافة الى الجنس البشري هناك عالم غير منظور ومملكة ارواح :  
ان ذلك العالم ليُحيط بنا من اقطارنا ، ذلك بانه موجود في كل مكان ، وان

تلك الارواح لتراقبنا ، ذلك بانها مفوضة بحراستنا . فاذا ما قضى علينا  
الوجع والخزي ، واذا ما طعننا الازدراء من كل جانب ، واذا ما سحقنا  
البغض سحقا ، رأت الملائكة عذابتنا ، وادركت براءتنا ( اذا كنا ابرياء حقا :  
وانا اعلم جيدا انك براء من هذه التهمة التي نلقها مستر بروكلهورست في  
ضعف وابهة عن لسان مسرريد من غير ان يتحقق ذلك بنفسه ، فقد لمحت  
آيات الفطرة المستقيمة في عينيك المتوقدتين وعلى جبينك الوضاح ) ،  
وليس ينتظر الله غير انفصال الروح عن الجسد حتى يتوجنا بثواب كامل .  
فما الذي يدعونا اذن الى الرزوح تحت ثقل الغم والاسى ، ما دام العمر  
سريع الانقضاء ، وما دام الموت متعبرا لا ريب فيه الى السعادة - الى المجد ؟

وبقيت صامتة : كانت هيلين قد اوقعت السكينة في نفسي ، ولكن  
تلك السكينة كانت مشوبة بأسى يمتنع على الوصف . لقد ألمّ بي ، فيما  
كانت تتكلم ، شعور بالغم ، بيد اني لم اوفق الى معرفة مصدره . حتى  
اذا امسكت عن الكلام وراحت تلهث لهاثا خفيفا ، مطلقة سعالا وجيزا  
نسيت احزاني على التو ، واستبد بي قلق عليها غامض .

واسندت رأسي الى كتف هيلين ، وطوّقت خصرها بذراعي .  
وجذبتني اليها ، واسترخينا في صمت . ولم ينقض على اتخاذنا تلك  
الجلسة طویل وقت حتى اقبل شخص آخر . كانت سحب كثيفة ، طردتها  
من السماء ربيع عاصفة ، قد خلّفت القمر سافرا . فتدفق ضياؤه من  
نافذة قريبة وغمرنا نحن الاثنين وغمر الشبح المقترّب الذي عرفنا فيه  
في الحال شخص مس تامبل .

لقد قالت : « لقد جئت ابحث عنك ، عامدة ، يا جين اير . انا اريد  
منك ان تأتي الى غرفتي ، واذا كانت هيلين بيرنز معك فلا بأس في ان تأتي  
هي ايضا . »

ومضينا ، متبعتين خطوات المديرة ، مجتازتين اروقة معقّدة ، ثم  
ارتقينا سلما قبل ان نبلغ حجرتها . كانت ثمة نار حسنة الضرام ، ولقد  
بدا كل ما فيها بهيجا . وطلبت مس تامبل الى هيلين بيرنز ان تجلس على مقعد  
خفيض ذي ذراعين قائم الى جانب من جانبي المستوقد ، واقتعدت هي كرسيها  
آخر . ومن ثم دعنتني الى الوقوف جنبها وسألتنني ، خافضة بصرها الى  
وجهي : « هل انتهى كل شيء ؟ هل اطفأت نار اساك بالدموع التي سفحتها ؟ »

« يخيل الي اني لن استطيع ذلك ابد الدهر . »

« لماذا ؟ »

« لاني اتهمّت ظلما وعدوانا ، ولانك سوف تظنين الآن ، يا  
سيدتي ، وسوف يظن كل امرئ معك ، انني فتاة خبيثة . »

« اننا لن نحكم عليك الا من خلال سلوكك ، يا صغيرتي . واطبي  
على التصرف كفتاة صالحة تفوزي برضانا . »

« أحق ما تقولين يا مس تامبل ؟ »

فقالته وهي تطوقني بذراعيها : « من غير ريب . والآن قل لي من هي السيدة التي دعاها مستر بروكلهورست ولىة نعمتك ؟ »

– « مسز ريد . زوجة خالي . لقد توفي خالي وخلقتني في رعايتها . »

– « واذن فانها لم تعتمد الى تبنيك بطوعها ؟ »

– « لا ، يا سيدتي ، لقد كرهت القيام بهذه المهمة . ولكن خالي

– وهذا ما سمعته من الخدم غير مرة – انتزع منها قبيل وفاته وعدا بابقائي في رعايتها . »

– « حسن ، يا جين . انت تعلمين ، او اني على الاقل سوف اعلمك ، انه حين يُتهم مجرم بتهمة ما ، يسمح له دائما بالكلام دفاعا عن نفسه . ولقد اتهممت انت بالكذب ، فدافعي عن نفسك امامي على احسن وجه تستطيعينه . قل لي كل ما تشعر بك ذاكرتك انه صحيح . ولكن لا تترددي البتة ، ولا تعدي الى المبالغة على الاطلاق . »

وعقدت العزم ، في قرارة نفسي ، على اصطناع اقصى الاعتدال ، واقصى الدقة . حتى اذا فكرت بضع دقائق لكي انظّم ، على نحو متماسك ، ما كنت اريد ان اقله ، قصصت عليها حكاية طفولتي العزينة بكاملها . وكان الانفعال قد استنفد قواي ، ومن اجل ذلك جاءت لفتي مكبوحة اكثر من مألوف عاداتها كلما تحدثت في هذا الموضوع . واذا كنت لا ازال اذكر تحذيرات هيلين من الاستسلام للغيظ فقد اشربت قصتي بقدر من الحق والمرارة اقل من المعتاد بكثير . والواقع ان تلطفها وتبسيطها على هذا النحو جعلها تبدو اجدر بالتصديق : لقد شعرت ، وانا امضي في الرواية ، ان مس تامبل صدقت كل كلمة من كلماتي .

وكنت قد اشرت ، في سياق الحكاية ، الى مستر لويد قائلة انه وفد لزيارتي بعد النبوة ، ذلك بانني لم انس قط حادثة الحجرة الحمراء ، تلك الحادثة الرهيبة بالنسبة الي . وكان لا بد لاهتياجي ، وانا اروي تفاصيل تلك الحادثة ، من ان يتخطى حدود الاعتدال ، الى حد ما . اذ لم يكن في استطاع ايما شيء ان يلطف ، في ذاكرتي ، الآلام المبرحة التي اعتصرت فؤادي عندما رفضت في ازدراء توسلي الصارخ من اجل الغفران ، وحبستني كرة اخرى في الحجرة المظلمة المسكونة .

حتى اذا انتهيت راحت مس تامبل تنظر الي ، بضع دقائق ، فسي صمت ، ثم قالت : « انا اعرف شيئا عن مستر لويد . وسوف اكتب اليه . فاذا جاء جوابه منطبقا على روايتك فعندئذ تبرزين – على ملا من المعلومات والطالبات – من كل تهمة . اما انا شخصيا فاعتبرك ، منذ الآن ، بريئة . »

وقبّلتي ، مبقية ايدي الى جانبيها ، حيث سعدت بالوقوف ، اذ استمددت متعة طفلية من انعام النظر الى وجهها ، وفستانها ، وحليتها او حليتها الاثنتين ، وجبينها الابيض ، وخصل شعرها المعنّقة الملتمعة ، وعينيها السوداوين المشيعتين . ثم انها وجهت الخطاب الى هيلين بيرنر :

- « كيف حالك ، الليلة ، يا هيلين ؟ هل سعلت كثيرا اليوم ؟ »

- « ليس كثيرا في ما اعتقد ، يا سيدتي . »

- « والالم في صدرك ؟ »

- « لقد خف بعض الشيء . »

ونهضت مس تامبل ، وامسكت ببسدها ، وجسّت نبضها . ثم انها انقلبت الى كرسيها . حتى اذا بلغته سمعتها تطلق زفرة خفيفة . واستسلمت للتفكير بضع دقائق ، ثم انتزعت نفسها من غمرته وقالت في ابتهاج : « ولكنكما انتما الاثنان ضيفتاي الليلة . ويتعين علي ان اعاملكما معاملة الضيف . »

ورنت جرسا ثم قالت للخادم التي لبّت نداءه : « بربرة ، انا لم اتناول الشاي حتى الان . ايتي بالصينية ، وضعي فنجانين لهاتين السيدتين الصغيرتين . »

وفي الحال جيء بصينية . لشدء ما بدت الفناجين الخزفية جميلة في عيني ، ولشدء ما بدا ابريق الشاي براقا ، وقد وضعت على المائدة الصغيرة المستديرة قرب النار ! ولا تسلم كم كان بخار الشاي زكيا ، وكذلك رائحة الخبز المحمص ! ذلك الخبز الذي لم الملح منه ، ويا للذعر الذي انتابني ، ( ذلك بان الجوع كان قد بدأ يستبد بي ) غير قطعة صغيرة جدا . ولاحظت مس تامبل صغر القطعة ايضا فقالت : « بربرة ، ألم يكن في مستطاعك ان تأتي بقدر من الخبز والزبدة اكثر قليلا ؟ ان ما اتيت به لا يكفي ثلاثة اشخاص . »

وغادرت بربرة الحجرة ثم رجعت في غير ابطاء وقالت : « سيدتي ، مسز هاردن تقول انها بعثت اليك بالكمية المألوفة . »

ويحسن بالقارئ ان يعلم ان مسز هاردن كانت مديرة شؤون الدار : امرأة من الضرب الذي يقره مستر بروكلهورست ويحلو له ، اذ كانت مركبة من عظم فك الحوت ومن حديد ، وبنسبة متعادلة .

فاجابت مس تامبل : « اوه ، حسن جدا ! يبدو لي ان علينا ان نقنع بهذه الكمية ، يا بربرة . » حتى اذا انسحبت الخادم ، اضافت متبسمة : « من حسن الطالع ان في ميسوري أن اسدء النقص هذه المرة . »

حتى اذا دعنتي وهيلين الى الاقتراب من المائدة ووضعت امام كل منا فنجان شاي مع فلة لذيدة ، ولكنها رقيقة ، من الخبز المحمص ، نهضت من كرسيها ، وقتحت احد الادراج واخرجت منه رزمة ورقية ، وابدت لاعتينا ، على التو . كمكة كبيرة تحتوي على بذور ذكية الرائحة .

وقالت : « كنت اعتزم ان اعطي كلا منكما جزءا من هذه الكمكة لتأخذه معها ، ولكن لما كان مقدار الخبز المحمص اقل مما ينبغي فيجب ان تتناولوا نصيبكما الان . » وشرعت تقطع الكمكة شرائح . بيد سخية .

ونعمنا بالطعام تلك الليلة كما كان خليقا بنا ان نعم لو كان ما قدم

نينا طعام الآلهة وشرابها . ولم تكن بسمه الارتياح التي تأملتنا مضيفتنا  
ها ونحن نشبع جوعنا بالطعام الرقيق الذي قدمته إلينا في سحاء . . اقول  
م تكن بسمه الارتياح هذه اقل مباحج تلك الوليمة . حتى اذا فرغنا من  
تناول الشاي ، واخرجت الصينية ، دعتنا كرة ثانية الى التقدم نحو  
المستوقد . وجلست احدانا الى يمينها وجلست الاخرى الى يسارها، وعندئذ  
دار بينهما وبين هيلين حوار كان السماح لي بالاستماع اليه امتيازاً  
'خصصت' به .

وكانت مس تأمل تتكشف دائما عن شيء من الصفاء في طلعتها ،  
وشيء من الوقار في مظهرها ، وشيء من الاناقة المصقولة في لغتها ، وكانت  
هذه كلها تحول بين من تتحدث اليه وبين الاسترسال في الحماسة ،  
والاهتياج ، والانفعال . كانت تتكشف دائما عن شيء يكبح ابتهاج من ينظر  
اليها ويصغي لها بشعور من الرهبة مهيمن . ولقد كان ذلك هو احساسني  
الآن . اما هيلين بيرنز فقد اوقعت في نفسي دهشا بالغا .

كانت الوجبة المنعشة ، والنار الساطعة ، ووجود معلمتها المحبوبة  
ولطفها ، وربما اكثر من ذلك كله فكرة راودت عقلها الفريد . . . كان كل  
اولئك قد حرك فيها كامن قواها . لقد استيقظت تلك القوى الهاجعة ،  
واضطربت : لقد توهجت بادى الامر في توقد وجنتيها المتوردتين ، اللتين  
لم تقع عيناى منهما ، حتى تلك اللحظة ، الا على شحوب واصفرار . ثم  
تألفت في بريق عينيها الصافي الذي اكتسب فجأة جمالا غريباً واعجب من  
جمال مس تأمل - جمالا لا يقوم على اللون البديع ، والاهداب الطويلة ،  
والحاجبين الرقيقين المشوقين ، ولكن يقوم على المعنى ، على الحركة ،  
على الاشراق . ثم جرى لسانها بما تكنه نفسها ، وتدفقت لغتها من معين  
لست ادري حقيقته . أ يكون لغتها في الرابعة عشرة قلب هو من الكبير  
وشدة العزم بحيث يتسع لهذا ينبوع الشر ، ينبوع الفصاحة المتوقدة ،  
الكاملة ، المحضة ؟ تلك كانت الصفات التي اتسم بها حديث هيلين في تلك  
الليلة التي كانت ، بالنسبة اليّ ، ليلة لا تنسى . لقد بدت روحها وكأنها  
حريصة على ان تحيا ، في فترة وجيزة جدا ، بقدر ما يحيا كثير من الناس  
خلال عمر متطاوّل .

لقد تحدثنا عن اشياء لم اسمع بها من قبل ! عن امم وعصور  
خالية ، عن بلدان قصية ، عن جمهرة من اسرار الطبيعة كشف النقاب عن  
بعضها ولا يزال بعضها موضوع حداثس . لقد تحدثنا عن الكتب ، وما اكثر  
ما طالعنا منها ! أية ذخائر من المعرفة كانتا تملكان ! ولقد بدا وكأنهما تعرفان  
الاسماء الفرنسية والكتّاب الفرنسيين معرفتهما لنفسيهما . ولكن دهشى  
بلغ اوجه عندما سألت مس هيلين ما اذا كانت تختلس احيانا بضع لحظات  
لتذكر ما كان ابوها قد علّمها اياه من اللاتينية ، وعندما تناولت من على



احد الرفوف كتابا وطلبت اليها ان تقرأ وتفسر صفحة من « فرجيل » \*  
وامثلت هيلين الامر ، فكانت حاسة الاعجاب عندي تتعاطف مع كل بيت من  
الشعر قرأته . ولم تكذب بلغ آخر الصفحة حتى قرع الجرس معلنا موعد  
الايواء الى المخادع . وما كان ثمة اي سبيل للتخلف ، فعانقنا مس تامبل  
نحن الاثنتين ، قائلة فيما كانت تشدنا الى فؤادها :

« فليبارككما الرب ، يا بُنَيَّتَيَّ ! »

وكان عناقها لهيلين اطول بعض الشيء من عناقها اياي ، حتى اذا  
تركتها تمضي فعلت ذلك على كره لم تظهر ما يضارعه قوة عند انصرافي  
انا . ليس هذا فحسب ، بل لقد ركزت نظراتها عليها ، من دوني ، حتى  
بلغت الباب ، ومن اجلها هي بالذات اطلقت للمرة الثانية زفرة حزينة ،  
ومن اجلها مسحت عبرة تدرجت على وجنتها .

وحين انتهينا الى حجرة النوم سمعنا صوت مس سكاتشيرد : كانت  
تفحص الادراج ، وكانت قد فتحت منذ لحظة درج هيلين بيرنز . حتى اذا  
دخلنا استقبلت هيلين بتعنيف قاسٍ واعلمت ان نصف دزينة من  
الملابس الداخلية - تلك التي وجدت في درجها مطوية طيا رديئا - سوف  
تُعلّق غدا بالدبابيس على ظهرها .

وغفمت هيلين هامسة في اذني : « الواقع ان اشيائي كان يعوزها  
الترتيب الى حد مخزٍ . وكنت قد عقدت النية على ترتيبها ، ولكنني نسيت . »

وفي صباح اليوم التالي خطت مس سكاتشيرد على قطعة من الورق  
المقوى ، باحرف ضخمة ، كلمة « قدرة » وعلقتها مثل تمويذة حول جبين  
هيلين العريض ، الدمش ، الذكي ، الرقيق . ولقد حملتها حتى المساء ،  
صابرة غير متشكّية او ممتعة ، معتبرة ذلك قصاصا تستحقه . ولحظة  
انسحبت مس سكاتشيرد بعد دروس الاصيل ، هرعت الى هيلين ، ونزعت  
قطعة الورق المقوى عن جبينها ، وقذفت بها الى النار : ان سورة الفضب  
التي امتنعت هيلين عليها كانت تضطرم في جوانحي طوال النهار ، في حين  
كانت العبرات ، حارة ضخمة ، تحرق خدي على نحو موصول . ذلك بان  
مشهد اذعانها المحزون اورث قلبي ألما لا يطاق .

وبعد سبعة ايام انقضت على الاحداث التي رويتها في الفقرات  
السابقة تلقّت مس تامبل جوابا من مستر لويد ، وكانت قد كتبت اليه :  
لقد بدا ان ما قاله جاء مؤيدا لروايتي . فما كان منها الا ان جمعت المدرسة  
كلها ، واعدت ان تحقيقا قد اجري بصدد التهم الموجهة الى جين ايير ، وانها  
سعيدة اعظم السعادة بان تعلن ان جين بريئة كاملة من كل ما وُجّه اليها .  
عندئذ صافحتني المعلمات وقبلنني ، وسرت في صفوف رفيقاتي  
همة ابتهاج .

واذ تحررت' على هذا النحو من عبء فاجع ، فقد انصرفت منذ تلك الساعة الى العمل ، من جديد ، عاقدة العزم على شق طريقي برغم المصاعب كلها : لقد كدحت كدحا عنيفا ، وكان نجاحي متكافئا مع جهودي . فقد تحسنت ذاكرتي ، ولم تكن قوية بالفطرة ، بفضل المران . وشجعت التدريب عقلي ، فما انقضى غير اسابيع قليلة حتى رفعت الى صف اعلى . وفي اقل من شهرين اثنين اجيز لي ان ابدأ في تعلم الفرنسية والرسم . وتعلمت ' الزميين ' الاولين من فعل « الكون » être وفي اليوم نفسه رسمت كوخى الاول ( الذي فاقت جدرانه ، بالمناسبة ، برج بيزا المائل من حيث الانحدار ) . وتلك الليلة نسيت ، حين أويت الى الفراش ، ان أعد في خيالي ذلك العشاء الوهمي - المؤلف من بطاطا حارة محمصة او من خبز أبيض ولبن طازج - الذي كنت متعودة ان ألهي به اشواقي الباطنية . لقد متعت نفسي ، بدلا من ذلك ، بمشهد الرسوم المثالية التي رايتها في الظلام ، ونحلت انها كلها من صنع يدي : كانت بيوتا واشجارا رسمتها بالقلم الرصاصي يد رشيقة ، وصخورا واطلالا فاتنة ، وقطعانا من الماشية على طريقة « كويب » ، وصورا عذبة لفراشات ترفرف فوق ورود لم تفتح اكمامها بعد ، ولطيور تنقد حبات كرز ناضجة ، ولاعشاش طيور صغيرة من نوع الصقراغون تكتنف بيضا اشبه باللالى ، وتطوقها أفنان لبلاب غرض . ودرست ايضا - في الخيال - امكانية توفيقي في يوم من الايام الى القيام بترجمة سلسلة متدفقة لقصة فرنسية صغيرة بعينها ، قصة كانت مدام بييرو قد اطلعني عليها . ذلك اليوم ، ولكني استسلمت للنوم العميق قبل ان اهتدي الى حل هذه المسألة على وجه يرضيني .

ولقد اجاد سليمان حين قال : ان غداء مؤلفا من اعشاب في موطن يرفرف فيه الحب خير من ثور منسّم في موطن يشيع البغض في جنباته . ولقد كان خليقا بي الا ان لا ارتضي التحلي عن « لوود » ، برغم ما حفل به من ضروب الحرمان ، وان ارفض ان استبدل به « غايتسهيد » ومتارفه اليومية .

## ٩

ولكن ضروب الحرمان ، او على الاصح ضروب المشاق ، التي حفلت بها « لوود » ، اخذت في النقص والتضاؤل . واقترب الربيع ، بل لقد اقبل فعلا . كان صقيع الشتاء قد ولى ، وكانت ثلوجه قد ذابت ، وكانت رياحه اللاذعة قد اعتدلت . واتخذت قدماي ، اللتان كان هواء كانون الثاني ( يناير ) القارس قد قرّحهما وورّعهما حتى العراج - سبيلهما نحو الشفاء وانحسار الورم بفضل نسائم نيسان ( ابريل ) الرقيقة . ولم تعد الليالي والاصباح تجمد ، ببردها الكندي الرهيب ، الدماء نفسها في عروقنا .

ولقد اصبح في ميسورنا الآن ان نطبق ساعة اللعب في الحديقة . بل لقد بدأ الجو يميل ، في بعض الايام المشمسة ، الى العذوبة واللفظ ، ونمت في تلك المزاهر السمرء خضرة اوحت الينا ، بنضارتها المتعاطمة يوما بعد يوم ، بأن « الامل » قد المّ بساحتها ليلا وانه كان يخلف ثمة آثار قدميه ، كل صباح ، على نحو متنامي الاشراق . واختلست الرياحين النظر من خلال اوراق الشجر ، وكان بين تلك الرياحين زهرات ثلج ، وزعفران ، وآذان دبّ ارجوانية ، وبنفسجات ثلوث ذهبية العيون . وفي اصيل كل يوم خميس ( وكانت المدرسة تعطل في ذلك النهار نصف يوم ) شرعنا نقوم بنزهات على الاقدام ، وكنا نقع في هذه النزهات على رياحين احلى حتى من التي عدّتها منذ لحظة ، رياحين متفتحة عند جانبي الطريق ، تحت الاسيجة المؤلفة من نباتات واشجار .

واكتشفت ايضا انه كان ثمة ، وراء جدران حديقتنا الشامخة المصونة بمسامير مؤثرة ، متعة بالغة لا يحدها غير الافق . وكانت هذه المتعة تقوم على تسريح الطرف في القمم الرفيعة المحيطة باحد الفجج العميقة ، الغني بالخضرة والظلال ، وامتاعه بمشهد جدول برّاق مليء بالحجارة القائمة والدرادير المومضة . لشد ما كان هذا المشهد مختلفا عن ذلك الذي بدا يوم رأيت مسجتي تحت سماء الشتاء الحديدية ، متصلبا بالصقيع . مكفنا بالثلج ! - عندما راح ضباب بارد كالمت يهيم على وجهه كما شاءت له رياح الشرق ان يهيم ، عبر تلك القمم الارجوانية ، ثم يتدحرج بعد ذلك حتي يمتزج بالضباب المتجمد فوق الجدول ! لقد امسى هذا الجدول نفسه ، الآن ، سيلا موحلا لا سبيل الى كبحه ، سيلا اقتنم الغابة ، واطلق في الهواء هديرا محموما كثيرا ما زاده المطر الوحشي والبرّد المدوم ضراوة السى ضراوة . اما الغابة القائمة عند ضفتيه فماعد يبدو منها غير هياكل منضودة .

وانقضى نيسان (ابريل) واقبل نوار (مايو) . ولقد كان «نوار» مشرقا رائقا تبسم عن ايام ذات سماء زرقاء ، واشعة شمس ودیعة ، ونسائم غربية أو جنوبية ما تكف عن الهبوب . وبلغت الخضرة غاية نضجها في قوة وعزم ، ونفضت « لوءود » عنها غبار الجمود . لقد اصبحت خضراء كلها ، زهراء كلها . وردّت الروح الى هياكل الدردار والزان والسنديان العظيمة فاستأنفت حياتها المهيبة . ونجمت نباتات الغابة بفزارة في فجواتها ، وغطت دروب من الطحالب لا حصر لها اغوار الغابة ، فأحالت ثروتها الكبيرة من نبات « آذان الدب » البرية الى اشعة شمس ارضية عجیبة . لقد رأيت ذهابها الشاحب يلتمع في بقاع ظليلة اشبه شيء براقع متناثرة من لمعان ليس اعذب ولا احلى . كل ذلك استمتعت به في كثير من الاحيان استمتعا كاملا حرا ، غير مراقب ، وعلى انفراد تقريبا . وكان ثمة سبب لهذه الحرية وتلك المتعة النادرين ، سبب امسى من واجبي الآن

ان اطلع القارىء عليه .

ألم اصوّر « لووود » موطننا بهيجا يفيء اليه المرء عندما قلت انها مكتشفة بالكثبان والغابات ، وانها تنبثق من حافة جدول ؟ موطن بهيج من غير ريب ، ولكن الى اي حد كان موطننا صحيا ؟

كان ذلك الوادي - الغابة الذي جثمت فيه « لووود » مهذا للضباب وللوباء الذي يغذوه الضباب ، والذي اغدّ الخطى مع الربيع المتعجّل ، وتسلسل الى الميتم ، فنفت التيفوس في حجرتي الدرس والنوم المزدحمتين فيه ، فاحال المدرسة ، قبل حلول نوار ( مايو ) الى مستشفى .

كانت المجاعة النصفية وحالات الزكام المهمة قد اعدت الطالبات لتلقي العدوى ، فاذا بها تصرع خمسا واربعين من الثمانين فتاة في وقت معا . وعطلت الدروس ، وتراخت قبضة الانظمة . ومنحت القلة اللواتي احتفظن بصحتهن حرية شبه كاملة ، لان الطبيب المسؤول اصرّ على ضرورة قيامهن بين الفينة والفينة بتمارين رياضية تبقي عليهن عافيتهن . ولو لم يقف الطبيب هذا الموقف اذن لما وجد احد متسعا من الوقت لمراقبتهن او لكبح جماحهن . وانصرفت مس تامبل بكليتها الى العناية بالمريضات : لقد اقامت في حجرتهن ، فلم تكن لتفادرها الا لتختلس سويعات من الراحة في موهن من الليل . وانهمكت المعلمات انهماكا كاملا في حزم امتعة اولئك البنات اللواتي شاء حسن طالعهن ان يكون لهن اصدقاء وانسباء قصادرون على ابعادهن عن مقر الوباء وراغبون في ذلك . ليس هذا فحسب ، بل لقد كنّ منهمكات في اتخاذ الاجراءات الضرورية الاخرى لترحيل اولئك البنات . وكان الداء قد صرع كثيرا من البنات فمضين الى مساقط رؤوسهن ليلفظن أنفاسهن فيها . وقضى بعضهم نجه في المدرسة ، فوورين الثرى في هدوء وعجلة ، لان طبيعة المرض حظّرت ارجاء ذلك .

وبينا القى الداء رحله في « لووود » ليصبح من سكانها المقيمين ، وبينما راح الموت يتردد اليها بين الفينة والفينة ، وبينما خيّمَت الكآبة والخوف داخل جدرانها ، وبينما عمقت حجراتها وممراتها بروائح المستشفيات وقد كافتحت العقاقير والاقراص على غير طائل من اجل التغلب على ابخرة الموت الكريهة ، شعّ « نوار » المشرق ذاك ، صافي السماء ، فوق الكثبان الجسورة والغابات الجميلة خارج الجدران . وتالقت حديقة « لووود » ايضا بالرياحين : كانت الخبّازى الفرنجية قد نجمت طويلة كالاشجار ، وكانت الزنابق قد تفتحت اكمامها ، وكانت الورود وضروب السوسن قد نوّرت ، وكانت حوافي المازهر الصغيرة بهيجة بازهار قرنفلية وباقاح قرمزية مزدوجة ، وكان النسر ينفت ، صباح مساء ، عييره التوابلي التفاحي ، وكانت هذه الكنوز العطرة عديمة الفائدة بالكلية للكثرة العظمى من نزيلات « لووود » ، لولا انها كانت تزودهن بين حين وآخر بباقة من اعشاب وازهار نصنعنها على تابوت .

اما انا وسائر الفتيات اللواتي امتنعن على المرض فقد استمتعنا اكمل الاستمتاع بجمال الربيع وروعة المشاهد : لقد اجيز لنا ان نهيم على وجوهنا في الغابة كالفجريات ، منذ منبلكج الصباح حتى مغرب الشمس ، وكنا نفعل ما يحلو لنا ، ونذهب حيث شئنا ، ونحيا حياة افضل ايضا . ان مستر بروكلهورست وافراد اسرته ما عادوا يطأون الآن ، ارض « لوود » ، وشؤون الطعام وتدبير المنزل لم تعد خاضعة للتدقيق والتحيص ، فقد فارقتنا مدبرة شؤون الدار يحدوها الى ذلك خوف العدوى . وكانت خليفتها ، وقد تولت قبل ذلك رئاسة مستوصف لوتون ، تجهل الاساليب المتبعة في مقر عملها الجديد ، ومن هنا زودتنا بما نحتاج اليه في سخاء نسبي . والى هذا فقد قلَّ عدد الافواه الواجب اطعامها ، واذا كانت صريعات الداء لا يستهلكن من الطعام غير نزر يسير ، فقد امست اطباق فطورنا الصباحي احفل بالغذاء . وكلما ضاق الوقت عن اعداد وجبة غداء نظامية - وهو امر كان كثير الحدوث في تلك الفترة - كنا نعطي قطعة كبيرة من فطير بارد محشو ، او شريحة غليظة من خبز وجبن ، وكان من دأبنا ان نحمل انصبتنا هذه الى الغابة ، حيث تختار كل منا البقعة التي كانت تفضلها ، وتلتهم الطعام في رفقه بالغ .

وكان مقعدي الاثير لديّ حجرا املس عريضا كان ينتصب ، ابيض جافا ، وسط الجدول ، ولم اكن استطيع بلوغه الا بالتخويض في الماء ، وهو صنيع كنت اقوم به حافية . وكان الحجر يتسع لقعودي انا وفتاة اخرى ليس غير ، على نحو مريح ، وكانت رفيقتي المختارة في تلك الآونة طالبة تدعى ماري آن ويلسون ، وهي فتاة ذكية دقيقة الملاحظة ، انست اليها ووجدت في مرافقتها متعة ، لانها كانت مليحة النكتة فذة الشخصية ، من ناحية ، ولانها كانت ذات مسلك يسري عن نفسي ، من ناحية ثانية . واذا كانت اكبر مني بسنوات معدودات فقد عرفت العالم اكثر مما عرفته ، وكان في ميسورها ان تحدثني عن اشياء كثيرة كنت راغبة في سماعها . لقد اشبعت صحبة « ماري آن » فضولي ، ولقد تقبلت اخطائي بتسامح سخى ، غير محاولة ان تخضع ايا شيء اقله لا يما زمام ملجيم . كانت هي نزاعة الى القصص ، وكنت انا نزاعة الى التحليل ، كانت تحب ان تعلم وكنت احب ان اسأل ، وهكذا تفاهمنا احسن ما يكون التفاهم ، مستمدتين متعة بالغة ، ان لم نستمد فائدة كبيرة ، من تبادلنا الخواطر والآراء .

ولكن اين كانت هيلين بيرنز في غضون هذه الفترة ؟ لم لم اقض ايام الحرية العذبة هذه معها ؟ اكننت قد نسيتهما ؟ ام كنت من التفاهة بحيث برمت بصحبته الطاهرة ؟ لا ريب في ان ماري آن ويلسون هذه التي اشرت اليها دون صديقتي الاولى شانا : لم يكن لديها ما تقدمه الي غير الحكايات المسلية ، وغير اللغو الطلي اللاذع الذي آثرت الانغماس فيه . على حين

كانت هيلين - اذا صنع تصويري لها - مؤهلة لان تمنح من قدر له ان يحظى بالاستماع الى حديثها تذوقا ارفع بكثير ، واسمى بكثير .

اجل ايها القاري ، ولقد عرفت ذلك واستشعرته . وعلى الرغم من اني مخلوقة وزها الكمال ، مخلوقة كثيرة الاخطاء قليلة الحسنات المكفرة عن تلك الاخطاء ، فاني لم امل هيلين بيرنز ولم ابترم بها . ولم اكف قط عن الانجذاب نحوها بسائق مودة لا احسب ان شيئا اقوى منها وارق واحفل بالاحترام قد عمّر فؤادي في ايما يوم من الايام . وكيف يجوز ان يكون الوضع على خلاف ذلك بعد ان تكتشفت لي هيلين بيرنز دائما وفي جميع الظروف والمناسبات عن صداقة هادئة مخصصة لم يعكرها النكد قط ولم يكنزها الانفعال في ايما وقت ؟ ولكن هيلين كانت طريحة الفراش آنذاك : لقد ابعدت عن ناظري منذ اسابيع لتوضع في حجرة لم اعرفها على وجه الضبط من حجرات الطابق العلوي . انها لم تكن ، على ما قيل لي ، في ذلك الجزء من البيت الذي حوّل الى مستشفى لصريعات الحمى ، لانها كانت مصابة بداء السل لا بداء التيفوس . ولعظم جهلي ، اعتقدت ان السل مرض غير خطير ، مرض لا بد للزمن وحسن العناية من ان يخففا وطأته .

وانما رسّخ هذه الفكرة في ذهني انها هبطت السلم مرة او مرتين ، عند الاصيل ، في بعض الايام المشمسة الشديدة الدفء ، وان مس تامل رافقتها الى الحديقة . بيد اني لم يجز لي ، في تينك المناسبتين ، ان امضي اليها واتحدث معها . لقد رأيتها من نافذة حجرة الدرس ليس غير ، وعلى نحو غير واضح ايضا . ذلك بانها كانت متلفعة بدثر تكاد تحجبها وكانت تجلس على مسافة ما ، تحت الشرفة .

وذات مساء ، في مطلع حزيران ( يونيو ) ، لبثت في الغابة ، مع ماري آن حتى ساعة متأخرة جدا . كنا قد اعتزلنا الاخريات ، على مألوف عادتنا ، وهما على وجهينا بعيدا عن المدرسة : بعيدا الى درجة اننا ضللنا سبيلنا وتعين علينا ان نلتمس الهداية اليها عند كوخ متوحد ، حيث كان يقيم رجل وامرأة يرعيان قطيعا من الخنازير نصف البرية يفتذي بشمار البلوط في الغابة . حتى اذا رجعنا كان القمر قد طلع ، وكان مهر صغير الجسم ، عرفنا فيه مَهْرَ الطبيب ، واقفا بباب الحديقة . وقالت ماري آن انها على مثل اليقين من ان العلة قد ثقّلت الى درجة الخطر ، من غير ريب ، على شخص ما ، بدليل استدعاء مستر بايتس في تلك الساعة من الليل . ومضت هي الى الدار ، اما انا فتخلّفت بضع دقائق لاغرس في حديقتي بضعة جذور كنت قد اقتلعتها من الغابة وخشيت ان تذوي اذا ما ارجأت غرسها الى الصباح . حتى اذا تم لي لك تريت فترة اضافية : لقد تنفست الرياحين ، فيما كان الندى يسقط ، بعير ليس احلى ولا اذكى ، وكانت الامسية عذبة جدا ، رائقة جدا ، دافئة جدا ، وكان الافق الغربي ، المتوهج

ما يزال ، يَعدُّ بيوم جميل آخر تشرق أنواره في غد ، ومن ناحية الشرق الوقور ارتفع القمر في جلال بالغ . وكنت أشهد هذه الأشياء كلها واستمتع بها بقدر ما تستطيع طفلة أن تستمتع حين رأودتني فكرة لم تخطر لي قط من قبل : « لشدَّ ما هو محزن أن ينطرح المرء الآن ، على فراش المرض ، وأن يكون الموت قاب قوسين منه ! أن هذا العالم جميل . . . وأنه لما يوقع الكتابة في النفس أن يدعى المرء الى مفادته ، وأن يتعين عليه المضي السى حيث لا احد يدري . . »

عندئذ بذل عقلي اول جهد صادق قام به لفهم ما كان قد اشربته من عقائد متصلة بموضوع الجنة والنار : ولاول مرة انقلب عقلي على عقبيه حائرا مذهولا ، ولاول مرة راح يلتفت خلفه ، وبمنه ويسارا ، وامامه ، فاذا به يجد هاوية لا يسبر غورها تحيط به من اقطاره جميعا . لقد احس بالنقطة التي كان يقف عندها ليس غير : - الحاضر . اما سائر النقاط فكانت سحابة لا شكل له واعماقا خاوية . ولقد ارتعد اذ تمثل نفسه مترنحا مخوِّضا وسط ذلك العماء . وفيما كنت اتدبّر هذه الفكرة الجديدة سمعت الباب الامامي يفتح . لقد خرج مستر بايتس ، وخرجت معه ممرضة . حتى اذا بصرتُ به يمتطي جواده ويمضي لسبيله عمدت الى اغلاق الباب . ولكني هرعت اليها ، متسائلة : « كيف حال هيلين بيرنز ؟ »

فكان جوابها : « سيئة جدا . . »

« - أمن اجلها هي استدعي مستر بايتس ؟ »

« - نعم . . »

« - وما وجهة نظره في امرها ؟ »

« - هو يقول ان مقامها بيننا لن يطول . »

ولو قد طرقت هذه الجملة سمعي ، امس ، اذن لما افادتني غير معنى ترحيلها وشيكا الى نورثامبرلند ، مستقط رأسها . واذن لما توهمت انها تعني قرب انتقالها الى العالم الآخر . ولكني ادركت الان كل شيء ، على التو . لقد انكشف لي ان هيلين بيرنز كانت تعدد ايامها الاخيرة في هذا العالم ، وانها على وشك ان تحمّل الى دار الارواح ، اذا كان لمثل هذه الدار وجود ، وعمرتني صدمة ذعر ، ثم رعدة غم عنيفة ، ثم توق . . . بل حاجة ماسة الى رؤيتها . وسالت في اية حجرة هي ، فقالت الممرضة : « في حجرة مس تامبل . »

« - اتأذنين لي في ان اصعد واتحدث اليها ؟ »

« - اوه ، لا يا صغيرتي . هذا مستحيل . وفوق هذا فقد آن لك ان

تدخلتي . انك سوف تصابين بالحمى اذا بقيت خارج الدار اثناء سقوط الندى . »

واوصدت الممرضة الباب الامامي ، ودخلت من الباب الجانبي المفضي الى حجرة الدرس ، فبلغتها في الوقت المناسب : كانت الساعة التاسعة ،

وكانت مس ميلر تدعو الطالبات للايواء الى فراشهن ،

وبعد ساعتين من ذلك تقريبا - ولعل الساعة كانت الحادية عشرة - نهضت من فراشي في رفق ، بعد ان استقصى علي الرقاد وبعد ان قدّرتُ ، من الصمت الكامل الذي لفّ حجرة النوم ، ان رفيقتاتي مستغرقات كلهن في نوم عميق ، وارتديت فستانتي فوق منامتي ، وانسللت من الحجرة ، ومضيت ميممة وجهي شطر حجرة مس تامبل . كانت تقوم في اقصى الطرف المقابل من الدار ، ولكنني كنت اعرف الطريق اليها ولقد مكّنني ضياء القمر الصيفي غير المحجوب بالسحب ، المتدفق ههنا وههناك عبر نوافذ المجاز ، من ان اهتدي اليها في غير ما عُسّر . ونبّهتني رائحة كافور واخل محروق الى اني امسيت على مقربة من حجرة المصابات بحمى التيفوس ، فتابعته سبيلي مبتعدة عن بابها في سرعة ، خشية ان تسمعني الممرضة الساهرة هناك طوال الليل . كنت اوجس خيفة من ان يكتشف امري واردا الى فراشي ، ذلك بانه كان لا بد لي من ان اكلل الطرف برؤية هيلين . . . كان لا بد لي من ان اعانقها قبل ان تموت . . . ومن ان اطبع على جبينها قبلة اخيرة ، وان اتبادل معها بضع كلمات وداعية .

حتى اذا هبطت سلّما ، واجتزت جانبا من الدور الارضي ، ووقفت الى فتح بابين ثم اغلقهما من غير احداث ضجة ما ، انتهيت الى جزء من السلّم آخر ، فارتقيت درجاته لاجد حجرة مس تامبل ، بعد ذلك ، قائمة امامي مباشرة . كان ثمة نور ينبعث من خصاص الباب ومن تحته . وكان سكّون عميق يلف الجوار . وتقدمت بضع خطوات ، فالفّيت الباب مفتوحا على نحو جزئي ، وفي غير ما اسراف ، واغلب الظن انه فتح على هذه الشاكلة لكي يتيح لبعض النسائم ان تنفذ الى موطن المرض ذاك ، ذي الهواء الفاسد . واذا نفرت من التردد ، وضجّت في ذات نفسي حوافز نافذة الصبر - كانت روحي وحواشي ترتعد بضروب الغصص والكروب - فقد ردّدت الباب الى وراء والقيت نظرة على الحجرة . كانت عيناي تبحثان عن هيلين ، وكانتا تخشيان ان تقعا على الموت .

كان ثمة ، على مقربة دائية من سرير مس تامبل ، مهد صغير ذو حاجزين نصف مغطّي بستائر البياض . وتحت الاغطية بصرت بصورة جسد ، ولكن الوجه كان محجوبا عني بالاستائر : كانت الممرضة التي سبق لي ان حدثتها في الحديقة جالسة على كرسي ذي ذراعين ، مستسلمة للرقاد ، وكانت شمعة لم يُنزع الجزء المحترق من قنديلها تشتعل على الطاولة اشتعالا قاتما . ولم تقع عيناى على مس تامبل ، ولقد عرفت في ما بعد انها استندت الى حجرة المصابات بالحمى حيث استبد الهذيان باحدى الفتيات . وتقدّمت ، ثم وقفت بجانب المهد الصغير : كانت يدي على الستارة ، ولكنني آثرت ان اتكلم قبل ان ازيحها . كنت لا ازال ارتعد فرقا من ان تنحسر الستارة عن جثة هامدة .



وهمست في رقة : « هيلين ! هل انت مستيقظه ؟ »

وتلملمت في فراشها ، وردت الستارة ، فرأيت وجهها شاحبا ذابلا ، ولكنه هادئ ساكن : كان التغير الذي ألم بها - او هكذا بدت - ضئيلا الى درجة بددت خروفي في الحال .

وتساءلت في صوتها الرقيق : « أممكن ان يكون من ارى هو انت ؟ » فقلت في ذات نفسي : « اوه ! انها لن تموت ، لقد خدعوا : لو كانت مشرفة على الموت لما استطاعت ان تتكلم بمثل هذا الهدوء ، وأن تنظر بمثل هذه السكينة » .

وانحنيت فوق مهدها وقبلتها . كان جبينها باردا ، وكانت وجنتها باردة ومهزولة في آن معا ، وكذلك كانت يدها ومعصمها . ولكنها ابتسمت كدأبها من قبل .

- « لماذا جئت الى هنا يا جين ؟ ان الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة : لقد سمعتها تدق منذ بضع دقائق » .

- « جئت لاراك يا هيلين . فقد سمعت انك جدد مريضة ، ولم يكن في طوقى ان انام قبل التحدث اليك » .

- « لقد جئت لتقولي كلمة الوداع ، اذن . واغلب الظن انك جئت في اللحظة المناسبة » .

- « اذهبة انت الى مكان ما ، يا هيلين ؟ اعائدة انت الى موطنك ؟ »

- « اجل ، الى موطني السرمدي . . . الى موطني الاخير » .

- « لا ، لا ، يا هيلين » . وامسكت عن الكلام ، وقد غلب علي الغم . وفيما كنت احاول ان ابتلع عبراتي اسندت يهليلين نوبة سعال . بيد ان هذه النوبة لم توقظ الممرضة ، على ايه حال . حتى اذا انحسرت ، ظلت هيلين ساكنة بضع دقائق ، خائرة القوى . ثم انها همست : « جين ، قدامك الصغيرتان حائيتان . اضطجعي الى جانبي ، وغطّي نفسك بلحافي » .

ونزلت عند رغبتهما : لقد احتوتني بذراعيها فدنوت منها دوناً كان اقرب الى الالتصاق . وبعد صمت طويل استأنف كلامها ، في همس هذه المرة ايضا : « انا سعيدة جدا ، يا جين . وحين يجيئك نعيي يتعين عليك ان تتجلدي وان لا تحزني ، فليس ثمة ما يدعو الى الحزن . ان الموت لا بد ان يدركننا كلنا في يوم من الايام ، وان الداء الذي يقضي علي ليس اليماء هو لطيف ومتمهل ، وان نفسي لمطمئنة . فانا لا اختلف ورائي اي امرئ يأسى علي كثيرا . ليس لي غير اب ، ولقد تزوج منذ فترة يسيرة ، وهو لن يفتقدني . ان وفاتي غصة العود سوف تلجيني من آلام عظيمة . فانا لم اكن املك كفاءات او مواهب تمكيني من شق طريقي ، بنجاح ، في هذه الحياة ، ولقد كان خليقا بي ان اظل دائما موضع لوم وتائب » .

- « ولكن الى اين انت ذاهبة ، يا هيلين ؟ هل تستطيعين ان تتركي »

هل تعرفين ؟

— « انا اؤمن . ان لدي ايمانا . انا ملتزمة بالله ، »

— « ولكن اين الله ؟ وما الله ؟ »

— « انه خالقي وخالقك ، الذي لا يهدم أبدا ما خلَق . اني لافوض امري ، في غير ما تردد ، الى قدرته ، وأثق كل الثقة باحسانه . انا اعدت الساعات شوقا الى حلول تلك الساعة المهيبة التي تردني اليه ، وتيسر لي اجتلاء طلعتة ، »

— « انت واثقة اذن ، يا هيلين ، من وجود ما يدعونه جنة ، وواقعة من ان ارواحنا تستطيع ان تفي اليها حين نموت ؟ »

— « انا واثقة من ان ثمة حياة اخرى . واؤمن بأن الله خير . ان في ميسوري ان اتخلّى له ، من غير ان يساورني اي ريب ، عن ذلك الجزء الخالد من وجودي . الله هو ابي . الله هو صديقي : انا احبه ، انا اؤمن بأنه يحبني ، »

— « وهل سيكون في ميسوري ان اراك ، كرة اخرى ، حين اموت ؟ »

— « سوف تفدين الى دار السعادة نفسها . وسوف يستقبلك فيها الاب الكوني الجبار نفسه . هذا شيء لا ريب فيه ، يا عزيزتي جين ، »

وتساءلت : كرة اخرى ، ولكن بيني وبين نفسي هذه المرة : « اين هي تلك الدار ؟ اهي موجودة فعلا ؟ » واحكمت تطويق هيلين بذراعي ، فقد بدت احب الى قلبي منها في ايما عهد سلف ، وشعرت وكأنني لن استطيع ان ادعها تمضي لسبيلها . وظللت مضطجعة الى جانب هيلين ، دافئة وجهي في جيدها . وسرعان ما قالت في نبرة ليس أحلى منها ولا أعذب :

— « لشدّ ما أشعر بالراحة ! ان نوبة السعال الاخيرة قد اتعبتني بعض الشيء . واني لاشعر الان وكان في ميسوري ان أنام . ولكن لا تفارقيني ، يا جين . انا احب أن اراك الى جانبي ، »

— « سوف ابقى معك ، يا عزيزتي هيلين . ان احدا لن يقصيني عنك ، »

— « هل تشعيرين بالدفء ، يا حبيبتي ؟ »

— « نعم ، »

— « طاب مساؤك ، يا جين ، »

— « طاب مساؤك ، يا هيلين ، »

وقبّلتني وقبلتها . وسرعان ما استسلمنا كلانا لنوم هادي عميق .

حتى اذا استيقظت كان الضحي قد ارتفع ، وانما انتزعني من احضان النوم حركة غير عادية . ورفعت طرفي فاذا بي اجد نفسي بيسن ذراعي شخص ما . كانت الممرضة تحملني عائدة بي ، عبر المجاز ، الى حجرة النوم . ولم أعثف لمفادرتي سريري ، فقد كانت الجماعة في شغل شاغل عن هذا . ولم يقدّم آنذاك ايما تفسير لاسئلتني الكثيرة . ولكنني

عرفت ، بعد يوم أو يومين ، ان مس تامل كانت قد وجدتني ، لـدُنْ عودتها الى حجرتها عند الضحى ، مضطجعة في مهد صغير ، وقد ملت بوجهي على كتف هيلين بيرنز ، وطوقت بذراعيَّ جدها . كنت نائمة ، وكانت هيلين ... ميتة .

لقد دفنت في فناء كنيسة بروكليدج . وطوال خمس عشرة سنة انقضت على وفاتها ظلت ترقد تحت رايبة صغيرة معشوشبة ليس غير أما اليوم ، فان لوحة من رخام رمادي لتشير الى مثواها الاخير ، وقد نقش على هذه اللوحة اسمها ، وهذه الكلمة الوحيدة ، «Resurgam» \*  
١٠

لقد دوّنت حتى الآن ، بكثير من التفصيل ، أحداث وجودي التافه ، مفردة لسنواتي العشر الاولى من حياتي فصولا تكاد تتعد لها عددا . ولكني لا أقصد الى أن أجعل من هذا الكتاب سيرة حياة ذاتية نظامية ، ولن أفزع الى ذاكرتي الا عندما اعلم ان استجاباتها سوف تنطوي على قدر ما من الامتاع . ومن أجل ذلك سأجتاز الآن ، في صمت كامل تقريبا ، مرحلة من عمري استغرقت ثماني سنوات ، مكثفية ببضعة سطور اراها ضرورية للبقاء على تسلسل الحوادث .

ما كادت حمى التيفوس تؤدي رسالتها التدميرية في ليوود حتى انسحبت من هناك على نحو تدريجي ، ولكنها لم تفعل ذلك الا بعد ان لقت وبالها وعدد ضحاياها أنظار الرأي العام . وأجري تحقيق حول منشأ الكارثة ، وشيئا بعد شيء تجلّت حقائق ما لبثت أن أثارت السخط العام الى حد بعيد . لقد اكتشفت طبيعة الموقع غير الصحية ، وكمية طعام الاطفال ونوعيته ، وما اصطنع في أعداده من ماء كريبه الرائحة ضارب طعمه الى الملوحة ، وهزال ملابس الطالبات ووسائل الراحة المهيأة لهن . ولقد احدث اكتشاف هذه الاشياء كلها اثرا مذلّا لمستبر بروكلهورست ، ولكنه نافع للمؤسسة .

واكتتب كثير من أبناء الاقليم الموسرين الخيرين بأموال سخية لانشاء مبنى أحسن في موقع أفضل . ووضعت أنظمة جديدة ، وأدخلت على الغذاء والكساء بعض التحسينات ، وعُهد بالاشراف على اوقاف المدرسة الى لجنة خاصة . واذ لم يكن في الامكان اغفال مستبر بروكلهورست ، بسبب من ثروته وصلاته العائلية ، فقد ظل يحتفظ بأمانة الصندوق ، ولكن بعد أن كلّف بمعاونته في اداء مهمته رجال ذوو عقول أوسع أفقا ونفوس أكثر عطفًا . ولقد شاركه منصبه كمفتش ، أيضا ، قوم عرفوا كيف يمزجون العقل بالصرامة ، والرفاهية بالاقتصاد ، والحنان بالاستقامة . وهكذا أمست المدرسة ، مع

\* كلمة لاتينية معناها : « سوف اقوم من جديد » . ( الحرب )

الايام ، وبفضل هذا التحسين ، مؤسسة نافعة حقاً ، نبيلة حقاً . وظللت أحياناً بين جدرانها ، في عهدها الجديد ، ثماني سنوات ، سلخت ستاً منها بوصفي تلميذة واثنتين بوصفي معلمة . واني لاشهد ، كتلميذة وكمعلمة ، انها تمتعت بقيمة وشأن عظيمين .

وخلال هذه السنوات الثماني جرت حياتي على نمط واحد ، ولكنها لم تكن غير سعيدة ، لانها كانت ناشطة . لقد وضعت في متناولي وسيلة الفوز بثقافة ممتازة ، ولقد حثني على العمل شغف ببعض دروسي ، ورغبة في التفوق فيها جميعاً ، وابتهاج عظيم بارتضاء معلماتي ، لا سيما أولئك اللواتي احببتهن . وأدت أكمل ما تكون الافادة من الفرص والامتيازات المتاحة لي . وأخيراً وفقت الى احتلال المرتبة الأولى بين طالبات الصف الاول ، ثم كلفت أن اشارك في التدريس ، فنهضت بعناء هذه المهمة ، في حماسة بالغة ، طوال سنتين اثنتين . ولكني ما لبثت أن تغيرت ، عند انقضاء هذه الفترة .

وتفصيل ذلك ان مس تامل كانت قد احتفظت - خلال هذه التعديلات كلها - بمنصبها كمديرة للمدرسة . واني لمدينة بخير ما اكتسبته من معرفة لحسن تعليمها وتوجيهها ، ولقد وجدت في صداقتها وصحبته عزاء لي موصولاً . وكانت قد قامت مني مقام الأم ، والمربية ، وفي ما بعد ، مقام الرفيقة ايضاً . وفي هذه الفترة بالذات تزوجت ، وارتحلت مع زوجها ( وكان قساً ، ورجلاً ممتازاً ، جديراً - أو يكاد - بمثل هذه الزوجة ) الى اقليم ناء ، وهكذا خسرتها .

ومنذ يوم رحيلها لم أعد ما كنت . فقد ولى معها كل شعور من مشاعري المطمئنة . وكل رباط من الروابط التي جعلت من « لوود » ، الى حد ما ، موطناً لي . كنت قد تشربت منها شيئاً من طبيعتها وكثيراً من عاداتها ، فاذا بعقلي يحفل بفكرات أقرب الى التناغم والانسجام واذا بنفسي تعمر بمشاعر بدت لي أوفر حظاً من الانضباط والتنظيم . وكنت قد دنت بالولاء للواجب والنظام . كنت هادئة ، وأحسب اني كنت سعيدة . ولقد بدت ، في عيون الآخرين ، وحتى في عيني أنا في كثير من الاحيان ، فتاة ذات شخصية حسنة الانضباط ، سهلة الانقياد .

ولكن القدر ، ممثلاً في صورة القس المحترم ، مستر ناسميث ، فصل ما بيني وبين مس تامل . لقد رأيتها في ثياب السفر تصعد ، بُعيد زفافها ، الى مركبة من مراكب البريد ، وراقبت المركبة وهي ترقى الهضبة وتتوارى خلف قممها . ثم أنني انقلبت الى حجرتي ، حيث قضيت ، في عزلة تامة ، الجزء الاعظم من عطلة نصف نهائية منحناها احتفاءً بتلك المناسبة .

لقد أنفقت معظم الوقت مطوّفة في الحجرة . وخيل الي أن ما بي لا يعدو الحزن لما حل بي من خسارة ، والتفكير بوسيلة تعوضني منها . ولكن ما ان انتهت فكراتي الى غايتها ، ورفعت طرفي فالفيت أن الاصيل قد انقضى وان الليل يتقدم بخطى واسعة حتى تبدى لي اكتشاف آخر ، قوامه

اني كنت خضعت خلال تلك الفترة اليسيرة لعملية تحويل ، وإن عقلي كان قد أُطرح كل ما قد استعاره من مس تأمل - أو بالأحرى ان مس تأمل كانت قد أخذت معها ذلك الجو الرائق الذي كنت أحيأ فيه في جوارها - واني أسلمت الان لفطرتي الاولى ، واني بدأت استشعر غارات أحاسيسي القديمة . لم يكن الذي بدا لي هو شبيها بانتزاع سناد أو دعامة ما ، ولكنه كان أشبه بضياح حافز ما : لم تكن القدرة على الاعتصام بالهدوء هي التي خذلتني ، ولكن مبرر وجود هذا الهدوء كان قد زال . كانت لوجود هي دنياي كلها طسوال بضع سنوات ، وكانت خبراتي مقصورة على قواعدها وأنظمتها . أما الآن فقد تذكرت ان الدنيا الحقيقية كانت واسعة ، وإن حقولا مختلفة من آمال ومخاوف وأحاسيس وانفعالات كانت تنتظر كل اولئك الذين أو تروا الجرأة على اقتحام مداها اللانهائي ، وعلى التماس معرفة الحياة الحقيقية في غمرة من مخاطرها .

ومضيت الى نافذتي ، ففتحتها ، وأطلت منها . فوقعت عيناى على جناحيّ المبنى ، وعلى الحديقة ، وعلى أطراف لوود ، وعلى أفق الهضاب . وتخطت عيني سائر المشاهد لتستقر على أقصاها ، على القمم الزرقاء . كانت هذه القمم هي ما تلت الى تسلفه ، فقد بدا كل ما في نطاقها من صخر ومرج أشبه بفناء سجن ، أو تخوم منفى . وتتبع بطري الطريق البيضاء المتعرجة حول سفح أحد الجبال ، والمتلاشية في شعب بين جبلين . وما كان أشد توقى الى اتباعها الى ما وراء ذلك ! وتذكرت ذلك اليوم الذي اجتزت فيه تلك الطريق نفسها في عربة ، وتذكرت كيف هبطت تلك الهضبة عند الغسق : لقد بدا وكأن قرنا من الزمان انقضى على اليوم الذي وقدت فيه أول مرة الى لوود ، لكي لا اغادرها بعد ذلك قط . كنت قد انفتحت عظمي كلها في المدرسة . ان مسز ريد لم تدعني للعودة الى غايتسهد البنة ، ولم تغد ولا هي ولا أحد من أفراد اسرتها لزيارتي قط . ولم يتم بيني وبين العالم الخارجي ايما اتصال من طريق الرسائل الخطية او الشفهية ، فقد كانت الانظمة المدرسية ، والواجبات المدرسية ، والعادات ، والمعلومات ، والاصوات ، والوجوه ، والجمل ، والملابس ، وضروب الاثار والنفور المدرسية هي كل ما عرفته من الوجود . ولقد شعرت الآن أن هذه كلها لم تعد كافية ، وسئمت تخطيط ثمانى سنوات في مدى أصيل واحد . لقد تمنيت الحرية ، والى الحرية ظمنت ، وللحرية صليت ، وبدا لي ان الريح التي هبت رخاء كانت تبدها وتذروها . وتخلت عن هذه الفكرة ، وصغت ابتهاالا أشد تواضعا . وصبوت الى التغيير ، الى حافز يغريني بالحياة . ولكن هذه الصلاة تبددت هي الاخرى في الفضاء المبهم . فهتفت نصف يائسة : « اذن ، هب لي يا آلهي ، عبودية جديدة ، على الاقل ! »

وهنا دعاني الى هبوط السلم جرس " زن معلنا حلول موعد العشاء .

ولم أوفق الى استئناف تأملاتي ، التي كان تسلسلها قد قطع علي ، الا

حين أويت الى الفراش . وحتى في تلك الفترة واصلتُ معلمةً كانت تشاظرني الحجرة نفسها صرّفي - بدقّ موصول من اللغو التافه - عن الموضوع الذي تلهّفت لاستئناف التفكير فيه . ولكم تمنيت لو يخرسها النوم ! لقد بدا لي اني اذا ما وفّقْتُ للعودة الى تلك الفكرة التي راودتني آخر الامر وأنا مطلّة من النافذة ، اذن لاومض في ذهني اقتراح مبتكر يوقع الارتياح في نفسي .

واخيرا اخذت مس غرايس في الفطيط . كانت امرأة ويلزية بدينة ما كنت حتى الان لاعتر موسيقاها الانفية المألوفة ، الا مصدرا من مصادر الازعاج . اما الليلة ، فقد رحّبتْ بأولي نعماتها العميقة في رضا . ان شيئا ما لن يقطع تأملاتي ، بعد الآن . وسرعان ما بعثت فكري نصف الميتة من رقادها .

- « عبودية جديدة ! ان ثمة شيئا ذا وزن في هذه الفكرة » ، كذلك رحّت اناجي نفسي ( عقليا ، من غير ريب . فانا لم أتكلّم بصوت عالٍ ) . « أنا أعرف ان فيها شيئا ذا وزن ، لانها تبدو عذبة اكثر مما ينبغي . انها ليست مثل هذه الكلدات : الحرية ، الطرب ، الهنامة ، وكلها أصوات بهيجة حقا ، ولكنها ليست بالنسبة الي غير أصوات ، أصوات جوفاء زائلة الى درجة تجعل الاستماع اليها مضیعة للوقت . أما العبودية ! أما العبودية فانها حقيقة واقعة من غير ريب . ان كل امرئ منا قد يستعبد . ولقد استعبدت ههنا ثمانى سنوات ، وكل ما اطلبه الان هو ان أرزح تحت نير الاستعباد في مكان آخر . أليس في ميسوري ان أفوز بهذا المطلب اليسير بارادتي أنا ؟ أليس هذا المطلب ممكن التحقيق ؟ - أجل . . . أجل . . . ان الغاية ليست بعسدة المال الى هذا الحد ، شرط ان يكون لي ذهن ناشط الى درجة تمكنه من اكتشاف الوسيلة الى بلوغها » .

واستويت قاعدة في سريري رجاء ايقاظ هذا الذهن وتنبهيه . كانت الليلة باردة ، فطوّقت كتفيّ بشال ، ثم تقدمت الى التفكير كرة اخرى ، بكل ما أوتيت من قوة .

- « ما الذي أرغب فيه ؟ عمل جديد . في بيت جديد ، بين وجوه جديدة ، وفي ظل أحوال جديدة : وانما أرغب في ذلك لان من العبث الذي لا طائل تحته ان اطعم في ايما شيء افضل . ولكن كيف يجد الناس عملا جديدا ؟ انهم يتصلون بأصدقائهم التماسا لهذا العمل ، في ما أحسب . وأنا فتاة لا أصدقاء لها . واي بأس في ذلك ، فهناك اشخاص كثيرون لا أصدقاء لهم ، فهم مضطرون الى حك جلدتهم بظفرهم . ولكن ما هي وسيلتهم الى ذلك ؟ »

ولم أوفق الى الاجابة ، ان ايما جواب لم يخطر ببالي . عندئذ أمرت عقلي بالبحث عن جواب ، وبالاhtداء اليه في سرعة . فقدح زناد الفكر ، وقدح على نحو أسرع حتى أحسست بالعروق تنبض في رأسي وصدغي . ولكن قدحه ذاك ظل ، طوال ساعة تقريبا ، صربا من التخطي في عماء ، فاذا بجهوده كلها لا تُفسر عن نتيجة ما . واصابني هذا الجهد العسايب بشبه حمى فنهضت من فراشي ، وخطوت في الحجرة بضع خطوات ، ثم أزحمت الستارة ، وبصّرت

بنجم أو نجمين ، وارتعدت أوصالي من البرد ، فانسَلتْ عائدة الى الفراش .  
ولا ريب في أن جنية كريمة كانت - خلال غيبتني - قد أسقطت فوق  
وسادتي ذلك الجواب المنشود . ذلك بأنني فيما كنت أضطجع في سريري اتخذ  
الجواب سبيله الى عقلي ، في سَكينة بالغة وعلى نحو طبيعي : - « ان اولئك  
الذين يطلبون وظائف يعلنون عن ذلك . ان عليك ان تعلن في صحيفة  
... شاير هيرالد » .

- « كيف ؟ انا لا أعرف شيئاً عن الاعلان ؟ »

وتدفقت الاجوبة ، الآن ، في يسر وسرعة :

- « ان عليك ان تضعي نص الاعلان ونفقاته في ظرف موجه الى محرر  
ال « هيرالد » . وان عليك ان تودعيه بريد لوتون في أول فرصة تتاح لك .  
ويجب ان توجه الاجوبة الى « ج . ا » في مكتب البريد هناك . وفي استطاعتك  
ان تشخصي الى ذلك المكتب ، بعد اسبوع من ايداعك الرسالة ، وتسألني هل  
وردتك اجوبة أم لا ، وتنصرفي على ضوء من ذلك » .

وقلّبت هذه الخطة مثني وثلاث ، حتى اختمرت في ذهني ، واتخذتْ  
شكلاً عملياً واضحاً . وشعرت بالارتياح ، واستسلمت للرقاد .

ولم يكد الصبح يتنفس حتى نهضت من فراشي وصُغتْ صيغة اعلاني  
ووضعتْ ضمن ظرف ، وعُتُونته قبل ان يُقرع الجرس لايقاط المدرسة من  
الرقاد . وكان هذا نصه :

« شابة متمرسة بالتدريس » ( ألم أسلخ سنتين اثنتين في حقل  
التعليم ؟ ) « ترغب في الفوز بعمل في اسرة لا يتجاوز الاولاد فيها سن الرابعة  
عشرة » ( لقد بدا لي أنه لا يحسن بي ، وأنا لما أبلغ الثامنة عشرة ، أن أتولى  
تنقيف طلاب تكاد اسنانهم تقارب سني ) . « وهي مؤهلة لتعليم الفروع  
المألوفة التي تشكل ثقافة انكليزية جيدة ، بالإضافة الى الفرنسية ، والرسم ،  
والموسيقى » ( في تلك الايام كانت هذه المواد الدراسية التي تبدو محدودة  
الافق ، الآن ، تُعتبر ، أيها القاري ، ذات شمول غير يسير ) . « وجهوا  
الاجوبة الى ج . ا . مكتب البريد ، لوتون ، اقليم . . »

وبقيت هذه الوثيقة حبيسة درجي طوال النهار ، وبعد الشاي استأذنت  
المديرة الجديدة في الذهاب الى لوتون لانجاز بضعة أعمال صغيرة بعضها خاص  
بي وبعضها خاص بزميلاتي المعلمات . فما كان منها الا ان أذنت لي في ذلك ،  
فمضيت . كانت لوتون تقع على مسيرة ميلين ، وكانت الامسية ندية ، ولكن  
النهارات كانت لا تزال طويلة . وولجت دكاناً او دكانين ، ودسّست الرسالة  
في البريد ، ثم انقلبت عائدة تحت زخات مطر غزير : كانت ملابسي تقطر ماء ،  
ولكن فؤادي كان قد تحرر من كربه .

وبدا الاسبوع الذي تلا طويلاً جداً . بيد انه انقضى آخر الامر ، كما  
تنقضي جميع الاشياء الدنيوية . وكرة اخرى القيتْ نفسي - أصيل يوم رائق  
من أيام الخريف - أسعى على قدمي في الطريق منطلقة الى لوتون . كانت

الطريق ، بالمناسبة ، فاتنة ، وكانت تمتد على طول الجدول وخلال مُنْعَرَجَات الوَهْدَة الأكثر بهاء . ولكنني فكرت في ذلك اليوم بالرسائل ، التي قد تكون أو قد لا تكون في انتظاري في الضيعة الصغيرة التي كنت متجهة نحوها ، أكثر مما فكرت في سحر المرج والماء .

واذ كانت الذريعة التي اصطنعتها للذهاب الى لوتون هذه المرة هي أخذ قياس قدمي لصنع حذاء جديد فقد انجزت هذه المهمة أولا ، ثم اتخذت سبيلي عبر الشارع الصغير النظيف الهاديء من دكان الحذاء الى مكتب البريد . وكانت تديره سيدة عجوز تضع على انفها نظارتين مصنوعتين من مادة قرنية ، وتطوق ذراعها بفقّازين أسودين لا أصابع لهما .

وسألتها : « هل هناك أية رسالة موجهة الى ج . أ . ؟ »

وحدّثت الي من فوق نظارتها ، ثم فتحت درجاً وراحت تبحث بين محتوياته فترة من الزمان طويلة ، طويلة الى حد جعل آمالي تتداعى للسقوط . وأخيراً ، وبعد أن قرّبت إحدى الرسائل الى نظارتها متأملة اياها نحو من دقائق خمس دفععتها الي عبر المنضدة ، مرفقةً صنيعها هذا بنظرة استطلاعية اخرى حافلة بالشك والارتياب . - كانت الرسالة موجهة الى ج . أ .

وسألتها : « أليس هناك غير رسالة واحدة ؟ »

فقلت : « ليس عندي أية رسالة اخرى » .

فدسّستها في جيبتي ، واستدّرت متخذة سبيلي الى المدرسة : لم يكن في ميسوري ان افضّها آنذاك ، اذ كانت الانظمة تفرض علي العودة قبل الثامنة ، وكانت الساعة قد تجاوزت ، في تلك الآونة ، السابعة والنصف .

وكانت واجبات عديدة تنتظرني لدنّ وصولي : كان علي أن اجلس مع الطالبات خلال ساعة المذاكرة ، وكان علي أن أتلو الصلوات بعد ذلك على مسامعهن - اذ كان الدور في تلك الليلة دوري - وأن اراقبهن اثناء أيوائهن الى المضاجع . ثم أنني تناولت طعام العشاء مع المعلمات الاخريات . وحتى عندما أويت آخر الامر الى حجرة النوم ظلت مس غرايس ، التي لا بد منها . تلازمني . ولم يكن لدينا في شمعداننا غير كعب شمعنة قصير ، ولقد خشيت أن تسترسل مس غرايس في لغوها حتى تلفظ الشمعة انفاسها الاخيرة ، بيد ان العشاء الثقيل الذي التهمته ما لبث - لحسن طالعي - ان اغراها بالنوم ، فاستسلمت للغطيط قبل أن أتم خلع ملابسني . كان قد بقي من الشمعة انش واحد ، فأخرجت الرسالة من جيبتي ، فاذا بخاتمها يحمل حرف « ف » . وفضّضتها ، فاذا بها تنطوي على هذه السطور الموجزة :

« اذا كانت ج . أ . التي اعلنت في عدد . . . شاير هيرالد الصادر يوم الخميس الماضي تتمتع بالثقافة المشار اليها ، واذا كان في استطاعتها أن تقدم شهادات مرضية تركي خلتها وكفاءتها فنندثد يسكون في الامكان ان يُعرض عليها عمل في منزل ليس فيه غير طالبة واحدة ، فتاة صغيرة لما



تبلغ العاشرة ، وبراتب مقداره ثلاثون جنيهًا في العام . فالرجاء من ج . أ . أن تبعث بشهادتها المزمّنة ، وباسمها ، وعنوانها ، وبمختلف التفاصيل الى العنوان التالي :

ميسز فيرفاكس ، ثورنفلد ، قرب ميلكوت ، اقليم . . . .

وانعمت النظر في الرسالة ، برهة طويلة . كان الخط عتيق الطراز ، مضطربا بعض الشيء ، فكأنه خط سيدة عجوز . وكان في هذه الواقعة ما طمأنني . ذلك بأن خوفا باطنيا كان قد استبد بي ووقع في نفسي اني ، وقد خطوت هذه الخطوة من تلقاء ذاتي ومن غير ما ارشاد من أحد ، غامرت مغامرة قد توقعتني في ورطة ما ، وكنت قد تمنيت قبل كل شيء ان تجيء ثمرة جهودي كريمة ، لا غبار عليها . فاذا بي أشعر الآن ان في وجود هذه السيدة العجوز في المنزل الذي سأعمل فيه عنصرا صالحا يدعو الى الارتياح . مسز فيرفاكس ! لقد تخيلتها ترتدي ثوبا أسود وتعتزم بقعة من قبعات الارامل . انها قد تكون جافية ، ولكنها لن تكون قليلة الكياسة ، انها سوف تكون نموذجا للوقار الانكليزي العريق . ثورنفلد ! لا ريب في أن هذا كان اسم بيتها ، وهو موطن نظيف يسوده النظام . كنت واثقة من ذلك ، وان عجزت برغم جهودي كلها عن تخيل صورة واضحة للمكان . « ميلكوت ، اقليم . . . . » ! ورحت أنقب في ذاكرتي التماسا لما علق فيها من جغرافية انكثرت . أجل ، لقد بصرت بهما . بصرت بالاقليم وبالمدينة جميعا . كان الاقليم . . . أقرب الى لندن من الاقليم القصي الذي كنت أقيم فيه الآن ، بسبعين ميلا . ولقد كان في ذلك بعض الخير لي . فقد تفتت الى الماضي الى حيث توجد حياة وحركة ، وكانت ميلكوت مدينة صناعية كبيرة قائمة على ضفتي نهر آ . . . كانت مكانا يبور بالنشاط ، من غير ريب . وهل أطمع في شيء أفضل ؟ انه سوف يمكنني من تغيير وجه حياتي على الاقل . وقلت في ذات نفسي : « ليس معنى هذا ان خيالي كان أسير فكرة المداخن الطويلة وسجائب الدخان ، ولكن ثورنفلد سوف يكون في أغلب الظن على مسافة كبيرة من المدينة » .

وهنا لفظت الشمعة آخر انفاسها ، وانطفأ فتيلها .

وفي اليوم التالي كان علي أن اقوم بخطوات جديدة . لم يكن في امكاني أن أبقى خططي مكنونة في صدري ، لقد تعيّن علي أن أبوح بها لكي أكفل لها النجاح . وهكذا سعت لمقابلة المديرة ، خلال فرصة الظهيرة ، حتى اذا تمّ لي ذلك انبأتها بأني قد اوفق الى الفوز بوظيفة جديدة تتيح لي الحصول على ضعف الراتب الذي كنت آخذه حاليا ( ذلك بأن راتبي في لوود لم يكن يتجاوز خمسة عشر جنيهًا في العام ) ، وسألته ان تقترح مستر بروكلهورست ، أو أي عضو آخر من أعضاء اللجنة ، بالمسألة ، بالنيابة عني ، وتستيقن هل يوافق على تزكيتي لدى المرجع الذي كان من المنتظر أن أعمل في خدمته ، أم لا . فوافقت على القيام بمهمة الوساطة في هذه المسألة عن رضا وطيب خاطر . وفي اليوم التالي بسطت القضية لمستر بروكلهورست ،

فقال ان الموقف يوجب الكتابة الى مسز ريد ، بوصفها الوصيَّة الطبيعية علي . وهكذا وُجِّهَت مذكرة الى تلك السيدة ، فكان جوابها « بأن في ميسوري أن أفعل ما أشاء ، فقد احجمت منذ عهد طويل عن ادنى التدخل في شؤوني » . وعرضت هذه الرسالة على اعضاء اللجنة واحدا اثر واحد ، وأخيرا ، وبعد فترة خَّيل الي انها انطوت على تأخير ليس ادعى منه الى الاملال مُنْهَجَتْ اذنا رسميا بأن أحسَّن وضعي العام اذا استنطعت ، وأكد لي انني سوف اعطى تزكيةً لخلُقي وكفاءتي ، موقعة من مفتشي معهد « لوود » ، تقديرا منهم لتمسكي الدائم - سواء بوصفي معلمة أم بوصفي طالبة - بأهداب النظام وحسن السلوك في تلك المؤسسة .

والواقع اني تلقيتُ هذه التزكية بعد شهر تقريبا ، فقدمتُ نسخة منها الى مسز فيرفاكس ، وتلقيت جواب تلك السيدة وكان ينص على انها ارتاحت لبیاناتي ، وأمهلتني اسبوعين لتولي اعباء منصبى كمربية في بيتها .

عندئذ انصرفت بكلَّيتي الى اعداد العدة للرحيل . وتقضَّى الاسبوعان في سرعة . أنا لم أكن أملك مجموعة من الثياب ضخمة جدا ، على الرغم من ان ما امتلكنه منها كان وافيا بحاجتي ، فاذا باليوم الاخير يتسع لتوضيبيها في حقيبتى - وهي الحقيقية نفسها التي كنت قد حملتها من غايتسهيد منذ سنوات ثمان .

وطوّقت الحقيبة بحبل ، وثبَّتت على ظاهرها بطاقة تحمل اسمي ، وكان مقررا ان يفدَّ الحمال بعد نصف ساعة لنقلها الى لوتون ، وأن أمضي أنا الى هناك في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي للقاء المركبة . وكنت قد اعملت الفرشاة في ثوب سفري المخطط من قماش اسود ، وأعددتُ قبعتي وقفَّازي وفروتي الخاصة بتدفئة الذراعين ، وعادوتُ فتح ادراجي كلها لكي أستيقن من أنني لم أنس أيما شيء فيها . حتى اذا لم يبق لدي أيما عمل اضافي أقوم به جلست ، وحاولت ان أنام ، ولكني لم استطع ، أجل لم استطع ان أنام لحظة واحدة ، على الرغم من أنني قضيت ذلك النهار كله واقفة على قدمي او ساعية عليهما ، فقد كنت منفعلة أكثر مما ينبغي . كانت صفحة من حياتي على وشك ان تُخْتَم تلك الليلة ، وكانت صفحة جديدة منها على وشك ان تفتح غدا ، فمن المتعذر علي ان اعرف الغمض في الفترة الممتدة ! بينهما . ان علي ان ارقب ، على نحو محموم . اكتمال ذلك التغير الذي كان يتخذ سبيله الى حياتي .

وقالت خادمة التقتني في المجاز حيث كنت اذرع المكان جيئة وذهوبا مثل روح قلقة : « في الدور الاسفل رجل يريد ان يراك ، ايتها الأنسة » .

وقلت في ذات نفسي : « انه الحمال ، من غير ريب » . ورحت اهبط السلم على عجل ، من غير ان اطرح ايما سؤال . وكنت اجتاز القاعة الخلفية - او حجرة جلوس المعلمات ، التي كان بابها نصف مفتوح - في طريقي الى المطبخ ، عندما انطلقت منه امرأة اعترضت سبيلي ، وامسكت بيدي ، صائحة :

« انها هي ، انا واثقة من ذلك . لقد كان في امكاني ان اعرفها حيثما وجدتھا » .

وانعمتُ النظر اليها ، فرأيت امرأة في زي خادمة حسنة البزة . كانت ملابسها تلك جديرة بكهلة في خريف العمر ، ومع ذلك فقد كانت ما تزال في ربيعہ . وكانت وسيمة جدا ، ذات شعر فاحم وعينين سوداوين ، وبشرة ناضرة .

وتساءلتُ في جَرَس وبسمة عرفتھما نصف معرفة : « حسنا ، من انا ؟ انك لم تنسيني تماما ، في ما اعتقد ، يا مس جين ؟ »  
وما هي الا ثانیة اخرى حتى كنت اعانقها واقبلها في ابتهاج غامر :  
« بیسی ! بیسی ! بیسی ! »

كان ذلك كل ما قلته . فما كان منها الا ان اطلقت نصف ضحكة ، وبكت نصف بكاء ، ومضيئا معا الى القاعة الخلفية . وهناك كان يقف الى جانب المدفأة غلام صغير لا يتجاوز عمره الثالثة ، وكان يرتدي بلوזה وبنطلونا من نسيج صوفي مخطط .

وقالت بیسی على نحو مباشر : « هذا هو ولدي الصغير » .

« واذن فقد تزوجت ، يا بیسی ؟ »

« اجل ، منذ خمس سنوات تقريبا . وزوجي هو روبرت ليفن ، سائق العربیة . ولقد رُزِقَت ، بالاضافة الى « بوبي » هذا بنتا صغيرة دَعَوْتُها جين » .

« وانت لا تقيمين في غایتسهيڊ ؟ »

« انا اقيم في كوخ البواب . ان البواب القديم قد رحل » .

« حسن . وكيف حالهم كلهم ؟ اخبريني كل شيء عنهم يا بیسی . ولكن اجلسي اولا . وانت يا بوبي ، نعال واجلس على ركبتی ، ما رأيك ؟ »  
ولكن بوبي فضّل الانسلال نحو امه والاتصاق بها .

وتابعت مسز ليفن حديثها : « انك لم تبلي من الطول مبلغا عظيما ، يا جين ، ولم يعرف جسمك مقدارا كافيا من البدانة . واني لاجرؤ على الزعم انهم لم يُعْنُوا بأمرک في المدرسة ، عناية حسنة . ان كتفي مس ريد تبلغان مستوى رأسک ، وان جسم مس جورجيانا يبلغ عرضه ضعيف عرضک » .

« جورجيانا بهیة الطلعة ، في ما احسب ، اليس كذلك يا بیسی ؟ »

« جدا . لقد ذهبت الى لندن في فصل الشتاء الماضي مع امها ، وهناك كانت موضع اعجاب القوم كلهم . ولقد تدلّ بهجها لورد غرض الاهداب ، ولكن اهله ، عارضوا في زواجه منها ، فهل تدرين ماذا فعلا ؟ لقد عقد هو ومس جورجيانا العزم على الهرب . ولكن امرهما سرعان ما اكتشف ، وبذلك حيل بينهما وبين الفرار . ولقد كانت مس اليزا هي التي اكتشفت الخطة . وانا اعتقد انها فعلت ذلك بدافع من الغيرة والحسد . وهي الآن تحيا مع اختها وكانهما هر وکلب : انهما تنفقان الوقت في شجار مستمر » .

« حسنا ، وجون ريد ؟ »

« اوه ، انه يسلك سلوكا لا يتفق مع ما تتمناه له امه . لقد ذهب الى كلية من الكليات ، وهناك رسب - هذا هو التعبير الذي يستعملونه ، اليس كذلك ؟ - في الامتحانات . ثم ان اخواله ارادوا له ان يصبح محاميا ، وان يدرس الحقوق . ولكنه فتى داعر الى ابعد الحدود ، واحسب انهم لن يوفقوا في ايما يوم من الايام الى جعله رجلا ذا شأن . »

« وهيئته العامة ، كيف هي ؟ »

« انه فارغ الطول . وبعض الناس يعتبرونه شابا وسيما . ولكن شفثيه غليظتان جدا . »

« ومسر ريد ؟ »

« ان السيدة تبدو بدينة ، صحيحة الجسم . ولكني احسب انها غير مرتاحة نفسيا . ان سلوك مستر جون لا يعجبها . . . انه يبذر المال تبذيرا . »

« اهي التي سالتك المجيء الى هنا ، يا بيسي ؟ »

« اوه ، لا . ولكن الشوق كان قد برح بي الى لقائك ، وحين سمعت ان السيدة تلقت رسالة منك ، وانك تعزمين الرحيل الى جزء آخر من البلاد خطر لي ان من الخير ان انطلق لاكل طرفي برؤيتك قبل ان تصبجي وراء متناولتي تماما . »

« ارجو ان لا تكون رؤيتي قد خيبت ظنونك ، يا بيسي ، قلت ذلك مستضحكة . فقد لاحظت ان نظرة بيسي كانت ، برغم ما انطوت عليه من احترام ، خلوا من اقل الاعجاب واضاله . »

« لا ، يا مس جين . ليس على وجه الضبط . انك رفيعة التهذيب ، وان سيما السيدات الكاملات لتبدو على وجهك . وهذا كل ما كنت اتوقعه لك دائما . فانت لم تكوني مليحة الوجه في عهد الطفولة . »

وتقبّلت جواب بيسي الصريح بابتسامة : لقد شعرت بأنه كان صحيحا ، ولكنني اقرُّ بأنني لم اتلقَ مضمونه في لا مبالاة كاملة . ففي سن الثامنة عشرة ترغب الكثرة الكاثرة من الفتيات في انتزاع اعجاب الناس ، وخليقٌ باقتناعهن بأنهن لا يملكن مظهرا خارجيا متكافئا مع هذه الرغبة ان يوقع في نفوسهن كل المشاعر ما خلا الرضا والارتياح .

وتابعت بيسي ، على سبيل التعزية : « في استطاعتي ان اقول ، مع ذلك ، انك بارعة . اي شيء تحسنيين ؟ هل تعرفين العزف على البيان ؟ »

« قليلا . »

وكان في الحجرة بيان . فبضت بيسي وفتحتته ، ثم سألتني ان استوي على كرسيه واسمعهما لحنا . فعزفتُ فالسا او فالسَيْن ، فتُنت بهما بيسي فتونا عظيمما ، فقالت متهللة : « ان مس جورجيانا ومس اليسزا تحسنان العزف احسانك اياه ! لقد قلت دائما انك سوف تتفوقين عليهما في ميدان العلم والثقافة . وهل تحسنيين الرسم ؟ »

« هي ذي لوحة من لوحاتي معلقة فوق المدفأة » . كانت لوحة مائية تمثل مشهداً من مشاهد الريف ، لوحة كنت قد اهديتها الى المديرية تقديراً مني لما تفضلت به من التوسط لي عند لجنة المعهد . وكانت المديرية قد رَجَّجَتْها واحاطتها باطار .

« اوه ، انها لوحة رائعة ، يا مس جين ! انها لا تقل روعة عن اية لوحة من لوحات الاستاذ الذي يعلم مس ريد فن الرسم ، فما بالك بلوحات الآنستين نفسيهما ، تلك اللوحات التي تقصّر عن مضاهاتها . وهل تعلمت الفرنسية؟ »

« اجل ، يا بييسي ، انا احسن قراءتها والتكلم بها » .

« وهل تحسنين انوشي على الموصلين والكانفا ؟ »

« نعم » .

« اذن فانت سيدة بكل ما في الكلمة من معنى ، يا مس جين . ولقد كنت واثقة من انك هكذا ستصبحين ، ومن انك سوف توفقين الى النجاح سواء عُنِي بك اهلك ام لم يُعْنُوا بك . وعلى آية حال ، فهناك شيء كنت اريد ان اسألك عنه . هل قدّر لك ان تسمعي ايما نبأ عن اسرة ابيك ، آل ايير ؟ »

« لم يقدّر لي ذلك في أي يوم من ايام حياتي » .

« حسن . انك تعلمين ان سيدتي كانت دائما تقول انهم قوم فقراء ، وانهم حقيرون الى ابعد الحدود . ومن الجائز ان يكونوا فقراء . ولكنني اعتقد انهم لا يقلون وجاهة عن آل ريد . ذلك بأن رجلا يدعى مستر ايير وفد ذات يوم . وكان ذلك منذ سبع سنوات تقريبا - على غايتسهيد وطلب الاجتماع بك ، فقالت له سيدتي انك تتلقين العلم في مدرسة على مَبْعَدَة خمسين ميلا . فبدت على وجهه علائم الاستياء البالغ ، اذ لم يكن بقادر على البقاء في الوطن ، فقد كان يعتزم السفر الى بلد اجنبي ، وكان من المقرر ان تغلق السفينة من لندن خلال يوم او يومين . كان مظهره مظهر سيد من كرام القوم ، وانا اعتقد انه كان عمك أخوا ابيك » .

« الى اي بلد اجنبي كان مسافرا ، يا بييسي ؟ »

« الى جزيرة نائية تقع على مَبْعَدَة آلاف الاميال ، حيث يصنعون الخمر ، كما اخبرني كبير الخدم » .

فقلت : « لعلها ماديرا ! »

« اجل ، ماديرا - هذه هي الكلمة بصيغتها » .

« واذن فقد ارتحل ؟ »

« اجل . انه لم يمكث في البيت غير دقائق معدودات . فقد استقبلته سيدتي استقبالا جافا راشحا بالتعالي والتكبر ، ولقد نعمته بعد ذلك بـ « التاجر الخسيس » . ويعتقد زوجي روبرت انه كان تاجر خمر » .

فقلت : « محتمل جدا . ولعله موظف عند تاجر خمر او وكيل من وكلاء احد المتاجرين بالخمر » .

وتحدثت انا وببسي ، ساعة اضافية ، عن الايام الخالية ، ثم اضطرت الى مفارقتي . ولقد رأيتها كرة اخرى ، طوال بضعة دقائق ، صباح اليوم التالي في لوتون ، فيما كنت انتظر المركبة . وقد افترقنا نهائيا عند باب نزل « اسلحة بروكلهورست » هناك ، فمضت هي لسبيلها ومضيت انا لسبيلي . لقد اتجهت الى اعلى هضبة لوود لكي تستقل العربة القاصدة الى غايتسهيد . وامتطيت انا متن المركبة التي كان مفروضا فيها ان تقودني الى واجبات جديدة والى حياة جديدة في ضواحي ميلكوت المجهولة .

## ١١

ان كل فصل جديد في رواية ما هو اشبه شيء بمشهد جديد في مسرحية من المسرحيات . وحين ارفع الستارة هذه المرة ، ايها القارئ ، يتعين عليك ان تتخيل حجرة في نزل جورج في ميلكوت مزدانة الجدران بذلك الورق المصوّر الذي تغطي به جدران الفنادق عادة ، وان تتخيل ان في تلك الحجرة سجادة ، واثاثا ، وبعض اسباب الزينة الموضوعة على المدفأة ، ورسوما فنية في جملتها لوحة لجورج الثالث واخرى للبرنس اوف ويلز وصورة تمثل وفاة وولف . وكل ذلك انما يتجلى لناظريك على ضوء مصباح زيتي متدل من السقف ، وضوء نار حسنة الضرام جلست انا في جوارها مرتدية معطفي ومعمتمة بقبعتي . كانت مظلتي وفروة ذراعي ملقاتين على الطاولة ، وكنت احاول ان اتعذب على الخدر والقشعريرة اللذين استبدا بي اثر تعرضي ست عشرة ساعة لرطوبة ذلك اليوم الاكثوري وبرده القارس . لقد غادرت لوتون في الساعة الرابعة صباحا ، ولقد كانت ساعة مدينة ميلكوت تدق الان معلنة الثامنة مساء .

صحيح اني كنت ، ايها القارئ ، محاطة باسباب الرفه كلها ولكن نفسي لم تكن تنعم بكثير من الطمأنينة . فقد حسبت حين وقفت العربة هنا ان امرأ ما سوف يستقبلني ، فرحت اجيل الطرف في ما حولي ، في كثير من اللهفة والقلق ، بينما كنت اهبط الدرجات الخشبية التي وضعها خادم الفندق لتمكينني من الترحّل في غير انزعاج ، متوقعة ان اسمع صوتا يناديني باسمي وان المح عربة ما ، تنتظرني لتقلّني الى ثورنفيلد . ولكنني لم اوفق الى ايما شيء من ذلك ، وعندما سألت احد النادل هل سأل احد عن فتاة تدعى الأنسة ايبير ، اجابني بالنفي . وهكذا لم يعد لي مناص من ان اضلّب الى النادل ان يقودني الى حجرة خاصة ، وها انا ذي انتظر ، فيما تعصف بفكراتي ضروب الشكوك والمخاوف على اختلافها .

انه لاحساس " غريب جدا ، بالنسبة الى فتاة غرة ساذجة ان تستشعر انها وحيدة " في هذا العالم ، معزولة عن افراد اسرتها جميعا ، غير متأكدة من انها سوف توفق الى بلوغ الموطن الذي قصدت اليه ، وغير قادرة بسبب من

عوانق كثيرة على العودة الى الوطن الذي فارقتة . ان سحر المغامرة ليجعل ذلك الاحساس عذبا سائما ، وان وهج الكبرياء ليوقع الدفء فيه . ولكن رعدة الخوف خلقت بها ان تكدره ، وكان الخوف قد غلب آنذاك علي ، بعد ان تصرّمت ثلاثون دقيقة وانا لا ازال وحيدة . وأخيرا وطننت العزم على قرع الجرس .

وسألت النادل الذي لبي ندائي : « هل يوجد في ضواحي هذه المدينة مكان يدعى تورنفيلد ؟ »

- « تورنفيلد ؟ لست ادري ، يا سيدتي ، سوف اسأل المكلّف بالمشرب » .

قال ذلك ثم توارى عن ناظري ، ولكنه ما لبث ان عاد الى الظهور في الحال وسألني : « هل اسمك اير ، ايها الأنسة ؟ »

- « نعم » .

« ان ثمة شخصا ينتظرك عندنا » .

ووثبت ، وتناولت فروة ذراعي ومطلتي ، وهرعت الى رواق الفندق . فالفيت رجلا واقفا على مقربة من الباب المفتوح ، وعلى ضوء مصباح الشارع لمحت عربية ذات جواد واحد .

وحين بصّر بي ذلك الرجل قال في شيء من الخشونة وهو يشير الى حقيبتي التي كانت في الرواق : « هذه هي امتعتك ، في ما احسب ؟ »

- « اجل » .

وحمل الرجل الحقيبة ووضعها في العربية ، التي كانت ضربا من المركبات ذوات العجلتين . وبعد ذلك امتطيت انا متنها . وقبل ان يوصد الباب خلفي سألته كم تبعد تورنفيلد عن ذلك المكان ؟

- « نحو من ستة اميال » .

- « وكم ساعة ستستغرق رحلتنا الى هناك ؟ »

- « ساعة ونصف ، تقريبا » .

واغلق باب العربية ، وصعد متخذاً مقعده الخارجي ، وانطلقا . لقد مضت بنا العربية في تودة ، متيحة لي فرصة واسعة للتفكير . لقد ابهجني ان تشرف رحلتي آخر الامر ، على نهايتها . وفيما كنت مسترخية في العربية المريحة ، برغم بُعدها عن الاناقة ، اطلقت العنان لتأملاتي .

لقد قلت في ذات نفسي : « يخيّل الي ، على اساس من بساطة الخادم والعربة ، ان مسز فيرفاكس ليست امرأة مسرفة في الانفاق ، وذلك افضل على كل حال ، فانا لم اعش الا مرة واحدة مع قوم اغنياء ، ولقد كنت شديدة التعاسة بين ظهرائيّهم . ترى هل تحيا هي وتلك الفتاة الصغيرة منفردتين ؟ واذا كان ذلك كذلك واذا كانت قريبة الى النفس بعض الشيء فلا ريب في اني سوف اوفق الى الانسجام معها . اني سوف ابذل غاية جهدي ، وانه لمن المحزن ان لا يؤدي بذل المرء غاية جهده الى ثمرة ما ، في كثير من الاحيان . لقد

اتخذت ، في لوءود ، مثل هذا القرار ، والتزمته التزاما دقيقا ، فوفقت الى انتزاع رضا الجماعة واعجابها . اما مع مسز ريد فانا اذكر ان جهودي كانت تقابل بالازدراء على نحو موصول . واني لاضرع الى الله ان لا تتكشف مسز فيرفاكس عن مسز ريد جديدة . اما اذا فعلت فعندئذ لن يكون ثمة ما يكرهني على البقاء في خدمتها . ليحدث اسوأ ما يمكن ان يحدث ، ففي ميسوري في مثل هذه الحال ان انشر اعلانا جديدا . ترى ، ما المسافة التي اجتزناها حتى الان ؟

وانزلت زجاج النافذة ، واطللت منها : كانت ميلكوت ورانا . ومن عدد المصاييح استنتجت انها مدينة مترامية الاطراف ، مدينة اكبر من لوتون بكثير . كنا الآن ، بقدر ما استطعت ان ارى ، نجتساز بضرب من الحديقة العامة ، ولكن كانت ثمة بيوت متناثرة في ارجاء البقعة كلها . لقد استشعرت اننا كنا في منطقة مختلفة عن لوءود ، منطقة اكثر اكتظاظا بالسكان ولكنها اقل جمالا ، واكثر حيوية ولكنها اقل رومانتيكية .

كانت الطرق وعرة ، وكان الليل مثقلا بالضباب . وترك الحودي جواده يمشي الهوينا ، فاذا بالساعة ونصف الساعة يتناولان ليصبحا - في ما اعتقد - ساعتين اثنتين . واخيرا استدار من على مقعده وقال :

- « انت غير بعيدة ، الان ، عن ثورنفيلد » .

وأطلت من النافذة ، كرة اخرى . كنا نجتاز الان بكنيسة ، ولقد رأيت برجها المنخفض العريض بارزا في السماء ، وسمعت ساعتها تدق دقة الربع . ورأيت الى ذلك « متجرة » ضيقة من الاضواء ، فوق سفح هضبة ، فعلمت ان ثمة قرية او دسكرة . وبعد عشر دقائق ترجل الحودي وفتح مصراعي باب ، حتى اذا اجتزناهما سمعناهما يصطفقان من ورائنا . وصعدنا الان تصعيدا وانيا في احد الممرات ، حتى انتهينا الى بيت ذي واجهة طويلة . كان ضوء شمع يرشح من قمرية مسدلة الستارة ، على حين كان الظلام يرين على سائر المكان . ووقفت العربة عند الباب الامامي . وفتحت خادمة ذلك الباب ، فترجلت ودخلت .

وقالت الفتاة : « هل لك ان تسيري من هنا ، يا سيدتي ؟ » وتبعته عبر ردهة مربعة تطوقها جدران عالية ، ثم ادخلتني الى حجرة بهرت بصري بادى الامر بضياؤها المزدوج المنبعث من نار وشموع ، وهو ضياء متفاير كل التفاير مع الظلمة التي الفتها عيناى طوال ساعتين من الرحلة . حتى اذا استعاد ناظراى قدرتهما على الابصار تبدى لي مشهد انيق مستساغ .

لقد رأيت حجرة صغيرة حسنة الترتيب ، ومائدة مستديرة على مقربة من نار بهيجة ، وكرسيا ذا ذراعين عالي الظهر عتيق الطراز استوت عليه عجوز ضئيلة الجسم يعجز الخيال عن تصور امرأة اكثر منها نظافة . وكانت هذه العجوز تعتمر بقبعة من قبعات الارامل ، وترتدي ثوبا حريريا اسود ومنزرا من الموصلين ثلجي البياض ، وكانت على وجهه الضبط اشبه بالصورة التي



تمثلتها بخيالي لمسز فيرفاكس ، الا انها اقل جلالا وأكثر وداعة . كانت منهمكة في الحبك ، وكانت هرة ضخمة تجلس عند قدمها في رصانة . وبكلمة موجزة ، لم يكن يعوز تلك الحجرة شيء تكتمل به هذه اللوحة التي تصور المثل الاعلى في الرفق المنزلي . واحسب انه ليس في الامكان تخيل 'مقدمة' توقع الطمأنينة في نفس ايما مربية جديدة اكثر من هذه المقدمة : لم يكن ثمة فخامة 'تذهل' ، ولا ابهة 'تربك' . والى هذا ، فاني ما كدت ادخل حتى نهضت السيدة العجوز ، وتقدمت لاستقبالي في لهفة ولطف .

« كيف حالك ، يا عزيزتي ؟ اني اخشى ان تكون الرحلة الى هنا قد اضجرتك ، ذلك ان جون يقود عربته في ببطء شديد . ولا ريب في انك مقرورة ، فاقتربي من نار المدفأة » .

فقلت : « مسز فيرفاكس ، في ما احسب ؟ »

« نعم . لست مخطئة . اجلسي » .

وقادتني الى كرسيها ، ثم شرعت تنزع عني شالي وتحل اشربة قبعتي . ورجوتها ان لا تكلف نفسها هذا العناء كله فقالت : « اوه ، ليس هذا بعناء . اني لاجرو على القول ان يديك خدرتان من شدة البرد . اعددي ، يا لييا ، قليلا من شراب النيفغوس الحار وشطيرة او شطيرتين . دونك مفاتيح مخزن الاطعمة » .

قالت ذلك واخرجت من جيبها مجموعة من مفاتيح ليس ثمة ما هو اليق منها بربة بيت نموذجية ، وقدمتها الى الخادمة .

ثم انها استأنفت حديثها : « والان ، اقتربي من النار اكثر مما فعلت . لقد اصطحبت امتعتك ، اليس كذلك يا عزيزتي ؟ »

« نعم ، يا سيدتي » . وغادرت الغرفة في خفة ونشاط .

وقلت في ذات نفسي : « انها تعاملني معاملة الزائرة . والواقع اني لم اكن اتوقع مثل هذا الاستقبال ، الا قليلا . لقد توقعت برودة وخشونة ليس غير . ان هذه المعاملة لا تشبه ما كنت قد سمعته عن معاملة الناس للمربيات . ولكن يتعين علي ان لا ابتهج بأسرع مما ينبغي » .

ثم انها عادت . وبيديها الاثنتين رفعت عن المائدة ادوات حبكها وكتابا او كتابين لكي تفسح مجالا للصينية التي جاءت بها « لييا » في اعقابها ، ثم قدمت الي الشراب والطعام بنفسها . وارتبكت بعض الشيء اذ وجدت نفسي موضع رعاية لم يسبق لي ان احطت بمثلها من قبل ، ومن جانب من ؟ من جانب مستخدمتي ورئيستي . ولكن لما كانت هي نفسها لا تعتبر ، في ما بدا لي ، انها تقوم بأيا عمل استثنائي فقد رأيت من الخير ان اتقبل مجاملاتها هذه في هدوء .

وسألتها بعد ان تناولت شيئا مما قدمته الي : « هل سيقدر لي ان اسعد بروية مس فيرفاكس الليلة ؟ »

فأجابتنني السيدة الطيبة وهي تقرب اذنها من فمي : « ماذا قلت ، يا

عزيزني ؟ اني اشكو بعض الصمم » .

فكرت السؤال على نحو اشد وضوحا ، فقالت : « مس فيرفاكس ؟  
اوه ، انت تعنين مس فارينز ! فارينز هو اسم طالبتك المقبلة » .

- « حقا ! واذن فانها ليست بنتك ؟ »

- « لا ، فليس لي اولاد » .

وكان خليقا بي ان ارغب في اتباع سؤالي الاول بالسؤال عن صلة  
النسب بينها وبين مس فارينز ، ولكنني تذكرت انه ليس من الكياسة ان  
اسرف في طرح الاسئلة . والى هذا ، فقد كنت واثقة من انني سوف اعرف  
ذلك عاجلا ام آجلا .

وتابعت تقول وهي تجلس قبالي واضعة الهرة على ركبتيها : « انا  
سعيدة جدا ، سعيدة جدا بمجيئك . ان الحياة سوف تطيب لي هنا ، منذ  
اليوم ، مع رفيق مؤنس . انها ولا ريب طيبة في كل آن ، ذلك بأن ثورنفلد  
قصر عتيق رائع ، قد يكون اهمل في السنوات الاخيرة ولكنه لا يزال موطنا  
محترما . ومع ذلك فانت تعلمين ان الوحدة ، حتى في افخم القصور ، توقع  
في نفس المرء بعض الوحشة خلال شهور الشتاء . اقول الوحدة - ان « ليا »  
فتاة لطيفة من غير ريب ، وجون وزوجته قوم لا غبار عليهم ، ولكنهم كما ترين  
مجرد خدم ، وليس في ميسور المرء ان يتحدث اليهم على قدم المساواة : ان  
عليه ان يبقئهم على مسافة كافية خشية ان يفقد هيئته وسلطانه . واستطيع  
ان اقول في كثير من الثقة انه في الشتاء المنصرم ( لقد كان شتاء قاسيا جدا ،  
اذا كنت تذكرين ، لم ينقطع ثلجه - او يكد - عن السقوط ، حتى اذا اتفق ان  
انقطع يوما ، هطل المطر وهبَّت الرياح ) لم يفد على القصر ايما مخلوق غير  
الجزار وساجي البريد ، من تشرين الثاني ( نوفمبر ) الى شباط ( فبراير ) ،  
ولقد غلبت علي الكتابة حقا اذ رايت الى نفسي اسلخ الليلة تلو الليلة منفردة  
وحيدة . كنت اسأل « ليا » ان تقرأ لي في بعض الاحيان ، ولكنني لا احسب  
ان تلك الفتاة المسكينة احبت هذه المهمة كثيرا . لقد وجدت فيها معنى الحبس  
وتقييد الحرية . اما الربيع والصيف فالحياة فيهما ادعى الى الامتاع : ان  
اشعة الشمس والنهارات الطويلة لتشعرك بأن تغيرا كبيرا قد حدث . والى  
هذا ، ففي مطلع هذا الخريف بالذات وفدت أديلا فارينز الصغيرة وحاضنتها .  
ان الاطفال ليعثون الحياة في البيت ، فجأة ، اما وقد اقبلت انت ايضا فلا  
ريب عندي في ان البهجة سوف تغمر فؤادي » .

والحق ان قلبي أنس الى السيدة الجيلة حين سمعتها تتحدث .  
وادنيت كرسيي منها ، بعض الشيء ، وعبرت عن رغبتني الصادقة في ان تجد  
صحبتني سائغة كما توقعت .

وقالت : « ولكنني لن ابقىك ساهرة ، الليلة ، حتى وقت متأخر . هاهي  
ذي الساعة تدق معلنة الثانية عشرة ، ولقد سلخت النهار كله في سفر  
طويل ، ولا ريب انك متعبة . فاذا كانت قدماك قد عرفت الان قدرا كافيا من

الدفء فسوف اقودك الى حجرة نومك . لقد سألتهم ان يعدلوا لك الحجرة الملائمة لحجرتي . صحيح انها غرفة صغيرة ، ولكنني اعتقدت انك قيمة بان تفضلها على الحجرات الامامية الرحيبة . لا ريب في ان ائاثها اغني ، ولكنها موحشة جدا ، منعزلة جدا ، الى درجة جعلتني انا نفسي لا انام فيها البتة .

فشكرتها على اختيارها الحضيف ، واذ كنت استشعر الارهاق ، فعلا بعد رحلتي الطويلة ، فقد عبرت عن استعدادي للايواء الى الفراش . فما كان منها الا ان حملت شمعتها وغادرت الحجرة ، وانا امضي في اثرها . لقد ذهبت اولا لتستيقن من ان باب الردهة مغلق بالمزلاج . حتى اذا نزعت المفتاح من القفل ارتقت السلم امامي . كانت الدرجات والدرايزون من خشب السنديان ، وكانت نافذة السلم عالية ذات شعيرة . وكانت هذه النافذة والشرقة الطويلة المفضية الى ابواب حجرات النوم تبدوان اليثق بكنيسة منهما بيت . كان هواء بارد جدا شبيه بهواء السرايب يتخلل السلم والشرقة ، ويوحى بمعانٍ من الاتساع والعزلة بغیضة . وابتهجت آخر الامر عندما اكتشفت ، وقد ادخلت الى حجرتي ، انها غير مترامية الاطراف ، وانها ذات اثاث عصري عادي .

حتى اذا تمت لي مسر فيرفاكس ليلة طيبة ، واحكمت انا اغلاق باب غرفتي ، اجلت بصري في ما حولي في سكون هدهد . كان مشهد غرفتي الصغيرة الاكثر ابهاجا قد محا ، الى حد ما ، الانطباعة المربعة التي اوقعتها في نفسي تلك الردهة الرحيبة ، وتلك السلم العريضة المظلمة ، وتلك الشرقة الطويلة الباردة ، وتذكرت اني ، بعد يوم كامل من التعب الجسدي والقلق النفسي ، قد اويت آخر الامر الى مقعر آمن . وفاض فؤادي بعرفان الجميل ، فركعت على مقربة من السرير ، ورفعت آيات الشكر الى من هو حقيق بالشكر ، غير ناسية ، قبل ان انهض ، ان اسأله العون على اجتياز سبيلي المقبلة ، والقدرة على اثبات اهليتي للفضل الذي اغدق علي قبل ان آتي اي عمل يجعلني جديرة به . ولم يكن مضجعي حافلا بالاشواك هذه الليلة ، ولم تعرف المخاوف سبيلا الى غرفتي الصغيرة المنعزلة . واذ كنت متعبة ومستبشرة في آن معا ، فسرعان ما استسلمت لنوم عميق . حتى اذا استيقظت كان النهار قد ارتفع .

وبدت الغرفة في ناظري - عندما تألقت الشمس من بين ستائر النافذة المخططة من شيت ملون ازرق زاهر ، كاشفة عن جدران مغطاة بالورق المصور ، وعن ارض مفروشة بالسجاد . . . اقول بدت الغرفة في ناظري موطننا صغيرا بالغ الاشراق ، مختلفا كل الاختلاف عن ارضية لورود الخشبية العارية وجصها المتسخ . وابتهجت نفسي بهذا المشهد . والواقع ان للمظاهر الخارجية اثرا عظيما في نفوس الصغار ، وهكذا تراهي لي ان عهدا جميلا من عهود حياتي قد اهل ، فترة كان مقعدا لها ان تكون زاخرة بالرياحين والمسرات ، وبلاشواك وضروب الكدح في آن معا . وبدت ملكاتي متوفرة

كلها ، بعد ان اثارها تغير المنظر وهذا الحقل الجديد الزاخر بالامل . وليس في ميسوري ان اعين على وجه الضبط ما الذي توقعت ، ولكنه كان شيئا سارا قد لا يتم اليوم او بعد شهر ، الا انه لا بد ان يتم في فترة غير محددة من المستقبل .

ونهضت ، وارتديت ملابس في عناية . صحيح اني كنت مضطرة الى اصطناع البساطة ، اذ لم اكن املك غير ملابس مخيطة بأقصى قدر من السذاجة ، ولكنني كنت بالفطرة شديدة الحرص على الظهور بمظهر انيق . انا لم اتعود في يوم من الايام عدم المبالاة بمظهري ، او بالانطباعة التي اخلقها في نفوس الناس . على العكس ، كنت ارجب دائما في ان ابدو على احسن وجه استطيعه ، وفي ان انتزع اعجاب معارفي بقدر ما يجيز لي افتقاري الى الجمال . وكان الاسى يستبد بي في بعض الاحيان لاني لم اكن اكثر وسامة : لقد تمنيت احيانا لو تكون لي وجنتان متوردتان ، وأنف مستقيم ، وفم صغير احمر كحبة كرز . لقد تمنيت لو كنت فارعة الطول ، مهيبة ، ذات جسد متناسق النمو . واستشعرت ان من سوء الطالع اني كنت ضئيلة الجسم شاحبة الوجه الى أبعد الحدود ، وان تكون قسّماتي غريبة جدا ، صارخة جدا . ولكن علام اعتلجت في وجداني هذه التطلعات والتحسّرات كلها ؟ من العسير علي ان اعلل ذلك : لقد عجزت آنذاك عن تعليله لنفسي على نحو واضح ، ومع ذلك فقد كان لدي مبرر . ولقد كان هذا المبرر طبيعيا ومنطقيا ايضا . بيد اني ما ان سرحت شعري تسريحا جعله شديد الصّقال ، وارتديت ثوبي الاسود - الذي كان برغم شبهه بملابس الكويكرين يمتاز على الاقل بأنه منسجم مع تقاطيع جسمي - ولبست صدّ يريتي النظيفة البيضاء ، حتى وقع في نفسي ان مظهري لائق الى درجة تمكّني من المشول بين يدي مسز فيرفاكس ، وان تلميذتي الجديدة لن تنفر مني ، على الاقل ، حين تقع عينها علي . وبعد ان فتحت نافذة غرفتي ، والقيت نظرة خاطفة استيقنت بها ان كل ما على منضدة الزينة مرتب ونظيف ، استجمعت شجاعتي وغادرت الغرفة .

حتى اذا اجتزت الشرفة الطويلة المفروشة ارضها بالحُصُر هبطت درجات السلم السندانية الزلقة ، ثم مضيت الى الردهة ، حيث تريّشت دقيقة لكي ارى الى بعض الصور المعلقة على الجدران ( كانت احداها في ما اذكر تمثل رجلا كالح الوجه لابسا درعا ، وتمثل الاخرى سيدة ذات شعر منضوح بالذرور وعقد من لؤلؤ ) ، والى مصباح برونزي متدل من السقف ، والى ساعة جدار ضخمة صنّع صندوقها من خشب سنديان حُفّرت عليه نقوش غريبة وأحال الزمن وتكرار الصقل لونه الى اسودّ أبنوسّي . لقد بدا لي كل شيء جليلا جدا يوقع المهابة في النفس ، ولكنني كنت آنذاك بعيدة كل البعد عن تعوّد الفخامة . كان باب الردهة ، نصف الزجاجي ، مُشرّعا فتخطيت عتبته . وكان ذلك اليوم يوما خريفيا جميلا ، وكانت

شمس الصباح ترسل اشعتها رائعة على الفياض المسمرة والحقول الرافلة ، ما تزال ، بكسائها الأخضر . وسرت بضع خطوات فوق الارض الخضيرة ، ثم رفعت بصري وسرحت في واجهة القصر . كان مؤلفا من ادوار ثلاثة غير بالغة الضخامة وان تكن على شيء من الاتساع : كان اشبه ببيت ريفي لسيد ماجد منه بمقر نبيل من النبلاء ، وكانت الشرفات التي تطوق ذروته تخلع عليه ثوبا من الحسن . وكانت واجهته الرمادية تشمخ امام خلفية من خمائل راحت زيفانها ❀ الناعبة تحلق الان في الفضاء : لقد طارت فوق الارض الخضيرة والبقاع المجاورة لتحط بعد ذلك فوق مرجة واسعة مطوقة بسياج خفيض . وعلى مقربة من هذا السياج نهض صف من اشجار جبارة عتيقة شائكة ، تتميز بالقوة وبكثرة العقد ، وتشبه في ضخامتها شجرات السنديان . وقد كشفت لي هذه الاشجار الشائكة ، لاول وهلة ، عن اصل الاسم الذي خلع على القصر ❀ وابعد بعض الشيء ، ارتفعت هضاب لم تكن شامخة شموخ تلك المحيطة بلوود ، ولا حافلة مثلها بالصخور الخشنة الناتئة ، أو شبيهة بحواجز عالية تفصلك عن عالم الاحياء ، ومع ذلك فقد كانت هضابا وادعة متوحدة ، ولقد بدت وكأنها تكنف ثورفيلد بعزلة ما كنت اتوقع ان اجدها على مثل هذه المقربة الدانية من مدينة ميلكوت الزاخرة بالنشاط والحياة . وتوقلت سفح احدى هذه الهضاب دسكرة صغيرة تمازجت سطوحها بالاشجار . وكانت كنيسة المنطقة اقرب الى ثورفيلد منها الى الدسكرة . وكان برجها العتيق يقوم خلف رابية بين القصر وبوابته الخارجية .

وكننت لا ازال استمتع بالمشهد الساجي والهواء العليل ، وأصغى في ابتهاج الى نعيم الزيفان ، واسرّح طرفي في واجهة القصر الشائكة ، وأفكر قائلة في ذات نفسي ان هذا المكان اضخم بكثير من ان تقطنه سيدة ضئيلة الجسم متوحدة مثل مسز فيرفاكس ، عندما برزت تلك السيدة لدى الباب وقالت : « ماذا ! أثنى الخارج والصباح لما يتنفس بعد ؟ يبدو لي انك ممن يبكرون النهوض من الفراش » .

وتقدمت نحوها ، فاستقبلتني بقبله بشوشة ، وصافحتني متسائلة : « كيف وجدت ثورفيلد ؟ »

فاجبتها قائلة : « اني معجبة به اعظم الاعجاب » .

فقلت : « اجل ، انه موطن طريف ، ولكنني اخشى ان يضطرب أمره عما قريب . والواقع ان حال القصر لن تستقيم الا اذا وطّن مستر روتشيسمتر العزم على المجيء والاستقرار فيه . او على الاقل الا اذا اكثرت

❀ الزاغ غراب صغر ريش ظهره وبطنه ابيض .

❀❀ تقصد ان النصر سمى ثورفيلد Thornfield ككرة الاشجار الشائكة Thorn-trees

النامية في جواره . ( المغرب )

من الاختلاف اليه بين فترة واخرى . ان البيوت الكبيرة وما ينبسط امامها من اراضٍ فاتنة لتتطلب اقامة مالکها فيها ، .

فهمت : « مستر روتشيستر ! من هو مستر روتشيستر ؟ »  
فأجابت في سكونة : « مالک ثورنيلد . اما كنت تعلمين انه يدعى روتشيستر ؟ »

ولم اكن اعلم ، طبعاً ، فانا لم اسمع به قط من قبل . ولكن السيدة العجوز بدت وكأنها تعتبر ان وجوده حقيقة يعرفها الخاص والعام ، ويتعين على كل امرئ ان يدركها بالغريزة .

واردفت : « لقد حسبت ان قصر ثورنيلد ملكك » .  
- « ملكي انا ؟ فليباركك الله يا صغيرتي ! أية فكرة غريبة ! ملكي انا ؟  
انا لست اكثر من مدبرة لشؤون القصر ، لست غير المرأة المكلفة بأدائه .  
ولا ريب في ان صلة قربي بعيدة تجمعني ، من جهة امي ، بآل روتشيستر ،  
او تجمع زوجي بهم على الاقل . لقد كان قسيساً ، كان راعي « هاي » -  
تلك القرية الصغيرة القائمة هناك فوق الهضبة - وكانت هذه الكنيسة  
القرية من بوابة القصر الخارجية هي كنيسته . لقد كانت ام روتشيستر  
الحالي من آل فيرفاكس ، وكانت بنت عم زوجي كلاله \* . ولكنني لا  
احاول استغلال هذه القرابة البتة ، والواقع انها ليست عندي بشيء .  
انا اعتبر نفسي مجرد مدبرة منزل عادية . ان مستخدم لي عاملي دائماً  
في كياسة ولطف ، وانا لا اتوقع اكثر من ذلك على الإطلاق » .  
- « والفتاة الصغيرة ... تلميذتي ؟ »

- « انها يتيمة قاصرة تحت وصاية مستر روتشيستر ، ولقد عهد  
الي في البحث عن مربية لها . وهو يعتزم ان ينشئها هنا ، في اقليم ...  
على ما اعتقد . ها هي ذي مقبلة ، مع خادمتها bonne كما تسمي حاضنتها ، .  
عندئذ انحل اللغز : ان هذه الارملة الضئيلة الجسم ، البشوشة ،  
الكريمة ، لم تكن سيدة ارسقراطية ، بل امرأة مستخدمة مثلي . ولم  
ينقص حبي لها ، بسبب من ذلك . على العكس ، لقد استشعرت الرضا  
بداخلي اكثر من ايما وقت مضى . كانت المساواة بيني وبينها حقيقة ، ولم  
تكن ثمرة تلطف او تنازل من جانبها . وهذا خير وابقى ، لان موقعي امسي  
الان اكثر تحمراً . »

وفيما كنت اتأمل هذا الاكتشاف ، أقبلت فتاة صغيرة تعدو فوق  
الارض الخضراء ، تتبعها حاضنتها . والقيت نظرة على تلميذتي التي بدا انها  
لم تظن بادي الامر لوجودي . كانت طفلة صغيرة حقاً ، ربما في السابعة او  
الثامنة من العمر ، نحيلة البنية ، ذات وجه شاحب صغير القسما ، وشعر  
ابيض يتدلى حلقات حلقات حتى خصرها .

وقالت مسز فيرفاكس : « طاب صباحك ، يا مس آديلا . تعالي وتحديثي الى السيدة التي ستنهض بهمة تعليمك وجعلك امرأة بارعة في يوم من الايام » .

واقتربت الطفلة ، وقالت بالفرنسية ، مشيرة الي ، مخاطبة حاضنتها : « اهذه هي مربيتي ؟ »

فاجبتها الحاضنة ، بالفرنسية ايضا : « نعم ، من غير ريب » .  
وتساءلت انا ، وقد ذهلت لدن سماعي اللغة الفرنسية : « اهما اجنبتان ؟ »

- « الحاضنة اجنبية ، وآديلا ولدت في اوروبة القاريّة . واحسب انها لم تفارق تلك الديار الا منذ اشهر ستة . ولم تكن ، يوم وفدت اول ما وفدت الى هنا ، بقادرة على الكلام بالانكليزية ، اما الان فقد امسى في استطاعتها ان تحتال على النطق بها ، بعض الشيء . انا لا افهم ما تقول ، انها تمزجه بكثير من الالفاظ الفرنسية ، ولكنك سوف تقدرين على فهم ما ترمي اليه فهما حسنا ، كما يخيّل الي » .

وكان من حسن حظي ان الافدار شاءت ان اتعلم اللغة الفرنسية على سيدة فرنسية . واذ كنت قد حرصت ، دائما ، اشد الحرص على التحدث الى مدام بييرنو ، ما وجدت الى ذلك سبيلا ، واذ كنت فوق هذا قد اخذت نفسي ، خلال السنوات السبع الاخيرة ، بأن احفظ كل يوم نصا فرنسيا - باذلة قصارى جهدي لتقويم نبرتي ، ومحاكية اقصى ما تكون المحاكاة طريقة معلّمتي في النطق - فقد انتهت معرفتي بهذه اللغة الى درجة من الطلاقة والصحة جعلتني خليفة بأن لا استشعر كبير ارتباك عند التحدث الى الآنسة آديلا . وتقدمت وصافحتني عندما علمت اني مربيتها . حتى اذا قدّتها لتناول الفطور وجهت اليها بضع جمل في لغتها الام . ولقد اجابت في اقتضاب بادئ الامر ، ولكن ما ان جلسنا الى المائدة ، وانفقت نحو عشر دقائق وهي تتأملني بعينها الكبيرتين الشبيه لونهما بلون البندق ، حتى شرعت تلفو في طلاقة .

لقد صاحت بالفرنسية : « آه ، انت تتكلمين لغتي بمثل براعة مستر روتشيستر في النطق بها . ولسوف يكون في استطاعتي ان اتحدث اليك كما اتحدث اليه ، وسيكون في استطاعة « صوفي » ان تفعل ذلك ايضا . ان هذا سوف يسعدنا . ان احدا هنا لا يفهم ما تقول ، فـمـدـام فيرفاكس انكليزية خالصة . و « صوفي » هي حاضنتي . لقد عبرت البحر معي على متن سفينة كبيرة ذات مدخنة تنفث دخانا - ويا له من دخان كثيف ! - ولقد ألمّ بي دوار البحر ، كما ألم بصوفي ، وبمستـر روتشيسـتر . ولقد انطرح مستر روتشيستر على اريكة في حجرة جميلة تدعى الصالون ، في حين تمددت انا وتمددت « صوفي » على سريرين صغيرين في مكان اخر . ولقد كدت اسقط على سريري ، فقد كان أشبه برف من السرفوف . آه ،

مدموازيل ..... ما اسمك ؟

- « آيبر ؟ آيبر ؟ آيبر ؟ آيبر ؟ »

- « آيبر ؟ اوه ! انا لا استطيع ان الفظه . حسنا ، لقد أَلَقْتُ سفينتنا مراسيها ، في الصباح ، قبل ان يغمر الضياء الكون ، في مدينة كبيرة - مدينة هائلة ، ذات بيوت داكنة يتصاعد الدخان منها كلها . مدينة لا تشبه على الإطلاق تلك المدينة الحلوة النظيفة التي وُلِدْتُ فيها ، وحملني مستبر روتشيستر بين ذراعيه ، فوق لوح خشبي ، الى اليايسة ، وتبعتنا صوفي ، ثم امتطينا كلنا متن عربية أَقْلَتْنَا الى بيت ضخم جميل ، اضخم من هذا وأبدع ، يدعونه فندقا . وهناك مكثنا اسبوعا ، تقريبا ، فكان من عادتي وعادة صوفي ان نتمشي كل يوم في ارض خضراء كبيرة ملأى بالاشجار يدعونها « الحديقة العامة » ، وفي هذه الحديقة كان كثير من الاطفال - بالاضافة الي - وبركة فيها طيور جميلة كنت أَلْقِي اليها بفتات الخبز . »

وسألتني مسز فيرفاكس : « هل تستطيعين ان تفهمي ما تقول عندما تتحدث بمثل هذه السرعة كلها ؟ »

الحق اني فهمت ما قالت فهما حسنا جدا ، فقد كنت متعودّة الاستماع الى مدام بييرو تتدفق في الحديث بلسان ذرِب .

وتابعت السيدة الطيبة قائلة : « حبذا لو سألتها سؤالا او اثنين عن أوبريها . ليت شعري هل تتذكرهما ؟ »

فسألتها : « آديل ، مع من عشت عندما كنت في تلك المدينة الحلوة النظيفة التي أشرت اليها ؟ »

- « لقد عشت منذ زمن بعيد مع ماما ، ولكنها ذهبت الى السيدة العذراء . كانت ماما تعلمني الرقص والغناء ، وانشاء الشعر . وكان كثير من الرجال والنساء يأتون لزيارة ماما ، فكنت ارقص امامهم ، او اجلس على ركبهم ، وأغني لهم . لقد احببت ذلك . هل ترغبين في الاستماع اليّ الان ، وانا أغني ؟ »

كانت قد أتمت تناول فطورها ، ومن اجل ذلك أجزت لها أن تقدّم الي نموذجاً من براعتها الفنية . فنزلت عن كرسيها ، وأقبلت وجلست على ركبتيّ . ثم انها صالبت ذراعيها الصغيرتين ، امامها في رزاة ، ونترت رأسها رادّة حلقات شعرها الصغيرة الى الوراء ، ورفعت عينيها الى السقف ، وطفقت تنشد أغنية منتزعة من « أوبرا » بعينها . كانت لحنا يصور سيدة هجرها حبيبها ، فهي بعد ان تنتحب ملانة لغدر هذا الحبيب وخيانتة تدعو الكبرياء الى نجدتها ، وتكلف وصيفتها ان تلبسها انفس فساتينها وتزيّنّها بأبهى جواهرها ، وتعقد العزم على الاجتماع بفتاها الخائن ، تلك الليلة ، في حفلة راقصة ، وتثبت له ، بما تتكلف من ابتهاج مصنوع ، ان هجره اياها لم يحزنّها البتة .

لقد بدا لي ان في اختيار هذا الموضوع لمغنية طفلة شيئا من



الغرابية . ولكنني احسب ان عنصر الطرافة في تلقينها هذا اللحن كان يتمثل قبل كل شيء في الرغبة في سماع نغمات الحب والغيرة يُغْنِي بها بلثغة الطفولة . ولكنها طرافة تنم عن ذوق سقيم . أو هذا ما حسبتُه ، على الاقل .

وكان اداء آديل هذه الاغنية الخفيفة حسنا على الجملة : لقد أنشدتها على نحو مطرب ، وبسداجة تتلام وصفر سنهها . حتى اذا تم لها ذلك وثبت من على ركبتني وقالت : « والان ، ايتها الأنسة ، سوف اسمعك شيئا من الشعر » .

واتخذت وضعا القائيا ، واستهلكت قائلة بالفرنسية : « مؤتمر الفيران ، حكاية على لسان الحيوان من شعر لافونتين » . ثم انها ألقت المقطوعة الشعرية ، مراعية مواطن الوقف والابتداء ، وتفخيم اللفظ ، ومرونة الصوت ، وموافقة الایماء لمقتضى الحال . وهي ظاهرة مستغربة جدا ، في مثل سنهها ، ظاهرة تنهض دليلا على انها دُرِّبَت في عناية بالغة .

وسألتها : « هل كانت امك هي التي لَقَّنتك هذه المقطوعة ؟ »

- « نعم ، وكان من دأبها ان تقولها بهذه الطريقة ( وهنا اعادت آديل اداء احد الابيات ، بأصله الفرنسي : « ما بالكم ، قالت فأرة من هذه الفيران ، تكلموا ! » ) . وكانت تطلب الي ان ارفع يدي - هكذا - لكي تذكرني برفع صوتي عند هذا السؤال . والان ، هل أريك رقصي ؟ »  
- « لا . هذا كافٍ . ولكن بعد ان ذهبت امك الى السيدة العذراء ، كما تقولين ، مع من عشت ؟ »

- « مع مدام فريديريك وزوجها . لقد عُنيت بي ، ولكنها لا تمت الي بنسب . واحسب انها فقيرة الحال ، اذ لم يكن عندها بيت جميل كبيت ماما . ولم تطل اقامتي هناك ، فقد سألتني مستر روتشيستر ما اذا كنت اودُّ الذهاب الى انكلترة والعيش معه فيها فقلت نعم . ذلك لاني عرفت مستر روتشيستر قبل ان اعرف مدام فريديريك ، ولقد كان لطيفا معي دائما . لقد أعطاني ملابس ودمى جميلة ، ولكنه لم يبرِّ بوعده ، كما ترين ، فقد جاء الى انكلترة ثم غادرها وحده ، فلم أره منذ ذلك الحين على الاطلاق » .

وبعد القَطَور ، انسحبت انا وآديل الى حجرة المكتبة ، وكان مستر روتشيستر قد أصدر أمره - في ما يبدو - بجعلها حجرة تدريس . كانت الكثرة الكبيرة من الكتب مصونة خلف ابواب زجاجية مقفلة ، ولكن احدي الخزائن تَرَكَّت مفتوحة ، وكانت تشتمل على كل ما قد تمس الحاجة اليه من كتب ابتدائية ، وعلى عدد غير قليل من الكتب الخفيفة في الادب ، والشعر ، والسيرة ، والرحلة ، بالاضافة الى بضع روايات الخ . واحسب أنه اعتقد ان هذه الذخيرة هي كل ما قد تحتاج اليه المربية لاغراضها الخاصة . والواقع اني سررت بها ، مؤقنا ، سرورا عظيما . فقد بدا لي ان في استطاعتها ، اذا ما قورنت بمجموعة الكتب الهزلية التي وفقت بين الفينة

والفنية الى التقاطها في لوود ، ان تزودني بحصاد خصب من التسلية والثقافة . وفي تلك الحجرة ، ايضا ، كان بيانو صغير ، بالغ الجودة ، وكارتان ارضيتان .

ووجدت تلميذتي سهلة القيادة الى حد غير يسير ، وان تكن غير نزاعة الى تركيز الفكر والدأب على الدرس ، فهي لم تألف قط من قبل القيام بالمهام النظامية ، أيا ما كان نوعها . وشعرت انه ليس من حسن الرأي ان اقيّد حريتها اكثر مما ينبغي ، بادى الامر ، وهكذا ما ان تحدثت اليها طويلا ولقنتها قليلا ، وما ان انتصف النهار او كاد حتى اجزت لها ان تعود الى حاضنتها . ثم اني صحت عزمي على الانصراف ، حتى موعد الغداء ، الى تحضير بعض الرسوم الاعدادية الصغيرة لكي تستعملها هي وتفيد منها .

وفيما كنت ارتقي السلم التماسا لافلامي ومحفظتي الخاصة بالرسم نادتنني مسز فيرفاكس قائلة : « لقد انتهت ساعاتك التعليمية الصباحية الان ، في ما أظن » . كانت في حجرة فُتّح بابها على مصراعيه ، فلم أكد أسمع نداءها حتى دخلت عليها تلك الحجرة . كانت غرفة رحيبة فخمة ذات كراسي وستائر ارجوانية ، وسجادة شرقية ، وجدران مغطاة بالواح من خشب الجوز ، ونافذة عريضة واحدة غنية بالزجاج الملون ، وسقف سامق مزدان بنقوش رائعة . وكانت مسز فيرفاكس تنفض الغبار عن بعض الزهريات البلورية الارجوانية النفيسة المرصوفة على نضد المائدة ( بوفيه ) .

وهتفت وانا اجيل طرفي في ما حولي ، ذلك بانني لم أر من قبل حجرة تتمتع بنصف هذا المقدار من الجلال : « يا لها من غرفة جميلة ! »

— « اجل ، هذه هي حجرة الطعام . لقد فتحت النافذة منذ لحظة ، لكي يدخلها قليل من الهواء وأشعة الشمس ، لان كسل شيء يتشبع بالرطوبة في الحجرات التي لا يختلف اليها المرء الا قليلا . ان الداخل الى حجرة الاستقبال هناك ليستشعر وكأنه في قبو » .

وأشارت الى قنطرة عريضة مقابلة للنافذة ، وعليها مثلها ستارة ارجوانية اللون كانت الان مرفوعة . وارتقيت اليها درجتين عريضتين والقيت من خلالها نظرة ، فحسبتي المح موطننا من مواطن الجن ... الى هذا الحد بدا المشهد رائعا في عيني الغريبتين ! ومع ذلك لم يكن غير مشهد حجرة استقبال رائعة ، اشتملت في جانب منها على بهو للزينة . كانت ارض الحجرة والبهو كليهما مفروشة بسجاد ابيض يسدو لعيني الناظر وكأن اكاليل زهر مشرقة قد نُضدت فوقه . وكان سقف الحجرة والبهو كلاهما ايضا مزدانين بنقوش تمثل عناقيد غناب ناصع البياض واوراق كرمة خضراء ، توهجت تحتها - في تغاير غني - مُتَكَات واراك قرمزية . في حين كانت التحف المنضودة على رف المدفأة الرخامي الشاحب

كلها من زجاج بوهيمي متألق ، وبين النوافذ انتصبت مرايا ضخمة  
تعكس هذا المزيج من ثلج ونار !

وقلت : « أية اناقة رائعة تهيمن ، بفضل عنايتك البالغة ، على تلك  
الحجرات يا مسز فيرفاكس ! لا غبار ، ولا أغطية من خيش . ولولا ان الهواء  
بارد الى حد بعيد اذن لحسب المرء انها آهلة " على نحو موصول » .

« ولكن يا مس ايير ، لا تنسي انه اذا كانت زيارات مستر روتشيستر  
للقصر نادرة فانها تتم دائما على نحو مفاجيء غير متوقع . واذا كنت قد  
لاحظت ان رؤية الاثاث مغلّفاً محزوماً وان جلبة الترتيب العاجل لدن وصوله  
تثيران غضبه فقد بدا لي ان من الخير الاحتفاظ بالحجرات مرتبة انيقة  
وعلى استعداد دائم لاستقباله » .

« هل تعتبرين مستر روتشيستر رجلاً كثير المطالب صعب الارضاء؟ »  
« ليس على نحو مبالغ . ولكن له اهواء السادة الاماجد وعاداتهم ،  
وهو يتوقع ان يجد كل شيء مرتباً وفقاً لهذه الاهواء والعادات » .

« وهل تحبينه ؟ أهو محبوب بصورة عامة ؟ »

« اوه ، اجل . لقد تمتعت الاسرة دائماً باحترام القوم ، في هذه  
الديار . فمعظم الارض التي تنبسط امامك ، على مدّ البصر ، في جوارنا ،  
كانت منذ اقدم العهود ولا تزال ملكاً لآل روتشيستر » .

« حسن . ولكن ، بصرف النظر عن مسألة الاراضي هذه ، هل  
تحبينه ؟ أهو محبوب لذاته ؟ »

« ليس لديّ ايما سبب يدعوني الى الشعور نحوه بغير الحب .  
وانا اعتقد ان الفلاحين المستأجرين ارضه يعتبرونه مالكا عادلاً متحرراً .  
ولكنه لم يُطّل الاقامة بين ظهرائهم في ايما يوم من الايام » .

« ولكن اليس له خصال خاصة ؟ وبكلمة مختصرة ، حدثيني  
عن شخصيته » .

« اوه ، ان شخصيته لا شائبة فيها ، على ما احسب . ولعله ان  
يكون غريب الطبع بعض الشيء . لقد قام برحلات عديدة ، ورأى بلداناً  
كثيرة ، من غير ريب . وان في ميسوري القول انه ذكي ، ولكنني لم احظ  
في ايما يوم من الايام بالتحدث اليه مطولاً » .

« وعلى اي نحو تتجلى غرابة طبعه ؟ »

« لست ادري . من العسير علي ان اعبر عن ذلك . ليس هناك  
شيء صارخ ، ولكنك تستشعرينه عندما يتحدث اليك . فانت لا تستطيعين  
دائماً ان تتأكدي أهو يهزل ام يجده ، اهو راض ام ساخط . وبكلمة  
واحدة ، انك لا تقدرين على فهمه والنفاذ الى غوره . أو أنني على الاقل  
لا اقوى على ذلك . ولكن هذا لا يقدم ولا يؤخر ، انه سيد طيب جداً » .

وكان هذا كل ما استطعت انتزاعه من مسز فيرفاكس عن مستخدمها  
ومستخدمي . فهناك اناس ليست لديهم ، في ما يبدو ، اية فكرة عن رسم

الاخلاق والشخصيات ، او عن ملاحظة الصفات البارزة ، سواء اكان ذلك في الاشخاص ام في الاشياء . وواضح ان السيدة الصالحة كانت من هذه الطبقة . لقد حيرتها اسئلتي ، ولكنها لم تستطع ان تحملها على الافاضة في الوصف . لقد كان مستر روتشيستر في عينيها هو مستر روتشيستر : سيد ماجد ، وصاحب اراض واسعة - ولا شيء اكثر من هذا . انها لم تتحرر ولم تنقص ما وراء ذلك ، وليس من ريب في انها عجبّت لرغبتني في الفوز بفكرة ادق عن شخصيته .

وحين غادرنا حجرة الطعام ، اقترحت علي ان نقوم بجولة تطلعي فيها على سائر اقسام البيت . فتبعتها صاعدة السلم حينما هابطة اياها حينما ، مبدية اعجابي بكل ما اري ، اذ كان كل شيء جميلا حسن الترتيب . لقد وجدت الحجرات الامامية الواسعة فخمة الى حد استثنائي ، كما وجدت بعض غرف الدور الثالث ، برغم ظلامها وانخفاضها ، ممتعة بما ران عليها من جو العتيق والقدم . كانت ضروب الاناث التي لاءمت الحجرات السفلى ، في وقت ما ، قد نقلت الى هنا ، شيئا بعد شيء ، كلما تغير الزي . فاذا بالضوء الباهت المتسرب من نوافذها الضيقة يكشف عن سرر يبلغ عمرها مئة عام ، وعن خزائن منخفضة من خشب السنديان او الجوز بدت ، بنقوشها الغربية التي تمثل سبعف النخل ورؤوس صغار الملائكة اشبه ما تكون بضروب من نوابيت العهد العبرانية ، وعن صفوف من كراسي اثرية عريضة عالية الظهور ، وكراسي خفيفة لا ظهر لها - وكانت اكثر امعانا في القدم - لا تزال ترى فوق ذرواتها المنجدة آثار وشي نصف ممحو أبدعته أنامل استحالت منذ جيلين اثنين الى هباء . لقد خلعت هذه المخلفات الاثرية كلها : على الدور الثالث من قصر ثورنفلد ، مظهر بيت من بيوت الماضي البعيد ، مظهر حرم للذكريات . ولقد احببت السكنينة ، والظلمة ، والغربة التي رانت على هذه المواطن المعزولة ، في ساعات النهار ، ولكنني لم أشتته بأية حال ان أضطجع ليلة من الليالي في واحد من هذه السرر العريضة ، الثقيلة التي أغلقت على بعضها ابواب من خشب السنديان . والتي ظلل بعضها بستائر انكليزية عتيقة مكسوّة بوشي غليظ يمثل رياحين عجيبة وطيور اعجب ، وكأنثاء بشرية ادعى من هذه وتلك الى اثارة العجب ، فقد كان خليقا بهذا كله ان يتخذ ، في ضوء القمر الشاحب ، مظهرا غريبا الى ابعد الحدود .

وسألتها : « وهل ينام الخدم في هذه الغرف ؟ »

- « لا . انهم يحتلون مجموعة غرف اصغر حجما في مؤخرة القصر . ان احدا لا ينام هنا البتة ، اذ ان المرء ليغفري بالقول انه لو كان في قصر ثورنفلد شبح اذن لاتخذ من هذا المكان مثوى له » .

- « ذلك هو رأيي ايضا . واذن فليس لديكم ههنا شبح ما ؟ »

فاجابت مسر فيرفاكس متبسمة : « انا لم اسمع بوجود شيء مسن

ذلك عندنا .

- « وليس ثمة احاديث تُروى عن شبح ما ؟ اليس ثمة خرافات او حكايات تزعم ان اشباحا سكنت القصر في عهد من العهود ؟ »

- « لست اظن ذلك . ومع هذا ، فيتحدث الناس بأن آل روتشيستر كانوا في زمانهم قوما اقرب الى العنف منهم الى الهدوء . ولعل هذا هو السبب الذي من أجله يرقدون الان في قبورهم في سكينه . »

فغمغمت : « اجل ، انهم - كما جاء في القول المأثور - « بعد حمى الحياة المتشنجة يرقدون في سلام . الى اين ستذهبين الان ، يا مسز فيرفاكس ؟ » ذلك بأنني رأيتها تتحرك للمضي في سبيلها .

- « الى السطوح . هل لك ان تجيئي وتري المشهد من هناك ؟ »

ورحت اتبعها هذه المرة ايضا ، مرتقيتين سلما نقالة ضيقة جدا ابلغتنا « العلية » ، ومن ثم اجتزنا « بابا مسحورا » فادا بنا نجد نفسيينا فوق سطوح القصر . لقد كنت الآن على مستوى ارتفاع مستعمرة الغربان ، وكان في ميسوري ان ارى الى اعشاشها . واتكأت على الشرفات ، وأطلت منها مجيلة طرفي في الاراضي المنبسطة امامي مثل خريطة جغرافية : كان المرج المخملي المشرق يطوق قاعدة القصر الرمادية تطويقا محكما ، وكان الحقل ، العريض مثل حديقة عامة ، منقطا بالادواح العريضة ، وكانت القابة داكنة ذابلة يخترقها مجاز تكسوه طحالب نامية على نحو مرئي ، وكان هذا المجاز أشد اخضرارا ، بطحالبه ، مما كانت الاشجار بأوراقها ، وكانت الكنيسة القائمة عند السياج ، والطريق ، والهضاب الهادئة كلها هاجمة تحت اشعة شمس الخريف ، وكانت سماء صافية لازوردية مرصعة ببياض لؤلؤي تحدد الافق . ايما مجلى من مجالي ذلك المشهد لم يكن استثنائيا ، ولكن كل شيء كان سارا . حتى اذا استدرت واجتزت « الباب المسحور » من جديد لم أكد أرى سيلي وأسا اهبط السلم النقالة . لقد بدت « العلية » سوداء مثل قبو ، بالقياس الى ذلك القوس الازرق الذي كنت أجيل طرفي فيه ، وبالقياس الى مشهد الغيضة والمرج والهضبة الخضراء السابحة في نور الشمس ، ذلك المشهد الذي شكّل القصر واسطة عقده ، والذي كنت احدث اليه في ابتهاج .

وتخلّفت مسز فيرفاكس لحظة لكي تحكم ايصاد « الباب المسحور » ، وتلمّست طريقي تلمسا حتى اهتديت الى مخرج « العلية » ، ورحلت اهبط السلم الضيقة . وتمهلت في المجاز الضيق الذي افضت السلم اليه ، والذي فصل غرف الدور الثالث الامامية عن غرفه الخلفية . وكان ذلك المجاز الضيق ، الخفيض ، القاتم ، المضاء بنافذة صغيرة واحدة ليس غير عند طرفه الاقصى ، يشبه - بصفتي ابوابه الصغيرة السوداء ،

الموصدة كلها - رواقا في قصر من قصور « صاحب اللحية الزرقاء » \*  
 وفيما كنت أخطو ، ثمة ، في رفق ، طرق اذني آخر صوت كنت  
 أتوقع أن اسمعه في بقعة غارقة في السكون كهذه البقعة . ولم يكن ذلك  
 الصوت غير ضحكة ... ضحكة غريبة ، واضحة ، غير طبيعية .  
 وغير بهيجة . ووقفت ، فانقطع الصوت طوال لحظة ليس غير . ثم انطلق  
 على نحو اشد واقوى . ذلك بأنه كان في المرة الاولى ، على الرغم من  
 وضوحه ، خفيضا جدا . ثم انه تلاشى في جلجلة صخابة بدت وكأنها ايقظت  
 صدى في كل حجرة من الحجرات المهجورة ، برغم ان ذلك الصوت انبعث من  
 حجرة واحدة ليس غير ، وانه كان في ميسوري ان أشير الى الباب الذي  
 انبعث منه .

وصحت : « مسز فيرفاكس ! » ذلك بأنني سمعتها الان تهبط السلم  
 الكبيرة . « هل سمعت الضحكة المدوية ؟ ضحكة من هي ؟ »  
 فأجابت : « اغلب الظن انها ضحكة احدى الخادmates . ولعلها ضحكة  
 غرايس بول » .

وسألتها من جديد : « هل سمعتها ؟ »  
 - « اجل ، وبوضوح . اني كثيرا ما أسمعها . فهي تخط في واحدة  
 من هذه الغرف . وفي بعض الاحيان تكون « لييا » معها ، وكثيرا ما يرتفع  
 صوتاهما عندما تلتقيان » .  
 وتكررت الضحكة ، خفيفة هذه المرة ، واضحة المقاطع ، وانتهت  
 بههمة غريبة .

وهتفت مسز فيرفاكس : « غرايس ! »  
 والواقع اني لم أكن أتوقع ان تجيب نداءها ايما « غرايس » ، لان  
 الضحكة كانت ضحكة لم اسمع قط من قبل . اكثر منها تراجية وخروجا  
 على الطبيعة . ولولا انها انطلقت والشمس في كبد السماء ، ولولا ان جلجلة  
 الضحك لم ترافقها ايما حادثة مخوفة ، ولولا ان ايا من المكان والزمان  
 لم يكن ليغري بالخوف ، اذن لكان خليقا بي ان استشعر مثل تلك المخاوف  
 التي توقعها الخرافات في النفوس . وأيا ما كان ، فإن الحادثة التي تلت  
 اظهرت لي أن مجرد الدهش الذي استبدَّ بي كان ضربا من حماقة .

وتفصيل ذلك ان الباب الاقرب الي ما لبث ان فُتح ، وخرجت منه  
 خادم - امرأة يتراوح عمرها ما بين الثلاثين والاربعين ، هيكل رزين شبه  
 مربع ، ذو شعر احمر ، ووجه صارم بشع . كانت صورة لا يكاد المرء  
 يتصور شيئا اقل رومانتيكية وأقل شبحية منها .

وقالت مسز فيرفاكس : « ما هذه الضجة الصاخبة ، يا غرايس ؟ »

\* Bluebeard ، في الادب الشعبي ، او الفولكلور ، لقب غلب على الفارس « راوول »  
 الذي دخلت زوجته السابعة ذات يوم الى احدى الغرف المحرمة ، في قصره ، فوجدت فيها  
 جثث زوجاته الست السابقات . ( العرب )

تذكري الاوامر ! »

فانحنت غرايس احتراماً ، ومن غير ان تنطق بكلمة ، وعادت الدخول الى الغرفة .

وتابعت الارملة كلامها : « هذه امرأة عهدنا اليها بأن تخطط وتساعد لييا . في مهامها كخادمة . انها ليست فوق النقد في بعض النقاط ، ولكن سلوكها حسن على العموم . وبالمناسبة ، كيف سارت الامور مع تلميذتك الجديدة ، هذا الصباح ؟ »

وهكذا استمر الحديث بيني وبينها ، وقد امست آديل هي موضوعه ، حتى وصلنا الى المنطقة المنيرة البهيجة في الدور الارضي . وهرعت آديل للقائنا في الردهة ، هاتفة بالفرنسية : « سيدتي لقد سكب طعامكما ! » ثم اضافت : « لقد استبدت بي الجوع ! »

وجدنا طعام الغداء حاضرا ينتظرنا في حجرة مسز فيرفاكس .

## ١٢

ان الشعور الذي وقع في نفسي ، بسبب من هدوء الاستقبال الذي لقيته لدن وفودي على قصر ثورنفيلد ، والذي بدا وكأنه يعدني بمهمة يسيرة غير شاقة ، لم يخيبه تطاول الاتصال بالمكان ونزلائه . فقد تكشف مسز فيرفاكس ، كما كانت قد بدت لي اول وهلة ، عن امرأة رضية النفس دمنة الاخلاق ، ذات ثقافة حسنة وذكاء متوسط . وكانت تلميذتي طفلة تمور بالحياة ، دلتت وأفسدت ، ومن هنا كانت عبيدة في بعض الاحيان . ولكن لما كان امر العناية بها موكولا كله الي ، ولما كان أيا تدخل غير حكيم من أية جهة لم يعق تنفيذ الخطط التي وضعتها لتقويمها ، فسرعان ما نسيت نزواتها الصيانية وغدت مطوعة قابلة للتعليم . انها لم تكن تنعم بمواهب ضخمة ، او بصفات خلقية بارزة ، او أيما ذو خاص في الاحساس او الذوق يرفعها انشا واحدا فوق مستوى الطفولة العادي . ولكنها ، من ناحية ثانية ، لم يعبها اي نقص أو رذيلة يهبطان بها عن ذلك المستوى . لقد احرزت تقدما معقولا وأضمرت لي حبا ، قد لا يكون عميقا جدا ، ولكنه بهيج نابض بالحياة . وببساطتها ولغوها المرح وما بذلته من محاولات لارضائي اثارت في نفسي انا درجة من التعلق بها كافية لان تجعل كلا منا راضية بمرافقة الاخرى .

وهنا يحسن ان اقول ، بين هلالين ، ان الاشخاص الذين يؤمنون بالفكرات الوقورة عن طبيعة الاطفال الملائكية ، وبأن من واجب المكلفين بتربيتهم وتعليمهم ان يضمنوا لهم حبا يكاد يبلغ مرتبة العبادة . . . اقول ان هؤلاء قد يعتبرون السطور السابقة لغة جريئة حتى الوقاحة . ولكني لا اكتب ما اكتبه لكي اتملق أناانية الآباء ، او لكي اردد اصداء الرياء والتصنع ،

أو لكي أساند الفس والخداع . أني اقول الحقيقة ليس غير . لقد استشعرت قلقا مخلصا على مصلحة أدبل ورغبة قوية في مساعدتها على التقدم وحبا هادئا لنفسها الغيرة . تماما كما أضمرت لمسز فيرفاكس عاطفة شكران للطفها وكرمها ، ووجدت ابتهاجا في معاشرتها يتكافأ مع الاهتمام الهادئ الذي احاطتني به ومع رجاحة عقلها واعتدال خلقها .

وليلمني من شاء حين اضيف الى ذلك اني كنت بين الفينة والفينة عندما اتمشيت بمفردي في اراضي القصر ، أو أمضي بعيدا حتى البوابة الخارجية وأطلع من خلالها الى الطريق ، أو ارتقي فيما تكون أدبل تلعب مع حاضنتها ، ومسز فيرفاكس تصنع ضروب الحلوى الهلامية في حجرة المؤن - السلام- الثلاث ، وأرفع باب « العلنية » المسحور ، وأبلغ سطح القصر ، واطل من بعيد على الحقل والهضبة المعزولين وعلى الافق القاتم . . . اقول ليلمني من شاء حين اضيف اني كنت في هذه الاحوال كلها اتمنى لو كانت لي قوة ابصار قادرة على تخطي ذلك التخيم ، وعلى بلوغ العالم الناشط والمدن والمناطق الزاخرة بالحياة والتي كنت قد سمعت بها ولكني لم أرها قط ، وأتمنى لو كان لي من الخبرة العملية فوق ما كنت املك ، ولواتيح لي من الاختلاط ببنات جنسي والتعرف الى ضروب متفاوتة من الشخصيات والاخلاق اكثر مما أتيج لي هنا في قصر ثورنفيلد . لقد قدرت كل خير انطوت عليه نفس مسز فيرفاكس حق قدره ، وكل خير انطوت عليه نفس أدبل حق قدره ، ولكني امنت بوجود صنوف اخرى من الخير احفل بالحيوية ، ولقد كان من دأبي أن اتوق الى رؤية ايما شيء أو من بوجوده .

من ينحي علي باللائمة ؟ طائفة من الناس كبيرة ، من غير ريب . ولسوف يزعم هؤلاء اللائمون ان القناعة تعوزني . والواقع اني لم اكن لاتمالك عن ذلك ، فقد كان القلق في دمي ، ولقد هاجني هذا القلق حتى الالم ، في بعض الاحيان . عندئذ كانت سلواي الوحيدة أن اتمشيت في رواق الدور الثالث ، جيئة وذهوبا ، مستشعرة الامن في سكينه المكان وانعزاله ، وأن أدع عيّن عقلي تطيل التحديق الى ايما رؤى مشرقة تبسدي لها - ولقد كانت تلك الرؤى وافرة متألقة ، من غير ريب - وان أدع قلبي يخنلج بالحركة المنتشبة التي وسعت - بالحياة - نطقة ، واثقلت - بالهم - جناحه ، وأن أفتح أذني الباطنية - وكانت هذه السلوى خيرا من سابقتها - لحكاية لا انتهاء لها ابد الدهر ، حكاية ابتدعها خيالي ورواها على نحو موصول ، وبعث فيها النشاط العامر بما ضمنها اياه من احداث ، وحياة ، وحرارة ، وأحاسيس كنت اتمناها كلها ولكني لا اجدها في وجودي الواقعي .

انه لمن العبث الذي لا طائل تحته القول ان على الكائنات البشرية ان ترضى بالسكينة : انهم في حاجة ماسة الى الحركة ، ولسوف يخلقونها ان



لم يعثروا عليها . والواقع ان ثمة ملايين قدّر عليهم ان يعيشوا حياة اشدّ امعانا في الهدوء من حياتي ، وان ملايين من الناس هم في ثورة صامتة على قدرهم . وليس يدري أحدٌ كم من ثورة تختمر ، الى جانب الثورات السياسية ، في نفوس الجماهير . ويفترض الناس ان النسوة هن ، على الجملة ، هادئات جدا . ولكن النسوة يستشعرن ما يستشعره الرجال على وجه الضبط . انهن في حاجة الى تدريب يهذب ملكاتهن ، والى حقل يبذلن فيه جهودهن بقدر حاجة اخوتهن الى ذلك . وهن يقاسين عنتنا كثيرا من جراء التقييد القاسي الى ابعد الحدود ، والركود المطلق الى ابعد الحدود ، شأن الرجال لو تعرضوا لمثل هذا التقييد وذلك الركود ، سواء بسواء . وانه لضيق في افق التفكير عند اخوتهن في الانسانية ، اخوتهن الاكثر تمتعا بضروب الامتياز ، ان يقولوا ان عليهن ان يقصرن نشاطهن على صنع الحلوى وجبك الجوارب ، والعزف على البيان ، وتوشية الحقائق . وانه لحق ان نذمهن وأن نسخر منهن اذا حاولن ان يعملن او يتعلمن اكثر مما نص العرف على ضرورته لهن .

ولم يكن نادرا ان اسمع ، حين اخلو الى نفسي على هذا النحو ، ضحكة غرايس بول : عين تلك الجلجلة المدوية وعين تلك الـ « ها ! ها ! » الخفيفة البطيئة التي روعتني يوم سمعتها اول مرة . وكنت أسمع ايضا غمغماتها الشاذة ، وكانت اشد غرابة من ضحكتها . كان ثمة ايام اعتصمت غرايس بول خلالها بالصمت المطلق ، ولكن كانت ثمة ايام اخرى كنت اعجز فيها عن تعليل الاصوات التي اطلقتها . ولقد رأيتها في بعض الاحيان : كانت تغادر غرفتها وفي يدها حوض او طبق او صينية ، وتهبط الى المطبخ لترجع وشيكا ، حاملة في كثرة الاحوال ( اوه ، اعذرني ايها القارئ الرومانتيكي ، اذا قلت الحقيقة الخالصة ) وعاء مليئا بجعة من صنف دُون . ولقد كان في ظهورها ما يوهن ، دائما ، من عزيمة الفضول الذي تشير غرائبها الصوتية في ذات نفسي : كانت صارمة الاسارير ، رابطة الجاش ، فليس فيها ايما شيء خليق بان يجذب اهتمام المرء وشوقه . وقمت ببضع محاولات لاستدراجها الى الحديث ، ولكنها بددت لسي مخلوقة نزرة الكلام . كان من دأبها ان تقطع الطريق على كل جهد مبذول في هذه السبيل بجواب وحيد المقطع .

وكان سائر نزل القصر ، اعني جون وزوجته ، و « ليا ، الخادمة ، وصوفي الحاضنة الفرنسية ، قوما صالحين ، ولكنهم لم يكونوا ممتازين في ايما ناحية من النواحي . وكان من دأبي ان اصطنع الفرنسية في حديثي مع صوفي ، وكنت في بعض الاحيان اوجه اليها اسئلة عن وطنها ، ولكنها لم تكن نزاعة لا الى الوصف ولا الى القصص ، وكانت لا تقف تجيبني بأجوبة تافهة مضطربة مقصود بها الى صد الفضول بدلا من تشجيعه .

ونصرم تشرين الاول ( اكتوبر ) ، وتشرين الثاني ( نوفمبر ) ، وكانون

الاول ( ديسمبر ) • وذات اصيل من كانون الثاني ( يناير ) سألني مسز فيرفاكس ان امنح أديل عطلة لانها مصابة بزام ، ولما كانت أديل قد ثنّت على هذا الطلب في حماسة ذكرتني كم كانت العطلة العرّضية ذات شأن عندي في صدر طفولتي فقد منحتها اياها • حاسبة انسي احسن صنعا في اظهار شيء من المرونة في هذه المسألة • كان يوما جميلا هادئا ، برغم برده القارس • وكنت قد مللت القعود في سكينه ، في حجرة المكتبة ، طوال ساعات الصباح • وكانت مسز فيرفاكس قد فرغت منذ لحظات من كتابة رسالة تنتظر من يحملها الى البريد ، وهكذا اعتمدت بقبعتي الصغيرة وارتديت معطفي ، وتطوعت لنقلها الى « هاي » • وكانت المسافة التي تفصل « هاي » عن قصر ثورنفيلد - ومقدارها ميلان اثنان - خليقة بأن تتيح لي نزهة مستساغة اقوم بها على قدمي في ذلك الاصيل الشتوي • حتى اذا اطأنت الى ان أديل قد استوت ، في كثير من ارفه في كرسيها الصغير على مقربة من نار المستوقد في حجرة مسز فيرفاكس ، وحتى اذا اعطيتها افضل دمية من دماها الشمعية ( التي كان من عادتي ان اقيها مغلفة بورق فضي في احد الادراج ) لكي تلعب بها وكتابا قصصيا تتسلى به اذا سئمت اللعب بالدمية ، وبعد ان اجبت على قولها لي « ارجعي في سرعة ، يا صديقتي الطيبة ، يا عزيزتي الانسة جانيت » بقبلة طبعتها على خدها ، انطلقت ماضية لسبيلي •

كانت الارض قاسية ، وكانت الريح ساكنة ، وكانت طريقي موحشة • ورحت اغيد السير حتى شاع الدفء في جسمي ، ثم مشيت في تودة لكي استمتع بالمباهج التي طالعني بها الزمان والمكان واحلل انواعها • كانت الساعة الثالثة ، وقُرع ناقوس الكنيسة فيما كنت تحت برجه ، وكان سحر تلك اللحظات كامنا في عتمتها الزاحفة ، وفي الشمس المنزلة خفيفة عند الافق ، المرسله اشعة واهنة شاحبة • وكنت قد امسيت على مبعدة ميل من ثورنفيلد ، وانتهيت الى درب معروف في الصيف بوروده البرية ، وفي الخريف بشار جوزه وعلّيقه ، درب كان حتى في تلك الساعة مزدانا ببضع كنوز مرجانية تتألق في وروده البرية وفي زعروره ، ولكن خير مباهجه الشتوية كانت كامنة في توحده المطلق ، وهداته العارية من ورق الشجر • كان النسيم اذا هب لم يحدث هناك ايما صوت ، ذلك بانه لم يكن ثمة شرابة راع \* ولا نبتة دائمة الخضرة حتى يُسمع لها حفيف ، وكانت آجام الزعرور البري والبندق المجردة من اوراقها ساكنة سكون الحجارة البيضاء البالية التي عبّد بها وسط الدرب • وعلى مبعدة مترامية ، الى يمين الدرب ويساره ، لم يكن غير حقول خلّت الان من ماشية ترعى في رحابها • وكانت الطير الصغيرة السمرء المصفقة باجنحتها بين الفينة والفينة عند السياج ، تبدو وكأنها اوراق خمريّة نسيت ان تسقط عن اغصانها •

كان هذا الدرب يمتد مصعدًا طوال الطريق الى « هاي » . حتى اذا بلغت منتصفه قعدت على درجة سلم صغير ينفضي الى حقل . وأحكمت التدثر بمعطفي ، وخبات يدي في فروتهما فلم استشعر البارد برغم الصقيع الشديد الذي نهضت دليلا عليه طبقة من جليد غطت الطريق المبد ، حيث كان جدول صغير متجمد الان قد فاض عقب ذوبان جليد مفاجئ حدث منذ بضعة ايام . ومن مقعدي ذاك كان في ميسوري ان أشرف على ثورنفلد : كان القصر الرمادي ذو الشرفات العالية هو الشيء الرئيسي الذي تجلنى لناظري في الوهدة الفائرة تحتي ، وكانت غاباته ومسارح غربانه ترتفع نحو الغرب . وترىحت حتى هبطت الشمس بين الاشجار ، ثم غابت قرمزية صافية خلفها . وعندئذ استندرت صوب الشرق .

كان القمر الطالع متربعا فوق قمة الهضبة المشرفة على المكان الذي اتخذت منه مقعدا . وكان لا يزال شاحبا مثل سحابة ، ولكن اشراقه كان يتعاظم لحظة بعد لحظة . لقد اطل على « هاي » التي راحت ترسل نصف ضائعة بين الاشجار ، دخانا ازرق من مداخنها القليلة . كانت لا تزال على مبعده ميل ، ولكنني استطعت ، في غمرة السكون المطلق ، ان اسمع على نحو واضح نبضات الحياة الواهنة في صدرها . وتبينت اذناي ايضا تدفق جداول لم ادر في اية اودية ووهاد كانت تجري . ولكن كان ثمة هضاب كثيرة وراء « هاي » ، ولا ريب في ان غدرانا كثيرة كانت تتمتع شاقة طريقها عبرها . لقد نمّ هدوء ذلك المساء عن خريز اقرب الجداول ، وعن غمغمة أبعدها على حد سواء .

وفجأة قاطع هذا الخريز وذاك الهمس الساحرين - اللذين كانا نائمين جدا وواضحين جدا في آن معا - ضجة عنيفة : وقع حوافر صارخ . ثم ان صليلا معدنيا انبعث فحجب خريز الماء ، كما تحجب كتلة من الصخر الصلد - في لوحة فنية - أو كما يحجب جذع صفصافة ضخمة مرسوم بالوان داكنة قوية في خلفية الصورة ، التلال اللزوردية التي ترتفع في المدى البعيد ، والافق الذي يستقبل الشمس الجانحة الى الغروب ، والسحاب المتمازجة الالوان ، حيث الصبح يذوب في الصبح .

كانت الضجة تنبعث من جانب الجزء المبد من الطريق : لقد اقبل جواد ، جواد كانت تعرجات الطريق لا تزال تحجبه عن ناظري ، ولكنه كان يقترب . وكنت على وشك ان اغادر درجة السلم الصغير ، ولكنني عدت ، بسبب من ضيق الطريق ، فآثرت التزام مكاني ذاك لكي اسكن الفارس من المضي في سبيله . وانما كنت في تلك الايام فتاة طرية العود ، وكانت ضروب الصور على اختلافها ، من مشرقة وقائمة ، تملا ذهني ، وبين تلك النفايات كانت ذكريات الحكايات التي رويت على مسمعي في عهد الطفولة ، والتي كانت كلما تمثلت في مخيلتي اضاف لها الصبا الآخذ

سبيله الى النضج قوة وحيوية فوق الذي تستطيع الطفولة ان تمنحه .  
وهكذا بينا كان الجواد يدنو ، وبينما كنت اترقب بروزه من خلال الفسق ،  
تذكرت حكاية من حكايات بيسي عن روح كانت تظهر في شمالي انكلترا  
تدعى « جيتراش » ، وكانت تسكن الطرق الموحشة متخذة شكل حصان  
او بغل او كلب كبير ، وتبرز في بعض الاحيان للمسافرين المتأخرين ، كما  
كان هذا الجواد على وشك ان يبرز لي الان .

وكان قد أمسى على مقربة دانية مني ، ولكنه لا يزال محبوبا عن  
ناظري ، عندما سمعت بالاضافة الى وقع الحوافر حركة اندفاعية تحت  
السياج ، واذا بكلب ينسل على مقربة من جذوع اشجار البندق ، كلب  
ضخم كان في سواد لونه وبياضه ما ظهره على نحو بارز بين الاشجار .  
لقد كان على وجه الضبط واحدا من الاشكال التي تعود « جيتراش »  
بيسي ان يتخذها : كان مخلوقا شبيها بالاسد ذا شعر طويل ورأس ضخم ،  
بيد انه مرّ بي في كثير من الهدوء ، غير متلبث حتى يتطلع بعينين  
كلبيتين غريبتين ، الى وجهي ، كما توقعت نصف توقع . وبعد ذلك اقبل  
الحصان : كان جوادا فارع الطول ، وكان على متنه فارس . وبدء الرجل ،  
الكائن البشري ، السحر في الحال . ذلك بان احدا لم يمتط صهوة  
« جيتراش » قط ، لقد كان متوحدا على نحو موصول . صحيح ان  
العفاريت كانت في بعض الاحيان تحل في جث البهائم العجائز ، ولكنها  
كانت نادرا ما تشتهي الحلول - اذا صحّت معلوماتي - في صورة بشرية  
عادية . واذن فلم يكن ذلك الجواد هو « جيتراش » ، لقد كان مجرد  
مسافر يسلك الى « ميلكوت » طريقا مختصرة . واجتاز بي ، ومضيت  
أنا في سبيلي . ولم أكد امشي بضع خطوات ، حتى استدرت . لقد استبد  
بانتباهي صوت انزلاق ، وهتاف « يا للشيطان ! ما الذي سافعله الان ؟ »  
وكبوة مقعقة . كان الرجل والجواد طريحي الارض ، فقد انزلق  
الجواد فوق صفحة الجليد التي غطت الجزء المعبد من الطريق . ورجع  
الكلب واثبا ، حتى اذا رأى صاحبه في مازق حرج ، وسمع أنين الجواد ،  
انشأ ينبح حتى رددت هضاب المساء نباحه الذي كان خفيضا بالنسبة الى  
حجمه الضخم . لقد استروح الجسدين المنطرحين على الارض ، ثم انطلق  
نحوي ، كان ذلك كل ما استطاع ان يفعله ، فلم يكن في متناوله من  
يقرع اليه غيري . ولبيت دعوته ، ومضيت نحو المسافر ، وكان في تلك  
الاناء قد شرع يناضل للتحرر من جواده . وكانت جهوده هذه من القوة  
والعنف بحيث اعتقدت ان من غير المعقول ان يكون قد اصيب بكبير اذى .  
ومع ذلك فقد طرحت عليه السؤال :

« هل اصبت بأذى ، يا سيدي ؟ »

واحسب انه كان يجدف ، ولكني غير واثقة من ذلك . وعلى اية حال ،  
فقد كان يغمغم بكلام ما ، حال بينه وبين الاجابة عن سؤالي على التو .

فسأله من جديد : « هل تستطيع ان اقدم اليك مساعدة ما ؟ »

« ليس عليك الا ان تقفي جانبا » . كذلك اجابني وهو ينهض واقفا ، على ركبتيه اولا ، ثم على قدميه بعد ذلك . ونزلت عند رغبته ، وعندئذ بدأت عملية انتفاض ورفس وصلصلة يرافقها نباح وعواء ردائي في الحال بضغ ياردات الى الورا ، ولكنني ما كنت لارضى بأن اقصى عن المكان اقضاء كاملا الا بعد ان اشهد الحادثة . وما لبثت هذه ان انتهت نهاية سعيدة : لقد نهض الجواد على قوائمه ، وأسكت الكلب لدن سماعه هذه الكلمات : « أخفض صوتك ، يا بابلوت ! » وهنا انحنى المسافر ، وراح يتحسس قدمه وساقه ، وكأنما كان يحاول ان يرى هل هما سليمتان ام لا . ويبدو ان شيئا كان يؤججهما ، ذلك بأنه توقّف عند درجات السلم الصغير ، التي كنت قد نهضت عنها منذ لحظات ، وقعد على احدها .

وأحسب اني كنت آنذاك في وضع نفسي يغريني بأن اكون ذات نفع ، او بأن اكون فضولية ، على الأقل . ذلك بأنني ما لبثت ان عاودت الاقتراب من الرجل كرة اخرى .

« اذا كنت مصابا بأيما اذى ، راغبا في مساعدة ما ، ففي استطاعتي ، يا سيدي ، ان اذهب اما الى قصر ثورنفيلد او الى « هاي » واجيئك بمن يسندي اليك بعض العون » .

« شكرا . ليس ثمة ضرورة لذلك . ان ايا من عظامي لم تكسر ، انها رضة ليس غير » . ونهض من جديد ، وجرب ان يسير على قدميه ، ولكن نتيجة التجربة انتزعت منه آهة لا ارادية .

كانت ثمة بقية متخلفة من ضياء النهار ، وكان القمر يزداد تألقا لحظة بعد لحظة : وهكذا كان في ميسوري ان ارى الى الرجل في وضوح . كان متدثرا بمعطف من معاطف الفرسان ، ذي ياقة من فرو ، ومشابك من نحاس . ان سماته التفصيلية لم تكن ظاهرة ، ولكنني لاحظت بعض خطوطه الكبرى : كان ربة في الطول ، عريض الصدر الى حد بعيد . وكان ذا وجه اسمر ، واسارير متجهمة . وجبين عريض وكانت عيناه وحاجباه المقطبان تنطق في تلك اللحظة بمعاني الحنق والخيبة . كان قد تخطى صدر الشباب ، ولكنه لما يبلغ سن الكهولة ، ولعله كان في الخامسة والثلاثين . ولم أوجس منه خيفة ، ولكنني استشعرت بعض الحياء منه . ولو قد كان سيدا وسيما غضا الاهاب بطولي السمات اذن لما جرؤت على الوقوف مثل موقفي ذاك اوجه اليه الاسئلة على غير رغبة منه ، واعرض عليه خدماتي من غير ان يلتمسها . فحتى ذلك الحين لم اكن قد رأيت الا نادرا - ايا شاب وسيم ، ولم اكن قد تحدثت في حياتي قط الي ايا شاب وسيم . كان يعمر نفسي اجلال وتوقير نظريتان للجمال والاناقة ، والكياسة ، والفطنة ، ولكن لو قد قدر لي ان القى هذه الصفات

مَجَسَّدَةٌ فِي شَكْلِ رَجُلٍ ، اِذْنُ لَكَانَ خَلِيقًا بِي اِنْ اِدْرَكَ اِدْرَاكَ غَرَزِيَا اِنْ  
لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اَي شَيْءٍ فِيَّ ، وَلَا يُمْكِنُ اَنْ يَكُونَ ، اَيَّةُ مِشَارَكَةٍ وَجْدَانِيَّةٍ ،  
وَإِذْنُ لَكَانَ خَلِيقًا بِي اِنْ اجْتَنَبَهَا كَمَا يَجْتَنِبُ الْمَرْءُ النَّارَ ، وَالْبَرْقَ ، وَكُلَّ مَا  
هُوَ سَاطِعٌ وَلَكِنَّهُ بَغِيضٌ اِلَى النَّفْسِ .

وَحَتَّى لَوْ تَبَسَّمَ هَذَا الْغَرِيبُ وَبَشَّ فِي وَجْهِهِ عِنْدَمَا خَاطَبْتُهُ ، وَلَوْ  
رَفَضَ مَا عَرَضْتُهُ عَلَيْهِ مِنَ الْمُسَاعَدَةِ فِي مَرَحٍ مَقْرُونٍ بِالشُّكْرِ اِذْنُ لَكَانَ خَلِيقًا  
بِي اِنْ اَمَضِيَ لِسَبِيلِي وَانْ لَا اسْتَشْعَرَ اَيَّمَا رَغْبَةٍ فِي الْحَاحِي عَلَيْهِ بِالسُّؤَالِ .  
وَلَكِنْ عَبَّوسُ الْمَسَافِرِ وَجَلَّافُهُ اَوْقَعَا الطَّمَأْنِينَةَ فِي نَفْسِي ، فَلَزِمْتَ مَكَانِي  
عِنْدَمَا دَعَانِي اِلَى الْاِنْصِرَافِ ، بِاَشَارَةٍ مِنْ يَدِهِ ، وَقُلْتُ لَهُ : « اَنَا لَا اسْتَطِيعُ  
اِنْ افْكُرُ فِي تَرْكِكَ ، يَا سَيِّدِي ، فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ ، وَفِي مِثْلِ  
هَذَا الدَّرَبِ الْمَوْحِشِ ، اِلَّا بَعْدَ اَنْ اسْتَيْقِنَ مِنْ اَنْكَ صِرْتَ قَادِرًا عَلَيَّ  
اِمْتِطَاءَ جَوَادِكَ » .

وَنَظَرُ اِلَيَّ لَدُنْ قَوْلِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ وَجَّهَ عَيْنَيْهِ نَحْوِي  
قَبْلَ ذَلِكَ اِلَّا قَلِيلًا . وَقَالَ : « يَخَيَّلُ اِلَيَّ اَنْ مِنْ حَقِّكَ اَنْتَ اِنْ تَكُونِي قَدْ  
بَلَغْتَ الْاَنْ بَيْتَكَ ، اِنْ كَانَ لَكَ بَيْتٌ فِي هَذَا الْجَوَارِ . اَيْنَ تَسْكُنِينَ ؟ »

« فِي هَذَا الْوَادِي الْقَرِيبِ . وَلَسْتُ اَجِدُ اَي خَوْفٍ مِنَ التَّأَخُّرِ فِي  
الْعَوْدَةِ حِينَ يَكُونُ الْقَمَرُ طَالِعًا . اِنِّي سَوْفَ اَعْدُو اِلَى « هَاي » مِنْ اَجْلِكَ ،  
وَفِي سُرُورٍ ، اِذَا رَغَبْتَ فِي ذَلِكَ . وَالْوَاقِعُ اِنِّي ذَاهِبَةٌ اِلَى هُنَاكَ لَكِي اَضْحَ  
رِسَالَةٍ فِي صَنْدُوقِ الْبَرِيدِ » .

« اَنْتَ تَسْكُنِينَ فِي هَذَا الْوَادِي . . . هَلْ تَعْنِينَ اَنْكَ تَسْكُنِينَ فِي  
ذَلِكَ الْبَيْتِ ذِي الشُّرَفَاتِ ؟ » قَالَ ذَلِكَ مُشِيرًا اِلَى قَصْرِ ثُورْنِفِيلْدِ الَّذِي كَانَ  
الْقَمَرُ يَصُوبُ اِلَيْهِ شِعَاعًا مَبْيَضًا ، مُفْرَدًا اِيَّاهُ عَلَيَّ نَحْوِ وَاضِحٍ شَاحِبٍ ،  
مِنْ بَيْنِ اشْجَارِ الْغَابَةِ الَّتِي بَدَتْ ، اِلَّا ، بِالْمُقَابَلَةِ مَعَ السَّمَاءِ الْغَرِيبَةِ ،  
كَتَلَةً مِنْ ظِلَامٍ .

« نَعَمْ ، يَا سَيِّدِي » .

« بَيْتُ مَنْ هُوَ ؟ »

« بَيْتُ مَسْتَرٍ رَوْتَشِيَسْتَرٍ » .

« هَلْ تَعْرِفِينَ مَسْتَرٍ رَوْتَشِيَسْتَرٍ ؟ »

« لَا . اَنَا لَمْ اَرَهُ قَطُّ فِي حَيَاتِي » .

« هُوَ اِذْنُ لَا يَقِيمُ هُنَا ؟ »

« لَا » .

« هَلْ تَسْتَطِيعِينَ اَنْ تَقُولِي لِي اَيْنَ هُوَ ؟ »

« لَا » .

« اَنْتَ لَسْتَ خَادِمَةً فِي الْقَصْرِ ، طَبْعًا . اَنْتَ . . . وَكَفَّ عَنْ  
الْكَلَامِ ، وَالْقَى نَظْرَةً عَلَيَّ مَلَابِسِي ، الَّتِي كَانَتْ - عَلَيَّ مَأْلُوفٌ عَادَتِي -  
بَسِيطَةً جَدًّا : مَعْطَفٌ اَسْوَدٌ مِنْ صَوْفٍ غَنَمِ الْمَرِينُوسِ ، وَقُبْعَةٌ صَغِيرَةٌ سَوْدَاءُ

من جلد السمّور . ولم يكن اي منهما ليليق ، ولو الى حدّ جزئي ، بوصيفة  
من وصائف السيدات . ومن هنا بدا ذاهلا لا يستطيع ان يقطع في صفتي  
برأي .

وساعدته على الخروج من حيرته فقلت : « انا المربية » .  
فكرر : « آه ، المربية ! فليأخذني الشيطان ان لم اكن قد نسيت !  
المربية ! » وكرة اخرى اخضعت ملابسي لامتحان . وما هي غير دقيقتين  
اثنيتين حتى نهض عن درجة السلم الصغير ، وقد نطق وجهه بالالم عندما  
حاول ان يمشي .

وقال : « انا لا استطيع ان اكلفك الذهاب لكي تأتيني بمن يساعدني .  
ولكن في استطاعتك ان تسدي اليّ أنت نفسك مساعدة صغيرة ، اذا  
تلطّقت » .

- « اني على استعداد ، يا سيدي » .

- « أليس عندك مظلة يستطيع ان اتخذ منها عصا أتوكأ عليها ؟ »

- « لا » .

- « حاولي ان تمسكي بعنان جوادي وان تقوديه اليّ » . انت لست  
خائفة ، أليس كذلك ؟ »

ولقد كان خليقا بي أن أخاف لمسّ جواد ما ، لو كنت وحدي ، اما  
عندما طلب اليّ ذلك فقد أطعته في غير تردد . لقد نزعّت فروة ذراعي  
والقيتها على درجات السلم الصغير ، ومضيت نحو الجواد الفارع الطول .  
لقد حاولت ان امسك بعنانه ، ولكنه كان مخلوقا عصيبا ، فلم يُجِز لي  
ان ادنو من رأسه . وبذلت جهدا أثر جهد ، ولكن على غير طائل ، وفي  
الوقت نفسه استبد بي خوف قاتل من قائمتيه الاماميتين الرافستين .  
وانتظر المسافرين مراقبا الموقف فترة يسيرة ، واخيرا انفجر ضاحكا .

وقال : « يخيل اليّ ان لا سبيل الى سَوّج الجبل الى النبي » ،  
وهكذا فإن اقصى ما نستطيع فعله هو مساعدة النبي على المضي الى  
الجبل . هل لي ان التمس منك المجيء الى هنا ؟ »

وتقدمت نحوه .

وتابع قائلا : « ارجو عفوك . ان الضرورة تكرهني على التماس العون  
منك » . وألقى علي منكبي يدا ثقيلة ، وانشأ يعرج متخذا سبيله ، الى  
الجواد ، متكئا عليّ في غير ما ضغطت بالغ . حتى اذا وفّق الى الامساك بعنان  
الجواد ، سيطر عليه في الحال ، ووثب الى سرجه ، مكشّرا وجهه فيما كان  
يبذل ذلك الجهد الذي لوى رجليه المرضوضة .

وقال محررا شفته السفلى من عضّة موجعة : « والان ناوليني  
سوطي . انه هناك تحت السياج » .  
وبحثت عنه فوجدته .

- « شكرا لك . والان عجلي في نقل رسالتك الى « هاي » ، ثم

ارجعي على اسرع وجه تستطيعينه » .

ولمس جواده بعقبه ذي المهاز ، فأجفل وشبّ بادی الامر ، ثم وثب الى امام . واندفع الكلب في أثره ، وتوارى الثلاثة عن ناظري :

« مثل نبات الخلنج في المجال

وقد عصفت به الريح النكباء »

عندئذ رفعت فروة ذراعي من على درجة السلم الصغير ، ومضيت لسبيلي . كانت العادة قد اصبحت منتهية بالنسبة الي : لقد كانت بمعنى من المعاني حادثة خلوا من الاهمية ، خلوا من الرومانسية ، خلوا من الامتاع . ومع ذلك فقد ادخلت شيئا من التغيير على ساعة موحشة من حياتي الرتيبة . لقد احتاج رجل الى معونتي ، وطالب بها . ولقد اسديت اليه هذه المعونة ، وكنت سعيدة بأن اوفق الى عمل شيء . صحيح ان ذلك العمل كان تافها قصير النفس ، ولكنه كان برغم ذلك شيئا فعلا ، وكنت قد مللت وجودا كل ما فيه سلبي . وكان الوجه الجديد ، ايضا ، اشبه بصورة جديدة تحمّل الى معرض الذكريات ، ولقد كانت هذه الصورة مختلفة عن جميع اللوحات المعلقة على جدران ذلك المعرض . اولا ، لانها كانت صورة رجل ، وثانيا لانها كانت قاتمة ، قوية ، ومتجهة . وكانت لا تزال ماثلة امامي عندما دخلت « هاي » ، والقيت بالرسالة في موضعها من مكتب البريد . ولقد بصّرت بها فيما كنت اهبط الهضبة ، مسرعة في طريق عودتي الى القصر . وحين بلغت درجات السلم الصغير ، تريثت دقيقة وأجلت الطرف في ما حولي وأصغيت ، لقد بدا لي ان حوافر جواد سوف تخبّ من جديد فوق الجزء المعبد من الطريق ، وان راكبا متدنرا بمعطف وكلبا من كلاب نيوفاوندلاند شبيها بـ « جيتراش » الاسطورة قد يظهران كرة اخرى . ولكن نظري لم يقع الا على السياج ، والا على شجرة صفصاف مشدبة الاغصان تشق السماء ، في سكون واستقامة ، لتصافح شعاع القمر ، ولم أسمع غير عزف ريج ليس ثمة ما هو أوهن منه ، ريج هائمة على وجهها بين الاشجار المحيطة بقصر ثورنفيلد ، على مبعدة ميل واحد . وحين التفت صوب تلك الهمهمة لمحت عيني ، وهي تتخطى واجهة القصر ، ضوءا منبعثا من احدى النوافذ . وكان في هذا ما ذكرني باني قد تأخرت ، فرحت أغدّ السير .

كنت غير راغبة في دخول قصر ثورنفيلد من جديد . كان تخطي عتيته يعني العودة الى الركود . وكان اجتياز ردهته الصامتة ، وارتقاء سلمه المظلمة ، والشعوص الى حجرتي الصغيرة المتوحدة ، ثم الاجتماع الى مسز فيرفاكس الهادئة ، وقضاء السهرة الشتوية الطويلة معها ، ومعها وحدها . . . كان ذلك كله خليقا به ان يطفئ ذلك الانفعال الواهن الذي أثارته النزهة في ذات نفسي ، وان يقيد ملكاتي ، كرة اخرى ، بأغلال غير منظورة تتمثل في وجود رتيب يتسم بالسكون اكثر مما ينبغي ، وجود كنت قد بدأت اصبح عاجزة حتى عن تقدير ميزتيه نفسيهما ، الامن



والرفقة . ما كان احوجني في تلك الآونة الى ما ينطوح بي في خضم حياة  
مناضلة قلقلة . والى ما يعلّمني بالتجربة القاسية المريرة ان أتسوق الى  
الهدوء الذي تبرّمت الآن به ! أجل ، بقدر حاجة رجل سنم الجلوس  
على « كرسي مريح اكثر مما ينبغي » الى القيام بنزهة طويلة على القدمين .  
فقد كانت رغبتني في الحركة طبيعية مثل رغبتني سواء بسواء .

وتلكأت عند بوابة القصر الخارجية ، وتلكأت عند المرج . وأنشأت  
أذرع الرصيف جيئة وذهوبا : كان مصراعا الباب الزجاجي موصدين ، فلم  
يكن في ميسوري أن القي نظرة على داخل القصر . وبدأ لي وكان عيني  
وروحني كانت تصرفان صرعا عن ذلك المشؤى المظلم - عن ذلك الفار المليء  
بالحجيرات التي لا تعرف الضياء ، كما تراه لي القصر في تلك اللحظة -  
لترنو الى تلك السماء الممتدة امامي مثل بحر ازرق لا يشوبه ايما سحب .  
وكان القمر يصعد في السماء بجلال بالغ ، وقد بدا قرصه وكأنه ينظر الى  
أعلى بينا كان يفارق قمم الهضاب التي طلع من ورائها والتي أمست الآن  
تحتة ، ويسمو الى السمّ الحالك السواد بعمقه الذي يسبر غوره وبُعده  
اللانهائي . واذا وقعت عيني على تلك النجوم الراحفة التي اتبعت آثاره ،  
ارتعد فؤادي واضرمت النار في عروقي . ان بعض الاشياء الثافهة لتعيدنا الى  
الارض . فلم تكد الساعة تدق في الردهة حتى صرّفت عن القمر وعن النجوم ،  
وفتحت بابا جانيبا ، ودخلت .

لم تكن الردهة مظلمة . لا ، ولم تكن مضاءة بغير مصباح برونزي متدل  
من السقف على نحو بالغ الارتفاع . كان وهج دافئ يغمر الردهة ودرجات  
السلم السندانية السفلى . وكان هذا الضياء المتورد ينبعث من حجرة الطعام  
الكبيرة ، التي كان بابها مشرعا على مصراعيه ، مُبديا عن نار بهيجة تضطرم  
في الموقد ، منيرة برقع المصطلي الرخامي وأدواته النحاسية ، كاشفة عن اثاث  
مصقول وستائر ارجوانية ترفل بغلالة من الاشراف ليس أبهى منها ولا الطف .  
ليس هذا فحسب ، بل كشفت تلك النار ايضا عن جماعة متحلقة حول  
المصطلي . ولم أكد المح هذه الجماعة ، وأقطن الى تمازج اصوات بهيج ، بدا  
لي اني ميّزت من بينها جرس أديل ، حتى أغلق الباب .

وأسرعت الى حجرة مسز فيرفاكس . كان ثمة نار ايضا ، ولكن لم يكن  
ثمة لا شمعة ولا مسز فيرفاكس . لقد رأيت بدلا منها كلبا ضخما ذا شعر  
طويل أسود وأبيض شبيها كل الشبه بـ « جيتراش » الطريق ، مستويا وحده  
على السجادة ، محدقا في رصانة الى النار المضطربة . كان الشبه بينه وبين  
« جيتراش » ذاك قويا الى درجة جعلتني أهتف : « بايلوت ! »

عندئذ نهض الحيوان ، وأقبل نحوي ، وأخذ يستروحني . فلاحظته ،  
فبصبص بذنبه الطويل . ولكنه بدا لي مخلوقا مرعبا لا قبل لي بالانفراد به  
تحت سقف واحد . ولم أدر من أين أقبل . ففرغت الجرس ، ذلك بأنني كنت  
أريد الحصول على شمعة ، وكنت أريد بالاضافة الى ذلك أن أعرف نبأه .

ودخلت ليلى ، فسألتها : « من أين أقبل هذا الكلب ؟ »

- « لقد أقبل مع سيدي » .

- « مع من ؟ »

- « مع سيدي ... مستر روتشيستر ... لقد وصل منذ لحظات » .

- « حقا ؟ ومسر فيرفاكس ... أهى معه ؟ »

- « نعم . ومس أديل . انهم في حجرة الطعام ، ولقد ذهب جون

ليستدعى طبيبا جراحا . ذلك بأن حادثا قد ألمّ بسيدي . لقد كبا به الجواد ، فأصيب كاحله برضوض » .

- « وهل كبا الجواد في طريق هاي ؟ »

- « نعم . فيما كان يهبط الهضبة . لقد انزلق فوق الجليد » .

- « آه ! أيتيني بشمعة ، يا ليلى ، أرجوك » .

وجاءتني « ليلى » بها . ودخلت عليّ الحجرة تتبعها مسر فيرفاكس ،

التي كررت النبا نفسه ، مضيعة ان مستر كرايتز ، الجراح ، قد وصل ، وانه كان في تلك اللحظة يعاين مستر روتشيستر . ثم غادرت الحجرة مسرعة لكي تصدر أمرها بأعداد الشاي ، وارتقيت أنا السلم لكي أخلع ملابسي .

## ١٣

أوى مستر روتشيستر الى فراشه في ساعة مبكرة تلك الليلة - وكان ذلك بأمر من الطبيب في ما يبدو - ولم يفادر صباح اليوم التالي الا في ساعة متأخرة أيضا . حتى اذا هبط الطابق الاسفل انصرف الى العناية بأعماله : كان وكيله وبعض من مستأجري أراضيه قد وفدوا الى القصر ، وكانوا ينتظرون ان يلقّوه ويتحدثوا اليه .

وكان على أديل وعليّ ، الان ، أن نجلو عن حجرة المكتبة ، ذلك بأن الضرورة قضت باصطناعها ، منذ اليوم ، حجرة لاستقبال الزائرين . وهكذا أضرمت ناراً في إحدى حجرات الطابق العلوي ، فحملت اليها كتبنا ، وأعددتها لتكون هي حجرة الدرس في المستقبل . ولاحظت خلال ساعات الصباح أن قصر ثورنفيلد قد خُلِقَ خلقاً آخر : انه لم يعد صامتا ككنيسة ، ولقد ردد كل ساعة او ساعتين صدى طرق على الباب ، أو رنين جرس من الاجراس . ليس هذا فحسب ، بل لقد اخذت الاقدام تجتاز ردهته أيضا ، بين فينة واخرى ، وتكلمت أصوات جديدة ، ذات نغمات مختلفات ، في الطابق الارضي منه . كان جدول من العالم الخارجي يجري خلاله . لقد امسى ذاربٌ ، ولقد سعدتُ أنا بذلك .

ولم يكن من اليسير تدريس أديل ، في ذلك اليوم . لقد عجزت عن التركيز والمواظبة على الدرس ، فهي لا تفتأ تهرع الى الباب وتطل من فوق الدرابزون محاولة ان تلمح مستر روتشيستر ولو مجرد لمح . ثم أنها شرعت

تختلق الذرائع للهبوط الى الطابق الارضي لكي تدلف من ثم - كما حزت - في شيء من دهاء - الى المكتبة على الرغم من أن أحدا لم يكن ثمة - كما قد علمت - راغبا فيها . حتى اذا عصفت بي بعض الغضب وأكهرتها على التزام مقعد التدريس في سكينه واصلت التحدث ، في غير انقطاع ، عن صديقها مسيو ادوار فيرفاكس دو روتشيستر ، كما كانت تلقبه ( ولم اكن قد سمعت حتى ذلك الحين باسمه الصغير ) ، وأخذت تحدث في الهدايا التي حملها اليها . اذ يبدو انه كان قد ألمح ، الليلة البارحة ، الى انها سوف تجد في امتعته ، حين تصل من ميلكوت ، صندوقا صغيرا يشتمل على شيء يهتمها .

وقالت ، بالفرنسية : « وهذا يعني من غير ريب انه سيكون في ذلك الصندوق هدية لي ، وربما لك أنت أيضا ، أيتها الأنسة . ان السيد قد تحدث عنك : لقد سألتني ما اسم مربيتي ، وهل هي فتاة ضئيلة الجسم ، شديدة النحول ، شاحبة بعض الشيء . فأجبته أن نعم . اذ ان هذا صحيح ، أليس كذلك ، أيتها الأنسة ؟ »

وجريا على مألوف عاداتنا ، تناولت أنا وتلميذتي طعام الغداء في حجرة مسز فيرفاكس . وكان الاصيل عاصفا كثير الثلج ، فقضيته في حجرة الدرس . وعند الغسق اجزت لأدليل أن تغلق الكتب وتطرح العمل ، وان تهبط السلم الى الطابق الارضي ، ذلك بأنني حزت ، من السكون النسبي الذي هيمن عليه ومن توقف جرس القصر عن الرنين ، ان مستر روتشيستر قد تحرر الآن من مشاغله . حتى اذا وجدت نفسي وحيدة تقدمت نحو النافذة ، ولكن عيني لم تقع من ورائها على شيء . كان الغسق ورقاقات الثلج قد كثفت الهواء ، وحجبت شجيرات المرج . فاسدلت الستارة ، وانقلبت الى جانب المستوقد .

وكنت احاول ان استجمع في ذاكرتي - على وهج الجمرات المتقدة - خطوط لوحة تمثل قصر هايدلبيرغ على الراين كنت قد رايتها من قبل ، عندما دخلت عليّ مسز فيرفاكس ، مفسدة بدخولها تلك الفسيفساء النارية التي رحت الملمها وأعيد التأليف ما بين اجزائها ، ومبددة في الوقت نفسه بعض الخواطر الثقيلة البغيضة التي كانت قد شرعت تغزو وحدتي .

وقالت : « سوف يكون مستر روتشيستر سعيدا اذا تناولت أنت وتلميذتك الشاي معه في حجرة الاستقبال ، هذه الليلة . لقد كان طوال النهار في شغل شاغل لم يتح له أن يطلب الاجتماع بك قبل الآن » . فسألتها : « وفي أية ساعة يتناول الشاي ؟ »

- « آوه ، في الساعة السادسة . انه يؤثر ، كلما أقام في الريف ، ان يجعل مواعيده مبكرة . ومن الخير لك الآن أن تغيري فستانك . ولسوف أمضي معك لاساعدك في ذلك . اليك شمعة » .

- « أمن الضروري أن أغير فستاني ؟ »

- « أجل ، ذلك أفضل . اني البس ثياب السهرة ، كل مساء ، حين

يكون مستر روتشيستر هنا . »

لقد بدا لي ان الاحتفال الاضافي بالمظهر الخارجي ينطوي على شيء من التكلف والابهة . ومع ذلك فقد شخصت الى حجرتي حيث نزعتم بمساعدة مسز فيرفاكس ، ثوبي القماشي الاسود ، وارتديت بدلا منه فستانا اسود حريريا كان هو الفستان الاضافي الاجود الذي املسكه ، باستثناء فستان رمادي فاتح اعتبرته ، بالنسبة الى ما لقننته في لودود من قواعد الزينة ، فستانا نفيسا لا يحسن ارتداؤه الا في المناسبات الاستثنائية .

وقالت مسز فيرفاكس : « أنت في حاجة الى دبوس صدر » . وكان لدي دبوس لؤلؤي صغير قدمته مس تامل الي ، يوم ودعتها ، على سبيل الذكرى . فزينت به صدري ، ثم هبطنا السلم الى الطابق الارضي . واذا كنت غير متعودة ان ألقى أحدا من الغرباء ، فقد كان استدعائي للمثول في حضرة مستر روتشيستر ، على هذا النحو الرسمي ، ضربا من المحنة القاسية . وهكذا تركت مسز فيرفاكس تتقدمني الى حجرة الطعام ، وبقيت مستظلة بها فيما كنا نعبّر تلك الحجرة . حتى اذا اجتزنا بالقنطرة ، التي كانت في تلك اللحظة مسدلة الستارة ، دخلنا الحجرة القائمة هناك .

كانت على المائدة شمعتان مضاءتان ، وكان على رف المدفأة اثنتان اخريان . وكان الكلب «بايلوت» يصطلي بحرارة النار العامرة وضياها . وقد ركعت آديل على مقربة منه . وبدا مستر روتشيستر نصف مضطجع على أريكة ، مسندا قدمه الى الوسادة . كان يرنو الى آديل والى الكلب ، وكانت النار تنير وجهه على نحو مشرق . كان هو المسافر الذي لقينته في الطريق ، بحاجبيه الكثيفين الفاحمين ، وجبينه العريض ، وقد زاده عرضا انسداد شعره الاسود المسرّح على نحو افقي . لقد تبينت فيه انه الصارم ، الذي يلفت النظر بما ينم عليه من قوة الشخصية اكثر مما يلفت النظر بجماله ، ومنخريه اللذين نمّا ، في ما خيل الي ، عن مزاج صفراوي غضوب . وتبينت فمه وذقنه وفكه الكوالج ، أجل لقد كانت ثلاثتها كالحة جدا ، لا ريب في ذلك البتة . كان جسمه ، كما بدا لي الان وقد جرّد من معطفه ، منسجما مع وجهه العريض ، وأحسب انه كان جسما حسنا بالمعنى الرياضي للكلمة : جسما ذا صدر عريض وخصر نحيل ، وان لم يكن لا فارع الطول ولا رشيق القد .

وكان خليقا بمستر روتشيستر ان يفتن لدخولي ودخول مسز فيرفاكس ، ولكنه لم يكن - على ما بدا لي - في وضع نفسي يمكنه من رؤيتنا ، ذلك بأنه لم يرفع رأسه قط عندما اقتربنا منه .

وقالت مسز فيرفاكس ، على طريقته الهادئة : « هي ذي مس ايير ، يا سيدي » .

فانحنى تحية لي ، ولكنه ظل مسمرا عينيه على الكلب والطفلة . وقال : « دعي مس ايير تجلس » .

كان ثمة في تلك الانحناء المتصنبة المتكلفة ، وفي النبرة النافذة الصبر

برغم رسميتها شيء اضافي بدا وكأنه يقول : « وهل يعنيني ، وحق الشيطان ، أن تكون مس ايير هنا أو أن لا تكون هنا ؟ أنا غير مستعد في هذه اللحظة للترحيب بها » .

وجلست في غير اضطراب او ارتباك . ولو قد تلقاني مستر روتشيستر بلطف مصقول اذن لكان في ذلك ، في أغلب الظن ، ما يُربكني ، اذ لم يكن في ميسوري أن أرد على ذلك اللطف بكياسة ورشاقة . ولكن الجلافة التي تكشف عنها جعلتني في حل من هذا كله . والواقع ان الصمت المحتشم ، الذي فرضه على مسئلكه الشاذ ، كان في صالحه . والى هذا ، فقد كانت غرابة تصرفه مثيرة : لقد استشعرت اني مشوقة الى معرفة ما سوف يتكشف عنه بعد ذلك .

لقد تكشف عن شبه تمثال ، يعني انه لم يتكلم ولم يتحرك . وبدأ وكان مسز فيرفاكس اعتقدت ان الواجب يقضي بأن يكون واحد منا أنيسا ، فشرعت تتحدث . ولقد تحدثت ، كمألوف عاداتها ، في لطف - ولكن كمألوف عاداتها ايضا في ابتذال - عن الاعمال الكثيرة التي تعين عليه ان يصرّفها طوال النهار ، وعن الازعاج الذي اورثته اياه ، من غير ريب ، رضة قدمه المؤلمة . ثم انها أطرت صبره على ذلك كله واحتماله له .

- « سيدتي ، اني راغب في احتساء شيء من الشاي » ، ذلك كان هو الجواب الوحيد الذي فازت به . فسارعت الى قرع الجرس ، حتى اذا جسي بالصينية شرعت ترتب الفناجين والملاعق وما اليهسا في رشاقة ناصبة . ومضيت أنا وآديل الى المائدة ، ولكن رب القصر لم يغادر اريكته .

ووجهت مسز فيرفاكس الخطاب اليّ قائلة : « هل لك ان تقدمي فنجان مستر روتشيستر اليه ؟ ان آديل قد تريقه » .

ونزلت عند رغبتها ، وفيما كان يتناول الفنجان من يدي صاحت آديل بالفرنسية ، حاسبة ان اللحظة مواتية للنقدم اليه ، لمصلحتي أنا ، بهذا الالتماس : « أليس صحيحا ان ثمة ، يا سيدي ، هدية لمدموازيل ايير ، في صندوق امتعتك الصغير ؟ »

فقال في فظاظة : « من الذي يتحدث عن الهدايا ؟ هل كنت تتوقعين هدية ، يا مس ايير ؟ هل أنت مولعة بالهدايا ؟ »

وشرع يمعن النظر الى وجهي بعينين بدنا لي قاتمتين حانقتين ثاقبتين ، فقلت : « اني لا اكاد أدري ، يا سيدي . فليس لي في مسألة الهدايا غير خبرة ضئيلة . ولكنها تُعتبر ، عادة ، أشياء مستحبة » .

- « تُعتبر عادة ؟ ولكني أريد أن أسمع رأيك انت ؟ »

- « أنا مضطرة الى شيء من الروية قبل أن أوفق الى اعطائك جوابا جديرا بأن يحظى بقبولك . ان للهدية وجوها متعددة ، أليس كذلك ؟ ويتعين على المرء ان يدرسها من وجوها كلها قبل ان يبدي رأيا في طبيعتها » .

- « مس ايير ، انت لست ساذجة مثل آديل . انها تطلب مني «هدية» حالما تقع عينها عليّ ، وتطلبها في طبل وزمر . أما أنت فتحومين حول

الموضوع مجرد حوم » .

« لاني أقل ثقة من آديل بأهليتي للهدية . ان لها عندك شافعا من عشيرة قديمة . ومن حق العادة ايضا . ذلك بأنها تقول انك عودتها ان تحمل إليها ، دائما ، ضروبا من الالعب والدمى . في حين اني لو حاولت أن التمس لنفسي حقا يجيز لي طلب الهدية منك لما وجدت ، لاني غريبة ، ولاني لم أت أيما عمل يجعلني جديرة بتقديرك » .

« أوه ، لا تتهربي من الجواب مستعينة بالمبالغة في التواضع . لقد اخترت آديل ، فوجدت انك بذلت في تلقينها جهدا عظيما . انها ليست ألمعية ، وهي محرومة من المواهب . ومع ذلك فقد حققت ، خلال فترة قصيرة ، تقدما غير يسير » .

« سيدي ، لقد قدمت الي الان « هديتي » . واني لازجي اليك خالص شكري . ان خير مكافأة يطعم فيها المعلمون ، أكثر ما يطعمون ، هي تحدث المرء عما احرزه طلابهم من تقدم » .

فقال مستر روتشيستر : « هممم ! » وراح يحتسي الشاي في صمت .

حتى اذا رفعت الصينية ، وانحت مسر فيرفاكس زاوية انصرفت فيها الى حبيها ، وبينما كانت آديل تطوف بي حول الحجرة ، ممسكة بيدي ، منطلعة آياي على الكتب والتحف الجميلة الموضوعة على المسوائد الصغيرة المرتكزة الى الحائط وعلى الخزائن الخاصة بالمناويل والمطرزات وما إليها ، قال رب القصر : « اقتربا من نار المستوقد ! » ، ففعلنا ما أمرنا به ، كما يقتضينا الواجب . وأرادت آديل ان تتخذ من ركبتني مقعدا لها ، ولكنها أمرت بأن تتسلى بمداعبة بايلوت وملاعبته .

« لقد سلخت حتى الان ثلاثة شهور في منزلي هذا ؟ »

« نعم ، يا سيدي » .

« ولقد وفدت من ٠٠٠ »

« من مدرسة لووود ، في أقليم ٠٠٠ »

« آه ! مؤسسة خيرية . كم سنة قضيت هناك ؟ »

« ثماني سنوات » .

« ثماني سنوات ! لا ريب في انك متعلقة بأهداب الحياة . لقد حسبت ان قضاء نصف هذه المدة في مكان مثل ذلك المكان كفيل بأن يرهق أقوى الاجساد ! فلا عجب ان بدت على وجهك سماء الوافدين من عالم آخر . لقد تساءلت من أين لك هذا الضرب من الوجه . وحين التقيتك الليلة البارحة في طريق «هاي» لم أتمالك عن التفكير في الحكايات الخرافية ، ونازعني نفسي الى سؤالك ما اذا كنت قد سحرت جوادي . وعلى أية حال ، فانا لا ازال في ريب من هذا الامر . حدثيني عن أبويك » .

« ليس لي أبوان » .

- « ولم يكن لك ابوان في أيما وقت من الاوقات ، كما يخيل الي » . الا تتذكرينهما ؟ »

- « لا » .

- « ذلك ما قدّرته . وهكذا فقد كنت تنتظرين قومك عندما جلست على درجة تلك السلم ؟ »

- « أنتظر من ، ياسيدي ؟ »

- « تنتظرين الرجال ذوي الشيايب الخضر : كانت الليلة قمراء ، ولا ريب في انها كانت تلائم ظهورهم . هل تخطيت حلقه من حلقاتكم حتى نثرت ذلك الجليد الملعون فوق الجزء المعبد من الطريق ؟ »

وهزرت رأسي وقلت مصطنعة الجدة كما قد فعل : « ان الرجال ذوي الشيايب الخضر كلهم قد هجروا انكلترة منذ مئة عام . ولن تستطيع أن تجد أيما أثر لهم حتى في طريق «هاي» أو في الحقول المحيطة به . ولست أحسب أن قمر الصيف أو قمر الحصاد أو قمر الشتاء سوف يشرق على اعيادهم الراقصة ، أبد الدهر » .

وأطّرح مسز فيرفاكس حبكها ، ورفعت حاجبيها وكأنها كانت تتسائل أيّ ضرب من الحديث كان حديثنا ذاك .

وأردف مستر روتشيستر قائلاً : « حسنا ، اذا كنت تنكرين أبويك فلا بدّ ان يكون لك ضرب من الاهل : أعمام وعمات ، مثلاً ؟ »

- « لا . أنا لم أر في حياتي أعماما لي وعمات » .

- « وبيتك ؟ »

- « ليس لي بيت » .

- « أين يقطن اخوتك وأخواتك ؟ »

- « ليس لي أخوة ولا اخوات » .

- « من الذي زكّاك لتولي مهام عملك هنا ؟ »

- « لقد أعلنت ، ولقد استجابت مسز فيرفاكس لاعلاني » .

فقالت السيدة الصالحة ، التي عرفت الان عن أي شيء كنا نتحدث : « أجل ، وأنا احمد الله كل يوم على حسن الاختيار الذي هدتني العناية الالهية اليه . فقد كانت مسز أيير وما تزال رفيقة لي لا يستطيع ان اقدرها حق قدرها ، ومعلمة لآدليل شديدة الاشفاق عليها ، بالغة العناية بها » .

فكان جواب مستر روتشيستر على هذه الملاحظات قوله : « لا تكلفني نفسك عناء تحليل شخصيتها . ان المدايح لا سلطان لها عليّ . ولسوف اكون رأيي فيها بنفسي » . لقد استهلت عملها بأن صرعت جوادي وطرحته أرضاً » .

فقالت مسز فيرفاكس : « ماذا تقول يا سيدي ؟ »

- « يتعين علي أن اشكر لها هذه الرضة التي أصابت قدمي » .

وبدت على وجه الارملة امارات الانشدهاء .

- « مس ايير ، هل عشت ذات يوم في مدينته من المدن ؟ »  
 - « لا ، يا سيدي » .  
 - « وهل قدّر لك أن تختلط كثيرا بطبقات المجتمع العليا ؟ »  
 - « أنا لم اختلط الا بطلّيات مدرسة لورود ومعلماتها ، والا بنزلا ، قصر نورفيلد في العمرة الاخيرة » .  
 - « هل طالعت كثيرا ؟ »  
 - « لم اطالع الا تلك الكتب التي وقعت عليها مصادفة » . وعي كتب كثيرة ، ولا تنطوي على ثقافة رفيعة » .  
 - « لقد عشت حياة الراهبات » . ولا ريب في انك قد تلعت ثقافة دينية عميقة » ان بروكلهورست - الذي يدير معهد لورود ، في ما أعلم - هو راعي كنيسة ، أليس كذلك ؟ »  
 - « نعم ، يا سيدي » .  
 - « ولعلك كنت انت وزميلاتك تقدّسنه ، كما تقدّس الراهبات - في دير من الاديّار - مرشدهن » .  
 - « أوه ، لا » .  
 - « انت جريئة اكثر مما ينبغي » . كيف ؟ راهبة غير منبهة ولا تقدّس كاعتها ؟ يخيل الي ان هذا ضرب من التجديف » .  
 - « كنت ابغض مستر بروكلهورست » . ولم يكن ذلك هو شعوري وحدي » . انه رجل " غليظ القلب » . رجل " كثير التباهي والتطفل في آن واحد » . ولقد اشتري لنا ، رغبة في الاقتصاد ، ابرا وخيوطا رديئة كنا لا نقدر على الخياطة بها الا بشق الانفس » .  
 - فلاحظت مسز فيرفاكس التي أدركت الان ، كرة اخرى ، فعوى الحوار :  
 - « لقد كان ذلك اقتصادا زائفا جدا » .  
 - ونساءل مستر روتشيستر : « وهل كان هذا هو كل ما اثار حنقك عليه ؟ »  
 - « لقد جوعنا عندما كان هو المشرف الاوحد على دائرة التموين ، قبل ان تعيّن اللجنة ، ولقد أضجرنا بمحاضراته الطويلة مسرة كل اسبوع ، وبقرارات مسائية من كتب من وضعه هو ، تدور على موضوع الموت المفاجيء ويوم الحساب » . وكانت هذه الكتب تجعلنا نخشى الايواء الى قرشنا » .  
 - « كم كانت سنك عندما ذهبت الى لورود ؟ »  
 - « العاشرة تقريبا » .  
 - « ولقد لبثت هناك ثمانى سنوات ، فانت الان اذن في الثامنة عشرة ؟ »

فأجبت ان نعم » فقال : « الحساب ، كما ترين ، مفيد » . فلولاه لما كان في ميسوري أن احزر مبلغ سنك » . ان من العسير على المسرء ان يقطع برأي حين يكون المتنافر عظيمًا بين اساليب الوجه وتعبيراته كما هي الحال



بالنسبة اليك . والان ، ما الذي تعلمته في لوود ؟ هل تحسنين العزف ؟  
- « قليلا » .

- « طبعاً ، فهذا هو الجواب التقليدي . اذهبي الى المكتبة - اعني ، ارجوك ان تذهبي الى هناك - ( اغفري لي لهجة الامر التي اصطنعتها ، فأنا متعود أن اقول « افعلى كذا » فيصدع المخاطب بما أمره به ، وليس في ميسوري ان اغيّر مألوف عاداتي اكراما لوافدة واحدة حلت بين ظهرائنا منذ قريب ) . اذهبي ، اذن ، الى المكتبة ، خذي معك شمعة ، دعي الباب مفتوحا ، اجلسي الى البيانو ، واعزفي لحنا . »

ومضيت الى المكتبة ، مطيعة اوامره .

وبعد بضع دقائق صاح قائلا : « كفى . يبدو لي انك تحسنين العزف قليلا ، مثل اية طالبة انكليزية اخرى . وربما افضل من بعض اولئك الطالبات ، ولكنك لا تجيدين العزف » .

فاغلقت البيانو ، ورجعت . فتابع مستر روتشيستر حديثه : « لقد اطلمتني آديل على بضعة رسوم اعدادية قالت انها من عملك . والواقع اني لا ادري هل رسمتها كلها بريشتك انت ام لا ؟ اغلب الظن ان استاذنا من اساتذة الرسم قد عاونك ؟ »

فاعترضت قائلة : « اوه ، لا » .

- « آه ، هذا يجرح كبرياءك . حسنا ، ايتيني بمحفظة رسوماتك ، اذا كنت تستطيعين ان تقيمي الدليل على ان محتوياتها هي بريشتك انت . ولكن حذار ان تقولي قولا الا اذا كنت على يقين . ان الرسومات المرقعة لا تخفي علي » .

- « اذن فلن اقول شيئا . اني اترك لك ان تحكم بنفسك ، يا سيدي » .  
وجئت بمحفظة رسومي من المكتبة ، فقال : « قربني المائدة » ، فدفعتها على عجلاتها نحو اريكته . ودنست آديل ومسز فيرفاكس لكي تريا الى الرسوم .

عندئذ قال مستر روتشيستر : « لا اريد تجمهرا . كلما فرغت من رسم خذاه من يدي . ولكن لا تلصقا وجهيكما بوجهي » .

وشرع يدرس كل رسم اعدادي وكل لوحة في كثير من الروية . ثم انه وضع ثلاثة منها جانبا ، اما سائر الرسوم واللوحات فقد نبذها بعد ان فرغ من تأملها ، وقال : « احملني هذه الى المائدة الاخرى ، يا مسز فيرفاكس ، والقي عليها نظرة مع آديل . اما انت ( وهنا التفت الي ) فعساودي الجلوس في مقعدك واجيبي عن اسئلتي . اني ارى ان هذه اللوحات الثلاث رسمتها يد واحدة . فهل كانت تلك اليد يدك ؟ »

- « نعم » .

- « ومتى وجدت متسعا من الوقت لرسمها ؟ لقد استغرق رسمها زمنا طويلا ، واحتاج الى شيء من التفكير » .

« لقد رسمتها خلال العطلتين الاخيرتين اللتين قضيتهما في لووود ، حين لم يكن لدي اي عمل آخر » .

« ومن أين اقتبست موضوعاتها ؟ »

« من رأسي » .

« هذا الرأس الذي اراه الان بين كتفيك ؟ »

« اجل ، يا سيدي » .

« وهل هو عامر بموضوعات اخرى من النوع نفسه ؟ »

« يخيّل الي انه كذلك » . بل اني ارجو ان يكون عامرا بما هو افضل » .

ونشر اللوحات امامه ، وانشأ يدرسها من جديد ، واحدة بعد اخرى .

ويحسن بي ، ايها انقاريء ، ان اغتنم فرصة انشغاله بها لاحدثك عما كانت تمثله . ولكن علي ان اقدم لذلك بالقول انها ليست شيئا رائعا . والواقع ان موضوعاتها نجمت ، اول ما نجمت ، في مخيلتي على نحو زاهر بالقوة والحيوية . لقد كانت ، كما رأيتها بعين البصيرة ، قبل ان احاول تجسيدها على الورق ، فاتنة تأخذ بمجاميع القلوب . ولكن يدي ابت ان تسعيف خيالي ، فاذا بها لا تطلع في كل مرة الا صورة شاحبة لما كنت قد تمثّلته في ذهني .

كانت تلك اللوحات مرسومة بالوان مائية . لقد مثلت الاولى سحبا خفيفة ضاربة الى الزرقة تجري فوق بحر يعب عبابه . كان اقصى اللوحة كله قاتما جدا ، وكذلك كان صدرها ، اذ علي الاصح اقرب امواجها العارمة ، اذ لم يكن ثمة يابسة . وبرزت ومضة خاطفة صاري سفينة نصف مغمور بالماء جثم فوقه غراب بحر داكن ضخّم رقش الزبد جناحيه . كان منقاره ممسكا بسوار ذهبي مرصع بجواهر اخرجتها بأزهي ما استطاعت لوحة اللواني ان تجود به من اصباغ ، وبأسطع ما استطاعت ريشتي ان تضيفه من وضوح . وتحت الطائر والصارى ، التمعت من خلال المياه الخضراء جثة غريق . كانت ذراع جميلة هي العضو الاوحد البادي على نحو واضح ، وكانت تلك الذراع هي التي تقاذف الموج سوارها ، او التي انتزع منها ذلك السوار انتزاعا .

اما اللوحة الثانية فلم يمثل صدرها غير قنّة كشيّب قاتمة مالت اعشابها وبعض اوراقها وكأنما بفعل الريح . وفوق ذلك ووراء امتدت سماء مترامية ، زرقاء داكنة كما تكون السماء عند الغسق . وقد ارتفعت نحو تلك السماء امرأة لا يرى منها غير رأسها وصدرها ، وقد رسمت باقصى ما استطعت مزجه من الوان رقيقة داكنة . لقد 'توّج' جبينها القاتم بنجم ، وتحت هذا النجم بدت الاساير وكأنها ترى من خلال سحابة بخار . ولقد التمعت العينان سوداوين ضاريتين ، وترقرقت خصل الشعر مثل ظل من الظلال ، مثل سحابة داكنة مزقتها الريح او بددتها الكهرباء السماوية . وعلى جيد تلك 'نראה' تبدى ضياء حب مثل ضوء القمر ، ولقد مس البريق الباهت نفسه

موكب السحائب الرقيقة التي انبثق منها مشهد « نجمة المساء » هذا .

اما اللوحة الثالثة فمثلت قنة جبل جليدي عائم تناطح سماء قطبية في فصل الشتاء ، وعند الافق ، كان حشد من الاضواء الشمالية يرمي بسناله الشاحبة الى المدى البعيد فيتكسر بعضها على بعض . وفي صدر اللوحة ارتفع رأس ، رأس هائل منحني نحو جبل الجليد ومستند اليه . وتحت الجبين يدان نحيلتان متشابكتان تسنده وتنشر امام الجزء الادنى من الوجه حجابا اسود ، فليس يرى منه غير ذلك الجبين البالغ الشحوب ، الابيض كالعظام ، وغير عين غائرة جامدة خلو من كل معنى الا زاجية اليأس . وفوق الصدغين ، وسط طيات متشابكة من قماش اسود مكورة على صورة عمامة ، غامضة في صفتها وتركيبها مثل سحابة ، اومضت حلقة من لهب ابيض مرصعة بشرارات صغيرة اشد توهجا . كان ذلك الهلال الشاحب هو « صورة تاج ملكي » ، وكان ما 'يكتله هو « الشكل الذي لا شكل له » .

وسألني مستر روتشيستر فجأة : « هل كنت سعيدة عندما رسمت هذه اللوحات ؟ »

— « كنت مندمجة بها ، وكنت سعيدة . وبكلمة ، فان رسمها كان يتيح لي التمتع بمسرة من أقوى المسرات التي عرفت في حياتي » .

— « ولكن هذا لا ينطوي ، عند التحقيق ، على كبير معنى . فقد كانت مسراتك ، باعترافك انت ، قليلة نادرة . ولكنني استطيع القول انك ، في الواقع ، عشت في جنة من احلام — كتلك التي يحيا فيها الفنان — عندما مزجت هذه الالوان الغريبة وزاوجت ما بينها . هل كنت تفرغين لهذا الصنيع فترة طويلة كل يوم ؟ »

— « لم يكن لدي شيء آخر اعمله ، فقد كنا في عطلة ، ولقد فرغت للوحاتي هذه منذ طلوع الشمس حتى الظهيرة ، ومن الظيرة حتى الغروب . وكان طول النهارات في غمرة الصيف يساعدني على الانكباب والمثابرة » .

— « ولقد استثمرت ارتياحا ذاتيا لثمرة جهودك الجاهدة ؟ »

— « ليس ثمة ما هو ابعد عن الواقع من هذا . فقد روّعنتي وآلمتني تلك المفارقة بين فكراتي ونتاج يدي : ففي كل مرة كنت اجدني قد تخيلت شيئا عجزت كل العجز عن تحقيقه » .

— « ليس هذا صحيحا على وجه الضبط . لقد وفّقت الى تسجيل ظل فكرتك ، لا اكثر من ذلك في ارجح الظن . فلم تكن لديك براعة الفنان وعلمه لكي تنفخي فيها كينونة كاملة . ومع ذلك ، فهذه الرسوم هي ، بالنسبة الى طالبة صغيرة ، عمل فذ . اما الفكرات فهي جنية . وهاتان العينان اللتان في لوحة « نجمة المساء » لا بد انك رأيتهما في حلم . كيف تسنّى لك ان تجعليهما تبدوان في مثل هذا الصفاء كله من غير ان تكونا على شيء من الالتماع البتة ؟ واي فكرة هي هذه التي في عمقها المهيب ؟ ومن ذا الذي علمك ان ترسمي الريح ؟ ان ثمة عاصفة هوجاء في تلك السماء ، وعلى قنة هذه الهضبة . اين

رأيت لاثموس ؟ لان هذه هي لاثموس . حسنا ، ضعي الرسوم جانبا . »  
ولم اكد اعقد خيوط محفظة الرسم حتى قال ، على نحو مفاجيء ، وهو  
ينظر الى ساعته : « امست الساعة التاسعة ! ما الذي ترمين اليه من ابقاء آديل  
ساهرة حتى هذه اللحظة ، يا مس ايير ؟ امضي بها الى سريرها . »

وتقدمت آديل لتطبع على جبينه قبلة ، قبل ان تغادر الحجرة . فاحتمل  
ملافتها ولكنه بدا وكأنه لم يستسغها باكثر مما كان خليقا بالكلب « بايلوت »  
ان يستسغها ، بل وكأنه لم يستسغها بقدر ما كان خليقا بـ « بايلوت » ان  
يفعل .

وقال مشيرا الى الباب ، وكأنه يريد ان يفهمنا انه سئم رفقتنا ورغب في  
صرفنا : « اتمنى لكما ليلة سعيدة . » فطوت مسز فيرفاكس حبكها ، وحملت  
انا محفظة رسومي ، وودعناه في ادب فرد علينا بانحناء باردة ، وانسحبنا من  
الحجرة .

وقلت مخاطبة مسز فيرفاكس عندما لحقت بها الى حجرتها بعد ان قدت  
آديل الى السرير : « لقد قلت لي ان مستر روتشيستر ليس غريب الاطوار الى  
حد كبير . »

— « حسنا ، وهل وجدته غريب الاطوار ؟ »

— « اظن ذلك . انه سريع التقلب ، شديد الفظاظه . »

— « صحيح . انه قد يبدو هكذا لعين الغريب ، من غير شك . ولكنني قد  
الفت عاداته الى درجة تجعلني لا افكر فيها البتة . والى هذا ، فان من واجبنا  
— ان يكن على شيء من شذوذ الطبع — ان نتسامح معه . »

— « لماذا ؟ »

— « اولا لان هذه هي طبيعته التي فطر عليها ، وليس في استطاع اي  
منا ان يغير طبيعته ، وثانيا لانه من غير ريب ضحية افكار اليمه — افكار  
تضايقه وتوقع الاضطراب في مزاجه . »

— « حول ماذا ؟ »

— « حول بعض المتاعب العائلية ، في الدرجة الاولى . »

— « ولكنه ليس برب عائلة . »

— « انه لم يعد اليوم رب عائلة ، ولكنه كان في يوم من الايام . . . او  
كان له ، على الاقل ، بعض الانسباء . لقد احتسب اخاه الاكبر منذ بضعة  
سنوات . »

— « اخاه الاكبر ؟ »

— « اجل ، ان هذه الممتلكات لم تنتقل الى مستر روتشيستر ، الحالي منذ  
عهد بعيد . لقد انتقلت اليه منذ تسع سنوات تقريبا ، ليس غير . »

— « ان سنوات تسعا لهي فترة طويلة حقا . هل كان مولعا باخيه الى  
حد يجعله عاجزا ، حتى اليوم ، عن التأسي والسلوان ؟ »

— « اوه ، لا . لست اظن ذلك . والذي اعتقده انه كان ثمة شيء من

سوء التفاهم بينهما . ان مستر راولاند لم ينصف مستر ادوارد ، ولعله ان يكون قد اوغر صدر ابيه عليه . فقد كان السيد العجوز محبا للمال ، حريصا على ان تظل ممتلكات الاسرة في يدي وريث واحد . انه لم يرد ان يفتتها من طريق القسمة ، ومع ذلك فقد كان حريصا على ان يكون لمستر ادوارد ايضا بعض الثروة ، حفاظا على شرف الاسرة واسمها . فلم يكده مستر ادوارد يبلغ سن الرشد حتى اتخذت بضع خطوات لم تكن منصفة كل الانصاف ، خطوات انزلت به اذى كبيرا . ولقد تعاون مستر روتشيستر العجوز ومستر راولاند ، ابتغاء اغناء مستر ادوارد ، على وضعه في مركز اعتبره هو اليما . اما طبيعة ذلك المركز على وجه الضبط فذلك ما لم اعرفه قط معرفة واضحة ، ولكن نفسه لم تطلق صبرا على الآلام التي فرضت عليه . والى هذا ، فانه ليس بالرجل الذي ينزع الى الصفع ، فاختصم مع اسرته ، واخذ يحيا منذ سنوات عديدة - وما يزال - ضربا من الحياة غير المستقرة . ولست احسب انه قضى في ثورنفيلد ، في اياما يوم من الايام ، اسبوعين متواصلين ، لان موت اخيه من غير وصية جعله سيد القصر الاوحد . والواقع ان اجتنابه مثواه القديم ليس بالامر الغريب .

- « وما الذي يحمله على اجتنابه ؟ »

- « لعله يجده موطنا كثيبا . »

كان الجواب مراوغا ، ولقد كان خليقا بي ان ارغب في شيء اوضح . ولكن مسز فيرفاكس لم تستطع ، او لم ترد ، ان تعطيني اياتا اصرح وأكمل عن اصل المحن التي عاناها مستر روتشيستر وطبيعتها . لقد اعلنت ان ذلك كله كان لغزا بالنسبة اليها ، وان ما عرفته كان ثمرة الحدس والتخمين في المقام الاول . وعلى اية حال فقد كان واضحا انها ودت لو اغير الموضوع ، وهو ما فعلته نزولا عند رغبتها .

## ١٤

وفي بضعة الايام التالية لم اجتمع بمستر روتشيستر الا قليلا . ففي ساعات الصباح كان يبدو في شغل شاغل باعماله ومصالحه ، وفي الاصيل كان رجال من ميلكوت او من الجوار يفدون لزيارته ، وكانوا يلبثون في بعض الاحيان لتناول طعام العشاء معه . حتى اذا بلغت قدمه المرضوضة غاية من التحسن تمكنه من امتطاء جواده ، اسرف في مغادرة القصر على صهوته ، ولعله انما فعل ذلك لكي يرد هذه الزيارات ، اذ لم يكن لينقلب راجعا الى القصر ، عادة ، الا في ساعة من الليل متأخرة .

وفي هذه الفترة ، كانت آديل نفسها نادرا ما تدعى للمثول في حضرته ، واقتصرت صلاتي به على لقاء عابر في الردهة ، او على السلم ، او في الشرفة ، حين كان يمر بي ، في بعض الاحيان ، بترفع وبرود ، مشعرا اياي بانه قد

رأني بمجرد هزة رأس نائية ، او نظرة فاترة ، واحيانا بانحناءة وابتسامة زاحرتين بلطف يذكر بلطف السادة الاماجد . والحق ان تقلب مزاجه لم يسخطني لاني رأيت انه لا شأن لي بتعديل ذلك المزاج ، لقد كان مدله وجزره مرتهنين باسباب لا صلة لي بها البتة .

وذات يوم تناول بعضهم طعام العشاء على مائدته ، فرغب مستر روتشيستر الي في ان ابعث اليه بمحفظة رسومي ، لكي يطلع ضيفه ، من غير ريب ، على محتوياتها . وانصرف الضيف مبكرين ، ليشهدوا اجتماعا عاما في ميلكوت ، على ما علمتني مسز فيرفاكس ، ولكن مستر روتشيستر لم يرافقهم بسبب من ان الليلة كانت ماطرة قارسة البرد . فما ان انصرفوا حتى رن الجرس ، وحتى تلقيت رسالة تقول بان علي انا وأديل ان نهبط الى الطابق الارضي . فسرحت شعر آديل وعنيت باظهارها في مظهر انيق . وبعد ان استيقنت اني كنت في هندام الكويكري المألوف ، حيث لا يحتاج شيء الى تسوية او اصلاح - وحيث كان كل شيء ، حتى جدائل الشعر ، رصينا بسيطا لا منتسح فيه لتشوش او اضطراب - هبطنا الدرج ، وأديل تتساءل ترى هل وصل صندوق الامتعة الصغير بعد طول الانتظار ، ذلك بان وصوله كان قد تأخر حتى ذلك الحين بسبب من غلطة ما . وكان حداثها في محله ، فقد كانت الهدية هناك ، عندما دخلنا حجرة الطعام : علبة صغيرة من كرتون موضوعة على المائدة . لقد بدا وكأنها عرفت بالفرصة .

وصاحت بالفرنسية وهي تعدو نحوها : « علبتي ! علبتي ! »

- « اجل ، هي ذي علبتك ، آخر الامر . امضي بها الى زاوية من الزوايا ، انت يا ابنة بلايس الاصيلية ، وتسلي بانزعاج احشائها » ، كذلك قال صوت مستر روتشيستر العميق الساخر ، منبعثا من اعماق كرسي ضخم ذي ذراعين على مقربة من نار المستوقد ، ثم اضاف : « وحذار ان تزعجيني بأية تفاصيل متصلة بعملية التشريح ، او اية ملاحظة عن حالة الاحشاء : قومي بعمليتك الجراحية في صمت ، والزمي الهدوء ، ايتها الطفلة ، هل فهمت ؟ »

ويبدو ان آديل لم تكن في حاجة كبيرة الى مثل هذا التحذير . ذلك بانها كانت قد انسحبت بكنزها الى احدى الارائك ، وانهمكت في حل عقدة الخيط الذي صان غطاء ذلك الكرسي . حتى اذا نزع ذلك الحاجر ، ورفعت بعض رقاقات فضية من ورق الزخرفة الشفاف اكتفت بمجرد الهتاف ، باللغة الفرنسية : « ايتها السماء ! ما اجمئها ! » ثم استغرقت في تأمل نشوان .

وهنا تساءل رب القصر ، نصف ناهض من مقعده ليلتفت نحو الباب ، حيث كنت واقفة ما ازال : « هل مس ايبر هنا ؟ »

حتى اذا رأني سحب احد الكراسي الى مقربة من كرسيه اضاف : « آه ،

نسخة الى حمامه الكويكر . او الايدياء . رغم ذرة ديبه صرانية مزمنة . والمراد بالهندام الكويكري الوندان المحسم الى ابعده حدود الاحشاش . ( المغرب )

حسنا . تقديمي ، اجلسي هنا . انا لست مولعا بثرثرة الاطفال ، اذ ليس لي - بوصفي اعزب عتيقا - اية ذكريات عذبة متصلة بلثفتهم . والواقع اني لا اطيع صبرا على قضاء سهرة كاملة ، وجها لوجه مع طفل من الاطفال . لا تبعدي هذه الكرسي ، يا مس ايبير ، ابقيه حيث وضعته تماما واجلسي - اعني اذا سمحت . لمن الله هذه المجاملات ! اني انسها على نحو موصول . لا ، لست مولعا ، بخاصة ، بالعجائز الساذجات . وبالمناسبة ، يتعين علي ان لا انسى عجوزي ، فليس من الخير ان اغفلها . انها من آل فيرفاكس ، او على الاقل ذات بعل من آل فيرفاكس ، والدم كما يقولون اكنث من الماء . »

ورن جرسا ووجه دعوة الى مسز فيرفاكس . وما هي الا لحظات حتى اقبلت وفي يدها سلة حبكها .

وقال مخاطبا اياها : « مساء الخير ، يا سيدتي . لقد ارسلت في طلبك لغرض خيري : لقد حظرت علي اديل ان تحدثني عن هداياها ، وليس من ريب في انها مفعمة بضروب الخواطر الحبيسة التي توشك ان تنفجر ، فتلطفني بمساعدتها كمستمعة وكمحدثة . ان ذلك خليك به ان يكون عملا من اعظم اعمال الخير التي قدرك ان تؤديها . »

والحق ان اديل لم تكذب ترى الى مسز فيرفاكس حتى دعته الى اريكتها ، وهناك سارعت الى ملء حضنها بما اشتملت عليه علبتها من محتويات خزفية وعاجية وشحمية ، واخذت تغمرها في الوقت نفسه بضروب الشروح وتعلن لها عن صنوف الابتهاج بقدر ما اسعفتها انكليزيتها المهشمة .

ثم ان مستر روتشيستر اضاف موجه الخطاب الي : « اما وقد ادبت دور المضيف الطيب واتحت لضيفتي مجال الاستمتاع المتبادل فيتعين علي ان استشعر الحرية في التفرغ لمتعتي الخاصة . مس ايبير ، قرّبي كرسيك الى الامام ، اكثر بعض الشيء : انك لا تزالين ابعد مما ينبغي ، وليس في استطاعتي ان اراك من غير ان افسد جلستي في هذا الكرسي المريح ، وذلك شيء لا انوي ان اقوم به . »

وفعلت ما امرت ، برغم اني كنت اؤثر مرة مرة ان اظل بعيدة بعض الشيء ، ولكن مستر روتشيستر كانت له في اصدار الاوامر طريقة مباشرة الى درجة تجعل الانصياع العاجل لارادته امرا مفروغا منه .

كنا ، كما ذكرت من قبل ، في حجرة الطعام . كانت الثريا ، التي انيرت بمناسبة العشاء ، تغمر الحجرة بفيض من النور الاحتفالي البهيج ، وكانت نار المستوقد العامرة حمراء متوهجة الى حد بالغ ، وكانت السجف الارجوانية تتدلى جليلة رحيبة امام النافذة العالية ، والقنطرة الاشده علوا . كان كل شيء ساكنا ، فليس يُسمع غير لغو اديل المكبوح ( انها لم تجرؤ على التحدث بصوت عال ) ، وغير نقر الامطار الشتوية على زجاج النوافذ .

وبدا مستر روتشيستر ، فيما كان مستويا على كرسيه المكسو بالدمقس ، على غير ما بدا لي من قبل . كان اقلّ تجهما - وكان اقلّ كآبة

بكثير . كانت تطفو على شفثيه ابتسامة ، وكانت عيناه تلتمعان ببريق لم ادر اكان بريق الخمر ام لا ، ولكنني احسب ان ذلك محتمل جدا . كان على الجملة في مزاجه المسائي ، وهو مزاج كان اكثر انبساطا وابتهاجا ، واكثر انسيافا مع هوى النفس ايضا ، من مزاجه الصباحي البارد الجافي . ومع ذلك ، فقد بدا مخيفا ، وقد اسند رأسه الضخم الى ظهر كرسيه المتنفخ وانعكس وهج النار على اساريه الصوانية وفي عينيه الواسعتين السوداوين ، ذلك بانه كانت له عينان واسعتان ، سوداوان ، عينان جميلتان جدا ايضا ، لم تخلوا في بعض الاحيان من بعض التغير في اعماقهما ، بعض التغير الذي قد لا يكون رقة ولطفا ، ولكنه يذكرك ، على الاقل ، بالركة واللفظ .

وكان قد سلخ دقيقتين وهو يرنو الى النار ، وكنت قد سلخت مثل ذلك الوقت وانا ارنو اليه عندما التفت فجأة فلمح عيني مركزتين على محياه .

وقال : « انت تنفرسين في » ، يا مس ايير . هل ترينني فتى وسيما ؟  
 وكان خليقا بي ، لو اصطنعت الروية ، ان اجيب عن هذا السؤال بكلام تقليدي ، كلام ينطوي على ايهام وكياسة . ولكن الجواب زلّ عن لساني بطريقة ما ، قبل ان اعني ذلك فقلت : « لا ، يا سيدي » .

فقال : « آه ، يا الهي ! ان فيك لشيئا فذا حقا . انك لتذكرين المرء براهبة صغيرة . فانت غريبة ، هادئة ، رزينة ، ساذجة . وانك لتجلسين باسطة ذراعيك امامك ، منكسة عينيك في الاعم الاغلب على السجادة ( اللهم الا حين تصوبان تصويبا ناقبا الى وجهي ، كما كانتا في هذه اللحظة ، مثلا ) . وحين يوجه اليك المرء سؤالا او يبدي ملاحظة تجددين نفسك مضطرة الى الاجابة عنها فعندئذ تطلقين جوابا صريحا ان لم يكن فظا فانه على الاقل خشن جاف . ماذا تعنين بهذا ؟ »

- « سيدي ، لقد كنت صريحة اكثر مما ينبغي لي . اني التمس عفوك . لقد كان عليّ ان اجيب بقولي انه ليس من اليسير اعطاء جواب مرتجل عن سؤال يتصل بالمظهر الجسماني ، وان الاذواق تختلف ، وان الجمال امر ثانوي او شيء من هذا القبيل . »

- « لا ، ما كان يحسن بك ان تجيبي بمثل هذا الكلام . الجمال امر ثانوي . هل هذا صحيح ؟ وهكذا فانك - تحت ستار تلطيف الاساءة السابقة ، وستار ملافتي حتى استعيد هدوني - تطعنيني بمذمة ماكرة خبيثة تحت اذني ! تابعي كلامك : اية علة تجدينها في ، بربك ؟ انا احسب ان لي اوصالا كاملة وقسمات وجه مثل اي رجل آخر ؟ »

- « مستر روتشيستر ، اسمح لي ان ابرأ من جوابي الاول . فالواقع اني لم اكن اقصد اعطائك جوابا لاذعا . لقد كان ذلك مني مجرد خطأ احمق ، . - تماما . ذلك ما اعتقده انا ايضا . ولسوف تحاسبين عليه . انتقديني : هل تجددين في جيبي شيئا لا يعجبك ؟ »

قال ذلك ورفع خصل الشعر السوداء التي كانت تنوس على جبينه ،



كاشفا عن جبهة عريضة ذكية ، ولكنها خلو من ايما امارة من امارات الطيبة .  
ثم اضاف : « والان ، يا سيدتي ، هل تجديني رجلا ابله ؟ »

— « معاذ الله ، يا سيدي . ومن يدري ، فلعلك يا سيدي تحسبني مخلوقة فظة اذا سألتك بدواري هل انت 'محسن محب' للخير ؟ »

— « ها قد عدنا ! وها هي ذي طعنة اخرى من تلك المدية نفسها توجهها الي فيما هي تربت على رأسي ، وما ذلك الا لانني قلت اني لا احب معاشرۃ الاطفال والنسوة والمعانز ( ان من الخير لي ان اخفض صوتي بهذه الكلمات ! ) لا ، يا سيدتي الصغيرة ، انا لست محسنا محبا للخير ، بالمعنى العام للتعبير . ولكنني رجل ذو ضمير ، و اشار الى التواء الذي يقال انه ينم عن هذه الملكة ، والذي كان لحسن طالعها واضحا على نحو كاف . فهو يضي على الجزء الاعلى من رأسه سعة ملحوظة ، ثم اردف : « والى هذا ، فقد غلب علي في يوم من الايام ضرب من رقة القلب فيه قسوة وغلظة . فحين كنت في مثل سنك كنت فتى مرهف الاحساس ، عطوفا على الصغار ، وعلى المستضعفين الذين لا نصير لهم ، وعلى البؤساء الذين خانهم الحظ . ولكن الدهر وجّه الي ضرباته القاضية منذ ذلك الحين ، بل لقد عركني بيديّ القويتين ، وها انا ذا الان اتباهى بانني قاسر صلب مثل كرة من مطاط ، كرة مسامية ينفذ اليها الماء ، من طريق شقٍ او شقين ، ولكن ليس في وسط كنتلتها غير نقطة حساسة واحدة . فهل قد بقي كي ، بعد ذلك ، شيء من الامل ؟ »

— « الامل في اي شيء ، يا سيدي ؟ »

— « في تحوُّلي ، كرة اخرى ، من مطاط الى لحم ؟ »

فقلت في ذات نفسي : « لا ريب في انه قد اسرف في الشراب . » ولم ادر بأي شيء يجب ان اجيب عن سؤاله العجيب . ومن اين لي ان اتكهن هل سيكون في ميسوره ان يتحول من جديد ، ام لا ؟

— « اراك مرتبكة جدا ، يا مس ايير . وعلى الرغم من ان ما تتمتعين به من جمال لا يزيد على ما اتمتع به من وسامة فان سيماء الارتباك تناسبك وتليق بك . والى هذا ، فانها تلاثمني انا ايضا ، لانها تقصي عينيك المتحرّيتين هاتين عن محيطي ، وتشغلها برياحين البساط الصوفية . وهكذا استمري في ارتباكك . اني نزع ، يا سيدتي الصغيرة ، الى ان اكون الليلة اجتماعيا راغبا في معاشرۃ الناس . »

قال هذا ونهض من كرسيه ، ووقف مسندا ذراعه الى رف المستوقد الرخامي . وتبدى قوامه ، وهو في ذلك الوضع ، بمثل الوضع الذي تبدى فيه وجهه ، كما تبدى اتساع صدره الاستثنائي الذي كاد يكون غير متناسب مع طول اطرافه . وانا واثقة من ان كثرة الناس الكاثرة خليق بهم ان يعتبروه رجلا دميما ، ومع ذلك فقد كان في هيئته اعتداد لا شعوري بالغ ، وكان في مسلكه ثقة بالنفس قوية ، وفي سيماء لا مبالاة كاملة بمظهره الخارجي واعتماد متغطرس على قوة صفاته الأخرى ، فطرية كانت ام مكتسبة ، وكان

في هذا كله ما يعوضه عن فقدان الجاذبية الشخصية ، بحيث ان الناظر اليه لا معدى له عن مشاركته تلك اللامبالاة ، بل لا معدى له عن مشاركته - على نحو اعمى - تلك الثقة بالنفس .

وكرر قائلا : « اني نزاع الى ان اكون ، الليلة ، اجتماعيا راغبا في معايشرة الناس . وهذا هو السبب الذي من اجله دعوتك للمجيء الى هنا : اني لم اجد في النار والثريا ما يشبع نزعتي الاجتماعية هذه ، كما انه ليس في ميسور « بايلوت » ان يشبعها ، لان ايا منها لا يستطيع الكلام . ان اديل هي فوق النار والثريا و « بايلوت » درجة ، من غير ريب ، ولكنها مع ذلك تظل دون المستوى المطلوب بكثير . والشئ نفسه يصح في مسز فيرفاكس ايضا . اما انت فاني على مثل اليقين من ان في امكانك ان تلاميضي اذا شئت . لقد اذهلتني في الليلة الاولى التي دعوتك فيها الى هنا ، وكنت نسيتك - او كدت - منذ ذلك الحين ، فقد صرفتني عن التفكير فيك افكار اخرى استبدت برأسي . ولكني قد عقدت العزم ، الليلة ، على الاخلاص للراحة ، فاطرح كل ما يزعج ، واستحضر كل ما يوقع الرضا في النفس . وانه ليرضياني الان ان اغريك بالكلام . . . ان ازداد معرفة بك . هيّا ، اذن ، تكلمي . »

ولكني ، بدلا من ان اتكلم ، تبسمت ، ولم تكن ابتسامتي مستبشرة جدا او مدعنة جدا ايضا .

فألح قائلا : « تكلمي ! »

- « عمّ ، يا سيدي ؟ »

- « عن ايما شئ يروق لك . اني اترك لك كامل الحرية في اختيار الموضوع وفي طريقة معالجته » .

وهكذا قعدت واعتصمت بالصمت . لقد قلت في ذات نفسي : « اذا كان يتوقع مني ان اتحدث لمجرد التحدث والتفاخر فلسوف يكتشف ان التوفيق خانه فلم يوجه خطابه الى الشخص المناسب » .

- « اراك بكاء ، يا مس اير » .

ولزمت الصمت ، فحني رأسه نحوي بعض الشئ ، وبمنظرة مفردة خاطفة بدا وكأنه يغوص في عيني غوصا .

وقال : « عنيدة ؟ ومتبرمة . هذا طبيعي ، ذلك اني افرغت طلي في صيغة سخيفة ، صيغة تكاد تكون وقحة . مس اير ، اني التمس عفوك . الواقع هو ، وانا اقول ذلك مرة الى الابد ، اني لا اريد ان اعاملكما كما اعامل من هم دوني مقاما ، اعني ( وقد حاول بهذا التفسير ان يصحح نفسه ) انني لا ادعي لنفسي الا ذلك التفوق الذي تفرضه عشرون سنة هي فرق ما بين سني وسنك ، ويفرضه قرن من الزمان كامل ، هو فرق ما بيني وبينك في حقل الخبرة والتجربة . وهذا حق من حقوق المشروعة ، واني لا تشبث به ، كما تعبر اديل بلغتها الفرنسية . وبحكم هذا التفوق ، وبحكم وحده ، ارغب اليك ان تتلطفي فتحدثيني الان بعض الشئ ، وان تنقذيني من افكاري التي

يشيرها التركيز على نقطة واحدة ، والتي اراها تناكّل مثل مسمار صدئ . »  
كان قد تنازل فقدّم تفسيراً ، بل شبه اعتذار . ولكنني لم استشعر ايما  
تجبر تجاه تلافئه ، ولقد اردت ان اشعره بذلك ، فقلت : « اني راغبة في  
تسليتك اذا استطعت ، يا سيدي ، جد راغبة ، ولكنني لا اقوى على اختيار  
الموضوع ، اذ من اين لي ان اعرف ما الذي يروق لك ؟ وجه اليّ اسئلة ،  
ولسوف ابذل غاية جهدي للاجابة عنها » .

– « اذن فهل تقرّيني ، في المقام الاول ، على ان لي حقا في ان اكون  
مستبدا بعض الشيء ، فظا بعض الشيء ، وربما كثير المطالب ، في بعض  
الاحيان ، للاعتبارات التي نصصت عليها ، اعني اني بلغت من السن مبلغا  
يجعلني في مقام والدك ، واني خضت غمار تجارب متباينة ، مع كثير من  
الناس وكثير من الامم ، وطوّفت في البلاد فزرت اكثر من نصف الكرة  
الارضية ، في حين انك عشت عيشاً مطمئناً هادئاً مع مجموعة من الناس لا  
تتغير ، في بيت واحد لا يتغير ؟ »

– « افعل ما يحلو لك ، يا سيدي » .

– « هذا ليس بجواب . او انه على الاصح يشير الاعصاب الى حد بعيد ،  
لانه ينطوي على كثير من التهرب . اجيبيني في وضوح » .

– « انا لا احسب ، يا سيدي ، ان لك حقا في فرض ارادتك عليّ لمجرد  
انك اعلى مني سناً ، او لمجرد انك عرفت من بلدان الارض اكثر مما عرفت  
انا . ان دعواك في التفوق تقوم على مدى ما وفقت اليه من حسن الافادة من  
وقتك وخبراتك » .

– « هممم ! هوذا جواب مرتجل . ولكنني لا اسلم بانك على صواب ،  
لان هذا لا يدعم قضيتي البتة . ذلك انني اصطنعت كلا من وقتي وخبرتي  
اصطناعاً غير مبالٍ ، ان لم اقل اصطناعاً سيئاً . وحتى لو اسقطنا مسألة  
التفوق هذه من حسابنا ، يتعين عليك ان توافقني على تلقي اوامري بين الفينة  
والفينة ، من غير ان تثيرك لهجة الامر او تؤذيك . فما رأيك ؟ »

وتيسمت . وقلت في ذات نفسي : « ان مستر روتشيستر غريب  
الاطوار حقا ، انه يبدو وكأنه قد نسي انه يدفع الي ثلثين جنيتها في العام  
اجرا على تلقي اوامره » .

وقال ، مدركاً – في الحال – انطباعتي العابرة : « هذه الابتسامة حسنة  
جدا ، ولكن اردفي الابتسام بالكلام » .

– « كنت افكر يا سيدي كم هو قليل عدد الرؤساء الذين يكلفون انفسهم  
عناء السؤال عما اذا كانت اوامرهم تثير مرؤوسيهي المأجورين وتؤذيهم ام لا » .  
– « مرؤوسيهي المأجورين ! ماذا ؟ انت مرؤوستي المأجورة ؟ اوه ، اجل ،  
لقد نسيت الراتب ! حسن اذن ، هل تجيزين لي ، على هذا الاساس  
الارتزاق ، ان اناكدك وان ارويّعك بعض الشيء ؟ »

– « لا ، يا سيدي ، ليس على هذا الاساس . اما على اساس انك نسيت

ذلك ، وانك حريص على ان يكون تابعك مرتاحا الى تابعيته لك ، فاني اجيزه من صميم الفؤاد » .

— « وهل توافقين على الاستغناء عن جمهرة كبيرة من الصيغ والعبارات التقليدية من غير ان يخطر لك ان اغفالها ناشئ عن شيء من الازدراء ؟ »

— « انا واثقة يا سيدي من اني لن اخطئ . فاتوهم التجاوز عن الشكليات المألوفة احتقارا . والواقع اني اميل الى اول هذين الامرين بعض الشيء ، اما ثانيهما فما احسب ان اي ابن حرة يرضى به ، ولو لقاء راتب يُجْرى عليه » .

— « هراء ! ان معظم ابناء الحرائر على استعداد لان يرتضوا القيام بأيام شيء لقاء الراتب . من اجل ذلك ، دعي الناس وشأنهم ، ولا تغامري باطلاق الاحكام التعميمية في موضوعات تجهلونها جهلا مطبقا . وعلى اية حال ، فاني اصافحك ، عقليا ، مهنئا اياك على جوابك ، برغم افتقاره الى الدقة . اجل اني اهنتك على ذلك الجواب ، سواء من حيث الطريقة التي قيل بها او من حيث مادة الكلام : لقد كانت الطريقة صريحة ومخلصة . وليس يقع المرء دائما على مثل هذه الطريقة في الاجابة . على العكس ، ان التصنع او البرود ، او سوء الفهم الاحمق الغليظ العقل للمعنى الذي قصده المرء هي المكافآت المعتادة التي تلقاها الصراحة . ولا احسب ان ثمة ثلاث مربيّات ، من بين ثلاثة آلاف مربية ، كان يمكن ان يجبنني كما اجبت انت اللحظة . ولكنني لا اقصد الى اطرائك . انك اذا كنت قد افرغت في قالب مختلف عن ذلك الذي افرغت فيه الكثرة الكبيرة من بنات جنسك فليس الفضل في هذا لك . انه من عمل الطبيعة . ثم انني ، بعد هذا كله اتعجل اطلاق الاحكام . انا لا اكاد اعرف عنك شيئا . ومن يدري ، فقد لا تكونين خيرا من الاخريات ، وقد تكون فيك علل لا تحتمل تعادل حسناتك القليلة وتطمس عليها » .

فقلت في نفسي : « وكذلك قد تكون انت ! » . والتقت عيني عينه لحظة خطرت لي الفكرة : لقد بدا وكأنه قرأ ما كان يجول في خلدي ، اذ اجاب وكان فحوى ذلك لم يكن مجرد طائف في الذهن بل كلاما ملفوظا ايضا .

قال : « اجل ، اجل ، انت على حق . انا مثقل بالعلل والميوب . ذلك شيء اعرفه ، ولست اريد ان ابرزه والتمس له المآذير ، اؤكد لك . ان الله يعلم اني لست في حاجة الى ان اكون قاسيا في احكامي على الآخرين ، لان لي ماضيا ثقيلًا ، وسلسلة افعال ، ولونا من الحياة يتعيسن عليّ ان اتأملها في ذات نفسي ، وكلها قد ترد سخرياتي وانتقاداتي نفسها الى تحري . لقد اندفعت ، او على الاصح ( ذلك باني ، مثل سائر الآثمين ، اميل الى القاء نصف الملامة على الحظ العائر والظروف العاكسة ) قد دفعت في طريق الضلال وانا في الحادية والعشرين ، ولما اهتد الى السبيل القويم منذ ذلك الحين ، ولكنه كان من الجائز ان اكون شيئا مختلفا جدا . لقد كان من الجائز ان اكون صالحا مثلك ، واعظم حكمة منك ، وربما في مثل طهارتك . انا اغبطك على ما تتمتعين به من بال مطمئن ، وضمير نقي ، وذاكرة غير مدنسة . ايتها

الفتاة الصغيرة ، ان الذاكرة غير المشوبة بأیما لطفة او دنس هي كنز نفيس من غير ريب - معين من الانعاش لا ينضب ، اليس هذا صحيحا ؟ ،

- « كيف كانت ذاكرتك يوم كنت في الثامنة عشرة ، يا سيدي ؟ »

- « كانت حسنة آنذاك ، كانت صافية ، صحية ، ولم يكن أيما ماء دافق او راكد قد احالها الى مستنقع آسن . كنت صنوك وأنا في الثامنة عشرة ، صنوك تماما . لقد قصدت الطبيعة الى أن تحصل مني رجلا صالحا ، على الجملة ، يا مس ايير ، رجلا من الطراز الافضل ، وانك لترين اني لست كذلك . قد تقولين انك لا تريئه ، فاسمحي لي ان اطري نفسي فأقول اني اقرأ هذا في عينيك ( وانتبه ، بالمناسبة ، فإن ما تعبرين عنه بذلك العضو اترجمه انا عن لفته على جناح السرعة ) . والان ، صدقيني اذا قلت لك اني لست وغدا لثيما ، فليس لك ان تحسبيني كذلك ، ان تنسبي اليّ مثل هذه السمعة الرديئة . ولكن بسبب ظروف بعينها - وانا اقول ذلك صادقا - وليس بسبب من ميل فطري عندي ، امسيت آنما تافها متبذلا ، منغمسا في جميع الملذات الصغيرة الحقيمة التي يحاول الاثرياء والنافهون ان يوشحوا بها حياتهم . أتعجبين لاعترافي لك بهذا كله ؟ الا فاعلمي انك كثيرا ما ستجدين نفسك ، في مقبلات أيامك ، وعلى الرغم منك ، موضع ثقة معارفك ومستودع اسرارهم . ذلك بأن الناس سوف يكتشفون ، على نحو غرزي ، كما اكتشفت انا ، ان موهبتك لا تقوم على التحدث عن نفسك بل تقوم على الاستماع بينا يتحدث الآخرون عن انفسهم . انهم سوف يستشعرون ايضا انك لا تستمعين اليهم بروح ضاغنة من الازدراء لحماقتهم وتهوّرهم ، ولكن بضرب فطري من المشاركة الوجدانية لا يقلل من قيمته الترفيحية والتشجيعية كون مظاهره خلوا من الفضول والتطفل . »

- « ومن اين تعرف ؟ ... كيف تستطيع ان تحزر هذا كله ، يا سيدي ؟ »

- « انا اعرف ذلك جيدا ، من اجل ذلك اتابع حديثي في حرية وكأنني ادون خواطري في يوميات . قد تقولين انه كان علي ان اسمو فوق الظروف . اجل ، كان من واجبي ان افعل ذلك . كان من واجبي ان افعل ذلك ، ولكني كما ترين لم افعل . فحين ظلمني القدر لم اكن من الحكمة بحيث اعتصم بالهدوء : لقد غلب علي اليأس اولا ، ثم انحدرت في مزلق الانحلال والتفسخ . والان اذا اثار تفرزي ايما احقق اثيم بذاته الحقيمة اجدني لا استطيع ان اطري نفسي بالقول اني خير منه . اني مضطر الي الاقرار بانني وياه على مستوى واحد . لشدّ ما تمنيت لو اصمد ... الله يعلم اني تمنيت ! حاذري الندم ، يا مس ايير ، حين تسوّل لك نفسك ان تزلّي . فالندم سم الحياة . »

- « يقولون ان التوبة هي علاجها ، يا سيدي . »

- « انها ليست علاجها . ان اصلاح المرء نفسه قد يكون هو علاجها . »

الناجع • ولقد كان في امكاني ان اصلح نفسي - انا لا ازال املك القدرة علي ذلك - اذا ••• ولكن اية فائدة ترتجى من التفكير في ذلك ، والعوائق والاعباء واللعنات تحيط بي من اقطاري جميعا ؟ والى هذا ، فما دامت الايام تنكر علي السعادة انكارا قاطعا فان من حقي ان انتهب من الحياة لذتها • ولسوف انتهبها من غير ريب ، مهما كان الثمن •

- « واذن فلن تزداد الا انحدارا في مزلق الانحلال والتقسُّخ ، يا سيدي • »

- « ربما • ومع ذلك فلماذا يتعين علي ان اواصل الانحدار في تلك المزالق اذا كان في ميسوري ان افوز بمتعة عذبة نضرة ؟ وقد افوز بها في مثل عذوبة العسل الطبيعي الذي تجنيه النحل من الارض السبخة وفي مثل نضارته ؟ »

- « انها سوف تلسعك ••• ان عسلها سوف يكون مرًا المذاق ، يا سيدي • »

- « كيف تعرفين ؟ انك لم تجربها قط • لشدًا ما تبدو عليك امارات الجد البالغ ، والوقار كسرف ، وانك لتجهلين المسألة بقدر ما يجهلها هذا التمثال الصدفي ذو النقوش » ( وتناوله من على رف المدفأة ) • « انت لا حق لك في تقديم المواعظ الي ، ايها المبتدئة ، التي لما تتخط عتبة الحياة بعد ، والتي لا تعرف من اسرارها شيئا البتة » •

- « انا اذكرك بكلماتك نفسها ، ليس غير ، يا سيدي • لقد قلت ان الخطأ يُغضي الى الندم ، ثم اعلنت ان الندم هو سم الوجود • »

- « ومن الذي يتحدث الان عن الخطأ ؟ انا لا اظن ان الفكرة التي خطرت في ذهني كانت خطأ • على العكس ، اني اعتقد بانها كانت وحيا اكثر منها اغراء : كانت انيسة ومهدئة - انا واثق من ذلك • وهما هي ذي تخطر لي كرة اخرى ! انها ليست شيطانا ، اؤكد لك • فاذا كانت شيطانا فلا ريب في انها قد اتشحت باثواب ملاك من ملائكة النور • ويخيل الي ان من واجبي ان ارحب بمثل هذه الضيفة الحسنة حين تلمس الدخول الي فؤادي • »

- « خذ حذرك منها ، يا سيدي • انها ليست ملاكا حقيقيا • »

- « وكرة اخرى اسألك ، كيف تعرفين ذلك ؟ بأية غريزة تزعمين انك قادرة على التمييز بين ملاك زلّ فأمسي من نزلاء الجحيم وبين رسول من رسل العرش الازلي - بين هادٍ ومغور ؟ »

- « لقد اعطيت حكمي استنادا الي سيماك ، يا سيدي ، التي كانت قلقة عندما قلت ان الفكرة خطرت لك كرة اخرى • واني لعلّ مثل اليقين من انها سوف تورثك شقاء اضانيا اذا أضخّحت اليها • »

- « لا ، على الاطلاق • انها تحمل اكرم رسالة في العالم • والى هذا ، فانت لست الوصية على ضميري ، فلا داعي لقلقك • هيا ، ادخلني ،

ايتها التائهة الوسيمة » .

قال ذلك وكأنه يتحدث الى طيف لا تراه إيماء عين غير عينه . ثم انه طوى ذراعيه - اللتين كان قد بسطهما نصفي بسط - على صدره ، فبدا وكأنه يعانق بهما ذاك الكائن اللامنتظر .

واضاف معاودا توجيه الخطاب الي : « لقد استقبلت' التائهة - انها الهة متنكرة ، في ما اعتقد من غير ريب . ولقد احسنت الي في الحال : لقد كان قلبي ضربا من مقبرة ، ولسوف يغدو الان مزارا » .

- « اقول لك الحقيقة يا سيدي ؟ انا لا افهمك البتة . انا لا استطيع ان اتابع تطور الحديث ، فقد امسى اعظم من ان افهمه . انا لا اعرف غير شيء واحد ، هو انك لم تكن صالحا بقدر ما كان يتعين عليك ان تكون ، وانك نادم على مواطن نقصك الذاتية . وان في استطاعتي ان افهم شيئا واحدا ليس غير ، وهو انك المعت الي ان الذاكرة المدتسة نقمة سرمدية . والذي يبدو لي انك اذا بذلت جهدا صادقا فقد تجد ، مع تراخي الايام ، ان من الممكن لك ان تصبح ما ترغب انت في ان تصبحه . وانك اذا ما شرعت ، منذ اليوم ، بعزم وطيد ، في اصلاح افكارك وافعالك فلن تنقضي غير بضع سنوات حتى تتم لك ذخيرة من الذكريات جديدة طاهرة ، يكون في ميسورك ان تفزع اليها في سرور » .

- « فكرة صائبة ، ولقد عبرت عنها فأحسنت التعبير ، يا مس ايير . وفي هذه اللحظة اراني اعبد الجحيم في قوة وعزم » .  
- « سيدي ؟ »

- « اني لاتخذ قرارات طيبة اعتقد انها في مثل قسوة الصوان . وليس من شك في ان رفاقي سوف يصبحون غير ما كانوا وان مطالبي سوف تصبح غير ما كانت » .

- « وافضل مما كانوا وكانت ؟ »  
- « اجل ، وافضل . . . بقدر ما يفضل الذهب الخالص صيدا المعادن الخبيث . يخيل الي انك ترتابين بي ، اما انا فلا ارتاب في نفسي . انا اعرف ماهو هدفي ، وما هي دوافعي ، واني لاسن في هذه اللحظة قانونا لا سبيل الى تغييره ، قانونا كقوانين الميديين والفرس ، يقول بان هذا الهدف وتلك الدوافع هي سالحة » .

- « ليس في امكانها ان تكون سالحة ، يا سيدي ، اذا احتاجت الى قانون جديد يضيف عليها صفة شرعية » .

- « بل انها سالحة ، يا مس ايير ، رغم حاجتها الماسة الى قانون جديد . ان الاحوال والملابس الجديدة التي لم يسمع بمثلها من قبل لتتطلب ' قواعد جديدة لم يسمع بمثلها من قبل » .

- « ذلك مبدأ خطر ، في ما يبدو لي ، يا سيدي . لان في ميسور المرء ان يرى ، لاول وهلة ، انه عرضة للتعسف واساءة الاستعمال » .

- « انها حكمة موجزة كإيجاز الامثال . هذا صحيح . ولكني اقسم  
بآلهة اسرتي اني لن اسيء استعمالها » .
- « انت بشر ، وغير معصوم » .
- « اني كما تقولين . وكذلك انت . . . . ثم ماذا ؟ »
- « ان البشر وغير المعصومين يجب ان لا ينتحلوا سلطة ليس يمكن  
ان تمنح - من غير ما خوف او تعسف - الا للالهة والكاملين من الناس  
فحسب » .
- « اية سلطة ؟ »
- « سلطة القول تبريرا لايما مسلك غريب محرّم : « ليكن هذا  
هو السبيل القويم ! »
- « ليكن هذا هو السبيل القويم ! » ذلك ما ينبغي ان يقال  
بالحرف . ولقد قلتبه انت نفسك » .
- « اسأل الله ان يكون هو السبيل القويم اذن ! » قلت ذلك ، وأنا  
انهض من مقعدي ، معتبرة ان من العبث الذي لا طائل تحته ان اواصل  
حديثا كان كله ظلما بالنسبة الي ، مدركة بالاضافة الى ذلك ان شخصية  
مخاطبي كانت ممتنعة على فهمي ، في اللحظة الحاضرة على الاقل ، وشاعرة  
بالحيرة وبحس اللأمن الغامض للذين يلازمان اقتناع المرء بأنه جاهل .
- « الى اين انت ذاهبة ؟ »
- « لكي اضع آديل في سريرها . لقد آن موعد نومها منذ فترة » .
- « انت خائفة مني لاني اتكلم مثل أبي هوّل » .
- « ان لغتك ملتغزة ، يا سيدي . ولكني - برغم انشدهامي - غير  
خائفة البتة » .
- « بل انت خائفة - ان أنايتك تخشى ان ترتكب خطأ فاضحا » .
- « انا ، بهذا المعنى ، خائفة حقا . اني لا استشعر اية رغبة  
في اللغو وفضول الكلام » .
- « لو انك نطقت بشيء من الهراء اذن لفعلت ذلك على نحو رصين  
هاديء الى درجة اتوهم معها انك تقولين كلاما منطقيا . الا تعرفين الضحك  
ابدا ، يا مس ايبير ؟ لا تكلفي نفسك عناء الاجابة ، فانا لاحظ انك نادرا  
ما تضحكين . ولكن في استطاعتك ان تضحكي . في مرح بالغ : صدقيني ،  
انت لست عبوسا بالفطرة باكثر مما انا اُثيم بالفطرة . ان الكبت الذي  
فرض عليك في لووود لا يزال متعلقا بأهدابك ، فهو يسيطر على اساريك ،  
ويخنق صوتك ، ويشل اوصالك ، وانك لتخافين - في حضرة رجل واخ ،  
او اب او سيد ، او ما شئت فقل - ان تبترسمي في كثير من المرح ، او  
تتحدثي في كثير من الحرية ، او تتحركي في كثير من السرعة . ولكني  
احسب انك سوف تتعلمين ، مع كر الايام ، كيف تجرين معي على سبيلك ،  
تماما كما اجد من المتعذر علي ان اكون تقليديا متمسكا بأهداب العرف حين



— « لقد دقت الساعة التاسعة ، يا سيدي » .

الى سريرها بعد . ذلك بأن وضعي ، يا مس ابير ، وقد وليت النار ظهري ووجهت وجهي الى الحجرة ، يساعد على الملاحظة . ولقد وفقت ، فيما كنت اتحدث معك ، الى مراقبة آديل ايضا بين الفينة والفينة . ( ولدي اسباب خاصة تدعوني الى الاعتقاد بأنها ظاهرة غريبة تستحق الدراسة - اسباب قد افضي بها اليك في يوم من الايام ، لا بل سأفضي بها اليك من غير ريب ) . لقد استلكت من صندوقها ، قبل عشر دقائق تقريبا ، ثوبا حريريا قرنفليا صغيرا . فاضاء الابتهاج الغامر وجهها عندما نشرته امامها ، ولا عجب فالفنج يجري في دماغها ، ويختلط بدماغها ، ويمزج مع عظامها . ولقد صاحت ، بلغتها الفرنسية : « يجب ان اجره ! وفي هذه اللحظة بالذات ! » واندفعت مغادرة الحجرة . انها الان مع « صوفي » ، وان صوفي هذه لتساعدنا في هذه اللحظة في ارتداء الثوب . ولسوف تنقلب آديل الى هنا ، بعد بضع دقائق ، وانا اعرف ما الذي ستقع عليه عيناي - صورة مصغرة عن « سيلين فارينز » كما كانت تبدو على المسرح عند استهلال ... ولكن ما لنا ولهذا . وايا ما كان فان ارق مشاعري على وشك ان تصاب بصدمة . بهذا يحدثني قلبي . امكثي الان ، لتري هل يتحقق ذلك ام لا ؟ »

وصاحت ، بالفرنسية ، وهي تشب الى امام : « كيف تجدان ثوبي ؟  
اهو لائق بي ؟ ونعلاي ؟ وجوربي ؟ انتبها ، انا اعتقد اني سوف ارقص » .  
ونشرت تنورتها ، وانشأت ترقص عبر الحجرة ، حتى اذا انتهت  
الى مستر روتشيستر دارت امامه - في رشاقة - على رؤوس اصابعها ،  
ثم ركعت عند قدميه ، على ركبة واحدة ، هاتفة بالفرنسية : « سيدي ،  
اشكرك الف مرة على كرمك وطيبتك » . ثم اضافت وهي تنهض : « ان

ماما كانت تفعل مثل هذا ، اليس كذلك ، يا سيدي ؟

فجاءها الجواب : « على وجه الضبط ! اجل ، وعلى هذا النحو استطاعت ان تستلّ دنائيري الذهبية الانكليزية من جيب بنطلوني البريطاني ! لقد كنت انا ايضا فتى ناضرا ، يا مس ايير ، اجل ناضرا كالعشب الاخضر : وثقي ان ما يمور به شبابك الان من غضارة ليس يعدو البتة ما كان يمور به شبابي آنذاك . وايا كان ، فقد ولى ربيعى الان ، ولكنه ترك في يديّ هذه الزهيرة الفرنسية ، التي اتوق في بعض لحظات كاتبتي ، الى التخلص منها . واذ كنت ، الان ، لا احترم الجذر الذي انبثقت منه ، بعد ان وجدت انه من ضرب لا يصلح غير غبار الذهب سمادا له ، فاني لا اكنّ للريحانة غير حب جزئي ، وبخاصة عندما تغلب عليها سيماء التصنع ، كشأنها في هذه اللحظات . والواقع اني اعيلها واربيها عملا بالمبدأ الكاثوليكي الروماني في المقام الاول ، ذلك المبدأ الذي يقول بالتكفير عن جمهرة من الآثام ، الكبيرة والصغيرة ، من طريق القيام بعمل صالح مفرد . ولسوف اشرح لك هذا كله في يوم من الايام . طاب مساؤك . »

## ١٥

ولقد شرح مستر روتبيستر ذلك لي ، في مناسبة لاحقة . وكان ذلك ذات اصيل ، عندما اتفق له ان لقيني وآديل في ناحية من حديقة القصر . وفيما كانت هي تلعب مع « بايلوت » ومع شتكمها \* ، سألتني ان اذرع معه ، جيئة وذهوبا . ممرا طويلا تكتنفه اشجار الزان ، على مرأى منها .

ثم انه قال انها كانت ابنة مغنية اوبرا فرنسية ، هي سيلين فارينز التي كان يشعر نحوها ، في يوم من الايام ، بما دعاه « حبا عارما » . وكانت سيلين قد تظاهرت بمبادلتها هذا الحب بحب مثله ، بل اشد منه اتقادا . لقد حسب نفسه معبودها ، على الرغم من بشاعته ، ولقد اعتقد - على حد قوله - بأنها آثرت « قوامه الرياضي » على رشاقة ابولو بيلفيدير .

- « اجل ، يا مس ايير ، ولقد ازدهاني هذا الايثار الذي صدرت عنه الحورية الفرنسية للقرم البريطاني القيم على كنوز باطن الارض ، وكان هذا الازدهاء من القوة بحيث انزلتها في فندق ، واحطتها بجمهرة من الخدم ، وبعربة ، وشالات من الكشمير ، وماسات ، ومخرمات من الدانتيل ، وباختصار ، استهللت عملية تفليس ذاتي ، من طريق حياتي المترفة الجديدة ، ككل مغرم ساذج ضعيف العقل . ويبدو اني لم اكن املك من الاصالة ما يجعلني اشق لنفسي طريقا جديدة الى العار والخراب ، فسلكت

\* الشنك shuttlecock ، لعبة من لعب الاطفال . ( المغرب )

السبيل العتيقة ، في دقة بلهاء ، مجتنباً الانحراف انشا واحداً عن وسطه المعبد . ومن هنا انتهت - وكنت استحق ذلك - الى مصير كمصير سائر الحمقى من المفرمين . وذات مساء اتفق لي ان وفدت على سيلين على غير ترقب منها لزيارتي ، فلم أجدها . ولكن الليلة كانت قاتظة ، وكنت مرهقا من اثر التطواف في شوارع باريس ، وهكذا قعدت في مقصورتها ، سعيدا بان استنشق الهواء الذي كان وجودها ، قبل ذلك بدقائق معدودات ، قد اصفى عليه صفة مقدسة . لا ، اني اغالي ، فانا لم افكر في اي يوم ان لها القدرة على اصفاء ايما صفة مقدسة على ايما شيء . كان ذلك مجرد ضرب من عطر « كرات البخور » كانت قد تركته هناك ، كان عبير مسك وعنبر ، لا اريج القداسة . وكنت قد شرعت احس بالاختناق من روائح ازاهير المستنبتات الزجاجية ، والعطور التي نضج بها الهواء ، عندما حدثتني نفسي بان افتح النافذة واخرج الى الشرفة . كانت الليلة مقمرة ، وكانت مصابيح الغاز مضأة ايضا ، وكان الجو ساكنا جدا ، رائقا جدا . وعلى الشرفة كان كرسي او كرسيان ، فجلست ، واخرجت من جيبى سيكارا ، - اني سوف آخذ الان واحدا ، اذا اجزت لي ذلك » .

وتمهل ريشما اخرج سيكارا واشعله . حتى اذا وضعه بين شفتيه ونفث في هواء ذلك اليوم المثلوج ، الذي لم يشهد الشمس ، سحابة من دخان هافانا الذكي ، استأنف حديثه قائلا :

- « وكنت في تلك الايام احب ضروب الحلوى المغلفة بالسكر ايضا ، يا مس ايير ، وكنت اقرقش ( واغفري لي هذا الابتذال في التعبير ) . . . . . اجل كنت اقرقش حبات الشوكولا حيناً وادخن حيناً ، مراقبا في الوقت نفسه سيل العربات التي كانت تدرج على طول الشوارع الانيقة نحو دار الاوبرا المجاورة ، عندما تبينت عربة انيقة مقفلة يجرها حوادل انكليزيان رائعان ، عرفت فيها - بفضل اضواء المدينة الساطعة - تلك العربة التي كنت قد قدمتها الى « سيلين » . كانت عائدة الى الفندق . وراح فؤادي يخفق ، بحكم الطبع ، خفقانا شديدا فارغ الصبر ، على حديد الدرابزون الذي اتكات عليه . ووقفت العربة ، كما كنت قد توقعت ، عند باب الفندق . وترجلت شعلتي ( وهذه هي الكلمة الدقيقة اللائقة بمحبوبة من راقصات الاوبرا ) وعرفتني في الحال ، على الرغم من انها كانت تستتر بمعطفها - وهو ، بالمناسبة ، حمل ثقيل لا داعي للتدثر به في امسية حزينانية قاتظة الى ذلك الحد . . . . . اقول عرفتني في الحال من قدمها الصغيرة التي لاحت من وراء تنورتها وهي تثب من عتبة العربة . وكدت اغغم - وانا اطل من على الشرفة - بهاتين الكلمتين ، « يا ملاكي ! » ، في جرس كان ينبغي ان لا تسمعه غير اذن الحب وحدها طبعاً ، عندما وثب خلفها ، من العربة ، شخص اخر متدثر هو ايضا بمعطف . ولكن ما سمعته الان يدوي فوق الرصيف لم يكن غير عقب ذات مهماز : لقد بصرت

برأس معتمر بقبعة يمر تحت باب الفندق المقنطر الخاص بالعربات .

« انت لم تستشعري الغيرة ، في يوم من الايام ، يا مس ايبير ؟ لا ، بالطبع : وليس ثمة ايما حاجة لطرح هذا السؤال عليك ، فانت لم تعرفسي الحب قط . » وسوف تستشعرين هاتين العاطفتين في مقبلات الايام . ان روحك هاجعة الان ، ولا بد ان تصابي ذات يوم بالصدمة التي ستوقظها . انك تحسبين ان الوجود كله يجري في مداهى كذلك الذي هدمد شبابك حتى هذه الساعة . انك تعومين مغمضة العينين مسدودة الاذنين ، فلست ترين لا الصخور التي تطلع رؤوسها غير بعيد في مجرى المد ، ولا تسمعين الامواج العارمة التي تجيش في قعرها . ولكني اقول لك - ومن الخير لك ان تنتبهي جيدا لما اقول - انك سوف تنتهين يوما الى مازق تكتنفه شم الصخور ، حيث يتفتت مجرى المياه كله ويتبدد في دوامة وصخب ، وزبد وجلبة . فاما ان تنكسري ذرات فوق الصخور الشامخة ، او تحملي على كتف موجة عارمة الى تيار اكثر هدوءا . . . كمثل حالي انا الان .

« انا احب هذا اليوم : احب تلك السماء الفولاذية ، احب تجهّم العالم وسكيبته تحت هذا الصقيع ، احب ثورنفيلد ، احب عتقه ، وتوحّنده ، واشجاره القديمة التي تعشعش فيها الغربان ، واشجاره ذات الاشواك ، وواجهته الشائبة ، وصفوف النوافذ القاتمة التي تعكس تلك السماء المعدنية . . . ومع ذلك فما اطول ما ابغضت مجرد التفكير فيه ، وما اكثر ما اجتنبته كما يجتنب المرء موطنه من مواطن الطاعون ! وما اشد ما اكره حتى الان . . . »

وصرف باسنانه واعتصم بالصمت . وكف عن السير ، وضرب الارض الصلبة بعقب حدائه ذي الساق الطويلة . لقد بدا وكأن فكرة بغيضة ما قد كبّلته تكبيلا جعله عاجزا عن ان يتقدم خطوة واحدة الى امام .

وكنا نصعد في الممر الذي تكتنفه الاشجار عندما توقف على هذا النحو . كان القصر امامنا ، فرفع عينيه الى شرفاته ، ورشقها بنظرة لم اشهد مثلها لا من قبل ولا من بعد . لقد بدا وكأن الالم والخزي والغيظ - نفاد الصبر ، والاشمئزاز ، والمقت - تصطرع كل لحظة اصطراعا مرتعشا في انسان عينه الكبير المنفوس تحت حاجبه الابنوسي . وضاريا كان ذلك الصراع الذي اتسم بالحسم من غير ريب ، ولكن شعورا اخر ما لبث ان برز وانتصر : شيء قاس وساخر ، شيء عنيد وحازم . لقد اخمد انفعاله وحجّر قسما وجهه ، فمضى يقول :

« وخلال اللحظة التي اعتصمت فيها بالصمت ، يا مس ايبير ، صفيت المسألة مع قدرتي . لقد وقفت هي هناك ، على مقربة من جذع شجرة الزان هذه - عرّافة مثل هاتيك العرافات اللاتي برزن لما كبث في مرج « فور » . لقد سألتنني ، رافعة اصبعها : « اتحب ثورنفيلد ؟ » ثم خطت

في الهواء ، تحذيرا تجلّتي في احرف هيروغليفية كالحة على طول واجهة القصر ، بين صف النوافذ الاعلى وصف النوافذ الادنى : « احبّه اذا استطعت ! » ، « احبّه اذا جرّوت ! » فقلت : « سوف احبه ! سوف اجرّو على حبه ! » ( وهنّا استدرك في نكد وكآبة ) « سوف أبرّ برعدي ، سوف اذلّ العقبات التي تعترض سبيلي الى السعادة ، الى الطيبة - اجل ، الطيبة ، اني اريد ان اكون رجلا خيرا مما كنت ، خيرا مما انا ، كما حطم حوت ايوب الحربة والنبلة والصدرّة المزرّدة . ولن ارى في ما يعتبره الناس عقبات من حديد ونحاس الالهشيماء وخشبنا نخرا » .

وهنا راحت آديل تعدو امامه هي ولعبتها فصاح في فظاظة : « اغربي عني ! العبي في مكان بعيد ، ايتها الطفلة ، او امضي الى « صوفي » في داخل القصر » . حتى اذا وصل سيره في صمت غامرت محاولة اعادته الى النقطة التي كان حديثه قد انحرف عندها على نحو مفاجيء ، فسألته : « وهل غادرت الشرفة ، يا سيدي ، عندما دخلت الانسة فارينز ؟ »

وتوقعت ، او كدت ، ان القي - جزاء هذا السؤال الذي طرح في ظرف غير ملائم البتة - صدا قاسيا . ولكنه ، على العكس ، استيقظ من شروده الذهني المنجهم ، وادار عينيه نحوي ، وقال وقد شرع الاكفهرار يزاييل جبينه : « اوه ، لقد نسيت سيلين ! حسنا ، سوف استأنف الحديث . عندما رأيت فانتتي تدخل على هذا النحو برفقة فارس من الفرسان ، بدا لي وكأنني سمعت حسيسا ، واذا بأفعاون الغيرة الاخضر ذي الجسم المتعرج الملتف يطلع رأسه من الشرفة التي سفح القمر عليها ضيائه ، ويتسلل الى صدرتي . ثم انه راح ينهش لحمي شاقا طريقه ، في دقيقتين اثنتين ، الى سويداء فؤادي » . وهنّا هتف ، مفارقا عمود القصة كرة اخرى مفارقة مفاجئة : « عجباً ! عجباً لي كيف اخترتك لاشكو اليك بثّتي كله ، ايتها السيدة الفتية . واعجب من ذلك ان تنصتي الي في سكون ، وكأن انصراف رجل مثلي الى رواية القصص عن خليلته راقصة الاوبرا على مسمعي فتاة غريبة غرة مثلك امرٌ مألوف اكثر من ايما شيء آخر في هذا العالم ! ولكن الغرابة الاخيرة تفسر الغرابة الاولى ، كما المعت ذات مرة : انك ، برصانتك وحذرك ، وحسن تقديرك لمشاعر الآخرين ، قد خلقت لتكوني الصدر الذي يستقبل الاسرار . والى هذا ، فانا اعرف اي ضرب من العقل حاولت ان اصل ما بينه وبين عقلي : انا اعلم انه ليس عقلا قابلا للعدوى . انه عقل غريب ، عقل فذ . ولست اقصد ، لحسن الطالع الى ايذائه ، وحتى لو قصدت اذن لما استطعت الى ذلك سبيلا . اني كلما اخذت معك باطراف الاحاديث كان خيرا وابقي . لان في ميسسورك ان تعشيني بيئا اعجز انا عن اذوائك » .

وبعد هذا الاستطراد عاد الى قصته يكملها : « لقد بقيت في الشرفة ،

قائلا في ذات نفسي : « لا ريب في انهما سوف يفدان الى مقصورتها .  
فلانصب لهما شركا » . وهكذا مددت يدي خلال النافذة المفتوحة فاسدلت  
الستارة عليها ، تاركا مجرد فجوة استطيع بواسطتها ان اراقب كل شيء .  
ثم اغلقت النافذة تاركا ايضا مجرد شق كاف لان تتسرب منه وعود  
العاشقين وعهودهم المهموسة . ثم انسللت منقلبا الى كرسيي . ولم اكد  
استوي عليه حتى دخلا . وفي الحال رحت اختلس النظر من شق النافذة .  
لقد دخلت الخادمة المسؤولة عن غرفة سيلين ، فاضاءت مصباحا ووضعت  
على المائدة ، وانسحبت . وهكذا كان في ميسوري ان ارى سيلين وفارسها  
في وضوح : لقد خلعا معطفيهما ، فبدت « لا فارينز » لي متألقة في ثوبها  
الحريرى وفي جواهرها ، وهى من هداياي طبعا ، وبدا رفيقها في بزة  
ضابط ، فعرفت فيه « فيكونتا » داعرا - فتى احمق اثيما كنت قد التقيته  
ذات يوم في دنيا المجتمع ، ولم يخطر ببالي قط ان ابغضه لاني احتقرته  
احتقارا كليا . ولم اكد اتبينه حتى انكسرت ناب الافعوان - الفيرة - في  
الحال ، لان حبي لسيلين خمد في اللحظة نفسها . فالمرأة التي استطاعت  
ان تخونني من اجل منافس كهذا لا تستحق ان اناضل في سبيل الاحتفاظ  
بها . انها تستحق الاحتقار ليس غير ، ولكن اقل مما استحقه انا ،  
انا الذي هو عاشقها المخدوع .

وشرعا يتحدثان . وسرعى حديثهما عنى تسرية كاملة : كان حديثا  
مستهترا ، ارتزاقيا ، فاترا ، فارغا ، فكانما قصد به ان يسم السامع لا  
ان يستخطه ويشير غضبه . وكانت على المائدة بطاقة تحمل اسمي ، واذ وقع  
بصراهما عليها اخذا يتحدثان عنى . ان ايا منهما لم يكن يملك القوة او  
الظرف الكافيين للسخرية بى على نحو حفيف ، ولكنهما اهاناني بأبشع  
ما مكنتهما طريقتهما الرخيصة من ذلك ، وبخاصة سيلين التي تكشفت عن  
شيء من الذكاء في الكلام على نقائص الشخصية - وقد اطلقت عليها لفظ  
« عاهات » - وهى التي كان من دأبها ان تندفق في اظهار الاعجاب المتقد  
بما دعت « جمالي الرجولي » . انها في هذا تختلف اختلافا كليا عنك ،  
انت التي قلت لي ، بصراحة بالغة ، عند لقائنا الثاني ، انك لا تجدينني  
وسيم . ولقد راعتني هذه المفارقة ، في حينها ، و . . .

وهنا اقبلت آذيل تعدو كرة اخرى ، وقالت : « سيدي ، اللحظة جاء  
جون ليقول ان وكيل اعمالك قد وفد وانه يرجو مقابلتك » .

- « آه ! في هذه الحال ، يتعين على ان اوجز . لقد فتحت النافذة ،  
ودخلت المقصورة عليهما ، فحررت سيلين من حمايتي ، وسرحتها من  
الفندق مقدا اليها بعض المال تستعين به على حاجاتها العاجلة . لقد  
تصاممت عن صيحاتها ، ونوباتها الهستيرية ، وتوسلاتها ، واحتجاجاتها ،  
وتشنجاتها ، وتواعدت مع الفيكونت على اللقاء في غابة بولونيا . وفي صباح  
اليوم التالي سعدت بمقاتلته خلفا رصاصة في إحدى ذراعيه السقيمتين

المهزولتين الواهنتين مثل جناح دجاجة مصابة بالخانوق . وعندئذ اعتقدت اني تخلصت منهما جميعا . ولكن « لا فيرنز » كانت ، لسوء الطالع ، قد حملت الي ، قبل ستة اشهر آديل الصغيرة هذه مؤكدة انها بنتي . ومن يدري ، فقد تكون ابنتي ، برغم اني لا ارى في سيماهما ايما دليل ينهض على مثل هذه الابوة الكالحة . ان الكلب « بايلوت » ليشبهني اكثر مما تشبهني هي . وبعد بضع سنوات انقضت على خصامي مع الام ، تخلت عن طفلتها وفرت الى ايطالية مع موسيقي او مغن . ولم اعترف لآديسل بأي حق طبيعى يلزمني بأعالتها ، لا ، ولست اعترف لها الان بمثل هذا الحق ، لانني لست اباهها . بيد اني سمعت ان الطفلة المسكينة كانت في حال من العوز الكلي ، فانتشلتها من حمأ باريس ووحلها ، وجئت بها الى هنا لتترعرع في تربة صحية في حديقة من حدائق الريف الانكليزي . ولقد اكتشفتك مسر فيرفاكس وعهدت اليك في تثقيفها . اما وقد عرفت الان انها بنت غير شرعية من مغنية اوبرا فرنسية فلعلك ان تنظري الى وظيفتك والى تلميذتك نظرة مختلفة . ومن يدري ، فقد تأتين الي في يوم من الايام لتحيطيني علما بأنك وجدت عملا اخر - ولتتوسلى الي ان ابحث عن مربية جديدة ، الخ - ايه ؟ »

- « لا ، آديل غير مسؤولة لا عن اخطاء امها ولا عن اخطائك . اني احترمها . والان وقد عرفت انها ، بمعنى من المعاني ، يتيمة الابوين ( بعد ان تخلت عنها امها وبعد ان انكرتها انت ، يا سيدي ) فلسوف اتعلق بها اكثر من ذي قبل . وكيف أوثر ابنة مدللة من ابناء الاسر الثرية ، ابنة تنزع الى ان تكره مربيته كشيء مزعج ضار ، على يتيمة قاصرة متوحدة تميل الي كما يميل المرء الى صديقه ؟ »

- « اوه ، انتظرين الى المسألة على هذا الضوء ؟ حسن . يتعين علي الان ان انصرف . وكذلك يتعين عليك انت ايضا . فقد جنحت الشمس الى المغيب . »

ولكني لبثت في الحديقة بضع دقائق اخرى مع آديل وبايلوت - لقد سابقتها في العدو ولعبت معها لعبة الشتك والمضرب . وعندما دخلنا القصر وساعدتها على نزع قبعتها الصغيرة ومعطفها جلست واجلستها على ركبتي ، وابقيتها ثمة ساعة ، مجيزة لها ان تلغو كما شاء لها اللغو ، غير مؤنبة اياها حتى على بعض مسالكها المألوفة وهناتها الصغيرة التي كانت ميالة الى الانزلاق نحوها حين تعلم انها موضع ملاحظة ومراقبة ، والتي كانت تنم فيها عن ضحالة في الشخصية لعلها موروثه عن امها ، ضحالة لا تكاد تناسب والعقل الانكليزي البتة . ومع ذلك ، فقد كانت لها فضائلها . وكنت انا نزاعة الى الاعجاب بكل ما فيها من عناصر الخير الى

ابعد حد استطاع . لقد التمسست في محياها وقسماتها وجه شبه بينها وبين مستر روتشيستر ، ولكنني لم افز من ذلك بشيء . فلم يكن ثمة ايما سمة او ملامح تؤذن بنسب يشدها اليه . وكان ذلك مؤسفا ، اذ لو كان في الامكان اقامة الدليل على انها تشبهه اذن لكان خليقا به ان يوليها مزيدا من تفكيره واهتمامه .

ولم افرغ للتفكير في الحكاية التي قصها علي مستر روتشيستر الا بعد ان شخصت الى حجرتي وأويت للرقاد . ولعله لم يكن ثمة ، كما كان قد قال لي ، ايما شيء استثنائي البتة في مادة الحكاية نفسها : فقد كان هيام الاثرياء الانكليز بالراقصات الفرنسيات ثم خيانة هاته الراقصات لعهودهم امرين مألوفين ، من غير ريب ، في دنيا المجتمع . بيد انه كان ثمة شيء غريب على نحو لا لبس فيه في نوبة الانفعال التي عصفت به فجأة عندما راح يعبر عن ارتياحه الحالي الى مزاجه ، والى ولوعه المنبعث حديثا بالقصر العتيق وكل ما يحيط به . وتأملت في هذه الحادثة بكثير من الدهش ولكنني ما لبثت ان صرفت تفكيري عنها ، شيئا بعد شيء ، اذ وجدت لها ممتنعة على التفسير - مؤقتا على الاقل - وانتقلت الى التأمل في مسلك مستر روتشيستر معي . لقد رأيت في الثقة التي شاء ان يوليها اياها اطراء لحصافتي : بهذا النوع من النظر فهمتها وارتضيتها . كان سلوكه نحوي ، خلال الاسابيع الاخيرة ، اشد استواء واطرادا مما كان في البدء . لقد بدا وكأنني لم اعد اضايقه البتة . لقد كف عن النظر الي في ترفع مثلوج : كان اذا لقيني على غير توقع بدا لي وكأنه قد سعد بهذا اللقاء . كانت لديه دائما كلمة رقيقة يقولها لي واحيانا ابتسامة يحييني بها . وكان اذا دعاني رسميا الى الاجتماع به اكرمني بحسن وفادة كانت تشعرني بانني املك فعلا القوة على تسليته ، وبأن هذه الاجتماعات الليلية كانت تلتمس لمسرته هو ، ولفائدتي أنا ، على حد سواء .

والواقع انني كنت اقتصد ، نسبيا ، في الكلام ، ولكنني كنت اصغي اليه في حبور . كان افصاحيا \* بفطرته : لقد احب ان يكشف لاحد العقول الباهلة بالحياة عن ومضات من مشاهدتها واساليبها ( ولست اعني مشاهدتها الفاسدة واساليبها الخبيثة ، ولكن تلك المشاهد والاساليب التي تستمد متعتها من المسرح الضخم الذي مثلت على خشبته ومن الجودة الغريبة التي اتسمت بها ) . ولقد كنت استشعر ابتهاجا عميقا في تلقي الفكرات الجديدة التي ابداءها ، وفي تخيل الصور الجديدة التي رسمها ، او كنت اساييره - بفكري - مرافقة اياه الى المناطق الجديدة التي كشف النقاب عنها ، غير مجفلة او متضايقة البتة من ايما تلميح مؤذ .

وكان في انطلاقيه تصرفه ما حررني من كبح اليم ، وكان في صراحته

\* اي مجبا للافصاح عن نفسه ، وهي تقابل لفظة communicative في الاصل الانكليزي .



الودية التي كانت مستقيمة بقدر ما كانت قلبية والتي عاملني بها ما جذبني اليه . لقد استشعرت في بعض الاحيان انه نسيبي لا سيدي ، ومع ذلك فقد كان يتكشف احيانا عن نزعة استبدادية ، ولكنني لم اجد في ذلك كبير بأس : لقد ادركت ان هذه هي طريقته . وكنت من السعادة والابتهاج بهذا الشوق الجديد الطارئ على حياتي بحيث اقلعت عن التوق الى ان تكون لي اسرة وانسباء . لقد بدا ان قدري الهلالي الرقيق قد اخذ في النمو ، وان فراغ وجودي قد شرع في الامتلاء . لقد تحسنت صحتي الجسدية ، وازداد وزني ، وتعاطمت قوتي .

وهل كان مستر روتشيستر دميما في عيني الان ؟ لا ، ايها القارئ : ان عرفان الجميل وضروب المعاني المتداعية ، وكلها سائغ بهيج ، قد جعلت وجهه احب ما اطلعت الى تكحيل العين به ، فاذا بوجوده في حجرة من الحجرات يوقع في نفسي ابهاجا اعظم من ذلك الذي توقعه اشد النيران توهجا . ومع ذلك فاني لم انس عيوبه . والواقع ان ذلك لم يكن في طاقتي ، اذ كان من دأبه ان يعرضها على ناظري بين الفينة والفينة . كان متكبرا ، متهكما ، قاسيا على الدونية بمختلف اشكالها . وكنت اعرف ، في قرارة نفسي ، ان لطفه العظيم نحوي كانت تقابله قسوة ظالمة على كثير من الناس . وكان الى ذلك نكد المزاج ، لغير ما سبب يستطيع المرء ادراكه . واكثر من مرة ، حين كان يستدعيني لاقراء له ، وجدته جالسا وحده في حجرة مكتبته ، منكس الرأس فوق ذراعيه المتصالبتين . حتى اذا رفع بصره نحوي لمحت تجهما نكدا ، تجهما يكاد يكون ضاريا ، يرتق محيا . ولكنني اعتقدت ان كآبته وقسوته وعيوبه الاخلاقية السابقة ( اقول « السابقة » اذ بدا لي وكأنه قد تخلص منها ) كان مردها الى محنة قاسية من محن القدر . لقد اعتقدت انه كان بفطرته رجلا ذا نزعات افضل ، ومبادئ اسمى ، واذواق اصفى مما استطاعت ظروفه ان تنميه ، وثقافته ان تغرسه ، واقداره ان تشجع عليه . لقد خيل الي ان في برديه مواد ممتازة ، وان تكن في اللحظة الحاضرة مشوهة ، مشوشة ، مضطربة . وليس في ميسوري ان انكر اني اسيت لأساء ، ايا كان ذلك الاسى ، وانني كنت على استعداد لان اضحي بشيء كثير من اجل التسمية عنه .

ومع اني اطفأت الان شمعتي واضطجعت في سريري فاني لم استطع ان انام : كنت ابدا افكر في الانطباعة التي غلبت على وجهه عندما كف عن السير في الممر الذي اكتنفته الاشجار وراح يقص كيف برز له قدره وتحداه ان يجروا على التمتع بالسعادة في ثورنفيلد .

وسألت نفسي : « لم لا ؟ ما الذي ينفره من القصر ؟ هل يعتزم مفادرتة كرة اخرى ، عما قريب ؟ لقد قالت مسز فيرفاكس انه نادرا ما لبث فيه اكثر من اسبوعين على نحو متصل ، وها قد سلخ الان فيه ثمانية اسابيع متعاقبات . ولو قد غادره اذن لكان التغير معزنا . ولنغرض

ان غيبته عنه استغرقت شهور الربيع والصيف والخريف كلها . . ان اشعة الشمس والايام المشرقة خليق بها عندئذ ان تبدو كثيبة الى ابعد الحدود ! »

ولست ادري على وجه التحقيق هل وفقت الى الغمض بعد هذه التأملات ام لا ؟ وعلى اية حال فقد استيقظت مجفلة لذن سماعي غمغة مبهمة ، همهمة غريبة مأتية ، انبعثت - في ما بدا لي - من فوقى مباشرة . وتمنيت لو لم اطفى شمعتي : فقد كان الليل حالكا على نحو موحش ، وكنت منقبضة النفس كاسفة البال . فاستويت جالسة في سريري ، وانشأت اصغي . كان الصوت قد خنق .

وحاولت ان استسلم للرقاد كرة اخرى . ولكن فؤادي راح يخفق خفقانا يبور بالقلق والحصر النفسي : كان سكوني الباطني قد تحطم . وبعيدا في ردهة الدور الاسفل دقت ساعة الحائط الثانية بعد نصف الليل . وفي تلك اللحظة بدا لي وكأن شيئا قد مسّ باب حجرتي . . . . . وكان اصابع قد لامست الواحه وهي تتحسس سبيلها في الرواق المظلم . وقلت : « من هناك ؟ » فلم يجبني احد . وسرت في اوصالي رعدة من خوف .

وفجأة تذكرت انه قد يكون بايلوت الذي كان من دأبه ان يتخذ سبيله الى عتبة حجرة مستر روتشيستر كلما شاءت المصادفة ان يترك باب المطبخ مفتوحا . وكنت قد رأيتة بعيني رأسي ، غير مرة ، مضطجعا هناك حتى الصباح . وهدأت هذه الفكرة من روحي ، بعض الشيء ، فعادت الاضطجاع . ان الصمت يريح الاعصاب ، فما ان هيمنت على القصر كله ، كرة اخرى ، سكونية لا يعكر صفوها شيء ، حتى شرع النعاس يداعب جفوني . بيد انه كان مقدرا علي ان لا اعرف النوم في تلك الليلة ، فلم يكد يلم بي حلم من الاحلام حتى فر من بين يدي مذعورا ، وقد روعته حادثة يجمد لها مخ العظم .

لقد انطلقت في تلك اللحظة ضحكة مجنونة - ضحكة خفيضة مكظومة عميقة ، بدا لي وكأنها ارسلت عند ثقب باب حجرتي نفسه . وكان مقدّم سريري على مقربة من الباب ، فخيّل الي بادى الرأي ان الضاحك العفريتى واقف الى جانب سريري ، او على الاصح رابض عند وسادتي . ولكنني نهضت من فراشي ، واجلت الطرف في ما حولي ، فلم استطع ان ارى شيئا . وفيما كنت احرق في الظلام تكرر الصوت الغريب ، ولقد عرفت انه انبعث من وراء الباب . فكان اول ما خطر لي ان افعله هو النهوض لاحكم ايصاد الباب بالمزلاج ، ولاصيح بعد ذلك كرة اخرى : « من هناك ؟ »

وغمغم شيء ما ، وان . وما هي الا لحظات حتى سمعت اقدا ما تنكفي مرتدة على الرواق ، ماضية نحو سلم الدور الثالث . وكان القوم قد جعلوا لهذه السلم منذ فترة يسيرة بابا جديدا ، فسمعت هذا الباب يفتح ثم يوصد ، ليعود السكون بعد ذلك فيهيمن على كل شيء .

وقلت في ذات نفسي : « اهي غرايس بول هذه المرة ايضا ؟ وهل ركبها

« شيطان ؟ »

ولم يعد في ميسوري البقاء وحدي لحظة أخرى : ان علي ان افزع الى مسز فيرفاكس . وسارعت الى ارتداء فستانني ، واتشجحت بشال ، ورفعت رتاج الباب بيد مرتعشة . كانت ثمة شمعة تحترق عند باب حجرتي مباشرة ، فوق بساط الرواق . وادهشتني هذه الواقعة ، ولكن الذي اذهلني اكثر اني وجدت الهواء كدرا وكأنا مليء دخانا . وفيما كنت انظر يمنة ويسرة ، لاكتشف مصدر هذه السحائب الزرق ، استروحت رائحة حريق قوية .

وصرّ شيء ما : لقد فُتح باب نصف فتحة . وكان ذلك الباب هو باب حجرة مستر روتشيستر ، ومن هناك انبعث الدخان مثل سحابة كثيفة . ولم اعد افكر لا في مسز فيرفاكس ، ولا في غرايس بول ، ولا في الضحكة . وما هي الا لحظة حتى امسيت داخل الحجرة : كانت السنة من اللهب تندلع حول السرير ، وكانت السجف تشتعل . وفي وسط اللهب والدخان اضطجع مستر روتشيستر ، في غير ما حراك ، مستغرقا في نوم عميق .

وصحّت : « افق ! افق ! » ورحت اهزه ، ولكنه لم يزد على ان غمغم وانقلب على جنبه الاخر . كان الدخان قد خدّره . ولم يكن في الامكان اضاعة دقيقة واحدة : كانت اغطية الفراش نفسها تحترق . واندفعت الى حوض مستر روتشيستر وابريقه . وكان احدهما - لحسن الطالع - واسعا ، وكان الاخر عميقا ، وكان كل منهما مليئا ماء . ورفعتهما عاليا ، وغمرت السرير والمضطجع فيه بمحتوياتهما ، وانطلقت راجعة الى حجرتي ، فجثت بابرقي ، فضضحت الفراش بالماء كرة أخرى ، ووفقت بعون من الله الى اخماد اللهب الذي كان يلتهمه .

وكان في حسييس النار المخمدة ، وانكسار ابريق كنت قد طرحته على الارض بعد ان افرغته من الماء ، وبخاصة رشاش المسحاح ( الدوش ) الذي اغدقته عليه في سخاء بالغ ، اقول كان في ذلك كله ما يقظ مستر روتشيستر اخر الامر . وعلى الرغم من الظلام الذي ساد الحجرة من جديد عرفت انه قد افاق ، اذ سمعته 'يرعِد' بلعنات غريبة بعد ان وجد نفسه غارقا في بركة ماء .

وصاح : « ا هناك فيضان ؟ »

فأجبتّه : « لا ، يا سيدي . ولكن كان هناك حريق . انهض من فراشك ، انهض ، فانت الان مُفترّق . سوف آتيك بشمعة » .

وسألني : « باسم جميع جنّيات العالم المسيحي قولني لي : هل انت جين اير ؟ ما الذي فعلته بي ايتها العرافة ، ايتها الساحرة ؟ مَنْ في غرفتي هذه غيرك ؟ هل ائتمرت مع احد على اغراقي ؟ »

- « سوف آتيك بشمعة ، يا سيدي . ولكن انهض ، باسم السماء . لقد ائتمرت بك شخص ما . وليس في مستطاعك ان تكتشف من الذي بيّت هذه المكيدة وما حقيقتها قبل ان يرتدّ اليك طرفك » .

- « ها انا ذا قد نهضت . ولكن اتيانك بالشمعة قد يعرضك للخطر . انتظري دقيقتين ريثما اجد بعض الملابس الجافة ، ان كان لا يزال ثمة ملابس

جافة - اجل هو ذا مبذلي \* اركضي الان ! »

وركضت فعلا . وجثته بالشمعة التي كانت ما تزال في الرواق . فتلقاها من يدي ، ورفعها الى اعلى ، وراح يتأمل الفراش - وقد امسى كله اسود مسفوعا - واغطيته وقد ابتلت ، والبساط وقد سبج في الماء .

وتسأل : « ما هذا ؟ ومن الذي اقدم على ذلك ؟ »

فقصصت عليه ، في ايجاز ، ما عرفتُه عن المسألة : الضحكة الغريبة التي سمعتها تدوي في الرواق ، والخطي المصعدة الى الدور الثالث ، والدخان - ورائحة الحريق التي ساقنتني الى حجرته ، وفي اية حالة وجدتها آنذاك ، وكيف اغرقته بكل ما كان في متناولي من الماء .

واصفى في رزانة بالغة . وعبرت انطباعات وجهه وانا ماضية في الرواية ، عن القلق بأكثر مما عبرت عن الدهش . حتى اذا بلغت خاتمة قصتي لم يبادر الى الكلام مؤثرا الاعتصام بالصمت .

فسألته : « هل ادعو مسز فيرفاكس ؟ »

- « مسز فيرفاكس ؟ لا . ولم تريد ان تدعيها ، بحق الشيطان ؟ ما الذي تستطيع ان تفعله ؟ دعيتها ترقد في سلام » .

- « اذن فسوف ادعو « ليبا » واوقف جون وزوجته » .

- « لا ، ابدا . كل ما عليك ان تفعله هو التزام الهدوء . هل تتشجين بشال ؟ اذا كنت لا تستشعرين الدفء على نحو كاف ففي ميسورك ان تأخذي معطفي الذي هناك ، وان تتزلمي به ، وتستوي على الكرسي ذي الذراعين . سوف البسك اياه بنفسي ، والان ضعني قدميك على الكرسي الخفيض لكي تقصيهما عن الماء . وسوف افارقك بضع دقائق . سوف آخذ الشمعة . فابقي حيث انت ريثما اعود ، الزمي الهدوء مثل قارة . ان علي ان اقوم بزيارة الى الدور الثالث . لا تنسي ان من واجبك ان لا تتحركي ، وان لا تنادي احدا » .

ومضى لسبيله ، وراقبت ضوء الشمعة وهو يبتعد . لقد اجتاز الرواق في رفق بالغ ، وفتح باب السلم محدثا اقل ضجة ممكنة ، ثم اوصده خلفه ، وعندئذ تلاشى اخر شعاع من اشعة الشمعة . لقد غودرت الان في ظلام كلي . واصغيت التماسا لصوت ما ، ولكني لم اسمع اي شيء . وانقضت فترة طويلة . وشرع السأم يستبدُّ بي . واحسست بالبرد ، على الرغم من المعطف الذي تدرت به . والى هذا فاني لم ار اي فائدة ترتجى من البقاء بعد ان حظرت علي ايقاظ احد من اهل القصر . وكنت على وشك ان اخاطر فاغضب مستر روتشيستر ، من طريق التمرد على اوامره ، عندما بصرت بالضوء يومض على جدار الرواق كرة اخرى ، وسمعت قدميه الحافيتين تطآن البساط . فقلت في ذات نفسي : « ارجو ان يكون هو ، لا شيئا اسوأ » .

ودخل الحجرة ، شاحب الوجه شديد الاكتئاب ، وقال واضعا سمعته على المفصلة الخشبية : « لقد اكتشفت الامر كله . انه كما قدّرت تماما » .

« كيف ذلك ، يا سيدي ؟ »

فلم ينبس بجواب ، بل وقف متصالب الذراعين ، محدقا الى الارض . حتى اذا انقضت دقائق معدودات سألني في جرس هو الى الغرابة اميل : « اريد ان اسألك ... هل قلت لي انك رأيت شيئا ما عندما فتحت باب حجرتك ؟ »

« لا ، يا سيدي . انا لم ار الا الشمعة على الارض » .

« ولكنك سمعت ضحكة غريبة ؟ ولقد سمعت هذه الضحكة نفسها من قبل . في ما يخيل الي ، او شيئا مثل ذلك ؟ »

« اجل ، يا سيدي . ان ثمة امرأة نخطئ هنا ، تدعى غرايس بول ... وهي تضحك على هذا النحو . انها امرأة غريبة الاطوار » .

« تماما . انها غرايس بول . لقد صدق حدسك . وهي كما تقولين ، غريبة الاطوار ... غريبة الاطوار الى حد بعيد . حسنا ، سوف افكر في المسألة . وفي غضون ذلك يسعدني ان تكوني الشخص الوحيد - بالاضافة الي - المطلع على التفاصيل الدقيقة لما حدث الليلة . وانت لست مهذرة بلهاء ، فلا تقولي ايما كلمة عن ذلك . وسوف اشرح لك بنفسك كيف حدث هذا » ( وأشار الى السرير ) : « والان ارجعي الى حجرتك . وسوف ارقد بقية الليل - في غير انزعاج - على الاركة التي في حجرة المكتبة . كادت الساعة ان تصبح الرابعة ... وبعد ساعتين يستيقظ الخدم » .

فقلت وانا اغادر الحجرة : « طابت ليلتك اذن ، يا سيدي » .

فبدت عليه امارات الدهش - وكان في ذلك انقلاب مفاجئ ، لانه كان قد طلب الي ، منذ لحظة ، ان انصرف .

وهتف : « ماذا ؟ اتركيني في الحال ، وعلى هذا النحو ؟ »

« ولكنك انت قلت لي ان في استطاعتي ان اذهب ، يا سيدي » .

« اجل ، ولكن ليس من غير استئذان ، ليس من غير كلمة او كلمتين اوجههما اليك عرفانا للجميل وتعبيرا عن الاخلاص والمودة . وبكلمة موجزة ، ليس بهذه الطريقة الجافة . كيف ؟ لقد انقذت حياتي ! ... انتشلتنني من موت مبرح رهيب ! ومع ذلك فانت تمرين بي وكأننا غريبان ! صافحيني على الاقل » .

ربسط يده الي ، فبسطت يدي بدوري . فتلقاها باديء الامر باحدى يديه ، ثم بالاثنتين معا ، وقال : « لقد انقذت حياتي . واني لسعيد بأن اكون مدينا لك بهذا الدين العظيم . انا لا استطيع ان اقول اكثر من هذا . وما كنت لاطيق ان يطوّق عنقي ايما شخص اخر في العالم كله بمثل هذه المنّة . ولكن الامر يختلف حين تكونين انت صاحبة اليد علي . ان فضلك هذا ليس بالعبء الذي ينقض ظهري ، يا جين » .

وصمت ، وانشأ يحدق الي . ورأيت ، او كدت ، بضع كلمات ترتعش على شفثيه ، ولكن صوته خانه قلم ينطق بها .  
- « طابت ليلتك كرة اخرى ، يا سيدي . ليس ثمة اي دين ، او منة ، او فضل ، او عبء في هذه المسألة » .

وتابع يقول : « كنت واثقا انك سوف تسدين الي يدا ، على نحو ما ، وفي زمن ما . لقد قرأت ذلك في عينيك عندما رأيتك اول مرة . والواقع ان انطباعتها وابتسامتهما لم توقعا ( وهنا كف عن الكلام كرة اخرى ) اقول لم توقعا ( ثم استأنف حديثه في سرعة ) مثل هذه البهجة كلها في صميم فؤادي عبثا ولغير ما غرض . ان الناس يتحدثون عن التعاطف الطبيعي ، ولقد سمعت اشياء كثيرة عن « الجني الصالح » ، وصديقني اذا قلت ان ثمة بذور صدق في اغرب الاساطير والامثال الموضوعة على السنة الحيوانات . طابت ليلتك يا منقذتي العزيزة ! »

كان في صوته طاقة غريبة ، وكان في محيائه نار عجيبة .  
وقلت : « انا سعيدة بأن تشاء المصادفة ان اكون مستيقظة عندما حدث ذلك » . ثم هممت بالانصراف .

فقال : « ماذا ؟ اتعترمين الذهاب حقا ؟ »  
- « اني احس بالبرد ، يا سيدي » .  
- « البرد ؟ اجل ، وتقفين في بركة ! اذهبي ، اذن ، يا جين ، اذهبي ! »  
ولكنه ظل متشبها بيدي ، فلم يكن في ميسوري تحريرها . وخطر لي ان اتذرع بحجة ما فقلت :

- « يخيل الي اني اسمع مسز فيرفاكس تتحرك ، يا سيدي » .  
فارخى اصابعه وقال : « حسنا ، اذهبي ! » فمضيت لسبيلي .  
وبلغت سريري ، ولكنني لم افكر في النوم قط . لقد تقاذفني ، حتى مطلع الفجر ، بحر تطفو الاجسام فيه ، ولكنه هائج - بحر تلاطمت فيه امواج القلق العظام تحت اواذي البهجة . وخيل الي في بعض الاحيان اني لمحت وراء مياهه الثائرة شاطنا ، جميلا كهضاب فلسطين . وبين القينة والقينة كانت ريح منعشة توقظ املتي وتحمل روحي ، على نحو مظفر ، في اتجاه الساحل . ولكنني لم اوفق الى بلوغه ، حتى في الخيال : فقد هبت من ناحية اليابسة ريح معاكسة فهي تردني الى الوراء على نحو موصول . كان العقل يقاوم الهذيان ، وكانت الحكمة تكبح الهوى . واذا غلبت علي هذه الحال المحمومة التي اقصت النوم عن عيني فقد رأيت ان انهض من فراشي مع انبلاج الصباح .

ذلك فقد خفت أن التقى عينه . وخلال ساعات الصباح الاولى كنت اتوقع مجيئه في كل لحظة . صحيح انه لم يكن من دأبه ان يزور حجرة الدرس ، ولكنه كان على أية حال يلم بها احيانا ليقتضي معنا بضع دقائق ، ولقد حدثني قلبي بأنه لا بد سيعرج عليها ذلك اليوم .

ولكن الصباح تقضى كما يتقضى كل يوم ، ولم يحدث ايما شيء يقطع على دروس آديل سياقها الهادي . ولكنني سمعت ، بعد فطور الصباح مباشرة ، جلبة ما في جوار حجرة مستر روتشيستر : سمعت صوت مسز فيرفاكس ، وصوت ليليا ، وصوت الطاهية - أعني زوجة جون - بل وصوت جون الاجش نفسه . لقد هتف بعضهم بقوله : « أية رحمة سماوية انقذت سيدنا من الموت احتراقا في فراشه ! » وهتف بعضهم الاخر بقوله : « انه لمن الخطر دائما ان يبقى المرء شمعة مضاء طوال الليل » أو « أليس من توفيق العناية الالهية أن يكون من حضور البديهة بحيث يفكر في ابريق الماء ! » أو « الذي يدهشني انه لم يوقظ أحدا ! » أو « نرجو أن لا يصاب بالزكام نتيجة لنومه على أريكة حجرة المكتبة ! » الخ .

ولقد عقب هذا الحديث الصاحب صوت 'تنظيف وترتيب' . حتى اذا مررت بالحجرة ، في طريقي لتناول طعام الغداء في الدور الاسفل ، رأيت من خلال الباب المفتوح ان كل شيء قد أعيد الى وضعه النظامي الكامل . كان السرير وحده لا يزال عاريا عن ستائره ، وكانت ليليا منتصبه فوق « مقعد النافذة » تمسح الالواح الزجاجية التي غشاها الدخان . وكنت على وشك أن اخاطبها ، لاني كنت تواقه الى معرفة التفسير الذي أعطاه مستر روتشيستر للحادث ، ولكنني رأيت ، وأنا اتقدم بضع خطوات ، شخصا اخر في الغرفة امرأة جالسة على كرسي قرب السرير ، تنجز خياطة بعض الستائر الجديدة وتزودها بحلقات . وكانت تلك المرأة هي غرايس بول بالدنت .

لقد جلست هناك ، هادئة مقتصدة في الكلام ، كما لوف عاداتها ، مرتدية ثوبها الاسمر ، ومئزرها ذا المربعات ، ومندبلها الابيض ، وقبعتها الصغيرة . كانت منكبة على عملها الذي بدا وكأنه استحوذ على تفكيرها كله . ولم يكن على جبينها القاسي وفي قسमत وجهها العادية لا شحوب ولا قنوط كاللذين يتوقع المرء أن يراهما غالبين على محيا امرأة حاولت القيام بجريمة قتل ، امرأة لحق بها من ارادته ان يكون ضحيتها حتى وجارها واتهمها ( كما خيل الي ) بالجريمة التي شئت ان ترتكبها . فدهشت ، ووقفت كالمأخوذة . لقد رفعت رأسها فيما كنت لا ازال احرق اليها : ان أيما اجفال او تضرع او شحوب مفاجئين لم ينم عن انفعال ، أو عن شعور بالاثم ، أو خوف من الانفضاح . لقد قالت لي : « صباح الخير ، أيتها الأنسة » بطريقتها المألوفة ، الموجزة ، الفاترة . ثم انها تناولت حلقة جديدة ومقدارا من الشريط اضافيا وواصلت خياطتها .

وقلت في نفسي : « سوف اخضعها لاختبار ما . ان مثل هذا الاستغلاق

المطلق ليمتنع على الفهم » .

فقلت : « صباح الخير ، يا غرايس . هل حدث ههنا شيء ؟ » يخيل الي  
أني سمعت الخدم كلهم يتذكرون منذ لحظات » .

- « كل ما في الامر ان سيدنا كان يطالع وهو مضطجع في فراشه  
الليلة البارحة ، فاستسلم للرقاد وشمعته مضاءة ، فاضطربت النار في  
الستائر . ولكنه استيقظ - لحسن الطالع - قبل ان تمتد الى اغطية  
الفراش او الى الباب والنوافذ وما اليها من أشياء خشبية ، وكافح لاختاد النار  
بالماء الذي كان في الابريق » .

فقلت في صوت خفيض : « مسألة غريبة حقاً ! » ثم حدثت اليها  
وأضفت : « ألم يوقظ مستر روتشيستر أحداً ؟ ألم يسمع أحد الضجة ؟ »

فرفعت عينيها الي كرة أخرى ، وهذه المرة كان فيهما شيء من الوعي .  
لقد بدت وكأنها تنفرس بي في حذر ، ثم أجابت قائلة : « الخدم ينامون في  
مكان بعيد جداً ، كما تعلمين ، يا مس ايير ، فليس من المحتمل ان يسمعو .  
والواقع ان غرفة مسز فيرفاكس وغرفتك هما أقرب الغرف الى حجرة سيدنا ،  
ولكن مسز فيرفاكس قالت انها لم تسمع شيئاً . ان الناس حين تتقدم بهم  
السن يصبح نومهم ثقيلًا في اكثر الاحيان » . وكفّت عن الكلام ثم أضافت  
في ضرب من اللامبالاة المصطنعة ولكن في جرس واضح ذي مغزى : « ولكنك  
فتاة غضة الاهداب ، يا آنسة ، ومن واجبي أن أقول انك من أصحاب النوم  
الخفيف ، فلعلك ان تكوني قد سمعت ضجة ما ؟ »

فقلت خافضة صوتي لكي يتعذر سماعه على « لييا » التي كانت لا تزال  
تصقل زجاج النوافذ : « بلى ، قد سمعت ، ولقد ظننت بادىء الامر ان مصدر  
الضجة هو بايلوت . ولكن بايلوت لا يستطيع أن يضحك ، وأنا واثقة من اني  
قد سمعت ضحكة . . . ضحكة غريبة ايضاً » .

فتناولت خيطاً جديداً ، وأمرته في عناية فوق قطعة من شمع ، ثم ادخلته  
في سمّ الابرة بيد غير مرتعشة ، ثم قالت في رباطة جأش كاملة : « من غير  
المحتمل ، في ما يخيل الي ، ان يضحك سيدنا ، يا آنسة ، حين يجد نفسه  
في مثل ذلك الوضع الخطر . لا ريب في أنك كنت تحلمين » .

فقلت في شيء من الحرارة ونفاذ الصبر ، ذلك بأن برودها النحاسي  
كان قد أثارني : « أنا لم أكن أحلم » .

فنظرت الي من جديد ، وبنفس تلك العين الواعية المتحرية . ثم  
سألتني : « هل أعلمت سيدنا انك سمعت ضحكة ؟ »

- « لم تتح لي فرصة التحدث اليه هذا الصباح » .

فسألتني كرة أخرى : « ألم يخطر لك أن تفتحي باب حجرتك وان تلقي  
نظرة على الرواق ؟ »

لقد بدت وكأنها تستنطقني ، محاولة ان تنتزع مني بعض المعلومات  
من غير أن أدري . وخطر لي أنها اذا اكتشفت اني عرفت جريمتها او ارتبت



في أمرها فقد تنتقم مني ببعض مكائدها الخبيثة . من أجل ذلك وجدت من حسن الرأي أن آخذ حذري . فقلت : « على العكس . لقد اوصدت باب حجرتي بالرتاج » .

– « واذن فليس من دأبك ان توصدي باب حجرتك بالرتاج ، كل ليلة ، قبل أن تأوي الى سريرك ؟ »

فقلت في ذات نفسي : « يا للشيطان ! انها تريد ان تستطلع عاداتي لكي يكون في ميسورها ان تضع خططها وفقها ! » وتغلب الحنق على الحكمة ، كرة اخرى ، فأجبتها في حدة : « كنت حتى الان كثيرا ما لا اوصد باب حجرتي بالرتاج اذ لم أكن لاطن ان ذلك ضروري . كنت خالية الذهن من وجود أيما خطر او ازعاج يتعين على المرء ان يخشاه في قصر ثورنفيلد . أما في المستقبل (وهنا وضعت توكيدا واضحا على كل كلمة) فسوف أعنى عناية بالغة بالاخذ بأسباب السلامة والامن قبل ان اغامر وآوي الى الفراش » .

فكان جوابها : « مثل هذا الصنيع خليق " به أن يكون حكيما . ان هذه البقعة هي أشد البقاع التي اعرفها سكينه وهدوءا ، ولم أسمع قط ان اللصوص حاولوا اقتحام القصر منذ أن نزلته الاسرة ، على الرغم من ان خزانة الاطباق تشتمل على آنية تساوي مئات الجنيهاات ، كما يعلم الناس جميعا . ثم أنك ترين ان هذا البيت الكبير لا يضم غير عدد من الخدم يسير جدا ، لان سيدنا لم يطل في أيما يوم من الايام اقامته في هذه الربوع ، وحتى لو جاء ذات يوم فانه لا يحتاج الى كبير خدمة ، لانه أعزب . ولكنني من القائلين دائما بوجود الاخذ بالاحوط . فليس ايصاد الباب بالرتاج بالامر العسير ، ومن الخير أن يقيم المرء حاجزا من حديد بينه وبين أيما شر قد يحيط به . ان كثيرا من الناس ، يا آنسة ، يتكلمون على العناية الالهية في كل شيء ، ولكنني أقول ان العناية الالهية لا تحل المرء من واجب العمل واصطناع مختلف الوسائل ، وانها كثيرا ما تباركها حين تصطنع في حكمة » . وهنا ختمت خطبتها ، وكانت خطبة مسهبه بالنسبة اليها ، وهي المرأة المؤثرة للصمت ، ولقد القتها بمثل رصانة سيدة من طائفة « الكويكرز » المتزمتة .

وكنت لا أزال واقفة وقد استبد بي الانشدها ليما بدا لي انه رباطة جأش أعجوبية من جانبها ورياء ممتنع على التفسير عندما دخلت الطاهية وقالت موجهة كلامها الى غرايس : « مسز بول ، ان غداء الخدم سوف يصبح جاهزا بعد لحظات ، فهل لك ان تهبطي الى الطابق الاسفل ؟ »

– « لا . ليس عليك الا ان تضعي كأسا من الجعة وقطعة من الحلوى على صينية ولسوف احملها الى الطابق الاعلى » .

– « الا تريدن شيئا من لحم ؟ »

– « حسبي قطعة صغيرة ليس غير ، وقليل من الجبن » .

– « والساغ ؟ »

✻ Sago مادة غذائية نشوية مستمدة من لباب ضروب النخيل المعروفة في جزر الملايو وغيرها وهي تصطنع في تحضير الحلوى . (المغرب)

« في الامكان صرف النظر عن هذا مؤقتا . ولسوف أهبط الى الطابق الارضي قبل موعد الشاي ، وعندئذ أعيد نفسي » .  
وهنا التفتت الطاهية الي ، قائلة ان مسز فيرفاكس كانت تنتظرني . وهكذا انصرفت .

وخلال تناول الغداء لم أكد اسمع شيئا من رواية مسز فيرفاكس عن احتراق الستارة ، فقد كنت في شغل شاغل عن ذلك أحاول ان احلل شخصية غرايس بول المفلّزة واحل معمياتها ، وكنت في شغل أشغل أحاول ان انفذ الى حقيقة مركزها المبهم في ثورنفيلد ، وأتساءل لماذا لم يُزجَ بها في السجن ذلك الصباح ، أو على الأقل لماذا لم تسرّح من خدمة سيدها ؟ لقد أعلن ، أو كاد ، في الليلة البارحة ، ايمانه بأنها هي التي ارتكبت تلك الجريمة ، فلأي سبب خفي ، أمسك عن اتهامها ؟ ولماذا أوصاني أنا أيضا بالكتمان ؟ لقد كان ذلك أمرا عجبا : سيد جريء حقوق متعال يبدو خاضعا بطريقة ما لسلطان واحدة من أحقر خدمه ، خاضعا لسلطانها الى درجة جعلته ، حتى عندما رفعت يدها لتورده موارد الهلاك ، لا يجرؤ على اتهامها في صراحة بالقيام بمثل هذه المحاولة ، بلّكه معاقبتها من اجل ذلك .

ولو قد كانت غرايس ناضرة العود بهية الطلعة اذن لا غريّت بالاعتقاد بأن مشاعر أرق ، من الحكمة او الخوف قد راودت مستر روتشيستر وشفعت لها عنده . ولكن مثل هذه الفكرة ما كانت لتجد قبولا لدي لما اعرفه من بشاعة وجهها ومن تقدمها نحو الكهولة . وقلت في ذات نفسي : « ومع ذلك فقد كانت غضة الاهداب في يوم من الايام ، ولا ريب في ان شبابها قد عاصر شباب سيدها . ولقد اخبرتني مسز فيرفاكس مرة انها تقيم هنا ، في القصر ، منذ سنوات عديدة . أنا لا أحسب انه كان في ميسورها في أيما يوم ان تكون جميلة ، ولكنني اعلم على أية حال انها ربما ملكت من الاصاله وقوة الشخصية ما عوّضها عن الجمال . ومستر روتشيستر من هواة اولي الحزم وأصحاب الاطوار الغريبة ، وغرايس غريبة الاطوار ، على الأقل . أليس جائزا أن تكون إحدى النزوات السالفة ( وهو شيء غير مستبعد البتة على طبيعة تتّسم بالفجائية والعناد ) قد اسلمته الى نفوذها ، فهي تتمتع الان بسلطان على اعماله خفي - نتيجة لطيشه هو - لا قبيل له بزعرته ولا يجسر على اغفاله ؟ - ولكن ما ان بلغت من الحدس هذه النقطة بالذات حتى تمثل لي شخص مسز بول المربّع الذي تعوزه الحيوية ، ووجهها البشع الجاف الجلف تمثلا واضحا الى درجة جعلتني أقول في ذات نفسي : « لا . مستحيل . ان افترضي لا يمكن ان يكون صحيحا . ومع ذلك ، » (هكذا حدثني الصوت الخفي الذي يخاطبنا في افئدتنا) « فانت أيضا غير جميلة ، ومن يدري فلعل مستر روتشيستر يستلطفك ، وعلى أية حال فقد استشعرت في كثير من الاحيان انه يفعل ذلك فعلا . والليلة البارحة . . تذكرني كلماته : تذكرني نظرتة . . تذكرني صوته ! » وتذكرت ذلك كله في وضوح ، وفي الحال انبعثت لفته ولمحتة وجّره

في ذهني انبعثا يمور بالحياة . وكنت الان في حجرة الدرس ، وكانت أديل ترسم . فأنحيت فوقها ورحت اسدّد خطي قلمها ، فرفعت نظرها الي في ضرب من الاجفال . وقالت بالفرنسية : « ما بالك ، يا آنسة ؟ ان اصابعك ترتعش كالورقة ، وأن خديك أحمران . . ولكنهما أحمران مثل حبات كرز ! »

فقلت : « اني محرورة ، يا أديل ، بسبب انحنائي فوقك ! » فمضت هي في رسمها ومضيت أنا في تفكيري .

وسارعت الى تحرير ذهني من الفكرة البغيضة التي تكونت لدي في ما يتصل بغرايس بول : لقد اثارت تلك الفكرة اشمزازي . وقارنت ما بيني وبينها ، فوجدت اننا مختلفتان . كانت بيسي ليفن قد قالت اني سيدة بكل ما في الكلمة من معنى . ولقد نطقَت بالصدق : كنت سيدة حقا . واني لأبدو الآن خيرا مما كنت حين رأني بيسي بكثير . كنت أشد تورّدا وأكثر بضاضة ، وكنت أحفل بالحياة وبالحياة ، اذ كانت آمالي اعظم اشراقا وكانت مباهجي أبعد عمقا .

وقلت لنفسي ، فيما كنت اتطلع نحو النافذة : « هو ذا المساء يدنو ، ولما أسمع صوت مستر روتشيستر أو وقع قدميه في القصر ، اليوم . ولكنني سوف أراه ، من غير ريب ، قبل أن يهبط الليل : لقد خشيت لقاءه صباحا ، وها أنا أتوق الى ذلك ، لان تطاول الخيبة وتكررها احالا التوقع الى نفاد صبر » .

وحين ران الغسق فعلا ، وحين فارقتني أديل لتذهب وتلعب في حجرة الاطفال مع «صوفي» تلهفت الى ذلك اللقاء أقصى ما يكون التلهف . لقد أرهفت اذني لكي أسمع الجرس يرن في الدور الاسفل ، وأرهفتها لكي اسمع وقع خطي «لييا» مقبلة نحوي ابتغاء دعوتي الى النزول ، وتخيلت ، أحيانا ، اني سمعت وقع خطي مستر روتشيستر نفسه فكنت التفت الى الباب متوقعة ان يفتح مُدخلا اياه علي . ولكن الباب ظل موصدا : ان الظلمة وحدها هي التي دخلت من خلال النافذة . ومع ذلك فان الالوان لم يكن قد فات ، فكثيرا ما أرسل في طلبي في الساعة السابعة او الثامنة ، وكانت الساعة الان لا تعدو السادسة . وليس من ريب في أن آمالي لن تخيب علي نحو كلي في هذه الليلة التي تزخر فيها جعبتي بأشياء كثيرة اريد ان اقولها له ! لقد أردت أيضا ان أثير موضوع غرايس بول ، وأن اسمع الى رأيه فيه . أردت أن أسأله في صراحة أيؤمن حقا بأنها هي التي قامت بمحاولة البارحة الشنيعة ، واذا كان ذلك كذلك فلماذا أبقى خباثتها سرا من الاسرار . ولم أجد كبير بأس في أن يؤدي فضولي هذا الى اثارته ، اذ كنت أعرف متعة اغضابه واسترضائه على التوالي ، وكانت تلك المتعة مصدر ابتهاجي الاعظم ، ولقد كانت تعصمني ، دائما ، من الذهاب في ذلك الى أبعد مما ينبغي غريزة واثقة من نفسها . أنا لم أغامر قط بتخطي حد الاثارة ، وكان يطيب لي كثيرا ان اختبر براعتي عند شفيها الاقصى . والواقع انه كان من دأبي ان اراعي في مثل هذه المواقف ادق مظاهر الاحترام ،

وضروب اللياقات التي يفرضها علي مركزي ، وبذلك استطعت ، في غير ما خوف من كبح قلبي ، أن أقارعه الحجة بالحجة . وكان هذا يلائمه ويلائمني في وقت معا .

وصرت خطي ، علي السلم ، آخر الامر . وبرزت « لييا » ، ولكن لتحتزىء بالقول ان الشاي جاهز في حجرة مسز فيرفاكس . فقصدت الي هناك ، سعيده علي الاقل بالنزول الي الدور الارضي . ذلك بأن هذا كان يجعلني ، في ما خيّل لي ، أقرب الي شخص مستر روتشيستر .

وقالت السيدة الصالحة عندما دخلت عليها : « لا ريب في انك بحاجة ماسة الي تناول الشاي ، فأنت لم تأكلي عند الغداء الا قليلا » . وصمتت لحظة ثم اضافت : « انا أخشى ان تكون وعكة » ما قد ألمت بك : اني اراك محمومة يشيع الدم في وجهك » .

— « اوه ، انا في صحة جيدة ! بل ان صحتي لم تكن في ايما وقت مثلها اليوم » .

— « يتعين عليك اذن ان تثبتي ذلك بالتكشف عن شهوة قوية الي الطعام . فهل لك ان تملاي وعاء الشاي ريثما انجز حبكي ؟ »

حتى اذا انجزته نهضت لتنزل مصراع النافذة الذي كانت قد رفعته من قبل لكي تفيد ، في ما احسب ، اكثر ما تكون الافادة من ضوء النهار ، علي الرغم من ان الفسق كان يغدّ الخطي ، الان . نحو الظلمة الكاملة .

وقالت ناظرة من خلال زجاج النافذة : الجو جميل الليلة ، علي الرغم من ان السماء عاطلة من النجوم . وعلي الجملة فقد واتي الحظ مستر روتشيستر بيوم ملائم لرحلته » .

— « رحلة ! ... هل ذهب مستر روتشيستر الي مكان ما ؟ انا ما كنت اعلم انه قد غادر القصر ؟ »

— « اوه ، لقد انطلق بُعَيْد طعام الصباح مباشرة ! لقد ذهب الي « ليبسي » ، حيث يقوم قصر مستر ايشتون ، علي مبعده عشرة اميال من جانب ميلكوت الاخر . واحسب ان ثمة اجتماعا حاشدا سيلتقي فيه اللورد اينغرام ، والسير جورج لين ، والكولونيل دينت وغيرهم . . . »

— « وهل تتوقعين ان يعود الليلة ؟ »

— « لا . حتى ولا غدا ايضا . والذي اعتقده انه سوف يلبث هناك ، في اغلب الظن ، اسبوعا او اكثر . ذلك بان هؤلاء القوم البارزين المترفين اذا اجتمع شملهم وجدوا انفسهم محاطين بكل ما هو انيق بهيج ، مزودين بكل ما يرضي ويسلّي الي درجة تجعلهم لا يتعجلون تشتت الشمل . وكثيرا ما يلتبس حضور الرجال ، بصفة خاصة ، في هذه المناسبات ، ومستر روتشيستر يتكشف في دنيا المجتمع عن موهبة بارعة وحيوية زاخرة تجعلانه ، في ما اعتقد ، موضع الايثار العام . ان السيدات جد مولعات به ، وان لم يكن في مظهره ما يوحي بأنه مؤهل لانتزاع اعجابهن علي نحو مخصوص . ولكنني

احسب ان ثقافته وكفاءاته ، وربما ثروته وشرف نسبه ، تعوضه عن ايما هنة سيرة في المظهر .

« وهل في لبييس سيدات ؟ »

« هناك مسز ايشتون وبناتها الثلاث ، وهن في الحق فتيات انيقات جدا . وهناك النبيلتان بلانش وماري اينغرام وهما في ما اعتقد على جمال لا يضارع . والواقع اني رأيت بلانش ، منذ ست سنوات او سبع ، يوم كانت فتاة في الثامنة عشرة . لقد وفدت الى هنا لتشهد حفلة راقصة من حفلات عيد الميلاد اقامها مستر روتشيستر . وكنت اتمنى لو رأيت حجرة الطعام ذلك اليوم ، اذن لشهدت مبلغ غنى زخارفها ومدى تآلق اضاؤها ! ويخيل الي ان خمسين سيدة ورجلا اجتمعوا هناك تلك الليلة - وكلهم من كبريات الاسر في الاقليم ، ولقد اعتبرت مسز اينغرام نجم السهرة » .

« تقولين ، يا مسز فيرفاكس ، انك رأيتها . فهل لك ان تصفيها لي ؟ »

« اجل ، لقد رأيتها . كانت ابواب حجرة الطعام مشرعة على مصاريعها . واذا كنا نحتفل بعيد الميلاد فقد اجيز للخدم ان يجتمعوا في الردهة لكي يسمعوا الى بعض السيدات يتغنيين ويعزفن . ورغب الي مستر روتشيستر ان ادخل ، فانتحبت زاوية هادئة وقعدت اراقبهن . انا لم اشهد ، عمري كله ، مشهدا افخم واسنى : كانت السيدات يرفلن بأروع الحلل ، ولقد بدت كثرتهن الكاثرة - او كثرة ذوات الشباب النضر منهن - وسيما بهيئات الطلعة . ولكن مس اينغرام كانت نجم السهرة من غير ريب » .

« ولكنك لم تصفيها لي ؟ »

« كانت فارعة الطول ، جميلة الصدر ، منحدرة المنكبين . وكان لها جيدٌ طويل رشيق ، وبشرة زيتونية سمراء صافية ، واسارير ترشح نبلا ، وعينان اشبه ما تكونان بعيني مستر روتشيستر : فهما واسعتان سوداوان متآلفتان تألق جواهرها . وكان لها شعر فاتن اسود كلون الغراب مسرَّح اليق تسريح وابدعه ، فهو يتدل خلفها تاجا من غدائر اثيثة ، وهو ينسدل امامها خُصلا متجعدة لم ار في حياتي قط اطول منها ولا اشد صقلا . كانت ترفل في حلة بيضاء ناصعة ، وقد ألقت على كتفها وعبر صدرها وشاحا كهرماني اللون ، عُدَّ عند خصرها لتتدلى منه اطراف طويلة مُهندبة الى ما تحت ركبتيها . وكانت تزين شعرها ايضا بزهرة كهرمانية اللون ، فهي تتغاير تغايرا رائعا مع خصل شعرها الفاحمة » .

« ولقد حظيت ، طبعاً ، بأعجاب من القوم عظيم ؟ »

« اجل ، من غير ريب . ولم يكن ذلك بحكم جمالها فحسب ، بل بحكم مواهبها ايضا . كانت احدى السيدات اللواتي انشدن ، ولقد صاحبها على البيان سيدٌ من المدعوين . ولقد شاركها مستر روتشيستر نفسه في اداء احدى الاغنيات الثنائية ايضا » .

« مستر روتشيستر ؟ انا لم اكن اعرف انه يجيد الغناء » .

– « اوه ، ان له صوتا جهوري رائعا ، وذائقة موسيقية ممتازة » .

– « ومس اينغرام ، من اي ضرب من الاصوات صوتها ؟ »

– « انه صوت غني جدا ، قوي جدا . لقد غنت على نحو فائن ، وكان الاصغاء اليها متعة من المتع . ثم انها راحت تعزف على البيان ، بعد ذلك . انا لا احسن الحكم على الاداء الموسيقي ، ولكن مستر روتشيستر يحسن ذلك . ولقد سمعته يقول ان ادائها كان رائعا » .

– « وهذه السيدة الجميلة الرفيعة الثقافة لما تتزوج بعد ؟ »

– « يبدو انها لم تفعل . ويخيل الي انها واختها لا تملكان ثروة كبيرة . فقد جعلت ممتلكات اللورد اينغرام الكبير وقفا على وريث واحد ، هو ولده البكر الذي فاز بالثروة كلها تقريبا » .

– « ولكنني اتساءل ، في كثير من العجب ، لماذا لم يولع بها ايما نبيل ثري ، او ايما سيد ماجد غني . . . . . مستر روتشيستر مثلاً . انه رجل موسر ، اليس كذلك ؟ »

– « اوه ، طبعا ، ولكن ثمة ، كما تريين ، فارقا في العمر كبيرا . ان مستر روتشيستر يكاد يبلغ الاربعين ، في حين انها لا تعدو الخامسة والعشرين » .

– « واي بأس في ذلك ؟ ان زيجات تتفاوت فيها اسنان العروسين تفاوتاً اعظم لتعتقد كل يوم » .

– « هذا صحيح . ومع ذلك ، فانا لا استطيع ان اتخيل ، الا بشق النفس ، ان مستر روتشيستر يمكن ان تراوده فكرة كهذه . ولكنك لم تأكلي شيئا ، ولم يكد فمك يذوق طعم الشطائر ، منذ ان جلست الى مائدة الشاي » .

– « لا ، انا اشد ظمأ من ان ارغب في شيء من طعام . فهل تسمحين لي بكوب آخر ؟ »

وكنت على وشك العودة الى احتمال زواج مستر روتشيستر من بلانش الحسناء ، ولكن أدبل دخلت علينا في تلك اللحظة ، فحوّل الحديث الى وجهة اخرى .

حتى اذا خلوت الى نفسي من جديد راجعت المعلومات التي كانت قد تمت لي ، ونظرت الى قلبي ، فدرست فكراته واحاسيسه ، وحاولت ان الجُم ، بيد صارمة ، ما شرد منها في فيافي الخيال اللامحدودة اللامطروقة ، وارده الى حظيرة العقل السليم الآمنة .

ودعوت نفسي الى محكمة اقمتها بنفسي ، فأدلت الذاكرة بشهادتها متحدة عن الآمال والرغبات والعواطف التي راودتني منذ الليلة البارحة ، وعن الحالة الذهنية العامة التي غلبت منذ اسبوعين اثنين تقريبا . وتقدّم العقل فقص بطريقته الهادئة حكاية بسيطة غير مزوقة تظهر كيف رفضت الواقعي والتهمت المثل الاعلى في سرعة . وعندئذ اصدرت حكمي بما معناه :

– ان سطح الارض لم يعرف قط مخلوقا اعظم حماقة من جين ايير ، وان

ايا من الحمقى ذوي المزاج الشاذ لم يُتخَم نفسه قط بالاكاذيب العذبة اكثر مما اتخمت نفسها ، ولم يتجرع السم وكأنه شراب الالهة اكثر مما تجرعت .

قلت مخاطبة نفسي : « اتزعمين انك انت ، اجل انت ، اثيرة عند مستر روتشيستر ؟ اتحسبين انك قد وُهِيت القدرة على ارضائه ؟ اتوهمين انك ذات اهمية لديه على نحو من الانحاء ؟ أغربي عن وجهي ! ان حماقتك تثير اشمزازي . ولقد استمددت البهجة من امارات ايشار عرّضية - امارات مبهمة يبديها سيد شريف النسب ، رجل واسع الخبرة بالحياة والناس ، لمرووسة من مرؤوسيه ، لفتاة غيرة . كيف جرؤت على هذا ؟ يا لك من مخدوعة بلهاء مسكينة ! ألم تستطع حتى مصلحتك الذاتية ان تجعلك اكثر تعقلا وحكمة ؟ لقد تمثلت في مخيلتك ، هذا الصباح ، مشهد البارحة الموجز ؟ - فاحجبي وجهك واحمري خجلا ! لقد قال كلاما اطرى به عينيك ، اليس كذلك ؟ يا لك من مغرورة عمياء ! افتحي جفونك المغمّشة ، وانظري الى حماقتك الملعونة ! فغير مُجدٍ لاية امرأة ان يطريها سيدها او رئيسها ، الذي لا يستطيع ان ينتوي الزواج منها بأية حال . وانه لجنون من جانب النساء جميعا ان يجنن للعجب الخفي ان يضطرم في جوانحن ، لانه ان لم يقابل بمثله او ظل مجهولا فلا بد ان يفترس الحياة التي تغدوه ، وان اكتشف وحظي باستجابة ما فلا بد ان يقضي ، مثل الوهج الاجمي \* الى مفازات موحلة لا سبيل الى النجاة منها .

« اسمعي ، اذن ، يا جين ابير الى الحكم الصادر في حقك : غدا ضعي المرأة امامك ، وارسمي صورتك بالطباشير في دقة بالغة - من غير ان تلتفتي ايما عيب ، او تحذفي اي سرار قاس من اساريك ، او تخففي اي عوج مكدر - واكتبني تحتها : « رسم مربية ، متنافرة ، فقيرة ، بشعة » .

« وبعد ذلك خذي قطعة من عاج ناعم - ان لديك واحدة مُحضّرة في علبة الرسم - واخرجي لوحة الوانك ، وامزجي انضر الاصباغ واروعها وازهاها ، واختاري ادق ريشة مصنوعة عن وبر الابل ، وارسمي في عناية الخطوط الكبرى لاجمل وجه تستطيعين ان تتخليه ، ثم اصطنعي ارق الوانك واعذب اصباغك ، وفقا لوصف مسز فيرفاكس لبـلانـش اينغرام : تذكرني حليقات الشعر الفاحمة ، والعينين الشرقيتين . ماذا ؟ اتفكرين بان تتخذي من مستر روتشيستر نموذجا ؟! الزمي النظام ! لا تشرقي بالبكاء ! اطرحي العاطفة ! اطرحي الاسف ! انا لن ارتضي غير العقل الراجح والعزيمة الصادقة . تذكرني الاسارير المبهمة ، ولكن المتناغمة ، وتذكرني عنق تمثال اغريقي وصدره . اظهري الذراعين الملفوفتين اللتين تبهران البصر ، واليدين الناعميتين ، ولا تغفلي الخاتم الماسي والسوار الذهبي . وصوري الثوب بدقة وصدق ، والتخريم الاثيري اللطيف ، والاطلس اللامع ، والوشاح الطريف ،

والوردة الذهبية • ثم سمّيت هذه الصورة : « بلانش ، سيدة كاملة نبيلة » .  
 « وكلما اتفق لك في المستقبل ان تتخيلي ان لمستر روتشيستر رأيا  
 حسنا فيك اخرجي هاتين الصورتين واعقدي مقارنة بينهما • قلتي لنفسك :  
 « يستطيع لمستر روتشيستر ، في اغلب الظن ، ان يظفر بحب هذه السيدة  
 النبيلة اذا شاء السعي بسبيله ، فهل من المحتمل ان يضيع ذرة من تفكير جدي »  
 على هذه المرأة العامة المعرّضة للتافهة ؟ »  
 فعددت العزم قائلة : « سوف افعل ! » حتى اذا اتخذت هذا القرار ،  
 اطأنت نفسي فاستسلمت للرقاد •

واوفيت بالوعد • ولم احتج الى غير ساعة او ساعتين لكي انجز رسم  
 صورة لي بالطباشير • وفي اقل من اسبوعين كنت قد اتممت عمل صورة  
 عاجية مصغرة لبلانش اينغرام خيالية • لقد بدت بهية الطلعة حقا ، حتى اذا  
 قارنتها بوجهي المرسوم بالطباشير الفيت الفرق عظيما بقدر ما يحسن  
 بضبط النفس ان يشتهي • وافادتنى هذه المهمة : كانت قد شغلت رأسي  
 ويدي ، وكانت قد اضعفت قوة وثباتنا على الانطباعات الجديدة التي اردت  
 ان امهر بها فؤادي على نحو ليس يُمَحَى •

ولم ينقض طويل وقت حتى امسى في مستطاعي ان اهنيء نفسي على  
 الانضباط السليم الذي اكرهته مشاعري على الخضوع له • وبفضل هذا  
 الانضباط وفقت الى مواجهة الاحداث التالية في هدوء غير يسير ، وهي احداث  
 كان خليقا بي ، لو انها فاجأتني على غير استعداد لها ، ان اعجز عن احتمالها  
 ولو ظاهريا •

## ١٧

وتصرّمت سبعة ايام ولم يصلنا اي نبا عن لمستر روتشيستر • وامست  
 الايام السبعة اياما عشرة ولما يَعدُّ الى ثورنفلد • وقالت مسز فيرفاكس انها  
 لن تدهش اذا ما شخص من « ليميس » الى لندن مباشرة ، ومن ثم الى اوروبه  
 القارية ، واذا لم يعد الى ثورنفلد الا بعد انقضاء عام كامل ، فكثيرا ما كان  
 يتفق له ان يغادر القصر على هذا النحو المفاجيء غير المتوقع • حتى اذا سمعت  
 هذا الكلام شرعت استشعر رعدة غريبة واحس بأن قلبي قد غار • كنت في  
 الواقع اجيز لنفسني ان تنجرع مرارة شعور بالخيبة يثير فيها تقززا  
 واشمئزاز • ولكنني سرعان ما حشدت حواسي المشتتة ، واستحضرت  
 مبادئ ، وبذلك سيطرت على مشاعري • ولقد كانت رائعة حقا تلك الغلبة  
 التي تمّت لي على الخطأ الفاضح الذي اوهمني ان تنقلات لمستر روتشيستر  
 مسألة من حقي ان اوليها اهتماما حيويا • وليس معنى ذلك اني جرحت  
 كبريائي الذاتية من طريق الشعور بالدونية التي تساور نفوس الارقاء  
 والعبيد • لا ، لقد اجتزأت - على عكس ذلك - بالقول :

- « ليس لك اي شأن بسيد ثورنفلد يعدو تلقّيك الراتب الذي يقدمه



أليك مقابل تعليم البنت التي كفلهما ، ويعود شكره على اية معاملة كريمة محترمة قد يكون من حقه ان تتوقعها منه اذا ما اديت واجبك اداء حسنا .  
وثقي ان هذه هي الرابطة الوحيدة التي يعترف هو جدًّا بانها تشده اليك .  
وهكذا يتعين عليك ان لا تجعله موضوع مشاعرك الرقيقة . وموضوع افراحك واتراحك وما اليها . انه من طبقة غير طبقتك . فالزمني حدود طائفتك الاجتماعية . وليكن لديك من احترام الذات ما يعصمك من اغداق الحب الذي يغذوه القلب كله والروح كلها والقوة كلها على امرئ ليس يرغب في مثل هذه الهبة ، ولا يقابلها بشيء غير الاحترار » .

وواصلت اداء مهمتي اليومية في سكينه وهدهد ، ولكن فكريات مبهمة ظلت تراودني بين فينة واخرى وتوحي الي بضروب من الاسباب التي تبرر مفادرتي قصر ثورنفيلد . وعلى نحو غير ارادي ، رحت اتخيل اشكالا من الاعلانات ، واستغرق في تخمينات متفاوتة حول وظائف جديدة قد تستند لي في المستقبل . ولم ارَ ان واجبي يقتضي كبح هذه الفكريات . فقد تفرح وتنمو ، وقد يكون في ميسورها ان تؤتي اكثها .

وكان قد انقضى على غياب مستر روتشيستر اكثر من اسبوعين عندما حمل البريد رسالة الى مسز فيرفاكس .

وقالت لي وهي تنظر الى العنوان : « انها من سيدنا . يخيل الي اننا سوف نعرف الآن ما اذا كان لنا ان نتوقع عودته ام لا » .

وفيما كانت تفض الختم وتقرأ الرسالة في روية واهتمام مضيت في احتساء قهوتي ( فقد كنا نتناول طعام الصباح ) . كانت حارة ، ولقد عزوت الى هذه الواقعة توهجا ناريا شاع في وجهي على نحو مفاجئ . اما ارتعاش يدي ، واهراقي على نحو غير ارادي نصف محتويات فنجانني في صحنه الصغير فكانا شيئين لم احاول ان ابحث لهما عن تفسير .

وقالت مسز فيرفاكس وهي لا تزال ممسكة بالرسالة امام نظارتها : « حسنا ، يتراءى لي في بعض الاحيان ان الهدوء يكتنف حياتنا اكثر مما ينبغي ، ولكنني احسب اننا سوف نجد انفسنا الان في شغل شاغل ، طوال فترة قصيرة على الاقل » .

وقبل ان اجيز لنفسي ان اسألها ايضا عقدت رباط مئزر آديل الذي كان محلولا آنذاك . حتى اذا قدمت اليها كعكة اخرى ، وملات كوبها بالحليب كرة ثانية ، قلت في فتور : « ليس من المحتمل ان يعود مستر روتشيستر عما قريب ، في ما احسب ؟ »

— « بل سيعود . . . سيعود بعد ثلاثة ايام ، كما يقول . يعني يوم الخميس القادم . ولن يكون وحده ايضا . انا لا ادري عدد نبلاء « ليبس » الذين سيفقدون معه . انه يصدر اوامره باعداد حجرات النوم الفضلى جميعا ، وترتيب حجرة المكتبة وحجرات الاستقبال . ويطلب الي ان استعين بخدم اضافيين من « فندق جورج » في ميلكوت ومن اياما مكان آخر قد اجدتهم فيه .

ولسوف تصطبّحُ السيدات خادماتهن ، ويصطحب الرجال خدمهم ، وهكذا لن يبقى في القصر مقعد شاغر ، •

قالت مسز فيرفاكس ذلك وازدردت فطور الصباح ازدردا وغادرت الحجرة مسرعة لتشرع في القيام بهذه العمليات •

كانت الايام الثلاثة ، كما تنبأت مسز فيرفاكس ، غاصة بضروب الاعمال • وكنت قد حسبت ان حجرات ثورنفيلد كلها نظيفة حسنة الترتيب ، ولكن يظهر اني كنت مخطئة • فقد استعانت مسز فيرفاكس بثلاث نسوة اضافيات وعندئذ بدأت عملية فركٍ ومسح ، ونفض للغبار ، وغسل للاجزاء المدهونة من الحجرات ، وطرّق للسجاد ، ونزع للوحات الفنية ثم تعليقها من جديد ، وصقل للمرايا والثريات ، واضرام للنار في حجرات النوم ، وتهوية لاغطية الشرر ولحشايا الريش على مقربة من المواقد ، لم اشهد لها نظيرا لا من قبل ولا من بعد • وجئت اديل فرحا ، وسط ذلك كله ، فكان الاستعداد لاستقبال الضيف ووشك وصولهم قد هاجا في ذات نفسها نشوة روحية • كانت تطلب الى « صوفي » ان تخلص « زينتها » toilettes كلها ، كما كانت تدعو فساتينها ، وان تجدد نظرة العتيق منها ، وتهوي وترتب الجديد • اما هي فلم تأت اي عمل غير الوثب في الحجرات الامامية ، والقفز الى الاسرة وعنّها ، والاضطجاع على الحشايا وعلى المخدات والوسائد المركومة امام النيران الضخمة التي كانت تنز في المواقد • لقد احلّت من واجباتها المدرسية ، بعد ان طلبت اليّ مسز فيرفاكس ، في الحاح كثير ، ان اضع نفسي بتصرفها ، فكنت انفق ساعات النهار كلها في مخزن المؤن اساعدها واساعد الطاهية ( او اعوقهما ) ، متعلمة كيف اصنع ضروب القسندر \* وفطائر الجبن والمعجنات الفرنسية ، واكتف الطيور قبل شيها ، واخرق اطباق الحلوى وما اليها •

وكان وصول القوم متوقعا اصيل يوم الخميس في موعد العشاء ، اي في الساعة السادسة • وخلال الفترة التي فصلت ما بين وصول الرسالة ووصولهم لم اجد متسعا من الوقت للاستغراق في الاوهام والآمال الباطلة ، واحسب اني لم اكن اقل نشاطا وابتهاجا من ايما امرئ آخر - ما خلا اديل • ومع ذلك فقد كان مَرَحِي يكبح بين الفينة والفينة كبعا يضعف من زخمه ، فاجد نفسي ، على الرغم مني ، وقد رددت الى دنيا الشكوك والنذر والظنون القاتمة • وانما الم بّي ذلك عندما اتفق لي ان رأيت باب السلم المؤدي الى الدور الثالث ( الذي كان موصدا ، في الفترة الاخيرة على نحو موصول ) يفتتح في تودة ويبرز منه شخص غرايس بول بقبعتها الصغيرة البالغة النظافة ، ومزرها الابيض ، ومنديلها ، وعندما رأيتها تنساب في الرواق في خطى هادئة خنقت المشاية القماشية وقها ، وعندما رأيتها تلقي نظرة على حجرات النوم الضاجة المقلوبة رأسا على عقب لكي تقول لاحدى الخادماات العاملات باجر يومي كلمة

عن الطريقة الصحيحة في صقل موقد من المواقد ، او تنظيف رف مدفأة رخامي ، او ازالة البقع عن الجدران المغطاة بالورق المصور ، لتحضبي بعد ذلك في سبيلها . كانت تهبط الى المطبخ مرة كل يوم ، وتتناول طعام عشائها ، وتدخن « بية » صغيرة على مقربة من المستوقد ، وتنقلب بعد ذلك ، حاملة كأس جعتها الدون ، الى حجرتها العلوية المظلمة حيث تنعم بالعزاء والسلوان . وكانت تقضي ساعة واحدة من ساعات اليوم الاربع والعشرين مع زميلاتها ، في الدور الارضي ، اما سائر وقتها فكانت تنفقه في حجرة سندبانية خفيفة السقف في الدور الثالث : هناك كانت تجلس وتخط – ولعلها كانت تضحك بينها وبين نفسها ضحكاتها الكثيرة الرهيبة – متوحدة كالسجين في زنزانتها .

وكان اعجب ما في الامر كله ان ايما امرىء سواي من اهل القصر لم يلاحظ عاداتها ولم يبدُ وكان هذه العادات كانت تثير دهشه . ان احدا منهم لم يتساءل عن مركزها او وظيفتها ، وان احدا لم يرث لتوحدتها وعزلتها . وقد اتفق لي ذات مرة ان سمعت على غير قصد مني طرَفاً من حوار دار بين « لييا » واحدى الخادومات العاملات بأجر يومي ، حوار كانت غرايس هي موضوعه . كانت « لييا » تقول شيئاً لم اوفق الى سماعه ، فعلمت الخادمة قائلة :

– « انها تنال راتباً حسناً ، في ما احسب ؟ »

فقالت « لييا » : « اجل ، واني لاتمنى لو كان لي مثل راتبها . وليس يعني هذا ان راتبي ضئيل واني اشكو من هذه الضالة . لا ، فليس في ثورنفيلد شبح البتة . ولكنه لا يبلغ خمس المبلغ الذي تناله مسز بول . وهي تدخر منه جزءاً كبيراً . انها تذهب كل ثلاثة اشهر الى المصرف ، في ميلكوت . ولن اعجب اذا ما علمت انها ادخرت من المال مقداراً يمكنها من اعالة نفسها اذا ما آثرت التخلي عن وظيفتها . ولكنني اعتقد انها الفت هذا العمل ، والى هذا فهي لما تبلغ الاربعين ، وهي قوية البنية قادرة على كل شيء . فلم يثن لها بعد ان تخلص الى الراحة وتطرح الوظيفة » .

فقالت الخادمة العاملة بأجر يومي : « يخيل الي انها تؤدي عملها في براعة » .

فقالت « لييا » بلهجة ذات مغزى : آه ، انها تفهم ما يتعين عليها ان تعمله . . . وتؤدي هذا العمل على نحو لا يضارع . ان احدا لا يستطيع ان يسد مسدها ، ولو تقاضى كامل الاجر الذي تفوز به . »

فكان الجواب : « آه ، من غير ريب . واني لاتساءل ما اذا كان رب القصر . . . »

كانت الخادمة اليومية ماضية في حديثها ، ولكن « لييا » التفتت في تلك اللحظة فلمحتني . فما كان منها الا ان نكرت رفيقتها بمرقها داعية اياها الى الحذر .

وهنا سمعت المرأة تهمس : « اتجهل ذلك ؟ »

فهزت « ليليا » رأسها ، وقطّعت الحديد طبعاً . وكانت حصيلتي منه لا تعدو ما يلي : ان في ثورنغفيلد سرا غامضاً ، واني اقصيت ، على نحو متعمد ، عن النفاذ الى حقيقته .

واخيراً وافى يوم الخميس . كان العمل كله قد انجز في الليلة السابقة : لقد فرشت البساط ، ووشّحت سُجف الشُّرر بضروب الزخارف ، ومدت الحفة بيضاء تبهر البصر ، ونسّقت موائد الزينة ، وصنّقل الرياش ، وملئت الزهريات بالرياحين ، وبدت الحجرات والابهاء ناضرة مشرقة الى اقصى حد تستطيع الايدي البشرية ان تبده . وبولغ في تنظيف الردهة ايضاً ، وصنّقلت ساعة الحائط الضخمة المزدانة بالنقوش ، ودرجات السلم ودراجزونه ، صنّقا جعلها في مثل لمعان المراسيا . وفي حجرة الطعام كان « البوفيه » يومض متألقاً بأدوات المائدة الفضية والذهبية ، وفي المقصورة وقاعة الاستقبال اشرفت في كل ناحية كؤوس حافلة بضروب الزهور الدخيلة .

واقبل الاصيل ، فارتدت مسز فيرفاكس خير اثوابها ، وكان مخيطاً من اطلس اسود ، وقفازها ، وساعتها ، فقد كانت هي المكلفة باستقبال الضيف الوافدين ، وبمرافقة السيدات الى حجراتهن ، الخ . وادارت آدبل ايضاً ان تأخذ زينتها ، مع اني اعتقدت بان امكانية دعوتها للاجتماع بالضيوف كانت ضئيلة في ذلك اليوم على الاقل . وأياً ما كان ، فلكي ادخل السرور على قلبها اجزت - « صوفي » ان تلبسها احد فساتينها القصيرة المصنوعة من موصلين . اما انا فلم اكن في حاجة الى اجراء اي تغيير في زينتي ، ذلك باني لن ادعى الى مفادرة حجرة الدرس او على الاصح مفادرة « مقدسي » - لان تلك الغرفة كانت قد اصبحت بمثابة المقدس بالنسبة الي - « ملاذ بهيج الى ابعد الحدود في زمن الشدة » .

كان يوماً ربيعياً معتدلاً رائعاً ، وكان واحداً من الايام التي تشرق على الارض - في اواخر آذار ( مارس ) واولئ نيسان ( ابريل ) - لتبشر بوشك قدوم الصيف . وجنحت الشمس الى الغروب ، ولكن المساء نفسه كان حاراً ، فرحت اعمل في حجرة الدرس بعد ان تركت النافذة مفتوحة .

وسرعان ما دخلت علي مسز فيرفاكس ، وقد احدث ثوبها الحريري حفيفاً ، وقالت : « لقد تأخروا . ومن دواعي سروري اني اصدرت الامر بان يكون العشاء مُعداً بعد ساعة كاملة من الميقات الذي عينه مستر روتشيستر ، لان الساعة تجاوزت السادسة الآن . ولقد طلبت الى جون ان يهبط الى بوابة القصر الخارجية ليرى هل في الطريق احد . ان في استطاعة المرء ان يرى من هناك الى مسافة بعيدة في اتجاه ميلكوت . » وهنا مضت الى النافذة وقالت : « حسناً ، جون » ( واطلّت منها ) « ما وراءك ؟ »

فكان الجواب : « انهم قادمون يا سيدتي . وسوف يصلون بعد عشر دقائق » .

وطارت أدبل الى النافذة • وتبعته في كثير من الحذر ، محاولة ان  
ابقي محجوبة خلف الستارة ، بحيث ارى من غير ان ارى •

وبدت دقائق جون العشر طويلة جدا • ولكننا سمعنا آخر الامر دوران  
عجلات : لقد انطلق في طريق العربات فرسان اربعة ، وعلى اثرهم اقبلت  
عربان مكشوفتان • كانت الخمر المرفرفة والريش المتموج تملأ العربتين ،  
وكان اثنان من الفرسان سيدين ماجدين في ميعة الصبا تبدو على وجهيهما  
امارات الجراءة والاقدام ، وكان الثالث هو مستر روتشيستر ممطيا صهوة  
جواده الاسود « مسرور » ، وكان كلبه « بايلوت » يتواثب امامه • والى جانب  
مستر روتشيستر كانت سيدة على جواد ، وكان هو وهي في طليعة الركب •  
كان ثوبها الركوبي الارجواني يكاد يمس الارض ، وكان خمارها الطويل  
يتماوج مع النسيم •• وكانت تمتزج بشايا هذا الخمار الشفافة ، وتلتصق من  
خلالها ، حليقات شعر فاحمة •

وهتفت مسز فيرفاكس « مس اينغرام ! » ثم هرعت الى الدور الاسفل  
لتقف موقف الاستقبال والترحيب •

واستدار الركب ، متبعا انحراف الطريق ، عند زاوية القصر ، ليغيب  
بعد ذلك عن ناظري • والتمست أدبل مني ان احيى لها الهبوط الى الدور  
الارضى ، ولكني اجلستها على ركبتى ، وافهمتها ان تنزع عن ذهنها كل فكرة  
قد تغريها بالظهور على مرأى من السيدات ، الان او في ايما وقت آخر ، الا اذا  
طلب اليها ذلك على نحو لا لبس فيه ، وان كل مخالفة لهذه التوصية خليق  
بها ان تغضب مستر روتشيستر اغضابا شديدا ، الخ • وسفحت أدبل بعض  
العبرات العفوية لدن قلت لها ذلك ، حتى اذا بدت على محياي امارات الجسد  
البالغ وافقت آخر الامر على كففتها •

وضجت الان في الردهة ، جلبة بهيجة مسموعة • لقد تمازجت اصوات  
الرجال الخفيضة بنبرات السيدات الفضية تمازجا متناغما ، وقد تميز من بينها  
كلها ، وان لم يكن مرتفعا ، صوت سيد ثورنفيلد الجمهوري وهو يرحب تحت  
سقف داره بضيفه من نسوة حسان ورجال اولي شهامة واقدام • ثم ان خطي  
خفيفة صعدت السلم ، وتردد في الرواق وقع اقدام رشيقة ، وضحكات رقيقة  
مرحة ، واصدااء ابواب تفتح وتغلق • وبعد ذلك ساد الصمت فترة قصيرة •

وقالت أدبل بالفرنسية ، وهي التي كانت تصيح الى ذلك في انتباه بالغ  
وتتابع كل حركة : « انهن يفيرن ثيابهن » واطلقت زفرة •

ثم انها اضافت : « كان من دأبي - كلما فسد على ماما في بيتها بعض  
الضيوف - ان اتبعهم حيثما كانوا ، الى الصالون والى حجراتهم ، وكثيرا ما  
كنت ارى الوصائف يسرحن شعر السيدات ويلبسنهن فساتينهن • ولقد كان  
ذلك مسليا جدا ، ومفيدا جدا » •

- « الا تشعرين بالجوع ، يا أدبل ؟ »

« اجل ، ايتها الأنسة • فقد انقضت خمس ساعات او ست لم نطعم

خلالها شيئا . »

« حسنا ، اذن . سوف احاول ، ما دامت السيدات في حجراتهن ان اهبط الى الدور الارضي وآتيك بشيء تأكليته . »

قلت ذلك وغادرت مَقْزَعِي في حذر ، واتجهت نحو سلم خلفي يفضي الى المطبخ مباشرة . كان كل ما في تلك البقعة نارا وهرجا ومرجا . كان اعداد الحساء والسّمك على وشك الاكتمال ، وكانت الطاهية منحنية فوق قدورها في وضع ذهني وجسدي ينذر بانفجار تلقائي . وفي حجرة الخدم وقف حوذيّان وثلاثة مرافقين حول النار او قعدوا على مقربة منها . اما « الاماء » فكن ، على ما خيل الي ، في الطابق الاعلى مع سيداتهن . واما الخدم الجدد الذين استؤجروا من ميلكوت فكانوا يروحون ويجيئون ، بهمة وصخب ، في كل مكان . ورحت اشق طريقي وسط هذا العناء ، فانتهيت آخر الامر الى خزانة حفظ المأكولات . وهناك اخذت دجاجة باردة ، ورغيفا ، وبعض الاقراص المعجّنة ، وصحنا او صحنين ، وشوكة وسكينا ، ثم انسحبت على عجل حاملة هذه الغنيمة . وكنت قد وصلت الى الرواق وهممت بان اوصد الباب الخلفي ورائي عندما انذرتني هممة متسارعة بان السيدات يوشكن ان يغادرن حجراتهن . ولم يكن في ميسوري ان اتابع سبيلي الى حجرة الدرس من غير ان اجتاز ببعض ابوابهن ، ومن غير ان اعرض نفسي للافتضاح بجرم الاستيلاء على حمولتي من الاطعمة . وهكذا وقفت من غير حراك في اقصى الرواق الذي كان مظلمًا لخلوه من النوافذ ، والذي زاده الآن ظلمة غياب الشمس وهبوط الليل .

وسرعان ما غادرت النزيلات الحسان حجراتهن ، واحدة اثر واحدة ، لقد خرجت كل منهن في ابتهاج ومرح ، رافلة بثوب ملتصق في الغسق . ولقد وقفن لحظة ، مجتمعات عند الطرف الآخر من الرواق ، ورحن يتحدثن في جرس ناضج بحيوية عذبة مكبوحه . ثم انهن هبطن درجات السلم غير محدثات ، او يكدن ، اي صوت ، كما يهبط الضباب المشرق هضبة من الهضاب . والواقع ان ظهورهن الجماعي كان قد خلّف في نفسي انطباعا من الاناقة الكريمة المحتد لم اعرف نظيرا لها من قبل قط .

والفَيت أدّيل تختلس النظر من خلال باب حجرة الدرس بعد ان فتحتة على نحو جزئي . وصاحت بالانكليزية : « ما اجملهن من سيدات ! اوه ، لشد ما اتمنى لو استطيع الالتحاق بهن ! اعتقدين ان مستر روتشيستر سوف يرسل في طلبنا ، عما قريب ، بعد طعام العشاء ؟ »

« لا ، لست اظن ذلك في الواقع . ان لدى مستر روتشيستر اشياء اخرى يتعين عليه التفكير فيها . لا تشغلي بالك بالسيدات ، الليلة . لعلك تريهن غدا . هو ذا عشاؤك . »

كانت جائئة حقا . وهكذا ساعدت الدجاجة والاقراص المعجّنة على صرف انتباهها عن هذه المسألة ، فترة من الزمن . وحسنا فعلت باتياني بهذا

« العلف » ، والا لكان من الجائز ان تحرم هي ، واحرم انا و « صوفي » - التي قدمت اليها بعض طعامنا - من العشاء ، اذ كان كل من الدور الاسفل في شغل شاغل يحول بينه وبين التفكير فينا . ولم يؤت بضروب الحلوى والفاكهة الا بعد الساعة التاسعة ، وفي العاشرة كان النُدُل لا يزالون يروحون ويجيئون حاملين الصينيات وفناجين القهوة . واجزت لآديل ان تسهر تلك الليلة الى ما بعد ميقات نومها المألوف ، ذلك بانها اعلنتني ان من المتعذر عليها ان تستسلم للرقاد ما بقيت الابواب تفتح وتغلق في الدور الاسفل ، وما دام القوم يهرولون في جلبة ونشاط . ثم اضافت قائلة : « والى هذا فقد يرسل مستر روتشيستر في طلبها بعد ان تكون قد خلعت ثيابها ، ويا لها عندئذ من خسارة عظيمة ! »

وحكيت لها القصص ما وسعها الاستماع اليها ، ثم انتقلت بها الى جو آخر فاصطحبتها الى الرواق . كان مصباح الردهة مضاء الان ، ولقد سلاها ان تطل من وراء الدرابزون وتراقب الخدم يروحون ويجيئون . حتى اذا اوغل الليل في التقدم انبعثت من حجرة الاستقبال نغمات موسيقية ، وكانت البيانو قد نقلت الى هناك . وقعدت انا وآديل على الدرجة العليا من السلم ابتغاء الاصغاء . وسرعان ما تساق مع نغمات البيانو الغنية صوت سيدة تتغنّى ، ولقد كان تعريدها بالغ العذوبة حقا . حتى اذا انتهى الغناء المنفرد ، انطلق في اعقابه غناء ثنائي ، ثم غناء اشتركت في ادائه اصوات ثلاثة او اكثر . وكانت بعض الاحاديث المرحّة تملأ الفترات الفاصلة . واصفيت فاطلت الاصغاء ، وفجأة اكتشفت ان اذني كانت عاكفة على تحليل الاصوات المتمازجة ، وانها كانت تحاول ان تميز من خلال خليطها نبرات مستر روتشيستر . حتى اذا ادركتها ، وسرعان ما فعلت ، واجهت مهمة جديدة هي اعادة صوغ الكلمات التي كان بُعد الشقة قد جعلها ابعد ما تكون عن الوضوح .

ودقت الساعة الحادية عشرة . والتفت الى آديل التي كان رأسها مستندا الى كنفني . كان النعاس قد اخذ بمعاقد اجفانها ، فحملتها بين ذراعي ومضيت بها الى فراشها . وكانت الساعة قد بلغت الواحدة عندما أوى السادة والسيدات الى حجراتهم .

وكان اليوم التالي جميلا كسابقه . ولقد كرسته الجماعة لرحلة الى موقع بعينه في الجوار . وانما انطلقوا في صدر النهار ، بعضهم على صهوات الجياد وبعضهم على متون العربات . ولقد شهدت ذهابهم وايابهم على حد سواء . كانت مس انغرام ، كشأنها من قبل ، هي الفارسة الوحيدة بين السيدات ، وكان مستر روتشيستر يندفع على صهوة جواده الي جانبها كشأنه في المرة السالفة . لقد تقدمت الجماعة بعض الشيء . ولفت نظر مسز فيرفاكس ، التي كانت واقفة معي عند النافذة ، الى هذه الواقعة فقلت :

- « لقد قلت ان من غير المحتمل ان يفكروا في الزواج . وهما انت ترين رأي العين انه يؤثرما على سائر السيدات . »

— « اجل ، يخيل الي من غير ريب انه معجب بها . »

فأضفت انا : « وانها معجبة به . انظري كيف تميل برأسها نحوه وكأنها تُسَرُّ في اذنه حديثا . ليتني استطيع ان ارى وجهها ، فأنسا لم المحه حتى الآن مجرد لمح . »

فأجابتني مسز فيرفاكس : « سوف ترينها هذا المساء . فقد اتفق لي ان تحدثتُ مستر روتشيستر عن رغبة آديسل العارمة في الاجتماع الي السيدات فقال : « أوه ! دعيها تفد اليوم ، بعد العشاء ، الي حجرة الاستقبال . واسألي مس أير ان ترافقها . »

فأجبت : « اجل ، لقد قال ذلك بدافع من اللياقة ليس غير . ولست اجد داعيا للذهاب البتة . »

— « حسنا ، لقد قلتُ له انك غير متعودة الاختلاط بالناس ، وانني لا احسب انك ترغبين في الاجتماع الي مثل هذه الجماعة الموغلة في المرح والمؤلفة كلها من اناس غرباء . فأجابني بطريقته الحاسمة : « هراء ! قلولي لها ، اذا اعترضت ، ان هذه هي رغبتني الخاصة . فاذا اصرت علي الاعتراض فقلولي اني سوف اجيء بنفسي وأسوقها ، في حال تمردها ، سوقا . »

فأجبت قائلة : « لن اكلفه هذا العناء . سوف اذهب ، ان لم يكن من الذهاب بد . ولكنني لست مرتاحة الي ذلك . هل ستكونين انت هناك ، يا مسز فيرفاكس ؟ »

— « لا ، لقد التمتست منه ان يعفيني من ذلك ، ولقد اقر التماسي . وعلى اية حال ، فسوف اعلمك كيف تتجنبين الارتباك الذي يستشعره المرء حين يدخل على قوم غرباء في مناسبة رسمية ، وهو الجانب الابغض الي النفس في المسألة كلها . ان عليك ان تدخلني حجرة الاستقبال وهي خالية ، اي قبل ان تغادر السيدات مائدة العشاء ، وتختاري لنفسك مقعدا في ايما زاوية هادئة تروق لك . ولست في حاجة الي ان تلبثي طويلا بعد توافد الرجال على الحجرة ، الا اذا أنسستُ نفسك الي ذلك . كل ما يتعين عليك فعله هو ان تُشعري مستر روتشيستر انك موجودة هناك . حتى اذا تم لك ذلك كان في امكانك ان تتسللي عائدة الي حجرتك . ان احدا لن يراك . »

— « وهل تعتقدين ان هؤلاء القوم سوف يطيلون الإقامة هنا ؟ »

— « ربما اقاموا اسبوعين او ثلاثة . ولكنهم لن يقيموا مدة اطول ، من غير ريب . فبعد عطلة الفصح سيتعين على السير جورج لين ، الذي اختير في الفترة الاخيرة ممثلا لميلكوت ، ان يشخص الي المدينة ويحتل مقعده . واستطيع القول ان مستر روتشيستر سوف يرافقه . والواقع ان مقامه المتطاوّل حتى الان في ثورنفيلد يثير دهشتي . »

وفي شيء من الارتعاد ترقّبتُ حلول الساعة التي تعين علي فيها ان



اشخص مع تلميذتي الى حجرة الاستقبال . كانت آديل في حال من الجذل العارم استبدت بها طوال النهار بعد ان سمعت انها سوف تقدم عند المساء الى السيدات ، ولم تصح الا عندما شرعت « صوفي » في لباسها ثيابها . لقد هدأت خطورة هذه العملية من احتياجهما الجذلان . حتى اذا سرحت شعرها عناقيد ملساء منسدلة ، والبست فستانها المخيط من اطلس أزهر ، وعقد وشاحها الطويل وعُدل وضع قفاها المخرم الذي لا اصابع له بدت رصينة مهيبة مثل اي قاض من القضاة . ولم تكن ثمة حاجة الى ايصائها بالمحافظة على حسن هندامها ، اذ ما كادت تستكمل اتخاذ زينتها حتى جلست في كرسيها الصغير بكثير من الرزانة ، رافعة تنورتها الحريري لكي لا تتفضن ، وأكدت لي انها لن تتحرك من معدها ذاك حتى افرغ من ارتداء ملابسها . ولقد انجزت ذلك في سرعة ، مرتدية افضل فستان عندي ، وهو الفستان ذو اللون الفضي الرمادي الذي اشتري لمناسبة زفاف مس تامبل ، والذي لم يلبس منذ ذلك الحين قط . ثم اني سرحت شعري على عجل ، وتزينت بحليتي الوحيدة ، وهي الدبوس الماسي المرصع بالؤلؤ . وبعد ذلك هبطنا السلم الى الدور الارضي .

ومن حسن الطالع انه كان لحجرة الاستقبال مدخل آخر لا يحتاج معه المرء الى المرور بحجرة الطعام حيث كان القوم كلهم جالسين الى المائدة . لقد الفينا القاعة خالية ، ووجدنا نارا ضخمة تضطرم في صمت في المستوقد الرخامي ، وشموعا كثيرة تتألق في عزلة مشرقة ، وسط الرياحين الفاتنة التي زينت بها الموائد . وتدلّت الستارة القرمزية امام القنطرة . وعلى الرغم من ان هذه الستارة لم تفصل القوم عن حجرة الاستقبال الا فصلا رقيقا فقد كان الجرس الذي تحدثوا به خفيضا الى درجة جعلتنا لا ننبين من كلامهم غير غمغة مخدرة .

وكانت آديل لا تزال في ما يبدو خاضعة لسلطان انطباعة ليس اشد منها تهيّبا ، ولقد جلست ، من غير ان تنطق بكلمة ، على متكأ القدام الذي دللتها عليه . اما انا فاعتزلت في مقعد قرب النافذة ، وتناولت كتابا عن مائدة مجاورة ، وحاولت ان اقرأ . ثم ان آديل حملت كرسيها الخفيض واقبلت لتجلس عند قدمي . ولم تنقض غير فترة يسيرة حتى لمست ركبتني ، فسألته : « ما بك يا آديل ؟ »

ناجبتني بالفرنسية : « أليس في استطاعتي ان آخذ زهرة واحدة فحسب من هذه الزهور الرائعة ، ايتها الأنسة ؟ لا شيء ، الا لأكمل بها زينتي . »

فقلت : « انت تفكرين بزينتك اكثر مما ينبغي يا آديل ، ومع ذلك ففي ميسورك ان تأخذي زهرة . »

واخرجت واحدة من احدى الزهريات ، وثبتتها في وشاحها . فأطلقت

تنهضة تنم عن ارتياح ممتنع على الوصف ، فكان كأس سعادتها امست الان متربة . واشحت بوجهي عنها لكي اخفي ابتسامة لم اوفق الى كبجها . فقد كان في حرص هذه الباريسية الصغيرة الصادق الفطري على اسباب الزينة شيء مضحك ومؤلم في آن معا .

وتناهي الينا الآن صوت رقيق كذلك الذي يسمع عند نهوض الناس عن مائدة الطعام . وردت الستارة عن القنطرة ، فبدت لناظري حجرة الطعام وقد سكبت ثرياتها المضاءة نورا على مجموعة بدية من اطباق الفاكهة والحلوى الفضية والبلورية كانت تغطي مائدة طويلة بكاملها . وتحت القنطرة مباشرة وقف سرب من السيدات ، حتى اذا دخلن الى حجرة الاستقبال انسدت الستارة خلفهن .

كن ثمانى سيدات ليس غير . ومع ذلك فقد اوقعن في نفسي ، عندما تدفخن على حجرة الاستقبال ، انطباعة تؤذن بان عددهن اكبر بكثير . كان بعضهن فارعات الطول ، وكان كثير منهن يرفلن في ثياب بيضاء ، وكن جميعا مرتديات ملابس فضفاضة بدت وكأنها تضخم اجسامهن كما يضخم الغمام القمر . ونهضت من مقعدي وانحنيت تحية لهن . فحنت واحدة او اثنتان منهن رأسيهما ردا على تحيتي ، اما سائرهن فاجترأن بالتحديق الي .

ثم انهن انتثرن في الحجرة فذكرني بخفة حركاتهن ورشاقتها بسرب من الطيور البيضاء الوافرة الريش . وانطرح بعضهن في اوضاع نصف مضطجعة على الارائك والتمكآت ، وانحنى بعضهن على الموائد واخذن يتأملن الرياحين ويتصفحن الكتب ، في حين تحلق سائرهن حول النار . لقد تحدثن كلهن في جرس خفيض ولكنه واضح ، جرس بدا لي انه مألوف لديهن . ولقد عرفت اسماءهن في ما بعد ، ففي استطاعتي ان اذكرها منذ الان .

كان ثمة اولا ، مسز ايشتون وابنتها . وكان واضحا ان هذه السيدة تمتعت في صباها بقسط من الجمال لا تزال محتفظة به حتى اليوم . اما ابنتها الكبرى ، آيمي ، فكانت ضئيلة الجسم بعض الشيء ، ساذجة ، جذابة ، تغلب على وجهها وتصرفاتها سمات الطفولة ، وكان ثوبها الموصليني الابيض ووشاحها الازرق لائقين بها الى حد غير يسير . اما الثانية ، لويزا ، فكانت اطول من اختها قامة واكثر اناقة ، وكانت ذات وجه بهي جدا من ذلك الضرب الذي يدعوه الفرنسيون « ظريف محزون » . وكانت كلتا الاختين بيضاء البشرة كالزنبقة .

وكانت اللايدي لين سيدة ضخمة قوية في نحو الاربعين ، ذات قامة منتصبة الى حد بالغ ، وشموخ مغالى فيه ، وكانت ترتدي ثوبا غنيا مخيطا من اطلس ذي بريق متموج متحول ، وكان شعرها الاسود يشع على نحو صقيل في ظل ريشة لازوردية ، وضمن نطاق طوق من الجواهر .

اما مسز دينت ، زوجة الكولونيل دينت ، فكانت اقل بهاء ولفتا للنظر ، ولكنها كانت ، في ما خيّل الي ، ارق شمائل وادنى الى صفة السيدة الكاملة . كانت نحيلة القوام ، رقيقة الوجه شاحبتّه ، شقراء الشعر . والواقع ان ثوبها المخيط من اطللس اسود ، ووشاحها المصنوع من مخمرات اجنبية غنية ، وحلاها اللؤلؤية راقت لي اكثر من اشعاع السيدة النبيلة ❀ ذي الالوان القزّحية .

ولكن السيدات الثلاث اللواتي سطعن اكثر ما يكون السطوع - ولعل مرد ذلك ، جزئيا ، الى طولهن الفارع الذي لم تزدهم بمثله اية سيدة اخرى بين السيدات الثمان - كنّ الارملة النبيلة اللايدي انغرام وبنتها بلانش وماري . كانت كل من هاته السيدات الثلاث ذات قوام لم تعرف امرأة نظيره رشاقة ورفعة . ولعل سن الارملة كانت تراوح ما بين الاربعين والخمسين ، وكانت لا تزال على بقية من جمال . وكان شعرها ( كما بدا على ضوء الشموع على الاقل ) لا يزال فاحما ، وكانت اسنانها لا تزال ، ظاهريا ، في احسن حال . وخليق بالكثرة الكاثرة من الذين تقع اعينهم عليها ان يحكموا بانها سيدة باهرة بالنسبة الى سنّها ، ولقد كانت كذلك ، من غير ريب ، من وجهة النظر الجسمانية . ولكن مجيهاها كان ينطق عن تشامخ لا يكاد 'يحتمل' . كانت رومانية السّمت ، ذات ذقن اضافية تنتهي عند رقبة اشبه بعمود من الاعمدة . والحق ان هذه القسّمات لم تبد لي متفتحة قائمة فحسب ، بل لقد بدت مفضّنة بالكبر والغرور ايضا . وكانت ذقنها مُعزّزة بالمبدأ نفسه ، فهي ابدا في وضع منتصب الى حد يكاد يكون خارقا . وكان لها ايضا عينان ضاريتان قاسيتان ذكّرَتاني بعيني مسز ريد . كانت تتشددق في الكلام ، وكان صوتها خفيضا ، وكانت نبراتِها مفرقة في التفأخر ، موغلة في الغطرسة ، وبكلمة موجزة : بغيضة الى حدّ لا يطاق . وكان لها من ثوبها المخملي القرمزي ومن الشال الذي اعتمدت به - وكان مصنوعا من نسيج هندي تتخلله خيوط ذهبية - ما اضفى عليها ( او هكذا اعتقدت هي ، في ما اظن ) سيمما ملكية حقيقية .

وكانت بلانش وماري متكافئتين من حيث القوام ، وكانتا منتصبتين فارعتي الطول مثل شجرتي حور . كانت ماري بالغة الهزال بالنسبة الى طولها ، ولكن بلانش كانت مفرغة على صورة ديانا ❀ . ولقد رنّوت اليها ، طبعا ، في اهتمام خاص . لقد اردت ، اولا ، ان ارى اينطبق مظهرها على وصف مسز فيرفاكس لها ام لا . واردت ، ثانيا ، ان ارى اتشبه بأية حال من الاحوال تلك الصورة الخيالية المصغرة التي رسمتها انا لها . واردت ثالثا ، وهي حقيقة لن تخفى على القارئ ، ان ارى الى اي مدى يمكن لها ، في اعتقادي الشخصي ، ان تعجب مستر روتشيستر .

❀ تقصد اللايدي لين .

❀ الهة القمر والصيد وحامية النساء في الميثولوجيا الرومانية . وبها تشبه الحسان ذوات الجمال الجسماني العارق . ( المغرب )

والواقع انها اشبهت ، من وجهة النظر الجسمانية ، كلا من صورتي ووصف مسز فيرفاكس شبها كاملا . فالصدر النبيل ، والمنكبان المتحدران ، والجيد البديع ، والعينان السوداوان ، وحليقات الشعر الفاحم كانت كلها هناك . اما الوجه ؟ . اما الوجه فكان كوجه امها ، كان صورة طبق الاصل عنه ، مع فارق وحيد هو ان وجه البنت ناضر الشباب خلو من التجاعيد . اما الجبين الخفيض ، والسماوات المتفطرسة ، والغرور الصارخ فكانت هي هي . بيد ان غرور بلانش لم يكن شديد العبوس كغرور امها : كانت تضحك على نحو موصول ، وكان ضحكها ساخرا ، وكذلك كانت الانطباع الغالبة على شفتها المقوسمة المتعجرفة .

يقولون ان العبقري معجب بنفسه : انا لا استطيع ان اقرر هل كانت مس اينغرام عبقرية ام لا ، ولكنها كانت معجبة بنفسها ، ومعجبة بهذه النفس الى حد يلفت النظر حقا . كانت قد دخلت في نقاش حول علم النبات مع مسز دينت الدمثة ، الرقيقة . ويبدو ان مسز دينت لم يقدر لها ان تدرس هذا العلم ، على الرغم من انها ، كما قالت ، احبت الازهار ، « والبرية منها بخاصة » . اما مس اينغرام فكانت قد درستة ، فهي 'تجري مصطلحاته على لسانها كالسيل ، مزهوة بذلك على نحو واضح . وسرعان ما لاحظت انها كانت ( كما يقال في اللغة العامية ) « تنتفع » بجهل مسز دينت وتقيد منه . وجائز ان يكون « انتفاعها » ذاك بارعا ، ولكنه لم يكن لطيفا او وديا ، من غير ريب . لقد عزفت على البيان ، فكان عزفها رائعا . ولقد غنت ، فكان صوتها رخيفا . ولقد تحدثت بالفرنسية الى والدتها ، فاجادت الحديث في فصاحة وفي نبرة حسنة .

وكانت ماري ذات مجيأ الطف واكثر طلاقة من مجيأ بلانش . وكانت ذات اسارير ارق ايضا ، وبشرة انصح بعض الشيء ( كانت مس اينغرام سمراء مثل بنات اسبانيا ) ولكن ماري كانت تعوزها الحيوية ، وكان وجهها يعوزه التعبير ، وكانت عيناها يعوزهما البريق . لم يكن لديها شيء تقوله ، فما ان اتخذت مقعدها حتى ظلت مسمرة فيه كتمثال في محرابه . وكانت الاختان ترتديان ملابس بيضاء نقية لا عيب فيها .

اما وقد انعمت النظر الى مس اينغرام فهل استطيع القول انها كانت هي المرأة التي يُحتمل ان يختارها مستر روتشيستر لنفسه ؟ الواقع اني لم استطع ان اجيب ، اذ ما كنت اعرف ذوقه في الجمال الانثوي . فاذا كان يؤثر كل ما هو جليل فليس من ريب في انها كانت هي نموذج الجلال عينه . والى هذا ، فقد كانت رفيعة الثقافة طروبا . وخليق بالكثرة الكاثرة من الرجال ان تعجب بها ، في ما تراه لي . اما ان يكون هو قد اعجب بها حقا فذلك ما بدا لي اني اصبحت املك الدليل عليه . ولم يبق علي ، لكي ازيل آخر ظل من الشك ، الا ان اراهما مجتمعين .

وليس ينبغي لك ان تحسب ، ايها القارئ ، ان آديل كانت طوال هذا

الوقت جالسة في كرسيها الخفيض ، عند قدمي ، غير مبدية حراكا البتة . لا ،  
اذ ما ان دخلت السيدات الى حجرة الاستقبال حتى نهضت ، وتقدمت للقائهن ،  
وحنت رأسها بتحيتهن على نحو فخيم ، ثم قالت في وقار :  
« بونجور ، يا سيداتي . »

ونظرت اليها مس اينغرام نظرة ساخرة وقالت : « أوه ، يا لها من دمية  
صغيرة ! »

ولاحظت اللايدي لين قائلة : « انها الطفلة التي ينهض مستر روتشيستر  
بعبء الوصاية عليها ، في ما اظن . - افتاة الفرنسية الصغيرة التي كان  
يتحدث عنها . »

واخذت مسز دينت بيدها في حنان ، وطبعت عليها قبلة . اما آيمي  
ولويزا ايشتون فصاحتا في آن معا :  
« يا لها من طفلة فاتنة ! »

ثم انهما دعتهما الى احدى الارائك حيث جلست آمنة مطمئنة بينهما ،  
تثرثر بالفرنسية حيناً ، وبانكليزية مهشمة حيناً ، مستأثرة لا بانتباه السيدتين  
الشابيتين فحسب ، بل بانتباه مسز ايشتون واللايدي لين ايضا ، مسترسلة  
في دلاعتها ما طاب لها الاسترسال .

وجيء بالقهوة ، آخر الامر ، ودُعي الرجال الاماجد الى الدخول .  
وقعدت في « الظل » - ان كان في تلك القاعة المتألقة بالانوار ظل ما ، وقد  
حجبتني ستارة النافذة نصف حجب . وتشاءبت القنطرة كرة اخرى ،  
ودخل القوم . وكان دخولهم الجماعي ، كدخول السيدات الجماعي ،  
مهيبا جدا . كانوا كلهم يرتدون بذلات سوداء ، وكان معظمهم فارعي  
الطول ، وكان بعضهم في ميعة الصبا . والواقع ان هنري وفريدريك لين  
كانا غز ليين جسورين الى ابعد الحدود ، وكان الكولونيل دينت مثال  
الرجل العسكري الجليل . كان شعره أشيب كله ، وكان السواد لا يزال  
غالبا على حاجبيه وشاربيه ، مما اضفى عليه شيئا من مظهر « الاب  
النيل » كما يصور عادة على خشبة المسرح . اما اللورد اينغرام فكان ،  
مثل شقيقته ، فارع الطول ، وكان مثلها ايضا وسيم الوجه . ولكنه  
يشارك ماري طلعتها الفاترة المتوانية . لقد بدا وكأنه يملك من طول  
الاطراف اكثر مما يملك من الحيوية او نشاط الذهن .

ولكن اين مستر روتشيستر ؟

هوذا قد أقبل آخر الامر . انا لم انظر الى القنطرة ، ومع ذلك فقد  
رايته يدخل ، وحاولت ان اركّز انتباهي على ابرتي الحيك وعلى العيون  
المؤلفة شبكة كيس النقود الذي كنت اصنعه ، محاولة ان احصر تفكيري  
في العمل الذي بين يدي ، وان لا ارى غير الخزرات الفضية والخيشوط  
الحريرية المنثورة في حجري: ولكني برغم هذا كله رأيت وجهه في وضوح ، ولم  
استطع الا ان اتذكر تلك اللحظة التي نعمت فيها برويته آخر مرة ، بعد

دقائق معدودات انقضت على اسدائي اليه ما اعتبره خدمة اساسية ، وقد امسك هو بيدي ، وانشأ ينظر الى وجهي ، ويتأملني بعينين تنمّان عن فؤاد طافح يتوق الى ان يفيض ، فؤاد كان لي في انفعالاته نصيب . الا ما كان أدنى ما اقتربت منه في تلك اللحظة ! فهل كان ما حدث ، منذ ذلك الحين ، من أشياء مقصودا به تغيير وضعه بالنسبة الي ووضعي بالنسبة اليه ؟ ومع ذلك فما اشد ما يبدو احدا الان بعيدا عن الآخر غريبا عنه ! غريبا الى درجة اني لم اتوقع من مستر روتشيستر ان يقبل ويتحدث الي . ولم يخامرني العجب عندما اتخذ ، من غير ان ينظر الي ، مقعدا في الجانب الآخر من الحجرة ، وشرع يتحدث مع بعض السيدات .

ولم اكد اري ان انتباهه قد سُمّر عليهن ، وان في ميسوري ان ارنو اليه من غير ان يلحظني احد حتى جُذبت عيناى ، على نحو لا ارادي ، الى وجهه . انا لا استطيع السيطرة على جفنيهما : كانا يرتفعان دائما فتستقر مقلتي على . لقد رنوت اليه ، ووجدت متعة حادة في الرنو - متعة نفيسة ولكنها موجعة ، لكنها حلية من الذهب الخالص في طرفها رأس فولاذي يورث المرء آلاما مبرحة : متعة اشبه ما تكون بتلك التي يستشعرها الرجل الذي يكاد يموت من الظما والذي يعرف ان البشر التي زحف اليها مسمومة ، ومع ذلك فهو ينحن فوقها ويطفىء ظمأه بجرعات كانها شراب الآلهة !

ما اصدق المثل الذي يقول : « الجمال في عين الناظر اليه » . فوجه سيدي الشاحب ولونه الزيتوني ، وجبينه المربّع الضخم ، وحاجباه الكثيفان الفاحمان ، وعينه الغائرتان ، وقسماته المتجهمة ، وفمه الكالنج القاسي - وكلها راسخ بالقوة والعزم والارادة - لم تكن ، في منطق القاعدة والمقاييس ، على شيء من الجمال ، ولكنها كانت في نظري انا اكبر من جميلة : كانت مفعمة بشوق ونفوذ هيمنة على هيمنة كاملة ، وأخرجنا مشاعري عن دائرة سلطاني ليخضعها لسلطانه هو . انا لم اعتزم ان اهمم بحبه قط ، والقارئ يعرف اني بذلت جهدا كبيرا لكي استأصل من قلبي بذور الحب التي اكتشفتها هناك ، وها هي ذي الان عند اول اجتماع يتاح لي فيه ان اراه من جديد - تنبعت ، على نحو تلقائي ، نضرة شديدة البأس ! لقد جعلني احبه من غير ان ينظر الي .

لقد قارنت ما بينه وبين ضيوفه . فاذا بلطف شمائل هنري وفريدريك « لين » وحسن توددهما للنساء ، واناقة اللورد اينغرام الفاترة المتوانية ، وحتى جلال الكولونيل دينت العسكري ، تبدو في عيني هزيلة تافهة بالقياس الى حيويته الفطرية ونشاطيته الاصيلية . انا لم استشعر ايما مِثل الى مظاهرهم الخارجية وملامح وجوههم ، ومع ذلك فقد خيل الي ان الكثرة الكبيرة ممن يرى اليهم خليق بها ان تعدّهم ذوى جاذبية ووسامة ومهابة ، في حين تحكم بان مستر روتشيستر قاسي الاسارير كئيب الطلعة في آن معا .

لقد رأيتهم يبتسمون ، ورأيتهم يضحكون ، فوجدت الفراغ في ابتسامهم وضحكهم : كان في ضوء الشموع من الروح بقدر ما في بسمااتهم ، وكان في رنين الجرس من المعنى بقدر ما في ضحكاتهم . ورأيت مستر روتشيستر يبتسم فرأيت اساريه المتجهم ترقئ ، ورأيت عينيه تموران بالبريق واللفظ معا ، وشعاعهما ينضح بالحدة والعذوبة في آن واحد . كان يتحدث ، في تلك اللحظة ، الى لويزا وآيمي ايشتون . فعجبت اذ رأيتهما تتلقيان في هدوء بالغ تلك النظرة التي بدت لي ثاقبة الى أبعد الحدود : لقد توقعت ان تغض هاتان السيدتان من طرفيهما ، وان تتضرع وجناتهما بالدم تحت سهامها . ومع ذلك فقد سرني اني وجدتهما غير متأثرتين بنظراته تلك ، البتة . وقلت في ما بيني وبين نفسي : « انه لا يحتل في قلبيهما مثل المنزل التي يحتلها في قلبي . انه ليس من معدنهما . لا ، أنا اعتقد انه من معدني ، بل اني لمتأكدة انه كذلك . . . أنا احس ان بيني وبينه نسا . . . أنا أفهم لفظة ملامحه وحركاته . وعلى الرغم من ان الوضع الاجتماعي والثروة يباعدان ما بيننا كثيرا فان في دماغي وقلبي ، في دمي واعصابي ، شيئا يجعلني شبيهة به ذهنيا . هل قلت ، منذ أيام معدودات ، ان لا شأن لي به يعدو تناولي الراتب من يده ؟ هل حرمت على نفسي ان أفكر فيه الا بوصفه سيذا يدفع الي اجري ؟ يا للتجديف على الطبيعة ! أن كل ما يجيش في صدري من مشاعر صالحة ، صادقة ، عارمة ، لتدور - على نحو غير ارادي - حول محوره . أنا ادري ان علي ان اكنم عواطفي ، ان علي ان اخنق الامل ، ان علي ان اتذكر انه لا يستطيع ان يبالي بي كثيرا . ذلك بأنني حين أقول اني من معدنه فلسنت أعني ان لي مثل قوته على التأثير ، ومثل قدرته السحرية على الجذب . كل ما اعنيه هو اني اشاركه بعض الاذواق والمشاعر . واذن فيتعيّن علي أن اكرر على نحو موصول اننا سوف نظل منفصلين الى الابد . . . ومع ذلك فيتعيّن علي أن احبه ما بقيت قادرة على التنفس والتفكير » .

وقدّمت القهوة . وكانت الحيوية قد دبّت الى نفوس السيدات ، منذ ان وفد الرجال على الحجرة ، فهنّ أشبه بالقبّرات مرحة وخفة . وغدا الحديث ناشطا طروبا . وشرع الكولونيل دينت ومستر ايشتون يتجادلان في بعض القضايا السياسية ، على حين اصغت زوجتاها اليهما . وتسامرت الارملتان المتكبرتان ، اللايدي لين واللايدي اينغرام . ووقف السير جورج - الذي نسيت ، بالمناسبة ، ان أصفه ، والذي كان رجلا من سرة أهل الريف ، ضخّم الجسم ناضر البشرة الى حد بعيد - على مقربة من اريكتهما ، وفنجان قهوته في يده ، فهو يشاركهما الحديث بين الفينة والفينة ببضع كلمات ينطق بها . وكان مستر فريديريك لين قد استوى في كرسي محاذٍ لماري اينغرام ، فهو يُربها بعض الرسوم المنشورة في مجلد فخم . وكانت هي تنظر ، وتبسم بين الفينة والفينة ، ولكنها لا تتكلم ، في ما يبدو الا قليلا . أما اللورد اينغرام ، الفارع الطول الفاتر الهمّة ، فقد اتكا متصالب الذراعين على ظهر كرسي آيمي ايشتون الضئيلة الجسم البهجة النفس . وكانت هي ترفع بصرها اليه

وتثرثر مثل الصَّفَرَاغُون ۞ الفرد : كانت تستلطفه اكثر مما تستلطف مستر روتشيستر . وكان هنري لين قد احتل متكأ خفيضا عند قدمي لويزا ، وكانت أدبل تقاسمه ذلك المتكأ . وكان هو يحاول ان يتحدث معها بالفرنسية ، فتضحك لويزا لاطائنه الفاضحة . وبلانش اينغرام . . . مع من كانت تتجاذب اطراف الحديث ؟ لقد وقفت وحدها الى المائدة ، منحنية في رشاقة فوق « اليوم » من البومات الصور ، فكأنها كانت تنتظر ان يسعى اليها ساع . بيد ان انتظارها لم يطل كثيرا ، لقد اختارت هي بنفسها الرفيق المؤانس .

ذلك بأن مستر روتشيستر وقف ، بعد ان فارق لويزا وآيمي ايشتون ، على مقربة من المستوقد وحيدا كوحدة بلانش على مقربة من المائدة . كانت واقفة تجاهه ، متخذة موقعها عند الجانب الاخر من رف المستوقد .

وقالت له مستهلة الحديث : « مستر روتشيستر ، لقد حسبت أنك غير مولع بالاطفال ؟ »

- « لست مخطئة ، على كل حال » .

- « واذن ، فما الذي أغراك بأن تكفل مثل هذه الدمية الصغيرة ؟ » ( وأشارت الى أدبل ) . « من أين التقطتها ؟ »

- « أنا لم التقطها التقاطا ، لقد تَرَكْتُ في كنفِي » .

- « كان عليك ان تبعث بها الى المدرسة » .

- « لم يكن لي قِبَلٌ بذلك . المدارس ثقيلة النفقات » .

- « ولكنني أحسب انك قد عهدت بتعليمها الى احدى المربيات : لقد رأيت الى جانبها ، في هذه اللحظة ، مخلوقة ما . . . هل ذهبت ؟ أوه ، لا ! هاهي ذي واقفة ، ما تزال ، خلف ستارة النافذة . أنت تدفع اليها راتبا ، طبعاً . ويخيل الي ان ذلك يكلفك نفقات لا تقل عن نفقات المدرسة ، ان لم أقل أكثر . اذ يتعيّن عليك ، فوق الذي تدفعه ، ان تعيل التلميذة والمعلمة ايضا » .

وخشيت - ومن يدري ، فلعلني رجوت ؟ ان يكون في تلك الإشارة الي ما يدعو مستر روتشيستر الى الالتفات نحوي . فازددت انكماشاً في الظل ، على نحو غير ارادي : ولكنه لم يحوّل عينيه صوبي ، البتة .

وقال في لامبالاة ناظرا امامه مباشرة : « أنا لم أفكر في هذه المسألة قط » . - « لا . انتم الرجال لا تراعون جانب الاقتصاد والعقل السليم . وانه لخليق بك ان تستمع الى ماما تحدثك حديث المربيات . ويخيّل الي ان دزينة منهن على الاقل تعاقبت علي وعلى اختي ماري في زماننا . كان نصفهن بفيضات الى النفس ، وكان نصفهن الاخر مضحكات ، وكن كلهن كوايبس - ألم يكن كذلك ، يا ماما ؟ »

- « هل وجهت الخطاب الي ، يا ثروتي ؟ »

فلم يكن من السيدة ، التي اعتبرت ، على هذا النحو ، من ممتلكات



الارملة الخاصة ، الا ان كررت سؤالها مع شيء من التوضيح . فقالت الارملة :  
- « لا تذكرى المربيات على مسمع مني ، يا أعز الناس ! ان الكلمة  
نفسها تثير أعصابي . لقد قاسيت حتى الاستشهاد من شنوذهن وعدم كفاءتهن .  
واني لاحمد الله على اني قد تخلصت الآن منهن ! »

وهنا مالت السيدة دينت على اللايدي الوريعة ، وأسرت في أذنها كلاما .  
وأحسب ، على ضوء الجواب الذي اقتضاه كلامها ذاك ، انها قصدت الى تذكيرها  
بأن واحدة من أفراد تلك الزمرة المغضوب عليها موجودة في الحجرة .

فقالت اللايدي : « لامها الهبل ! واني لارجو ان يعود عليها هذا ببعض  
الفائدة ! » ثم أنها أضافت ، في نبرة اشد انخفاضا ولكنها احتفظت من  
الارتفاع بقدر ممكن من سماعها : « لقد تأملتني . أنا بارعة في علم الفراسة ،  
واني لاقرأ في وجهها جميع عيوب جماعتها . »

فسألها مستر روتشيستر ، في صوت عالٍ : « وما هي تلك العيوب ،  
يا سيدتي ؟ »

فاجابت وهي تهز « عمامتها » ثلاث هزات ذات مغزى استثنائي : « سوف  
أهمس بها في اذنك ، في ما بعد . »

- « ولكن شهوة فضولي قد تخمد عندئذ . انها جائعة الى القوت الآن . »

- « اسأل بلانش ، فهي اقرب اليك مني . »

- « أوه ، لا تحيليه علي ، يا ماما ! فأنا لا أملك غير كلمة أقولها في افراد  
تلك القبيلة كلها ، هي انهن بلاء . وليس معنى هذا اني قاسيت منهن كثيرا ،  
في أيما وقت من الاوقات ، لا ، فقد كنت أعرف كيف انتزع منهن زمام  
المبادرة . وما كان أكثر المكائد التي كنت أنا وتيودور ندبرها لمس ويلسون ،  
ومسر غرايز ، ومدام جوبير ! أما ماري فكانت أبعد من تشارك في أي من هذه  
المكائد في حيوية وحماسة . ولكننا خصصنا مدام جوبير بأبرع احابيلنا  
وأدعاهنا الى التسلية . والواقع ان مس ويلسون كانت مخلوقة بائسة ، معتلة  
الصحة ، بكآءة ، فاترة الهمة ، وبكلمة موجزة ، انها لم تكن تستحق منا عناء  
السعي الى قهرها والتغلب عليها . وكانت مسز غرايز غليظة ، فاقدة الحس ،  
لا تؤثر فيها اللطامات . في حين كانت مدام جوبير مسكينة حقاً ! أنا لا أزال  
قادرة الان على رؤيتها وقد ثارت ثائرتها ، بعد ان اخرجناها فاخرجناها : لقد  
أهرقنا شايها ، وفتتتنا شطائرنا المدهونة بالزبدة ، وقذفنا بكثتنا الى السقف ،  
وأحيينا حفلة موسيقية تصم الآذان كانت آلاتها هي المسطرة والمنضدة ، وحاجز  
نار الموقد ، وأدوات المدفأة . اتذكر تلك الايام المرححة البهيجة ، يا تيودور ؟ »

فقال اللورد اينغرام وهو يبط كلماته متشدقا : « أجل . أنا أذكرها  
من غير ريب . ولقد كان من دأب العجوز البليدة الخرقاء ان تصيح : « أوه ،  
يا لكما من طفلين نذلين ! » وبعد ذلك كنا نقدم اليها المواعظ مستغربين ان  
تتصدر ، وهي المفرقة في الجهل ، لتعليم ولدين وقحين بارعين مثلنا . »

- « أجل ، هذا ما كنا نفعله . وكثيرا ما كنت ' ، يا تيدو \* اساعدك في محاكمة ( او في تعذيب ) \* مهربك ، مستر فايننغ ، ذي الوجه الماصل ، أو الخوري المصاب بخانوق الدجاج كما تعودنا ان ندعوه . لقد اجاز لنفسه ان يقع في غرام مس ويلسون ، وأجازت هذه لنفسها ان تقع في غرامه - أو هكذا حسبت ' أنا و « تيدو » على الاقل . فكثيرا ما فاجأناهما وهما يتبادلان ضروبا من النظرات ويطلقان صنوفا من الزفرات اعتبرناهما نحن امارات على « العاطفة الحلوة » . وأؤكد لك ان القوم سرعان ما عرفوا باكتشافنا ذاك . ولقد اتخذنا نحن منه مخلا لاقتلاع عبثينا الثقيلين من البيت . وما ان سمعت ماما العزيزة بمجرد تلميح الى المسألة حتى وجدت انها نزعة لا اخلاقية . اليس هذا صحيحا ، يا أمي النبيلة ؟ »

- « من غير ريب ، يا خير الناس . ولقد أصبت في ما فعلت ' غاية الاصابة . الا فتأكدي ان هناك ألف سبب تجعل التزاوج بين المربيات والمهذبين أمرا لا يجوز التسامح به لحظة في أيما بيت من البيوتات الحسنة التنظيم . أولا ... »

- « أوه ، يا أمي الكريمة ! وفري علينا عناء تعدادهما ! والى هذا ، فنحن كلنا نعرفها : خطر القدوة السيئة على براءة الطفولة والتهاء العروسين عن واجبهما وتقصيرهما من ثم في ادائه ، والتحالف المتبادل والاتكال المتبادل ، والثقة الناشئة عن ذلك ، وما يرافق هذا من وقاحة وقلة حياء ، والتمرد والانفجار . فهل انا على حق ، أيتها البارونة اينغرام ، بارونة اينغرام بارك ؟ »

- « أنت على حق ، الآن ، كشأنك دائما ، يا زنبقتي البيضاء ! »

- « اذن فلا داعي الى مزيد من الكلام على هذه المسألة ، فلنغير الموضوع » .

ويبدو ان آيمي ايشتون لم تسمع هذا القول الفصل أو لم تحفل به ، ففضمت صوتها الى صوت الجماعة ، وقالت في نبرتها الناعمة الطفولية : « لقد كان من دأبي ودأب لويزا ان نسخر من مربيتنا ايضا . ولكنها كانت من الطيبة بحيث تحتفل كل شيء . ان ايما شيء لم يكن قادرا على اثارها . والواقع انها لم تغضب منا قط . ألسنت أقول الحقيقة ، يا لويزا ؟ »

- « من غير ريب . انا كنا نفعل ما يحلو لنا . كنا نسطو على مكتبها وعلى صندوق أشغالها ، وكنا نقلب ادراجها رأسا على عقب . ولكنها كانت دمثة الاخلاق الى حد بعيد ، فهي تعطينا ايما شيء نسألها اياه » .

وهنا قالت مس اينغرام مجمدة شففتها في سخرية : « يخيل الي اننا على وشك ان نقدم موجزا لذكرياتنا عن جميع المربيات اللواتي لا يزلن على

\* تصغير تيودور ، للتعجب . ( العرب )

\* بين لفظ المحاكمة prosecuting ولفظ التعذيب persecuting في الانكليزية جناس شبه تام يضاف على العبارة في اصلها ، جمالا خاصا . ( العرب )

قيد الحياة • ولكي نتفادي مثل هذه العقوبة اقترح من جديد ان ننقل الى موضوع آخر • مستر روتشيستر ، هل تُنْثِي على اقتراحي ؟

« سيدتي ، اني اؤيدك في هذه النقطة تأييدي اياك في سائر النقاط •

« واذن فلانهض انا بعبء اثارة الموضوع • سينيور ايدواردو ، هل

توانس في نفسك القدرة على الغناء ؟ »

« اذا اصدرت امرك بذلك ، أيتها الدوثا ببيانكا ، فعلت ' •

« اذن ، ايها السينيور ، انا افرض عليك مشيئتي الملكية التي تقضي

بان تجلثو رثيتك وسائر اعضاءك الصوتية ، لتكون في خدمة شخصي الملكي السامي •

« ومن الذي لا يتمنى ان يمثل دور « ريزيو » \* امام « ماري » كهذه كلها

قدسية وسناء ؟ »

فصاحت رادة شعرها - بكل خصلاته المعقوصة - الى الوراء ، فيما كانت

تمضي الى البيانو : ' تعسا لريزيو ! انا اعتقد ان « دايفيد » \* عازف

الكمآن كان شخصا تافها من غير ريب ، واني لاؤثر عليه « بوثوويل » \* \* \*

الاسود • وعندي ان الرجل ليس شيئا اذا لم يكن في اعطافه شيء من طيب

الشیطان وعبيره • وفي ميسور التاريخ ان يقول ما يشاء عن جايمس هيببورن

ولكني اؤمن انه يمثل النموذج الصحيح للبطل قاطع الطريق الوحشي الضاري

الذي كان خليقا بي ان لا اتردد في منحه يدي •

فصاح مستر روتشيستر : « ايها السادة ، هل تسمعون ؟ والآن ايكم

شبه بوثوويل اكثر ما يكون ؟ »

فاجابه الكولونيل دينت : « يخيل الي انك انت موضع التفضيل •

فكان الجواب : « أقسم لك بشرفي اني شاكر لك هذا اللطف ! »

وهنا استهلّت مس اينغرام ، التي جلست الآن ، في رشاقة متكبرة ، الى

البيانو ، ناشرة ثوبها الثلجي حولها في سعة ملكية ، أقول استهلّت العزف

بفاتحة بارعة ، متحدثة في الوقت نفسه الى بعض القوم • لقد بدت شديدة

الاعتداد بنفسها تلك الليلة • ولقد بدا وكان كلماتها وسيما وجهها لم

يقصد بها الى اثاره اعجاب المستمعين اليها فحسب ، بل الى اثاره دهشهم

ايضا • كان واضحا انها نزعّت الى ان تبهرهم بشيء جريء الى أبعد الحدود حقا •

لقد هفت ، وهي تداعب البيان باناملها : « أوه ، لقد سئمت ' شبان

عصرنا هذا ! انهم مخلوقات بائسة ضئيلة الجسم غير مؤهلين لان يخطوا

خطوة واحدة ابعد من حديقة « بابا » ، بل انهم لا يذهبون الى هذا الحد من غير

اذن « ماما » ورعايتها ! مخلوقات لا هم لهم الا التفكير بوجوههم الوسيمة ،

\* هو دايفيد ريزيو David Rizzio ( ١٥٣٣ ؟ - ١٥٦٦ ) وكان موسيقيا إيطاليا

اثيرا لدى ماري Mary ملكة الاسكتلنديين • ( المغرب )

\* اي ريزيو الموسيقي الايطالي الذي عرفنا به في الحاشية السابقة • ( المغرب )

\* \* \* James Bothwell ( ١٥٤٦ ؟ - ١٥٧٨ ) الزوج الثالث لماري ملكة الاسكتلنديين (المغرب)

وأيديهم البضة ، وأقدامهم الصغيرة ، كان للرجل ايما شأن بالجمال ! كان الملاحه ليست امتيازا خاصا بالمرأة ، وهبة خصتها الطبيعة بها ، وميرانا من مواريتها الشرعية ! أنا أو من بأن المرأة الدميعة لطخة في محيطا الخليفة الوسيم . أما الرجال فيحسن بهم أن لا يشغلوا بالهم بغير التحلي بصفتين اثنتين : القوة والبسالة . ليكن شعارهم : « الصيد والقنص والحرب ، أما ما عدا ذلك فليس يساوي نقره بالظفر » . ولو قد كنت رجلا اذن لكان هذا شعاري أيضا .

ثم انها أضافت بعد تمهل لم يقطعها خلاله أحد : « لقد عقدت العزم ، في حال زواجي ، على أن لا أجد في زوجي منافسا لي . اني أريده أن يكون وسيلة الى اظهار حسني ، كما يظهر الضد حسن الضد . أنا لن احتمل وجود أيما مزاحم على مقربة من العرش ، ولسوف اطالبه بولاء لا يتجزأ ، وبكلمة أخرى فان عواطفه ينبغي أن لا تكون موزعة بيني وبين الصورة التي يراها في مرآته . مستر روتشيستر ، في استطاعتك الآن أن تغني . سوف أعزف لك » .

فكان الجواب : « أنا الطاعة مجسدة ! »

— « دونك اذن اغنية من اغنيات القرصان . الا فاعلم اني اهييم بالقراصنة حبا . ومن أجل ذلك أسألك ان تفرغ روحك كلها في الاداء » .

— « أن أمرا يصدر من شفتي مس اينغرام لخليق به ان ينفخ الروح في ابريق حليب وماء » .

— « خذ حذرك اذن : اذا لم تنتزع اعجابي فسوف أخزيك بأن أظهر لك كيف ينبغي لمثل هذه الاشياء ان تؤدي » .

— « الواقع ان هذا ضرب من مكافأة المراء على عجزه وتقصيره . ومن أجل ذلك سأحاول ان اخفق » .

— « انتبه جيدا ! اذا اخفقت عامدا متعمدا فعندئذ استنبط لك عقوبة متناسبة » .

— « على مس اينغرام ان تكون رؤوفة طويلة الاناة ، لان في طاقتها أن تنزل بي عقوبة تتجاوز حدود الاحتمال البشري » .

فأصدرت اللايدي أمرها قائلة : « ها ! أوضح ! »

— « معذرة ، يا سيدتي . لا حاجة الى الايضاح . ان حسك المرهف نفسه يجب ان ينبك بأن عبسة واحدة من عبساتك تغني عن عقوبة الموت » .

فقالت : « غن » ، ومسّت أصابع البيان ، كرة أخرى ، وانشأت تعزف على نحو مشبوب .

وهنا قلت في ذات نفسي : « تلك هي الفرصة التي يحسن بي أن اغتنمها للانسحاب » . ولكن الاغنية التي تخللت اللحن اسرتني . كانت مسز فيرفاكس قد قالت ان صوت مستر روتشيستر جميل . والواقع ان صوته كان كذلك : صوتا خفيضا قويا عذبا ، أفرغ فيه احساسه كله وقوته كلها . فهو

يشق سبيله من الاذن الى القلب ، ليوظ هناك ضروبا من الاحساس غريبة .  
وتريثت حتى تلاشت آخر ذبذبة عميقة ملأى ، حتى استأنفت موجة الحديث ،  
التي كَبِحت لحظة ، اندفاعها الاول . عندئذ فارقت زاويتي الظليلة وانسللت  
خارجة من الباب الجانبي ، وكان لحسن الحظ غير بعيد عني . ثم ان مجازا  
ضيقا افضى بي الى الردهة ، وبينما كنت اجتازه استشعرت أن واحدا من رباطي  
حذائي كان محلولا ، فوقفت لكي اعقده ، منحنية من أجل ذلك فوق البساط  
المنشور عند ادنى السلم . وفجأة سمعت باب حجرة الطعام يُفتح فيخرج منه  
واحد من السادة . ونهضت على عجل فاذا بي اجد نفسي معه وجها لوجه :  
كان السيد الذي خرج من الباب هو مستر روتشيستر .

وسألني : « كيف انت ؟ »

« بخير كثير ، يا سيدي » .

« لمَ لم تأتي وتحدثني الي في حجرة الاستقبال ؟ »

وخطر لي ان أوجه هذا السؤال نفسه الى طارحه . ولكنني لم اجترأ  
على ذلك . فأجبت :

« أنا لم ارد ان أزعجك ، بعد ان بدا لي انك كنت في شغل شاغل ،

يا سيدي » .

« وما الذي كنت تفعلينه في أثناء غيابي ؟ »

« لا شيء » جديرا بالذكر . كنت ادرس أدبل كالعادة » .

« وكنت تزدددين شحوبا ، الى حد بالغ ، كما تبدى لي من النظرة

الاولى . ما بك ؟ »

« لا شيء » على الاطلاق ، يا سيدي » .

« هل أصبت بزكام ما في تلك الليلة التي اغرقتني فيها نصف

اغراق ؟ »

« لا ، لم اصب بشيء من ذلك » .

« ارجعي الى حجرة الاستقبال . لقد غادرتها أبكر مما ينبغي » .

« أنا متعبة ، يا سيدي » .

وحقق الي لحظة ، ثم قال : « ومحزونة بعض الشيء » . غلام حزنك

هذا ؟ أخبريني » .

« لا شيء ، لا شيء ، يا سيدي . أنا لست محزونة » .

« ولكنني أؤكد انك محزونة . . . محزونة جدا حتى ليخيل الي ان

في ميسور بضع كلمات أخرى ان تفجّر الدموع من عينيك - الواقع اني أراها

الآن في مقلتيك ، لامعة مترققة ، وان لؤلؤة منها قد زلّت عن الهدب وسقطت

على السوسنة . ولو قد كان لدي متسع من وقت ولو لم أكن اخشى أشد

الخشية ان يمر بنا خادم مزعج مهذار اذن لعرفت ما معنى هذا كله . حسنا ،

سوف التمس لك الليلة عذرا ، ولكن عليك ان تفهمي اني اتوقع وغودك على

حجرة الاستقبال كل ليلة ، ما بقي ضيوفي في رحابي ، تلك هي رغبتني ، فلا

تغفلها • والآن ، أمضي في سبيلك ، وارسلي « صوفي » لكي تأخذ أديل ،  
طابت ليلتك يا ....  
وأمسك عن الكلام ، وعضّ على شفتيه ، وفارقني على نحو مفاجئ •

## ١٨

كانت أياما مريحة بهيجة تلك التي قضاها الضيوف في قصر ثورنفيلد ،  
أياما كلها عمل أيضا • لشد ما كانت مختلفة عن الثلاثة الشهور الأولى التي  
سلختها تحت سقفه والتي كانت مفعمة بالسكينة ، والرتابة ، والاعتزال !  
لقد بدا الآن وكأن جميع الاحاسيس المحزونة قد طُردت من القصر ، وان  
جميع المعاني الكثيرة قد نُسيت : كان ثمة حياة في كل مكان ، وحركة طوال  
الليل والنهار • ولم يعد في ميسورك الآن أن تجتاز بالرواق - وكان من قبل  
ساكنا الى أبعد حد - أو أن تدخل الى الحجرات الامامية - وكانت من قبل  
خالية الى أبعد حد - من غير ان تلقي بوصيفة نشيطة لاحدى السيدات ، أو  
بخادم متأنق لاحد السادة •

كان المطبخ ، وبيت المؤونة ، وقاعة الخدم ، والردهة الامامية مفعمة كلها  
بالحيوية والنشاط • ولم تكن ابهاء الاستقبال لتخلو وتهدأ الا حين تدعو سماء  
الربيع البهيج واشعة شمسهِ الرادعة محتليها الى الارض الفضاء • وحتى حين  
كان التغير يلمّ بذلك الجو الجميل فتنهزم الامطار طوال أيام على غير انقطاع  
لم يكن الفتور ليتطرق الى مرح القوم وابتهاجهم • على العكس ، لقد كان الحظر  
المفروض على اسباب المتعة في الهواء الطلق لا يزيد ضروب التسلية في  
داخل الجدران الا حياة وتنوعا •

وتساءلت ما الذي سوف يفعلونه خلال اول ليلة اقترح فيها اجراء تعديل  
في اسباب التسلية : لقد تحدثوا عن رغبتهم في أن يلعبوا « لعبة الاحاجي » \*  
ولكنني - لعظيم جهلي - لم أفهم هذا الاصطلاح • وسرعان ما دُعي الخدم الى  
القاعة ، واخرجت موائد حجرة الطعام ، وعُدّت أوضاع المصابيح ، وصُنّقت  
الكراسي على شكل نصف دائرة مواجهة للقنطرة • وفيما كان مستر  
روثبيستر وغيره من السادة الاماجد يشرفون على هذه التعديلات كانت  
السيدات يصعدن السلالم ويهبطنها داعيات وصانفهنّ برنات الاجراس •  
واستدعيّت مسز فيرفاكس لتدلي بما لديها من معلومات عما يحتويه القصر  
من شالات ، وفساتين ، وبياضات من مختلف الصنوف والانواع • وقلّبت  
خزائن مخصوصة ، في الدور الثالث ، رأسا على عقب ، وحملت « الأماء »

charades لعبة يلعبها الإنكليز داخل الجدران ، وفيها يمثل اللاعب او اللاعبون  
كلمة من الكلمات او معنى من المعاني تمثيلا صامتا ، ويطلب الى سائر القوم ان يحزروا  
الكلمة او المعنى • ( المرب )

محتوياتها من تنانير موشاة موسعة بأطواق صلبة ، وسترات نسائية فضفاضة مخيطة من « الساتان » ، واقمشة سوداء ، وذبول فساتين من « الدانتيل » - حملت الاماء هذا كله الى الدور الارضي اكادسا اكادسا . ثم اجريت عملية تنخل وغربلة ، ليُحْمَل ما وقع عليه الاختيار ، بعد ذلك ، الى المقصورة المحاذية لحجرة الاستقبال .

وفي غضون ذلك ، كان مستر روتشيستر قد دعا السيدات ، كرة اخرى ، الى التحلق حوله ، وكان قد شرع يختار « فريقه » من بينهم . وقال : « مس اينغرام سوف تكون من حصتي ، طبعاً » . وبعد ذلك اختار الآنستين ايشتون ، ومسز دينت ، ونظر الي ، وشاءت المصادفة ان أكون على مقربة منه ، اذ كنت أشبك سوار مسز دينت بعد ان انفك .

وسألني : « هل تحبين ان تشارك في اللعبة ؟ » فهزئت رأسي علامة النفي . ولم يُلح علي في ذلك ، وكنت أخشى ان يفعل : لقد اجاز لي ان ارجع في هدوء الى مقعدي المؤلف .

عندئذ انسحب هو واعوانه الى ما وراء الستارة ، وقعد الفريق الآخر - وكان برئاسة الكولونيل دينت ، على الكراسي التي رُصفت على صورة هلال . ولحني احد السادة - مستر ايشتون - وبدا وكأنه اقترح ان اشاركهم اللعب ، ولكن اللايدي اينغرام سارعت الى رفض الاقتراح . لقد سمعتها تقول : « لا . انها تبدو اشد بلاهة من ان تشارك في ايما لعبة من هذا النوع » .

وما هي الا لحظات حتى رن جرس ، وارتفعت الستارة . وداخل القنطرة رني شخص السير جورج لين ، الضخم الجسم - وكان مستر روتشيستر قد ضمّه الى فريقه - متلفعاً في ملاء بيضاء . وامامه ، على احدى الموائد كان سيفر مفتوح ، والى جانبه ، وقفت آيمي ايشتون ، متدثرة بمعطف مستر روتشيستر ، وفي احدى يديها كتاب . ورن شخص غير مرئي الجرس- رنيانا مرحا . وعندئذ وثبت آديل ( التي كانت قد اصرّت على الانضمام الى فريق كافيها ) الى الامام ، نائرةً حولها محتويات سلة رياحين كانت تحملها في ذراعها . وبعد ذلك ظهر شخص مس اينغرام البهي متشعها بالبياض ، وعلى رأسها خمار طويل ، وحول جبينها اكليل من ورود . لقد مشى مستر روتشيستر الى جانبها ، وراحا يتقدمان معا نحو المائدة . ثم انهما ركعا ، بينا اتخذت مسز دينت ولويزا ايشتون وقد اتشحتا ايضا بالبياض ، موضعيهما خلفهما . وعقبت ذلك شعائر مُثلت تمثيلا ابكم ، فلم يكن من العسير على المرء ان يحزر ان المشهد يمثل حفلة زواج . وعند انتهاء تلك الشعائر تشاور الكولونيل دينت واركان فريقه تشاورا مهموسا استمر دقيقتين اثنتين ، وبعد ذلك صاح الكولونيل :

- « عروس ! » فانحني مستر روتشيستر ، واسدلت الستارة .

وانسلخت فترة غير يسيرة قبل ان تُرفع الستارة كرة اخرى . فاذا بارتفاعها يكشف عن مشهد مُعدّ على نحو أكثر احكاما من المشهد الاول .

كان مستوى حجرة الاستقبال ، كما سبقت مني الملاحظة ، اعلى من مستوى حجرة الطعام بدرجتين اثنتين . وفوق الدرجة العليا ، بدا حوض رخامي ضخّم وضع على مبعده ياردة او ياردتين داخل حجرة الاستقبال ، حوض عرفت فيه احدى جلى المستنبت الزاجي ، حيث كان يقوم عادةً ، محوطا بنباتات مجلوبة نادرة ، أهلا بالسّمك الذهبي . لقد نقلوه من هناك متجشّمين في ذلك بعض العناء ، بسبب من ضخامته وثقله .

والى جانب هذا الحوض رثي مستر روتشيستر جالسا على السجادة ، متشحا بعدد من الشالات ، ومعتبرا بعمامته . كانت عيناه السوداوان وبشرته السمراء وملامحه المشرقية متناغمة مع زيه تناغما كاملا : لقد بدا وكأنه النموذج الحقّ لأمير شرقي ، وكأنه جلاد مشنقة تركي او واحد من ضحاياها . وما هي الا لحظة حتى برزت مس اينغرام . كانت هي ايضا ترفل في زي شرقي : لقد عقدت حول خصرها وشاحا قرمزيا ، وعقدت حول صدغيها منديلا مطرّزا ، وكانت ذراعاها المفرغتان في قالب الجمال عاريتين ، وكانت احدهما مرفوعة لكي تسند بها جرة توازنت على رأسها في رشاقة . كان شكلها واساريها ، وبشرتها وهيئتها العامة كلها تذكر المرء بصورة اميرة عبرانية من اهل العهد الابوي القديم . ولا ريب في ان هذه هي الشخصية التي ارادت مس اينغرام ان تمثلها .

وتقدمت نحو الحوض ، وانحنى فوقه وكأنما تودّ ان تملأ جرتها ، ثم عادت فرفعتها الى رأسها من جديد . وهنا بدا وكأن الشخص القاعد عند حافة البئر قد بادرها بكلام ما ، ملتصقا منها شيئا ، « فسارعت هي ، وانزلت جرتها عن رأسها ، وقدمت اليه جرعة ماء » . عندئذ اخرج من صدر ثوبه علبة حليّ ، وفتحها واخرج منها اساور باهرة وقرطيسن بهيئين . فتظاهرت بالدهش والاعجاب ، وركع هو فطرح الكنز عند قدميها . فبست على محياها امارات الجذل وعدم التصديق ، فما كان من الرجل الغريب الا ان طوّق بالاساور ذراعيها ، وزين بالقرطين اذنيها . لقد كان ذلك هو مشهد اليعازر وروبيكا ، لا ينقصه غير الابل .

وراح افراد الفريق المتكهّن يتهامسون كرة اخرى . لقد بدا وكأنهم لم يستطيعوا الاتفاق على الكلمة - او المقطع - التي يمثلها هذا المشهد ، وعندئذ طالب الكولونيل دينت ، الناطق بلسانهم ، بعرض المشهد الاخير ، فاسدلت الستارة من جديد .

حتى اذا رفعت للمرة الثالثة لم يظهر غير جانب من حجرة الاستقبال ، في حين حجب سائرّها حاجز ( بارافان ) مصنوع من قماش داكن خشن . كان الحوض الرخامي قد اقصى ، وكانت قد نهضت مكانه مائدة مصنوعة من خشب الشربين وكروسي من كراسي المطبخ ، وكانت هذه الاشياء مرئية على ضوء مصباح باهت جدا ، بعد ان اطفئت الشموع كلها .

وسط هذا المشهد الحقير جلس رجل ناكس الرأس ، مسند يديه



المقبوضتين الى ركبتيه . كان هو مستر روتشيستر ، عرفته في سهولة ويسر ، على الرغم من ان وجهه المتسخ ، وبزّته المشوشة ( كانت سترته تتدلى من احدي ذراعيه ، وكأنما كان ظهرها قد مَرَّقَ - او كاد - في مشاجرة ) وقسمات وجهه اليائسة المقطبة ، وشعره الخشن الشائك كان خليقاً بها ان تخفي هويته . لقد تحرك ، فتناهى الى آذاننا صليل : كان معصماه مكبّلين بالاصفاد .

فهتف الكولونيل دينت : « اصلاحية ! » ، وحلّت الاحجية .

وبعد ان انقضت فترة من الوقت كافية لتمكين الممثلين من ارتداء ملابسهم العادية انقلبوا الى حجرة الطعام من جديد . كان مستر روتشيستر يقود مس اينغرام ، وكانت مس اينغرام تطري تمثيله .

لقد قالت : « اتدري اني احببتك اكثر ما احببتك وانت تمثّل الشخصية الثالثة والاخيرة ؟ اوه ، لو ان الدهر سلّف بك بضع سنوات اذن لكنت قاطع طريق ماجدا شهما يكاد يعزّ نظيره ! »

فتساءل ملتفتا نحوها : « هل ازيل السخام كله عن وجهي ؟ »

- « اجل ، مع الاسف . وكلما كان زواله اتمّ كان الاسف اعظم ! فليس ثمة ما يلائم بشرتك اكثر من هذا الصبغ الذي يخلع عليك سيئاً سفاح من السفاحين » .

- « واذن فقطاع الطرق يروقون لك ؟ »

- « اجل ، واني لاثّر قاطع الطرق الانكليزي على قاطع الطرق الايطالي ، ولست اؤثر على هذين غير قرصان مشرقي » .

- « حسنا . وايا ما كنت فيتعين عليك ان تذكرني انك زوجتي . لقد عقد قراننا منذ ساعة ، في حضرة هؤلاء الشهود كلهم » .

فقهقهت وشاع الدم في وجنتيها .

وتابع مستر روتشيستر : « والآن ، يا دينت ، جاء دورك » .

حتى اذا انسحب الفريق الاخر احتل مستر روتشيستر ورفاقه المقاعد الشاغرة . وجلست مس اينغرام الى يمين زعيمها ، في حين شغل سائر المتكهنين الكراسي القائمة الى جانبه وجانبها . والحق اني ما عدت الان اراقب الممثلين ، وما عدت انتظر ارتفاع الستارة في شوق بالغ . كان انتباهي منصّباً على النظارة : وكانت عيناى - اللتان سُمّرتا من قبل على القنطرة - منجذبتين الان على نحوم لا يقاوم نحو صف الكراسي نصف الدائري . انا لم اعد اذكر اية احجية مثّلها الكولونيل دينت وفريقه ، واي كلمة اختاروها ، وكيف أدوا ادوارهم . ولكني لا ازال ارى الى الان المشاورة التي كانت تدور اثر كل مشهد : انا ارى مستر روتشيستر يلتفت الى مس اينغرام ، ومس اينغرام تلتفت اليه . انا اراها تميل برأسها عليه حتى لتكاد غداثرها تمسّ كتفه وتتماوج على خده ، انا اسمع همسهما المتبادل ، انا اذكر نظراتهما المتبادلة . بل اني لا ازال اذكر في هذه اللحظة طرّاً من الشعور الذي اوقعه المشهد في نفسي .

لقد اخبرتك من قبل ، ايها القاري ، اني تعلمت ان احب مستر روتشيستر . والواقع اني لم استطع الان ان اقلع عن حبه لمجرد اني وجدته يكف عن النظر اليّ . . . لمجرد اني قضيت في حضرته ساعات من غير ان يدير عينيه نحوي مرة واحدة . . . لمجرد اني رأيت اهتمامه كله تستأثر به سيدة عظيمة تأنف ان تمسني بأهداب فستانها وهي تمر بي ، سيدة لو اتفق لعينها السوداوين ان وقعتا علي مصادفة اذن لاشاحت بهما عني وكأنما كانت تشيح بهما عن شيء احقر من ان يستحق منها التفاتة . لا ، انا لم استطع ان اقلع عن حبه لاني تأكدت انه سوف يتزوج وشيكا من هذه السيدة نفسها ، او لاني قرأت في وجهها كل يوم معاني اطمئنانها المتكبر الى نيئاته نحوها ، او لاني شهدت منه في كل ساعة ضربا من مطارحتها الغرام قد لا يكون لامباليا وقد يؤثر ان يسعى اليه بدلا من ان يسعى هو الى المحبوب ولكنه أسر في لامبالاته هذه ، لا يقاوم حتى في تكبره ذاك .

ولم يكن في هذه الملابس كلها ما يسكن الحب او ينقيه من الفؤاد ، وان يكن فيها كثير مما يورث اليأس . ولعلك ان تظن ، ايها القاري ، انه كان فيها ايضا كثير مما يولد الغيرة ، ان كان لامرأة في مثل مركزي ان تجتري على الشعور بالغيرة من امرأة في مثل مركز مس اينغرام . ولكني لم اكن غيورا ، او اني لم اكن كذلك الا في احوال نادرة جدا : - ان طبيعة الالم الذي قاسيته لا سبيل الى تفسيرها بتلك اللفظة . كانت مس اينغرام غير جديرة بأن يغار المرء منها ، كانت ادنى من ان تثير في النفس هذا الشعور . التمس عفو القاري لهذا التناقض الظاهري ، فأنا اعني ما اقول . لقد كان مظهرها الخارجي بهيّا جدا ، ولكنه زائف غير حقيقي . كانت جميلة ، ذات براعات ساطعة ، ولكن عقلها كان سقيما ، وفؤادها كان مجدبا بالفطرة : ان ايما شيء لم يكن ليتفتح تفتحا تلقائيا في تلك التربة ، وان ايما ثمرة طبيعية غير منتزعة بالقسر لا تزهر ثمرة بنضرتها . انها لم تكن صادقة غير متكلفة ، ولم تكن ذات فكر اصيل : كانت كثيرا ما تردد بعض العبارات الطنانة المنتزعة من الكتب ، ولكنها لم تدل في ايما يوم من الايام بأيما رأي خاص ، ولم يكن لها مثل هذا الرأي . كانت تتحدث عن العاطفة حديث المجذ المطري ، ولكنها لم تعرف عاطفتي العطف والشفقة . كانت جوانحها خلوا من الحنان والصدق ، وكثيرا ما تكشفت عن ذلك من طريق اطلاق العنان ، على نحو ظالم ، للكرهية الحقود التي كانت تضمهرها لاديل الصغيرة ، فهي ترددها عنها ، نابذة ايهاا بمختلف الالقاب المهينة ، اذا ما اتفق لها ان اقتربت منها ، وهي تأمرها احيانا بمغادرة الحجرة ، وتعاملها دائما في برود وفظاظة . وكانت عيون اخرى غير عيني تراقب هذه الظواهر الخلقية ايضا - تراقبها عن كسب ، وفي انتباه وذكاء . أجل ، لقد كان عروس المستقبل - مستر روتشيستر نفسه - يخضع خطيبته لرقابة موصولة . ومن هذه الحصافة بالذات ، من هذا الاحتراس ، من هذا الوعي الكامل الواضح لنقائص مليحته ، ومن هذا الفتور الجلي في عاطفته نحوها نشأ الالم الذي كان يعذبني تعذيبا ما ينقضي .

لقد رأيت انه يزعم الزواج منها لاسباب عائلية او ربما لاسباب سياسية ، ذلك بأن منزلتها الاجتماعية والمكانة التي يتمتع بها انساباؤها واصدقاؤها كانتا تلاثمانه . لقد شعرت انه لم يهَبْها حبه ، وانها لا تملك من المؤهلات ما يجعلها قيمة بأن تنتزع منه ذلك الكنز . ذلك كان جوهر المسألة ، وتلك كانت هي النقطة الذي مُسَّتْ عندها الاعصاب واثيرت . . والتي حُصِنَتْ عندها الحمى وغذيت : انها لا تستطيع ان تفتنه .

ولو قد وفقت الى احراز النصر على التو ، ولو قد القى السلاح امامها وطرح قلبه عند قدميها اذن لكان خليقا بي ان احجب وجهي واستدير الى الجدار ، وان اموت ( بالمعنى المجازي ) في سبيلهما . ولو قد كانت مس اينغرام امرأة صالحة نبيلة النفس وهبتها الطبيعة قوة وحماسة وحنانا ورجاحة عقل اذن لتعين علي ان اخوض صراعا مهلكا مع نمرين اثنين ، هما الغيرة والياس . واذن لتعين علي ، وقد مُزّق قلبي وسُحِق ، ان اعجبَ بها ، ان اقرّ بتفوقها ، وان استسلم للطمانينة بقية ايام حياتي ، وكلما كان تفوقها اكمل كان اعجابي اعظم ، وكانت طمانينتي اصدق وأصح . اما في الوضع الراهن فقد كان في مراقبتي جهود مس اينغرام بسبيل استهواء مستر روتشيستر ، وفي مشاهدتي اخفاقها المتكرر - من غير ان تعي هي ان جهودها قد مُنيت بالفشل ، متوهمة على غير طائل ان كل سهم اطلقته كان يصيب الهدف ، معتزة بالنجاح اعتزازا مخبلا في حين كان غرورها ورضاها عن نفسها لا يزيدان الرجل الذي رغب في ان تفتنه الا صدودا ونفورا - اقول كان في هذا كله ما اخضعني ، في آن معا ، لاهتياج موصول ولكبح لا يعرف الرحمة .

ذلك بأنني رأيت - حين اخفقت - كيف كان من الممكن ان تتحقق بالنجاح . فقد كنت اعلم ان السهام التي ارتدت على نحو موصول عن صدر مستر روتشيستر والتي تساقطت عند قدميه من غير ان تمسه بسوء كان في امكانها لو رمته يد اشد ثباتا ان تنفذ الى صميم قلبه الفخور ، بعد ان تدعو الحب الى عينيه الصارمتين ، والرقه الى وجهه الساخر . بل لقد كنت اعلم ان انتصارا صامتا كان في الامكان احرازه بغير سلاح .

وسألت نفسي : « ما الذي يجعلها غير قادرة على مزيد من السيطرة عليه ، وهي التي تنعم بحق الاقتراب منه الى هذا الحد ؟ ليس من ريب في انها لا تستطيع ان تحبه حقا ، او لا تستطيع ان تحبه حبا مشبوبا بعاطفة صادقة ! ولو قد كانت قادرة على ذلك اذن لما احتاجت الى اطلاق ابتساماتها بمثل هذا السخاء البالغ ، وتصويب نظراتها على هذا النحو الموصول ، ولما احتاجت الى تكلف هذه المظاهر الجوّدة كل هذا التجويد ، واصطناع هذه الاناقات المتنوعة الى هذا الحد . لقد بدا لي انه كان في ميسورها ، بمجرد الجلوس بجانبه في هدوء ودعة ، وبشيء من الاقتصاد في الكلام وارسال النظرات ، ان تمسي ادنى الى قلبه . ولقد سبق لي ان رأيت في وجهه انطباعة مختلفة اختلافا بعيدا عن تلك التي تقسيه الان فيما هي تخاطبه بكثير من النشاط والمرح . ولكن هذه

الانطباعة انبعثت آنذاك من تلقاء نفسها ، انها لم تَنْتَرْعَ انتزاعا بضروب من الحيل المبهجة والناورات المدروسة . ولم يكن على المرء الا ان يتقبَّلها - والا ان يجيب عن اسئلته في غير ما ادعاء ، وان يوجه الخطاب اليه عند الاقتضاء في غير ما تجهّم - ليجد في الحال انها نمت وغدت الطف وابهج ، وانها اوقعت الدفء في نفسه مثل اشعة شمس محيية . كيف ستوفق الى ارضائه حين يجمع الزواج ما بينهما ؟ لست اظن انها ستوفق الى ذلك ، ومع هذا فقد توفق بطريقة ما . وعلى اية حال فأنا اؤمن ايمانا راسخا بأن زوجته سوف تكون اسعد امرأة تشرق عليها الشمس » .

انا لم اقل حتى الان ايما شيء يُشعر باستنكاري لرغبة مستر روتشيستر في الزواج بدافع من المصلحة والاعتبارات العائلية . ولقد دهشت عندما اكتشفت ، اول ما اكتشفت ، ان هذه كانت هي نيته : كنت قد حسبتُه رجلا لا يمكن ان يتأثر بعوامل مبتذلة مثل هذه في اختيار الزوجة ، ولكني كلما اطلت التفكير في مركز الفريقين الاجتماعي وثقافتهم الخ استشعرت ان لا حق لي في ادانته وادانة مس اينغرام او في لومهما بسبب من تصرفهما وفقا لفكرات ومبادئ نشأنا عليها ، من غير ريب ، منذ طفولتهما . ان افراد طبقتهم ليعتقدون هذه المبادئ . لقد حسبت ، آنذاك ، ان لهما اسبابا تبرر هذا الاعتناق ، ولكنها اسباب لم استطع ان ادرك كنهها . ولقد بدا لي اني لو كنت رجلا مثله اذن لما ضمنت الى صدري الا زوجة حبيبة الى قلبي ، ولكن مجرد وضوح افضلية هذا الضرب من زواج الحب الذي يورث الرجل السعادة والهناء اقنعني بأنه لا بد ان تكون ثمة اعتبارات تحول دون تبني الناس له على نحو شامل ، اعتبارات كنت اجهلها كل الجهل . ولولا ذلك لكان خليقا بالبشر كلهم - وقد كنت على مثل اليقين من ذلك - ان يتصرفوا مثلما وددت ان اتصرف .

ولكن الايام كانت قد اخذت تجعلني شديدة التساهل في بعض النقاط الاخرى - كشأني في هذه النقطة - مع مستر روتشيستر . كنت قد شرعت انسى جميع عيوبه ، التي كنت من قبل اقف منها موقف الحذر البالغ . لقد كان من دأبي في ما مضى ان احاول دراسة جوانب شخصيته كلها ، ما طاب منها وما خبث ، وان ازن كلا منها لاصدر بعد ذلك حكما عادلا . اما الان فلم اعد ارى فيها اي شيء خبيث . لقد اُمسست سخريته التي كانت من قبل تشير نفوري وفضاظته التي افزعنتني في يوم من الايام مجردَ توابل حادة في طبق طعام ممتاز : كان وجودهما حريفا ، ولكن غيابهما كان يوقع في النفس معنى من التفاهة النسبية . اما ذلك الشيء الغامض - هل كان انطباعة مشؤومة ام محزونة ، انطباعة مصممة ام يائسة ؟ - الذي ينكشف في عينيه ، بين الفينة والفينة ، للمتماطل البصير ثم لا يلبث ان ينغلق قبل ان يوفق المرء الى سبر غوره العجيب المنفتح على نحو جزئي ، ذلك الشيء الذي كان من دأبه ان يوقع في قلبي الرعب والرغبة في الانكماش وكانني كنت هائمة على وجهي في

هضابٍ بركانية السمات ثم استشعر فجأة ان الارض تميد من تحست قدمي وأراها تغفر فأها ، ذلك الشيء بالذات كنت لا افناً اشهده ، بين الفينة والفينة ، بقلب واجف ، ولكن ليس بأعصاب مشلولة • وبدلاً من ان ارغب في تحاشيه ، أصبحت لا اتوق الا الى الجراءة على التكهن به • ولقد خيل الي ان مس اينغرام امرأة سعيدة ، لانها سوف توفق ذات يوم الى انعام النظر في تلك الاعماق ، في اناة وريث ، فتكتشف اسرارها ، وتحلل طبيعة هذه الاسرار •

وفي غضون ذلك ، بينا كنت لا افكر الا في سيدي وعروسه المقبلة - لا ارى غيرهما ، ولا اسمع غير حديثهما ولا اولي اهتمامي غير حركاتهما - كان سائر القوم منهمكين في اشواقهم ومُتَعَمِّمِ المستقلة الخاصة • لقد واصلت اللايدي لين واللايدي اينغرام اضاعة الوقت في احاديث رزينة ، كانتا خلالها تهزان برأسيهما المتوجين بـ « عماتيسن » هزات ذات مغزى ، وترفعان ايديهما الاربع في ايماءات مواجهة تنم عن دهش او تحير او دعر ، وفقاً للموضوع الذي دارت عليه ثرثرتهما ، وكأنهما دميّتان مجسّمتان • وتحدثت مسز دينت الدمنة الى مسز ايشتون الانيسة ، ومنّت كل منهما علي في بعض الاحيان بكلمة لطيفة او ابتسامة مجاملة • اما السير جورج لين ، والكولونيل دينت ، ومستر ايشتون فتناقشوا في السياسة ، او في شؤون الاقليم ، او قضايا العدالة • وغازل اللورد اينغرام آيمي ايشتون ، وعزفت لويزا وغنّت لاحد السيدين « لين » او معه ، في حين اصغت ماري اينغرام في وهنٍ وفنور الى احاديث الآخر الرقيقة الراسخة بالتودد • وفي بعض الاحيان كان القوم كلهم يقطعون حديثهم الجانبي ، وكانما يفعلون ذلك باتفاق اجماعي ، ليراقبوا الممثلين الرئيسيين او يصغوا لهما ، اذ كان مستر روتشيستر على اية حال ومس اينغرام - بحكم ارتباطها الوثيق به - هما حياة الجماعة وروحها • كان اذا غاب عن الحجرة ساعة ، بدا وكأن فتورا ملحوظا قد انسدل الى نفوس ضيوفه ، حتى اذا عاد خلج دخوله على الاحاديث حيوية جديدة •

ولقد افتقد سلطانه المحيي ، اكثر ما يكون الافتقاد ، في ذات يوم دعي فيه الى ميلكوت كقضاء بعض الاعمال ، وكان من غير المحتمل ان يرجع في ساعة مبكرة • كان ذلك الاصيل ماطرا • وكان الاتفاق قد انعقد على ان تقوم الجماعة بنزهة على الاقدام لرؤية مخيم من مخيمات الفجر نصب مؤخرًا في ساحة عمومية وراء « هاي » ، فلما ارتحل مستر روتشيستر اضطروا الى ارجاء النزهة • لقد ذهب بعض المدعويين الى الاسطبلات ، وانصرف فريق منهم اصغر سناً ، مع السيدات الانضر شبابا ، الى لعب البليارد في حجرة البليارد • والتمست الارملتان اينغرام ولين السلوان في دورة هادئة من دورات لعب الورق • وكانت بلانش اينغرام - بعد ان ردّت ، في صمت متشامخ ، بعض محاولات مسز دينت ومستر ايشتون لاستدراجها الى الحديث - قد شرعت تقمغم ، على البيانو ، عازفة بعض الالحان العاطفية لتعود بعد ذلك فتبحث عن قصة في المكتبة ، حتى اذا وجدت طليبتها استلقت في تواء متكبّر على

احدى الارائك ، واخذت اهبتها لكي تبدد ، من طريق سحر الرواية ، ساعات الغياب الراشحة بالسأم . كان الصمت يرسن على الحجرة والقصر ، وبين الفينة والفينة كان مرح لاعبي البليارد ليس غير ، يُسَمِع من فوق .

كانت الشمس قد جنحت للغروب ، وكانت ساعة الجدار قد اعلنت ان موعد ارتداء ملابس العشاء قد آن ، عندما صاحت آديل الصغيرة وكانت راکعة على مقربة مني فوق المقعد القائم تحت عتبة النافذة في حجرة الاستقبال :

« هو ذا مسيو روتشيستر ! لقد عاد ! »

فاستدرت ، ووثبت مس اينغرام من اريكتها ، ورفع الآخرون اعينهم عما كانوا فيه من اعمال وملاه ، اذ سمعت في الوقت نفسه قرقة عجلات ووقع حوافر خيل تثير الرشاش فوق حصباء الطريق الندية . كانت عربة من عربات البريد تقترب .

وقالت مس اينغرام : « ما الذي استحوذ عليه فجعله يعود على هذه الصورة ؟ لقد امتطى متن مسرور ( الجواد الاسود ) عندما غادر القصر ، اليس كذلك ؟ ولقد كان بايلوت معه ، فاي شيء فعله بالبهيمتين ؟ »

قالت ذلك وأدنت قوامها الطويل وملابسها الفضفاضة من النافذة الى حذاء اضطرني الى الانحناء الى الورا حتى لقد كاد عمودي الفقري ينكسر . كانت اللهفة قد غلبت عليها فلم تلمحني بادی الامر ، حتى اذا وقع نظرها علي زمت شفتها وانتقلت الى نافذة اخرى . ووقفت عربة البريد ، ورن الحوذي جرس الباب ، وترجل سيد مرتد بزة سفر . بيد انه لم يكن مستر روتشيستر ، كان رجلا فارع الطول انيق المظهر ، غريبا من الغرباء .

وهنا صاحت مس اينغرام : « شيء يثير الحق ! من الذي وضعك فوق النافذة ( ووجهت الكلام الى آديل ) ، ابتها القردة المتعبة ، لكي تديعي أخبارا خادعة ؟ » ورشقنتني بنظرة غضبي ، وكأنني انا الجديرة باللامة .

وفي الردهة سمع شيء من الاخذ والرد ، وسرعان ما دخل الوفد الجديد . لقد انحنى تحيةً للايدي اينغرام ، معتبرا اياها كبرى السيدات الحاضرات سنا .

وقال : « يبدو اني اقبلت في وقت غير مناسب ، يا سيدتي ، خلال غيبة مستر روتشيستر عن البيت . ولكني راجع من رحلة طويلة جدا . واحسب ان في استطاعتي استنادا الى ما بيني وبينه من ودء قديم ، ان اجترى على النزول في هذا القصر حتى يؤوب » .

كان مسلكه مهذبا . ولقد بدهنتي نبوته في الكلام ، بوصفها غير مألوفة بعض الشيء ، - انها لم تكن اجنبية بالمعنى الدقيق ، ولكنها لم تكن في الوقت نفسه انكليزية خالصة . ولعل سنه كانت قريبة من سن مستر روتشيستر ، - بين الثلاثين والاربعين . كانت بشرته شاحبة على نحو فريد ، ولولا ذلك لكان رجلا بهي الطلعة ، عند النظرة الاولى بخاصة . حتى اذا راح المرء يتفرس فيه عن كسب اكتشف ان في وجهه شيئا لا يرضي ، او على الاصح شيئا لم

يستطع ان يوقع الرضا في النفس . كانت قسمات وجهه متناغمة ، ولكنها كانت مسترخية اكثر مما ينبغي . كانت عيناه واسعتين نجلاوين ، ولكن الحياة التي كانت تطل من خلالهما كانت تافهة فارغة - او هكذا ظننت على الاقل .

وبدء الجرس الخاص بارتداء ملابس السهرة شمل الجماعة . ولم ار الوافد الجديد ، كرة اخرى ، الا بعد العشاء . لقد بدا آنذاك مطمئن النفس الى بعد حد . ولكنني كرهت سيماء اكثر مما كرهتها من قبل ، فقد لاح لي انها قلقة وانها تعوزها الحياة في آن معا . كانت عيناه شاردتين ولكن شرودهما كان خلوا من المعنى ، ولقد اكسبه ذلك هيئة عجيبة لا اذكر البتة اني شهدت ضربا لها من قبل . والواقع اني نفرت منه نفورا عظيما على الرغم من ملاحظة وجهه وقربه الى النفس : فلم يكن ثمة اية قوة في ذلك الوجه الناعم البشرة ، البيضاءوي الشكل ، ولم يكن ثمة اي عزم في ذلك الانف الاقنى ، وذلك الفم الصغير الشبيه بحبة كرز ، ولم يكن ثمة اي فكر في ذلك الجبين الخفيض المستوي ، ولا اي حزم في تلك العين البنية التي تقتقر الى التعبير .

وفيما كنت جالسة في زاويتي المألوفة انظر اليه وقد انعكس ضوء الشمعدان ، الموضوع فوق رف الموقد ، على وجهه انعكاسا كاملا - اذ كان يحتل كرسيها ذا ذراعين ، ادناه الى قريب من النار ولم يكف عن ادناؤه اليها على نحو موصول وكأنما كان البرد يستبد به - قارنت ما بينه وبين مستر روتشيستر . لقد بدا لي - مع الاحترام الواجب - ان الفروق بين ذكر اوز ناعم وبين صقر ضارب ، بين حمل وديع وبين حاميهِ من الذئاب ، الكلب الخشن الشعر الثاقب العينين - اقول لقد بدا لي ان هذه الفروق لا يمكن ان تكون اكبر من الفرق بينه وبين مستر روتشيستر .

كان قد تحدث عن مستر روتشيستر فقال انه صديق له قديم . وليس من ريب عندي في ان صداقتهما هذه لا بد ان تكون صداقة غريبة . انها مثل صارخ على صدق الحكمة القديمة القائلة « ان طرفي النقيض يلتقيان » .

لقد جلس على مقربة منه رجلان او ثلاثة رجال ، فكان يقع في سمعي بين الفتنة والفتنة اطراف من حديثهم عبر الحجرة . انا لم استطع بادئ الامر ان افهم شيئا مما سمعته ، ذلك بان حديث لويزا ايشتون وماري اينغرام - وكانتا جالستين في مكان من الحجرة هو الي اقرب - شوّش علي الجمل المتقطعة التي تناهت الى اذني بين حين وآخر . وكانت هاتان السيدتان تتحدثان عن الغريب وتبديان رأيهما فيه . لقد اعتبرته كل منهما « رجلا وسيما » . وقالت لويزا انه « مخلوق فائن » و « انها تعبه » واعتبرت ماري « فمه الصغير الحلو وانفه الرائع » مثلها الاعلى في الفتنة .

وصاحت لويزا : « ما ابدع جبينه الراشح بعذوبة الخلق ! انه املس الى بعد الحدود ، منزّه عن تلك النفضات المقطبة التي اكرهها كراهة التحريم ! وعينه وابتسامته ؟ انما آية في الوداعة ! »

، هنا دعاها مستر هنري لين - وقد وقعت دعوته هذه في نفسي احسن .

موقع - الى الجانب الاخر من الحجرة ليبتئوا في امر ما ذي صلة بالنزهة  
المرجاة الى ساحة هاي العمومية .

لقد اصبح في ميسوري ، الان ، ان اركز انتباهي على الجمع المتحلق  
حول النار ، وسرعان ما فهمت ان الوافد الجديد يدعى مستر مايسون ، ثم  
علمت انه وصل الى انكلترة منذ ساعات ليس غير ، وانه قادم من احد البلدان  
الحارة ، وهذا من غير ريب ما جعل وجهه على ذلك الشحوب كله ، وما جعله  
يدني كرسيه الى المستوقد كل هذا الادناء ويتدثر بمعطف ، ضمن جدران  
البيت . وسرعان ما دلّ ورود هذه الكلمات ، جامايكا ، كينغستون ،  
سبانيشتاون ، في حديثه على انه كان يقيم في جزائر الهند الغربية . وما هي  
الا لحظات حتى استنتجت - في شيء غير قليل من الدهش - انه كان قد  
التقى هناك بمستر روتشيستر وتعرف اليه اول ما تعرف . لقد تحدث عن  
كراهية صديقه للمقيظ اللاهب ، والرياح الهوج ، وفصول المطر في تلك الديار ،  
والواقع اني كنت اعرف ان مستر روتشيستر كان في ما مضى رحالة كثير  
الاسفار ، فقد سبق لمسز فيرفاكس ان قالت ذلك ، ولكنني حسبت ان اسفاره  
هذه لم تتعدّ حدود القارة الاوروبية ، اذ لم يقدر لي ان اسمع - حتى في  
تلك اللحظة - اي الماع الى رحلات له في ديار اشد بعدا .

وكنت مستغرقة في التفكير في هذه الاشياء عندما قطعت علي خيط  
تأملاتي حادثة ما ، حادثة غير متوقعة بعض الشيء . ذلك بأن مستر مايسون ،  
وقد ارتعد حين اتفق لاحدهم ان فتح الباب ، طلب مريدا من الفحم لاذكاء  
النار ، التي كانت قد خبت ، برغم ان رمادها المتراكم كان لا يزال يتوهج  
بالحرارة والحمرة . ووقف الخادم الذي جاءه بالفحم ، فيما هو يغادر الحجرة ،  
على مقربة من كرسي مستر ايشتون وحده في صوت خفيض بكلام لم اسمع  
منه الا هذه الالفاظ : « امرأة عجوز » ، - مزعجة الى اقصى حد » .

فاجابه القاضي : « قل لها انها اذا لم تنصرف وضعت قدميها في  
الدّهق » .

فقاطعه الكولونيل دينت : « لا . . على رسلك . لا تطردها يا ايشتون .  
فقد نستطيع ان ننتفع بها . ومن الخير لنا ان نشاور السيدات » .

ثم جهر بالكلام وازاف : « ايها السيدات ، لقد تحدثنّ عن الذهاب  
الى ساحة « هاي » العمومية لتقمن بزيارة مخيم الفجر . وها ان « سام » يقول  
ان في حجرة الخدم ، في هذه اللحظة بالذات ، واحدة من العجائز ذوات  
الحدّبات ، وانها تصر على الاذن لها في المثول امام « النخبة المختارة » لكي  
تكشف لافرادها عن طولاعهم . فهل ترغبين في الاستماع اليها ؟ » .

فصاحت اللايدي اينغرام : « لست اشك ، ايها الكولونيل ، في انك  
لن تشجع مثل هذه الدجالة الوضيعة . اطردها في الحال ، مهما كلف الامر ! »



فقال الخادم : « ولكني لا أقوى على اقناعها بالانصراف ، يا سيدتي النبيلة ، بل لا يقوى على ذلك اي من الخدم . ان مسز فيرفاكس مجتمعة بها الان تتوسل اليها ان تنصرف ، ولكنها اتخذت لنفسها كرسيها وقعدت على مقربة من نار المستوقد وهي تقول ان اياما قوية لن تستطيع ان ترحلها من هناك حتى يؤذن لها في الدخول الى هنا » .

فسألته مسز ايشتون : « ماذا تريد ؟ »

- « هي تقول ، يا سيدتي ، انها تريد ان تكشف لحضرات الاعيان عن طوابعهم ، وهي تقسم قائلة ان عليها ان تفعل ذلك ، وانها لا بد ان تفعله » .  
فتساءلت الانستان ايشتون في آن معا : « وكيف شكلها ؟ »

- « مخلوقة دمية تنقرز النفس منها ، ايتها الانسة . سوداء مثل قدر يعلوها السخام ، تقريبا » .

فصاح فريدريك لين : « ولكنها عرافة حقيقية ! دعونا ندخلها في غير تردد » .

واضاف : اخوه : « بلاريب . وانه لمن اعظم الخطل والخسارة ان نضيع هذه الفرصة المفعمة باسباب المرح والهزل » .

فهتفت مسز لين : « ما الذي تفكران فيه ، يا ولدي العزيزين ؟ »  
وضمت الارملة اينغرام صوتها الى صوت مسز لين وقالت : « انا لا استطيع ان اؤيد ، البتة ، مثل هذا الصنيع غير اللائق » .

- « حقا ، يا ماما ، ولكنك تستطيعين . . . . . ولسوف تستطيعين » كذلك قالت بلانش بصوتها المتكبر ، فيما كانت تستدير فوق كرسي البيانو ، حيث جلست - حتى تلك اللحظة - صامتة تتأمل في ما يبدو مختلف صحائف الالحان الموسيقية . « اني لاستشعر فضولا الى الاستماع الى عرافة تكشف لي بختي . واذن ، ادخل العجوز الشمطاء ، يا سام » .

- « يا عزيزتي بلانش ، تذكري . . . . »

- « اني اتذكر . . . . . اتذكر كل ما ترغيبين في قوله . ومع ذلك فيجب ان انفذ ارادتي . عجل ، يا سام ، عجل ! »

وهنا صاح الشباب جميعا ، من سيدات وسادة : « اجل ! اجل ! اجل ! ادخلها . . . . . انها سوف تتيح لنا فرصة للمزاح ممتازة ! »

فقال الخادم وهو لا يزال يتلکأ : « انها تبدو جلقة الى ابعد الحدود » .  
فصاحت مس اينغرام : « اذهب ! »

وفي الحال استبد الهياج بالجماعة كلها . كان دفق موصول من السخرية والمزاح قد انطلق عندما رجع سام .

لقد قال : « انها لن تجيء الان . هي تقول انه ليس من واجبها ان تمثل امام » قطع الرعاع « ( كما عبّرت بالحرف الواحد ) . وان علي ان ادخلها الى حجرة خالية ، ومن ثم يتعين على الراغبين في استشارتها ان يدخلوا عليها واحدا اثر واحد » .

فقال الالدي اينغرام : « ها انت ترين ، الان ، يا بلانشتي الملكية انها تتناول . كوني عاقلة . يا فتاتي الملائكية . . . و . . . »

فقاطعتها « الفتاة الملائكية » قائلة : « ادخلها الى المكتبة . هذا شيء طبيعي ، فليس من واجبي ، انا ايضا ، ان اسمع نبوءاتها امام قطيع الرعاع . اني اريد ان اخلو بها وحدي . هل في حجرة المكتبة نار موقدة ؟ »

– « نعم ، يا سيدتي . ولكنها تبدو صخّابة مهذرة الى ابعد حد . »

– « كفّ عن هذه الشرثرة ، ايها الاحمق ! ونفّذ ما امرتك به . »

وكرة اخرى توارى سام . وكرة اخرى جرفت الجماعة موجة عارمة من الفضول ، والنشاط ، والتوقع .

وقال الخادم لدن عودته : « انها على استعداد ، الان ، وهي تريد ان تعرف من سيكون زائرهما الاول . »

فقال الكولونيل دينت : « ارى من الخير ان القي عليها مجرد نظرة قبل ان تذهب اي من السيدات للاجتماع بها . »

– « قل لها ، يا سام ، ان زائرهما الاول سوف يكون رجلا . »

فمضى سام ثم رجع ليقول : « لقد قالت ، يا سيدي ، انها لن تستقبل ايها رجل . فلا داعي لان يتجشموا عناء الدنو منها . » وسكت لحظة ثم اضاف كابجا ، في عسر ، ضحكة توشك ان تنطلق : « لا ، ولا داعي لان تتجشّم السيدات مثل هذا العناء . فهي لن تقابل منهن الا الشابات غير المتزوجات . »

فهتف هنري لين : « وحق الاله ، انها لتتمتع بذوق رفيع ! »

عندئذ وقفت مس اينغرام في جلال ، وقالت في لهجة تليق بقائد مغامرة يعتزم ان ينهض وحده ، من دون طليعة رجاله كلهم ، بعبء القتال . « سأذهب انا اولاً . »

فما كان من امها الا ان صاحت : « اوه ، اوه ، يا خير الناس عندي ! اوه ، يا اعز الناس عندي ! تمهلي . . . فكري ! » ولكنها اندفعت متجاوزة اياها في صمت مهيب ، وخرجت من الباب الذي فتحه الكولونيل دينت ، وسمعتها تدخل حجرة المكتبة .

وران ، بعد ذلك ، صمت نسبي . واعتبرت الالدي اينغرام ان الموقف يقضيها ان تفرك يديها جزعا . وهو ما فعلته حقا . واعلنت مس ماري انها ، في ما يتصل بها شخصيا ، اعجز من ان تقدم على مثل هذه المغامرة في يوم من الايام . وضحكت آيمي ولويزا ايشتون ضحكا مهموسا ، وبدت على وجهيهما امارات ذعر طفيف .

وتقضّت الدقائق في بطء بالغ . واحصينا خمس عشرة دقيقة قبل ان يفتح باب حجرة المكتبة من جديد . لقد عادت لنا مس اينغرام من خلال القنطرة .

هل ستضحك ؟ هل ستعتبر الامر كله مجرد مزحة ؟ لقد استقبلتها الاعين كلها بنظرة فضول متلهّف ، واستقبلت هي الاعين كلها بنظرة صدوفٍ

وفتور . انها لم تبد' لا مضطربة ولا مبتهجة . لقد تقدمت الى كرسيها في خطى' تعوزها الرشاقة ، واستوت عليه في صمت .

وسألها اللورد اينغرام : « ما وراءك يا بلانش ؟ »

وسألها ماري : « ماذا قالت لك ، ايها الشقيقة ؟ »

وقالت الآنستان ايشتون متسائلتين : « ما رأيك الان ؟ ما هو شعورك ؟

اهي عرافة حقيقية ؟ »

فما كان من مس اينغرام الا ان ردت عليهم جميعا : « كفى ، كفى ، ايها القوم الطيبون . لا تلحفوا علي في السؤال . الواقع ان حاسستي الدهش والتصديق عندكم تستثاران في سهولة ويسر . ويبدو لي ، من الاهمية التي تعلّقونها جميعا - وفيكم والدتي الطيبة نفسها - على هذه المسألة ، انكم تؤمنون ايمانا راسخا بأن عندنا في هذا القصر عرافة حقيقية ، على اوثق الاتصال بالشیطان ! لا ، يا سادتي ، لقد رأيت عجربة من العجريات الرحل ، ولقد اصطنعت' ، بطريقة مبتذلة ، علم قراءة الكف ، وراحت تكرر على مسمعي ما يقوله امثال هؤلاء القوم عادة . لقد اشبعت' نزوتي ، ويخيل الي الان ان مستر ايشتون يحسن صنعا اذا ما وضع قدمي' تلك الحيزبون في الدّهق ، غدا صباحا ، كما توعدّ من قبل . »

وتناولت مس اينغرام كتابا ، وغارت في كرسيها رافضة' بذلك ايما مواصلة' للحديث . وراقبتها نحوا من نصف ساعة ، لم تقلب خلالها صفحة واحدة من صفحات الكتاب ، في حين كان وجهها يزداد اكفهرارا لحظة بعد لحظة ، ويزداد تعبيراً عن معاني السخط والخيبة المريعة . انها لم تسمع ، من غير ريب ، اي شيء في مصلحتها ، ولقد بدا لي من نوبة الكآبة والصمت الطويلة التي المّت بها انها هي نفسها كانت ، برغم ما تظاهرت به من لامبالاة وعدم اكتراث ، تعلق اهمية لا مبرر لها على النبوءات التي ادلي اليها بها ، ايا ما كانت هذه النبوءات .

وفي غضون ذلك اعلنت ماري اينغرام ، وآيمي ولويزا ايشتون ، انهن لا يجدن في انفسهن الجراءة على الشخوص الى حجرة المكتبة على انفراد ، ومع ذلك فقد كنّ كلهن راغبات في ذلك . وهكذا افتتحت مفاوضات من خلال السفير ، سام ، وبعد كثير من الذهاب والاياب ، نفذ خلاله صبر الفتيات الثلاث ، وافقت « سيبييل » الصارمة في عُسْر بالسّخ - على استقبالهن مجتمعات' .

ولم تكن زيارتهن ساكنة' سكون زيارة مس اينغرام . فقد تناهى الى سمعنا خلالها قهقهات هستيرية وصرخات طفيفة منبئة من حجرة المكتبة . وبعد عشرين دقيقة ، او نحوها ، فتحن الباب في قوة ، واندفعن مهرولات عبر الحجرة ، وكان الرّوع قد ذهب بصوابهن .

لقد صحن ، دفعة' واحدة : « انا واثقة من ان لهذه المرأة قدرة خارقة ! كيف استطاعت ان تنبئنا بهذه الاشياء كلها ؟ انها تعرف كل شيء عنا ! »

وغرقن لاهثات في الكراسي المختلفة التي سارع الرجال الاماجد الى تقديمها اليهن .

حتى اذا الح عليهن القوم طالبين شرحا اضافيا اعلن انها حدثت عن اشياء قلنها او فعلنها يوم كن في صدر طفولتهن ، ووصفت لهن كتبنا ونفائس اشتملت عليها مقاصيرهن الخاصة ، وهدايا وتذكارات كان قد قدمها اليهن انسبائ لهن مختلفون . واكدن انها ذهبت الى حد قراءة ما كان يجول في افكارهن ، وانها همست في اذن كل منهن باسم الشخص الذي تؤثره بأعظم الحب ، في هذا العالم ، وانباتهن بغاية ما كانت نفوسهن تهفو اليه وتتمناه .

وهنا قاطعن الرجال متوسلين اليهن في حرارة ولهفة ان يزدرنهم تفصيلا حول النقطتين الاخيرتين ، فلم يفوزوا منهن ، بعد هذا الالاح كله ، بغير حمرة الخجل وضروب الصيحات والتشنجات والضحكات . وفي غضون ذلك قدّمت اليهن النسوة المتزوجات علبا صغيرة فيها صنوف من العطور القوية ، ورحن ينعشنهن بالمرائح . وكررن مرة بعد اخرى ، التعبير عن قلقهن بسبب من ان الفتيات لم يعملن في الوقت المناسب وفقا لنصائحهن وتحذيراتهن . وضحك الرجال المتقدمون في السن ، والحفـ الشبان في عرض خدماتهم على الحسان اللواتي استبد بهن الاهتياج .

وفي غمرة من هذه الجلبة ، وفيما كانت عيناى واذاى مستغرقة في المشهد البادي امامي ، سمعت شخصا يتنحج عند مرفقي . والتفت فاذا بي اجد سام .

لقد قال لي : « عفوا ، يا آنسة ، تعلن الفجرية ان في الحجرة شابة اخرى غير متزوجة لما تعقد عليها بعد ، وهي تقسم انها لن تغادر القصر الا بعد ان تتم لها رؤية الفتيات جميعا . ولقد قدّرت انك انت الشابة المعنية ، فلم يبق في الحجرة من ينطبق عليها هذا الوصف غيرك . ما الذي تودين ان اقله لها ؟ »

فاجبته : « اوه ، سوف امضي اليها مهما كلف الامر » . وكنت سعيدة بان تتاح لي تلك الفرصة اللامرتقة لاشباع فضولي الذي استثير الى حد بعيد . فانسملت من الحجرة ، في غفلة من الاعين جميعا - ذلك بان القوم كانوا كلهم متحلقين حول الثلاثي المرتعد الذي انقلب الى الحجرة منذ قريب - واوصدت الباب خلفي في سكون .

فقال سام : « سوف انتظر في الردهة ، ابتها الآنسة ، ان شئت . حتى اذا روءتكم لم يكن عليك الا ان تناديني ، فأهرع لنجدتك » .  
- « لا ، يا سام ، عد الى المطبخ . انا غير خائفة البتة » .  
والحق اني لم اكن خائفة . ولكني كنت شديدة التطلع والانفعال .

— اذا صحَّ انها كانت « سييل » — مستوية على نحو مريح في كرسي وثير ، غير بعيد عن المستوقد . كانت ترتدي عباءة حمراء ، وتعتمر بقلنسوة سوداء ، او على الاصح بقبعة عريضة الحافة من قبعات الفجر مشدودة الى ما تحت الذقن بمنديل مخطط . وعلى الطاولة كانت شمعة مطفأة ، وكانت هي منحنية فوق النار ، وقد بدت وكأنها تقرأ في كتيب اسود ، شبيه بكتاب صلاة ، على ضوء اللهب . لقد غمغت بالكلمات في ما بينها وبين نفسها ، فعَلَّ الكثرة الكاثرة من العجائز حين يقرآن . ولم تكفَّ عن القراءة لدن دخولها عليها مباشرة : لقد بدا وكأنها تريد ان تتم تلاوة فقرة من الفقرات .

ووقفت على السجادة ، ودفأت يدي اللتين كان الجلوس على مبعدة من نار حجرة الاستقبال قد ذهب بحرارتها . واستشعرت الان طمأنينة لا تقلُّ عن طمأنينتي المألوفة في الاحوال العادية . فالواقع انه لم يكن في مظهر الفجرية ما يعكر سكينه المراء . لقد اغلقت كتابها ، ورفعت بصرها في اناة . كانت حافة قبعتها تحجب وجهها على نحو جزئي ، ومع ذلك فقد استطعت ان اتبين ، حين رفعته ، انه كان وجهها غريباً . لقد بدا اسمر واسود كله ، ومن تحت العصابة البيضاء المعقودة عند ذقنها برزت خصل شعرها الشائك الشبيه بشعر السَّعالي ، فحجب نصف خديها ، او على الاصح نصف فكَّيها . وفي الحال رشقتني عينها بنظرة جسورة مباشرة .

وسألتني في صوت حازم مثل نظرتها ، خشن مثل قسمات وجهها :  
« حسنا ، وانت ايضا تريدان ان اكشف لك عن طالعك ؟ »

— « انا لا ابالي به ، يا اماء . في امكانك ان تكشف لي عنه اذا كان في هذا ما يسرُّك . ولكن علي ان احذرك ، فانا لا اؤمن بهذه الامور » .

— « هذا الكلام الذي تقولينه يتناغم كل التناغم مع وقاحتك . كنت اتوقع هذا منك ، لقد سمعته في خطوك وانت تجتازين العتبة » .

— « صحيح ؟ ان لك لاذنا مرهقة حادة » .

— « اجل . وبصرا حادا ، وذكاء حادا » .

— « انت تحتاجين الى هذا كله في صناعتك » .

— « هذا صحيح . وبخاصة حين يتعين علي ان اكشف طوابع زبائن من مثلك . لماذا لا ترتعدين ؟ »

— « لست اشعر بالبرد » .

— « لماذا لا يغلب الشحوب على وجهك ؟ »

— « انا لست مريضة » .

— « لماذا لا تفرعين الى فني تلتسمين عنده المشورة ؟ »

— « لاني لست بلهاء » .

عندئذ ضحكت العجوز الحيزبون ضحكة اختفت تحت قبعتها وعصابتها ، ثم اخرجت « بيبة » قصيرة سوداء ، واشعلتها ، وانشأت تدخن . حتى اذا انغمست برهة يسيرة في هذه المتعة المخدرة تصدَّرت ، واخرجت « البيبة »

من بين شفيتها ، ثم قالت في روية مفرطة وهي تحديق الى النار على نحو موصول :

« انت تشعرين بالبرد ، انت مريضة ، انت بلهاء » .

فاجبتها : « برهني على ذلك » .

« سوف افعل ، في كلمات معدودات . انت تشعرين بالبرد لانك متوحدة ، لا احتكاك يقدح منك الناز الكامنة فيك . وانت مريضة ، لان انبل ما وُهبه الانسان من شعور وأكثره سموا وعذوبة ينأى بجانبه عنك . وانت بلهاء ، لانك برغم ما يعتلج في صدرك من أسى\* وألم ، لا تؤمنين الى ذلك الشعور ان يدنو . لا ، ولا تتقدمين خطوة واحدة لكي تلتقيه حيث ينتظرك » .  
ووضعت بيبتها السوداء القصيرة بين شفيتها ، كرة\* اخرى ، واستأنفت تدخينها في قوة .

« في ميسورك ان تقولي هذا كله لا يما امرى\* - تقريبا - تعرفين انه يحيا حياة مرتزق متوحد في قصر كبير » .

« اجل ، في ميسوري ان ا قوله لا يما امرى\* تقريبا . ولكن هل يصح في ايما امرى\* تقريبا ؟ »

« اذا كانت ظروفه مثل ظروفي » .

« اجل . بالضبط ، في مثل ظروفك انت . ولكن دليني على شخص آخر تكتنفه نفس الملابس التي تكتنفك انت على وجه الدقة » .

« من اليسير علي ان أدلك على آلاف من مثل هذا الشخص » .

« لن يكون في امكانك ان تدليني على شخص واحد الا بشق النفس . ان وضعك في الواقع ، يكاد يكون معدوم النظير : السعادة على مقربة دانية منك . اجل انها في متناول يدك . واسبابها كلها مهياة لك ، وهي لا تحتاج الا الى حركة تجمع شتاتها . لقد وضعتها المصادفة في نقاط متناثرة بعض الشيء . اعلمي الى الجمع ما بينها تحمدي العواقب قبل ان يرتد اليك طرفك » .

« انا لا افهم الاحاجي . ولم استطع في ايما يوم من ايام حياتي ان احزر لغزا واحدا » .

« اذا اردتني ان اخاطبك بلغة اوضح فليس عليك الا ان تريني باطن كفك » .

« وان اضع في يديك بعض النقود ، اليس كذلك ؟ »

« من غير ريب » .

ومنحتها شلنا ، فوضعتها في « قَدَم » جورب عتيق اخرجته من جيبها ، حتى اذا فتلتته واحكمت عقده واعادته الى موضعه سألتني ان ابسط يدي . فنزلت عند ارادتها ، فادنت وجهها الى باطن كفي ، وانعمت النظر اليه من غير ان تمسه ثم قالت :

« ان راحتك ناعمة اكثر مما ينبغي . انا لا استطيع ان افهم شيئا من

يد كهذه ، تكاد تخلو من الخطوط . والى هذا ، فاي شيء في راحة اليد ؟ ان  
قدّر الانسان ليس مسطورا فيها .

فقلت : « هذا شيء اترك عليه » .

فتابعت تقول : « لا . انه مسطور في الوجه : على الجبين ، حول  
العينين ، في العينين نفسيهما ، في اسارير الفم . اركعي ، وارفعي رأسك  
الى اعلى » .

وقلت وانا امثل امرها : آه ! لقد اخذت ، الآن ، تقتربين من الحقيقة .  
ولسوف ابدأ منذ هذه اللحظة في الايمان بك بعض الشيء » .

وركعت على مبعدة نصف ياردة عنها . وراحت تؤجج النار حتى لقد  
اندلع من بين الفحمات المهاجة لهب متموج . بيد ان وهج النار لم يلق على  
وجهها ، في جلستها تلك ، غير ظل اكثف . اما وجهي انا فقد اضاءه الوهج  
ونوره .

وقالت بعد ان تأملتني ملياً : « اني لاتساءل بأي المشاعر وفدت الي  
الليلة ، واي الخواطر كانت تضج في فؤادك خلال تلك الساعات الطويلة  
التي تسليخينها جالسة في تلك الحجرة ، حيث ينطلق امامك اولئك القوم  
المترفون وكأنهم صورو في فانوس سحري . انك لا تخالطينهم الا في أيسر  
قدّر من المشاركة الوجدانية ، فكانهم في الواقع اطياف لشخوص من البشر ،  
لا الشخوص الحقيقيين انفسهم » .

- « اني كثير ما استشعر التعب ، وفي بعض الاحيان يغلب علي  
النعاس . ولكنني نادرا ما استشعر الحزن » .

- « اذن فان لديك املا خفيا يستنهض همتك ويهيج نفسك بهمسات عن  
المستقبل ؟ »

- « لا ، علي الاطلاق . ان اقصى ما اطمح اليه هو ان اقتصد من مكاسب  
بعض المال استعين به ، في مقبلات الايام ، على انشاء مدرسة خاصة بي في  
مبنى استأجره لهذا الغرض » .

- « غذاء حقير لا يسمن الروح ولا يغنيها من جوع . وخلال جلوسك  
المألوف في المقعد القائم تحت قاعدة النافذة ( انت تلاحظين اني اعرف  
عادتك ) ..... »

- « لقد اطلعت عليها من طريق الخدم » .

- « آه ، انت تحسبين نفسك متقدمة الذهن . حسنا ، ربما كان ذلك  
صحيحا . ولاقل الحقيقة : اني لاعرف واحدة منهم ..... هي مسز بول ..... »

واجفلت واقفة على قدمي لدن سماعي هذا الاسم . وقلست في ذات  
نفسي : « انت تعرفين ..... هل تعرفينها ؟ ..... ان في المسألة اذن لسحرا  
شيطانيا ، على كل حال ! »

فاردفت المخلوقة الغريبة : « لا تراعي ! ان مسز بول خادمة مأمونة ،  
امرأة هادئة قريبة الى النفس ، وفي ميسور المرء ان يوليها ثقته . ولكن ، كما

كنت اقول ، الا تفكرين - خلال جلوسك المألوف في المقعد الغائم تحت قاعدة النافذة - بغير المدرسة التي تعترمين انشاءها في المستقبل ؟ اليس لك ايما اهتمام حالي بأحد من الجماعة الذين يحتلون الان الارائك والكراسي تجاهك ؟ اليس ثمة بينها وجه واحد يحلو لك ان تدرسيه ؟ وجه واحد تتابعين حركاته ، على الاقل ، في فضول ؟ »

- « انا احب ان الاحظ جميع الوجوه . »

- « ولكن الا تؤثرين احيانا ملاحظة وجه واحد من بينها جميعا ، او ربما وجهين اثنين ؟ »

- « انا افعل ذلك في كثير من الاحيان . عندما تبدو ايماءات الرجل والمرأة ونظراتهما وكأنها تروي حكاية : اني لاجد في مراقبتهما - في هذه الحال - متعة وتسلية . »

- « اية حكاية تحبين ان تسمعيها اكثر ما يكون ؟ »

- « اوه ، ليس مجال الاختيار واسعا امامي ! ان الحكايات كلها تدور عادة على موضوع واحد ، هو المفاصلة ، وتعدُّ بأن تنتهي الى كارثة لا تتغير ، هي الزواج . »

- « وهل تحبين ذلك الموضوع الرتيب ؟ »

- « لا ، من غير ريب . انا لا ابالي به . انه ليس عندي بشيء . »

- « ليس عندك بشيء ؟ عندما تجيء سيدة ناضرة العود . مفعمة بالحياة والصحة ، فاتنة الجمال ، ذات مركز اجتماعي رفيع وثروة طائلة ... وتجلس وتبسم في عيني رجل انت تـ ... »

- « انا ماذا ؟ »

- « رجل انت تعرفينه ... وربما تطيلين التفكير فيه . »

- « لست اعرف الرجال في هذا القصر . اني نادرا ما تبادلت مع احد منهم كلمة واحدة ، او مقطعا من كلمة . اما في ما يتصل بالتفكير فيهم فاني اعتبر بعضهم قوما محترمين مهيبين بلغوا سن الكهولة ، وبعضهم الاخر شبابا ذوي اناقة ووسامة وحيوية . ولكن لهم جميعا ، من غير ريب ، ملء الحرية في ان يتلقوا الابتسامات من شفتي اية سيدة تعجبهم ، من غير ان اشعر بأيما رغبة في النظر الى هذا الصنيع وكأن له اية اهمية بالنسبة الي . »

- « انت لا تعرفين الرجال في هذا القصر ؟ انت لم تتبادلي مع احد منهم كلمة واحدة او مقطعا من كلمة ؟ هل تستطيعين ان تقولي هذا عن رب القصر ايضا ؟ »

- « انه ليس في القصر الان ؟ »

- « ملاحظة عميقة ! ومغالطة ليس ابرع منها ! لقد ذهب الى ميلكوت هذا الصباح ، ولسوف يؤوب الليلة ، او غدا : ايكون في هذه الواقعة ما يقصيه من لائحة معارفك ... ما يمحوه - اذا جاز التعبير - من الوجود ؟ »

- « لا ، ولكني لا اكاد ارى اي شأن لمستتر روتشيستر بالموضوع الذي



أثرته ، .

« كنت اتحدث عن سيدات يتبسّمن في عيون الرجال ، وفي الفترة الأخيرة ستفحت في عيني مستر روتشيستر ابتسامات لا تكاد تحصي ، حتى لقد فاضتا مثل كأسين اترعتا على الشفة . ألم تلاحظي ذلك البتة ؟ »

« ان للمستر روتشيستر حقاً في الاستمتاع بمعاشرة ضيوفه . »

« لست اجادل في حقه هذا . ولكن ألم تلاحظي ان مستر روتشيستر قد خُصّ ، من بين جميع الحكايات المروية هنا عن الزواج ، بالحكاية الأكثر حيوية وديمومة ؟ »

« ان لهفة المستمع تجعل لسان المتحدث أكثر فصاحة وذرايلة » قلت ذلك لنفسي أكثر مما قلته للفجرية التي كانت قد وفقت الان ، بحديثها العجيب وبصتها ومسلكتها الغريبين ، الى ان تلفني بضرب من الحُلم . ذلك بأن الجمل غير المتوقعة انطلقت من بين شفثيها واحدة اثر اخرى ، حتى لقد علقت في شرك من التعمية والابهام ، ورحلت اتساءل : اية روح غير منظورة كانت تقعد طوال اسابيع على مقربة دانية من قلبي ، فهي تراقب افعاله وتسجل كل نبضة من نبضاته . »

وكررت الفجرية : « لهفة المستمع ! أجل ، لقد جلس مستر روتشيستر ساعات وساعات مرهفاً أذنه للشفتين الفاتنتين اللتين وجدتا اعظم البهجة في النهوض بمهمة التحدث . وكان مستر روتشيستر راغباً اشد الرغبة في الاستماع . وكانت أمارات وجهه تنطق بأعمق الامتنان لما اتيح له من لهُو ممتع . هل لاحظت ذلك ؟ »

« الامتنان ! أنا لا أذكر أنني تبينت أمارات الامتنان على وجهه . »  
« تبينت ! إذن فقد كنت تدرسين وجهه . وما الذي تبينته ان لم يكن ما تبينته هو الامتنان ؟ »  
ولم أنسر بكلمة .

« لقد رأيت حباً . . أليس هذا صحيحاً ؟ واذ نظرت بعين الخيال الى المجهول رأيته وقد تزوّج ، ورأيت زوجته ترفل في السعادة ؟ »  
« لا . ليس على وجه الدقة . إن براعتك في الكشف عن الطالع لتتردى في الخطأ . أحياناً . »

« واذن فما الذي رأيته ، بحق الشيطان ؟ »  
« دعي عنك هذا . لقد جئت الى هنا لكي أستطلع ، لا لكي أعترف . هل صحيح أن مستر روتشيستر سوف يتزوج ؟ »  
« نعم . ومن من اينغرام الجميلة . »  
« عما قريب ؟ »

« ان المظاهر الثبر مثل هذا الاستنتاج . ولا ريب ( على الرغم من أنك تشكين في ذلك ، على ما يبدو . بوقاحة يجب أن تعاقبي عليها ) في أنهما سوف يكونان أسعد زوجين في الوجود . انه لا يستطيع الا ان يحب مثل

هذه السيدة الوسيمة ، النبيلة ، الذكية المثقفة . وارجح الظن انها هي تحبه ، او تحب على الاقل امواله ان لم تحب شخصه . انا اعلم انها تعتبر ممتلكات آل روتشيستر شيئا مرغوبا فيه الى ابعد الحدود ، برغم اني ( وليغفر الله لي ! ) قد اخبرتها شيئا عن هذه المسألة قبل ساعة تقريبا ، شيئا جعلها تبدو مفتحة الى حد عجيب ، وجعل زوايا شفتيها تتدلى نصف انش . واني لانصح طالب يدها الاسمر بان يأخذ حذره . لانها خليقة بان تخذله وتتخلي عنه حالما يتقدم لخطبتها رجل آخر ، قائمة ايجاراته اطول او اكثر تحررا من القيود » .

« ولكنني ما جئت ، يا اماء ، لاستمع الى حديث عن طالع مستر روتشيستر . لقد اقبلت لاسمع اليك تتحدثين عن طالعي انا . وها انت ذي لم تنبئيني بايما شيء عنه » .

« ان طالعك لا يزال حتى الان موضع شك . فحين تفرست في وجهك الفيت كل واحدة من اسابيره تناقض الاخرى . لقد خصك القدر بقسط من السعادة : هذا شيء اعرفه . وانما عرفته قبل ان افد الى هنا ، هذا المساء . لقد وضعه لك جانبا ، بكثير من العناية . ولقد رأيته بأمر عيني يفعل ذلك . ان امر الفوز بتلك السعادة منوط بك وحدك ، وليس عليك ، اذا شئت اكتسابها ، الا ان تمدّي يدك نحوها ، وتستولي عليها . ولكن هل ستفعلين ؟ تلك هي المشكلة التي ادرسها الان . اركعي على السجادة ككرة اخرى » .

« لا تبقيني راحة فترة طويلة . ان النار تسفع وجهي » .

وركعت . ولم تنحن نحوي ، ولكنها اجتزأت بالتحديق الي ، وهي غائصة في كرسيها . ثم شرعت تعغم :

« اللهب يتواثب في العين . والعين تلتهم كالندى . انها تبدو رقيقة مفعمة بالاحساس ، وهي تبتسم ساخرة من رطائتي . انها سريعة التأثير . والانطباعة تتلو الانطباعة في صفحاتها الصافية . وحيشما كفت عن الابتسام كان الحزن اغلب عليها . ان كلالا لا شعوريا ليثقل جفنها ، وهذا يدل على الكتابة الناشئة عن التوحد . انها تتحول عني ، فهي لا تقوى على احتمال مزيد من التحري والدرس . انها تبدو وكأنها تنكر ، بنظرة ساخرة ، صدق المكتشفات التي وفقت اليها . . . . . وكأنها تنكر تهمني الحساسية والحزن جميعا . ولكن كبرياءها وتحفظها لا يزيداني الا ثقة بصحة رأيي . ان العين لمسة » .

« اما الفم فيعلن عن ابتهاجه ، بين الفينة والفينة ، بالضحك . انه ميل الى الافصاح عن كل ما يتصوره الدماغ . برغم اني استطيع القول انه يؤثر الصمت عن كثير مما يخامر الفؤاد . انه بما فطر عليه من نشاط ومرونة لم يجعل لكي يبقى ابد الدهر مكرها على صمت الوحدة السرمدي . انه فم خلقته الطبيعة لكي يتكلم كثيرا ولكي يبتسم في كثير من الاحيان ،

وهو يكنُ حنانا انسانيا لمن يوجه اليه الخطاب . هذه السمة مُسَعَفَة ايضا .

« انا لا ارى اي عدو للطالع السعيد الا على صفحة الجبين . ان هذا الجبين يتظاهر بأنه يقول : - « في استطاعتي ان احيا وحيدا ، اذا ما دعاني احترام الذات ودعتني الظروف الى مثل هذه الحياة . انا في غير ما حاجة الى ان ابيع روحي لاشترى الهناءة القصوى . اني لاملِك كنزا باطنيا وُلِدَ معي ، كنزا قادرا على ابقائي على قيد الحياة اذا ما حبست عني جميع المسرات الدخيلة او اذا لم تقدّم اليّ الا بشمن لا قبيل لي بدفعه . » ويتابع الجبين حديثه فيعلن : « ان العقل لراسخ القدم مسيطر على الزمام ، وهو لن يدع العواطف تنفجر وتسوقها الى مهاو آبدة . ان الاهواء قد تتور على نحو ضار كما يثور الوثنيون الحقيقيون ، وان الرغبات قد تتخيل مختلف ضروب الاشياء الباطلة ، ولكن سوف يظل هو صاحب الكلمة الفصل في كل مناقشة ، وصاحب الصوت المرجّح في كل قرار . وان العاصفة الهوجاء ، وصدمة الزلزال ، والنار قد تلمّ بي ولكنني سوف اهتدي بهدي ذلك الصوت الصغير الهادي الذي يعبّر عن اوامر الضمير . »

« لقد تحدثت فأحسنّت الحديث ، ايها الجبين . وان تصرّحك سوف يكون موضع الاحترام . لقد وضعت خططي - واني لا اعتبرها خطأ صحيحة - وفيها اصغيت لدعاوي الضمير وارشادات العقل . انا اعلم مدى السرعة التي يذبل بها الشباب ويدوي بها ريعانه اذا ما اكتشف في كأس السعادة المقدّم ثقالة واحدة من خزي او نكهة واحدة من ندم . ولست ابغي التضحية ، والاسى ، والفسوق ، فليس ذلك متناغما مع مزاجي . انا اريد ان اغدو لا ان اؤذي . . . ان اكسب عرفان الجميل لا ان اعتصر دموعا من دم . . . لا ، ولا دموعا من ماء مالح . ان حصادي يجب ان يتألف من ابتسامات ، ومشاركات وجدانية ، وخبرات عذبة سائغة . كفى ، حسبي هذا . يخيل اليّ اني اهذي في ضرب من البحران اللذيد الى ابعد الحدود . وان عليّ الان ان اطيل هذه اللحظة الى ما لا نهاية له ، ولكنني لا اجرؤ على ذلك . لقد سيطرت على نفسي ، حتى الان ، اكمل سيطرة ، ولقد عملت وفق ما عاهدت نفسي على ان اعمل ، ولكن الذهاب الى ابعد من ذلك قد يرهقني ارهاقا يتجاوز طاقتي على الاحتمال . انهضي ، يا مس ابير ، وفارقيني . لقد تمّت الرواية . »

اين كنت ؟ اكنت يقظي ام نائمة ؟ هل كنت احلم ؟ وهل لا يزال حلمي مستمرا ؟ كان صوت المرأة العجوز قد تغير : اصبحت نبرتها ، وايماءاتها ، وكل ما فيها مألوفا لديّ كصورة وجهي انا في مرآة . . . كحديث لساني انا . ونهضت ، ولكنني لم امض لسبيلي . واجلت الطرف في ما حولي . وحركت جمرات المستوقد لكي ارى على نحو افضل ، واجلت الطرف كرة اخرى . ولكنها انزلت قلنسوتها فوق جبينها واحكمت تطويق وجهها

بالعصابة ، واومات الي من جديد تأمرني بالرجيل . واضاء اللهب يدها  
المبسوطة . واذ كنت قد استعدت الان رشدي ، وأمسييت متيقظة لمختلف  
صنوف الاكتشافات فقد لاحظت تلك اليد على التواء . انها لم تعد يد  
الشيخوخة الداوية ، الا اذا كانت يدي انا يد عجوز شطاء . كانت ذراعا  
رخصة ملفوفة ، ذات اصابع رقيقة مفرغة في قالب الانسجام . وكان خانم  
عريض يلتصق في خصرها . وانحنيت الى امام ، ورحت احدق اليه ،  
فبصرت بجوهرة كنت قد رأيتها مئات المرات من قبل . وعادت النظر  
الى الوجه نزلة اخرى - انه لم يعد معرضا عني ، لا ، على العكس ، كانت  
القلنسوة قد خلعت ، وكانت العصابة قد ازيحت من موضعها ، وكان  
الرأس ممالا الى ناحيتي .

وسألني الصوت المألوف : « حسنا ، جين ، هل تعرفيني ؟ »

- « اخلع اذن هذه العباءة الحمراء ، يا سيدي ، وبعد ذلك . . . »

- « ولكن الشريط معقود ، ساعديني . . . »

- « اقطعه ، يا سيدي » .

- « حسنا ، اذن ، فلاخرج من هذه الثياب المستعارة ! » وخرج

مستر روتشيستر من ملابسه التنكرية .

- « اية فكرة عجيبة هذه التي خطرت لك ، يا سيدي ! »

- « ولكنها نفذت في براءة . الا تقريني على ذلك ؟ »

- « لا ريب في انك اجدت تمثيل دورك مع السيدات ! »

- « ومعك ، الم اجد تمثيل دوري ؟ » .

- « انت لم تمثل ، معي ، شخصية عجوز غجرية . »

- « اية شخصية مثلت اذن ؟ شخصيتي انا ؟ »

- « لا . شخصية لا سبيل الى تحديدها . وبكلمة موجزة ، اعتقد

انك كنت تحاول ان تستدرجني . كنت تنطق بالهراء لكسي تحملني على

النطق بالهراء . وليس في هذا كبير انصاف ، يا سيدي . »

- « هل تغفرين لي ، يا جين ؟ »

- ليس في امكاني ان اجد اب الا بعد ان افكر في الامر مليا . فاذا

ابدى لي التفكير اني لم اتورط في ايما حماقة فاحشة فعندئذ سأحاول ان

اغفر لك . ولكن ما اقدمت عليه لم يكن من العدل في شيء . »

- « اوه ! لقد كنت مثالية . . . كنت شديدة الحذر ، كثيرة التعقل . »

وقلّبت الرأي في المسألة ، فبدا لي اني كنت ، على الجملة ، كما

يقول . وسرّني ذلك عني . والواقع اني قد اخذت حذري ، منذ بدء

المقابلة تقريبا . فقد حدثني قلبي بأن في الامر ضربا من التنكر المساخري .

اذ كنت اعلم ان العجريات وقارئات الكف لا يعبرن عن انفسهن على النحو

الذي عبرت به هذه العجوز ، الظاهرية ، عن نفسها . اصف الى ذلك انني

كنت قد لاحظت صوتها المتكلف وحرصها المضطرب على اخفاء اسارير وجهها .

ولكن ذهني كان يتَّجه آنذاك الى غرايس بول - تلك الاحجية الحية ، او لغز الالغاز كما كنت اعتبرها . انا لم افكر قط بمستر روتشيستر .

وقال : « حسنا ، فيم تفكرين ؟ اي شيء تعنيه هذه الابتسامة الرزينة ؟ »  
- « الدهش وتهنئة الذات ، يا سيدي . استطيع ان استأذنك في الانصراف ، الان ، على ما اظن ؟ »

- « لا . ابق لي لحظة ، وقولي لي ما الذي يفعله القوم في حجرة الاستقبال ؟ »

- « اغلب الظن انهم يتجادلون في امر الفجرية . »

- « اجلسي !... دعيني اسمع ما الذي قالوه عني . »

- « من الخير ان لا اطيل المكث هنا ، يا سيدي . لقد قاربت الساعة الحادية عشرة ، من غير ريب . اوه ، هل تعلم ، يا مستر روتشيستر ، ان غريبا قد وفد على القصر نُعيد رحيلك هذا الصباح ؟ »

- « غريب !... لا . ومن تراه يكون ، هذا الغريب ؟ انا لم اتوقع قدوم احد ؟ هل مضى لسبيله ؟ »

- « لا ، لقد زعم انه يعرفك منذ عهد بعيد ، وان في ميسوره ان يبيع لنفسه حرية الإقامة هنا ريثما تؤوب . »

- « يا للشيطان ! هل ادلى اليكم باسمه ؟ »

- « ان اسمه مايسون ، يا سيدي . ولقد اقبل من جزر الهند الغربية ، من سبانيشتاون ، في جامايكا ، على ما اظن . »

كان مستر روتشيستر واقفا على مقربة مني ، وكان قد اخذ بيدي وكانما يريد ان يقودني الى كرسي . وفيما كنت اتكلم ، ضغط على رسغي ضغطا متشنجا ، وتجلدت البسمة على شفثيه : لقد بدا وكأن تشنجا قد استبدَّ بتحرره فعلا .

وقال في مثل اللهجة التي قد يخيّل للمرء ان الانسان الاوتوماتيكي يُطلق بها كلماته المفردة : « مايسون !... جزر الهند الغربية ! » وكرر : « مايسون !... جزر الهند الغربية ! » واعاد مقاطع هذه الكلمات ثلاث مرات وقد امسى لون وجهه ، وهو يتكلم ، اشد بياضا من الرماد . وبدا وكأنه لا يكاد يفقه ما كان يفعل .

وسأله : « هل تستشعر انك مريض ، يا سيدي ؟ »  
فترنح قائلا : « جين ، لقد ألئت بي مصيبة ، لقد ألئت بي مصيبة ، يا جين ! »

- « اوه ! توكا علي ، يا سيدي . »

- « جين ، لقد عرضت علي كتفك ، ذات مرة . فدعيني استند اليها الان . »

- « اجل ، يا سيدي ، اجل . والى ذراعي ايضا . »

واقعدني الى جانبه . لقد اخذ يدي بين يديه الاثنتين ،

وانشأ يفركما التماسا للدفع ، محدقا الي في الوقت نفسه بنظرة ليس احفل منها بالقلق والكتابة .

وقال : « يا صديقتي الصغيرة . اتمني لو كنت انا وانت وحدنا في جزيرة هادئة . ولو اقصى- عني البلاء والخطر والذكريات الراحبة » .

- « هل استطيع ان اساعدك ، يا سيدي ؟ انا على استعداد لان اقدم حياتي ثمنا لراحتك » .

- « جَين ، اذا اوجتني الظروف الى مساعدة فاني سوف التمسها على يدك . انا اعد بذلك » .

- « شكرا ، يا سيدي . قل لي ما الذي يجب علي ان اعمل ... سوف احاول ، على الاقل ، ان اعمل ما تأمرني به » .

- « ايتيني الان ، يا جين ، بكأس خمر من حجرة الطعام . انهم سوف يكونون هناك ، على مائدة العشاء . واعلميني هل مايسون معهم ، وما الذي يفعلونه ؟ »

ومضيت . فوجدت القوم كلهم في حجرة الطعام يتناولون عشاء منتصف الليل ، كما كان روتشيستر قد قال . انهم لم يكونوا جالسين الى المائدة : كانت صنوف الطعام قد مُدَّت على البوفيه ، وكان كل امرئ يتخير منها ما يشاء ، وكان القوم واقفين جماعات جماعات ، ههنا وههنا ، وفي ايديهم اطباقهم وكؤوسهم . لقد بدا كل منهم في جذل عارم ، وكان الضحك شاملا والحديث مشغوبا . اما مستر مايسون فقد وقف على مقربة من النار : كان يتحدث الى الكولونيل ومسر دينت ، ولقد بدا مرحا مثل ايما واحد منهم . وملأت احد الكؤوس خمر ( لقد رأيت مس اينغرام تراقبني في عبوس ، بينما كنت اصب الخمر في الكأس . ويخيل الي انها توهمت اني كنت اتصرف في حرية ليست من حقي ) ، ثم عدت الى حجرة المكتبة .

وكان الشحوب الاقصى الذي ران على مستر روتشيستر قد زايل وجهه الان ، وكان قد استعاد سيماءه الحازمة الصارمة . وتناول الكأس من يدي وقال :

- « اني اشربها في صحتك ، ايتها الروح المؤاسية ! » وتجرع ما اشتملت عليه من خمر ثم اعادها الي ، قائلا : « ما الذي يفعلونه ، يا جين ؟ »

- « انهم يضحكون ويتحدثون ، يا سيدي » .

- « الا تبدو على وجوههم امارات التفكير العميق والانشداه ، وكأننا قد سمعوا حديثا عجبا ؟ »

- « لا ، على الاطلاق . انهم يفيضون مزاحا وبهجة » .

- « ومايسون ؟ »

- « كان يضحك ايضا » .

- « لو ان هؤلاء القوم كلهم مشوا مشية رجل واحد وبصقوا في

وجهي ، فما الذي تفعلينه ، يا جين ؟ »

« اطردهم من الحجرة ، يا سيدي ، ان استطعت الى ذلك سبيلا . »

فتبسّم نصف ابتسام ، ثم اضاف : « ولكن اذا تعيّن علي ان اخفي اليهم ، فاجتزأوا بالنظر الي في برود وشرعوا يتهايمسون في سخرية ، ثم انسحبوا من الحجرة وغادروني واحدا اثر واحد . . ما الذي تفعلينه عندئذ ؟ هل تهجرينني معهم ؟ »

« لست اظن ذلك ، يا سيدي : ان ابتهاجي خليك به ان يكون اعظم

اذا بقيتُ معك . »

« لكي تسرّي عني ؟ »

« اجل ، يا سيدي ، لكي اسري عنك ، على احسن وجه استطيعه . »

« واذا ما فرضوا عليك ضرباً من الحرّم لتعلّقك بي ؟ »

« اغلب الظن اني لن اعرف شيئاً عن هذا الحرّم . اما اذا عرفت

فخليقُ بي ان لا ابالي به البتة . »

« واذن ، ففي ميسورك ان تتحدّي العذل والتعنيف من اجلي ؟ »

« واذن ، ففي ميسوري ان اتحدّاهما من اجل اي صديق استحق ثقتي

وولائي . وليس يخامرني ريب في انك انت قد استحققت مني ذلك . »

« ارجعي الان الى الحجرة . وتقدمي نحو مايسون في خطي خافتة ،

واهمسي في اذنه ان مستر روتشيستر قد عاد وانه يحب ان يراه . ثم قودي

الى هنا وانصرفي . »

« سمعا وطاعة ، يا سيدي . »

ونزلت عند ارادته . فحدّق القوم كلهم الي وانا اشق طريقي بينهم .

وشخصت الى مستر مايسون ، وابلغته الرسالة ، وغادرت الحجرة امامه . ثم

اني ادخلته الى المكتبة ، وارتقيت السلم الى الدور العلوي .

وفي ساعة متأخرة من الليل ، وكان ذلك بعد ان اويت الى فراشي بفترة

ما ، سمعت الضيوف ينقلبون الى حجراتهم . وتبينت صوت مستر روتشيستر

بين الاصوات ، وسمعته يقول : « من هنا ، يا مايسون . هذه هي

حجرتك . »

لقد تحدّث في بشّر ومرح . فسرّت النبرات البهيجة عني ، وواقعت

الطمأنينة في فؤادي . وسرعان ما استسلمت للرقاد .

## ٢٠

وكننت قد نسيت ان اسدل الستائر ، وهو ما جرت به عادتي كل ليلة ،

وان اوصد ايضا مصراع نافذتي . فكان من آثار ذلك ان القمر ، الذي كان

بدرا ساطعا ( فقد كانت الليلة راتقة صافية السماء ) لم يكد ينتهي في سُرّاه

الى رقعة من السماء مواجهة لنافذتي ويطل علي من خلال زجاج النافذة غير

المحبَّب حتى ايقظني تحديقهُ المجيد . واذا افقت في سكون الليل فقد فتحت عيني على قرصه ، الفضي البياض ، البلوري الصفاء . كان جميلا ، ولكنه كان مهيبا اكثر مما ينبغي . واستويت في فراشي نصف جالسة ، وبسطت ذراعي واسدلت الستارة .

« يا الهي ! يا لها من صرخة رهيبة ! »

فقد مزقت الليل ، صمت الليل وسكونه ، صرخة وحشية ، حادة ، مجلجلة ، انطلقت من اقصى قصر ثورنفيلد الى اقصاه .

وانقطع نبضي : لقد كف قلبي عن الحركة ، وشلت ذراعي المبسوطة . وتلاشت الصرخة ، ولم تتكرر . والواقع ان المخلوق الذي اطلق تلك الصرخة الرهيبية ، ايا ما كان ، لم يكن في ميسوره ان يكررها في سرعة : ان اقوى النسور الفحاحة في جبال الأنديز لا يستطيع ان يطلق ، مرتين متعاقبتين ، مثل هذه الصرخة من السحابة التي تغطي فراخه . ان الشيء المطلق مثل هذه الصيحة يجب ان يستريح قبل ان يكرر الجهد الذي بذله في إرسالها .

لقد انبعثت من الدور الثالث ، لانها انقضت من فوق سمّت الرأس . وفوق سمّت الرأس - اجل ، في الحجرة القائمة فوق سقف حجرتي مباشرة - سمعت الان صراعا : كان صراعا مميتا ، على ما يؤخذ من مدى الضجة . وصاح صوت نصف مكبوت : « النجدة ! النجدة ! النجدة ! » ثلاث مرات على عجل . ثم اضاف : « الن يأتي احد ؟ » وبعد ذلك استطعت ، فيما كان الترنج وضرب الارجل مستمرين على نحو واسع ، ان اتبين من خلال الجبس والواح السقف الخشبية ، صوتا ينادي :

« روتشيستر ! روتشيستر ! تعال ، اكراما لله ! »

« وفتح باب حجرة ما ، وانشأ رجل يعدو ، او يندفع ، في الرواق . ووطئت قدما ان اخريان ارضية الحجرة العلوية ، وسقط شيء ما ، ثم ران الصمت . »

ولبست بعض ثيابي ، برغم ان الذعر اوقع الرعدة في اوصالي كلها . وانطلقت من حجرتي . كان النائمون كلهم قد اوقفوا من رقادهم ، وكانت اصدااء الصيحات والغمغيمات المروعة تتردد في كل حجرة . وراحت الابواب تفتح واحدا اثر واحد . واطل منها شخص بعد شخص ، وغص الرواق بالقوم . كان الرجال والسيدات على حد سواء قد هجروا مضاجعهم ، وكانت اسئلتهم تنطلق ، في اختلاط وتشويش ، من كل ناحية : « اوه ! ما المسألة ؟ » - « من الذي اودي ؟ » - « ماذا حدث ؟ » - « ايتوا بمصباح ! » - « اهو حريق ؟ » - « هل داهم القصر لصوص ؟ » - الى اين يجب ان نفر ؟ » ولولا ضوء القمر اذن لوجدوا انفسهم في ظلام كامل . وانشأوا يجرون جيئة



وذهبوا . وتعتقد بعضهم على بعض : لقد تنهدت منهم طائفة ، وتمشّرت طائفة : وبلغ الاختلاط الذروة التي ما بعدها .

وصاح الكولونيل دينت : « ولكن اين روتشيستر ، بحق الشيطان ؟ انا لم اجدّه في سريره . »

فجاء الجواب صائحا : « هنا ! هنا ! اطمئنا ، كلكم ، انا آت » .  
وفُتح الباب الذي في اقصى الرواق ، وتقدم مستر روتشيستر وفي يده شمعة . كان قد هبط ، للحظة ، من الدور الاعلى . وهُرعَت احدى السيدات نحوه ، مباشرة ، وامسكت بذراعه : كانت هي مس اينغرام .  
وقالت : « اية حادثة رهيبة وقعت ؟ تكلم ! دعنا نعرف اسوأ ما في المسألة ، في الحال ! »

فاجابها : « ولكن لا تطرحني ارضا ولا تخنقني » .

ذلك بان الآنستين ايشتون كانتا قد تعلّقتا به الان ، على حين كانت الارملتان النبيلتان تندفعان نحوه بسرعة ، في دئارين ابيضين فضفاضين ، وكانهما مركبان نُشِرت اشْرعتهما كلها .

وصاح : « ليس ثمة ما يدعو الى الذعر ! ليس ثمة ما يدعو الى الذعر ! انها مجرد اعادة لرواية « ضجة كبيرة حول لا شيء » \* ايتها السيدات ، لا تقربن مني ، والا غدوت خطيرا » .

لقد بدا خطيرا حقا ، وكانت عيناه السوداوان تقذفان الشرر ، غير انه هدأ من روعه ، في كثير من الجهد ، ثم اضاف :

- « لقد المّ باحدى الخادِمات كابوس » ، هذا كل ما في الامر . انها مخلوقة سريعة الاهتياج عصبية المزاج . وليس من ريب في انها تخيلت في منامها ان شبحا قد هاجمها ، او شيئا من مثل ذلك ، فعصفت بها نوبة من ذعر . والان ، يجب ان تقلبوا كلكم الى حجراتكم ، اذ لن نستطيع ان نتدبّر امر الخادمة الا اذا هيمن السكون على القصر . ايها السادة ، تفضلوا بضرب المثل الصالح للسيدات . مس اينغرام ، انا واثق من انك سوف توفقيين الى السيطرة على مخاوفك التي لا تجدي . وانتما ، يا آيمي ولويزا ، ارجعا الى عشبكما مثل حمامتين ، وانكما كذلك . اما انتما يا سيدتي ، ( وهنا وجه الخطاب الى الارملتين النبيلتين ) « فسوف تصابان بالزكام - اوؤكد لكما ذلك اشد توكيد - اذا لبثتما في هذا الرواق البارد فترة اطول » .

وهكذا سعى جاهدا ، من طريق التملق حيناً واصدار الاوامر حيناً ، الى اعادتهم كلهم ، كرة اخرى ، الى مخادعهم المستقلة . ولم انتظر حتى يأمرني بالعودة الى حجرتي ، بل انسللت منكفئة اليها من غير ان يراني احد ، كشأنني عندما غادرتها .

بين اني لم انكفيء لكي آوي الى الفراش . على العكس ، لقد شرعست

---

« Much Ado About Nothing » مسرحية معروفة من مسرحيات شكسبير . (الحرب)

ارتدي ملابسني في عناية . ذلك بأن الاصوات التي سمعتها بعد الصرخة ، والكلمات التي نطيق بها ، لم يسمعها في اغلب الظن - احدث غيري ، اذ كانت قد انبعثت من الحجرة القائمة فوق حجرتي مباشرة ، ولكنها جعلتني على مثل اليقين من ان الذي اوقع الرعب في ارجاء القصر على هذا النحو لم يكن حلم خادمة ، وان التفسير الذي قدمه مستر روتشيستر كان مجرد اختراع قُصِد به الى طمأنة ضيوفه وتهذئة روعهم . لقد ارتديت ملابسني ، اذن ، لكي اكون على استعداد للطوارئ كلها . حتى اذا فرغت جلست برهة طويلة على مقربة من النافذة ، ورحت اطل على حدائق القصر الصامتة والحقول المفضضة ، وانتظر شيئاً لم اكن اعرف كنهه . لقد بدا لي ان حادثة ما لا بد ان تعقب تلك الصرخة الغريبة ، وذلك الصراع والنداء العجيبين .

ولكن السكون ما لبث ان ساد كرة اخرى ، وشيئا بعد شيء تلاشت الغمغمات كلها ، والحركات كلها . وما هي غير ساعة او نحوها حتى غلب الهدوء ، من جديد ، على قصر ثورنفيلد فهو اشبه بصحراء مقفرة . لقد بدا وكان الرقاد والليل استردا سيادتهما المطلقة . وفي غضون ذلك جنح القمر الى الافول ، وكاد ان يتوارى بالحجاب . واذ لم ارتح للجلوس في البرد والظلمة فقد بدا لي ان اضطجع في فراشي ، من غير ان اخلع ملابسني . وهكذا غادرت النافذة ، ورحت انقل الخطى ، في اناة واحتراس ، عبر السجادة . حتى اذا انحنيت لاخلع نعلي فرعت الباب ، في رفق ، يد حذرة .

وسألت : هل انت في حاجة الي ؟

فاجابني الصوت الذي توقعت ان اسمعه ، اعني صوت سيدي :

- « هل انت يقظي ؟ »

- « نعم ، يا سيدي . »

- « وفي لباسك الكامل ؟ »

- « نعم . »

- « اخرجي ، اذن ، في هدوء . »

وامتثلت امره ، فاذا بي اجد مستر روتشيستر واقفا في الرواق ، وفي يده شمعة .

وقال : « انا في حاجة اليك . تعالي من هنا . على رسلك ، وحذار ان تحدثني ضجة . »

كانت نعلاني رقيقتين ، وكان في ميسوري ان اجتاز ارض الحجرة المفروشة بالبسط في مثل خفة الهرة ورشاقتها . وانسل هو عبر الرواق ، ثم ارتقى السلم ، ليقف بعد في المجاز المظلم الخفيض المنبسط في الدور الثالث المشؤوم . وكنت قد تبعته ، ووقفت بجانبه .

وسألني في صوت مهموس : « الديك في حجرتك اسفنجة ؟ »

- « نعم ، يا سيدي . »

- « الديك بعض الاملاح ؟ الاملاح الطيارة اعني ؟ »

- « نعم » -

- « ارجعي واثني بهما » -

وانقلبت عائدة الى حجرتي ، فجننت بالاسفنجية من على المفصلة ، وبالإملاح من درجي ، ورجعت ادراجي كرة أخرى . كان لا يزال ينتظرنني وفي يده مفتاح . وتقدم نحو باب من الابواب الصغيرة السوداء ، وادخل المفتاح في ثقب القفل ، ثم تمهل لحظة ووجه الخطاب الي من جديد :

- « هل يصيبك الدوار لمراى الدم ؟ »

- « لست اظن ذلك . وعلى اية حال فانا لم اجرب نفسي قبل اليوم » .

وسرت في اوصالي ، وانا اجيبه ، رعشة . ولكنني لم استشعر اي برد او اغماء .

وقال : « هات يدك . فليس من الخير ان تعرضني للاغماء » .

ووضعت يدي في يده . فلاحظ قائلا : « انها دافئة ، رابطة الجأش » .

ثم ادار المفتاح ، وفتح الباب .

عندئذ بصرت ' بحجرة تذكرت ' اني رأيتها من قبل ، يوم صعدت بي مسز فيرفاكس الى سطح القصر . كانت هذه الحجرة مزدانة بقطعة من قماش مزركش ، ولكن هذه القطعة القماشية كانت الان مرفوعة من جانب واحد ، وقد بدا من ورائها باب كان آنذاك محجوبا . وكان ذلك الباب مفتوحا ، وكان ينبعث من الغرفة التي وراءه ضوء مصباح . ومن هناك تناهى الى سمعي صوت ' نابج ' ناهش ' ، اشبه شيء بعواء كلب في غمرة شجار . وقال لي مستر روتشيستر وهو يضع شمعته : « انتظري دقيقة ! » وتقدم نحو الغرفة الداخلية . فاستقبلته لدن دخوله ضحكة بدأت صاحبة اول الامر ثم انتهت بقهقهة غرايس بول نفسها : « ها ! ها ! » واذن فقد كانت هي هناك . واجرى بعض الترتيبات من غير ان ينطق بكلمة ما ، برغم اني سمعت صوتا خفيفا يخاطبه . ثم انه غادر الغرفة الداخلية واوصد الباب خلفه .

وقال : « من هنا ، يا جين ! » فانعطفت الى الجانب الاخر من سرير ضخم حجب بأستاره المسدلة جزءا غير يسير من الحجرة . وكان على مقربة من مقدم السرير كرسي ذو ذراعين جلس عليه رجل مرتد كامل ملابسه ، ما عدا السترة . كان ساكنا ، وكان رأسه مُمالا الى وراء ، وكانت عيناه مغمضتين . ورفع مستر روتشيستر الشمعة فوقه ، فتبينت في وجهه الشاحب الخالي ، في ما يبدو ، من الحياة ، مايسون الغريب ، ورأيت ايضا ان الغطاء الذي يحجب احدى ذراعيه وأحد جنبه كان يقطر دما او يكاد .

وقال مستر روتشيستر : « خذي الشمعة » ، فتناولتها منه . وجاء بحوض ماء كان فوق المفصلة وقال : « امسكي هذا » . فامتثلت امره . فاخذ الاسفنجية ، وغمسها فيه وراح يبلل الوجه الشبيه بوجه جثة . وسألني ان اناوله زجاجة الإملاح التي حملتها من حجرتي ، فاذناها من منخري الرجل . وسرعان ما فتح مستر مايسون عينيه ، وانشأ يثن . وازاح مستر روتشيستر

قميص الرجل الجريح ، وكانت ذراعه وكتفه مضمتين . وبالإسفنجة ، اخذ  
يمسح الدم المتدفق في سرعة بالغة .

وغغم مستر مايسون : « هل من خطر مباشر ؟ »

— « لا ! لا ! مجرد خدش ليس غير . لا تستسلم لليأس ، ايها الرجل .  
تشجع ! سوف آتيك الان بجراح . . انا بنفسى . وسوف يكون في ميسورك  
ان ترحل مع منبلج الصباح ، في ما ارجو . »  
ثم وجه الخطاب الي قائلا : « جين ! »

— « سيدي ؟ »

— « سوف يتعين علي ان اتركك في هذه الغرفة مع هذا الرجل ، ساعة  
من زمان ، او ربما ساعتين . وسوف يكون عليك ان تمسحي الدم ، كما كنت  
افعل ، اذا ما تدفق الدم من جديد . اما اذا احس باغماء فعندئذ ضغسي على  
شفتيه كأس الماء التي ترينها فوق تلك المنضدة ، وقرربي املاحك الى انفه .  
وحذار ان تتحدثي اليه مهما تكن الذريعة . اما انت يا ريتشارد فان ايما كلمة  
توجهها اليها خليك بها ان تعرض حياتك لاعظم الخطر . انا لن اكون مسؤولا  
عن العواقب اذا ما خطر لك ان تفتح شفتيك او تتزحزح من موضعك . »

وكرة اخرى انشأ الرجل البائس يشن : لقد بدا وكأنه لا يجرؤ على  
الحركة ، لكأن الخوف — الخوف من الموت او من شيء آخر — قد شلّه او كاد .  
ووضع مستر روتشيستر الاسفنجة ، وكانت الان مشبعة بالدم ، في راحة  
يدي ، ورحت انا اصطنعها على نحو ما كان قد فعل . وراقبني لحظة ، ثم  
غادر الحجرة قائلا : « تذكرني ! لا اريد اي حديث ! » حتى اذا صرّ المفتاح في  
القفل ، وتناثرت خطاه المنسحبة فلم يعد في الامكان سماعها استبدّ بي شعور  
غريب .

وهكذا وجدت نفسي في الدور الثالث ، مشدودة الى احدى حجراته  
المجلبة بالالغاز . كان الليل يحيط بي من اقطاري ، وكان المشهد الشاحب  
الدامي مسمّرا تحت عينيّ ويديّ ، وكان باب مفرد يفصلني ، وما يكاد ، عن  
امراة فاتكة قاتلة . والحق ان هذه الواقعة الاخيرة كانت افطع ما في الامر  
كله وادعاه الى الرعب : لقد كان في ميسوري ان احتمل سائر الدواهي ، ولكنني  
ارتعدت لمجرد التفكير في غرايس بول وفي انها قد تنقض علي .

وايا ما كان ، فقد تعين علي ان الزم مكاني . ان علي ان اراقب هذا  
الوجه الشمعي ، وهاتين الشفتين الزرقاوين الساكنتين المحظّرت عليهما ان  
تفرجا ، وهاتين العينين المغضبتين حيناً ، المفتوحتين حيناً ، الشاردتين عبر  
الحجرة طورا ، المركزتين علي تارة ، والمزججتين ابدا بفتور الرعب . ان علي ان  
اغمس يدي مرة ومرة في حوض الدم والماء ، وان امسح الدم الناضح ، وان  
ارى الى ضوء الشمعة غير المجردة من فتيلها المحترق بضمحل وانا في غمرة  
العمل ، والى الظلال تلغّيم على الستارة القماشية العتيقة من حولي ، وتسود  
تحت سُجف السرير الضخم القديم ، وترتعش ارتعاشا غريبا على ابواب

خزانة ضخمة قائمة تجاهي ، خزانة كانت واجهتها المقسومة الى اثني عشر لوحا مؤطرا تحمل ، في تصميم كالح ، رؤوس الرسل الاثني عشر ، وقد طُوِّق كل منها في لوحه المستقل وكأنه اطار ، على حين ارتفع فوقها جميعا صليب من آبنوس ومسيح يلفظ انفاسه .

وتبعا لتخميم الظلمة المتنقلة ههنا ولالتماع الوميض المختلج ههناك كانت الصورة التي انيرت هي حيناً صورة لوقا ، الطبيب الملتحي ، وقد حنى جبينه ، وحيناً صورة القديس يوحنا وقد تماوج شعره الطويل ، وحيناً وجه يهوذا الشيطاني وقد برز من اللوح المؤطر وبسدا وكأنه يسترد عازب حياته ويتهدد بالتكشف عن الخائن الاعظم - عن الشيطان نفسه - في صورة تابعه ومرؤوسه .

ووسط هذا كله كان علي ، بالاضافة الى المراقبة ، ان ارهف اذني في الاصغاء ، الاصغاء الى حركات البهيمة المتوحشة او العفريته الجائمة في جحرها الجانبي . ولكنها بدت ، منذ زيارة مستر روتشيستر ، وكأن سحرا ما قد جمّد نشاطها فانا لم اسمع طوال الليل غير ثلاثة اصوات في ثلاث فترات متباعدة : وقع خطي على الارضية الخشبية ، وتجدد مؤقت للضجة الكلبية النابحة ، وانين بشري عميق .

ثم ان افكاري الخاصة شرعت تقلقني . اية جريمة كانت هذه الجريمة التي عاشت متقصصة في هذا القصر المعزول ، فليس في ميسور صاحبه ان يطردها او يخضعها ؟ اي لغز كان ذلك اللغز الذي تفجّر نارا حيناً ، ودما حيناً ، في جوف الليل البهيم ؟ واية مخلوقة كانت تلك المخلوقة المتنكرة في صورة امرأة عادية والتي اطلقت صوت عفريته ساخرة تارة ، وصوت جارحة من جوارح الطير الباحثة عن الجيف طورا ؟

وهذا الرجل الذي انحنيت فوقه - هذا الغريب الهاديء المبتذل - كيف قدّر له ان يقع في شرك الرعب ؟ وما الذي جعله ضحية الهياج المجنون ؟ ما الذي ساقه الى هذا الجزء من القصر في ساعة غير ملائمة كان يتعين عليه فيها ان يستسلم للرقاد في فراشه ؟ لقد سمعت مستر روتشيستر يفرد له حجرة في الدور الاسفل ، فما الذي جاء به الى هنا ؟ ولماذا يتكشف الآن عن كل هذه الوداعة في ظل هذا العنف او ذلك الغدر الذي انزل به ؟ لماذا استسلم بمثل هذا الهدوء للتكتم الذي فرضه مستر روتشيستر عليه ؟ ولماذا فرض مستر روتشيستر هذا التكتم ؟ لقد اعتدي على ضيفه ، ولقد دُبرت في مناسبة سابقة مؤامرة بشعة ضد حياته هو ، ومع ذلك فقد خنق كلتا المحاولتين في الكتمان ، واغرقهما في النسيان ! واخيرا ، لقد لاحظت ان مستر مايسون كان شديد الازدعان لمستر روتشيستر ، وان ارادة الاخير المتهورة كان لها سلطان كامل على سكون الاول وجموده ، وهو ما اكدته لي الكلمات القليلة التي دارت بينهما . كان واضحا ان نزعة احدهما المنفعلة كانت متعودة ، في الاتصالات السالفة ، الخضوع لطاقة الاخر الفاعلة ، واذن فمن اين نشأ الرعب الذي

استبد بمستر روتشيستر عندما سمع بمجيء مستر مايسون ؟ لماذا سقط مجرد اسم هذا الفرد الذي لا يقاوم - والذي استطاعت كلمة واحدة منه ، هو روتشيستر ، ان تسيطر عليه وكأنه طفل من الاطفال - على رأسه ، قبل ساعات قليلة ، مثل سقوط الصاعقة على شجرة سنديان ؟

اوه ! انا لم استطع ان انسى هيئته وشحوب وجهه عندما همس : « جين ، لقد المّت بي مصيبة ... لقد المّت بي مصيبة ، يا جين . » ولم استطع ان انسى كيف ارتعدت الذراع التي اسندتها الى كتفي . ان حادثا يستطيع ان يلوي على هذا النحو روح فيرفاكس روتشيستر العازمة وان يهز جسده الجبار لا يمكن ان يكون حادثا عاديا بسيطا .

- « متى سيأتي ؟ متى سيأتي ؟ » هكذا رحت اصيح في اعماق نفسي عندما تباطأ الليل وتطاول ... وعندما خارت قوى مريض الجريح وانشأ يشن ثم غاب عن الوعي . ولكن لا النهار جاء ولا النجدة وصلت . وكنت قد ادنيت الماء ، كرة بعد كرة ، الى شفتي مايسون البيضاوين ، وكرة بعد كرة قدّمت اليه الاملاح المنبّهة ، ولكن جهودي كلها بدت عبثا لا طائل تحته ، فقد كان الألم الجسدي ، او الألم العقلي ، او نزف الدم ، او الثلاثة مجتمعة قد انهكت قواه . لقد انّ انينا واهنا وبدا غريب النظرات شاردها الى درجة خفت معها ان يكون قد دخل في النزاع الاخير ، وليس في ميسوري ان اوجه اليه ولو كلمة واحدة !

وذابت الشمعة آخر الامر ثم انطفأت . وفيما هي تلفظ انفاسها الاخيرة لمحت شمعاعات من نور رمادي تحاذي ستائر النافذة : كان الضحى يرتفع آنذاك . وما هي الا لحظات حتى سمعت بايلوت ينبح بعيدا ، خارج وجاره الثاني في فناء القصر ، فانبعث في نفسي ميت الامل . ولم يكن املّي ذاك في غير محله . فلم تكذ تنقضي خمس دقائق اخرى حتى انبأني المفتاح الصارخ والقفل المستسلم اني اعفيت من مهمة المراقبة التي عهد بها اليّ . ان تلك المهمة لم تدم اكثر من ساعتين اثنتين باية حال ، ومع ذلك فقد بدت الاسابيع المتعددة اقصر منها .

ودخل مستر روتشيستر ودخل معه الطبيب الجراح الذي كان قد ذهب لاستدعائه .

وقال للطبيب : « والان ، يا كارتر ، انتبه جيدا ، اني امنحك نصف ساعة ليس غير تضمّد خلالها الجرح ، وتشد العصابات ، وتنزل الجريح الى الدور الاسفل وتتم كل شيء . »

- « ولكن اهو قادر على الحركة ، يا سيدي ؟ »

- « لا ريب في هذا . فليس الامر بخطير البتة . انه عصبي المزاج ، ويجب ان نعمل على رفع معنوياته . هيا ، باشر العمل . »

وردّ مستر روتشيستر الستارة الكثيفة ، ورفع مصراع النافذة المصنوع من نسيج كتاني ، مجيزا لأكبر قدر من ضياء النهار النفاذ الى الحجر ، فيما

كنت اعجب اعظم العجب واستشعر اعظم البهجة لرؤية المدى البعيد الذي بلغه ارتفاع الضحى والشعاعات الوردية التي شرعت تنير المشرق . ثم انه تقدم نحو مايسون ، وكان الطبيب قد بدأ في عمله .

وسأله مستر روتشيستر : « والان كيف انت ، يا صديقي الطبيب ؟ »

فجاءه الجواب الواهن : « اخشى ان تكون قد قتلتني » .

- « هراء ! تشجع ! فلن ينقضي غير اسبوعين حتى يزول اخر اثر من آثار هذا الوباء . لقد فقدت بعض دمك ، هذا كل ما هنالك . كارتر ، اكّد له ان ليس ثمة خطر على حياته » .

فقال كارتر ، الذي كان قد نزع الضمادات : « استطيع ان اؤكد له ذلك في اطمئنان وراحة ضمير ، وان كنت اتمنى لو استطعت الوصول الى هنا بأسرع مما فعلت . ولو تمّ لي هذا ، اذن لما نزع من دمه مثل هذا القدر كله . ولكن كيف كان ذلك ؟ ان لحم الكتف ممزّق ومجروح في آن معا . هذا الجرح لم يحدث بمدة . . هل ما ارى آثار اسنان ؟ »

فغمغم : « لقد عضتني . لقد نهشتني مثل انثى النمر ، عندما انتزع روتشيستر المدة من يدها » .

فقال مستر روتشيستر : « لم يكن مني حقد ان تستسلم . كان جديرا بك ان تقاومها في الحال » .

فأجابه مايسون : « ولكن ما الذي يستطيع المرء ان يفعله في ظروف كهذه ؟ » وتمهّل لحظة ثم اضاف وهو يرتعد : « اوه ، لقد كان ذلك رهيبا ، وما كنت اتوقعه البتة . لقد بدت وادعة الى ابعد الحدود بادى الامر » .

فكان جواب صديقه : « لقد اندرتك . لقد قلت لك : خذ حذرك عندما تدنو منها . والى هذا ، فقد كان في ميسورك ان تنتظر حتى غد وان تصطحبني اليها . ولقد كانت محاولتك مقابلتها الليلة ، ومقابلتها منفردا ، مجرد حماقة » .

- « لقد حسبت ان في استطاعتي ان اؤدي خدمة ما » .

- « لقد حسبت ! لقد حسبت ! اجل ، ان الاستماع اليك ليضرني . ولكنك قد دفعت الثمن ، على اية حال ، واغلب الظن انك سوف تواصل دفعة طويلا بسبب من عدم عملك بنصيحتي . وهكذا ، فاني لسن اتكلم اكثر مما فعلت . كارتر ، عجل ! عجل ! ان الشمس سوف تشرق عما قريب ، ويتعين علي ان ارحله من هنا » .

- « دقيقة اخرى ليس غير ، يا سيدي . لقد فرغت اللحظة من تضميد الكتف . وعلي ان اعني الان بالجرح الاخر الذي في الذراع . لقد انشبت اسنانها هنا ايضا ، في ما اعتقد » .

فقال مايسون : « لقد امتصت دمي ، وقالت انها سوف تشرب دم قلبي كله » .

ورأيت مستر روتشيستر يرتعد . لقد لفّت محياه انطباعة صارخة ترشح بالتقرز والرعب والكراهية ، انطباعة كادت تلوي ذلك المحيا وتشوهه .

ولكنه اجتزأ بالقول :

« دع عنك هذا ، والزم الصمت يا ريتشارد . انسى حديثها الاحمق ، لا تكرره . »

فكان الجواب : « ليتني استطيع ان انساه . »

« سوف تنساه حين تصبح خارج البلاد . اجل ، حين ترجع الى سبانيشتاون تستطيع ان تعتبر انها ماتت ودفنت ، بل انك لن تكون في حاجة الى التفكير فيها البتة . »

« ولكن من المتعذر علي ان انسى هذه الليلة ! »

« انه غير متعذر : ليكن لديك شيء من عزم ، ايها الرجل . لقد خيلت لك منذ ساعتين ليس غير انك ميت مثل سمكة رنكة ، وها انت ذا الان حي ، وحي يتحدث ايضا . انتبه ! . لقد فرغ كارتير منك ، او كاد . ولسوف البسك ملابس لا تقة بأسرع من ارتداد الطرف . جين ! . » ( والتفت الي للمرة الاولى منذ عودته الى الحجرة ) « خذي هذا المفتاح ، واهبطي الى حجرة نومي ، وامضي الى غرفة زيتني مباشرة ، فافتحي الدرج الاعلى من ادراج خزانة الثياب واخرجي منه قميصا نظيفا ووشاح عنق ، فاحمليهما الى هنا ، وكوني رشيقة خفيفة الحركة . »

ومضيت ، فالتصمت المستودع الذي اشار اليه ، وجثت بما كلتني ان اجيء به ، وانقلبت عائدة .

فقال : « والان ، امضي الى الجانب الاخر من السرير ريثما اشرف على تغيير ملابسه . ولكن لا تغادري الحجرة ، فقد نحتاج اليك من جديد . » فانسحبت الى حيث امرني .

وما هي الا لحظة حتى سألتني روتشيستر : هل سمعت احدا يتحرك في الدور الاسفل ، عندما هبطت اليه ، يا جين ؟  
« لا ، يا سيدي ، كان كل شيء ساكنا جدا . »

« سوف ننقلك من هنا في احتراس ، يا « ديك » . ولسوف يكون هذا افضل . . . افضل لك وللمخلوقة البائسة القابعة هناك . لقد سعيست طويلا لاجتناب الفضيحة ، ولست اريد ان تذهب جهودي كلها عبثا . والان ساعده ، يا كارتير ، على ارتداء صدرته . اين تركت معطفك المفترى ؟ انك لا تستطيع ان تسافر ميلا واحدا بدونه ، انا اعرف ذلك ، في هذا الجو القارس اللعين . في حجرتك ؟ . . . جين ! اهبطي في سرعة بالفة الى حجرة مستر مايسون - الحجرة المحاذية لحجرتي - واثيني بمعطف سوف ترينه هناك . »  
واسرعت هابطة ، كرة اخرى . ثم انقلبت عائدة كما فعلت اول مرة ، حاملة معطفا ضخما بطن ووشحت اطرافه بالفراء .

فقال سيدي الحكمد الذي لا يعرف التعب سبيلا الى نفسه : « جين ، عندي مهمة اخرى اريد ان اعهد اليك بها . يجب ان تذهبي الى حجرتي كرة اخرى . وعلى اية حال فمن حسن الطالع انك تنتعلين حذاء مخمليا ، يا جين ! »



فالرسول الجلف ليس يَصْلُح البتة في هذه الورطة . ان عليك ان تفتحي درج منضدة زينتني الاوسط وتخرجي منه قارورة صغيرة وكأسا صغيرة سوف تجدنيهما هناك ... هيا ، اسرعي ! »

وهرعت الى هناك ثم انقلبت عائدة على جناح السرعة حاملة الوعاءين المطلوبين . فقال مستر روتشيستر : « حسن جدا . والان ، ايها الطبيب ، سوف اجيز لنفسني ان اقدم اليه بذاتي جرعة ، وان اقدمها على مسؤوليتي انا . لقد فزت بهذا العقار المنبّه في رومة ، من دجال ايطالي .. وهو فتى كان خليقا بك لو رأيتّه ، يا كارتر ، ان ترفسه بقدمك . وعلى اية حال فليس هذا العقار من الضرب الذي يجوز اصطناعه في غير رومية او تميز ، ولكنه مفيد في بعض المناسبات ، كهذه المناسبة مثلا . جين ، ايتيني بقليل من الماء . » وبسط يده بالكأس الصغيرة فملأها نصف ملء من زجاجة الماء التي كانت على المغسلة .

– « هذا كاف ، والان ، اميلي القارورة حتى تترطبّ شففتها بالشراب . » ففعلت . فأحصى اثنتي عشرة قطرة من سائل قرمزي ، ثم قدّم الكأس الى مايسون ، قائلا : « اشرب ، يا ريتشارد ، ان هذا الشراب سوف يَهَبِّك الشجاعة التي تنقصك ، طوال ساعة او نحوها . »

– « ولكن هل يعود علي ذلك بأذى ما ؟ اهو مهيج ؟ »

– « اشرب ! اشرب ! اشرب ! »

وامتثل مستر مايسون الامر ، فقد كان واضحا ان المقاومة لن تجديه نفعا . كان في لباسه الكامل الان ، ولكنه ظل بادي الشحوب ، وان لم يعد قدر المظهر ، مضرّجا بالدم . واجاز له مستر روتشيستر ان يمكسث ثلاث دقائق بعد تجرعه الشراب ، ثم انه امسك بذراعه وقال : « انا واثق الان من ان في استطاعتك الوقوف على قدميك . حاول ذلك ! »

ونفض الجريح ، وقال مستر روتشيستر : « امسك به من ذراعه الاخرى ، يا كارتر . هيا ، تشجّع ، يا ريتشارد ، واخطّ الى امام ... هذا كل ما هنالك »

فلاحظ مستر مايسون : « اني اشعر فعلا بشيء من التحسن . »

– « انا على مثل اليقين من ذلك . والان ، انطلقني اماننا ، في رشاقة ، الى السلم الخلفي ، فارفعني مزلاج باب المجاز الجانبي وقولي لسائق عربة البريد الذي سيجديني في فناء الدار – فقد طلبت اليه ان لا يجري بعجلاته المجلجلة فوق الطريق المعبدة – ان يكون على استعداد . نحن قادمون . واذا اتفق لك ، يا جين ، ان شاهدت احدا هنالك فارجعي الى ادنى السلم وتنحنحي . »

كانت الساعة آنذاك قد بلغت الخامسة والنصف وكانت الشمس على وشك ان تشرق . ولكنني الفيت المطبخ مظلم صامتا ، ما يزال . كان باب المجاز الجانبي موصدا بالزلاج ، ففتحته بأقل قدر من الضجة مستطاع . كان

السكون يرين على الفناء كله ، ولكن باب القصر الخارجي كان مفتوحا على مصراعيه ، وكانت هناك عربة بريد ، مُسَرَّجة الجياد ، وحودي متربع في مقعده . فتقدمت نحوه ، وقلت له ان القوم قادمون ، فأومأ برأسه ، ثم انني اجلت الطرف في ما حولي بانتباه ، وانشأت اصغي . كان سكون الصباح الباكر ناعس الجفن في كل مكان ، وكانت الستائر ما تزال مُسَدَّلة فوق نوافذ حجرة الخدم . كانت صفار الطير قد شرعت تزقزق في شجرات الحديقة المنورة ، التي تدلّت افنانها وكأنها اكاليل بيضاء فوق الجدار المطوّق لجانب من جوانب الفناء . وبين الفينة والفينة كانت جياذ العربة تضرب الارض بقوائمها ، اما سائر الاشياء فكانت مستسلمة للسكون .

وبرز الرجال الثلاثة . لقد بدا لي ان مایسون كان يمشي ، مستندا الى مستر روتشيستر والجراح ، في يسر غير قليل . ثم انهما ساعدها على الصعود الى العربة . وصعد كارتر من بعده .

وقال مستر روتشيستر لهذا الاخير : « اعتن به ، وابقيه في منزلك حتى يشفى . ولسوف اهبط عليك ، ممتطيا صهوة جوادي ، بعد يوم او يومين ، ابتغاء الاطمئنان عليه . كيف تجد نفسك الان ، يا ريتشارد ؟ »

— « ان الهواء الطلق ينعشني ، يا فيرفاكس . »

— « دع النافذة مفتوحة من ناحيته ، يا كارتر ، فليس ثمة ريح وداعا ، يا ديك . »

— « فيرفاكس . . . »

— « حسنا ، ماذا تريد ان تقول ؟ »

— « دعمهم يُعَنِّون بها . دعمهم يعاملونها بأقصى ما يستطيعون من رفق . دعمهم . . . » وكفّ عن الكلام ، وانفجر بالبكاء .

فكان الجواب : « سوف ابذل قصارى جهدي . لقد بذلته ، ولسوف استمر في بذله » واغلق باب العربة ، فمضت لسبيلها .

— « ومع ذلك فأنا اسأل الله ان يضع حدا لهذا كله ! » كذلك اضاف

مستر روتشيستر وهو يغلق باب الفناء الثقيل ويدعمه بالمزلاج . حتى اذا اتمّ ذلك تقدم في خطى وثيدة وسيما ذاهلة شاردة اللب نحو باب في الجدار المتاخم للحديقة . واذا حسبت انا انه لم يعد في حاجة الي فقد اخذت اهبتني للعودة الى القصر . بيد اني سمعته يناديني من جديد : « جين ! » كان قد فتح الباب ووقف عنده ، في انتظاري .

وقال : « تعالي الى حيث تجددين بعض النسائم العليلة ، وقفي معي دقائق معدودات . ان ذلك المنزل لا يعدو ان يكون سجنًا مظلمًا . الا تشعرين انه كذلك ؟ »

— « انه يبدو في ناظري قصرا فخما ، يا سيدي . »

فاجابني : « ان سَدْر الغرارة واللاخبرة ليغشى عينيك . وانك لترين اليه من خلال مرآة مسحورة : انت لا تستطيعين ان تتيبني ان مذهباته طين »

لرج ، وستأثره الحرية نسيج عنكبوت ، وان رخامه اردواز حقير ، وان ريشه المصقول مجرد شظايا خشب مرذولة ولحاء شجر خسيس . اما هنا ( وأشار الى حظيرة موزقة كنا قد دخلناها ) فكل شيء حقيقي ، عذب ، خالص » .

وراح يمشي ، هائما ، في مجاز تكتنفه اشجار البقس والتفاح والكمثري ، والكرز من جانب ، ورقعة متطاولة حافلة بمختلف ضروب الرياحين التقليدية ، وزهر المنثور ، وقرنفل الشاعر ، وآذان الدب ، وزهرة الثالوث ( بانسيه ) ممتزجة بنبات الشَّيْبَة ، وورد النسرين ، ومختلف الاعشاب الفاغمة ، من جانب اخر . لقد غدت الان ناضرة بقدر ما يستطيع تعاقب ' امطار نيسان وايماضاته المتألقة بين يدي صباح حلو من اصباح الربيع ، ان ينظرها . كانت الشمس قد اخذت تصعد ، منذ لحظات ، في سماء المشرق المرقشة ، وكانت اشعتها تضيء شجرات الحديقة المكللة بالزهور المثقلة بالندى ، وتثير ما امتدّ تحتها من ممرات هادئة وادعة .

« هل تريد زهرة ، يا جين ؟ »

وقطف وردة نصف متفتحة ، كانت هي اول ورود العليقة ، وقدمها الي .

« شكرا ، يا سيدي » .

« اتحبين شروق الشمس هذا ، يا جين ؟ هذه السماء ذات السحب الشامخة الرقيقة التي لا بد ان تذوب حين يحور النهار دافئا . . . وهذا الجو الوادع العليل ؟ »

« اجل ، يا سيدي » .

« لقد قضيت ليلة عجيبة ، يا جين ؟ »

« نعم ، يا سيدي » .

« ولقد جعلت الشحوب يرين على وجهك . . . هل أوجست خيفة حين خلقتك وحيدة مع مايسون ؟ »

« لقد خفت ان يخرج شخص ما من الحجرة الداخلية » .

« ولكنني كنت قد اوصدت الباب . . . وكان المفتاح في جيبي . لقد كان خليقا بي ان اكون راعيا مهملا لو تركت حملا - حملي الوديع المحبوب - من غير حراسة ، على مثل ذلك القرب من وجار ذئب ضار . لقد كنت في مأمن » .

« وهل ستبقى غرايس بول مقيمة في القصر ، يا سيدي ؟ »

« اوه ، نعم ! لا تقلقي بالك بها . . . اطردني صورتها من ذهنك » .

« ومع ذلك فيبدو لي انك لن تنعم بالسلامة ما بقيت هنا » .

« لا تخافي علي البتة ، سوف اصون نفسي منها » .

« وهل زال الان ذلك الخطر الذي خشيته الليلة البارحة ، يا سيدي ؟ »

« لا استطيع ان اقطع بذلك الا بعد ان يغادر مايسون انكلترة ، بل »

حتى بعد ان يغادرها . ان الحياة ، بالنسبة الي ، يا جين ، تعني الوقوف على فوهة بركان قد ينفجر وينفث الحمم في ايما يوم من الايام . »

« ولكن مستر مايسون يبدو رجلا سهل القيادة . وان سلطانك عليه ، يا سيدي لقوي الى حد جلبي . انه لن يتحداك ابد الدهر ، ولن يسعى الى ايثانك عامدا . »

« اوه ، لا . ان مايسون لن يتحداني ، لا ، ولن يعمل على ايثاني عامدا . ولكنه قد حرمني في لحظة واحدة ، وعن غير قصد منه ، سعادة الحياة الى الابد ، ان لم يحرمني الحياة نفسها ، بكلمة واحدة تندد ، طائشة ، من بين شفتيه . »

« قل له ان يلزم الحذر ، يا سيدي . اشعره ' بمخاوفك ، وبيِّن له كيف يجتنب الخطر . »

فارسل ضحكة صفراوية ، وسارع الى الامساك بيدي ثم ما لبث ان اقصاها عنه بمثل السرعة التي امسكها بها . وقال : « لو استطعت ان افعل ذلك ، ايتها البلهاء ، فأين يكمن الخطر عندئذ ؟ ان الخطر خليق به ان يزول ، في مثل هذه الحال ، في لحظة واحدة . لقد تعيَّن علي ، منذ عرفت مايسون ، ان اكتفي بأن اقول له : « افعل هذا ! » فيصدع بأمري . ولكني لا استطيع ان اوجه اليه الاوامر في هذا الصدد . انا لا استطيع ان اقول له : « حذار ان تؤذيني ، يا ريتشارد ! » لاني اعتبر من الجوهري بالنسبة الي ان ابقيه جاهلا ان ايداه اياي امر " ممكن . انا ارى الان امارات الدهش البالغ على وجهك ، واني لن ازيدك مع الايام الا دهشا على دهش . انت صديقتي الصغيرة ، اليس كذلك ؟ »

« انا احب ان اخدمك ، يا سيدي ، وان اطيعك في كل ما هو حق . »  
« على وجه الضبط ، واني لاراك تفعلين ذلك . انا المح الرضا الاصيل في مشيتك وسيمائك ، في عينك ووجهك ، حين تسدين الي العون وتوقعين في نفسي السرور . . . حين تعملين من اجلي ، ومعني ، في « كل ما هو حق » كما عبّرت أدق تعبير واكثره تمييزا . اذ لو أمرتك بأن تقعلي ما تحسبينه باطلا اذن لما كان ثمة جري خفيف القدم ولا رشاقته انيقة اليد ، ولا نظرة مشبوهة ، ولا بشرة تمور بالحياة . واذن لالتفتت صديقتي الي ، رابطة الجأش شاحبة الوجه وقالت : « لا ، يا سيدي ، هذا متعذر . انا لا استطيع ان اقوم به ، لانه باطل . » وعندئذ تلزم موقفها لا تنزحزح عنه مثل نجمة ثابتة . حسنا ، ان لك انت ايضا سلطانا علي ، وفي ميسورك ان تؤذيني : ومع ذلك فلست اجروُ على اظهارك على موطن الانجراح عندي ، مخافة ان تعمدي الى طعني في الحال ، برغم ما يعمر نفسك نحوي من ولاء ومودة . »

« اذا كان ما تخشاه من مستر مايسون لا يعدو ما تخشاه مني فانعم بطول سلامة ، يا سيدي . »

— « اسأل الله ان يكون الامر كذلك . ههنا تعريشة ظليلة ، يا جين ،  
فاجلسي » .

وكانت التعريشة كناية عن قوس محفور في الجدار يكتنفه اللبلاب ،  
وكانت تظلل مقعدا ريفيا ساذجا . فاستوى مستر روتشيستر عليه ، تاركا  
لي مكانا فيه ، بيد انني بقيت واقفة امامه .

وقال : « اجلسي . المقعد طويل يتسع لشخصين . انا لا اظنك  
تترددين في الجلوس الى جانبي ، اليس كذلك ؟ هل تعتبرين ذلك ضربا من  
الباطل ، يا جين ؟ »

فكان جوابي هو الجلوس . لقد بدا لي ان الرفض خلقي بأن يكون  
عملا تعوزه الحكمة .

— « والان ، يا صديقتي الصغيرة ، بينا تشرب الشمس الندى ، بينا  
تستيقظ جميع الرياحين في هذه الحديقة العتيقة وتفتتح ، وبيننا تلمس  
الطير فطور فراخها في الحقول المنبسطة وراء تورنفيلد ، وبيننا النحلات  
المبكرات يؤدين اولى نوبات عملهن . . . سوف ابسط لك قضية ، يتعين  
عليك ان تحاولي اعتبارها قضيتك انت . ولكن انظري الي ، اولا ، وقولي ،  
لي انك مطمئنة النفس ، غير خائفة ان يكون في ابقائي اياك ههنا اي بأس ،  
او ان يكون في لقائك معي اي أثم » .

— « لا ، يا سيدي . انا مطمئنة النفس » .

— « حسنا ، اذن ، يا جين ، التمسني العون من خيالك : افترضني  
انك ما عدت فتاة نشئت على التمسك باهداب الخلق والنظام ، ولكن فتى  
نشئ في الدلال منذ ان كان طفلا . تخيلي نفسك في ارض اجنبية نائية ،  
وتصورني انك ارتكبت هناك خطيئة عظيمة ، ايا ما كانت طبيعتها او الدوافع  
التي افضت اليها ، ولكنها خطيئة لا بد لعواقبها ان تلزمك مدى الحياة كما  
يلزمك طفلك ، وان تلوث وجودك كله . انتبهني جيدا ، انا لا اقول جريمة ،  
انا لا اتحدث عن سفك دم او اي عمل اجرامي اخر يعرض مقترفه لعقوبات  
القانون . لا ، ان الكلمة التي استعملتها هي خطيئة . ومع الايام تصبح  
نتائج ما فعلته لا تطاق بأية حال ، فتتخذين اجراءات تستهدففين من  
ورائها بعض العزاء : اجراءات غير عادية ، ولكنها ليست غير قانونية وليست  
محرمة . ومع ذلك ، يظل الشقاء حليفك ، ذلك بأن الامل قد هجرك منذ  
مطلع حياتك نفسه : ان شمسك ليغشاها ظلام الكسوف في منتصف  
النهار ، وهو ظلام تحسبن انه لن يفارقها حتى ساعة الغروب . وما هي  
الا فترة حتى تصبح المعاني المريرة والحقيرة هي غذاء ذاكرتك الاوحد : انك  
لتهيمين على وجهك ضاربة في الارض ، باحثة عن السلوان في ديار  
الغربة ، ملتسمة السعادة في الملذات — الملذات الحسية ، البهيمية ،  
اعني — التي تبلد الفكر ، وتصوح الشعور . ثم تنقلبين الى ارض الوطن ،  
بعد سنوات من النفي الاختياري ، وفي برؤدك فؤاد مضنى ، وروح

ذابلة • وتنشئين صداقة جديدة ، اما كيف واين ؟ فامر " لا يقدم ولا يؤخر ، وتجدين في هذا الغريب كثيرا من الصفات الخيرة المشرقة التي التمسها طوال عشرين عاما ، والتي لم تهتد اليها البتة ، وكلها صفات نضرة ، معافاة ، لا يشوبها دنس ، ولا يصمها عار • ومثل هذه الصحة يحيي النفس ، ويجدد الفؤاد • وتستشعرين ان اياما افضل تنتظرك ، اياما حافلة بأماني اسمى ، واحاسيس اطهر • وترغبين في استئناف حياتك من جديد ، وفي اتفاق ما بقي لك من ايام بطريقة اجدر بمخلوق غير فاني • فهل يبرر لك الحرص على بلوغ هذا الهدف ان تتخطي عقبة من عقبات العرف - مجرد حاجز تقليدي لا يقدمه ضميرك ولا يقره عقلك ؟ »

وتهمل انتظار الجواب ، ولكن ما الذي كان يجدر بي ان ا قوله ؟ اوه ، لشد ما تقت آنذاك الى روح من الارواح الخيرة تسر في اذني جوابا عاقلا مرضيا ! ولكن يا له من امل لا طائل تحته ! لقد شرعت ريح الغرب توشوش شجرات اللباب من حولي ، ولكن اياما روح رقيقة منجدة لم تستعر أنفاسها لتتخذ منها وسيلة للكلام • وغرّدت الطير في قنن الاشجار ، ولكن تغريدها - برغم عنوبته كلها - كان ابكى ممتنعا على الفهم •

وكرة اخرى طرح مستر روتشيستر سؤاله : « أليسوا هذا الرجل الضال الآثم ، ولكن الذي امسى الان تائبا يلتمس الراحة ، ان يتحدى رأي الناس لكي يشد اليه ، مدى الحياة ، هذا الغريب ، الانيس ، الكريم ، اللطيف ، وبذلك يحقق طمانينة فؤاده ويوفق الى تجديد حياته ؟ »

فاجبت قائلة : « سيدي ، ان راحة الضال وتوبة الآثم يجب ان لا يكونا ، بأية حال ، رهنا بمخلوق بشري • فالرجال والنساء يموتون ، والفلاسفة يتلعثمون بالحكمة ، والنصارى يترددون في العمل الصالح • فاذا كان بين معارفك امرؤ تألم وضل عن سواء السبيل فدعه يتطلّع الى اعلى ، ويلتمس القوة المصلحة والسلوان الشافي عند من هو فوق اقاربه جميعا • »

- « ولكن هناك الوسيلة ... الوسيلة ! ان الله ، الذي يخلق العمل ، يفرض الوسيلة • لقد كنت انا نفسي - واني لا قول لك ذلك في غير مداورة - رجلا قلق النفس ، دنيوي الهوى ، منغمسا في الملذات ، واحسب اني وجدت الوسيلة الى الشفاء ، في ... »

وامسك عن الكلام • وواصلت الطير تغريدها ، واوراق الشجر حفيفها الواهن • وكدت اعجب لم لم تقطع اغانيها ووشوشاتها لكي تتلقّف هذا الاعتراف الملق ، ولكنها لو فعلت اذن لتعين عليها ان تنتظر دقائق متعددة - فقد تطاول الصمت الى هذا الحد فعلا • واخيرا ، رفعت بصري الى المتحدث المتواني ، فألفيته ينظر الي في شوق بالغ •

وقال في نبرة مختلفة كل الاختلاف ، بينا تغيّر وجهه ايضا ، فاذا كل وقته وكأبته ، ليمسي جافيا ساخرا : « ايها الصديقة العزيزة ، لقد

لاحظت ولوعي الغض بمس اينغرام ، افلا تعتقدين انها قادرة ، اذا ما تزوجت منها ، على ان تجدد فؤادي في قوة وعزم ؟ »

ونهض في الحال ومضى الى اقصى الطرف الآخر من المجاز ، حتى اذا رجع سمعته يندندن بلحن من الالحان .

وقال ، واقفا امامي : « جين ، جين ، لقد اورثك سهرك هذا الطويل شحوبا بالغا . فهل ستلعنيني لاقلاقي راحتك ؟ »  
- « العنك ؟ لا ، يا سيدي » .

- « صافحيني ، توكيدا لهذا العهد . يا للاصابع الباردة ! لقد كانت اشد دفئا ، الليلة البارحة ، عندما لمستها عند باب الحجرة التي تكتنفها الاسرار . جين ، متى ستسهرين الليل معي كرة اخرى ؟ »  
- « كلما وجدت نفسي ذات نفع ، يا سيدي » .

- « عشية زواجي ، مثلا ! انا واثق من اني لن أقوى ، تلك الليلة ، على النوم ، فهل تعدينني بان تسهري معي لكي ترافقيني ؟ ان في استطاعتي ان افضي اليك انت بالحديث عن فتاتي المحبوبة ، ذلك بانك قد رأيتهما الان وعرفتهما » .

- « اجل ، يا سيدي » .

- « انها نادرة المثال ، اليس كذلك يا جين ؟ »

- « اجل ، يا سيدي » .

- « فتاة فارعة الطول قوية البنية ، اجل يا جين . وهي ضخمة الجسم ، سمراء ، ممتلئة عافية ، ذات شعر هو اشبه ما يكون بشعر سيدات قرطاجة . رباه ! اني المح « دينت » و « لين » في الاسطبل . ارجعي الى القصر عبر هذه الخميطة ، ومن خلال ذلك البُويب » .  
ومضيت انا من طريق ، ومضى هو من طريق ، وسمعته في الفناء يقول في بشتر وابتهاج :

- « كان مايسون اسبقكم جميعا الى النهوض هذا الصباح . لقد ارتحل قبل طلوع الشمس . ولقد افقت في الساعة الرابعة لكي اكون في وداعه » .

## ٢١

ما اعجب الهواجس ! وما اعجب ضروب التحاسس والنذر ! ان هذه الثلاثة مجتمعة لتؤلف لغزا مائا تعثر البشرية حتى الان على مفتاحه . والواقع اني لم اسخر قط ، طوال حياتي ، من الهواجس لانني خبرت بنفسي صنوفا منها غريبة . والتحاسس ، في اعتقادي ، موجودة : ( مثلا ، بين الانساب الذين باعدت ما بينهم المسافات ، وتناولت فترات غيابهم ، فأمسوا غرباء بعضهم عن بعض بكل ما في الكلمة من معنى . انهم يؤكدون

- برغم تباعدهم - وحدة الارومة التي يردون اليها اصلهم ) ، وان مفاعيله لتذهل العقل البشري . اما النذر فهي ، بقدر ما نعرف ، لا تعدو ان تكون مشاركة وجدانية من جانب الطبيعة نحو الانسان .

حين كنت بُنيّة لا يزيد عمري على ست سنوات سمعت بيبي ليفن تقول ، ذات ليلة ، لمارتا آبوت انها رأت في ما يراه النائم طفلا صغيرا ، وان رؤية الاطفال في المنام نذير لا يكذب بأن بلاء سوف يحل اما بصاحب الحلم او باحد افراد أسرته . ولقد كان خليقا بذلك الكلام ان يمحي من ذاكرتي لو لم تمعقب ذلك مباشرة حادثة ساعدت على ترسيخه هناك فليس مسن سبيل الى طمسه : لقد استدعيت بيبي في اليوم التالي ، الى بلدتها ، لتشهد وفاة اختها الصغيرة .

لقد تذكرت هذا القول وتلك الحادثة ، مرات عديدة ، في الفترة الاخيرة . اذ نادرا ما انسלخ عني الليل ، خلال الاسبوع الماضي ، من غير ان ارى في المنام طفلا - طفلا كنت في بعض الاحيان استكنه بين ذراعي ، وفي بعضها ادللّه فوق ركبتي ، بعضها الآخر اراقبه وهو يلعب بضروب الاقاحي في مرحة خضراء ، او يبلى يديه بالماء الجاري . لقد كان طفلا مسرفا في العويل في ليلة ، مشرق الاسارير بالضحك في ليلة ، وكان يستكن على مقربة دانية مني حيناً ، ويعدها هاربا مني حيناً . ولكن ايا ما كان المزاج الذي تكشف عنه ذلك الطيف ايا ما كان المظهر الذي اتخذه فانه لم يكف مرة عن الامام بي ، طوال سبع ليال متعاقبات ، حال دخولي دنيا الرقاد .

ولم ارتح لهذا التكرار من جانب فكرة واحدة ، لهذا التعاقب العجيب لصورة مفردة . فكانت اعصابي تتوتر كلما دنا موعد الايسواء الى الفراش وكلما دنت ساعة الرؤى والاحلام . والواقع اني اوقظت من صحبة ذلك الطيف - الطفل ، في تلك الليلة المقمرة ، عندما سمعت الصرخة الرهيبة ، حتى اذا كان اصيل اليوم التالي دعيت للهبوط الى الدور الاسفل حيث كان شخص ما يريد مقابلتي في حجرة مسز فيرفاكس . وحين شخصت الى هناك وجدت رجلا ينتظرني ، تبدو عليه امارات خادم من خدم السادة . كان يرتدي ثوب حديد داكنا ، وكانت القبعة التي حملها بيده مطوّقة بعصابة من قماش اسود .

وقال واقفا لي عندما دخلت : « استطيع ان اقول انك لا تكادين تتذكريني ، ايتها الانسة . ولكن اسمي ليفن . لقد كنت اعمل حوذايا عند مسز ريد يوم كنت انت في غايتسهيد قبل ثمانى سنوات او تسع ، ولا ازال مقيما هناك .

- « اوه ، روبرت ! كيف انت ؟ انا اذكرك جيدا . لقد كنت تجيز لي احيانا ان امتطي صهوة فرس مس جورجيانا ، الضئيل الجسم ، الكमित اللون . وكيف حال بيبي ؟ لقد تزوجت من بيبي ، اليس كذلك ؟ ،

- « اجل ، ايتها الانسة . وزوجتي في صحة جيدة ، شكرا . ولقد



انجبت لي طفلا اخر منذ شهرين تقريبا - ان عندنا الان ثلاثة اولاد - وكل من الام والوليد في أحسن حال .

- « وهل الاسرة ، هناك ، في القصر في حال حسنة ، يا روبرت ؟ »  
- « يؤسفني ان لا استطيع اعطاءك انباء عنها افضل ، ايتها الأنسة .  
انها الان في اسوأ حال . . . لقد ألمّ بها خطب عظيم .  
فقلت وانا انظر الى ثوبه الاسود : « ارجو ان لا يكون احد قد مات ! »  
فخفض بصره الى العصابة المطوقة قبعتة واجابني قائلا : « لقد مات مستر جون في مثل يوم امس من الاسبوع المنصرم ، في شقته بلندن . »  
- « مستر جون ؟ »  
- « نعم » .

- « وكيف تلقت امه هذه الضربة ؟ »

- « ان المصيبة ، يا مس ايير ، لم تكن مصيبة عادية ، على اية حال .  
فقد كان يحيا حياة طائشة الى ابعد الحدود ، ولقد استسلم في السنوات الثلاث الاخيرة لمسالك عجيبة . وكان موته مروعا حقا . »

- « لقد سمعت من بيسي انه لم يكن حسن السيرة . »

- « حسن السيرة ! ان سيرته ما كان يمكن ان تكون اسوأ مما كانت .  
لقد اتلفت صحته وامواله بمعاشرة اسوأ الرجال ، واسوأ النساء . ولقد رزح تحت اعباء الديون والقي به في غياهب السجن . ومرتين اثنتين مدت اليه امه يد العون ، ولكنه كان لا يكاد يغادر السجن حتى ينقلب الى رفاقه القدماء ، ويعود سيرته الاولى . انه لم يكن ذا روية وتعقل ، ولقد خدعه القوم اللثام الذين عاش بين ظهرائهم خداعا لم اسمع بمثله من قبل . ومنذ ثلاثة اسابيع تقريبا وفد على غايتسهيد وطلب الى سيدتي ان تتنازل له عن كل شيء . ولكن سيدتي رفضت : ذلك بأن اسرافه كان قد استنزف مواردها او كاد . فعاد من حيث اتى ، وكان اول نبا جاءنا عنه بعد ذلك هو نعيه . اما كيف مات فهذا شيء لا يعلمه الا الله ! . . . ولكن هناك من يقول انه انتحر . »

واعتصمت بالصمت ، فقد كان النبا رهيبا . واستأنف روبرت ليفن حديثه فقال :

- « وكانت صحة سيدتي نفسها قد اعتلت فترة من الزمان : لقد امست بدينة جدا ، ولكن ذلك لم يكن دليل قوة وعافية ، ثم ان ما مُنيت به من نقص في الاموال وما اعتراها من خوف الفقر كانا قد قصما ظهرها قصما . وعلى حين غرة جاءها نعي مستر جون والطريقة التي لقي بها حتفه ، فكانت الصدمة اعنف من ان تطاق . لقد اعتقل لسانها ثلاثة ايام متواليات ، ولكن حالها تحسنت ، يوم الثلاثاء الماضي ، بعض الشيء : لقد بدت وكأنها تريد ان تقول شيئا ، وراحت توميء لزوجتي وتنتم على نحو موصول . ولم تفهم بيسي ، الا صباح امس ، انها كانت تلفظ اسمك . واخيرا ادركت انها تقول : « ايتوني »

بجيتن ٠٠٠ ابحثوا عن جين ايير ٠٠٠ انا اريد ان اتحدث اليها ، وبيسي ليست واثقة من انها كانت في كامل قواها العقلية ، وغير موقنة من انها عنت بهذه الكلمات شيئا ما . ولكنها انبأت الانسة ريد والانسة جورجيانا بذلك ، ونصحتهما باستعدادك . وابت السيدتان الشابتان ان تعملنا ، بادي الامر ، وفق هذه النصيحة . ولكن القلق غلب على اهمهما الى ابعد حد ، فأنشأت تقول : « جين ! جين ! » على نحو مكرور حملهما آخر الامر على الموافقة . لقد غادرت غايتسهيده امس ، واني لاحب ان اعود بك الى هناك ، في ضحي الغد ، ان استطعت ان تكوني آنذاك على اتم الاستعداد للرحلة .

— « اجل ، يا روبرت . سوف اكون على اتم الاستعداد . يبدو لي ان واجبي يقتضيني الذهاب » .

— « وانا اظن ذلك ايضا ، ابتها الانسة . لقد قالت بيسي انها على مثل اليقين من انك لن ترفضني . ولكنني احسب ان عليك ان تلتمسي الاذن بالرحيل قبل ان توفقي الى الذهاب » .

— « اجل ، ولسوف افعل ذلك الان » .

حتى اذا قدته الى حجرة الخدم وعهدت الى زوجة جون ، والى جون نفسه ، في العناية به ، رحت ابحت عن مستر روتشيستر .

انه لم يكن في اي من الحجرات الدنيا ، ولم يكن في الفناء ، او في الاسطبل ، او في الارض الواسعة المحيطة بالقصر . وسألت مسز فيرفاكس هل رآته ، فقالت نعم ، وعبرت عن اعتقادها بانه كان يلعب البليارد مع مس اينغرام . فهرعت الى حجرة البليارد : كانت اصداء التصادم بين الكرات والاصوات المختلطة المبهمة تنبعث من هناك ، وكان مستر روتشيستر ومس اينغرام والانستان ايشتون والمعجبون بهن منهمكين كلهم في اللعبة . وكان ازعاج مثل هذه الجماعة المستفرقة في لهوها امرا يحتاج الى بعض الشجاعة . ولكن مهمتي كانت من ضرب يتعذر عليّ ارجاؤه ، وهكذا تقدمت نحو رب القصر ، وكان واقفا بجانب مس اينغرام . حتى اذا اقتربت منه التفتت اليّ وحدجنتي بنظرة متشامخة : لقد بدت عينها وكأنهما تسألان : « اي شيء يمكن لهذه المخلوقة الزاحفة ان تطلبه في مثل هذا الوقت ؟ » وحين قلت في صوت خفيض : « مستر روتشيستر » أتت بحركة أوقعت في نفسي انها تود لو تطردني من الحجرة . انا اذكر حتى الان كيف كان مظهرها في تلك اللحظة . كان جميلا جدا وفاتنا جدا : لقد اردت ثوب صباح مخيطا من « كريب » ازرق بلون السماء ، وعقصت الى شعرها وشاحا لازورديا شفافا . كان اللعب قد استأثر بكامل حيويتها ، ولم تظامن الكبرياء المشارة من اساريها الناطقة بالتشامخ والعجرفة .

وسألت مستر روتشيستر : « هل هذه المخلوقة تريدك ؟ » فالتفت مستر روتشيستر ليبري من كانت تلك « المخلوقة » . فلولي فيه على نحو غريب — وهي احدي طرائفه العجيبة المبهمة في اظهار الشعور — ثم طرح عصا

البليارد وتبعني الى خارج الحجرة .

وقال ، وهو يسند ظهره الى باب حجرة الدراسة ، وكان قد اغلقه :  
« حسنا ، ماذا يا جين ؟ »

« اني ارجو ان تمنحني ، يا سيدي ، اجازة تقيّص مدتها اسبوع او اسبوعان . »

« وما تريد ان تفعل في فيها ؟ والى اين سوف تذهبن خلالها ؟ »

« اريد ان اعود سيدة مريضة ارسلت في طلبي . »

« اية سيدة مريضة ؟ . . . واين تقيم هذه السيدة ؟ »

« في غايتسهيد ، في اقليم . . . »

« اقليم ؟ . . . انه يقع على مبعده مئة ميل من هنا ! ومن تكون هذه

السيدة التي تكلف الناس ان يجتازوا هذه المسافة الشاسعة لكي يروها ؟ »

« ان اسمها ريد ، يا سيدي . . . مسز ريد . »

« مع آل ريد الغايتسهيديين ؟ كان ثمة قاض من آل ريد الغايتسهيديين

هؤلا . »

« انها ارملة ، يا سيدي . »

« واي شأن لك بها ؟ كيف اتفق لك ان عرفتِها ؟ »

« لقد كان مستر ريد خالي ، شقيق امي . »

« يا للشيطان ! انك لم تنبئيني بهذا قط من قبل . لقد كنت دائما

تقولين لي انك فتاة لا انسباء لها . »

« اجل ، ليس لي انسباء يعترفون بأني واحدة منهم ، يا سيدي .

فقد توفي مستر ريد ، ولقد نبذتني زوجته . »

« لماذا ؟ »

« لاني كنت فقيرة ، متعبة ، ولانها كانت تكرهني . »

« ولكن ريد ترك اولادا ، ولا بد ان يكون لك ابناء خال ، ولقد كان

السير جورج لين ، يتحدث ، امس ، عن واحد من آل ريد الغايتسهيديين . . .

كان ، على حد قوله ، واحدا من اخبث اوغاد البلدة على الاطلاق . وكانت

الآنسة اينغرام تتحدث عن فتاة من الموطن نفسه تدعى جورجيانا ريد كان

جمالها موضع اعجاب عظيم في لندن منذ فصل او فصلين . »

« لقد توفي جون ريد ايضا ، يا سيدي ، بعد ان اضاع امواله وكاد

يضيع اموال اسرته . ومن المفروض انه مات منتحرا . ولقد وقع النبا على امه

موقعا شديدا اصببت على اثره بالفالج . »

« واي نفع تستطيعين انت ان تسديه اليها ؟ هراء ، يا جين ! لو كنت

مكانك لما فكرت لحظة واحدة في اجتياز مئة ميل لكي ارى سيدة عجوزا قد

تقضي نحبها - فمن يدري ؟ - قبل ان اصل اليها . والى هذا ، فانت تقولين

انها نبذتك . »

« نعم ، يا سيدي ، ولكن ذلك كان منذ فترة بعيدة ، ويوم كانت

ظروفها مختلفة جدا عن ظروفها الحالية . ان وجداني لن يرتاح اذا اغفلت رغباتها الان .

« وكم سوف تلبثين ؟ »

« اقصر مدة مستطاعة ، يا سيدي . »

« عديني بأن تلبثي اسبوعا واحدا ليس غير . . . »

« من الخير لي ان لا اعدك بشيء . اني قد اضطر الى الحنث في الوعد . »

« انك سوف تعودين ، على اية حال ، ولن تغفري ، مهما تكن الذريعة ، بالاقامة الدائمة الى جانبها ؟ »

« اوه ، لا ! سوف اعود من غير ريب اذا جرى كل شيء وفق المرام . »

« ولكن من سيذهب معك ؟ انك لا تستطيعين السفر وحدك مسافة مئة ميل . »

« لا ، يا سيدي . لقد ارسلت الي حوزيها . »

« وهل هو موضع ثقة ؟ »

« اجل يا سيدي . لقد عاش مع الاسرة عشر سنوات كاملة . »

ففكر مستر روتشيستر لحظة ، ثم قال : « ومتى ترغبين في الرحيل ؟ »

« في ضحى الغد ، يا سيدي . »

« حسنا ، يجب ان تتزودي بشيء من المال . انك لا تستطيعين السفر

من غير مال ، وفي ميسوري ان اقول ان ما عندك من ذلك ليس بكثير . فانا لم ادفع اليك ايما راتب حتى الان . » وتبسّم ضاحكا وسألني : « كم تملكين من حطام الدنيا ، يا جين ؟ »

فاخرجت كيس دراهمي ، وكان هزيلا جدا . ثم قلت : « خمسة شلنات ، يا سيدي . » فأخذ الكيس ، وافرغ ذخيرته في راحة يده ، وانشأ يضحك وكان هزائها اوقع السرور في نفسه . ثم انه سارع الى اخراج حافظة نقوده ، وقال وهو يقدم الي ورقة مالية : « دونك هذه ! » كانت ورقة من فئة الخمسين جنيها ، وكانت المدة التي سلختها في تعليم أديل تجعله مدينا لي بخمسة عشر جنيها ليس غير . فقلت له اني لا املك من قطع النقد الصغيرة ما يساعدني على رد بقية الحساب اليه .

« انا لا اريد هذه البقية ، انت تعرفين ذلك . هذه الخمسون جنيها هي اجرک . »

ورفضت ان آخذ اكثر من حقي ، فزوى ما بين حاجبيه ، بادية الامر ، ثم قال وكأنما تذكر شيئا :

« صحيح ، صحيح ! من الخير لي ان لا اعطيك اجرک كله الان . من يدري ، فقد تمكثين هناك ثلاثة اشهر اذا كان معك خمسون جنيها . دونك عشرة جنيها ، اليس هذا كافيا وزيادة ؟ »

« نعم ، يا سيدي . ولكنك مدين لي ، الان ، بخمسة . »

- « ارجعي اذن من اجلها . اما الاربعون جنيها الباقية فسوف اعتبرها وديعة لك في خزائن » مصرفي » .
- « مستر روتشيستر ، سوف اجيز لنفسني ان اتحدث اليك في مسألة اخرى من مسائل العمل ما دمت اجد الفرصة سانحة » .
- « مسألة من مسائل العمل ؟ اني مشوق الى سماع حديثها » .
- « لقد تلطفت بانباتي ، يا سيدي ، انك على اهبة الزواج ؟ »
- « اجل ، ثم ماذا ؟ »
- « في هذه الحال ، يا سيدي ، يتعين على آديل ان تذهب الى المدرسة . انا واثقة من انك سوف تدرك الحاجة الى ذلك » .
- « لكي ابعدها من طريق عروسي ، التي قد تدوسها ، ان لم افعل ، بقدميها في قسوة بالغة . ان اقتراحك منطقي ، هذا امر لا ريب فيه : يتعين على آديل ، كما تقولين ، ان تذهب الى المدرسة ، وانت ، طبعاً ، يتعين عليك ان تذهبي مباشرة ... الى الشيطان ؟ »
- « ارجو ان لا انتهي الى ذلك ، يا سيدي . ولكن علي ان ابحث عن وظيفة اخرى في مكان ما » .
- « على التوالي ! » كذلك هتف في خنّة صوت والتواء قسّمات يثيران الاستغراب بقدر ما يبعثان على الضحك . ثم نظر الي بضع دقائق .
- واخيرا قال : « ولسوف تتوسلين الى السيدة ريد العجوز او الى الآنستين ، ابنتيها ، ان يبحثن لك عن وظيفة ، في ما اعتقد ؟ »
- « لا ، يا سيدي . ان صلاتي مع انسباتي ليست طيبة الى حد يسوِّغ لي ان التمس منهن اسداء مثل هذا المعروف الي . ولكنني سوف اعلن في الصحف » .
- فدمدم قائلاً : « ولسوف تتسلقين اهرام مصر ! انك سوف تعلنين ، غير حاسبة حساباً للاخطار التي ستعرضين لها ! ليتني اعطيتك جنيها واحداً بدلاً من عشرة جنيهاً . ردّي الي تسعة جنيهاً ، يا جين . اني لفي حاجة اليها » .
- « وانا كذلك ، يا سيدي » . ووضعت يديّ وكيس دراهمي وراء ظهري . « اني لا استطيع الاستغناء عنها بأية حال » .
- فقال : « ايها الشحيحة الصغيرة ! اترفضين لي طلباً مالياً ؟ اعطيني خمسة جنيهاً ، يا جين ! »
- « ولا خمسة شلنات ، يا سيدي . حتى ولا خمسة بنسات » .
- « اذن دعيني انظر الى نقودك مجرد نظر » .
- « لا ، يا سيدي ، ليس من حسن الرأي ان اثق بك » .
- « جين ! »
- « سيدي ؟ »
- « عديني بشيء واحد » .

- « سوف اعدك ، يا سيدي ، بأيا شيء اعتقد ان في ميسوري اداءه » .
- « عدني بأن لا تعلن في الصحف ، وان تعهدي الي انا بمهمة البحث هذه عن وظيفة جديدة . سوف اجد لك واحدة في الوقت المناسب » .
- « سوف اكون سعيدة بأن افعل ذلك ، يا سيدي ، اذا وعدتني انت بدورك بأن اغادر انا وآديل القصر قبل ان تدخله عروسك » .
- « حسن جدا ! حسن جدا ! اني اعاهدك على ذلك . سوف تسافرين غدا ، اذن ؟ »
- « نعم ، يا سيدي ، وفي ساعة مبكرة » .
- « هل ستهبطين الى حجرة الاستقبال بعد العشاء ؟ »
- « لا ، يا سيدي . ان علي ان اتأهب للرحلة » .
- « اذن ، فأنا على كل واحد منا ان يودع الاخر لفترة قصيرة ، اليس كذلك ؟ »
- « احسب ذلك ، يا سيدي » .
- « وكيف يؤدي الناس شعائر الفراق ، يا جين ؟ علميني ، انا شديد الجهل في هذه الامور » .
- « انهم يقولون : وداعا ، او اية صيغة اخرى يفضلونها » .
- « اذن قللي هذه الكلمة » .
- « وداعا يا مستر روتشيستر ، مؤقتا » .
- « وما الذي يجب ان اقله انا ؟ »
- « الشيء نفسه ، اذا شئت ، يا سيدي » .
- « وداعا ، يا مس ايبير ، مؤقتا : اهذا كل شيء ؟ »
- « نعم » .
- « هذا يبدو - في رأيي - شحيحا ، جافا ، وغير ودي . واني لأؤثر شيئا اخر : اضافة صغيرة الى هذه الصغيرة المقدسة . لو اردفنا ذلك بالمصافحة ، مثلا . ولكن لا . . . حتى هذا لن يرضيني ايضا . واذن ، فلن تأتي اياما شيء غير التلطف بكلمة وداعا ، يا جين ؟ »
- « انها كافية ، يا سيدي ، على اعتبار ان كلمة واحدة صادرة من القلب يمكن ان تحمّل من معاني المودة مقدار ما تتسع له الكلمات العديدة » .
- « هذا محتمل جدا . ولكن « وداعا » هذه لفظة جوفاء ، فاترة » .
- « سألت نفسي : الى متى سيظل واقفا على هذا النحو وظهره الى الباب ؟ اني اريد ان اشرع في حزم امتعتي » .
- وهنا رن جرس العشاء . فولى مدبرا ، على نحو مفاجيء من غير ان ينطق ولو بمقطع من كلمة . ولم اره بعد هذا خلال ذلك اليوم ، ثم ارتحلت قبل ان يستيقظ في الصباح التالي .
- وبلغت كوخ البواب ، في قصر غايتسهيد ، حوالي الساعة الخامسة من اصيل اول نوار ( مايو ) . فدخلته قبل ان امضي الى القصر . كان بالغ النظافة

والترتيب ، وكانت ستائر صغيرة بيضاء تتدلى من نوافذه الزخرفية . لقد بدت ارضه مبرأة من اية لطخة او شائبة ، وبدا الموقد وادواته مصقولة على نحو لمّاع ، في حين اضطربت النار وهجاجة لا اثر فيها لدخان . كانت بيبي جالسة على مقربة من الموقد ، ترضع مولودها الاخير ، وكان روبرت واخته يلعبان في هدوء ، في احدى الزوايا .

فهمت مسز ليفن عندما دخلت عليها : « فليباركك الله ! . كنت واثقة من انك ستأتين ! »

فقلت ، بعد ان قبّلتها : « نعم ، يا بيبي . آمل ان لا اكون قد تأخرت اكثر مما ينبغي . كيف حال مسز ريد ؟ انها ما تزال على قيد الحياة ، في ما ارجو . »

— « اجل ، انها على قيد الحياة . واشد وعيا ورباطة جأش مما كانت من قبل . والطبيب يقول انها قد تعيش اسبوعا آخر او اسبوعين آخرين ، ولكنه يكاد يجزم بانها لن تشفى نهائيا . »

— « هل ذكرتني في الفترة الاخيرة ؟ »

— « كانت تتحدث عنك صباح هذا اليوم بالذات ، متمنية لو تأتين . ولكنها نائمة الان ، او انها كانت نائمة منذ عشر دقائق ، حين كنت في القصر . انها تقضي الاصيل كله ، عادة ، وهي مستغرقة في ضرب من النوم العميق ، ثم تستيقظ حوالي الساعة السادسة او السابعة . هل لك ان تستريح هنا ، ساعة ، ايتها الانسة ، وبعد ذلك اصعد معك الى القصر ؟ »

وفي هذه اللحظة دخل روبرت ، فوضعت بيبي وليدها النائم في المهد ، ومضت لترحب به . وبعد ذلك طلبت الي في الحاح ان اخلع قبعتي الصغيرة ، واتناول شيئا من الشاي ، ذلك بانها قالت اني ابدو شاحبة مجهدة . وسعدت بحسن ضيافتها ، واجزت لها ان تحررني من ثوب سفرني بمثل الاستسلام الذي تعودت ان ابدية ، وانا طفلة صغيرة ، كلما عمدت الى مساعدتي في نزاع ملابسي .

وعاودتني ذكريات الايام السالفة زرافات زرافات ، بينا كنت اراقب بيبي وهي تطوف في الحجرة خفيفة ناشطة ، مزينة صينية الشاي بأفضل ما عندها من الاقداح الخرفية ، قاطعة الخبز والزبدة ، محمصة الكعك المحلى ، مُرَبَّة بين الفينة والفينة على كتف روبرت الصغير او جين الصغيرة او رادة اياها عنها كما كانت تفعل بي في الايام الخوالي . لقد احتفظت بيبي بخلقها النزق ، كما احتفظت بخفة الخطو ووسامة الوجه .

وتم اعداد الشاي ، وهممت بالاقتراب من المائدة ، ولكنها رغبت الي ، بنفس نبرتها القديمة الحاسمة ، ان الزم مكاني ، قائلة ان من واجبها ان تحمل الي الشاي الى حيث كنت اجلس على مقربة من الموقد . ووضعت امامي منضدة مستديرة صغيرة عليها قدح من الشاي وطبق حافل بالكعك المحلى المحمص ، كشأنها في عهد الصبا ، يوم كانت تسرق لي بعض الاطعمة اللذيذة وتقدمها الي

على كرسي من كراسي حجرة الحضانة . فابتسمت ، واطعتها ، كدأبي في ماضيات الأيام .

لقد ارادت أن تعرف ما اذا كنت سعيدة في قصر ثورنفيلد ام لا ، واي ضرب من الناس كانت سيدتي . وحين انبأتها ان لي سيدا ليس غير ، سألتني ان احدثها عن شخصيته ، وهل هو رجل نبيل النفس ، والى اي مدى كنت معجبة به . فقلت لها انه اقرب الى الدمامة منه الى الوسامة ، ولكنه رجل نبيل النفس بكل ما في هذا التعبير من معنى ، وانه عاملني معاملة كريمة ، واني كنت سعيدة راضية . ثم مضيت فحدثتها حديث القوم المرحين الذين نزلوا ضيفا عليه ، في قصره ، خلال الفترة الاخيرة . فأصغت بيسي الى هذا الحديث في شوق بالغ ، فقد كانت تفصيلاته من ذلك الضرب عينه الذي تأنس اليه نفسها وترتاح لسماعه .

وانفقنا في مثل هذا الحديث ساعة تقضت على نحو خاطف . ثم ان بيسي جاءتني بقلنسوتي وغيرها ، وصحبتهني الى القصر . والواقع انها كانت قد صحبتني ايضا ، منذ تسع سنوات تقريبا ، يوم هبطت هذا المجاز نفسه الذي كنت اصعد فيه الان . ففي ذات صباح قاتم ، بارد ، رطب ، يكتنفه الضباب من صباح كانون الثاني ( يناير ) كنت قد هجرت سقفا بغياضا معاديا ، وفي نفسي يأس وفي قلبي مرارة وشعور بالنبد والحرمان من حماية القانون ، لكي اشخص الى ملجأ لوود البارد - ذلك الجدول النائي غير المستكشف . وها هو ذا السقف البغيض المعادي نفسه يرتفع الان ، كرة اخرى ، امامي . كان مستقبلي ما يزال موضع شك ، وكان في جوانحي حتى ذلك الحين قلب مَوْجَع . وكنت لا افتأ اشعر اني تائهة اهميم على وجهي فوق ظهر الارض . ولكنني عرفت الان ثقة بنفسي وبقواي الذاتية اشد رسوخا ، وخوفا من الاضطهاد اقل اذبالا للروح . ليس هذا فحسب ، بل لقد كان جرح مظالي الفاجر قد اندمل الان بالكلية ، وكان لهب غيظي قد اُخمد .

وقالت بيسي ، وهي تتقدمني عبر الردهة : « سوف تدخلين الى حجرة الفطور ، اولا . ان السيدتين الشابتين ستكونان هناك » .

وما هي الا لحظة حتى وجدت نفسي داخل تلك الحجرة . كانت كل قطعة من قطع الاثاث تبدو كما بدت في ذلك الصباح الذي قدّمت فيه ، اول ما قدّمت ، الى مستر بروككهورست ، تماما . وكانت نفس السجادة التي وطئها آنذاك لا تزال في موضعها على مقربة من المستوقد . واذ وجهت طرفي نحو رفوف الكتب خيل الي ان في استطاعتي ان اتبين مجلدي « كتاب الطيور البريطانية » لـ « بيويك » في مكانهما القديم من الرف الثالث ، وكتأبي « رحلات جيليفر » و « الف ليلة وليلة » فوق ذينك المجلدين تماما . كانت الاشياء الجامدة هي هي لم تتغير ، ولكن الاشياء الحية كانت قد تغيرت حتى ليتعذر على المرء ان يعرفها .

وبرزت امامي سيدتان شابتان ، فاما احدهما فكانت فارعة الطول ، في



مثل طول مس اينغرام تقريبا ، شديدة الهزال ايضا ، ذات وجه شاحب جدا وطلعة صارمة . وكان في مظهرها شيء نقشفي عززه وضاعف من بروزه ثوب قماشي اسود مغرق في البساطة ، وتنورة مستقيمة ، وياقة كنانة منشأة ، وشعر مرجل الى ما وراء الصدغين ، وعقد من خرز آبنوسي ، كعقود الراهبات ، يتدلى منه صليب . ولم تكد عيني تقع عليها حتى وثقت انها اليزا ، برغم اني لم استطع ان اجد غير شبه ضئيل بين هذه الصورة المتطاوله الشاحبة وبين صورتها في عهد الطفولة .

واما الاخرى فكانت هي جورجيانا من غير ريب ، ولكنها غير جورجيانا التي تذكرتها - تلك الفتاة النحيلة ، الشبيهة بالجنيتات ، ذات الاحد عشر ربيعا . لقد كانت هذه آنسة كاملة التفتح ، شديدة امتلاء الجسم ، جميلة مثل دمية من شمع . وكانت ذات سمات حلوة لا شائبة فيها ، وعينين زرقاوين ناعستين ، وشعر ذهبي معقوص على صورة حليقات وخواتم . وكان لون ثوبها اسود ايضا ، ولكن زيه كان مختلفا جدا عن زي ثوب اختها - فهو فضفاض ولائق الى حد اعظم بكثير . وبكلمة ، لقد بدا معنا في الاخذ باسباب « الموضة » ، بقدر ما بدا ثوب اختها معنا في التعلق باهداب النسك والتطهر .

وكانت في كل من الشقيقتين سمة من سمات الام ، سمة واحدة ليس غير . فاما الاخت الكبرى النحيلة الشاحبة فكان فيها من امها عنفها الصفراء . واما الفتاة الصغرى المنورة الناضرة ، فكان فيها من امها شكل فكها وذقنها ، ولعل ذلك الشكل كان الطف بعض الشيء ، ولكنه خلع على مديها برغم ذلك قسوة بالغة لا تكاد توصف ، ولولاه لكان ذلك المحيا شديد البشاشة ، مغاليا في المرح .

ولم اكد اتقدم حتى نهضت كلتا الفتاتين للترحيب بي ، وحتى خاطبتي كل منهما باسم « مس اير » . وكان ترحيب اليزا بي موجزا ، جافا ، ومن غير ما ابتسامة ، عاودت بعده الجلوس في مكانها ، مركزة عينيها على نار المستوقد ، وكأنها نسيبتني . اما جورجيانا فاضافت الى قولها « كيف حالك ؟ » عددا من الملاحظات المبتذلة حول رحلتي ، وحول الجو ، وما اليه ، اطلقتها في نبرة بطيئة مطت الكلمات فيها مطا ، وارفقتها بمختلف النظرات الجانبية التي تفحصتني من اعلى الرأس الى اخمص القدم ، مجتازة حين طيات ثوبي المحيط من نسيج من صوف الغنم الاسباني ، وممتلكة حيناً عند زركشة قلنسوتي الريفية البسيطة . والحق ان للفتيات طريقة رائعة في اشعارك بأنهن يعتقدن انك « موضوع سخرية » ، من غير ان ينطقن بهاتين الكلمتين فعلا . انهن يعبرن اكمل تعبير عن مشاعرهن في هذا الصدد ، بضرب من التشامخ في النظرة ، والبرودة في المسلك ، والفتور في اللهجة ، من غير ان يحتجن في ابلاغها الى ايما فظاظه فعلية في القول او العمل .

بيد ان السخرية ، سواء اكانت مبطنة او صريحة ، لم يعد لها علي ، الان ، مثل ذلك السلطان الذي كان لها من قبل . ولقد دهشت ، - حين

اكتشفت - وانا في مجلسي بين ابنتي خالي - مبلغ لامبالاتي باهمال الاولى اياي اهمالا كلياً ، وبملاطقات الاخرى لي على نحو نصف ساخر . ان مسلك اليزا لم يجرحني ، وان موقف جورجيانا لم يزعجني . فالحق انه كانت لدي اشياء اخرى تقتضي التفكير فيها . ففي خلال الشهور القليلة الماضية كانت قد اثرت في ذات نفسي مشاعر اقوى بكثير من اياما مشاعر كان في وسعهما ان تثيراها ، وآلامٌ ومسرآتٌ اشد حدة واروع روعة من اياما آلام ومسرآت كان في استطاعهما ان توقعاها او تغدقاها . . . بحيث لم ابالِ بعجرفتهما البتة .

وسارعت الى السؤال : « كيف حال مسز ريد ؟ » ، ناظرة في هدوء الى جورجيانا ، التي رأت ان من الخير ان تحدجني بنظرة متكبرة ، وكان سؤالني المباشر كان ضرباً من الوقاحة غير منتظر .

- « مسز ريد ؟ آه ، تعنين ماما . انها علييلةٌ الى ابعد حد . واني لاشك في انه سيكون في ميسورك ان تربها الميلة » .

فقلت : « اني لاكون شاكرة لك اعظم الشكر اذا تلطفت بالصعود الى الدور الاعلى وابلاغها اني قد اقبلت » .

واجفلت جورجيانا او كادت ، وفتحت عينها الزرقاوين اقصى ما استطاعت فتحهما ، على نحو ضارٍ ، فأضفت : « انا اعلم انها ابدت رغبة خاصة في رؤيتي ، ولست احب ارجاء النزول عند رغبتها الى ابعد مما تقضي به الضرورة القاهرة » .

فلاحظت اليزا : « ان ماما لتكره ان تُزَعَج في الامسيات » .

فما كان مني الا ان نهضت ، من غير ان ادعى الى ذلك ، ونزعت قلنسوتي وقفازي ، وقلت اني سوف امضي الى بيسي - التي كانت ، في ما خيل الي ، في المطبخ - واسألها ما اذا كانت حال مسز ريد تساعد على استقبالها ، الميلة ، ام لا . وغادرت الحجرة ، حتى اذا وجدت بيسي ، وعهدت اليها في المهمة التي اخترتها لها ، تقدمت الى اتخاذ اجراءات اضافية . والواقع انه كان من دأبي دائماً ، في ما مضى ، ان اجفل من التعاطف والعجرفة ، ولو قد استقبلت ، قبل عام واحد ، كما استقبلت اليوم ، اذن لوطنت العزم على مغادرة قصر جايتسهيد في صباح اليوم التالي بالذات . اما الان فقد تجلّيت لي في الحال ان مثل هذا الصنيع خليقٌ به ان يكون خطة حمقاء . فلقد اجتزت مئة ميل لكي ارى امرأة خالي ، وان من واجبي ان ابقى الى جانبها حتى تبرأ . . او تموت . اما غرور بنتيها وحماتهما فيجب ان اطرحهما وراني ظهرياً ، وان لا اتأثر بهما البتة . وهكذا وجهت الخطاب الى مدبرة شؤون المنزل وسألتها ان توصلني الى احدى الحجرات ، وقلت لها ان من الراجح ان تطول اقامتي في القصر اسبوعاً او اسبوعين ، وطلبت الى بعض الخدم ان ينقل حقيبة امتعتي الى حجرتي ، وتبعتهما الى هنالك بنفسي ، فاذا بي التقى بيسي عند منبسط السلم .

وقالت : « ان سيدتي يقضى . لقد قلت لها انك هنا . تعالي ولنر هل ستعرفك ام لا » .

ولم اكن في حاجة الى من يقودني الى الحجرة الشهيرة ، التي طالما دُعيت اليها لانال قصاصا ما او لاستمع الى تقريب ما ، في الايام الخالية . وهكذا اندفعت متقدمة بيسي ، وفتحت الباب في رفق . كان على الطاولة مصباح مظلّل ، فقد كان الليل يتقدم ، الان . وكان ثمة ذلك السرير الضخم ذو العمدة الاربعة ، وقد اسدلت حوله سُجُفٌ عنبرية اللون كمهدي به في السنين الخوالي . وكانت ثمة منضدة الزينة ، والكرسي ذو الذراعين ، ومتكأ القدم الذي حكيم علي عشرات المرات بأن اركع عنده والتمس الغفران عن ذنوب لم اقترفها . وتطلعت الى زاوية مجاورة ، نصف متوقعة ان ارى شبح عصا مهزولة كانت في يوم من الايام توقع الرعب في قلبي ، عصا كانت تكمن هناك ، في انتظار ان تثب مثل عفريت صغير وتلهب راحة يدي المرتعدة او عنقي المنكمشة . وتقدمت نحو السرير ، وفتحت السجف ، وانحنيت فوق الوسائد المركوم بعضها فوق بعض .

وكنت لا ازال اذكر وجه مسز ريد في كثير من الوضوح . فرحت ابحث في السرير عن هذا الوجه غير الغريب علي . وانه لمن حسن الطالع ان الزمان يُحمد التوق الى الانتقام ، ويُسكت حوافز الغيظ والنفور : كنت قد فارقت هذه المرأة وانا فريسة الحقد والكراهية ، وها انا ذا اعود اليها الان وليس في صدري نحوها غير ضرب من الاشفاق عليها لما تعاني من آلام مبرحة ، وغير توقٍ عارم الى ان انسى كل ما انزلته بي من اذى واغفره لها ، والى ان اصالحها واضع يدي بيدها في قوة ومحبة .

كان الوجه المألوف هناك : كالحا قاسيا كمهدي به من قبل ، وكانت هناك تلك العين الفريدة التي ما كان شيء بقادر على ان يكسر من حدتها ، وذلك الجبين المرفوع الأمر المستبد . كم من مرة صبّ علي جام وعيمده وبفضائه ! ويا لذكريات مخاوف الطفولة واحزانها كيف انبعشت حية وانا اتفرس في اساريه القاسية ! ومع ذلك فقد انحنيت فوقها وقبلتها .

فنظرت الي وقالت : « هل هذه هي جين اير ؟ »

- « نعم ، يا امرأة خالي . كيف حالك ، يا امرأة خالي العزيزة ؟ »  
كنت قد اخذت على نفسي عهدا ، في يوم من الايام ، بأن لا ادعوها امرأة خالي بقية عمري كله ، ولقد رأيت انه ليس من الاثم ان انسى هذا العهد واحث به الان . وكانت اصابعي قد تشبّثت بيدها المبسوطة فوق غطاء السرير ، ولو انها ضغطت هي علي يدي في محبة اذن لاستشعرت بهجة صادقة . ولكن الطبائع المتنعة على التأثير لا تُترَقَّقُ حاشيتها بمثل هذه السرعة كلها ، وضروب التنافر الطبيعي لا تُستأصل بمثل هذا اليُسْر كله . لقد سحبت مسز ريد يدها ، واشاحت بوجهها عني قائلة ان الليل حار . وكرة اخرى نظرت الي نظرة مثلوجة الى درجة ادركت معها ، على التو ، ان رأيتها في

– وشعورها نحوي – لم يتغيرا ، وانهما غير قابلين للتغير . لقد عرفت من عينها المتحجرة – المستعصية على الحنان ، الممتنعة على الدموع – انها كانت مصممة على اعتباري مخلوقة طالحة ابدا . ذلك بأن الايمان بأن مخلوقة صالحة ما كان ليقوع في نفسها اي ابتهاج كريم ، لقد كان خليقا به ان يُشعرها بالغم والكمد ليس غير .

واحسست بألم ، ثم احسست بحق ، ثم احسست بعزم على اخضاعها – على ان اكون سيدتها برغم طبيعتها وبرغم ارادتها جميعا . وكانت عبراتي قد طفرت ، كدأبي في عهد الطفولة تماما ، فأمرتها بالعودة الى مصدرها . وادنيت كرسيا الى مقدم السرير ، وقعدت ، وانحنيت فوق الوسادة .

وقلت : « لقد ارسلت في طلبي ، وها انا قد جئت ، واني لا اعترم ان ابقى حتى ينحسر عنك الداء » .

– « اوه ، طبعاً ! هل رأيت بنتي ؟ »

– « حسنا ، في امكانك ان تخبريهما اني اريد منك ان تبقي هنا الى ان يصبح في ميسوري ان اتحدث اليك في اشيء تشغل ذهني . لقد فات الاوان ، هذه الليلة ، واني لاجد عسرا في تذكرها . ولكن كان ثمة شيء احببت ان اقلوه ... دعيني ارى ... »

وكان في تلك النظرة التأثية وتلك اللهجة المتغيرة ما انبأني بان الخراب قد المَّ بهذا الهيكل الذي كان في يوم من الايام ذا بأس شديد . واستدارت في قلق وضيق ، وجذبت غطاء الفراش محاولة ان تغلّف نفسها به . ولكن مرفقي ، المستند الى زاوية اللحاف ، ثبتت الغطاء في مكانه ، فأثار ذلك تأثرتها ، في الحال ، وقالت :

– « استقيمي في جلستك ! لا تزعجيني بتشبيكك بغطاء السرير ... هل انت جين ايبير ؟ »

– « انا جين ايبير ! »

– « لقد عانيت من تلك الطفلة اكثر مما يتصور اي انسان . يا لها من ثقل ثقيل ترك في يدي ! وما اعظم الازعاج الذي اورثني اياه في كل يوم وكل ساعة ، بطبعها الغامض ، وخلقها النزق ، ومراقبتها غير الطبيعية لحركات المراء ! انا اعلن انها خاطبتني ذات يوم مثل فتاة مجنونة ، او مثل عفريته – ان ايما طفل لم يخاطبني او ينظر الي قط من قبل بهذه الطريقة . ولقد كنت سعيدة باخراجها من البيت . ما الذي فعلوه بها في لودود ؟ لقد تفشّت الحمى هناك ، وتخطّف الموت كثيرا من التلميذات . اما هي فقه نجت من الموت : ولكني قلت انها ماتت ... لشد ما اتمنى لو انها ماتت ! »

– « امنية عجيبة ، يا مسز ريد . لماذا تكرهينها هذا الكره كله ؟ »

– « لقد كنت اكره امها ، دائما . ذلك بانها كانت اخت زوجي الوحيدة ، وكانت اثيرة عنده : لقد عارض انكار الاسرة لها عندما عقدت زواجها الوضيع ، وعندما جاءه نعيها بكى مثل فتى غرّ ساذج . كان يرسل في طلب الطفلة ،

برغم اني توصلت اليه ان يعهد في تربيتها الى حاضنة وان يدفع نفقات اعالتها . لقد ابفضتها اول ما وقعت عيناى عليها - كانت مخلوقة معتلة الصحة ، كثيرة العويل ، شديدة الهزال ! وكان من دأبها ان تعول في مهدها طوال ساعات الليل كلها - انها لم تكن تصرخ من صميم فؤادها مثل ايما طفل اخر ، ولكنها كانت تنشج نشيجا وتئن ائينا . لقد اشفق عليها ريد ، وكان من دأبه ان يرعاها ويرفق بها وكأنها بنته . بل لقد رفق بها اكثر مما رفق بأي من اولاده في تلك السن . وكان لا يفتأ يحاول حمل اولادي على اتخاذ موقف ودي من الشحادة الصغيرة ، ولم يكن في ميسور احبتي ان يحتملوا ذلك ، فنقم عليهم عندما اظهروا بغضهم لها . وفي مرّضته الاخيرة ، كان يطلب منا على نحو موصول ان نحملها اليه ، وقبل ساعة واحدة من وفاته انتزع مني عهدا ببقاء تلك المخلوقة في القصر . ولقد كنت اؤثر ان اكلّف برعاية طفل معوز من اطفال الملاهي ، ولكنه كان ضعيفا بالفطرة . ان جون لا يشبه اباه البتة ، وانا سعيدة بذلك . جون يشبهني ، ويشبه اخوتي - انه « جيبسوني » حقيقي . اوه ، لشد ما اود لو يكفّ عن تلويحي برسائله التي يبعث بها الي طلبا للمال ! فلم يعد لدي فضل من مال اعطيه اياه : اننا نتخذ سبيلنا الى الفقر . ويتعشّ علي منذ اليوم ان اسرح نصف الخدم ، وان اوصد جزءا من القصر ، او ان اؤجر منه جزءا . انا لا استطيع ان اقر مثل هذا الصنيع - ومع ذلك فكيف لنا ان نحفظ بمستوى عيشنا القديم ؟ ان فائدة الرهن تلتهم ثلثي دخلي . وجون يقامر على نحو رهيب ، والخسارة حليفه ابدأ . يا له من ولد بائس ! انه محاط بجماعة من النصّابين . لقد تردّى في هوة الشقاء والخزي . ان سيماء لرهيبة . . . واني لاستحي به كلما وقعت عليه عيناى .

كان الاهتياج البالغ قد شرع يستبد بها . فقلت لبيسي ، وكانت واقفة عند الجانب الآخر من السرير : « يخيل الي ان من الخير ان افارقها الان » . - « احسب ذلك ، ايتها الآنسة ، ولكنها كثيرا ما تتحدث على هذا النحو عندما يتقدم الليل . . . انها لتكون في الصباح اكثر هدوءا » .

ونفضت . فهتفت مسرّ ريد : « قفي . عندي شيء آخر احببت ان ا قوله . انه يتوعدني . . . انه لا يفتأ يتوعدني بموته ، او موتي . وانا ارى في المنام ، احيانا ، اني انظر اليه ممدّدا وقد جرى الدم من جرح بليغ في نحره ، او وقد انتفخ وجهه واسودّ . لقد انتهيت الى مازق غريب ، واني لارّح تحت عبء من المتاعب ثقيل . ما الذي يجب ان افعله ؟ من اين لي ان احصل على المال ؟ »

وهنا حاولت ببسي ان تقنعها بأخذ جرعة من عقّار مسكّن ، فوفّقت الى ذلك في عسر . وسرعان ما هدأت نفس مسرّ ريد ، وغلب عليها النعاس . وعندئذ فارقتها .

وتصرمت عشرة ايام قبل ان يدور بيني وبينها ايما حديث آخر . كانت

ابدا تترجّح بين حالين من هذيان وسبات . ولقد اوصانا الطبيب بان نجثبها كل ما يثير شجونها . وفي غضون ذلك عايشتُ جورجيانا واليزا على احسن وجه استطعته . والواقع انهما وقتا مني ، بادی الامر ، موقفا يتميز بالبرود الشديد . فكانت اليزا تسلخ نصف النهار في الخياطة ، او المطالعة ، او الكتابة ، من غير ان توجه الي او الى اختها كلمة واحدة الا في النادر النادر . وكانت جورجيانا تسلخ ساعات وساعات وهي تحدثُ کنارها بضروب الهراء من غير ان تلقي الي بالا . ولكني كنت قد وطنت العزم على الاصطبار وعلى التسلي عن ذلك بما يملأ فراغ وقتي . وكنت قد تزودت ، عند ارتحالي الى غايتسهيد ، بأدرات الرسم ، فوجدت فيها ما يشغلني ويسليني على حد سواء .

كان من دأبي ان احمل علبة اقلامي وبضع صحائف من الورق ، وان اتخذ لي مقعدا نائيا عنهما ، على مقربة من النافذة ، واشغَل نفسي بتسويد مختلف صنوف الرسوم الصغيرة المتخيلة التي تمثل اياما مشهدة اتفق له ان تشكل آنذاك في منظار خيالي ذي القطع الزجاجية الملونة التي ما تستقر على حال او وضع : لمحة من البحر بين صخرتين ، القمر الطالع وسفينة تمخر مُجَلَّبَبَةً بضياء قرصه المنعكس على صفحة الماء ، مجموعة من القصب وقد انبثق منها رأس جنيّة ماء متوجة بأزهار اللوتس ، وسعلاة متربعة في عش « عصفور شوك » ، تحت اكليل من زهر الزعرور البري ...

وذات صباح شرعت في رسم وجه . . اما اي ضرب من الوجه كان متدرا له ان يكون فذلك ما لم ابال به او اعرفه . وتناولت قلما اسود طريا ، وروست طرفه على نحو عريض ، وواصلت العمل . وسرعان ما سوّدت على الورق جبينا عريضا بارزا وذقنا مربعة . وواقعت هذه الخطوط البهجة في نفسي ، وسرعان ما راحت اصابعي تملأها ، في خفة ونشاط ، بلامح واساير . وكان لا بد لي من ان ارسم ، تحت ذلك الجبين ، حاجبين افقيين صارخين ، وان اتبع ذلك كله ، طبعا ، بأنف بارز مستقيم ذي منخريين ضخمين ، وبفم غضّ طري غير صغير بأية حال ، وبذقن عنيّدة في وسطها « طابع » عميق . ولقد احتجت ، طبعا ، الى رسم سالفين اسودين ، وشعر فاحم ، مُعْتَقَد عند الصدغين ومموج فوق الجبين . بقيت العينان ، وكنت قد تركتهما الى النهاية لانهما اقتضتا اعظم قدر من العناية والتجويد . ولقد صورتها نجلاوين وقومتها احسن تقويم : لقد اطلت الاجفان وعثمتها ، وجعلت انسيابهما نيرين كبيرين . وقلت في ذات نفسي ، وانا القي نظرة على ما صنعت يداي : « حسن ! ولكنها لا تمثل الاصل تمثيلا كاملا . انها في حاجة الى فضل من قوة وروح » . وعمدت الى الظلال فجعلتها اشد سوادا ، لكي يكون في ميسور الجوانب المنيرة ان تومض على نحو اشد سطوعا ، ولقد حققت نجاحي في ذلك لمسة قلمية محظوظة او لمستان ليس غير . وهكذا الفيت تحت ناظري وجه صديق : فاي بأس في ان توليني هاتان الشابتان

ظهريهما ؟ وتأملت ذلك الوجه وابتسمت للشبه الناطق . كُنت مندمجة راضية .

وسألتني اليزا ، وكانت قد تقدمت نحوي من غير ان الحظها : « أهذه صورة شخص تعرفينه ؟ » فأجبتها قائلة انها مجرد وجه متخيّل ، وسارعت الى اخفائها تحت الصحائف الاخرى . ولقد كذبت ، من غير ريب . فقد كانت في الواقع ، صورة امينة جدا لمستر روتشميستر . ولكن اية اهمية كان لذلك عندها ، ار عند اي امرى آخر ، غيري انا ؟ واقتربت جورجيانا ايضا لترى الى الرسم . واعجبتها الرسوم الاخرى اعجابا عظيما ، ولكنها علّقت على هذه بقولها : « رجل دميم » . وبدت الشقيقتان وكأنهما دهشتان لبراعتي ، وعرضت ان ارسم وجهيهما ، فقعدت كل منهما ، بدورها ، لكي اخرج لها صورة قلمية . ثم ان جورجيانا جاءت باليومها . فوعدت بان اصورها صورة مائية ، فانفجرت اساريرها في الحال ، واقتربت عليّ ان اقوم معها بنزهة في الحقول . ولم نكد نمضي ثمة ساعتين اثنتين حتى شرعنا نتجاذب اطراف حديث شخصي فتحت لي خلاله قلبها : لقد تكرّمت عليّ بوصف لذلك الشتاء الرائع الذي قضته في لندن منذ فصلين اثنين ، محدّثة اياي عن الاعجاب الذي اثارته ، والحقاوة التي حظيت بها . بل لقد استشفقت ملامح من الغزو الذي وفّقت اليه لقلب احد النبلاء . وخلال ساعات الاصيل والمساء توسّعت في تصوير هذه الملامح ، واوردت ضربا من المحاولات الرقيقة ، وصوّرت صنوفا من المشاهد العاطفية . وبكلمة موجزة ، ارتجلت في ذلك اليوم ، لأمتاعي ، رواية كاملة عن حياة الترف والمترفين . وجُدّدت هذه الاحاديث يوما بعد يوم . وكانت كلها تدور حول الموضوع نفسه - حولها هي ، وحول قصص حبها واحزانها . ومن عجب انها لم تشر ، ولو مرة واحدة ، الى مرض امها او الى موت اخيها ، او الى وضع الاسرة القاتم ومستقبلها المظلم . لقد بدا وكأن عقلها كان مستغرقا استغراقا كاملا في ذكريات الجبور السالف ، وفي التطلع الى ملذات المستقبل . كانت تنفق نحوا من خمس دقائق ، كل يوم ، في حجرة امها المريضة ، ليس غير .

اما اليزا فأقامت على صمتها : كان واضحا انه لم يكن لديها متسع من الوقت للكلام . والحق اني لم ار في حياتي شخصا اكثر انشغالا منها كما تبدّت لعين الناظر . ومع ذلك ، فقد كان من العسير على المرء ان يحزر ما الذي كانت تعمله ، او بالاحرى ان يكتشف اياها ثمرة من ثمرات كدّها . وكان لديها ساعة منبهة لا يقاظها في ساعة مبكرة من الصباح . ولست ادري كيف كانت تشغل نفسها قبل الفطور ، اما بعد تلك الوقعة فكانت تقسّم وقتها الى اجزاء نظامية ، مخصصة كل ساعة لمهمة بعينها . وثلاث مرات في اليوم كانت تطالع في كتاب صغير ظهر لي ، عند التحقيق ، انه كتاب من كتب الصلاة العامة . وسألتها ذات مرة عن ابرز ما كان يستأثر بأعجابها في ذلك السّفر فأجابت « قانون الفرض الكنسي والقداس » . وكانت تفرّد ثلاث

ساعات لتطريز ماشية قماشة قرمزية مربعة ، تكاد تكفي لصند - سجادة ،  
بخط ذهبي . حتى اذا الحقت عليها في السؤال عن فائدة هذه القماشة  
اعلمتني انها حجاب لمذبح كنيسة انشئت منذ فترة قريبة في مكان مجاور  
لغايتهسيد . وكانت تكررُ ساعتين اثنتين لكتابة يومياتها ، وساعتين  
اخرين للعمل بمفردها في حديقة المطبخ ، وساعة واحدة لتنظيم حساباتها .  
لقد بدت وكأنها راغبة عن الانس الى ايما رفيق ، زاهدة في ايما حديث . وانا  
اعتقد انها كانت سعيدة بطريقة حياتها هذه : لقد كان هذا الروتين يكفيها ،  
ولم يكن ثمة ما يزعجها اكثر من وقوع ايما حادثة تكررها على تعديل نظاميته  
التي تضاهي دقتها ساعة من الساعات .

وقد انبأني ، ذات ليلة ، عندما كانت اكثر ميلا الى التحدث من مألوف  
عادتها ، ان سلوك جون والخراب الذي كان يتهدد الاسرة اورثاها غما عميقا ،  
ولكنها قد وطنت الان نيتها ، كما قالت ، وعقدت عزمها على امر . لقد عُنيت  
بالعمل على صيانة مستقبلها ، حتى اذا ما قضت امها نجبها - وقد كان من  
غير المحتمل بأية حال ان تشفى او ان يتناول مقامها في هذه الدنيا ، كما  
لاحظتُ في رباطة جاش - عمدت الى انفاذ خطتها تلك ، التي راودتها منذ  
فترة بعيدة ، فالتمست العزلة في مَقَرَّع تكون الحياة فيه صارمة جدا ، دقيقة  
جدا ، واقامت حواجز آمنة تفصل ما بينها وبين العالم المستهتر الطيَّاش .  
وحين سألتها ما اذا كانت جورجيانا ستصحبها أجابت بما معناه : لا ، طبعا .  
فلم يكن بينها وبين جورجيانا ، في ايما يوم من الايام ، اي قاسم مشترك .  
وهي لا تريد ان تُحمَل عبء مرافقتها لايما سبب او اعتبار . ان على  
جورجيانا ان تتخذ سبيلها التي اختارتها لنفسها ، ولسوف تتخذ هي - اليزا -  
سبيلها التي اختارتها لنفسها .

وكان من دأب جورجيانا - حين لا تبشني شجون قلبها - ان تنفق معظم  
وقتها مضطجعة على الارىكة ، متبرمة برتابة الحياة في القصر متمنية على نحو  
موصول لو وجهت اليها خالتها ، مسز جيبسون ، دعوة للذهاب الى لندن .  
ولقد قالت ذات يوم ان من الخير لها ، الف مرة ، ان تنأى بنفسها عن هذا  
الجو ، شهرا او شهرين ، وان لا تنقلب راجعة الا بعد ان ينقضي كل شيء .  
ولم اسألها ماذا عنت بقولها : « بعد ان ينقضي كل شيء » ، ولكني اعتقد انها  
اشارت الى موت امها المرتقب والى ما سيعقب ذلك من طفوس الجنازة  
وشعائرها . ولم تول اليزا ، على وجه عام ، تواني اختها وشكاواها اهتماما  
كبيراً ، فكان تلك المخدوقة المتذمرة المتكاسلة لا تقيم معها تحت سقف واحد .  
بيد انها اغلقت دفتر حساباتها وطوت تطريزها ، ذات يوم ، واندفعت تعنفها  
تعنيفا مفاجئا على هذا النحو :

- « جورجيانا ، انا لا اشك في انه لم يَجْزُ لبهيمه اكثر منك سخفا  
واعجابا بالنفس ان تزعج الارض في ايما يوم من الايام . والواقع انه لم يكن



من حقك ان تولدي ، ذلك بانك لا تفيد من الحياة . فبدلاً من ان تعيشي لنفسك ، وفي نفسك ، ومع نفسك ، كما يتعين على المخلوقة الحصيصة ان تفعل ، أراك لا تسعى الا الى القاء ضعفك على كتفي شخص اخر قوي . اما اذا عدمت شخصا يرضى بأن يُثقل كاهله بهذا الحمل البدين ، الضعيف ، المنتفخ ، الذي لا غناء فيه ، جارت بالشكوى زاعمة انك بائسة ، مضطهدة ، مهملة . ليس هذا فحسب ، بل انك تريدين ان يكون وجودك مشهدا موصول التغير والاثارة والا اعتبرت الحياة سجننا مظلماً . انك تريدين دائماً ان تكوني موضع اعجاب الناس ، وتوددهم ، واطرائهم . . . تريدين ان تحيي دائماً حياة حافلة بالموسيقى ، والرقص ، والصخب والا ألم بك الذبول وتلاشيت تلاشياً . اليس لديك من العقل ما يساعدك على ابتداع نظام يجعلك مستغنية عن ايما جهد او ارادة غير جهدك انت وارادتك انت ؟ خذي يوماً واحداً من ايامك ، وقسميه الى اجزاء ، وعيئي لكل جزء عملاً خاصاً به . املاي كل ربع ساعة ، كل عشر دقائق ، بل كل خمس دقائق ، بعمل ما ، بحيث لا تتركين لحظة واحدة شاغرة . وادّي كل عمل من الاعمال في ميقاته ، وفي نظامية صارمة . وعندئذ تجددين ان ساعات اليوم سوف تنقضي قبل ان تستشعري انها بدأت ، وتجددين انك غير مدينة لايام امرئ بمساعدتك على التخلص من ايما لحظة شاغرة . انك لن تلتمسي بعد ذلك انس ايما امرئ او حديثه او عطفه او حلمه . وبكلمة ، سوف تحيين كما ينبغي للمكانن المستقل ان يحيا . دونك هذه النصيحة ، وهي اول نصيحة وآخر نصيحة اسديها اليك ، وعندئذ لن تحتاجي الي ، او الى ايما شخص آخر ، مهما حدث . اما اذا نبذتها وراء ظهرك ، واقمت على ما الفتته حتى الان من اشتهاء واعوال وتكاسل فعندئذ يتحتم عليك ان تتحمل عواقب بلاهتك ، مهما تكن سيئة كريمة . اني اقول لك هذا في وضوح ، فاسمعي : اذ على الرغم من اني لن اكرر ما اعترزم ان اقله الان فلسوف اعمد الى تنفيذه في حزم . اني سأنفض يدي منك بعد وفاة والدتي ، وسأنفضل عنك ، حالما يتحمل نعلها الى عقد كنيسة غايتسهيد ، وكان احداً لم تعرف الاخرى قط . ولا داعي الى ان تنوهمي اني سوف ارضى بأن توثقيني اليك بايما رابطة مهما وهت ، لمجرد ان المصادفة شاءت ان نتحدر من صلب أب واحد وأم واحدة . وفي استطاعتي ان اقول لك ما يلي : لو ان افراد الجنس البشري كلهم ، ما عداي انا وما عداك انت - منحوا محوا ، ووقفنا نحن وحدنا على ظهر الارض اذن لتركك في العالم القديم ومضيت انا الى العالم الجديد . »

قالت ذلك واطبقت شفيتها ، فأجابتها جورجيانا : « كان في امكانك ان توفري علي نفسك عناء شئ هذه الحملة علي . ان كل امرئ ليعلم انك المخلوقة الاكثر انانية وتحجّر قلب ، في هذا الوجود . وانا اعرف كراهيتك الحقوق لي : لقد ابتليت بنموذج منها قبل اليوم ، في المكيدة التي دبرتها سدي في موضوع اللورد ايدوين فير . فانت لم تطبقي ان تري الي وقد

رفعني الناس فوقك درجة ، وان احظى بلقب من الالقاب النبيلة ، وان تفتح في وجهي ابواب حلقات لا تجرؤين انت على اظهار وجهك فيها ، ومن اجل ذلك مثلت دور الجاسوس والنمّام ، وقضيت على مستقبلي الى الابد .

وهنا اخرجت جورجيانا منديلها وراحت تتمخّط طوال ساعة كاملة . اما اليزا فقد جلست غير مكترثة ، ولا متأثرة ، مواصلة كدحها في جد بالغ . ان ثمة طائفة من الناس لا تقيم كبير وزن للعاطفة الكريمة الصادقة . ولكننا ههنا امام طبيعتين اثنتين اعوزتهما هذه العاطفة فاذا بالاولى حريفة الى حد لا يطاق ، واذا بالثانية تافهة الطعم الى حد يغري بالازدراء . ذلك بأن العاطفة من غير عقل هي في الواقع شراب مخفّف « سائط » ، ولكن العقل الذي لا تلطّعه العاطفة هو لقمة مريرة جافة في البلعوم ، فليس في ميسور البشر ازدراده .

كان اصيلا مطرا عاصفا . وكانت جورجيانا قد استغرقت في النوم ، على الاربكة ، وفي يدها رواية كانت تطالعها . وكانت اليزا قد مضت لتشهد قداسا أقيم في الكنيسة الجديدة احياء لذكرى احد القديسين - اذ كانت ، في شؤون الدين ، متمزنة شديدة المحافظة على الشكليات ، لم يوفق قلب الاحوال الجوية في ايما يوم من الايام الى الحؤول بينها وبين اداء ما اعتبرته واجبها المقدس في ميقاته المعلوم . كانت تشخص الى الكنيسة كل يوم احد ثلاث مرات ، سواء اكان الجو رائقا أو عاصفا ، وتشخص اليها في ايام الاسبوع بقدر عدد الصلوات المقامة خلاله .

وخطر لي ان ارتقي السلم وأرى كيف كانت حال المرأة المحتضرة التي اضطجعت هناك مهملّة او شبه مهملّة . كان الخدم انفسهم لا يولونها غير اهتمام متقطّع ، وكانت المريضة المستأجرة ، غير الخاضعة لمراقبة شديدة ، تنسل من الحجرة كلما وجدت الى ذلك سبيلا . اما يبسي فقد اخلصت لسيدتها ، ولكنها كانت مضطرة الى الاهتمام بشؤون اسرتها هي ، ولم تكن بقادرة على الاختلاف الى القصر الالمما . والحق اني وجدت حجرة المريضة مهجورة ، كما توقعت من قبل : لم يكن ثمة ممرضة ، وكانت مسز ريد مضطجعة في سكoon ، وقد استغرقت على ما بدا لي في سبات عميق . كان وجهها الازرق الرصاصي غارقا بين الوسائد ، وكانت النار تخبو في المستوقد فأذيتها بشيء من الوقود ، وسوءت اغطية السرير ، ورحت احرق اليها فترة ، بعد ان امست عاجزة عن التحديق الي ، ثم اتخذت سبيلي الى النافذة .

كان المطر ينقر زجاج النافذة نقرا غنيفا ، وكانت الريح تهب على نحو عاصف . وقلت في ذات نفسي : « ههنا تضطجع مخلوقة لن تلبث ان تصبح بعيدة عن حرب العناصر الارضية . فالى اين ستمضي تلك الروح - التي تكافح الان لمفارقة مثواها المادي - عندما تتحرر من عقالها اخر الامر ؟ » وفي ما كنت افكر في اللغز العظيم تذكرت هيلين بيرنز . . . تذكرت اخر كلماتها وقد حضرته الوفاة ، وتذكرت ايمانها ، ومذهبها في تساوي

الارواح المفارقة اجسادها . وكنت لا ازال اصغي ، بالفكر ، الى نبراتها التي لم أنسها قط ، متصورة مظهرها الشاحب الاثيري ، ووجهها المضيئ ، ونظرتها العلوية فيما كانت مضطجعة في فراش احتضارها الوداع وفيما كانت تهمس بتوقعها للعودة الى صدر ابيها السماوي . . . عندما غمغم من جانب السرير القائم خلفي صوت واهن : « من هناك ؟ »

وكنت اعلم ان مسز ريد لم تنطق ، منذ ايام ، بكلمة ما ، فتساءلت : هل عادت الى الوعي ؟ وتقدمت نحوها .

– « انا ، يا امرأة خالي » .

فكان جوابها : « من هو انا هذا ؟ من انت ؟ » ونظرت الي في دهش وفي ضرب من الذعر ، ولكن في غير ضراوة واحتياج . « انت غريبة عني الى ابعد الحدود . . . اين بيبي ؟ »

– « انها في كوخ البواب ، يا امرأة خالي »

فكررت : « امرأة خالي ؟ من يدعوني « امرأة خالي » ؟ أنت لست واحدة من آل جيبسون ، ومع ذلك فانا اعرفك . . . هذا الوجه وهاتان العينان وهذا الجبين مألوفة عندي الى ابعد الحدود . انت تشبهين . . . اجل ، انت تشبهين جين اير ! »

ولم اقل شيئا . لقد خشيت ان اورثها ، بالاعلان عن هويتي صدمة ما . وقالت : « ومع ذلك ، فانا اخشى ان اكون قد اخطأت : ان افكاري تخدعني . لقد اردت ان ارى جين اير ، واني لاتخيل بعض المشابه حيث لا مشابهة البتة . والى هذا ، فلا بد انها قد تغيرت تغيرا كبيرا في غضون سنوات ثمان » .

عندئذ اكدت لها ، في رفق ، اني انا الشخص الذي توهمتني اياه وارادتنني ان اكونه . حتى اذا لاحظت انها تدرك ما اقول ، وانها مالكة زمام حواسها شرحت لها كيف بعثت بيبي زوجها ليجيء بي من ثورنفيلد .

فما عثمت ان قالت : « انا جد مريضة . . هذا شيء اعرفه . لقد كنت احاول ، منذ بضع دقائق ، ان انقلب على جانبي الاخر فوجدت اني لا اقوى على تحريك اي من اوصالي . ولكن علي ان اريح ضميري قبل ان الفظ انفاسي الاخيرة ، ذلك بان ما لا نفكر فيه – ونحن في عافيتنا – الا قليلا انما يُنِيخ علينا بكللكه في ساعة كمثل هذه الساعة التي اجدني فيها الآن . هل الممرضة هنا ؟ وهل ليس في الحجرة أحد غيرك ؟ »

وأكدت لها انا كنا وحدنا .

– « حسنا ، لقد اسأت اليك ، مرتين ، اساءة انا عليها الآن نادمة . الاولى عندما حنثت بما عاهدت زوجي عليه من تنشئتك مثل ولد من اولادي . والاخرى . . . »

وكففت عن الكلام . وغمغمت مخاطبة نفسها : « على أية حال ، انها ليست ذات أهمية كبيرة ، ربما . والى هذا ، فاني قد ابلت من دائي . ان اذلالني

نفسى لها ، على هذا النحو ، لموجع » .

وبذلت جهدا لتغيير وضعها في الفراش ، ولكنها اخفقت . وتغير وجهها ، لقد بدت وكأنها استشعرت احساسا باطنيا ما ، لعله كان هو النذير بدخولها في النزاع الاخير .

ثم قالت : « حسنا ، يجب ان اتغلب على ترددي . فالابدية امامي . من الخير لي ان اخبرها ... اذهبي الى حقيبة زينتني ، افتحيها ، واخرجي منها رسالة سوف تجدونها هناك » .

وامثلت اوامرها . فقالت : « اقرئي الرسالة » .

كانت موجزة ، وكانت كلماتها تجري على النحو التالي :  
« سيدتي ،

« هل لك ان تتكرمي فتبعني الي بعنوان ابنة اخي ، جين ايبير ، وتنبئيني عن حالها ، فانا اعتزم ان اكتب اليها عما قريب ، وارغب اليها في الالتحاق بي في ماديرا . لقد بارك الله جهودي ، فامسيت ذا غنى . واذ كنت غير ذي زوجة ولا اولاد فاني اود ان اتبناها خلال حياتي وان اوصي لها بكل ما سيقدر لي ان اتركه عند وفاتي .

« وتفضلني ، يا سيدتي » الخ .. الخ ..

« جون ايبير ، ماديرا »

كان تاريخها يرقى الى ثلاث سنوات خلت .

وسألتها : « لماذا لم أسمع بهذه الرسالة من قبل ؟ »

« لاني ابغضتك بغضا راسخا بعيد الغور جعلني عاجزة ابد الدهر عن بسط يدي لرفعك الى دنيا الرخاء والرفاهية . أنا لم أستطع قط ان انسى موقفك مني ، يا جين - والهياج المجنون الذي حملت به علي ، واللحظة التي أعلنت بها انك تبغضيني اكثر مما تبغضين أي امرئ آخر في العالم ، والنظرة والصوت غير الطفليين اللذين أكدت بهما ان مجرد التفكير بي يشير تقززك ، واني عاملتك في وحشية بالغة تبعث على الرثاء . ولم استطع ان انسى ما احسست به عندما انتفضت ونفثت سُم تفكيرك . لقد عصف بي الخوف ، وكاني ضربت وحشا ضاريا أو رفته فراح يحسّدق الي بعينين بشريتين ويلعنني بصوت بشري . أيتنني بقليل من الماء ! أوه ! عجلي ، عجلي ! »

فقلت وأنا اقدم اليها الجرعة التي طلبت : « لا تفكري ، منذ اليوم ، بهذا كله ، يا امرأة خالي العزيزة . انسى ذلك نسيانا كاملا ، واغفري لي ما اصطنعت من لفة انفعالية . لقد كنت مجرد طفلة صغيرة آنذاك . ولقد انقضت الآن على ذلك اليوم ثماني سنوات او تسع سنوات . »

ولم تلتفت الى ما قلته البتة . ولكنها لم تكذب تتجرع الماء وتستريح قليلا ، حتى استرسلت قائلة :

« أقول لك اني لم استطع ان انسى ذلك ، ولقد انتقمتم منك . ذلك بأن التفكير في تبني عمك لك وفي تقلبك في اعطاف الطمأنينة والرفه كان هو

الشيء الذي لا أقوى على احتماله . فكتبت اليه قائلة اني أسفة لما سيُمنى به من خيبة أمل ، فجين ايير قد ماتت ، لقد قضت نجبها بحمي التيفوس في ليوود . والآن ، تصرفني على النحو الذي يروق لك ، اكتبني اليه واثبتني له ان ما قلته غير صحيح . . . افضحي كذبي حالمًا تجددين ذلك مناسبًا . لقد خلقت ، في ما احسب ، لشقائي وتعذيبي ، وها هي لحظاتي الاخيرة تنظّمها ذكرى عمل ما كان خليفًا بي ، لولاك انت ، ان أغرى بارتكابها بأية حال .

– « ليتني استطيع أن اقنعك ، يا امرأة خالي ، بالاقلاع عن التفكير في ذلك ، وفي النظر الي بعين الحنان والغفران . . . »

فقلت : « ان لك لمزاجا رديئا جدا ، مزاجا لا ازال استشعر حتى اليوم ان من المتعذر علي ان افهمه : كيف استطعت الاخلاص الى السكون والصبر علي مختلف ضروب المعاملة ، طوال تسع سنوات متواليات ، حتى اذا كانت السنة العاشرة تفجّرت نارًا وعنفًا ؟ هذا ما لا استطيع فهمه ابد الدهر » .

– « ان مزاجي ليس من الرداءة بالقدر الذي تحسبين . انا انفعالية ، ولكنني لست نزاعة الى الانتقام . فكم من مرة استشعرت ، وانا طفلة صغيرة ، رغبة في حبك واسعاد نفسي بهذا الحب . . . ولكنني لم أجد منك ما يشجعني علي ذلك . واني لاتوق الآن اخلص التوق الى مصالحتك . قبليني ، يا امرأة خالي » .

وادنيت خدي الى شفتيها ، فأبت ان تمسه . لقد قالت اني ضايقتها بانحنائي فوق السرير ، وسألتني كرة اخرى ان آتيها بشيء من الماء . وفيما انا اساعدها على الاضطجاع من جديد – ذلك بأنني كنت قد رفعتها قليلا واسندتها الى ذراعي وهي تشرب – وضعت يدي علي يدها المثلوجة الراشحة بالعرق . ولكن الاصابع الواهنة انكمشت مجفلة من لمسة يدي . . . واجتنبت عيناها شبه الزجاجيتين النظر الى وجهي .

واخيرا قلت : « احبيني ، اذن ، ان شئت ، واكرهيني ان شئت ، فقد غفرت لك من تلقاء نفسي غفرانا كاملا . اسألي الله ، الان ، ان يمنحك غفرانه ، واطمئني نفسك » .

يا للمرأة المذبذبة البائسة ! لقد كان من المتعذر عليها ان تغير مساق تفكيرها . . كان اوان ذلك قد فات . لقد ابغضتني طوال حياتي ، فكان حتما عليها ان تموت وصدرها يضطرب بالحقد علي » .

وهنا دخلت الممرضة ، تتبعها بيبي . فتلكأت نصف ساعة اخرى ، راجية ان الملح امارة تؤذن بالمودة ، ولكنها لم تتكشف عن شيء من ذلك . كانت تتخذ سبيلها ، في خطي حثيثة ، نحو غيبوبة جديدة لم يقدر لها ان تصحو منها . وفي الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة لفظت نفسها الاخير . ولم اكن الى جانبها ، آنذاك ، لاغمض عينيها ، بل لم تكن اي من بنتيها الى جانبها . وصباح اليوم التالي انبثنا بأن كل شيء قد انتهى . وفي غضون ذلك كانت

الفقيدة قد كُفِّنت . فمضيت انا واليزا لنودعها الوداع الاخير . اما جورجيانا ، التي انفجرت في النحيب ، فلم تجرؤ على المضي معنا . وهناك الفينا جسد سارة ريد ، الذي كان في يوم من الايام قويا فعلا ، مسجى في السرير ، متصلبا ساكنا . كانت عيناها الصوانيتان محجوبتين بجفניה الباردين ، وكانت جبهتها واساريرها الصارمة لا تزال تحمل طابع روحها العنيدة . والحق ان ذلك الجثمان بدا في ناظري شيئا غريبا مهيبا . لقد رنوت اليه في كآبة وألم ، فلم يوح الي بايما شيء رقيق ، بايما شيء عذب ، بايما شيء يشير العطف او الامل او الاستسلام . لا ، انه لم يوح الي بغير الاسى الموجه لبلاياها هي . . . لا لمصابي انا ، وبغير رعب كثيب عصي الدمع أمام رهبة الموت على ذلك النحو .

وتأملت اليزا امها في سكون . وبعد صمت استغرق بضع دقائق قالت :  
 - « لقد كان خليقا بها ، بما رُزقت من بنية قوية ، ان تعمّر طويلا .  
 ولكن الهموم قصّرت حياتها » .  
 ثم ان التشنج قلّص فيها لحظة . حتى اذا زایلها ، استدارت وغادرت الغرفة . وحذوت انا حذوها . ان ايا منا لم تكن قد سفحت عبرة واحدة .

## ٢٢

كان مستر روتشيستر قد منحني اجازة اسبوع واحد ليس غير ، ومع ذلك فقد انسלخ شهر قبل ان اوفق الى مفادرة غايتسهيد . كنت راغبة في الرحيل بعيّد الجنازة مباشرة ، ولكن جورجيانا توسلت الي أن ابقى حتى تتم استعدادها للسفر الى لندن . . . لندن التي دعاها لزيارتها اخر الامر خالها مستر جيبسون الذي كان قد وفد ليشرف على دفن شقيقته وليسوي شؤون الاسرة . لقد قالت لي جورجيانا انها تخاف ان تخلف وحيدة مع اليزا ، فهي لم تلق منها لا مشاركة وجدانية في انكسار خاطرها ، ولا عوا على مخاوفها ، ولا مساعدة في استعداداتها للرحيل ، وهكذا احتملت جنبها المخبول ونواحها الاناني ما استطعت ان احتمل ، وبذلت قصارى جهدي في خياطة الملابس لها وفي حزم امتعتها ، برغم انها كانت تستسلم - خلال انهماكي في هذا العمل - للكسل والتراخي ، حتى لقد قلت في ذات نفسي : « لو قدّر علي وعليك ، يا ابنة خالي ، ان نحيا معا على نحو موصول اذن لتعين علينا ان نقيم علاقتنا على اساس مغاير . اني لن ارضى ، في وداعة وخنوع ، بأن اكون الفريق الصابر المتحمل ، وخليق بي في مثل هذه الحال ان اعين لك قسطك من العمل وأن أكرهك على ادائه ، والا ترك مهنملا غير مُنتجّر . ليس هذا فحسب ، بل انه لخليق بي في مثل هذه الحال ان أصر على ابقاء بعض شكواك المتشدقة نصف الكاذبة مكبسوة في صدرك . واذا كنت قد رضيت بالصبر على هذا الوضع والاذعان له فلمجرد ان المصادفة شامت أن تكون علاقتنا قصيرة الاجل الى حد بعيد ، وان تنشأ في ظرف فاجع جدا » .

واخيرا ودعّنتني جورجيانا وارتحلت ، فاذا باليزا تسألني بدورها ، أن أمكث اسبوعا اخر . كانت خططها تستغرق وقتها كله وعنايتها كلها ، كما قالت . وكانت على وشك ان ترحل الى موطن مجهول ، وكانت تسليخ بومها كله في حجرتها ، بعد ان تحكم ايصاد بابها بالمزلاج ، معبئة حقايبها ، مفرغة ادراجها ، محرقة بعض الاوراق ، غير متصلة بأحد او متحدة الى أحد . لقد رغبت الي في العناية بأمر المنزل ، واستقبال الزائرين ، والرد على رسائل التعزية .

وذات صباح قالت لي ان في امكاني ان ارحل وازافت قائلة : « أنا شاكرة لك خدماتك القيمة وسلوكك العاقل الرصين ! أن ثمة بعض الفرق بين الحياة مع فتاة من مثلك والحياة مع جورجيانا ، فأنت تؤدين دورك في الحياة ، وتأبين ان تكوني عالة على أحد » . وصمتت لحظة ثم اردفت : « غدا ، سوف امضي الى اوروبة ، وسوف افسزع الى بيت من بيوت الله ، قرب » ليل « . . . سمع دبرا اذا شئت . وهناك سوف انعم بالراحة وأحيا بعيدة عن كل ازعاج . وسوف أكرس نفسي ، فترة من الزمان ، لدراسة المعتقدات الرومانية الكاثوليكية ، وللتبحر في الطرائق التي يعمل بها نظامها . فاذا وجدت ، كما اتوقع نصف توقع ، انها المذهب المؤهل اكثر من سائر المذاهب لان يكفل اداء الاشياء كلها على نحو مناسب منظم ، اعتنقت معتقدات رومة ، وترهبت في أغلب الظن » .

ولم اعبر عن دهشتي لهذا القرار ولم احاول ان اثنى عنها . لقد قلت في ذات نفسي : « ان هذا العمل سوف يلائمك ملاءمة كاملة ، وأنا اسأل الله ان يعود ذلك عليك بخير عظيم ! »

وحين ودعّنتني قالت : « الى اللقاء ، يا ابنة عمتي جين ايير . انا اتمنى لك احسن التمنيات ، فأنت فتاة على شيء من العقل » .

فاجبتها : « انت لست عاطلة عن العقل ، يا ابنة خالي اليزا . ولكني أحسب ان ما تملكينه منه سوف يدفن حيا ضمن جدران دير فرنسي . وعلى أية حال ، فليس هذا من شأني ، واذا كان ذلك يلائمك فلسنت ابالي كثيرا . . . »

وقالت : « لقد نطقتم بالحق » . ومضت كل منا في سبيلها . واذا كنت لن أجد ايما فرصة اخرى للإشارة اليها او الى اختها فيحسن بي ان انص هنا على ان جورجيانا وفقت الى الزواج من رجل ثري ، انهكه طول الانغماس في الملذات ، وان اليزا ترهبت فعلا ، وهي اليوم رئيسة الدير الذي انفقت فيه الفترة التحضيرية السابقة للترهب ، والذي وقفت له ثروتها .

كيف يشعر الناس عندما يؤوبون الى ديارهم بعد غيبة ما ، طويلة كانت أم قصيرة ؟ لست ادري ، فأنا لم أخبر مثل هذا الاحساس قط من قبل . لقد سبق لي ان عرفت ، وأنا طفلة ، ما معنى العودة الى غايتسهيد بعد نزهة على القدمين طويلة ، لكي اقابل هناك بالتعنيف بسبب ما يبدو على وجهي

من امارات البرد والكتابة . كما عرفت في ما بعد ما معنى العودة من الكنيسة الى لودود ، لكي اتوق هناك الى وجبة طعام خضبة ونار متوهجة ، ولكي يتعذر علي الفوز بأي منهما . والواقع ان كلتا العودتين لم تكن سائفة جدا ، او مشتتة الى حد بعيد . فلم يكن ثمة ايما جاذبية تجذبني الى نقطة بعينها ، جاذبية تقوى وتشدد كلما اقتربت من مركزها . وهكذا كان علي أن اختبر معنى العودة الى ثورنفيلد قبل أن أدرك ما يشعر به الناس عندما يؤوبون الى ديارهم بعد الغياب عنها .

لقد بدت رحلتي مرهقة - مرهقة جدا : خمسون ميلا في اليوم الاول ، ومبيت ليلة في نزل ، وخمسون ميلا اخرى في اليوم التالي . وخلال الساعات الاثنتي عشرة الاولى فكرت في مسز ريد وهي تعالج سكرات الموت : لقد رأيت وجهها الشائه الشاحب ، وسمعت صوتها المتغير على نحو عجيب . لقد استغرقت في التفكير في الجنازة ، والكفن ، وعربة الموت ، وموكب المستأجرين والخدم - كان عدد الانسباء الذين شهدوا الجنازة قليلا - والسَّرب الصغير المثائب ، والكنيسة الصامتة ، والصلاة المهيبة . ثم فكرت في اليزا وجورجيانا ، لقد رأيت احدهما مطمح الابصار في قاعة رقص ، ورأيت الاخرى حبيسة حجيرة من حجيرات دير . واستغرقت في تحليل خصائصهما المتفاوتة التي تميز شخصية كل منهما وشكلها الخارجي . ولكن وصولي ، بعد أن هبط الظلام ، الى مدينة . . . الكبيرة ما لبث ان بدد هذه الافكار ، لقد وجهها الليل وجهة اخرى . فلم أكد استلقي على فراش السفر حتى انتقلت من دنيا الذكريات الى عالم التوقع .

كنت عائدة الى ثورنفيلد : ولكن كم سيطول مقامي هناك ؟ فترة غير مديدة . . . ذلك امر " كنت منه على مثل اليقين . والواقع اني تلقيت أثناء غيبيتي رسالة من مسز فيرفاكس عرفت منها ان عقد ضيوف القصر كان قد انفرط ، وان مستر روتشيستر كان قد ارتحل الى لندن قبل اسابيع ثلاثة ، ولكن عودته متوقعة بعد اسبوعين اثنين . ولقد قدرت مسز فيرفاكس ان ارتحاله كان ابتغاء الترتيبات الخاصة بعمرسه ، اذ سبق له ان تحدث عن شراء عربة جديدة : لقد قالت ان فكرة زواجه من مس اينغرام لا تزال تبدو في نظرها شيئا غريبا ، بيد انه لم يعد في ميسورها - بعد الذي سمعته من أقوال الناس جميعا وبعد الذي رآته هي بأم عينها - ان تشك في أن الحدث واقع عما قريب . وكان تعليقي الذهني على هذا قلبي بيني وبين نفسي : « خليك بك ان تكوني مغالية في عدم التصديق الى حد عجيب ان شككت في ذلك . أما انا فليس يخامرني أي شك » .

وتلا ذلك سؤال : « الى أين ينبغي ان اذهب ؟ وطوال الليل رأيت مس اينغرام في ما يرى النائم . وفي حلم من احلام الصباح الجلية رأيتها توصد ابواب ثورنفيلد في وجهي ، وتطرطني منه . ورأيت مستر روتشيستر يشهد ذلك طاويا ذراعيه ، ويبتسم لها ولي - في ما خيل الي - ابتسامة ساخرة .



ولم أكن قد احطت مسز فيرفاكس علما بموعد عودتي على وجه الضبط ،  
ذلك بأنني كنت غير راغبة في ان تستقبلني في ميلكوت لا عربة ولا مركبة .  
لقد اعتزمت ان اجتاز المسافة بمفردتي ، سعيا على قدمي ، في هدوء . وهكذا  
لم اكد اعهد في امر العناية بحقيقتي الى خادم « فندق جورج » حتى انسللت من  
الفندق ، في سكرينة بالغة ، حوالي الساعة السادسة من مساء يوم من أيام  
حزيران (يونيو) واتخذت الطريق القديمة المؤدية الى ثورنفيلد ، وهي طريق  
تنساب ، في المقام الاول ، عبر الحقول ، وكانت الان غير مطروقة الا قليلا .

انها لم تكن ليلة من ليالي الصيف المشرقة او الرائعة ، على الرغم من انها  
كانت رائقة عذبة النسيم . كان مجففو العشب منصرفين الى عملهم على طول  
الطريق ، وكانت السماء - برغم انها لم تكن خلوا من الغيوم - تعدد بجو جميل  
في مقبلات الايام . كانت زرقتها - حيث بدت الزرقة لعين الناظر - معتدلة  
هادئة ، وكانت طبقات سحبها شاهقة رقيقة . وكانت الريح الغربية حارة ،  
أيضا - لا يربطها اي التماع مائي : لقد بدت وكأن خلف حجابها المنسوج من  
بخار مرمر نارا موقدة ، ومذبحا يضطرم فيه اللهب . ومن خلال كوى  
السحاب توهج احمرار ذهبي .

وغمرتني السعادة اذ رأيت الطريق تتقاصر أمامي : غمرتني الى درجة  
جعلتني اكف عن السير ، مرة ، لاسائل نفسي عن معنى هذه البهجة ،  
ولاذكرها بأنني ما كنت ماضية الى بيتي ، أو الى مشوى دائم ، أو الى موطن  
يترقبني فيه وينتظر وصولي اليه اصدقاء مولعون بي . وقلت مخاطبة نفسي :  
« ان مسز فيرفاكس سوف ترحب بك بابتسامة هادئة ، هذا شيء لا ريب  
فيه . وان أدبل الصغيرة سوف تصفق وتשב لتراك . ولكنك تعلمين عليم  
اليقين انك تفكرين في شخص آخر غير مسز فيرفاكس وأديل ، وان هذا  
الشخص لا يفكر فيك » .

ولكن أي شيء اشد عنادا من الشباب ؟ أي شيء اشد عمى من الغرارة ؟  
لقد اكد لي كلاهما ان مجرد تكحيل عيني ، كرة اخرى ، برؤية مستر روتشستر  
هو بهجة من المباحج ، سواء انظر هو الي أم لم ينظر . ثم أضافا قائلين :  
« عجلي ! عجلي ! كوني الى جانبه ما دمت قادرة على ذلك ، فلن تنقضي غير  
ايام قليلة او اسابيع قليلة ، على الاكثر ، حتى تفارقيه الى الابد ! » وعندئذ  
خنقت في صدري ألما مبرحا وليدا - مخلوقا شأنها لم استطع ان اقنع نفسي  
بالاعتراف به او احتضانه - وأخذت اغذ الخيط .

وكان العمال يجففون العشب ايضا ، في مروج ثورنفيلد ، أو بالاحرى  
كانوا قد اطحروا عملهم منذ لحظات ، وانقلبوا الى بيوتهم ، وقشاشاتهم على  
مناكبهم ، ساعة وصلت . ولم يبق علي غير اجتياز حقل او حقلين ، ومن ثم  
اعبر الطريق وابلغ ابواب القصر الخارجية . لشدة ما كانت الوشائع حافلة  
بالورود ! ولكنني لم أجد متسعا من الوقت لقطفها . فقد اردت ان ابلغ القصر  
على جناح السرعة . واجتزت عذبة طويلة ، مطلقة اغصانها مورقة منورة عبر

المجاز ، ورأيت درجات سلم السياج الضيقة ، ثم لمحت ٠٠٠ مستر روتشيستر قاعدا هناك ، وفي يده دفتر وقلم : لقد كان يكتب .

حسنا ، انه لم يكن شبيحا من الاشباح ، ومع ذلك ، فقد عجزت عن التحكم بأي عصب من أعصابي ، وانسلخت فترة فقدت فيها السيطرة على نفسي . فما معنى هذا ؟ وما كنت لاتوهم اني سوف ارتعد على هذا النحو حين اراه ، او يتهدج صوتي او أفقد القدرة على التحرك في حضرته . وعلى أية حال ، فلسوف انقلب راجعة حالما اوفق الى الحركة ، ولا داعي لان اخدع نفسي . أنا اعرف طريقا اخرى تقضي الى القصر . ولكن أية قيمة لذلك ، بل أية قيمة لمعرفتي عشرين طريقا الى القصر ، لقد قضى الامر ووقعت عينه علي . وصاح وهو ينحي دفتره وقلمه جانبا : « هالو ! ها أنت ذي قد عدت ! تقدمي ، اذا سمحت » .

واحسب اني قد تقدمت ، وان لم ادر بأية طريقة فعلت ذلك ، اذ كنت لا أعي حركاتي الا قليلا ، واذ كنت لا أحرص الا على الظهور بمظهر الشخص الهادي وعلى السيطرة - قبل كل شيء - على عضلات وجهي المختلجة ، التي استشعرت انها تتمرد على ارادتي في وقاحة وتكافح للتعبير عما اعترمت اخفاه . ولكن لدي قناعا ، ولقد اسدلته : لقد بذلت قصارى جهدي للاحتفاظ برباطة جأشي .

وأضاف قائلا : « أهذا انت ، يا جين اير ؟ أقادمة انت من ميلكوت ، وسعيا على القدمين ؟ أجل ٠٠٠ انها لمجرد حيلة من حيلك ان لا تبعثي في طلب عربة تنطلق بك عجلاتها مجلجلة فوق حصباء الطريق كما يفعل أي مخلوق بشري ، وان تتسللي بدلا من ذلك ، مع الفسق ، الى جوار مثواك ، وكأنك حلم من الاحلام ، أو شبح من الاشباح . قولني لي ، بحق الشيطان ، ما الذي فعلته بنفسك طوال هذا الشهر الاخير ؟

- « كنت ، يا سيدي ، مع امرأة خالي التي ماتت » .

- « يا له من جواب جيئي » \* نموذجي ! فليحرسني الملائكة الصالحون ! انها تقبل من العالم الاخر - من موطن الاموات - ولا تتورع عن انبائي بذلك حين تلقاني وحيدا هنا عند الفسق ! لو اني آنست من نفسي الجراءة اذن لعدت الى المسك لاري أأنت مادة ام خيال ، ايتها العفريته الصغيرة ! ولكن ذلك اشبه بمن يحاول ان يتقرئ السراب الازرق في ارض سيخة » . وصمت لحظة ، ثم اضاف : « يا لك من شاردة ! يا لك من شاردة ! لقد تعمدت التغيب عني شهرا كاملا ، ونسيتني نسيانا كاملا ! اني لمستعد لان أقسم على ذلك ! »

كنت اعلم ان الالتقاء بسيدي ، من جديد ، خليق به ان يوقع البهجة في نفسي ، ورغم ما كان يعكر صفو تلك البهجة من خوفا ان تقطع هذه الصلة التي تربطني به ، عما قريب ، ومن ادراكي اني لم أكن عنده شيئا ذا خطر .

ولكن مستر روتشيستر كان يتمتع ابدا ( او هذا ما اعتقدته على الاقل ) بحظ وافر من القدرة على ادخال السعادة الى القلوب بحيث كان مجرد تذوق الفئات الذي نشره لامثالي من الطيور الغربية النائية ضربا من الوليمة البهيجة . لقد كانت كلماته الاخيرة بلسما لقلبي : لقد بدت وكأنها تدل على انه كان يعلق أهمية ما على نسياني او عدم نسياني له . ثم انه قد تحدث عن ثورنفيلد وكأنه متواري . . . الا ليتنه كان متواري حقا ! »

ولم يغادر مجلسه عند سلم السياج . ولم أجد في نفسي كبير نزوع الى استئذانه في الانصراف . وسرعان ما سألته هل ارتحل الى لندن ؟

فأجاب : « أجل ، وأحسب انك عرفت ذلك من طريق الكشف والفراسة » .

« لقد انبأتني مسز فيرفاكس بذلك في رسالة كتبتها الي » .

« وهل انبأتك بالغرض الذي من أجله شخصت الى هناك ؟ »

« أوه ، أجل ، يا سيدي . لقد عرف كل امرئ بالمهمة التي مضيت

لادائها » .

« يجب ان تلقي نظرة على العربية ، يا جين ، وتقول لي هل تليق ، في رأيك ، بالسيدة روتشيستر ، بكل ما في الكلمة من معنى ، وهل ستبدو هذه السيدة فيها - وقد استراحت الى وسائدها الارجوانية - مثل الملكة بوديكا ؟ اني لآتمنى ، يا جين ، لو كنت اكثر اهلية ، بمقدار ذرة واحدة ، لملاءمتها في مظهرها الخارجي . الا قول لي ، وفيك ما فيك من روح الجن ، اليس في ميسورك ان تمنحيني رقية او شرابا سحريا أو ايما شيء من هذا القبيل قادرا على ان يجعل مني رجلا وسيما ؟ »

« ان ما تطلبه ، يا سيدي ، خليق به ان يُعجز سحر الساحر ! » ثم اضفت في ما بيني وبين نفسي قائلة : « ان الرقية التي تحتاج اليها لا تعدو ان تكون عينا مُحبة . وانك لتبدو ، لمثل هذه العين ، على قدر من الجمال غير يسير . ولعل الاصح القول ان لتجهم وجهك قوة اين منها قوة الجمال » .

وكان مستر روتشيستر قد قرأ في بعض الاحيان افكارا اللامفلوطة ببراعة عجزت عن فهمها . أما في هذه اللحظة بالذات فانه لم يسمع حتى جوابي المقتضب المفلوظ . ولكن ثغره افتر لي عن ابتسامة فريدة خاصة به - ابتسامة كان لا يرسلها الا في احوال نادرة . فقد بدا وكأنه يعتقد انها اعذب وأكرم من ان تُصطنع للاغراض العادية . كانت هي اشراقه الشعور الحقيقية ، ولقد سفحها الان من اجلي .

وقال وهو يفسح لي مجالا يمكنني من عبور سلم السياج : « اذهبي الى القصر ، وضعي قدميك الصغيرتين التائهتين المرهقتين فوق عتبة صديق لك » .

✽ Boudicca أو Boadicea ملكة بريطانية توفيت عام ٦٢ بعد الميلاد قادت ثورة فاشلة ضد الحكم الروماني في بريطانيا . ( العرب )

ولم يكن علي الا ان امثل امره في صمت ولم تكن بي حاجة الى فضل كلام . فصبرت السياج من غير ان انطق ببنت شفة ، موطنة العزم على مفارقتها في هدوء . ولكن حافزا باطنيا جمدني في مكاني . . . . لقد اكرهتني قوة ما على الالتفات والعودة . وقلت - او ان شيتا في داخلي قال بالنيابة عني ، وبالرغم مني :

- « اشكرك ، يا مستر روتشيستر على عطفك العظيم . اني لسعيدة على نحو غير مألوف بالعودة اليك من جديد . وحيث تكون انت فثمة مشواي . . . . مشواي الوحيد » .

وانشأت اعدو في سرعة بالغة كان من المتعذر معها ، حتى عليه هو ، ان يدركني لو حاول ذلك . وكادت آديل الصغيرة تطير فرحاً عندما رأتني . وتلقنتني مسز فيرفاكس بمودتها المألوفة الصادقة . وابتسمت « ليا » ، وحتى « صوفي » قالت لي بالفرنسية « مساء الخير » في جدل وجبور . وكان هذا عذبا جدا ، فليس ثمة سعادة اعظم من ادراك المرء انه موضع حب اخوانه في الانسانية ، وشعوره بأن وجوده مدعاة الى تعزيز راحتهم ورفاهيتهم .

وتلك الليلة اغمضت عيني عن المستقبل في قوة وعزم ، واوصدت اذني دون الصوت الذي ظل يذكرني بالفراق الوشيك والغم القريب . حتى اذا فرغنا من تناول الشاي ، واستأنفت مسز فيرفاكس حبكها ، واتخذت مقعدا خفيضا على مقربة منها ، وركعت آديل على السجادة ملتصقة بي ، وبدا وكان جوا من الحنان يطوقنا بحلقة من الامن الذهبي سألت الله ، في صلاة صامته ، ان لا يتبدد شملنا وشيكا والاختشط بنا النوى . ولكن ما ان دخل علينا مستر روتشيستر على حين غرة ، ونحن في مجلسنا ذاك ، وبدا لي وكأنه ابتهج اذ رأى الى اجتماع شملنا على ذلك النحو الناضح بالمحبة . . . . وما ان قال انه يحسب ان السيدة العجوز لا بد ان تكون مقتبضة الان بعد ان استردت بنتها بالتبني ، وانه واثق من ان آديل مستعدة لان « تفرقش » امها الانكليزية الصغيرة . - اقول ما ان دخل مستر روتشيستر علينا حتى جرؤت على مداعبة الامل بأن يلهمه الله ، حتى بعد زواجه ، ابقاءنا معا في مكان ما في ظل رعايته ، وعدم اقصائنا كل الاقصاء عن اشعاع وجوده ما بيننا .

وتلت عودتي الى قصر ثورنفيلد فترة اسبوعين من الهدوء المريب . ان اياها شيء لم يُقَل عن زواج رب القصر ، ولم اشهد انا اي استعدادات خاصة بمثل هذا الحدث . كنت اسأل مسز فيرفاكس ، كل يوم تقريبا ، عما اذا كانت قد سمعت بأيما قرار اتخذ في هذه المسألة ، ولكن جوابها كان منفيًا ، دائما . ولقد قالت لي انها سألت مستر روتشيستر فعلا ، ذات مرة ، متى يعتزم ان يصحب عروسه الى قصر ثورنفيلد فلم يجبها بغير مزحة اطلقها ، وبغير نظرة من نظراته الغريبة ، فلم تدر ما الذي ينبغي لها ان تفهم من ذلك كله .

بيد ان الذي ادهشني ، اكثر ما يكون الدهش ، احجابه عن الارتحال عن القصر بين الفينة والفينة ، وانقطاعه عن زيارة « اينغرام بارك » . صحيح

انه كان يقوم على مبعدة عشرين ميلا ، عند تخوم اقليم اخر ، ولكن اي شيء كانت تلك المسافة في نظر عاشق تضطرم في قلبه نار الشوق ؟ انها لا نعدو ان تكون ، بالنسبة الى فارس متمرس لا يعرف الكلل كمستمر رونسيستر ، نزهة صباحية . وهكذا شرعت اغذو آمالا لم يكن من حقي ان اغذها : لقد قلت في ذات نفسي ان الخطبة قد فُسخت ، وان اشاعة الزواج كانت كاذبة ، وان احد الفريقين ، او كليهما ، قد غير رأيه . وكان من دأبي ان ارنو الى وجه سيدي لارى هل هو محزون او مغيظ ، ولكنني لم استطع ان اتذكر اني الفيته ، في ايما يوم مضى ، اكثر صفاء واشد خلوا من سحائب الحزن والكمد . ليس هذا فحسب ، بل لقد كان اذا ما اتفق لي ان تكشف - في اللحظات التي اعتدت انفاقها انا وتلميذتي في حضرته - عن شيء من الاكتئاب او استغرقت في غم لا مفر منه ، تنبسط اسارير وجهه ويغلب عليها البشر . ولست اعرف انه دعاني الى المثل في حضرته ، في ايما يوم مضى ، اكثر مما دعاني في هذه الفترة ، او انه كان اكثر ملاطفة لي وانا بين يديه . وأسفاه ! اني لم احبه في ايما فترة سألته اكثر مما احبته آنذاك .

## ٢٣

وكان منتصف الصيف قد اشرق على انكلشرة بهيا رائعا . ان مثل هذه السماء المسرفة في الصفاء وهذه الشمس المغالية في الانثلاف ، اللتين نعمنا بهما آنذاك فترة طويلة على غير انقطاع ، نادرا ما تحاييان . ولو على نحو منفرد ، ارضنا المكتنفة بالامواج . لكان عصبية من الايام الايطالية قد وفدت من الجنوب مثل سرب من الطيور الرحالة السنوية ، وحطت السماسا للراحة فوق شواطئ بريطانيا الصخرية . كان التبن كله قد خزن ، وكانت الحقول المحيطة بثورنفلد خضراء مجزوزة ، وكانت الطرق بيضاء مسفوعة ، وكانت اوراق الشجر في ميعاة الاسمرار . ولقد بدت المغامرة قوية صارخة بين الاسميحة والقابات المنقلة بالاوراق والمعنة في الاخضرار وبين المروج المكشوفة الغائمة بينها والتي غلبت عليها صبغة الشمس .

وعشية اليوم الرابع والعشرين من حزيران ( يونيو ) اوت اديل الى فراشها مكدودة مرهقة ، مع غروب الشمس ، بعد ان انقضت نصف النهار في جنى الغريز البري من درب « هاي » . حتى اذا استغرقت في النوم ، فارقتها ومضيت الى الحديقة .

كانت هذه الساعة هي اعذب الساعات الاربع والعشرين . « كان النهار قد استنفذ ثمراته الموقدة » . وكان الندى يسقط باردا على السهول اللاحنة ، والقمم المسفوعة . وحيث جنحت الشمس الى الغروب في فحامة بسيطة - مبراة من ابهة الغيوم - انسر وهج ارجواني عتيق ، منفذ بمثل وميض جوهرة حمراء ويميل لصب في ناحية ، فوق قبة احدى النلال ، ومسددة - اذا عاليا عريضا ، رقيقا لم اشد رقة . فوق نصف السماء . وكانت للمشرق ايضا فنتته

الخاصة المتميزة بزرقة عميقة بديعة ، وجوهرته المتواضعة الخاصة ايضا ، وهي نجمة متوحدة تتخذ سبيلها في معارج السماء . ولن يمضي طويل وقت حتى يزهر بالقمر . ولكن القمر كان لا يزال وراء الافق .

وتمشيت برهة في المجاز المعبّد ، ولكن اريجا لطيفا مالوفا لدي - عبير سيجار - ما لبث ان تسلسل نحوي من نافذة ما . والتفت فرأيت نافذة حجرة المكتبة مفتوحة فتحة لا يزيد عرضها على عرض اليد البشرية . وكنت اعلم ان في امكان العين ان تراقبني من هناك . وهكذا مضيت الى البستان . والحق انه لم يكن في اراضي القصر بقعة اورف ظلالا ، واكثر شبهاً بجنة عدن . كان غاصا بالاشجار ، منوراً بالازهار . وكان يفصله عن فناء القصر ، من ناحية ، جدار شامخ ، ويحجبه عن المرج ، من ناحية اخرى ، ممر تكتنفه شجرات الزان . وفي اقصاء كان سياج غائر هو الفاصل الوحيد بينه وبين الحقول المنزلة . وكان يفضي الى هذا السياج مجاز متعرج تكتنفه اشجار الغار ، وينتهي عند شجرة ضخمة من شجرات الشهبليوط الهندي طوّقت قاعدتها بمقعد . وههنا كان في ميسور المرء ان يطوّف في نجوة من اعين الرقباء . وفي ما كان هذا المنزلة يتساقط ، وذاك الصمت يهيم ، وتلك الظلمات تتجمع ، شعرت وكأن في ميسوري ان افني الى هذه الظلال ابد الدهر . ولكن خطاي ما لبثت ان صُدّت عن سبيلها بينا كنت اذرع احواض الرياحين والشجرات المثمرة في الجزء الاعلى من البستان ، وقد اغراني بالذهاب الى هناك ذلك الضوء الذي كان يلقيه القمر البازغ منذ قريب على تلك الرقعة الاكثر انكشافا . . . . ولم يكن الذي صد خطاي عن سبيلها صوتا ما ، او مشهدا ما ، ولكنه كان هذه المرة ايضا عبيرا منذرا .

كان النسرين ، ونبات الشَّيْبَة ، والياسمين ، والقرنفل والورد قد شرعت تقدم قرايين بخورها الليلية منذ فترة بعيدة . . . وهذا العبير ليس عبير عشب ولا زهر ، انه - ولقد عرفت ذلك جيدا - عبير سيجار مستر روتشيستر . واجلت الطرف في ما حولي ، واصفيت ، فرأيت اشجارا دانية القطوف ، وسمعت هزارا يغرد في غابة تقع على مبعده نصف ميل ، ولكنني لم ار اي شخص يتحرك ولم اسمع اية خطى تتقدم . ومع ذلك فما هو ذا ذلك العبير يقوى ويشتد ، ولا بد لي من الركون الى الفرار . وهكذا شخصت الى البوَّيب المؤدي الى الخيملة ، فاذا بي ارى مستر روتشيستر قادما . عندئذ ارتددت الى فجوة اللبلاّب قائلة في ما بيني وبين نفسي انه لن يمكث فترة طويلة ، وانه سوف يرجع وشيكا من حيث اتي ، وانه لن يراني البتة اذا ما لزمت السكينة والهدوء .

ولكن لا . . . ان هذه العشية خليق بها ان توقع في نفسه البهجة كما اوقعتها في نفسي ، وان هذه الجنيّة العتيقة خليق بها ان تجذبه اليها بقدر ما جذبتني . وها هو ذا يتقدم في سبيله ، رافعا حيناً اغصان شجرة عنب الثعلب ليرى الى ما يُثقلها من ثمرات في مثل ضخامة الخوخ ، قاطفا حيناً حبة

كرز ناضجة من على الجدار ، منحنيأ حينأ فوق مجموعة من الرياحين اما لكي يستروح اربحها واما لكي يتمتع طرفه بمشهد حبات الندى علي إختلاتها • وتدندن فراشة ضخمة على مقربة مني ، وتحط على نبتة قائمة عند قدمي مستر روتشيستر • ويلمح مستر روتشيستر الفراشة ، وينحني لكي يتأملها •

وقلت في ذات نفسي : « انه يوليني الان ظهره ، وهو في شغل عني ايضا • ومن يدري ، فلعلي اذا ما خفت الوطأ ان اوفق الى الانسلال من غير ان يشعر بي » •

ورحت امشي الهويأا على حافة الارض المكسوة بالعشب خشية ان ينم علي الحصى اذا وطئته : كان واقفا بين احواض الرياحين على مبعدة ياردة او ياردين من المكان الذي كان علي ان اجتازه ، وكانت الفراشة تستأثر بانتباهه في ما يبدو • فقلت في ذات نفسي : « سوف انسل ، في سهولة ويسر » • وفيما كنت اجتاز ظله ، الذي بسطه القمر ، غير المرتفع عاليا في السماء ، بسطأ متطاولا على ارض الحديقة ، قال في هدوء ومن غير ان يلتفت :

– « جين ، تعالي وانظري الى هذه المخلوقة » •

ولم اكن قد احدث ضجة ما ، ولم تكن له عينان من خلاف ، فهل كان في ميسور ظله ان يشعر ؟ واجفلت بادی الامر ، ثم تقدمت نحوه •

وقال : « انظري الى جناحيها • انها تذكرني بحشرة من حشرات جزر الهند الغربية • والواقع ان المرء نادرا ما يرى قرصانا ليليا في مثل هذه الضخامة والمرح في انكلترة • انظري ! لقد طارت • »

وطوّفت الفراشة بعيدا عنه ، وكنت انا اترجع ايضا على نحو خجول اخرق • ولكن مستر روتشيستر تبعني ، حتى اذا بلغنا البويب قال :

– « ارجعي • فمن العاز في مثل هذه الليلة البديعة ان يقبع الناس في منازلهم • ولا ريب في انه ما من انسان يتمنى المضي الى فراشه حين يلتقي غروب الشمس مثل هذا الالتقاء الرائع مع طلوع القمر • »

ان بين عيوبي عيبا يتمثل في ان لساني ، برغم ما يجيده احيانا من سرعة الاجابة ، يعجز في احيان اخرى عجزا مجزأ عن صياغة عذر من الاعذار • وهذا العجز لا يحدث الا وانا في غمرة ازمة ما ، حين اكون في امس الحاجة الى كلمة مطاوعة او ذريعة معقولة للتخلص من ارتباك موجه • فالواقع اني كنت راغبة عن السير انا ومستر روتشيستر ، وحدنا ، في البستان الظليل ، وفي مثل تلك الساعة بالذات ، ولكنني لم استطع ان اجد عذرا انتحله لمفارقته • فرحت اتبعه في خطي متلكئة ، وقد عكفت افكاري على اكتشاف وسيلة للخلاص • ولكنه هو نفسه بدا رابط الجأش رزينا الى درجة خجلت معها من ذلك الاضطراب الذي ألم بي • لقد تراءى لي ان الشر – ان يكن ثمة شر فعلي او محتمل – كان كامنا في ذات نفسي فحسب • اما ذهنه هو فكان وادعا خاليا من ذلك كله •

واستأنف حديثه حين بلغنا المجاز الذي تكتنفه شجرات الغار ، وهبط في  
تؤدة نحو السياج الفائر وشجرة الشهلثوط الهندي ، فقال : « ثورنفيلد  
موطن بهيج في فصل الصيف ، أليس كذلك ؟ »

- « نعم ، يا سيدي . »

- « من المفروض ان تكوني قد اصبحت مولعة ببعض الشيء بهذا  
الموطن . . . انت التي تملكين عينا ذواقة للجمال الطبيعي ، وتتمتعين بقدر  
غير يسير من حس الألفة . »

- « انا مولعة به حقا . »

- « وعلى الرغم من اني لا افهم كيف تم ذلك ، لاحظ انك اكتسبت  
قدرا من الحب لأدبل الصغيرة ايضا ، وحتى للسيدة فيرفاكس الساذجة . »

- « نعم ، يا سيدي . اني لاحبهما كليهما ، بطريقتين مختلفتين . »

- « وهل تعتقدين ان ابتعادك عنهما خليق بان يحزن نفسك ؟ »

- « نعم . »

فقال : « واحسرتاه ! ثم اطلق زفرة وصمت لحظة ، ليمود بعد ذلك الى  
القول : « تلك هي السبيل التي تنتهجها الاحداث في هذه الحياة . فما ان  
يستقر المقام بالمرء في موطن من مواطن الاستراحة بهيج حتى يدعوه صوت ما  
الى النهوض والارتحال ، لان ساعة الراحة قد انقضت . »

فسألته : « وهل يتعيّن علي ان ارتحل ؟ هل يتعين علي ان اغادر  
ثورنفيلد ؟ »

- « اعتقد انه يعين عليك ذلك ، يا جين . انا آسف ، يا جانيت ،  
ولكني اعتقد حقا انه يتعين عليك ذلك . »

وكانت هذه ضربة قاسية . ولكني لم اجز لها ان تصرعني .  
وقلت : « حسنا ، يا سيدي ، سوف اكون مستعدة للرحيل حالما ابلغ  
الامر بذلك . »

- « اني ابلغك اياه الان . . . ان علي ان اصدره الليلة . »

- « واذن فقد اعتزمت ان تتزوج ، يا سيدي ؟ »

- « تم . . . اما ، بال . . . ضبط . . . لقد وفققت ، بذكاك المعهود ، الى  
اصابة كبد الحقيقة . »

- « وفي وقت قريب ، يا سيدي ؟ »

- « في وقت قريب جدا ، يا . . . اعني يا مس ايير . ولسوف تذكرين ،  
يا جين ، انه في اول مرة الممت لك فيها او الممت الاشاعات لك فيها الى انني  
اعتزمت ان اضح رقبتي العجوز العزباء في الانشودة المقدسة ، وان ادخل حظيرة  
الزواج الالهية ، وان اضم مس اينغرام الى صدري ، وبكلمة مختصرة ( انها  
ضخمة بعض الشيء ، ولكن هذا لا صلة له بالموضوع ، ولكن المرء لا يكاد  
يتخّم من مخلوقة ممتازة جدا مثل بلانشتي الجميلة ) حسنا ، كما كنت اقول  
لك ، اصفي الي يا جين ! انت لا تديرين رأسك لكي تبحثني عن فراشات



اضافية ، اليس كذلك ؟ لقد كانت مجرد حشرة حمراء ، اينها الطفلة الغريبة ، مرتحلة الى موطنها . . . اقول اني احب ان اذكرك بانك كنت اول من قال لي ، بتلك الحصافة التي احترمها فيك - بذلك التبصر والتعقل والوداعة التي تليق بمركزك المرؤوس والمسؤول في وقت واحد - ان من الخير لسك ولأدبيل الصغيرة معا ، في حال زواجي من مس اينغرام ، ان تغادرا القصر في الحال .  
ولسوف اتغاضى عما ينطوي عليه هذا الاقتراح من ذم لشخصية محبوبتي ، اجل اني سأحاول ان انساه ، حين تبرحين القصر يا جين ، وان لا اتذكر منه غير جانبه الحكيم الذي قررت ان اجعله هاديا لي الى سواء السبيل . ان على أدبيل ان تذهب الى المدرسة ، وان عليك انت - يا مس ايبير - ان تبعتني عن عمل جديد » .

- « اجل ، يا سيدي ، سوف اعلن في الصحف على التو ، وفي الوقت نفسه احسب . . . وكنت على وشك ان اقول : « احسب ان في استطاعتي ان ابقى هنا ريشما اجد مفزعا اخر افيء اليه » . ولكني امسكت عن الكلام ، وقد شعرت انه ليس من الخير لي ان اغامر بتطويل الجملة ، ذلك بان صوتي لم يكن طوع امري تماما » .

وتابع مستر روتشميستر حديثه قائلا : « انا ارجو ان اصبح عريسا في مدة لا تتجاوز شهرا واحدا ، وفي خلال ذلك سأبحث لب بنفسي عن عمل ومفزع » .

- « اشكرك ، يا سيدي . . . يؤسفني ان اجشمك . . . »

- « اوه ، لا داعي للاعتذار ! انا اعتبر انه حين تؤدي مرؤوسة واجبها بمثل الاجادة التي ادبت انت بها واجبك يصبح من حقها على مستخدمها ان يسدي اليها اية خدمة صغيرة يجد نفسه قادرا على اسدائها في غير مشقة » .  
والواقع اني كنت قد سمعت من أم زوجتي المقبلة عن وظيفة احسب انها تلائمك ، وظيفة تقتضي ان تتولي تربية بنات مسز ديونيسيوس اوغول الخمس ، وهي احدى سيدات بيترنوت لودج ، كونوت ، في ارلنده . ولسوف تحبين ارلنده ، في ما اعتقد . ان اهلها على ما يقال ، قوم يتميزون باللطف البالغ والمودة الغامرة » .

- « ولكنها نائية جدا ، يا سيدي » .

- « ليس هذا بالامر المهم . ان فناة تتمتع بمثل عقلك الراجح لن تعترض لا على الرحلة ولا على البعد » .

- « انا لا اعترض على الرحلة ، ولكن اعترض على البعد » . ثم ان البحر يشكل حاجزا يفصلني عن . . . »

- « يفصلك عن اي شيء ؟ »

- « عن انكلترة ، وعن ثورنفيلد . . . وعن . . . »

- « وعن ماذا ؟ »

« عنك انت ، يا سيدي . »

قلت ذلك على نحو لا ارادي تقريبا . وعلى الرغم مني سالت العبرات من عيني . بيد اني لم ابك بكاء صارخا ، لا ، لقد اجتنبت النحيب . ولقد كان مجرد التفكير بمسز اوغول و بـ « بيترونوت لودج » قد اورثني انقباضا في الصدر . وكان التفكير في كل ذلك الماء الاجاج وذلك الزبد المقدّر لهما ، في ما بدا لي ، ان يفصلاني عن سيدي الذي كنت امشي الان الى جانبه قد اورثني انقباضا اقوى . ولكن التفكير في الاوقيانوس الاوسع - الثروة ، الطبقة الاجتماعية ، والاعراف التي حالت بيني وبين من احبته حبا طبيعيا لا منجى منه - كان هو الذي اورثني من انقباض الصدر غاية الغايات ، ونهاية النهايات .

وعدت اقول : « انها نائية جدا . »

« هذا صحيح ، من غير ريب . وحين تنتهين الى بيترونوت لودج ، كونوت ، ايرلنده ، فلن اوفق الى رؤيتك بعد ذلك ابدا ، يا جين . تلك حقيقة لا يعتورها اي لبس . فانا لا اسافر الى ايرلنده البتة ، بسبب من اني لا استشعر ميلا كبيرا الى تلك البلاد . لقد كنا صديقين حميمين ، يا جين ، الم نكن كذلك ؟ »

« اجل ، يا سيدي . »

« وحين يلتقي الصديقان عشية الفراق فانهما يحبان ان ينفقا ما تبقى لديهما من سويعات قليلة ، متناجيين جنبا الى جنب . تعالي . . . سوف نتحدث عن الرحلة وعن الفراق القريب ، في هدوء ، طوال نصف ساعة او نحو ذلك ، بينما تستهل النجوم حياتها المشعة في القبة الزرقاء هناك . هي ذي شجرة الشهبان الهندي ، وهو ذا المقعد القائم عند جذورها العتيقة . تعالي ، سوف نجلس هناك في امن وسكينة ، هذه الليلة ، على الرغم من انه لن يقدر لنا ، بعد ، ان نجلس ههنا معا ، ابد الدهر . »

ثم اقمعني وفعد ، وازاف قائلا : « ان الشقة بعيدة ما بين ثورنفيلد وايرلنده ، يا جانيت ، وانه ليؤسفني ان اطوح بصديقتي الصغيرة في امثال هذه الرحلات الشاقة ، ولكن ما حيلتي اذا لم اوفق الى ما هو افضل ؟ هل تحسبين ، يا جين ، ان بيننا نسبا ؟ »

وهنا لم استطع المغامرة بجواب ، فقد كانت مشاعري اعمق من ان يعبر عنها بكلام .

فقال : « انما وجهت اليك هذا السؤال لاني احس في بعض الاحيان بمودة غريبة نحوك - وبخاصة حين تكونين على مقربة مني ، كشأنك الان ، فكأن ثمة في مكان ما تحت اضلاعي اليسرى سلكا معقودا عقدا مُحكما لا انفصام له بسلك مماثل قائم في الموطن المقابل من جسدي الصغير . واني لاخشى ، اذا ما فصلت بيننا تلك القناة الصاخبة ونحو مئتي ميل من الارض المترامية ، ان ينقطع هذا الجبل الذي يربط ما بيننا ، وعندئذ لا بد ان يقطر

فؤادي دما ، او هذا ما تحدثني به هواجسي . اما انت . . . فانك سوف  
تسمينني .

« لا ، انا لن انساك ابد الدهر ، يا سيدي . انت تعلم . . . » وتعذر  
عليّ ان اتم .

« جين ، أسمعين ذلك الهزار المغرد في الغابة ؟ اصيخي له ! »  
وتنهدت ، وانا اُصِيخ ، على نحو تشنجي . ذلك بأنني لم اعد بعد قادرة  
على كبت ما كابדתه . لقد اضطرت الى الاستسلام ، وكانت عاصفة  
من الاسى الحاد قد لفتني من قمة رأسي الى اخصص قدمي . حتى اذا تكلمت  
لم ازد على ان قلت ، في انفعال متهور : « ليتني لم اولد قط ، او لم اجيء الى  
ثورنفيلد في ايما يوم من الايام ! »  
« وكل ذلك لانك محزونة لمغادرتها ؟ »

كانت حُمِيًّا الانفعال ، وقد اثارها ما اعتلج في فؤادي من اسى وحب ،  
قد تصدرت للمطالبة بالسيادة وكانت تناضل لبسط سلطانها الكامل عليّ  
ولتوكيد حقها في ان تهيمن : ان تغلب ، ان تحيا ، ان تفوز ، وان تسود آخر  
الامر ، اجل ، وفي ان تتكلم ايضا .

« انا آسى لمغادرة ثورنفيلد : انا احب ثورنفيلد . احبها ، لاني عشت  
فيها حياة خصبة بهيجة ، موقنا على الاقل . ان احدا لم يذلني هنا ، ولم  
يُصْنَعَنِي . انا لم ادفن هنا ، حية ، مع عقول منحلة ، ولم احرّم ادنى  
الاتصال بكل ما هو مشرق ، وفَعَال ، وسام . لقد تحدثت ، وجها لوجه ، الى  
ما ابجل ، الى ما به ابتهج - الى عقل اصيل ، ناشط ، مستنير . لقد تعرفت  
اليك ، يا مستر روتشيستر ، وانه ليرعبني ويوقع في نفسي اعظم الحزن ان  
استشعر ان قوة القاهرة تفصلني عنك الى الابد . اني ادرك ضرورة الفراق ،  
وهي تبدو لي حتمية كالموت . »

فسألني على التو : « واين ترين هذه الضرورة ؟ »

« اين ؟ انك انت الذي وضعتها نصب عيني ، يا سيدي . »

« في اية صورة ؟ »

« في صورة مس اينغرام . . . امرأة كريمة المحتد بهية الطلعة . . . »

عروسك .

« عروسي ؟ اية عروس ؟ ليس لي عروس ! »

« ولكنه سيكون لك عروس . »

« آه . . . سيكون لي ! سيكون لي ! » وكزّ على اسنانه .

« وعندئذ يتعين علي ان ارحل . . . لقد قلت ذلك بنفسك . »

« لا . يتعين عليك ان تبقي . . . اني اقسم على ذلك . . . ولسوف  
أفي بقسمي . »

فقلت ، وقد غلب علي شيء كالانفعال : « اقول لك ان علي ان ارحل !  
اتحسب ان في استطاعتي ان ابقى لاصبح شيئا لا قيمة له عندك ؟ اتحسب اني

انسان ميكانيكي؟ آلة ٠٠٠ من غير مشاعر؟ واني اطيق ان ارى الى لقمة خبزي  
تُنْتَزَع من بين شفتي ، والى ماء حياتي يُهْرَق من كاسي؟ وهل تظنني - لمجرد  
كوني فقيرة ، مغمورة ، دميعة ، ضئيلة الجسم - مخلوقة لا روح لها ولا قلب؟  
انك ان فعلت كنتَ مخطئا! فانا اتمتع بقدر من الروح لا يقل عما تتمتع به  
انت ، وبقلب لا يقل احساسا عن قلبك! ولو قد وهبني الله شيئا من جمال ،  
وشيئا من ثروة اذن لكان خليقا بي ان اجعلك تأسى لفراقي كما آسى انا ،  
الان ، لفراقك . انا لا احاطبك الا بلفظ العرف والتقاليد وحتى بلفظ الجسد  
الفاني . لا ، ان روحي هي التي تخاطب روحك ، وكأننا التقينا من وراء  
القبر ، ووقفنا عند قدمي الله متساويين ، كشأننا في الحقيقة !

فكرت مستر روتشيستر : « كشأننا في الحقيقة ! » ثم طوقني بذراعيه ،  
وضمني الى صدره ، ضاعطا شفتيه على شفتي ، و اضاف : « هكذا ٠٠٠ هكذا ،  
يا جين ! »

فقلت : « اجل ، هكذا ، يا سيدي ٠٠٠ ومع ذلك فليس هكذا ٠٠٠ لانك  
رجل متزوج ٠٠٠ او في حكم الرجل المتزوج ، المقترون بأمرأة ادنى منك ٠٠٠  
بأمرأة لا تشدك اليها اية مشاركة وجدانية ٠٠٠ امرأة لا اعتقد انك تحبها حبا  
حقيقيا ، ذلك بانني رأيتك وسمعتك تسخر منها . اني لازدري مثل هذا الزواج ،  
ومن هنا كنت انا خيرا منك ٠٠٠ دعني انصرف ! »

- « الى اين ، يا جين ؟ الى ايرلندة ؟ »

- « اجل ، الى ايرلندة . لقد صارحتك بحقيقة ما يجول في ذهني ، وفي  
ميسوري الان ان اضرب في ارض الله الواسعة »

- « جين ، الزمي الهدوء ، ولا تحاولي الافلات مني مثل طير طائش  
مدعور يغريه اليأس بالفرار ولو جرّد من ريشه كله ! »

- « انا لست طيرا ، وليس في طاقة ايما شرك ان يطبق علي . انا كائنة  
بشرية حرة ذات ارادة مستقلة امارسها الان اذ اعلن اني سافارقك . »  
ومكنتني مجهود اخر بذلته من الافلات من قبضته ، وعندئذ انتصببت  
واقفة امامه .

فقال : « وازادتك هذه سوف تقرر مصيرك . اني امنحك يدي ، وقلبي ،  
وجزاء من كامل ممتلكاتي » .

- « انك لتمثل مهزلة لا اقابلها بغير السخرية » .

- « اني اسألك ان تنفقي العمر الى جانبي ٠٠٠ ان تكوني نفسي الثانية  
ورقيقة حياتي الفضلى في هذه الدنيا » .

- « لقد سبق لك ان اخترت هذه الرقيقة . وان عليك ان تلتزم من  
وقع عليها اختيارك » .

- « جين ، اعتصمي بالهدوء بضع لحظات . انت مهتاجة اكثر مما  
ينبغي . ولسوف اعتصم انا بالهدوء ايضا » .

وهباً على المجاز المطوق بشجرات الغاز نسيم عليل ارتعش خيل الحصان

الشهبوط الهندية ، ثم هام على وجهه بعيدا . . بعيسدا - الى مسافة غير متناهية - وتلاشى . لقد امسى تغريد الهزار هو وحده الصوت المسموع في تلك الساعة ، وفيما كنت اصغي اليه سفحت' الدمع من جديد ، وقد قعد مستر روتشيستر ساكنا ينظر الي في رقة ورزاة . وتقضت فترة لم ينبس خلالها بكلمة . واخيرا قال :

- « تعالي الى جانبي ، يا جين ، ودعينا نتفاهم » .  
- « انا لن اقعدي الى جانبك منذ اليوم . لقد انفصلت عنك ، وليس في استطاعي ان اعود » .

- « ولكنني ادعوك ، يا جين ، بوصفك زوجتي : انك انت وحدك المرأة التي اعترزم ان اتزوج منها » .

وبقيت صامته . لقد حسبت' انه يسخر مني .

- « تعالي ، جين ! تعالي الى هنا ! »

- « ان عروسك لتقف حاجزا يفصل ما بيننا » .

فنهض . وبخطوة واحدة امسى بجانبه . وقال وهو يجذبني نحوه كره اخرى : « ان عروسي هنا . لان المرأة التي هي كفؤ لي والتي تشبهني هي هنا . جين ، هل تقبلين بي زوجا ؟ »

ولزمت الصمت هذه المرة ايضا ، ورحلت اتلوى محاولة الافلات من قبضته . فقد كنت لا ازال غير مصدقة .

- « اترتابين بي يا جين ؟ »

- « كل الارتياح » .

- « اليس لك ثقة بي ؟ »

- « لا ، ليس لي ذرة من الثقة بك » .

فسألني في انفعال : « هل انا ، في نظرك ، مخادع كذاب ؟ ايتها المرتابة الصغيرة ، انك سوف تقتنعين . هل اكن' انا اي حبيب لمس اينغرام ؟ لا ، البتة ، وهل تكن' هي اي حبيب لي ؟ لا ، البتة ، وهو ما بذلت قصارى جهدي لكي اقيم الدليل عليه : لقد روجت' اشاعة ، اردتها ان تتناهى الى سمعها ، اشاعة تقول بان ثروتي لا تبلغ ما توهمه الناس ، وبعد ذلك اتصلت بها لارى النتيجة ، فاذا بها برود منها ومن امها في آن معا . انا لا اريد ، بل لا استطيع ، ان اتزوج من مس اينغرام . اما انت - انت الغريبة ، انت المخلوقة التي تكاد تكون لا ارضية - فاني احبك كما احب نفسي . اني اتوسل اليك - انت الفقيرة ، المغمورة ، الضئيلة الجسم ، الدمية الوجه - ان ترضيني بعلا لك » .

فصحت ، وقد بدأت اتق بأخلاصه بعد الذي لمستته من حماسته ، وعلى الاخص ، من جلافته : « ماذا ؟ انا ! انا التي لا صديق لي في الدنيا غيرك - ان صح انك صديق لي حقا - والتي لا املك من المال غير ما قدمته الي ؟ »

- « اجل ، انت يا جين . يجب علي ان استأثر بك . . . ان استأثر بك من دون كل الناس . فهل ترضين ان تكوني ملكي ؟ قللي نعم ، بسرعة » .

- « مستر روتشيستر ، دعني انظر الى وجهك . التفت نحو ضياء القمر ، »

- « لماذا ؟ »

- « لاني اريد ان اقرأ ملامحك . التفت ! »

- « ها قد التفت . انك لن توفيقي الى قراءتها الا بمقدار ما يوفق المرء الى قراءة صفحة ممزقة ممحوة . هيا ، اقرئي . ولكن عجلي ، لاني اتألم . »  
كان وجهه منفعلا جدا ، متضرجا بالدم الى ابعد الحدود ، وكان ثمة ارتعاد في قسماته ، والتماع عجيب في عينيه .

وصاح : « اوه ، جين ، انت تعذبنيني . انك تعذبنيني بهذه النظرة الفاحصة ، على الرغم مما تنطوي عليه من اخلاص وكرم ! »

- « كيف استطيع ان اعذبك ؟ اذا كنت صادقا في ما قلت ، جادا في ما عرضت فليس ينبغي لي ان احس نحوك بغير العرفان والولاء . والعرفان والولاء لا يمكن ان يكونا مصدر عذاب . »

- فصاح : « عرفان ! » ثم اضاف ، في ضراوة : « سارعي الى الرضا بي ، يا جين . قللي لي يا ادوارد - اجل ، خاطبيني بأسمي ، ادوارد - سوف اتزوجك . »

- « اصادق انت في ما تقول ؟ هل تحبني حقا ؟ ارغب انت ، باخلاص ، في ان اكون زوجتك ؟ »

- « اجل ، يا جين . واذا كانت اليمين ضرورية لاقناعك اقسمت لك يمينا . »

- « اذن ، فسوف اتزوجك ، يا سيدي . »

- « لا تقولي يا سيدي . قللي يا ادوارد - يا زوجتي الصغيرة ! »

- « يا عزيزي ادوارد . »

فقال : « تعالي الي ، تعالي الي الان بكليتك ! » ثم اضاف في اعمق نبرة من نبرات صوته ، هامسا في اذني ، اذ كان خده على خدي : « هبيني السعادة . »  
أهْبِكَ السعادة !

وصمت لحظة ثم اردف : « فليغفر الله لي ، وليجنبنني تدخل الانسان ! لقد فزت بها ، ولسوف احفظ بها . »

- « لن يتدخل بيننا احد ، يا سيدي . فليس لي اي نسيب حتى يتدخل . »

- « لا . وهذا خير ما في المسألة . »

ولو قد كان حبي له اقل اذن لوجدت في نبرته وفي محياه المتهلل شيئا وحشيا . اما وقد كنت جالسة الى جانبه ، بعد ان اوقظت من كابوس الفراق ودُعيت الى جنة الزواج ، فاني لم افكر بغير النعمة التي اسبغها الله علي ، نعمة العبّ من مثل هذا الفيض السخي . وقال مرة ومرة : « أسعيدة انت يا جين ؟ » فاجبته مرة ومرة : « نعم . » فغمغم : « ان في ذلك لكفارة . . . إن

في ذلك لكفارة . ألم اجد لها منبوذة ، مقرورة ، لا يعرف السلوان سبيلا الى قلبها ؟ ان احبها ، وارعاها ، واواسيها ؟ أليس في فؤادي حب وفي قراري ثبات ؟ ان هذا سوف يشفع لي في محكمة الله . انا اعلم ان خالقي يقر ما اعمله . اما احكام الدنيا فاني اغسل يدي منها . اما رأي الانسان ... فاني اتحداه ! »

ولكن ماذا دهمى الليل ؟ ان القمر لما يأفل بعد ، ومع ذلك فقد لفنا الظلام ، وامسيت لا اكاد المح وجه سيدي ، برغم اني كنت منه على مقربة دانية . وما الذي اوجع الشهبلوطة الهندية ؟ لقد تلوت وانت ، بينما كانت الريح تهدر في المجاز التي اكتنفته شجرات الغار وتعصف بنا عصفا .

وقال مستر روتشيستر : « يجب ان ندخل الى القصر . الجو آخذ في التغير . ولولا هذا لجلست معك حتى مطلع الفجر ، يا جين » .

وفكرت بيني وبين نفسي : « ولجلست انا معك حتى مطلع الفجر ايضا » . ولعله كان يجمل بي ان اصرح بذلك ايضا ، ولكن وميضا ساطعا ضاربا الى الزرقة انبثق من سحابة كنت ارنو اليها ، وتلا ذلك فرقة ، فرقة ، هزيم رعد مجلجل دان . هنالك لم افكر الا في حجب عيني بالمهورتين واخفاهما بكتف مستر روتشيستر .

وانهمر المطر . فحشني مستر روتشيستر على العدو في المجاز ، ثم عبر حاشية الحديقة ، ابتغاء الوصول الى القصر . ولكننا لم نبلغ عتبته الا بعد ان تبللت ملابسنا فهي تقطر ماء . وكان ينزع شالي عن كتفي ، في الردهة ، وينفض حبات المطر عن شعري المسدل عندما نبعت مسز فيرفاكس من حجرتها . ولم المحها بادی الامر ، ولم يلمحها مستر روتشيستر ايضا . وكان الصباح مضاء ، وكانت ساعة الجدار تعلن الثانية عشرة .

وقال : « سارعي الى نزع ملابسك المبللة . وقبل ان تمضي اتمنى لك ليلة طيبة ... ليلة طيبة يا عزيزتي » .

وقبلني مرة ومرة . وحين رفعت بصري ، بعد ان فارقت ذراعيه ، الفيت الارملة امامي شاحبة الوجه ، متجهة الاسارير ، مشدوهة ، فاجتزأت بالابتسام لها ، واندفعت مرتقية السلم الى الدور الاعلى . وقلت في ذات نفسي : « سوف اشرح لها الامر في مناسبة اخرى » . ومع ذلك ، فلم اكد اصل الى حجرتي حتى استشعرت غصة في النفس لمجرد التفكير في انها لا بد ستسيء ، ولو موقنا ، فهم ما رآته عينها . ولكن الجذل سرعان ما محا كل شعور آخر . كانت الريح تهب عنيفة وكان الرعد يقصف على نحو دان عميق ، وكان البرق يرمض ضاريا متواترا . وظل المطر ينهمر انهمار الشلال خلال عاصفة استمرت ساعتين اثنتين ، ومع ذلك فلم استشعر اي خوف ، ولم احس الا بقدر يسير من الرهبة . وفي غضون ذلك اقبل مستر روتشيستر الى باب حجرتي ثلاث مرات ليسألني هل انا آمنة مطمئنة . وكان في هذا عزاء لي ، وكان في هذا قوة استعين بها على كل شيء .

وقبل ان ابرح سريري صباح اليوم التالي اقبلت آديل الصغيرة تعدو لتنبئني بان صاعقة انقضت الليلة البارحة على شجرة الشهبولوط الهندي الضخمة في اقصى البستان ، ففلقتها فلما .

## ٢٤

وفيما كنت انهض من فراشي وارتي ملابسي فكرت في ما قد حدث ، وتساءلت هل كان ذلك حلما ؟ ولم استيقن من الحقيقة الا بعد ان رأيت مستر روتشيستر من جديد ، وسمعته يجدد لي عهده ويكرر آيات حبه .

وبينا كنت اسرح شعري ، نظرت الى وجهي في المرأة ، فاستشعرت انه لم يعد دميما : كان ثمة امل في اساريه ، وحياء في لونه ، ولقد بدت عيناى وكأنهما ابصرتا ينبوع البهجة ، واستعارتا تألقهما من تماوجه الصقيل . وكان من دأبي ان أزهد في النظر الى سيدي ، خشية ان لا تروقه طلعتي ، ولكني آنست في نفسي ، ثقة قوية اشعرتني بأن في استطاعتي ان ارفع وجهي الى وجهه من غير ان يفتر حبه لي من جراء ملامحه . واخرجت من درجي فستانا بسيطا ، ولكنه نظيف رقيق ، من فساتين الصيف ، وارتيته . فيدا لي وكان ايما ثوب لم يلق بي قط بقدر ما لاق هذا الثوب بي ، لانني لم ارتد من قبل ثوبا ما بمثل المزاج البهيج الذي ارتديت به هذا الثوب .

ولم يستبد بي الدهش عندما رأيت ، وانا اهبط السلم الى الردهة ، ان صباحا متألقا من اصباح حزيران ( يونيو ) قد خلف عاصفة الليلة البارحة ، وعندما داعبتني ، من خلال الباب الزجاجي المفتوح ، انفاس نسيم عليل فاغم . لا ريب ان الطبيعة كانت مغتبطة بسعادتي البالغة . وفي هذه اللحظة ، صعدت في المجاز شحادة تصحب ولدها الصغير - وكان كل منهما شاحب الوجه رث الملابس - فهبطت نحوها بسرعة ونفحتها كل ما اتفق ان كان في كييسي من نقود ، وكان يبلغ ثلاثة شلنات او اربعة : فسواء أكان هذان المخلوقان صالحين ام طالحين فإن من حقهما ان يشاركانني ابتهاجي . ونعتب الغربان السحح ، وغردت الطيور الاكثر بشرا . ولكن ايما شيء لم يبلغ من الطرب وحسن الايقاع ما بلغه فؤادي المتهلل .

وفاجأتني مسز فيرفاكس بالاطلال من النافذة ، محزونة المحيا ، وبقولها لي في اكتئاب : « مس اير ، الا تريدان ان تتناولتي فطور الصباح ؟ » وخلال الطعام غلبت عليها السكينة والفتور ، ولكني لم استطع ان اكشفها ، آنذاك ، بواقع الامر . ان علي ان انتظر حتى يقدم سيدي ايضاحاته ، وان عليها هي ايضا ان تنتظر . واكلت ما وسعني ، ثم هرعت الى الطابق العلوي ، فالتقيت آديل وهي تغادر حجرة الدرس .

- « الى اين انت ذاهبة ؟ لقد حانت ساعة التدريس » .

- « لقه امرني مستر روتشيستر بالانتقال الى حجرة الحضانة » .



« واين هو ؟ »

« هناك » ، وأشارت الى الحجرة التي كانت قد غادرتها . فدخلتها ،  
فاذا هو راقف في احدى نواحيها .

وقال : « تعالي وتمني لي صباحا طيبا » .

فتقدمت في ابتهاج ، فلم يكن ما تلقينه الان مجرد كلمة باردة او حتى  
مصافحة ، ولكنه كان عناقا وقبله . وبدا لي ان غمره اياي بهذا الحب كله  
ومعانقته لي بهذه الحرارة كلها كانا شيئا طبيعيا . . . شيئا بهيجا .

وقال : « جين ، اني لاراك منورة ، بسامة ، بهية الطلعة . . . بهية  
الطلعة حقا في هذا الصباح . أهذه هي عفريتتي الصغيرة الشاحبة ؟ أهذه  
هي حبة خردلي ؟ هذه الفتاة الصغيرة المبتهجة ذات الوجنة التي تزينها  
غمّازة والشففتين الورديتين ، والشعر البندقي الاملس كالحرير ، والعينين  
المشعّتين بلون البندق ايضا ! » ( لقد كانت لي ، ايها القارئ ، عينان  
خضراوان ، ولكن عليك ان تغفر له هذه الغلطة ، فقد بدا لنا له مصبوغتين  
بصبغ جديد ، في ما احسب ) .

« هذه الفتاة هي جين اير ، يا سيدي » .

فأضاف : « التي ستصبح جين روتشيستر عما قريب ، بعد اسابيع  
أربعة يا جانيت ، اسابيع أربعة لن تزيد يوما واحدا . هل تسمعين هذا  
الذي اقول له ؟ »

لقد سمعته ، ولكني لم اوفق الى فهمه تماما : لقد اصابني ذلك بدوار .  
كان الشعور الذي اوقعه هذا الاعلان في نفسي اقوى من ان يتناغم مع  
البهجة . . كان شيئا يذهل ويصّعق : كان ، في ما خيل الي ، خوفا او  
شبه خوف .

« لقد احمر وجهك بادى الامر ، وها هو ذا الان صاحب اشد  
الشحوب ، فعلام ذلك يا جين ؟ »

« لانك منحّنتي اسما جديدا : جين روتشيستر . وهو اسم يبدو لي  
غريبا كل الغرابة » .

فقال : « اجل ، مسز روتشيستر ، مسز روتشيستر الشابة ،  
عروس فيرفاكس روتشيستر » .

« هذا لا يمكن ان يكون ابدا ، يا سيدي . انه لا يبدو محتملا . ان  
البشر لا يستمتعون بالسعادة الكاملة في هذا العالم . ولم اخلق انا لقدّر غير  
القدر الذي كتب على سائر بنات جنسي . وان التفكير في ان السعادة  
مقدرة لي هو مجرد حديث خرافة . . . مجرد حلم من احلام اليقظة » .

« حلم استطيع ان احققه ، ولسوف احققه . اني سأبدأ اليوم  
بالبذات ، فقد كتبت الى المصرف الذي اعامله في لندن اسأله ان يبعث الي  
ببعض الجواهر المودعة عنده - ميراث موقوف على سيدات ثورنقيلد . ولن  
ينقضي يوم او يومان ، في ما ارجو ، حتى انثرها في حِجْرِكَ . ذلك بأنني

سوف اخصك بمختلف ضروب الامتياز والعناية التي يجدر بي ان اخص بها بنت لورد من اللوردات لو كنت على وشك الزواج منها .

« اوه ، يا سيدي ! دعنا من الجواهر ! انا لا احب الاستماع الى حديثها . جواهر لجين اير ؟ ان هذا ليبدو شيئا غريبا . . . شيئا غير طبيعي . انا اؤثر ان لا افوز بها . »

« سوف اطوق جيدك ، بنفسني ، بالعقد الماسي ، ولسوف اكلل جبينك بالتاج ، الذي سيكون لائقا به ، لان الطبيعة ، على الاقل ، قد دمغت هذا الجبين ، بطابع نبيلها ، يا جين ، ولسوف اشبك الاساور حول هذين المعصمين الرائعين ، واثقل بالخواتم هذه الاصابع الشبيهة بأصابع الجنيات . »

« لا ، لا ، يا سيدي ! فكر في موضوعات اخرى ، وتحدث عن اشياء اخرى ، بأسلوب آخر : لا تخاطبني وكأنني امرأة بارعة الجمال . انا لا اعدو ان اكون تلك المربية الكويكرية الدميعة العاملة في خدمتك . »

« انت بارعة الجمال في ناظري ، وبارعة الجمال على النحو الذي يشتهيهِ فؤادي تماما : رقيقة واثيرة . »

« تعني ضئيلة الجسم ، تافهة . انت تحلم ، يا سيدي ، والا فانت تسخر . اسألك بحق الله ان لا تتحكم علي . »

فأردف قائلا ، بينما ضيقت - في الواقع - ذرعا بالاسلوب الذي اصطنعه ، لاني استشعرت انه قصد بذلك الى احدى غايتين ، اما ان يخدعني واما ان يخدع نفسه : « ولسوف احمل العالم على الاعتراف بك امرأة بارعة الجمال ، ايضا . وسألبس جبينتي جين ثياب الاطلس والاندانيل ، واشكل شعرها بالورود . وساحجب الوجه الذي احبه اعظم الحب بخمار نفيس لا يقوم بمسال . »

« وعندئذ لن تعرفني ، يا سيدي ، ولن اعود محبوبتك جين اير ، ولكن قردة في ثياب مهرج . . . زربابا \* في ريش مستعار ، ولسوف اراك وشيكا ، يا مستر روتشيستر مثلث الجسم بالخراف المسرحية ، كما ارى نفسي رافلة في ثوب سيدة من سيدات البلاط . انا لا ازعم انك وسيم ، يا سيدي ، برغم اني اهمم بك جدا . . . اهمم بك الى حد يتعذر علي معه ان أتملك . فلا تتملقني . »

بيد انه تابع الضرب على الوتر نفسه ، غير حافل بتوسلي : « واليوم بالذات سوف اصحبك في العربة الى ميلكوت اذ يتعين عليك ان تختاري لنفسك بعض الفساتين . ولقد قلت لك اننا سنزوج في مدى اربعة اسابيع . ولسوف يتم الزفاف في سكينه وهدوء ، في الكنيسة القائمة هناك ، ومن ثم سأمضي بك ، في الحال ، الى لندن . وبعد مقام وجيز في رحابها سأحمل

\* الزرباب ، او ابو زريق ، اسم طائر . ( المغرب )

كنزي الى بقاع هي الى الشمس اقرب : الى كروم العنب الفرنسية والسهول الايطالية . ولسوف ترى هناك كل ما هو شهير في التاريخ القديم وفي الحقبة الحديثة . ليس هذا فحسب ، بل انها سوف تتذوق شيئا من حياة المدن ، وتتعلم كيف تقوم نفسها بمجرد المقارنة مع الاخريات » .

- « وهل سأسافر ؟ .. ومعك انت ، يا سيدي ؟ »

- « سوف تنزلين في باريس ، ورومة ، وناپولي ، وفي فلورنسة ، والبندقية ، وفيينا : جميع الديار التي طوفت انا فيها سوف تطوفين فيها انت ، وايا ارض وطئتها انا بحافري سوف تطئينها انت ايضا بقدمك الرقيقة الجديرة بحورية من الحوريات . قبل عشر سنوات اندفعت اجوب ارجاء اوروبة كالمجنون ، وفي نفسي تقزز وكراهية وغيظ كالتسي في نفوس رفاقي ، واليوم سوف اعاود زيارتها وقد شفت وتطهرت ، وبرفقتي ملاك حقيقي يدخل البهجة على قلبي » .

وضحكت منه حين قال ذلك . واكدت : « انا لست ملاكا ، ولن اكون ملاكا حتى يدركني الموت : سوف اكون ما انا ، يا مستر روتشيستر ، وعليك ان لا تتوقع مني ، وان لا تقتضيني ، ايا شيء سماوي - لانك ان فعلت لم توفق الى الفوز به اكثر من توفيقني الى الفوز بايما شيء سماوي منك ، وهو شيء لست اتوقعه البتة » .

- « وماذا تتوقعين مني ؟ »

- « لعلك ان تظل ، طوال فترة يسيرة ، كما انت الان ، - اقول طوال فترة يسيرة ، ومن ثم ستصبح فاترا ، وبعد ذلك ستصبح حولا قلبا ، ثم ستصبح متجهم الوجه ، ولسوف القى عسرا بالغا في ارضائك : ولكنك قد ترغب في من جديد بعد ان تالفني جيدا . . . اقول « قد ترغب في » ، لا « قد تحبني » . انا احسب ان حبك سوف يحتفظ بمحياء ستة اشهر ، او اقل . فقد لاحظت في الكتب التي التفتها الرجال ان هذه المدة تعتبر حدا اقصى لاحتفاظ الزوج بحماسته واتقاد حبه . ومع ذلك فانا ارجو ، بوصفي عديقة ورفيقة ، ان لا اصبح في ايام يوم من الايام بغیضة ، بكل ما تنطوي عليه هذه اللفظة من معنى ، الى قلب سيدي العزيز » .

- « بغیضة ! وارغب فيك من جديد ! الذي احسبه اني سوف ارغب فيك ابد الدهر . ولسوف احمك على الاعتراف بانني لا اکتفي بمجرد الرغبة ، بل اعدو ذلك الى الحب - الى الحب الصادق ، المتقد ، السرمدي » .

- « ولكن .. الست ذا طبع حوّل قلب ، يا سيدي ؟ »

- « انا الشيطان نفسه في معاملتي للنسوة اللواتي لا يرضينني الا بوجوههن ، عندما اكتشف انهن لا يملكن لا ارواحا ولا قلوبا . . . عندما يفتحن امامي عالما من الرتابة ، والتفاهة ، وربما من البلاهة ، والجلافة ، والنزق . اما بالنسبة الى العين الصافية ، واللسان الفصيح ، بالنسبة الى الروح التي خلقت من نار والخلق الذي ينشئ ولكنه لا ينكسر . . . والذي يتميز

بالبیونة والرسوخ ، والوداعة والتماسك ، فی آن معا ، فانی ابد الدهر رقیق القلب صادق الود ، .

– « هل خیرت مثل هذا الخلق ، ذات یوم ، یا سیدی ؟ هل سبق لك ان احببت امرأة تتحلى بمثل هذا الخلق ؟ »  
– « انا احب واحدة الان . »

– « ولكن هل احببت مثل هذه المرأة قبلی . . . اذا صح انی احقق ، بای وجه من الوجوه ، هذا المثل الاعلی العسیر الذی اتخذته لنفسک ؟ »  
– « انا لم ألق فی ایما یوم من عمری نظیرا لك . جین ، انک تعجبینی ، وتهمینین علی – انت تظهرین وكأنک مدعنة ، وانی لاحب حسن الطوایع الذی توحین به . فیمما انا افتل الخصل الحریریة الناعمة حول اصبعی توقع هذه الخصل فی ذراعی ارتعاشة لا تلبث ان تسری الی فؤادی . انی اشعر انی خاضع لسلطان قاهر ، وانی مغلوب علی امری ، وهذا السلطان هو اعذب من ان اقوی علی التعبير عنه ، وان لهذه الغلبة التی استشعرها لسحرا دونه سحر ایما نصر استطیع ان احرزہ . لماذا تبتسمین ، یا جین ؟ وما معنی هذه الاساریر الساذجة الممتنعة علی التفسیر ؟ »

– « كنت افکر ، یا سیدی ، ( ولسوف تغفر لی هذه الفكرة ، لقد كانت لا ارادیة ) كنت افکر فی هرقل وشمشون وفانتیهما . »  
– « لقد كنت ، ایها العفریة الصغیرة . . . »

– « صه ، یا سیدی ! انک تتحدث الان حدیثا تعوزہ الحکمة بقدر ما اعوزت الحکمة هذین الرجلین فی تصرفاتهما . وعلى أية حال ، فلو قد کانا متزوجین اذن لعوضا من غیر ریب ، بقسوتهم کزوجین ، عن رقتهم کعاشقین . وكذلك سوف تكون حالک ، فی ما اخشی . وانی لاتسأل ای جواب یخلق لی ان افوز به منك لو سألتک ، بعد عام واحد ، ان تسدی الی مِنّة لا یلائمک او لا یرک اسداؤها الی ؟ »

– « اسألینی شیئا الان ، یا جانیت . . . اسألینی اقل شیء . انا احب ان ارى الناس یتوسلون الی . . . »

– « سوف افعل ، من غیر ریب . لقد اعددت عریضتی » .  
– « تکلمی ! اما اذا اکتفیت بالدنو الی وبالاتسام بهذه الملامح فسأقسم لاجیبنتک الی سؤْلِکِ قبل ان اعرف ماهیته ، وهذا ما یظهرنی بمظهر الرجل المغفل . »

– « معاذ الله ، یا سیدی . انا لا اسألك غیر شیء واحد : لا تبعث فی طلب الجواهر ، ولا تتوجنی بالورود . وفی استطاعتک فی الوقت نفسه ان تطوق هذا المنديل البسيط الذی تحمله بحاشیة من خیوط ذهبیة . »  
– « فی استطاعتی ایضا ان اذهب الذهب الخالص . انا اعرف هذا ان مطلبک اذن مجاب ، مؤقتا علی الاقل . سوف اسحب التعلیمات التی اصدرتها الی البنک الذی اعامله . ولكنک لم تسألینی حتی الان شیئا ، کل ما فعلته هو انک توسلت الی ان اعفیک من هدیة اعترمت تقدیمها الیک . »

جربي مرة ثانية » .

« حسنا ، اذن ، يا سيدي ، تكرّم باشباع فضولي الذي تشيره ،  
اشد ما تكون الاثارة ، نقطة بعينها » .

فبدت على وجهه امارات القلق ، وسارع الى القول : « ماذا ؟ ماذا ؟  
الفضول عريضة خطرة ، لقد احسنت صنعا اذ لم آخذ على نفسي عهدا  
بأجابتك الى اي مطلب ... »

« ولكن اجابتي الى مطلبي هذا لا يمكن ان تنطوي على خطر ما ،  
يا سيدي » .

« صرحي به ، يا جين . ولكني اتمنى لو تطلبين الي التنازل عن  
نصف اقطاعتي بدلا من ان تسأليني - فمن يدري ؟ - عن سر من الاسرار » .

« كفى ايها الملك احشويروش \* ! ما حاجتي الى نصف اقطاعك ؟  
اتحسبني مرايبا يهوديا يبتغي تثمير ثروته في الاراضي تثميرا ناجحا ؟ اني  
لاؤثر ألف مرة ان احظى بثقتك . انك لن تخرجني من رحاب ثقتك اذا ما  
ادخلتني الى رحاب قلبك ، اليس كذلك ؟ »

« مرحبا بك في دنيا ثقتي الكاملة التي ارجو ان تكون جديرة بأن  
يسمى الى اكتسابها يا جين . ولكن بحق الله لا ترغبي في عبء غير مفيد !  
لا تتوقى الى سم ... لا تنقلبي الى مجرد حواء كل همها تعذيبى ! »

« ولم لا ، يا سيدي ؟ لقد حدثتني منذ لحظات عن مدى الارتياح  
الذي تستشعره كلما فكرت في انك مغلوب على امرك ، وعن مدى العذوبة  
التي تجدها في الانقهار . الا ترى ان من الخير لي ان افيد من هذا الاعتراف  
فأشرع في التملق والتوسل - بل في البكاء والتجهم اذا اقتضى الامر ذلك -  
ابتغاء القيام بمجرد تجربة لسلطاني ؟ »

« اني اتحداك ان تقومي بمثل هذه التجربة . تطاولي ، تعدي ،  
فلن تلبث الخطة ان تفشل » .

« اتظن ذلك ، يا سيدي ؟ انك لتلقي السلاح بسرعة بالغة . لشد ما  
يغلب التجهم على وجهك ، الان ! لقد امسى حاجباك في مثل كثافة اصبعي .  
وان جبينك ليشبه ما عبر عنه بعض الشعراء ، في قصيدة له مدهشة جدا ،  
بقوله : « صاعقة مشحونة بنيران جهنم » . هل ستكون هذه هي ملامح  
وجهك ، بعد الزواج ، يا سيدي ؟ »

« لو كانت هذه هي ملامح وجهك أنت ، بعد الزواج ، اذن لسارعت ،  
بوصفي مسيحيا ، الى اطراح فكرة الاقتران من مجرد غول او عنقاء . ولكن ما  
الذي تريدان ان تسأليني اياه ، ايها المخلوقة ؟ افصحى ! »  
« ها انت الان اقل كياسة . اني لاؤثر الجلافة ، ألف مرة ، على التملق . »

\* ملك من ملوك الفرس القدماء ، كان زوج « أستير » اليهودية وله معها قصة معروفة  
مروية في الكتاب المقدس . ( المغرب )

وافضل ان اكون « مخلوقة » على ان اكون « ملاكا » . هذا ما اريد ان اسالك  
اياه : لماذا بذلت كل تلك الجهود لحملي على الاعتقاد بانك راغب في  
الزواج من مس اينغرام ؟

- « اهذا كل شيء ؟ احمد الله على انك لم تسأليني سؤالا اسوأ ! »  
وهنا حل عقدة حاجبيه الاسودين ، وخفض بصره ، مبتسما لي ، وداعب  
شعري وكأنما سره ان يرى الى نفسه وقد اجتنب خطرا محققا . ثم اردف  
قائلا : « احسب ان في ميسوري ان اعترف ، حتى ولو افضى ذلك الى اثاره  
سخطك ، يا جين . . . . . ولقد سبق لي ان رأيت كيف تلتهمين التهامبا حين  
يشند بك السخط . لقد انفعلت غاية الانفعال ، في ضوء القمر البارد ،  
الليلة البارحة ، عندما تمردت على القدر وزعمت ان منزلتك تضارع  
منزلتي . وبالمناسبة ، انك انت التي اقترحت علي ذلك ، يا جانيت . »

- « لقد فعلت ، من غير ريب . ولكن فلنعد الى الموضوع ، من فضلك ،  
يا سيدي . حدثني عن مس اينغرام . . . . . »

- « حسنا ، لقد تظاهرت بمغازلة مس اينغرام ، لاني اردت ان اجعلك  
مقيمة بحبي بقدر ما كنت متبما بك ، وكنت اعلم ان الغيرة هي خير حذيف  
استطيع ان استعين به على بلوغ تلك الغاية . »

- « ممتاز ! انك الان لصغير جدا . . . . . انك في حجم انملة خنصري  
تماما . لقد كان من العار اللاهب والخزي الفاضح ان تتصرف على هذا النحو .  
الم تفكر قط بمشاعر مس اينغرام ، يا سيدي ! »

- « ان مشاعرها تتركز حول شيء واحد : - التكبر . والتكبر يقتضي  
اذلالا . هل استبدت بك الغيرة آنذاك ، يا جين ؟ »

- « دع عنك ذلك ، يا مستر روتشيستر . فليس مما يهكم بآية حال ،  
ان تعرف ذلك . اجبني في صدق كرة اخرى . اتحسب ان مس اينغرام لن  
تتالم لغزلك الكاذب ؟ ان تستشعر انك قد هجرتها وتخلت عنها ؟ »

- « مستحيل ! والواقع انها هي التي تخلت عني ، كما اخبرتك من  
قبل . لقد كان في مجرد توهمها اني مفلس ما برد نارها ، بل ما اخمدها ، في  
لحظة واحدة . »

- « ان لك عقلا عجيبا ماكرا ، يا مستر روتشيستر . واني لآخشي ان  
تكون مبادئك ، في ما يتصل ببعض القضايا ، غريبة شاذة »

- « ان مبادئي لم تعرف في ايما يوم من الايام اي تثقيف او تهذيب .  
ولعلها قد انحرفت بعض الشيء بسبب من الاهمال . »

- « انبثني ، كرة اخرى ، في جد : هل اطمع في الاستمتاع بالخير  
العظيم الذي اسبغ علي من غير ان آخشي ان تقاسي امرأة اخرى ذلك الالم  
المرير عينه الذي استشعرته انا منذ فترة يسيرة ؟ »

- « في استطاعتك ان تطمئني من هذه الناحية ، يا فتاتني الصغيرة  
الطيبة ، فليس في العالم كله مخلوقة اخرى تكن لي ما تكنينه انت لي من

حب محض - ذلك بأنني امسح روعي بهذا البلسم العذب ، يا جين ، بلسم  
الايمان بحبك ، .

وحولت شفقتي\* الى اليد الملقاة على كتفي . لقد احببته حبا عارما . . .  
اكثر مما استطيع ان افصح . . . اكثر مما في طاقة الكلمات ان تعبر عنه .  
وسرعان ما قال : « اسأليني شيئا اخر ، اني ليُبْهجنِي ان اراك تتوسلين  
الي وان اسارع الى النزول عند ارادتك » .

وكنت هذه المرة ايضا قد اعددت مطلبي ، فقلت : « أشعر\* مسز  
فيرفاكس بما اعتزمت عليه ، يا سيدي . لقد رأَتنِي معك ، الليلة البارحة ،  
في الردهة ، فكان في ذلك صدمة لها . قدم اليها تفسيراً ما ، قبل ان التقيها  
من جديد . أنه ليؤلنِي ان تخطيء في الحكم علي\* امرأة في مثل صلاحها  
وطيبتها ، .

فاجابني : « امضي الى حجرتك ، واعتمري بقلنسوتك . انا اريدك ان  
ترافقيني الى ميلكوت هذا الصباح . وسأعمد ، فيما تستعدين انت للرحلة ،  
الى احاطة السيدة العجوز علما بكل شيء . هل ظننت ، يا جانيت ، انك تخلت  
عن العالم كله في سبيل الحب ، وانك اخذت تنظرين اليه نظرتك الى شيء  
مفقود ؟ »

- « احسب انها ظننت اني نسيت مركزي ونسيت مركزك ، يا سيدي » .  
- « مركز ! مركز ! . . . ان مركزك لفي قلبي ، وفوق اعناق اولئك  
الذين قد يهينونك اليوم او غدا . . . اذهبي » .

وسرعان ما ارتديت فستانِي . حتى اذا سمعت مستر روتشيستر يغادر  
حجرة مسز فيرفاكس ، هبطت اليها في سرعة . وكانت السيدة العجوز تتلو  
نصيبها الصباحي من الكتاب المقدس ، وكان الكتاب المقدس مفتوحا امامها  
ونظاراتها فوقه . لقد بدت وكأنها قد نسيت ، الان ، ما كانت تؤديه من  
فريضة بعد ان ابلغها مستر روتشيستر ما سعى لا بلغها اياه : كانت عيناها ،  
المثبتتان على الجدار العاري تجاهها ، تعبران عن دهش عقل وادع استثارته  
انباء غير عادية . وحين بصُرْتُ بي انتزعت نفسها من غمرة الشرود الذهني ،  
وبذلت بعض الجهد لتبتسم ، وصاغت بعض كلمات التهنة . ولكن ابتسامتها  
ما لبثت ان تلاشت . . . وأهملت الجملة قبل اكتمالها . لقد وضعت نظارتها  
على عينيها ، وطوت الكتاب المقدس ، وابتعدت مقعدها شيئا ما عن المنضدة .

ثم استهلت كلامها بالقول : « ان الدهش ليعصف بي ، واني لا اكد  
ادري ما الذي يتعين علي ان ا قوله لك ، يا مس اير . انا لم اكن في حلم ،  
من غير ريب . هل كنت في حلم ؟ انه ليتفق لي في بعض الاحيان ، وانا قاعدة  
وحدي ، ان تأخذني سنة من النوم فأتصور اشياء لم تحدث في ايما يوم من  
الايام . لقد بدا لي غير مرة ، وانا في مثل تلك السنة ، ان زوجي العزيز  
الذي التحق بالرفيق الاعلى منذ خمس عشرة سنة قد وقَد علي وقعد بجانبِي ،  
ليس هذا فحسب ، بل لقد بدا لي اني سمعته ينادينني باسمي ، آليس ،

كشأنه في الايام الخالية . والآن ، قولي لي هل صحيح ، حقا ، ان مستر روتشيستر طلب يدك ؟ لا تسخري مني . ولكنني اعتقدت فعلا أنه اقبل الى هنا منذ خمس دقائق وقال انك سوف تصبحين له زوجة بعد شهر واحد .

فأجبتها : « لقد قال لي الشيء نفسه . »

— « لقد فعل ! هل تصدقينه ؟ هل قبلته بعلا ؟ »

— « نعم . »

فنظرت الي مشدوهة ثم قالت : « لم يقم ذلك في وهمي في اي يوم من الايام . انه رجل متكبر . لقد كان آل روتشيستر كلهم متكبرين ، وكان ابوه ، على الاقل ، يحب المال . وهو نفسه معروف بشدة الحذر . اذن فهو ينوي الزواج منك ؟ »

— « هذا ما يقوله لي . »

ونظرت الي من قمة رأسي الى اخمص قدمي . ولقد قرأت في عينيها ما يفيد انهما لم تقعا عندي على ايما سحر قادر على حل الاحجية .

ثم اردفت قائلة : « ذلك شيء يعدو قدرتي على التصديق . ولكنه صحيح من غير ريب ما دمت تقولين ذلك . اما كيف سينجح في ما اعتزم عليه فهذا ما لا استطيع التنبؤ به . . . انا في الواقع لا ادري . ان التكافؤ في المركز والثروة كثيرا ما يكون مستصوبا في مثل هذه الحالات . ثم انه اكبر منك بعشرين سنة . انه يكاد يكون في سن ابيك . »

فهمت ، مغیظة : « لا ، لا ، يا مسز فيرفاكس ! انه ليس في سن ابي . وما من احد يرانا معا يتوهمه كذلك ولو لحظة واحدة . ان مستر روتشيستر ليدو في مثل نظرة بعض الشبان الذين لم يجاوزوا الخامسة والعشرين ، بل انه لفي مثل نضرتهم . »

فسألتني : « هل صحيح انه سوف يتزوجك بدافع من الحب ؟ »

وجرحني برودها وارتيابها حتى لقد طفرت الدموع الى عيني .

فتابعست الارملة : « يؤسفني ان احزنك ، ولكنني اردت ان احذر انك بوصفك فتاة في مقتبل العمر . . . فتاة لا علم لها بالرجال . هناك مثل قديم يقول : « ما كل ذي بريق ذهبا . » واني لآخشي ، في هذه الحالة الحاضرة ، ان يكتشف شيء مغاير لما تتوقعينه انت او لما اتوقعه انا . »

فقلت : « عجباً ! وهل انا مسخ او هولة ؟ ايكون من المتعذر على مستر روتشيستر ان يضمر لي حبا صادقا ؟ »

— « لا ، ان الجمال لا يعوزك ، ولقد تحسنت في الفترة الاخيرة تحسنا كبيرا . وفي ميسوري القول ان مستر روتشيستر مولع بك . لقد لاحظت دائما انك كنت مدللته او شيئا من هذا القبيل . ولقد عبرت بي ساعات استشعرت فيها بعض الجزع عليك بسبب من تفضيله اياك تفضيلا صارخا ، فرغبت في تحذيرك ، ولكنني لم احب ان اوحى اليك حتى بان ثمة امكانية شر . لقد عرفت ان هذه الفكرة خليك بها ان تروعا ، بل ان تفضبك ، ولكنك



كنت من الحصافة ومن شدة الاحتشام والحساسية بحيث اعتقدت ان في ميسورك ان تحمي نفسك بنفسك . ولا استطيع ان اصف لك كم قد تأملت ، الليلة البارحة ، عندما بحثت عنك في ارجاء القصر كله فلم اجدك في اي مكان ، ولم اجد سيد القصر ايضا ، وعندما رأيتك بعد ذلك في الساعة الثانية عشرة وقد دخلت القصر معه .

فقاطعتها بفروغ صبر : « حسنا ، دعي عنك ذلك الان . بحسبك انك علمت ان كل شيء كان حسنا . »

فقالت : « ارجو ان يكون كل شيء حسنا في النهاية ، ولكن صدقيني اذا قلت لك ان المفالة في الحذر تظل امرا مرغوبا فيه . حاولي ان تبقي مستر روتشيستر على مبعدة : ارتابي في نفسك وارتابي به ايضا ، فالرجال الذين ينسبون الى مثل طبقته الاجتماعية لم يتعودوا الزواج من مريبات اولادهم . »

كان الغيظ قد قد شرع يستبد بي حقا . وفي هذه اللحظة اندفعت آديل ، لحسن الطالع ، ودخلت علينا صائحة : « دعيني اذهب . . . دعيني اذهب انا ايضا الى ميلكوت . لقد ابي مستر روتشيستر علي ذلك ، برغم ان في العربية الجديدة متسعا كبيرا . توسلي اليه ان يجيز لي الذهاب ، يا مدموازيل ! »

— « سأفعل ذلك ، يا آديل » واسرعت الى مغادرة الحجرة معها ، سعيده بفراق مرشدتي الكئيبة . كانت العربية معسدة ، وكانوا يدفعونها الى واجهة القصر ، وقد راح سيدي يذرع المجاز المعبّد جيئة وذهوبا ، وكلبه « بايلوت » يتبعه في غُدوه ورواحه .

— « في استطاعة آديل ان ترافقنا ، اليس في استطاعتها ذلك يا سيدي ؟ »

— « لقد قلت لها لا . انا لا اريد ان اصطحب اطفالا . . . انا لن اصطحب احدا غيرك . »

— « اسمح لها بالذهاب ، يا مستر روتشيستر ، ارجوك . ان ذلك افضل . »

— « على العكس ، انها سوف تقيد حريتنا . »

كانت ملامحه وصوته تنم عن جزم لا لبس فيه . وكانت تحذيرات مسز فيرفاكس وشكوكها لا تزال توقع الرعدة في اوصالي : لقد اوهرن آمالي بعض التردد واللايقين ، واستشعرت اني فقدت ، او كدت ، حس السيطرة عليه . وكنت على وشك الاذعان له على نحو آلي ، من غير مزيد من الاعتراض والاحتجاج ، ولكنه لم يكد يساعدني على الصعود الى العربية ويرى الى وجهي حتى سألني : « ما بالك ؟ لقد زابلك الاشرار كله . اترغبين في اصطحاب هذه الطفلة حقا ؟ ايرعجك ان نخلّفها هنا ؟ »

— « اني لاؤثر ان تذهب معنا ، يا سيدي . »

فصاح موجها الخطاب الى آديل : « اذن انطلقى التماسا لقبعتك ثم

ارجعي بمثل سرعة البرق ،

فامتثلت امره بأقصى ما وفقت اليه من اسراع .

وقال : « ليس ثمة على اية حال كبير بأس في هذا الازعاج يلزم بنا صباح اليوم ما دام ازعاجا مفردا لن يتكرر وما دمت اعتزم ان استأثر بك قريبا - ان استأثر بأفكارك ، وبحديثك ، وبرفقتك - مدى الحياة » .

ولم تكذ أدبل تُرفع الى العربية حتى شرعت تقبلني كتعبير عن شكرها لي على الوساطة التي قمت بها من اجلها . ولكن مستر روتشيستر سرعان ما ردها عني مُقعدا اياها في زاوية ما بجانبه من الناحية الاخرى . فراحت تختلس النظر الى حيث كنت اجلس ، فخليق بمثل جارها المتجهم ان يفرض على حريتها قيودا اثقل مما ينبغي : انها لم تجرؤ ، وقد قرأت في وجهه معاني الشكاسة ، على الهمس في اذنه بأية ملاحظة ، او على سؤاله اي ايضاح .

فتوسلت اليه : « دعها تجلس في جانبي . انا أخشى ان تزعجك ، يا سيدي . ان ثمة متسعا كبيرا في هذه الناحية » .

فرفعها واسلمها الي وكأنها كلب صغير . وقال : « ومع ذلك ، فسوف ارسلها الى المدرسة » . ولكن فمه افتر الان عن ابتسامة .

وسمعته أدبل ، فسألته : « وهل سأذهب الى المدرسة بدون المدموازيل ؟ »

فأجابها : « اجل . بدون المدموازيل ، تماما . ذلك بأنني سوف آخذ المدموازيل الى القمر ، وهناك سوف ابحت عن غار في احد الاودية البيضاء بين قمم البراكين ، وسوف تعيش المدموازيل معي هناك ، ومعني وحدي » .

فلاحظت أدبل : « ولكنها لن تجد ثمة ما تأكله . انك سوف تجوعها » .  
- « سوف اجني لها المن صباح مساء . ان المن ليغطي سهول القمر وسفوح هضابه بطبقة بيضاء لا نهاية لها ، يا أدبل » .

- « ولكنها سوف تضطر الى تدفئة نفسها . فمن اين تأتي بالنار ؟ »

- « ان الجبال القمرية لتنفث نارا حامية . فاذا ما استشعرت البرد حملتها الى احدى القمم ووضعتها على حافة فوهة من فوهات البراكين » .

- « اوه ، لشد ما سيكون ذلك سيئا ، بعيد عن الرفق ! وثيابها ؟ انها سوف تبلى من غير ريب ، فأتى لها ان تفوز بشياخ جديدة ؟ »

- وتظاهر مستر روتشيستر بالانشده . وقال : « هممم ! وما الذي تفعلينه انت يا أدبل لو وجدت نفسك في مثل ذلك الموقف ؟ اقدحي زناد فكرك بحثا عن وسيلة . اليس في استطاعتها ان تتخذ من احدى السحائب البيضاء او القرنفلية فستانا ؟ ان المرء قد يوفق هناك الى ان يفصل من قوس قزح وشاحا عريضا » .

ف قالت أدبل بعد ان فكرت في الامر بعض الشيء : « انها كما هي الان احسن حالا بكثير ، والى هذا ، فان العيش معك وحدك في القمر لا بد ان يوقع السأم في نفسها . ولو كنت انا مكان المدموازيل لما رضيت بالذهاب معك

البنة ، •

• ولكنها قد رضيت • لقد عاهدتني على الذهاب •

• ولكنك لا تستطيع ان تحملها الى هناك ، فليس ثمة ايما طريق الى القمر • ان الفضاء ليفصلكما عنه ، وليس في ميسور اي منكما ان يطير •

• « آديل ، انظري الى ذلك الحقل ! » كنا الان خارج ابواب ثورنفيلد ، وكانت العربة تدُرُجُ بنا في رفق فوق الطريق الملساء المفضية الى ميلكوت ، حيث كانت العاصفة الراحدة قد نشرت بساطا من غبار ، وحيث كانت الاسيجة الخفيفة والادواح السامقة ، على كلا الجانبين ، تتألق خضراء كساها المطر ، من جديد ، لباس النضارة •

ثم اضاف : « في ذلك الحقل ، يا آديل ، كنت امشي ذات مساء ، قبل اسبوعين اثنين - مساء ذلك اليوم الذي ساعدتني فيه على جمع العشب اليابس في مروج البستان • حتى اذا غلب علي التعب ، جلست التماسا للراحة فوق سلم سياج • وهناك اخرجت من جيبي دفترنا صغيرا وقلما ، وشرعت اصف بلاء الم بـي منذ عهد بعيد واعبر عن تطلعي الى ايام سعيدة في المستقبل • وفيما كنت اكتب في سرعة بالغة ، برغم هبوط الليل ، سمعت وطء قدمي مخلوقة تمشي في الطريق ، لتقف على مبعدة ياردين اثنتين مني • ونظرت اليها • كانت مخلوقة صغيرة على رأسها خمار رقيق من شاش • واومات اليها ان تقترب مني ، وسرعان ما وقفت عند ركبتني • انا لم اتحدث اليها قط ، وهي لم تتحدث الي بلغة الكلام ، ولكنني قرأت افكارها في عينيها ، وقرأت افكاري في عيني ، وهذه هي ترجمة حديثنا غير الملفوظ :

• « لقد قالت انها جنية اقبلت من ارض الجنيات ، وانها مكلفة بأسعادي ، وان علي ان انفذ معها من اقطار العالم المعروف الى مكان منعزل - الى القمر مثلا - واومات برأسها نحو احد قرني الهلال ، المرتفع فوق هضبة » هاي • ، وحدثتني عن الكهف الرمري وعن الوادي القضي الذي سنعيش فيه • فقلت اني احب ان امضي الى هناك ، ولكنها ذكرتني - كما فعلت انت - بأنني لا املك جناحين استعين بهما على الطيران •

• ثم ان الجنية قالت : « اوه ، هذا لا يهم ! دونك هذا الطلسم الذي يذل العقبات جميعا • وقدمت الي خاتما ذهبيا جميلا وقالت : « البسه في بنصر يدك اليسرى ، وعندئذ اصبح انا ملكك وانت ملكي • ولسوف نفادر الارض وننشئ جنتنا الخاصة هناك • » ثم انها واومات نحو القمر ككرة اخرى • آديل ، ان الخاتم في جيب بنطلوني متذكرا في صورة ليرة ذهبية ، ولكنني اعترزم ان احوله عما قريب الى صورته الاولى ••• الى خاتم •

• « ولكن ما علاقة المدموازيل بذلك ؟ انا لا ابالي بالجنية •• لقد قلت انك تريد ان تأخذ المدموازيل ، لا اي كائن اخر ، الى القمر ••• » فقال في همس ملغز : « المدموازيل جنية • وهنا سألتها ان لا تلقي بالا الى مزاحه ، وتكشفت هي ، بدورها ، عن ذخيرة من الارتياح الفرنسي

الاصيل ، ناعنة مستر روتشيستر بـ « الكذاب الحقيقي » ، ومؤكدة له انها لم تبال قط بحكاياته عن الجنيات ، وانه ليس ثمة - على اية حال - جنيات البتة ، وحتى لو كان ثمة جنيات فلا ريب عندها في انهن لا يظهرن له هو ، ولا يمكن ان يقدمن اليه خواتم او يبددين رغبتهن في العيش معه في القمر .

كانت الساعة التي قضيناها في ميلكوت مزعجة لي بعض الشيء . فقد اكرهني مستر روتشيستر على الذهاب الى احد مخازن المنسوجات الحريرية حيث اصدر امره الي باختيار نصف دزينة من الفساتين . وكرهت هذه المسألة ، وتوسلت اليه ان يسمح لي بارجائها ، فأصر على ضرورة انجازها في الحال . وبفضل موجة من الضراعات التي عبرت عنها في همسات مشبوبة و'فقت' الى انقاص عدد الفساتين من ستة الى اثنين ، بيد انه ابى الا ان يختار هذين الفستانين بنفسه . وفي قلق ، رحت اراقب عينه وهي تطوف في ارجاء المخزن ، ليثبتها اخر الامر على قطعة حريرية غالية ذات لون شديد التالف احمر ضارب الى الزرقة ، وعلى قطعة نفيسة من الاطلس القرنفلي . فقلت له ، في سلسلة جديدة من الهمسات - ان في ميسوره ان يشتري لي ايضا جلبابا ذهبيا وقبعة فضية في الحال ، ولكني لن اغامر في ايما يوم من الايام بازتداء ما اختاره لي . وفي صعوبة لا نهائية - فقد كان عنيدا كجلود صخر - اقنعتة بأن يستعيض عن هاتين القطعتين بقطعة من الاطلس الاسود الرصين وبأخرى من الحرير الرمادي الضارب لونه الى لون اللؤلؤ . فقال : « سوف اسارك هذه المرة ، ولكني مع ذلك احب ان اراك تتألفين مثل حوض من احواض الزهور » .

وسعدت بمغادرة مخزن المنسوجات الحريرية ثم بمغادرة محل خاص ببيع الجواهر . كان كلما اسرف في الشراء من اجلي اتقدت وجنتاي بحس من التبرم والمهانة . حتى اذا امتطينا متن العربية من جديد ، واستويت فيها محمولة متعبة تذكرت ما كنت قد نسيت في زحمة الاحداث ، القاتم منها والمشرق ، نسيانا كاملا ، اعني رسالة عمي ، جون ايبير ، الى مسز ريد ، التي اعلن فيها عزمه على ان يتبناني ويوصي لي بشروته . وقلت في ذات نفسي : « ان مما يسري عن النفس ، حقا ، ان افوز في يوم من الايام بمثل هذه الثروة الصغيرة . انا لا اطيق البتة ان يكسوني مستر روتشيستر كما تكسى الدمى ، او ان اجلس مثل « دانيه » ❀ جديدة وغيوث الذهب تنهمر من حولي كل يوم . سوف اكتب الى ماديرا حالا ارجع الى القصر ، واخبر عمي جون بانني سوف اتزوج ، وممّن . فلو قد كان امامي مجرد امل في ان احمل الى مستر روتشيستر بعض الثروة في يوم من الايام فعندئذ يكون في ميسوري ان احتمل ، على نحو افضل ، انفاقه علي الان » . واذا سرت هذه الفكرة عني بعض الشيء ( هذه الفكرة التي لم اغفل عن تنفيذها ذلك اليوم ) فقد تجرأت

❀ Danae في الميثولوجيا الاغريقية ، عذراء سجنها والدها ، آكريسيوس ملك آرغوس ، في برج نحاسي، فلما كان من زيوس الا ان زارها على صورة غيث منهمل من الذهب . (المغرب)

كرة اخرى على النظر الى عيني سيدي وعاشقي ، اللتين التمسنا النظر الى عيني في عناد ، برغم اني اجتنبت كلا من وجهه ونظرة . وابتسم ، وبدا لي ان بسمته كانت اشبه بتلك التي قد يفدقها سلطان ، في لحظة من لحظات الحبور والحب ، على جارية كان قد غمرها بذهبه وجواهره . وسحقت يده ، التي كانت لا تفتأ تبحث عن يدي ، في قوة وعنف ، ثم رددتها اليه دامية بالضغط الانفعالي . . . .

وقلت : « لا حاجة بك الى النظر الي على هذا النحو . اما اذا فعلت فعندئذ لن ارتدي ، حتى النهاية ، غير ثوبي القديم الذي كنت البسه في لورود . اني سوف ازف اليك في هذا الثوب القطني المخطط ذي اللون البنفسجي الفاتح . وفي ميسورك انت ان تخطط لنفسك مبذلا ( روب دو شامبر ) من هذا الحرير الرمادي الضارب لونه الى لون اللؤلؤ ، وسلسلة لا نهاية لها من الصدرات من هذا الاطلس الاسود » .

فضحك وانشأ يفرك يديه ، ثم هتف : « اوه ! ان في رؤيتها والاستماع اليها لتسلية بالغة . اهي غريبة الاطوار ، اهي قارصة اللسان ؟ الا اني لن اتخلي عن هذه الفتاة الانكليزية الصغيرة ولو اعطيت مقابلها سراي السلطان التركي الكبير كلها ، بما اشتملت عليه من عيون الغزلان وقامات الحوريات وكل شيء ! »

وآذنتني هذه الصورة البيانية المشرقية ، فقلت : « لو كنت جارية من جواري السلطان لما وجدتني ذات نفع لك البتة . واذن ، فكف عن اعتباري مساوية لاحدى هاته الجواري . واذا كانت لك رغبة في ايما شيء من هذا الطراز فاذهب ، يا سيدي ، الى اسواق استانبول في غير ابطاء ، وأنفق في شراء الرقيق ، على نطاق واسع ، بعض هذا الفائض من المال الذي يبدو وكأنك لا تدري كيف تنفقه هنا في صورة مُرضية » .

— « وما الذي ستصنيعه ، يا جانيت ، وانا اسامم على شراء كل هذه الاطنان من اللحم ، ومثل هذه التشكيلة من العيون السود ؟ »

سأكون منصرفة الى اتخاذ الاهبة للضرب في الارض ، كمبشرة من المبشرات ، ابتغاء الدعوة الى تحرير المستعبدين — وفي جملتهم جواري حريمك . سوف احتال للدخول الى هناك ، ولسوف انير حركة تمرد عليك . وعندئذ ستجد نفسك ، ايها الباشا ذو الازناب الثلاثة ، وقد كبُلت يدك ، بمثل لمح البصر ، بالاصفاد . ولن ارضى انا ، ولن يرضى غيري ، ان يحطم اغلالك الا بعد ان توقع « براءة » ، لم يقدم ايما طاغية الى شعبه ما يضارعها تحررا وسماحة .

— « اني لا قبل بأن أكون تحت رحمتك ، يا جين » .

— « لن يعرف قلبي الرحمة ، يا مستر روتشيستر ، اذا ما التمسها بعين مثل هذه العين . ذلك بأنك اذ تنظر الي هكذا استيقن ان اول عمل سوف تقوم به بعد اطلاق سراحك ، ايا ما كانت « البراءة » التي وقعتها

بالاكراه ، هو انتهاك حرمة احكامها ،

« ولكن ما الذي تطمحين اليه ، يا جين ؟ انا اخشى ان تكرهيني على اقامة حفلة زواج خصوصية ، بالاضافة الى تلك التي تقام عند المذبح . ولسوف تفرضين علي ، في ما يخيّل الي ، شروطا غريبة . . . فما هي هذه الشروط ؟ »  
« كل ما اريده ، يا سيدي ، هو الاطمئنان وراحة البال ، وان اجد نفسي غير مثقلة بالالتزامات . اذكر ما قلته عن سيلين فارينز الفرنسية ؟  
« عن الحلّي الماسية والشالات الكشميرية التي قدمتها اليها ؟ انا لن اكون سيلين فارينز الانكليزية . لا ، بل سأظل اعمل كمربية لأدليل ، ومن هذه الطريق سأكسب نفقات قوتي وسكنائي ، بالاضافة الى ثلاثين جنيتها في العام . ولسوف اجهز خزانة ملابسني بملابس اشترتها بجزء من ذلك المال ، ولن تمنحني انت شيئا غير . . . »

« حسنا ، غير ماذا ؟ »

« غير احترامك . واذا ما منحتك انا ، بدوري ، احترامي ، فعندئذ اكون قد وفيتك دينك هذا . »

« فقال : « حسنا ، انت فتاة لا نظير لها من حيث الجرأة الفطرية الهائلة ، والغرور الغرزي المحض . » وكنا الان نقترّب من ثورنفيلد . حتى اذا اجتزنا ابوابه الخارجية سألني : « هل يسرك ان تتناول طعام العشاء معي ؟ »  
« لا ، اشكرك يا سيدي » .

« واي حاجة الى هذه الـ « لا ، اشكرك » ، اذا كان لامرء ان يسأل ؟ »  
« انا لم اتناول طعام العشاء معك من قبل قط . ولست اري ايما سبب يدعوني الى ذلك الان : حتى . . . »

« حتى ماذا ؟ انك لمولعة بانصاف الجمل . »

« حتى لا يعود لي قبيل بالامتناع . »

« اتحسبين اني آكل مثل غول حتى ترتعدي من تناول الطعام على مائدتي ؟ »

« انا لم اكون ايما فكرة عن الموضوع يا سيدي . ولكنني اريد ان اقيم على مألوف عاداتي شهرا آخر . »

« بل ستخلعين نير عبوديتك ، عبودية تربية الاطفال ، في الحال . »  
« حقا ! الشمس عفوك ، يا سيدي ، واقول اني لن افعل . سوف اواصل حمل هذا النير وفقا لما جرت به عاداتي . ولسوف ابتعد عن طريقك طوال ساعات النهار ، كما ألفت ان افعل . وفي ميسورك ان تدعوني الى الاجتماع بك مساء ، حين تؤانس من نفسك رغبة في رؤيتي ، ولسوف افد عليك عندئذ ، ولكنني لن افد في ايما وقت آخر . »

« اني لاحتاج الى « سجار » ادخنه او الى قبضة سعوط ، لكي اتسلى عن هذا كله ، يا جين ، او « لكي اهدى اعصابي » كما تقول أدليل . ولكنني لا احمل - لسوء الطالع - لا علبه « اسجرتي » ولا صندوق سعوطي . ولكن

اصغي الي : ان الدور هو الان دورك ، ايتها الطاغية الصغيرة ، بيد انه سوف يصبح دوري عما قريب . حتى اذا وُفقتُ الى امتلاكك والاخذ بناصيتك قيدتك - بمعنى مجازي - بسلسلة مثل هذه » ( وأشار الى سلسلة ساعته ) .  
« اجل ، ايتها المخلوقة الوسيمة البالغة الصغر ، سوف احملك في صدري ، خوفا على جوهرتي من الضياع » .

قال ذلك وهو يساعدني على الترحل من العربة . وبينما انهمك بعد ذلك في انزال آديل منها دخلت انا القصر ، وارتقيت السلم منسحبة الى حجرتي في سرعة .

وما ان هبط الليل حتى دعاني الى الاجتماع به . وكنت قد اعددت له مهمة ينصرف الى ادائها ، ذلك بانني كنت قد وطدت النية على ان لا انفق الوقت كله في محادثة مقتصرة علينا نحن الاثنين . لقد تذكرت صوته العذب : وكنت اعلم انه يحب ان يغني ، وتلك شيمة جميع البارعين في الغناء . ولم اكن انا نفسي اجيد الانشاد ، بل لم اكن - في ذوقه الذي لا يسهل ارضاءه - اجيد العزف ايضا ، ولكنني كنت اجد متعة في الاصغاء حين يكون الاداء جيدا . فما ان شرع الغسق ، تلك الساعة الشاعرية ، يبسط لواءه الازرق المرصع بالنجوم على شَعْرية النافذة ، حتى نهضت ، وفتحت البيانو ، وتوسلت اليه ، بحق السماء ، ان يسمعني اغنية . فقال اني ساحرة متقلبة الاهواء ، وانه يؤثر ان يغني في وقت اخر . ولكنني اكدت له ان ليس ثمة مناسبة خير من تلك المناسبة .

وسألني : « هل يعجبك صوتي ؟ »

فقلت : « كثيرا » . انا لم اكن مولعة بدغدغة غروره الشديد الحساسية ، ولكنني لم اتورع في تلك المناسبة بالذات ، ولحاجة في نفسي اريد قضاءها ، عن تعلق ذلك الغرور وانارته .

« اذن فيتعين عليك ، يا جين ، ان تصاحبيني في العزف على البيان » .

« حسن جدا ، يا سيدي . سوف احاول » .

ولقد حاولت فعلا . ولكنه سرعان ما دفعني عن كرسي البيانو وهو يقول : « يا لك من مهمة صغيرة ! » اجل ، لقد دفعني عن الكرسي في غير تلمظ ولا كياسة - وهذا على وجه الضبط ما كنت اسعى اليه - واغتصب مكاني اغتصابا ، وراح يعزف اللحن بنفسه ، ذلك بانه كان يحسن العزف بقدر احسانه الغناء . وسارعت انا الى فجوة النافذة . وفيما كنت جالسة هناك اطل على الشجرات الساكنة والمرج القاتم أدبَّتْ هذه الابيات بنغمات رقيقة بمصاحبة لحن عذب :

« ان حبا لم يعرف القلب

في سويدائه الملتهبة اصدق منه

قد سكب في كل عرق من عروقي ،

دفق حياة متسارعا .

• كان قدومها هو املي كل يوم  
• وكان ذهابها هو المي  
• وكان كل ما يعوق خطاها  
• تلجا في عروقي جميعا

لقد حلمت ان غاية الغايات في السعادة  
ان يبادلني من احبه حبا بحب  
• وفي سبيل هذا الهدف سعيت  
• بلهفة وعلى نحو اعمى

ولكن الشقة الفاصلة ما بين حياتنا  
كانت واسعة وغير مطروقة ،  
وكانت محفوفة بالمخاطر مثل تيار مزبد  
من تيارات المحيط المصطنخة الخضراء

وكانت رابعة مثل درب من دروب اللصوص  
في قفر من القفار او غابة من الغابات ،  
ذلك بأن القوة والحق ، والنويل والحنق  
تفصل ما بين روحينا

واقترحت المخاطر ، وسخرت من العقبات ،  
وتحدت نذُر الشر ،  
وكل ما كان يهدد ، او يضايق ، او ينذر  
تخطئته في قوة واندفاع

وانطلق قوس قزحي ، بمثل سرعة البرق ،  
وطرت انا وكأنتي في حلم ،  
ذلك بأن ابن المطر والضياء هذا  
ارتفع امام ناظري بهيئاً سنيناً

ان ذلك الابتهاج الرقيق المهيّب  
لا يزال يشرق ساطعاً على سحب الالم القائمة ،  
فانا لا ابالي الان بالارزاء المجتمعة من حولي  
• مهما تكاثفت وتجهّمت

انا لا ابالي في هذه اللحظة الحلوة ،  
برغم ان كل ما اقترحته وتغلّبت عليه



لا بد ان ينقض علي ، انقضاؤ جوارح الطير ،  
قويا رشيقا ، طالبا الثار الميض ،

وبرغم ان البغض المتشامخ سوف يصرعني  
والي محكمة الحق سيقدمني  
وان القوة الماحقة سوف تقسم ،  
في تجهم ضار ، على معاداتي الى ما لا نهاية .

لقد وضعت حبيبتي يدها الصغيرة ،  
بثقة نبيلة ، في يدي ،  
واقسمت ان رابطة الزواج المقدسة  
سوف توحد ما بين وجودنا .

لقد اقسمت حبيبتي ، ماهرة قسّمها بقبلة ،  
على ان تحيا معي ، وتموت معي ،  
وهكذا بلغت اخر الامر غاية غايات السعادة :  
فانا عاشق ، ومعشوق ، في آن معا .

ونفض واقبل نحوي ، فرأيت وجهه كله ملتهبا وعينيه الصقريتين  
مومضتين ، ولحت الرقة والهيام في اساريره جميعا . وجبنت بادیء الامر ، ثم استجمعت قواي . انا لم اكن راغبة لا في المشاهد الرقيقة ولا في  
المكاشفات العاطفية الجريئة . . . وها انا اذا اجد نفسي مهددة بكلا الخطرين .  
ان علي ان اعد سلاح الدفاع : وهكذا رحت اشخذ لسانني . حتى اذا انتهى  
الي سألته في غلظة : « من هي المرأة التي تعترم الزواج منها الان ؟ »

فقال : « غريب ان يصدر هذا السؤال عنك أنت ، يا حبيبتي جين » .

— « على العكس ، اني اعتبره سؤالا طبيعيا جدا ، وضروريا جدا . لقد  
زعمت ان زوجتك المقبلة سوف تموت معك ، فما الذي عينته بهذه الفكرة  
الوثنية ؟ اما انا فلست اعتزم الموت معك . . . في استطاعتك ان تكون على ثقة  
من ذلك . »

— « اوه ، كل ما اتوق اليه ، كل ما اصلي من اجله ، هو ان تعيشي  
معي ! ان الموت لم يخلق لفتاة مثلك » .

— « بلى ، لقد خلقت لي . ان لي حقا في ان اموت ، عندما يحسن  
اجلي ، لا يقل عن حقل . ولكن علي ان انتظر هذا الاجل متمهلة ، لا ان اسباق  
اليه سوقا وكانني زوجة هندوسية تلقي بنفسها في النار التي تحرق بعملها  
الميت » .

— « هل اغفر لك هذه الفكرة الانانية ، واقيم الدليل على غفراني بقبلة  
مصالحة ؟ »

« لا ، انا اؤثر ان اعفى من ذلك » .

وهنا سمعته يناديني بقوله : « ايها المخلوقة الصغيرة الصلبة » ثم يضيف : « لقد كان خليفاً بأية امرأة ان تذوب ذوبانا كاملا لدن سماعها هذه الابيات تُفَنِّئِي في مديحها » .

واكدت له اني صلبة بطبيعتي - صخرية الى حد بعيد ، وانه سوف يجدني هكذا في كثير من الاحيان ، واني وطنت النية على اطلاعه على مختلف مواطن الغظاظ في خلقي قبل انقضاء الاسابيع الاربعة القادمة ، وان عليه ان يدرك اكمل الادراك اي ضرب من الصفقة قد عقد ، ما دام ثمة متسع من الوقت لفسخها .

« هل لك ان تلزمني الهدوء وان تتكلمي على نحو عقلائي ؟ »

« سوف الزم الهدوء اذا رغبت انت في ذلك . اما التكلم على نحو عقلائي فهذا ما ازم بكثير من الفخر اني فعلته حتى الان » .

فاغتاط واطلق اصواتا تنم عن الازدراء وفروغ الصبر . فقلت في ذات نفسي : « حسن جدا ، في استطاعتك ان تقضب وان تتحمل ما شاء لك الغضب والتحمل ، ولكنني على مثل اليقين من ان هذه هي خير خطة استطيع ان اواصل انتهاجها معك . انا احبك جدا يفوق قدرتي على التعبير ، ولكنني لن اسف الى درك من العاطفة . وبأبرة البديهة الحاضرة هذه سوف ابقىك بعيدا عن شفا الهاوية ايضا . ليس هذا فحسب ، بل سوف احافظ ، بعونها اللاذع ، على تلك المسافة التي تفصل ما بيني وبينك والتي تفضي اكثر من ايما شيء اخر الى خيرنا الحقيقي المتبادل » .

ورحت امعن في اثارته اكثر فأكثر حتى لقد غلب عليه الانفعال . حتى اذا انسحب في حلق بالغ ، الى اقصى الحجرة نهضت انا قائلة ، بطريقتي الطبيعية المألوفة الراشحة بالاحترام : « اتمنى لك ليلة طيبة ، يا سيدي » ، وانسللت من الجدار الجانبي ، وانصرفت .

وطوال فترة الاختبار اصطنعت هذا النظام الذي دشنته على ذلك النحو ، ولقد وفقت في اصطناعه اقصى ما يكون التوفيق . وليس من ريب في ان ذلك جعله دائم الغضب والنكد ولكنني استطعت ان ارى ، على الجملة ، انه قد اتاح له تسليية ممتازة ، واني لو تكشفته له عن اذعان كأذعان الحمل وحساسية كحساسية اليمامة اذن لارضيت عقله وذوقه - برغم تعريزي لنزغته الاستبدادية - ارضاء اقل .

اما في حضرة الاخرين فكنت التزم ، جريا على مألوف عادتي ، جانب الاحترام والسكون . واذا لم تكن ثمة حاجة الى انتهاج ايما مسلك اخر فآني لم اعمد الى معارضته وضايقته الا في احاديثنا المسائية . ولقد واصل دعوتي الى الاجتماع به كلما دوت الساعة السابعة من كل ليلة ، برغم انه لم يعد يتلقاني الان بضروب الالفاظ المعسولة من مثل « حبيبتي » و « منية نفسي » ، وبرغم ان خير الكلمات التي امسى يضعها تحت تصرفي هي - « دمية مستفزة »

و « عفريتة خبيثة » ، و « جنية » ، و « بلهاء » الخ . وبدلا من الملاحظات  
 اصبحت لا احدى منه بغير التجهم . ليس هذا فحسب بل لقد حلت القرصة  
 في الذراع محل الضغط على اليد ، وفركة الاذن الموجعة مخيل القبلة على  
 الخد . وكان كل ذلك حسنا ، فقد آثرت هذه المنز الضارية ، في تلك الفترة  
 بالذات ، على اياما بادرة من بوارد الرقة والتلطف ، ايثارا لا لبس فيه .  
 واقرتني مسز فيرفاكس ، كما لاحظت ، على هذا النهج : لقد تبدد قلقها  
 علي ، ومن هنا ثبت لدي اني تصرفت تصرفا حكيما . وفي غضون ذلك اكد  
 لي مستر روتشيستر اني ابليته فلم يبق منه غير الجلد والعظم ، وتهددني  
 بأن ينتقم لنفسه من سلوكي الحالي انتقاما رهيبا في مستقبل قريب .  
 فضحكت في سري من تهديداته تلك ، وقلت في ذات نفسي : « في استطاعتي  
 ان اواصل كبحك ، الان ، كبعا معقولا ، ولست اشك في اني قادرة على مثل  
 ذلك في ما بعد . واذا ما فقدت احدى الوسائل فاعليتها تعين علي ان استنبط  
 سيلة اخرى » .

ومع ذلك فان مهمتي لم تكن بالمهمة اليسيرة . وما اكثر ما ناقت نفسي  
 الى ارضائه بدلا من اغاظته . ذلك بأن زوجي المقبل كان قد اصبح عندي هو  
 العالم كله ، بل اكثر من العالم : كان قد اصبح املني في الجنة او يكاد . لقد  
 حال ما بيني وبين اياما تفكير في الدين كما يحول الكسوف بين الانسان وبين  
 الشمس في وضوح النهار . لقد تعذر علي ، في تلك الايام ، ان ارى الله  
 بسبب من مخلوقه ، هذا المخلوق الذي كنت قد جعلت منه معبودا .

## ٢٥

كان شهر الغزل قد تقضى ، وكانت ساعاته الاخيرة قد امست  
 معدودة . ولم يحدث اياما ارجاء لليوم الذي كان يفد الخطي - يوم الزفاف .  
 وكانت جميع الاستعدادات لاستقباله قد اكملت . ولم يكن بقي علي انا ، على  
 الاقل ، ما اصنعه : كانت حقائبي قد ملئت ، واقلعت ، وشدّت بالعجال ،  
 ورُصفت في محاذاة جدار حجرتي الصغيرة . وغدا ، في مثل هذا الوقت ،  
 سوف تكون في طريقها الى لندن ، وكذلك ساكون انا ( اذا شاء الله لي هذا ) ،  
 او على الاصح ستكون جين روتشيستر ، وهي شخص لم يكن قد قُدّر لي  
 بعد ان اعرفه . ولم يبق غير تعليق البطاقات ، التي تحمل عنواني ، على  
 الحقائب ، وكانت ملقاة هناك ، مجرد مربعات صغيرة اربعة ، في الدرج .  
 كان مستر روتشيستر قد خط بنفسه العنوان ، « مسز روتشيستر ،  
 فندق ٠٠٠ ، لندن » على كل منها ، ولقد عجزت عن اقناع نفسي بتثبيتها  
 على الحقائب ، او بتكليف احد بتثبيتها . مسز فيرفاكس ! انها لم توجد  
 بعد ، انها لن تولد الا في غد ، حوالي الساعة الثامنة صباحا ، واني لاؤثر ان  
 انتظر واستيقن من انها قد وُلدت حية قبل ان احول اليها هذه الملكية كلها .  
 بحسبي ان الفساتين التي في الخزانة المواجهة لمنضدة زينتني ، والتي يقال

انها ملك لها ، قد حلت محل فستاني الاسود وقبعتي القشيمة اللذين كنت ارتديهما في لوود ، لان بذلة العرس تلك ، وهذا الفستان اللؤلؤي اللون ، وذاك الخمار الوهمي ، المتدلّية من المشجب المقتضب لم تكن لي انا . لقد اوصدت الخزانة لاحجب ما اشتملت عليه من جهاز طيفي غريب انبعث منه في هذه الساعة المسائية - الساعة التاسعة - عبر قتام حجرتي ، وميض شبحي الى ابعد الحدود . وقلت : « سوف ادعك وشأنك ، ايها الحلم الابيض . ان الحمى لتعصف بي . واني لاسمع الريح تهب ، ولسوف امضي الى خارج الغرفة لكي استمتع بشيء من الهواء الطلق » .

ولم تكن زحمة الاستعداد لיום الزفاف هي وحدها التي اوقعت الحمى في اوصالي ، لا ، ولم يكن ترقب التغير الكبير - هذه الحياة الجديدة التي كان من المفروض ان تستهل غدا - هو الذي اوقعها . كان لكل من هذين الحدين اثره ، من غير ريب ، في خلق هذا المزاج القلق المهتاج الذي دفع بي في تلك الساعة المتأخرة الى حديقة القصر المحلوكة . ولكن كان ثمة سبب ثالث خلّف في نفسي أثرا اعظم من الاثر الذي خلفاه .

كانت قد استحوذت علي فكرة غريبة لاهفة . لقد حدث الليلة البارحة شيء لم اهتمد الى فهمه ، شيء لم يعلم به او يره احد غيري ! كان مستر روتشيستر قد غادر القصر الليلة البارحة ، ولم يكن قد عاد بعد . لقد قصد الى ملك له صغير يتألف من مزرعتين او ثلاث على مبعدة ثلاثين ميلا ، لقضاء بعض الاعمال التي حتمت ذهابه لتسويتها بنفسه قبيل مغادرته المتوقعة لانكلترا . وكنت الان انتظر عودته لابته مكنون صدري ولا لتمس عنده حلّ الاحجية التي حيرتني . ولكن يحسن بك ان تنتظر ، ايها القاري ، ريثما يعود ، حتى اذا افضيت اليه بسري شاركته ثقتي .

وشخصت الى الستان تحدوني الى ظلاله تلك الريح التي كانت قد هبت طوال النهار ، من ناحية الجنوب ، شديدة عارمة ولكن من غير ان تحمل ذرة من مطر . وبدلا من ان تخمد مع تقدم الليل بدت وكأنها تزيد من قوة اندفاعها وتعمّق من زئيرها : لقد مالت الاشجار الى ناحية واحدة على نحو موصول ، فهي لا تلتوي البتة نحو الناحية الاخرى ، وهي ما ترد اغصانها الى الوراء الا مرة كل ساعة . . . فقد كان الضغط الذي فرض على رؤوسها المتفرعة ان تنحني نحو الشمال مستمرا لا ينقطع . واندفعت السحب من جهة الى جهة ، متعاقبة في سرعة ، متراكبة طبقة فوق طبقة : ان عين المرء لم تقع على ايما رقعة زرقاء في سماء ذلك اليوم التوموزي .

والواقع اني رحت اعدو مع الريح في شيء من الجبور الضاري ، ملقية بالهموم التي تشغل بالي الى سبيل الهواء العارم الهادر في الفضاء . حتى اذا هبطت المجاز الذي تكتنفه شجرات الغار واجهت حطام شجرة الشهبوط الهندي : كانت الشهبوطة منتصبه هناك ، سوداء مفلوعة ؟ وكان جذعها المنفلق عند منتصفه يلهث فاغر الفم صاحب اللون كالموتى . ان

نصفيهما المشقوقين لم ينفصل احدهما عن الاخر ، لان اصلها الثابت وجذورها  
القوية ابقيتهما غير مشطورين في الجزء الادنى من الشجرة . ولكن وحدة  
الحيوية فيها كانت قد تعطلت ، وكفّ النسغ عن السريان ، وماتت الاغصان  
الكبرى في كل من جانبيها ، وكان خليقا بعواصف الشتاء المقبل ان تصرع  
واحدا من الشقين ، او كليهما ، وتسويه بالارض . ومع ذلك ففي امكان  
المرء ان يلاحظ ان هذين الشقين كانا يشكلان شجرة واحدة . طللا من  
الاطلال ، ولكنه ظلل كامل .

وقلت وكان الفلقين الهائلين كانا مخلوقين حيين قادرين على سماع  
كلماتي : « لقد احسنتما صنعا بتماسكما هذا . انا احسب انه لا يزال  
فيكما - برغم ما يبدو عليكم من امارات التلف والتفجيم والسفع - بقية من  
حياة ، منبثقة من ذلك التلاصق عند جذوركما المخصصة الامينة . انكما لن  
تنعما بعد اليوم بشيء من الورق الاخضر ، ولن تريا بعد اليوم طيورا تبني  
اعشاشها وتنشد اغاني الرعاة على اغصانكما . لقد انقضى عهد الجبور والحب  
بالنسبة اليكما ، ولكنكما لا تعيشان في عزلة موحشة . ان لكل منكما رفيقا  
يحنو عليه في محنته » .

وفيما كنت ارفع بصري اليهما بدا القمر ، لحظة واحدة ، في ذلك الجزء  
من السماء الذي استطعت رؤيته من خلال الشق . كان قرصه احمر داميا ،  
وكان نصف محبوب بالغمام : لقد بدا وكأنه يلقي علي نظرة مشدوهة كنيبة  
ليسارع بعد ذلك فيدفن نفسه من جديد في خضم السحاب العميق . وهذات  
الريح ، لحظة ليس غير ، حول ثورنفيلد ، اما بعيدا هناك فوق الغابات  
والجداول فقد اطلقت عويلا ضاريا كثيبا يوقع الحزن في النفس ، وهكذا  
آثرت الفرار من جديد .

لقد همت على وجهي ههنا وههناك ، خَلَل البستان ، جامعة التفاح  
المتناثر بكثرة على العشب المحيط بجذور الاشجار ، ثم رحت اتسلى بفرز  
الناضج منه عن غير الناضج لاحمل ذلك ، بعد ، الى القصر فاضعه في مخزن  
الاطعمة . ثم اني شخصت الى حجرة المكتبة لاستيقن من ان نار الموقد قد  
اضرمت ، اذ كنت اعلم ان مستر روثنيسستر يؤثر - ولو ان الفصل صيف -  
ان يرى ، لدن عودته ، الى النار تضطرم في الموقد على نحو بهيج . فوجدت  
النار مضربة ، منذ فترة يسيرة ، ومتوهجة توهجا قويا . فادنيت كرسيه ذا  
الذراعين الى زاوية المدفأة ، ثم دفعت المائدة ذات العجلات الى جوارها ،  
واسدلت الستارة ، وطلبت ادخال الشموع الى الحجرة استعدادا لاضائها .  
واستبد بي القلق ، عندما اتممت هذه الترتيبات ، اكثر مما استبد بي في  
اية لحظة سابقة حتى لقد تعذر علي ان الزم مقعدي بل ان ابقي في القصر .  
واعلنت ساعة صغيرة معلقة على جدار الحجرة وساعة الردهة العتيقة ، في  
آن معا ، العاشرة مساء .

وقلت في ذات نفسي : « لشد ما قد تقدم الليل ! لسوف اهبط مسرعة

الى ابواب القصر الخارجية ، فثمة بين الفينة والفينة شيء من ضياء القمر ، وفي ميسوري ان ارى طريقي الى مسافة صالحة . ومن يدري فلعله ان يكون قادما الان ، وان في لقائه لما يوفر علي بضع دقائق من الترقب والقلق » .

وزارت الريح زثيرا داويا في الشجرات الضخام التي ظلمت الابواب الخارجية . ولكن الطريق كانت ، بقدر ما استطعت ان ارى ، ساكنة موحشة ، من ناحية اليمين ومن ناحية الشمال على حد سواء . ولولا ظلال السحب التي عبرتها بين حين واخر ، كلما اطل القمر عليها ، لكنت مجرد خط طويل شاحب لا تضطرب فيه ذرة متحركة .

وترقرقت في عيني ، وانا ارى الى الطريق ، دمعة صيبانية - دمعة خيبة وفروغ صبر . وغلب علي الخجل فكففتها . وتباطأت في السير : كان القمر قد اوصد ابواب حجرته عليه ايصادا كاملا ، واحكم اسدال ستارته المنسوجة من سحائب كثيفة ، وكان الليل قد اظلم ، وكان المطر قد اندفع متطيا متن العاصفة الهوجاء .

« لشد ما اتمنى ان يجيء ! لشد ما اتمنى ان يجيء ! » كذلك هتفت ، وقد استبد بي هاجس سوداوي . . . كنت قد توقعت عودته قبل موعد الشاي ، وها قد هبط الليل الان ، فما الذي عاقه ؟ هل اصابه مكروه ؟ وتذكرت حادثة الليلة البارحة ، فرأيت فيها نذيرا ببلاء قريب . وخشيت ان تكون آمالي من شدة الاشراق بحيث يتعذر تحقيقها . وكنس قد استمتعت ، في الفترة الاخيرة ، بقدر من الهناء ضخم ، حتى لقد خيل الي ان سعادتني قد جاوزت خط هاجرتها وانها لا بد ان تأخذ سبيلها ، الان ، نحو الافول .

وقلت في ذات نفسي : « ومع ذلك ، فليس في ميسوري ان ارجع الى القصر . انا لا استطيع ان اجلس الى جانب المستوقد في حين لا يزال هو في قارعة الطريق ، في مثل هذا الجو البارد العاصف . فلان آتعب ساقني خير لي من ان ارهق قلبي . سوف امضي للقائه » .

وانطلقت مغدّة السير ، ولكنني لم امض الى بعيد . فلم اكد اجتاز ربع ميل حتى سمعت وقع حوافر ، وبصرت بفارس ينهب الارض بجواده ، والى جانبه كلب يعدو . الا بعدا لهواجس الشؤم ! كان ذلك هو ، كان هو من غير ريب ، متطيا صهوة جواده « مسرور » وفي اعقابـه كلبه « بايلوت » . وبصُر بي ، ذلك ان القمر كان قد شق سبيلا ازرق في السماء ، وراح يتقدم فيه ساطعا مؤذنا بوشك هطول المطر . ونزع قبعته وراح يلوح بها حول رأسه . فانطلقت اعدو للقائه .

وهتف ، وهو يبسط لي يده وينحني من على السرج : « هاها ! انك لا تستطيعين العيش لحظة واحدة بدوني . . . هذا شيء واضح . طاي على مقدم حذائي ، ومدي الي يديك الاثنتين : اصعدي ! »

وامثلت امره : كانت البهجة قد جعلتني رشيقة خفيفة الحركة ،

فوثبت واستويت على صهوة الجواد امامه ، فرحب بي بقبلة قلبية وبتسودح مزمو بالانتصار احتملته ما وسعني الاحتمال . ثم انه كبّح جمّاح اعترّاه ذاك ليسألني : « هل حدث ، يا جانيت ، ما دعاك الى الخروج للقائي في مثل هذه الساعة ؟ اتشكين امرا ؟ »

« لا . ولكنني حسبت انك لن تعود ابدا . فلم اطق انتظارك في القصر ، وبخاصة في مثل هذا الجو الماطر العاصف . »

« حقا انه جو ممطر عاصف ! اجل ، وان المياه لتقطر من ثيابك مثل عروس من عرائس البحر . تدهري بمعطفي : ولكنني اظنك محمولة ، يا جين ! ان النار لتتقد في خدك ويدك . وكرة اخرى اسالك : هل تشكين امرا ؟ »

« لا ، انا لا اشكو الان شيئا . انا لم اعد لا خائفة ولا تاعسة . »

« اذن فقد كنت من قبل خائفة وتاعسة ؟ »

« الى حد ما . ولكنني سوف افضي اليك بكل ذلك عما قريب ، يا سيدي . واستطيع القول انك لن تقابل آلامي بغير السخرية مني . »

« سوف اسخر منك ، من صميم قلبي ، عندما ينقضي الغد . اما قبل ذلك فأني لن اجرو على مثل هذا الصنيع ، لان فوزي بغنيمتي لا يزال موضع شك . ولكن اهذا انت ؟ انت التي كنت خلال هذا الشهر الاخير فرّارة مثل الانكليس ، شائكة مثل الوردة البرية ؟ انا لم اكن بقادر على ليلتي امسك بأصبعي من غير ان تدمي ، ومع ذلك فما انا اذا اراني الان اضم بين ذراعي حملا شاردا . لقد شردت من الحظيرة بحثا عن راعيـك ، انيس كذلك يا جين ؟ »

« لقد اردتك ، ولكن لا يأخذك الزهو ! ها نحن قد بلغنا ثورنفيلد ، فدعني اترجل الان . »

وانزلني في المجاز المعبود . حتى اذا اخذ جون جواده لحق بي الى الردهة وسألني ان اسارع لارتداء بعض الملابس الجافة وان اوافيه بعد ذلك الى حجرة المكتبة . ثم انه اوقفني ، عندما تقدمت نحو السلم ، لينتزع مني وعدا بأن لا ابطيء في العودة . والحق اني لم ابطيء ، فما هي غير دقائق خمس حتى دخلت عليه ، فألفيته جالسا الى مائدة العشاء .

« اجلسي وابقى معي ، يا جين . سوف تكون هذه ، اذا شاء الله ذلك ، هي الوجبة قبل الاخيرة التي ستتناولينها في قصر ثورنفيلد حتى نعود اليه بعد فترة طويلة . »

فجلست قربة ، ولكنني قلت له اني لا استطيع ان آكل . فقال : « لماذا يا جين ؟ الان ثمة رحلة تنتظرك ؟ ايسكون التفكير الذهاب الى لندن قد ذهب بشهوتك الى الطعام ؟ »

« انا لا استطيع الليلة ان ارى ، في وضوح ، ما الذي ينتظرني ، يا سيدي . واني اكاد اجهل اي افكار تراودني . ان كل ما في الحياة ليبدو

وهيما في عيني .

« ما عداي . انا شيء مادي . المسييني ! »

« انت يا سيدي اكثر الاشياء شبيحية . انك مجرد حلم . »

فيسط يده ضاحكا وقال وهو يقربها الى عيني : « أهذه حلم ؟ »  
كانت له يد ممتلئة عضلة ذات بأس ، وكانت له ذراع طويلة قوية . فقلت  
وانا اردھا عن وجهي : « اجل ، انها برغم لمسي لها مجرد حلم . هل فرغت  
من عشائك ، يا سيدي ؟ »

« نعم ، يا جين . »

وقرعت الجرس ، واصدرت الامر باخراج الصينية . حتى اذا خلدونا  
الى بعضنا من جديد حركت جمرات النار ، ثم اتخذت مقعدا خفيضا عند  
ركبة سيدي .

وقلت : « لقد اوشك الليل ان ينتصف . »

« اجل ، ولكن تذكرني يا جين : لقد وعدتني بأن تسهري معي طوال  
الليلة السابقة ليوم زفافي . »

« اجل ، لقد وعدتك . ولسوف ابرء بوعدتي ، طوال ساعة او  
ساعتين على الاقل . فليست بي ، الان ، رغبة في الرقاد . »

« هل انجزت ترتيباتك كلها ؟ »

« كلها ، يا سيدي . »

فقال : « وكذلك فعلت أنا بدوري . لقد سويت كل شيء ، ولسوف  
نغادر ثورنفيلد ، غدا ، بعد نصف ساعة من عودتنا من الكنيسة . »

« حسن جدا ، يا سيدي . »

« بأية ابتسامة عجيبة اطلقت هاتين الكلمتين « حسن جدا » يا  
جين ! اي توردد يبدو على كل وجنة من وجنتيك ! واي بريق غريب هذا  
الذي يلتصق في عينيك ! أأنت في حال صحية حسنة ؟ »

« احسب ذلك . »

« تحسبين ! ما بالك ، يا جين ؟ قل لي بماذا تشعرين . »

« لا استطيع ، يا سيدي . ان الكلمات أعجز من ان تصور ما احس  
به . انا اتمنى ان لا تنقضي هذه الساعة التي نحن فيها ، اذ من يدري اي  
قدّر تخبئه لنا الساعة التالية ؟ »

« هذه هي الميلانخوليا ، يا جين . لقد رزحت تحت عبء ثقل من  
الاهتياج او من الاجهاد . »

« وهل تشعر انت ، يا سيدي ، بالهدوء والسعادة ؟ »

« الهدوء ؟ لا . اما السعادة . . . فقد نفذت الى شغاف قلبي  
بالذات . »

وتطلعت اليه لاقرأ امارات الهناءة على وجهه . لقد كان متقدما  
مضرجا بالدم .

وقال : « امنحيني ثقتك ، يا جين . حرّري ذهنك من أي هم يُثقله ،  
بأن تفضي الي به . ما الذي تخافينه ؟ - اتخافين ان اتكشف عن زوج



غير صالح ؟ »

« هذا آخر ما يخطر في بالي . »

« اترهبين هذه الدنيا الجديدة التي تقفين على عتبتها ؟ ... هذه الحياة الجديدة التي تأخذين سبيلك إليها ؟ »

« لا . »

« انت تحيريني ، يا جين . ان سيماءك ونبرتك المثقلة بالجرأة المحزومة لتوقعان في نفسي مزيجا من الارتباك والالام . انا اسألك ايضا . »  
« اذن . فاسمع ، يا سيدي . لقد غادرتَ القصر ، الليلة البارحة ، ليس كذلك ؟ »

« اجل ، غادرته . انا اعلم ذلك ، ولقد ألمعت منذ لحظات الى ان شيئا قد حدث في اثناء غيابتي ... شيئا هو في اغلب الظن غير ذي شأن ، ولكنه اقلقك على كل حال . دعيني اسمعه . اكون مسز فيرفاكس قد قالت لك شيئا ؟ ام انك سمعت الخدم يتحدثون ؟ هل جرح احترامك الذاتي الحساس ؟ »

« لا ، يا سيدي . »

واعلنت الساعة الثانية عشرة . وترشت ريشا اكملت ساعة الحجره الصغيرة دقائقها الفضية ، وساعة الردهة الكبيرة ضرباتها المتذبذبة المبجوحة ، ثم استأنفت الكلام فقلت :

« لقد كنت طوال يوم امس في شغل شاغل سعدت به اعظم السعادة . ذلك بانني لم اكن ، كما يبدو انك تعتقد ، فريسة ايما خوف من الحياة الجديدة الخ . ان ما يداعب نفسي من امل العيش معك هو في ذاته شيء رائع ، لانني احبك . لا ، يا سيدي ، لا تلاطفني الان ... دعني اتحدث غير معتزصة . امس كانت ثقتي عظيمة بالعناية الالهية ، ولقد آمنت بأن الاحداث كانت تتعاون لتحقيق خيري وخيرك . لقد كان يوما رائقا ، اذا كنت تذكر - وكان في سكون الهواء والسماء ما يحول دون انشغال بالي على سلامتك او راحتك في الرحلة التي قمت بها . وبعد تناول الشاي تمشيت فترة قصيرة في المجاز المعبّد ، وانا افكر فيك . لقد رأيتك بعين الخيال على مقربة دائية مني الى حد جعلني لا افتقد وجودك الفعلي الا قليلا . لقد فكرت في الحياة التي تنتظرني - حياتك ، انت يا سيدي - وهي وجود يفوق وجودي سعة وخصبا ، بقدر ما تفوق اعماق البحر الذي يصب فيه الجدول مجرى هذا الجدول الضيق الضحل عمقا وبُعد غور . وعجبت كيف يشبه علماء الاخلاق هذا العالم بالقفز الموحش الكثيب ، ذلك بانه كان منورا في نظري مثل وردة ناضرة . ولم تكد الشمس تجنح للغروب حتى برد الهواء وانتشرت السحب في السماء ، فانقلبت الى القصر . ودعنتي « صوفي » الى الدور الاعلى لارى الى ثوب زفاني وكان قد جيء به منذ فترة يسيرة ليس غير . وتحته ، في العلبة وجدت هديتك - ذلك الخمار الذي

غير صالح ؟ »

- « هذا آخر ما يخطر في بالي . »

- « اترهين هذه الدنيا الجديدة التي تقفين على عتبتها ؟ ... هذه الحياة الجديدة التي تأخذين سبيلك إليها ؟ »

- « لا . »

- « انت تحيرينني ، يا جين . ان سيماءك ونبرتك المثقلة بالجرأة المحزومة لتوقعان في نفسي مزيجاً من الارتباك والالام . انا اسألك ايضاحاً . »

- اذن . فاسمع ، يا سيدي . لقد غادرتَ القصر ، الديلة البارحة ، أليس كذلك ؟ »

- « اجل ، غادرتَه . انا اعلم ذلك ، ولقد ألمعت منذ لحظات الى ان شيئاً قد حدث في اثناء غيبتني . . . شيئاً هو في اغلب الظن غير ذي شأن ، ولكنه اقلقك على كل حال . دعيني اسمعه . اأكون مسرّ فيرفاكس قد قالت لك شيئاً ؟ ام انك سمعت الخدم يتحدثون ؟ هل جرح احترامك الذاتي الحساس ؟ »

- « لا ، يا سيدي . »

واعلنت الساعة الثانية عشرة . وتريث ريشما اكملت ساعة الحجره الصغيرة دقائقها الفضية ، وساعة الردهة الكبيرة ضرباتها المتذبذبة المبحوحة ، ثم استأنفت الكلام فقلت :

- « لقد كنت طوال يوم امس في شغل شاغل سعدت به اعظم السعادة . ذلك بانني لم اكن ، كما يبدو انك تعتقد ، فريسة ايما خسوف من الحياة الجديدة الخ . . ان ما يداعب نفسي من امل العيش معك هو في ذاته شيء رائع ، لانني احبك . لا ، يا سيدي ، لا تلاطفني الان . . . دعني اتحدث غير معتبرضة . امس كانت ثقتي عظيمة بالعناية الالهية ، ولقد آمنت بأن الاحداث كانت تتعاون لتحقيق خيرتي وخيرك . لقد كان يوماً رائعاً ، اذا كنت تذكر - وكان في سكون الهواء والسماء ما يحول دون انشغال بالي على سلامتك او راحتك في الرحلة التي قمت بها . وبعد تناول الشاي تمشيت فترة قصيرة في المجاز المعبد ، وانا افكر فيك . لقد رأيتك بعين الخيال على مقربة دانية مني الى حد جعلني لا افتقد وجودك الفعلي الا قليلاً . لقد فكرت في الحياة التي تنتظرني - حياتك ، انت يا سيدي - وهي وجود يفوق وجودي سعة وخصباً ، بقدر ما تفوق اعماق البحر الذي يصب فيه الجدول مجرى هذا الجدول الضيق الضحل عمقا وبُعْد غور . وعجبت كيف يشبه علماء الاخلاق هذا العالم بالقفز الموحش الكئيب ، ذلك بانه كان منوراً في نظري مثل وردة ناضرة . ولم تكد الشمس تجنح للغروب حتى برد الهواء وانتشرت السحب في السماء ، فانقلبت الى القصر . ودعنتني « صوفي » الى الدور الاعلى لارى الى ثوب زفاقي وكان قد جيء به منذ فترة يسيرة ليس غير . وتحته ، في العلبة وجدت هديتك - ذلك الخمار الذي

اعصابي لكي ادركك ، وبذلت الجهد تلو الجهد للنطق باسمك وللنوسل اليك ان تقف - ولكن حركاتي كانت مغلولة ٠٠٠ ولكن صوتي تلاشى قبل ان يطلق لفظة واحدة . في حين كنت انت - او هكذا احسست - لا تزداد عني ، في كل لحظة ، الا بعدا » .

- « وهل لا تزال هذه الاحلام تنكد عيشك الان ، يا جين ، وانا على مقربة دانية منك ؟ يا لك من مخلوقة عصبية صغيرة ! تناسي هذا البلاء الوهمي ولا تفكري الا بالسعادة الواقعية . انت ترعمين انك تحبينني ، يا جانيت : اجل ، انا لا استطيع ان انسى هذا ، وليس في استطاعتك انت ان تنكريه . ان هذه الكلمات لم تمت ، غير ملفوظة ، على شفقتك . لقد سمعتها واضحة ، رقيقة : وقد تكون الفكرة مهية اكثر مما ينبغي ، ولكنها عذبة كال موسيقى - « اعتقد ان ما يداعب نفسي من اهل العيش معك ، يا ادورد ، هو في ذاته شيء رائع ، لاني احبك » هل تحبينني ، يا جين ؟ اسمعيني هذه الكلمة ككرة اخرى .  
- « اجل ، احبك ، يا سيدي ، احبك بكل قلبي » .

وبعد صمت استمر بضع دقائق قال : « حسنا ، هذا غريب ، ولكن تلك الجملة نفذت الى صدري على نحو موجه . لماذا ؟ لانك ، في ما احسب ، قلتها في حرارة صادقة ٠٠٠ حرارة تكاد تكون دينية ، ولان نظرتك الان الي هي الايمان والصدق والولاء في اسمي معانيها . وهذا فوق ما اطيع : لكأن في جانبي روحا من الارواح لا بشرا من البشر . الا فانظري الي نظرة مأكرة ، يا جين ، وهو شيء تقنيته احسن اتقان . افترني عن ابتسامة من ابتساماتك الغريبة ، الحية ، المثيرة . فولي لي انك تبغضيني - ناكديني ، اغيظيني : افعلي ايما شيء شرط ان تثيريني ، فلأن استشعر الحق خير لي من ان استشعر الحزن » .

- « سوف اناكدك واغيظك ما طابت لك المناكدة والاغظة ، عندما اتم قصتي . ولكن استمع الي حتى النهاية » .

- « لقد حسبت ، يا جين ، انك قلت كل ما ترغبين في قوله . لقد حسبت اني اكتشفت مصدر كتابتك في حلم من الاحلام » .  
فهزرت برأسي ، فقال : « ماذا ؟ الا يزال لديك ما تضيفينه ؟ ولكني لن اعتقد انه ذو بال . انا انبهك ، سلفا ، الى اني غير مستعد للتصديق . تابعي » .

وادهمشني ما بدا على محياه من اضطراب ، ومن نفاد صبر مشوب بالخشية . ولكنني مضيت في حديثي قائلة :

- « لقد رأيت حلما اخر ، يا سيدي . حلمت ان قصر ثورفيلد قد استحال طللا موحشا اوت اليه الخفافيش والبوم . وتراى لي انه لم يبق من واجهته الفخمة غير جدار هيكلتي الشكل ، عال جدا ، هش جدا . وهمت على وجهي ، في ليلة مقمرة ، خلال الاعشاب التي نبتت ضمن نطاقه ، فكنت اتعثر ههنا بموقد رخامي ، واتعثر ههناك بقطعة ساقطة من افريز . كنت متلفعة

بشال، وكنت لا ازال احمل الطفل الصغير المجهول . لقد ابنت ان القبه في ايما مكان ، برغم كل ذلك الكلال الذي استبد بذراعي . ولقد تعين علي الاحتفاظ به علي الرغم من ان ثقله كان يعوق تقدمي الى حد بعيد . وعلى مسافة ما ، سمعت جوادا يخب على الطريق ، وكنت على مثل اليقين من انك كنت انت الفارس الممتطي صهوته : كنت مرتحلا الى بلد قصي لن ترجع منه الا بعد سنوات عديدة . فتسلقت الجدار الرقيق في عجلة مسعورة مخاطرة ، وكلني شوق الى ان المحك ، من قمته ، ولو مجرد ملح . وتدرجت الحجارة من تحت قدمي ، وانقصفت اغصان اللباب التي تشبثت بها ، وطوق الطفل عنقي بذراعيه ، في ذعر ، حتى لكاد يخنقني . واخيرا بلغت قمة الجدار ، فرأيتك اشبه شيء بذرة في طريق بيضاء ، ذرة تتضاءل لحظة بعد لحظة . وعصفت الريح عصفًا شديدًا لم اطق عليه صبرا . فقعدت على القمة الضيقة . ووضعتم الطفل المذعور في حجري ورحت اهدى من روعه . واستدرت عند منعطف من منعطفات الطريق ، فأنحيت الى امام لكي القي عليك نظرة اخيرة . وفي هذه اللحظة انهار الجدار ، فاجفقت ، وهوى الطفل من على ركبتي ، وفقدت توازني ، وسقطت ، وأفقت من نومي .

— « والان ، يا جين ، هذا كل شيء ، اليس كذلك ؟ »

— « هذا ليس الا المقدمة ، يا سيدي . اما القصة فسوف أشرع الان في روايتها : حين افقت من نومي بهر عيني ضياء ، خيل اليّ معه ان الشمس قد طلعت . ولكنني كنت مخطئة : ان ذلك الضياء لم يكن غير ضوء شمعة . وحسبت ان « صوفي » قد دخلت علي . كان ثمة شمعة على منضدة الزينة ، وكان باب الخزانة ، حيث كنت قد علقت قبل ذهابي الى الفراش ثوب زقافي وخماري ، مُشرعا . وسمعت ثمة حفيفا . فسألت : « صوفي ، ما الذي تفعلينه ؟ » فلم يجبني احد . ولكن شبحا ما لبث ان انبثق من الخزانة ، فتناول الشمعة ، ورفعها عاليا وراح يتأمل الملابس المتدلية من المشجب . وصحت كرة اخرى : « صوفي ! صوفي ! » ومع ذلك ، لم اسمع رجع جواب . وكنت قد نهضت من فراشي ، فأنحيت الى امام : لقد استبد بي باديء الامر دهش ، ثم حيرة ، وبعد ذلك جرى الدم باردا في عروقي . ان ذلك الشبح ، يا مستر روتشيستر ، لم يكن صوفي ، ولم يكن « ليا » ، ولم يكن مسز فيرفاكس ، بل انه لم يكن — لا ، لقد كنت واثقة من ذلك ، ولا ازال واثقة — حتى تلك المرأة العجيبة ، غرايس بول .

فقاطعني سيدي : « يجب ان يكون واحدة منهم » .

— « لا ، يا سيدي ، اؤكد لك ، في صدق واخلاص ، انه لم يكن واحدة منهم . ان الشخص الذي رأيته منتصبا امامي كان مخلوقا لم تقع عليه عينا قط من قبل ضمن نطاق قصر ثورنفيلد . كان طوله وشكله العام غريبين علي » .

— « صفيه لي ، يا جين » .

— « لقد بدا ، يا سيدي ، امرأة ، فارعة الطول ، ضخمة الجسم ، ذات

شعر ابيض قاتم تتدلى غدائره طويلة على ظهرها . ولست ادري ماذا كانت تلبس : كان شينا ابيض مستقيما ، ولكني لا استطيع القول هل كان ثوبا ام شرشفا ام كفنا .

« هل رأيت وجهها ؟ »

« انا لم اره بادى الامر . ولكنها سرعان ما تناولت خُماري من موضعه ، ورفعته عاليا ، وحدقت اليه طويلا ، ثم طرحته على رأسها هي واستندارت الى المرأة . وفي تلك اللحظة رأيت منعكس الوجه والاسارير ، في وضوح كامل ، على المرأة المستطيلة المظلمة . »

« وكيف كانت ؟ »

« رهيبة ومروعة - اوه ، يا سيدي ، انا لم أر في حياتي وجها مثل ذلك الوجه ! كان وجها متغير اللون ... وجها وحشيا . لشدة ما اتمنى لو انسى دوران تينك العينين الحمرابين في محجريهما ، وانتفاخ تلك الملامح الرهيبة المكفهرة . »

« الاشباح شاحبة ، عادة ، يا جين . »

« ولكن هذا الشبح ، يا سيدي ، كان ارجوانيا : كانت شفاته متورمتين داكنتين ، وكان جبينه متفطنا ، وكان حاجباه الاسودان مرفوعين رفعا مسرفا فوق العينين المحترقتين . أقول لك بأي شيء ذكرتني هذه المرأة ؟ »

« في امكانك ان تقولي . »

« بالشبح الالماني الشرير ... بالشبح المصاص لدماء النيام . »

« آه ... وماذا فعلت بعد ذلك ؟ »

« لقد نزعت خماري عن رأسها الرهيب ، ومزقته قطعتين ، ثم طرحت كلتا القطعتين على الارض وداست عليهما . »

« وبعد ذلك ؟ »

« لقد ازاحت ستارة النافذة واطلت منها : لعلها رأت الضحي يرتفع ، ذلك بأنها سرعان ما حملت الشمعة وانكفأت الى الباب . ثم انها وقفت عند سريري وانشأت تحديق الي بعينيها الناريتين ... لقد دفعت شمعتها نحو وجهي ، واطفأتها تحت عيني . واحسست بوجهها المتوهج يتأجج فوق وجهي ، وغبت عن الوعي : للمرة الثانية في حياتي - للمرة الثانية فحسب - اغمي علي من شدة الذعر . »

« ومن كان الى جانبك عندما ثبت الى رشذك ؟ »

« لا احد ، يا سيدي ، غير وضع النهار . لقد نهضت ، وغسلت رأسي ووجهي بالماء ، ثم شربت جرعة طويلة ، واستشعرت اني لم اكن ، برغم وهن قواي ، مريضة ، ووطنت النية علي ان لا افضي بنبا ذلك الى احد غيرك . »

والان ، يا سيدي ، قل لي من كانت تلك المرأة ؟

« مخلوقة من مخلوقات عقلك المستثار اكثر مما ينبغي ، ذلك امر لا ريب فيه . ان علي ان اكون لطيفا بك ، يا كنزي . ان اعصابك المرهفة لم

تخلق للمعاملة الخسنة . »

« صدقني يا سيدي اذا قلت لك ان اعصابي لم تكن ملومة . كانت المخلوقة حقيقية ، ولقد حدثت المسألة فعلا . »

« واحلامك السابقة ، هل كانت حقيقية ايضا ؟ هل استحبال قصر ثورنفلد الى طفل ؟ هل فصلتني عنك عقابٌ لا سبيل الى قهرها ؟ تستطيعين القول اني فارقتك من غير دمة ٠٠٠ من غير قبلة ٠٠٠ من غير كلمة ؟ »  
« ان هذا لما يحدث بعد . »

« وهل ترينني على وشك ان افعل ذلك ؟ كيف ، وها هو ذا اليوم الذي سيجمع ما بين روحينا الى الابد قد اطل علينا فعلا ؟ وما ان تتحد روحانا حتى تزايلك هذه المخاوف الذهنية : انا زعيم لك بذلك . »

« مخاوف ذهنية ، يا سيدي ! لشد ما اتمني لو استطيع الاعتقاد انها لم تكن الا مخاوف ذهنية . اني لاتمني ذلك الان ، اكثر من اي وقت اخر ، ما دمت حتى انت نفسك عاجزا عن حل لغز تلك الزائرة الرهيبة . »  
« وما دمت انا نفسي عاجزا عن ذلك ، يا جين ، فلا بد ان تلك الزائرة كانت زائرة وهمية . »

« ولكني لم اكد اقول ذلك في ما بيني وبين نفسي عندما نهضت من فراشي هذا الصباح ، يا سيدي ، ولم اكد اجيل طرفي في الحجرة لكي استمد من مشهد الاشياء البهيج في وضع النهار شجاعة وعزاء حتى رأيت هناك ، هناك على السجادة ، ما جعل من افتراضي مجرد كذبة بلقاء : لقد رأيت الخمار وقد شطر ، من اعلى الى ادنى ، شطرين اثنين ! »

وبصرت بمستر روتشيستر يجفل ويرتعد . ثم انه سارع الى تطويقي بذراعيه وهتف : « اذا صح ان شيئا خبيثا فد الم بك الليلة البارحة فاحمدي الله على ان الخمار هو وحده الذي اصيب بأذى . اوه ، لشد ما يروغني مجرد التفكير في ما كان يمكن ان يحدث ! »

وانشأ يلهث ، وضمني اليه في قوة جعلتني لا اكاد اقوى على اللهاث . وبعد صمت استمر بضع دقائق ، اردف في بشر :

« والان ، يا جين ، سوف اشرح لك كل شيء . لقد كان ما رأيته مزاجا من الحلم والحقيقة . فليس من ريب في ان امرأة قد دخلت غرفتك ، وان تلك المرأة كانت - بل يجب ان تكون - غرايس بول . لقد قلست انت نفسك انها مخلوقة عجيبة ، وان لك ، على ضوء كل ما تعرفينه عنها ، لحقاً في ان تصنيفها بهذا الوصف . اذكركين ما صنعتي بي ؟ ما صنعتي بمايسون ؟ لقد لاحظت دخولها واعمالها وانت في حال وسط بين النوم واليقظة . ولكنك ، عزوت اليها - وقد عصفت بك الحمى واخذت اوكدت في الهذيان - مظهرا عفريتيا غير مظهرها الحقيقي : ان الشعر الطويل المنفوش ، والوجه الاسود المنتفخ ، والقامة المغالى فيها ليست غير تلفيق من تلفيق الخيال ، وثمرة من ثمرات الكابوس . اما تمزيق الخمار تمزيقا حقودا فكان حقيقيا . »

وهو يتفق ومزاجها وطريقتها . انا ارى انك لتتساءلين لماذا ابقى على مثل هذه المرأة في بيتي ، الا فاعلمي اني سوف افضي اليك بالسبب بعد ان ينقضي على زواجنا عام ويوم واحد ، ولكن ليس الان . ايقنك هذا ، يا جين ؟ هل تقبلين حلتي للغز ؟

وفكرت مليا ، فبدأ لي في الحق ، ان تفسيره ذاك هو التفسير الوحيد الممكن . انا لم اقتنع ، ولكنني حاولت التظاهر بذلك لكي ارضيه . وليس من ريب في ان كلامه كان قد سرى عن نفسي ، وهكذا اجبته بابتسامة راضية . واذ كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة منذ فترة غير يسيرة فقد اخذت الالهة لمفارقتها .

فسألني وانا اشعل شمعتي : « اتنام صوفي مع آديل في حجرة الاطفال ؟ »

« نعم ، يا سيدي » .

« وان في سرير آديل الصغير لمتسعا لك . يتعين عليك ان تشاطريها اياه ، هذه الليلة ، يا جين . ذلك بان الحادثة التي رويتها لي خليك بها ان تشير اعصابك ، واني لأؤثر ان لا تنامي وحدك . عديني بان تنامي في حجرة الاطفال . »

« ان ذلك ليسعدني كثيرا ، يا سيدي » .

« احكمي ايصاد الباب من داخل . وايقظي صوفي عندما تصعدين بحجة انك تريدان ان تكلفيها ايقاظك في ساعة مبكرة من صباح غد ، ذلك بان عليك ان تفرغي من ارتداء ملابسك وتناول فطورك قبل الساعة الثامنة . والان ، اطردني الافكار القاتمة ، وطاردي الهموم الكثيبة ، يا جانيت . الا ترين كيف هدأت الريح واستحال زفيرها الى وشوشات ناعمة ؟ الا تلاحظين ان حبات المطر كفتت عن النقر على زجاج النافذة ؟ ( وهنا رفع الستارة ) يا له من ليل رائع ! »

والواقع انه كان ليلا رائعا . كان نصف السماء صافيا لا تشوبه شائبة : كانت السحب ، وقد احتشدت الان امام الريح التي اخذت تهب من ناحية الغرب ، قد انكفأت نحو الشرق في صفوف طويلة مفضضة . وكان القمر يسفح النور في طمانينة .

وقال مستر روتشيستر وهو يحدق الى عيني على نحو استطلاعي : « وكيف حال جانيتي الحلوة الان ؟ »

« الليل رائع ، يا سيدي ، وكذلك انا » .

« ولن تحلمي ، الليلة ، احلاما كلها فراق واسى . بل ستحلمين بالحب السعيد وبالزواج الهنيء » .

ولقد تحققت هذه النبوءة نصف تحقق ليس غير . صحيح اني لم احلم بالاسى ، ولكنني لم احلم بالهجة ايضا ، ذلك بان جفني لم يعرف الغمض قط . لقد طوقت آديل الصغيرة بذراعي واخذت اتأمل نوم الطفولة - نوم الطفولة

الساجي ، الرصين ، البريء - وارتقب انبلاج الصباح . كانت حياتي كلها يقضي مضطربة في كياني ، فما ان نهضت الشمس بازغة حتى نهضت انا ايضا . واذكر ان آديل تشبثت بي عندما فارقتها ، واني قبلتها وانا اقصي يديها الصغيرتين عن عنقي . لقد ملئت عليها وانشأت ابكي في انفعال عجيب ، ثم فارقتها خشية ان تعكر تنهداتي صفو رقادها العميق . لقد بدت في عيني رمزا لحياتي السالفة ، اما هو - من كان علي الان ان ارتدي ملابسني للقاءه - فقد بدا في عيني وكأنه النموذج المخوف ، ولكن المحبوب ، لايامي القادمة المجهولة .

## ٢٦

وفي الساعة السابعة اقبلت « صوفي » لتساعدني في ارتداء ملابسني والحق انها كانت بطيئة جدا في اداء مهمتها ، بطيئة الى درجة دعت مستر روتشيستر ، بعد ان ضاق ذرعا بتأخري ، الى ارسال من يسأل عن السري في عدم مجيئي . وكانت قد شرعت تثبت خماري ( تلك الرقعة الحبرية البسيطة المربعة ، على اية حال ) الى شعري بواسطة دبوس نفيس ، فما كان مني الا ان انسللت من بين يديها حالما وفقت الى ذلك .

فصاحت بالفرنسية : « قفي ! انظري الى صورتك في المرأة ، فأنت لم تلقي ولو نظرة واحدة مختلصة ، على نفسك » .

فعدت ادراجي ، وكنت قد انتهيت الى الباب ، فرأيت في المرأة مخلوقة مرتدية ثوب عرس وخمارا ، مخلوقة لا شبه بيني وبينها البتة . حتى لقد خيل الي انها تكاد ان تكون صورة امرأة غريبة . وناداني صوت : « جين ! » فرحت اهبط السلم على عجل ، ليتلقاني مستر روتشيستر عند درجاتها الدنيا ، قائلا : « ايها الملكة ، ان دماغي ليغلي على نار من نفاد الصبر ومع ذلك فانت تتباطئين كل هذا التباطؤ ! »

وقادني الى حجرة الطعام ، وانشأ يتأملني ، في انتباه بالغ ، من قمة رأسي الى اخص قدمي ليعلم بعد ذلك اني كنت « جميلة مثل زنبقة » واني لم اكن « فخر حياتي فحسب ، بل مشتهى عينيه ايضا » . ثم قال لي انه سوف يمنحني عشر دقائق ليس غير اتناول خلالها شيئا من طعام ، وسارع الى دق الجرس فلبث نادل من اولئك الخدم الذين كان قد استأجرهم في الفترة الاخيرة .

- « أبعد جون العربية ؟ »

- « نعم ، يا سيدي » .

- « وهل أنزلت الحقائب ؟ »

- « انهم ينزلونها ، يا سيدي » .

- « امض الى الكنيسة لترى ما اذا كان مستر وود ( الكاهن )

والقندلفت هناك . ثم ارجع واخبرني » .



وكانت الكنيسة ، كما يعلم القارىء ، تقوم على بضع خطوات من ابواب القصر الخارجية . فما هي غير دقائق حتى رجع النادل وقال : ان مستر وود في غرفة الملابس ، يا سيدي ، يرتدي حلته الكهنوتية البيضاء .  
- « والعربة ؟ »

- « انهم يُسرجون جيادها » .

- « نحن لن نحتاج اليها في ذهابنا الى الكنيسة ، ولكنها يجب ان تكون جاهزة لحظة نعود : يجب ان تكون جميع الصناديق والحقائب قد نُضِّدَت وشُدَّت بالسيور ، وان يكون الحوذي في مقعده » .

- « سمعا وطاعة ، يا سيدي » .

- « جين ، امستعدة انت ؟ »

فنهضت . لم يكن ثمة لا اشابين ولا اشبينات ، ولا انسباء يجب ان يُنتظروا او ينظموا في صفوف . اجل ، لم يكن ثمة غير مستر روتشيستر وغيري . ولقد وقفت مسز فيرفاكس في الردهة عندما اجتزناهما . وكان خليقا بي ان اسعد بالتحدث اليها ، ولكن قبضة من حديد كانت تضغط على يدي : لقد اكرهت على الاسراع بسبب من خطوات روتشيستر الواسعة التي لم اوفق الى مسايرتها الا بشق النفس ، وكان في النظر الى وجه مستر روتشيستر ما يُشعرني بأنه لن يتسامح بالتأخر ولو ثانية واحدة ايا ما كان السبب . وتساءلت بيني وبين نفسي : هل قدّر لايماء عروس اخر ان يبدو كما بدا هو : مشدودا بكل هذا الاحكام الى غرض ما ، عازما على تحقيقه بكل هذا العبوس والتقطيب ، او هل قدّر لايماء عروس اخر ان يتكشف ، تحت مثل هذين الحاجبين الراسخين ، عن مثل هاتين العينين الملتهبتين المومضتين ؟

ولم ادر هل كان جو ذلك اليوم جميلا ام رديئا . ولم انظر ، فيما نحن نهبط طريق المركبات ، لا الى السماء ولا الى الارض : كان قلبي في عيني ، ولقد بدا وكأنهما كليهما كانا قد هاجرا الى شخص مستر روتشيستر . كنت اريد ان ارى ذلك الشيء غير المنظور الذي بدا وكأن عروسي كان يحدث اليه ، طوال الطريق ، تحديقا ضاريا قاسيا . كنت اريد ان المس تلك الافكار التي بدا وكأنه كان يكافح سلطانها ويقاومه .

حتى اذا بلغنا بواب كنيسة كف عن السير : لقد اكتشف اني كنت الهت لهاثا موصولا ، فقال : « أنا وحشي في حبي ؟ تمهلي لحظة : استندي الى جسمي ، يا جين » .

والان استطيع ان اتذكر صورة بيت الله العتيق الرمادي المنتصب امام ناظري في هدوء ودعة ، وصورة غراب اسود يطوّف حول برج الكنيسة ، وسماء صباحية تمتد متوردة خلفه . وانا اذكر ، ايضا ، شيئا من القبور الساذجة الخضراء ، ولما انس حتى الان ذينك الرجلين الغريبيين اللذين هاما على وجهيهما وسط الروابي الصغيرة الخفيضة \* ، وراحا يقرءان الكلمات

التذكارية المنقوشة على الشواهد القليلة المكسوة بالطحلب . وانما وُفقت الى رؤيتهما لانهما ما ان بَصُرَا بنا حتى استدارا متجهين نحو الجزء الخلفي من الكنيسة ، فلم اشك في انهما كانا يعتزمان دخولها من الباب الجانبي ، ويشهدا الحفلة . اما مستر روتشيستر فلم تقع عينه عليهما ، فقد كان ينظر ، في اهتمام بالغ ، الى وجهي الذي خيل الي ان الدم قد غاض منه مؤقتا ، ذلك بأنني استشعرت العرق يتصبب من جبيني ، واستشعرت البرد يتمشي في وجنتي وشفتي . حتى اذا استجمعت قواي ، وهو امرٌ سرعان ما وُفقت اليه ، سار معي سيرا رفيقا حتى مدخل الكنيسة .

ودخلنا الهيكل الوداع المتواضع . كان الكاهن ينتظر في حلتة الكهنوتية البيضاء عند المذبح الوضع ، والقندلفت الى جانبه . وكان كل شيء ساكنا : لقد تحرك شبحان اثنان ، ليس غير ، في زاوية قصية . كان حدسي صحيحا : ذلك بأن الغريبيين انسلا الى الكنيسة قبلنا ، وكانا الان واقفين قرب سرداب آل روتشيستر ، وقد ولانا كل منهما ظهره ، يتأملان عبر القضبان الحديدية ذلك القبر الرخامي العتيق الذي اكل الدهر عليه وشرب ، حيث رُكع ملاك من رخام حارسُ رفات « دامر دو روتشيستر » ، الذي ذبح في « مارستون مور » ايام الحرب الاهلية ورفات اليزابيث ، زوجته .

كنا قد استويننا في المقعد الخاص بمتناولي القربان المقدس . حتى اذا سمعت من ورائي وقع قدم حذرة التفت نصف التفاتة : ان احد الغريبيين - وكان رجلا من غير شك - كان يتقدم نحو المذبح . وبدأت الخدمة الدينية . وانجز شرح الغرض من الزواج . ثم ان الكاهن تقدم خطوة اخرى الى امام ، فانحنى بعض الشيء نحو مستر روتشيستر ، وتابع كلامه :

- « اني اسألكما معا وآمركما معا ( اذ ستكونان مسؤولين عن ذلك في يوم الحساب الرهيب ، يوم يكشف الغطاء عن اسرار القلوب جميعا ) بأن تعترفوا الان بأبما عقبة خليق بها ان تحول دون ارتباطكما شرعيا برباط الزوجية ان كان اي منكما عالما بوجود عقبة كهذه ، اذ يتعين عليكما ان تثقا ثقة كاملة بأن اولئك الذين زوّجوا على غير النحو الذي تفرضه كلمة الله لم يجمع الله ما بينهم ، لا وليس زواجهم شرعيا » .

وتمهل ، تبعا للعادة . وهل قدّر للصمت الذي يعقب تلك الجملة ان يقطع ذات يوم بجواب ؟ لعل ذلك لم يحدث ولو مرة في كل مئة عام . وهكذا كان الكاهن - الذي لم يرفع عينيه عن كتابه والذي لم يجبس انفاسه الا لحظة واحدة - على وشك ان يتابع مهمته ، وكانست يده قد بسطت نحو مستر روتشيستر وشفتاه تنفرجان لتسالا : « هل تقبل هذه المرأة زوجة لك ، ... عندما قال صوت واضح قريب :

- « هذا الزواج لا يمكن ان يتم . انا اعلن ان ثمة عقبة » .

ورفع الكاهن بصره الى المتكلم ، معقود اللسان كالاخرس . وكذلك فعل القندلفت . واتى مستر روتشيستر بحركة يسيرة ، وكان الارض زلزلت

زلزالها تحت قدميه . ثم انه ثبت رجله في موضعهما ، ومن غير ان يدير رأسه او عينيه قال للكاهن : « تابع ! »

حتى اذا نطق بهذه الكلمة في نبرة عميقة خفيضة هيمن على الكنيسة صمت عميق . وسرعان ما قال مستر وود : « انا لا استطيع ان اتابع من غير شيء من التحقيق في ما زعم ، ومن غير ما بينة على صدقه او كذبه » .

فاضاف الصوت من خلفنا : « لقد عطلت حفلة الزواج تعطيلًا كاملاً . واني لفي وضع يمكنني من اقامة الدليل على صحة دعواي : هناك عقبة لا تذلل تحول دون عقد هذا الزواج » .

وسمع مستر روتشيستر هذا الكلام ، ولكنه لم يبال به . لقد ظل حارونا متصلب الاوصال ، ممتنعاً عن القيام بأية حركة ، الا ابتغاء التعلق بيدي . ما كان اقوى قبضته واشدها حرارة ! وما كان اشبه جبينه الشاحب ، الثابت ، الضخم ، في هذه اللحظة ، بقطعة من الرخام مربعة ! وما كان اقوى بريق عينيه ، الساكنتين الحذرتين ، برغم ضراوتهما ، تحت ذلك الجبين !

وبدا وكان الحيرة استبدت بمستر وود . ثم سأل : « ما طبيعة هذه العقبة ؟ لعل في الامكان تذليلها ... او تبريرها ؟ »

فكان الجواب : « لست اعتقد . لقد قلت انها عقبة لا تذلل ، واني لانطق عن علم وحسن اطلاع » .

وتقدم المتكلم الى امام ، وانحنى فوق الدرابزون . ثم تابع حديثه ، لافظا كل كلمة في وضوح ، وهدوء ، وثبات ، ولكن من غير ان يرفع صوته :  
- « انها تتمثل ، في بساطة ، بوجود زواج سابق . ان لمستر روتشيستر زوجة ما تزال على قيد الحياة » .

وارتجت اعصابي لدن سماعي هذه الكلمات المفوطة بصوت خفيض كما لم ترتج قط من قبل لهزيم الرعد ... واستشعر دمي عنفها الماكر كما لم يستشعر قط من قبل صقيعا او نارا ، ولكنني بقيت محتفظة برشدي ، وفي نجوة من خطر الاغماء . ونظرت الى مستر روتشيستر ، وحملته على النظر الي . كان وجهه كله صخرا لا لون له وكانت عيناه شررا وصوانا في آن معا . انه لم ينكر شيئا ولم ينف شيئا ، لقد بدا وكأنه يتحدى كل شيء . ومن غير ان يتكلم ، ومن غير ان يبتسم ، ومن غير ان يبدو وكأنه يرى في كائنة بشرية اجترأ بأن لوى خصري بذراعه ، وسمرني الى جانبه .

وسأل الواغل المتطفل : « من انت ؟ »

- « اسمي بريغز ... محام في شارع ... بلندن » .

- « وتريد أن تنسب الي زوجة ؟ »

- « اني لاذكرك بوجود زوجتك ، التي يعترف بها القانون ان لم تعترف

بها انت » .

- « تكرّم علي ببيان عنها - واذكر اسمها واسمي ابويها والمكان الذي

تقيم فيه » .

- « من غير ريب » . وفي هدوء اخرج مستر بريغز من جيبه ورقة ، وتلا في ضرب من الصوت الرسمي الاخن :

- « اني اؤكد ، وفي استطاعتي ان اقيم الدليل ، على انه في العشرين من تشرين الاول ( اكتوبر ) عام ٠٠٠ للميلاد ( وكان تاريخا يرقى الى ما قبل خمسة عشر عاما ) عَقِدَ قران ادورد فيرفاكس روتشيستر صاحب قصر ثورنيلد في مقاطعة ٠٠٠ ، وصاحب « فيرنديان ماينور » ، في انكلترا ، على شقيقتي ، بيرتا انطوانيتا ، وهي خلاسية ، في كنيسة ٠٠٠ ، سبانيشتاون في جامايكا . ومحضر هذا الزواج محفوظ في سجلات تلك الكنيسة ، ولكن في حوزتي الان نسخة عنه . التوقيع : ريتشارد مايسون . »

- « هذا المحضر - اذا كان صحيحا غير زائف - قد يثبت اني تزوجت ، ولكنه لا يثبت ان المرأة التي ينص على انها زوجتي لا تزال على قيد الحياة » .  
فاجاب المحامي : « لقد كانت على قيد الحياة منذ اشهر ثلاثة » .  
- « كيف عرفت ؟ »

- « ان لدي شاهدا على هذه الواقعة . شاهدا لا تقوى حتى انت ، يا سيدي ، على مجادلته الا قليلا » .

- « قدّمه ٠٠٠ او اذهب الى الجحيم ! »  
- « سوف اقدمه اولا ٠٠ انه معنا ههنا : مستر مايسون ! تفضّل بالتقدم » .

ولم يكد مستر روتشيستر يسمع هذا الاسم حتى كرز على اسنانه ، وحتى عصف به ايضا ضرب قوي من الارتعاد التشنجي . واذ كنت على مقربة دانية منه فقد احسست بحركة الغيظ او اليأس التشنجية تسري في جسده . وهنا ، دنا الغريب الثاني وكان قد لزم ، حتى تلك اللحظة ، الجانب الخلفي من الكنيسة . واطل من فوق منكب المحامي وجه شاحب ٠٠ اجل ، لقد كان هو مايسون نفسه . واستدار مستر روتشيستر وحدق اليه . كانت عيناه ، كما قلت غير مرة ، سوداوين ، ولكنهما كانتا الان صفراوين ضاربتين الى سواد ، بل لقد كان في قتامهما ضياء دام . وشاع الدم في وجهه ، فتلقّى خده الزيتوني وجبينه الشاحب وهجا يخيل الى الناظر انه انبعث من نار فؤاده المنتشرة الصاعدة . وتململ في مكانه ، ورفع ذراعه القوية ٠٠٠ لقد كان في ميسوره ان يصفع مايسون . ان بصره على ارض الكنيسة ٠٠٠ ان يخمد انفاسه بضربة منه لا ترحم ٠٠٠ ولكن مايسون انكمش نائيا بنفسه عنه ، وصاح في صوت واهن : « يا الهي الطيب ! » فرمقه روتشيستر بنظرة ازدراء هدأت معها نفسه ، وخمد انفعاله وكان آفة قد اذبلته ، فأجتزأ بالسؤال :

- « وماذا تريد ان تقول ؟ »

فندّ من شفقتي مايسون البيضاوين جواب خافت لا يُسمع .  
- « فليأخذك الشيطان اذا كنت لا تستطيع الاجابة في وضوح . اني اسألك من جديد : ماذا تريد ان تقول ؟ »

فقاطعه الكاهن : « سيدي ٠٠٠ سيدي ٠٠٠ لا تنس انك في حَرَم مقدس » ثم وجه الخطاب الى مايسون سائلا آياه في تلتطف : « هل تعلم ، يا سيدي ، ما اذا كانت زوجة هذا الرجل الماجد لا تزال على قيد الحياة ام لا ؟ »

فحرضه المحامي قائلا : « تشجّع ! .. اجهرْ بالقول ! »

عندئذ قال مايسون ، في سبرات اكثر ابانة :

– « انها تقيم الان في قصر ثورنفيلد . لقد رأيتها هناك في شهر نيسان ( ابريل ) المنصرم . انا اخوها . »

فصاح الكاهن : « في قصر ثورنفيلد ؟ مستحيل ! انا واحد من المقيمين القدماى في هذا الجوار ، يا سيدي ، ولم اسمع قط من قبسل بامرأة تعرف بمسز روتشيستر في قصر ثورنفيلد . »

فلمحت ابتسامة كالحة تلوي شفة مستر روتشيستر ، وسمعته يفغم :

– « لا ، وحق الاله ! لقد جهدتُ لكي لا يعلم احد بالامر او لكي لا يسمع بها بهذا الاسم . » ثم استغرق في التأمل ٠٠٠ وراح يشاور نفسه طوال عشر دقائق ، واخيرا اتخذ قراره ، واعلنه :

– « كفى ٠٠٠ اصرح بكل شيء دفعة واحدة كما تنطلق الرصاصة من اسطوانة البندقية ٠٠٠ اطوِ كتّابك ، يا وود ، واخلع حلتك الكهنوتية البيضاء . وانت يا جون غرين ( والتفت الى القندلفت ) غادرِ الكنيسة ، فلن يُعقد اليوم اي قران . »  
وامتثل الرجل امره .

عندئذ تابع مستر روتشيستر كلامه في قوة وتهوّر : « ان الزواج من امرأتين تعبير بشع ، ومع ذلك فقد اعتزمت ان اجمع بين زوجتين . ولكن القَدَر احبط خطتي ، بل الراجح ان العناية الالهية صدّتني عن سبيلي . انا لست في هذه اللحظة غير شيطان مريد ، او احسن قليلا . وليس من شك في انني استحق – كما يجدر بكاهني هذا ان يقول لي – اقسى عقاب اعدّه الله للخاطئين ٠٠٠ حتى النار التي لا ينطفئ غليلها والدودة التي لا تموت . ايها السادة ، لقد فسدت خطتي ! ان ما يقوله هذا المحامي وموكله لصحيح . لقد سبق لي ان تزوجت ، وان المرأة التي سبق لي ان تزوجتها لا تزال على قيد الحياة ! انت تقول انك لم تسمع قط من قبل بامرأة تعرف بمسز روتشيستر في ذلك القصر القائم هناك ، يا وود . ولكنني استطيع القول انك كثيرا ما ارهفت اذنك لسماع ما يلغوه الناس عن تلك المجنونة الغامضة المحتجزة هناك تحت الحراسة والحفظ . ولقد همس بعضهم في اذنك قائلا انها اخت لي ، غير شرعية ، من ابي ، وهمس آخرون قائلين انها خلية لي مهجورة . ولكنني اعلمك الان انها زوجتي ، التي تزوجتها منذ خمس عشرة سنة ، واسمها بيرتا مايسون ، وهي اخت هذا الرجل ذي العزم الشديد ٠٠٠ الذي يريك الان ، بأوصاله المرتعدة وخديه اللذين غار منهما الدم ، اي قلب بأسل جريء قد يحمله الرجال بين ضلوعهم . استبشر يا « دك » ٠٠٠ لا توجس خيفة مني

البتة !... فلأن اضرب امرأة خيرٌ عندي من ان اضربك . ان بيرتا مايسون امرأة مجنونة ، وانها لتتحدرد من اسرة مجنونة - اسرة من المعتوهين والمخالطين في عقولهم خلال اجيال ثلاثة . كانت امها - الخلاسية - مجنونة وسكيرة في آن معا !... كما اكتشفت بعد ان تزوجت البنت ، اذ كانوا صامتين عمن اسرار الاسرة من قبل . ولقد طبعت بيرتا - مثل طفلة مطيعة - على غرار امها في هاتين الخصلتين جميعا . لقد كانت لي شريكة حياة فاتنة - شريكة حياة طاهرة ، حكيمة ، محتشمة ، وفي ميسوركم ان تتخليلوا اي رجل سعيد كنت ! لقد تعاقبت علي مشاهد رائعة ! اوه ! لقد كانت تجربتي ، لو علمتم ، تجربة سماوية ! ولكن ليس من واجبي ان اقدم اليكم مزيدا من شرح . بريغز ، وود ، مايسون ، انا ادعوكم كلكم للوفود الى القصر وزيارة مريضة مسز بول ، اعني زوجتي . ولسوف ترون اية مخلوقة هي هذه التي خُدت بالزواج منها ، وتحكمون في ما اذا كان من حقي ان انكث العهد ، وأن التمس المشاركة الوجدانية عند شيء انساني على الاقل . . . ام لا ؟ ان هذه الفتاة ( قال ذلك ونظر الي ) لا تعرف عن السر الكريه اكثر مما تعرفه انت يا وود . لقد حسبت ان كل شيء كان شرعيا خاليا من الشوائب ، ولم تحلم قط انها تقع في شرك زواج مزيف من وغد مغبون مرتبط بشريكة حياة شريرة مجنونة لا تكاد ترتفع عن مستوى البهائم في شيء ! تعالوا كلكم ، اتبعوني ! »

وغادر الكنيسة وهو لا يزال متشبثا بي . وعلى اثرنا مضى الرجال الثلاثة . حتى اذا بلغنا باب القصر الامامي الفينا العربية ، فقال مستر روتشيستر في فتور : « ارجعها الى حظيرة العربات ، يا جون ، فلن يُحتاج اليها اليوم » .

ولحظة دخلنا الردهة هرعت مسز فيرفاكس ، وآديل ، وصوفي ، وليما للقاءنا والترحيب بنا .

فصاح رب القصر : « انصرفوا . . . كلكم ! ابعدوا عني تهنئاتكم ! من الذي يريدنا ؟ - لست انا ، على كل حال ! - لقد جاءت متأخرة اكثر مما ينبغي . . . لقد تأخرت على كل حال ! - لقد جاءت متأخرة اكثر مما ينبغي . . . لقد تأخرت خمس عشرة سنة ! »

وتابع سبيله وارتنقى السلم ، وهو لا يزال متشبثا بيدي ، مشيرا الى الرجال ان يتبعوه ، ففعلوا . وانتهينا الى قمة الجزء الاول من السلم ، ثم اجتزنا الرواق ، وتابعنا الصعود الى الدور الثالث . وفتح مستر روتشيستر ، بمفتاحه الرئيسي ، الباب الخفيض الاسود ، وادخلنا الى الحجرة ذات الجدران المزينة بالقماش المزركش ، وذات السرير الضخم ، والخزانة المحلاة بالرسوم . وقال دليلنا : « انت تعرف هذا المكان ، يا مايسون . لقد عضتك وطعنكت هنا ! »

ورفع الستار عن الجدار كاشفا عن الباب الثاني . ثم انه فتح هذا الباب ايضا . فاذا نحن في حجرة لا نافذة لها . . . حجرة يحيط بموقدها المضطربة

نار'ه' سياج عالٍ قوي ، ويتدلى من سقفها مصباح معلق بسلسلة . كانت غرايس بول منحنية فوق النار ، وكأنها تطهو شيئاً في قدر . وفي الظل العميق ، عند الطرف الأقصى من الحجر ، كان شبح يعدو جيئةً وذهوباً . أي شيء كان ذلك الشبح ، أبهيمية أم مخلوقاً بشرياً ؟ ذلك ما لم يكن في إمكان المرء أن يقطع به لأول وهلة . لقد دب ، في ما بدا لنا ، على الأربع ، وراح ينسب اظفاره ويزمجر مثل حيوان عجيب ضارٍ . ولكنه كان مكسواً ببعض الملابس ، وكان مقدار الشعر الداكن الأشيب ، المنفوش مثل لبدة الاسد ، يخفي رأسه ووجهه .

وقال مستر روتشيستر : « صباح الخير ، يا مسز بول ! كيف حالك ، اليوم ، وحال من عهد اليك في العناية بأمرها ؟ »

فاجابت غرايس : رافعة الطعام الغالي ، في حذر ، الى رف الموقد : « نحن في حال لا بأس بها . انها فظة في الواقع ، ولكنها ليست مسعورة » . وهنا انطلقت صيحة ضارية بدت وكأنها تكذب تقريرها المشجع : لقد نهضت الضبع المكسوّة بالملابس ، ووقفت فارعة الطول على قائمتيها الخلفيتين .

وهتفت غرايس : « آه ، يا سيدي ، انها تراك . ومن الخير لك ان لا تبقى » .

« لن ابقى غير لحظات قليلة ، يا غرايس . ان عيسك ان تمنحيني لحظات قليلة » .

« خذ حذرك اذن ، يا سيدي . اكراما لله ، خذ حذرك ! »

وزمجرت المجنونة : لقد ردّت شعرها الاشعث عن وجهها ، وانشأت تحدّق تحديقاً ضارياً الى وجوه زائريها . والواقع ان ذلك الوجه الارجواني وتلك الملامح المتورمة لم تكن غريبة علي : لقد عرفتها معرفة حسنة . وتقدمت مسز بول .

فقال مستر روتشيستر ، وهو يدفعها جانبا : « ابتعدي من هنا . ان في يدها ، الان ، مديّة ، في ما اظن ؟ واني لمحترس منها » .

« ان المرء لا يعرف ما في يدها البتّة ، يا سيدي . فهي مأكرة الى حد بعيد . وليس في ميسور الفطنة البشرية ان تسبر غور دهاثها » .

فهمس مايسون : « كان من الخير لنا ان نفارقها » .

فجاءته هذه النصيحة من ابن عمه : « اذهب الى الشيطان ! »

وصاحت غرايس : « حذار ! »

فتراجع الرجال الثلاثة في آن معاً . وردّني مستر روتشيستر الى الوراء حاجباً اياي بظهره . ووثبت المجنونة عليه وانشبت اظفارها في عنقه على نحو يرشح بالشر والاثم ، وحاولت ان تعض خده باسنانها . واصطرعاً . كانت امرأة ضخمة يكاد طولها ان يبلغ طول زوجها ، وكانت ممثلة الجسم بدينة . ولقد تكشفت ، في الصراع ، عن قوة كقوة الرجال ، وكادت ان

تخنفه غير مرة ، برغم انه كان رياضيا . كان في ميسوره ان يصرعها بضربة شديدة ، ولكنه ابى ان يضرب : لقد اجتزا بالمصارعة ليس غير . واخيرا وفق الى تثبيت ذراعيها . وناولته غرايس بول حبلا ، فاوثقهما به خلف ظهرها . وبحبل اخر ، كان في متناوله ، اوثقها الى احد الكراسي . وانما تمت هذه العملية وسط اشد الصيحات ضراوة ، واكثر الوثبات تشنجا . وعندئذ التفت مستر روتشيستر الى النظارة : لقد نظر اليهم وعلى شفثيه ابتسامة لاذعة وكثيبة في آن معا ، وقال :

« هذه هي زوجتي . وهذا هو كل ما قدر علي ان اعرفه من عناقها الزوجي . . . . تلك هي ضروب التحجب المفروض فيها ان تحمل الغزاء الى ساعات فراغي ! وهذه هي التي اردتها لنفسني ( ووضع يده على كتفي ) : هذه الشابة التي تقف بكل هذه الرصانة والسكون عند فوهة جهنم ، ناظرة في رباطة جأش الى وثب عفريتة من العفاريت . لقد اردتها طمعا في شيء من التغيير ، ليس غير ، بعد هذا الطبق الحريص الضاري . انظرا ، يا بريغز ويا وود ، الى الفرق ! قارنا ما بين هاتين العينين الصافيتين وهاتين الكرتين الحمراءين هناك . . . . بين هذا الوجه وذلك القناع . . . . بين هذا القوام وتلك الكتلة من اللحم ، ام احكما علي ، يا كاهن الانجيل ويا رجل القانون ، واذكرا انه بالطريقة التي تدينان بها الناس سوف تدانان ! اغربوا من وجهي الان . ان علي ان اوصد الباب على غنيمتي » .

فانسحبنا جميعا . اما مستر روتشيستر فتخلف عنا لحظة ليصدر الى غرايس بول امرا اضافيا . وفيما نحن نهبط السلم وجه المحامي الخطاب الي فقال : « ليس عليك ، يا سيدتي ، ايما لوم البتة ، ولسوف يسعد عمك ان يسمع بهذا الذي حدث - ان يكن ما يزال على قيد الحياة - عندما يرجع مستر مايسون الى ماديرا » .

« عمي ؟ ما الذي تستطيع ان تخبرني عنه ؟ هل تعرفه ؟ »

« مستر مايسون يعرفه ، فقد كان مستر ايبير هو العميل الفونشالي \* لمؤسسته التجارية طوال بضع سنين . وعندما تلقى عمك رسالتك التي اشرت فيها الى ما ازمعت عليه من الزواج بمستر روتشيستر اتفق ان كان مستر مايسون الى جانبه بعد ان لبث اياما في ماديرا ، ابتغاء استعادة صحته المعتلة ، في طريق عودته الى جامايكا . فابلغه مستر ايبير النبا اذ كان يعلم ان موكلي هذا كان على معرفة برجل من آل روتشيستر . فما كان من مايسون ، وقد استبد به الدهش والغم كما تستطيعين ان تفترضي ، الا ان كشف له عن حقيقة الوضع . ان عمك - ويوسفني ان اقول ذلك - ليتقلب الان على فراش مرض ليس من المحتمل ان يشفى منه في ايما يوم من الايام ، بالنظر الى طبيعة الداء - السل - والمرحلة التي انتهى اليها . ولم يكن في استطاعته ،

\* نسبة الى فونشال Funchal ، وهي عاصمة جزائر ماديرا الواقعة على الساحل الشمالي الغربي من افريقية . ( المغرب )



آنذاك ، ان يشد الرحال الى انكلترا بنفسه لكي ينتشلك من الشرك الذي وقعت فيه ، فتوصل الى مستر مايسون ان يعتمد في الحال الى اتخاذ الخطوات الكفيلة بالحيلولة دون الزواج الزائف ، واحاله الي لاساعده على ذلك . فاصطنعت اقصى السرعة الممكنة ، واني احمد الله على اني لم اجيء بعد فوات الاوان ، كما يتعين عليك انت ايضا ، من غير ريب ، ان تحمديه . ولو لم اكن على مثل اليقين من ان عمك سوف يلفظ انفاسه الاخيرة قبل ان تصلي الى ماديرا اذن لنصحتك بمرافقة مستر مايسون عند عودته الى هناك . اما والحال على ما هو عليه فاني اعتقد ان من الخير لك ان تبقي في انكلترا حتى ياتيك من مستر ايبير ، او عنه ، نبأ جديد . ثم انه التفت الى مستر مايسون فسأله : « هل ثمة ايما شيء اخر يدعونا الى البقاء ؟ »

فجاءه الجواب اللاهف : « لا ، لا ، فلنمض لسبيلنا » .

ومن غير ان ينتظرا حتى يستأذنا مستر روتشيستر في الانصراف غادرا القصر من باب الردهة . اما الكاهن فلبث لكي يتبادل بعض عبارات التحذير او التعنيف ، لست ادري ، مع ابن ابرشيته المتكبر . حتى اذا اتم القيام بهذا الواجب غادر هو القصر ايضا .

ورأيت اليه وهو يمضي لسبيله فيما كنت واقفة بباب حجرتي نصف المفتوح ، هذه الحجرة التي كنت قد انسحبت اليها . حتى اذا خلا القصر من الزائرين ، اوصدت الباب على نفسي ، واحكمت اغلاقه بالزلاج حتى لا يتطفل علي احد ثم اخذت - لا في البكاء ، ولا في النحيب ، فقد كنت لا ازال اهدأ من ان اقدم على ذلك - ولكن في نزع ثوب الزفاف ، على نحو آلي ، والاستعاضة عنه بثوبي القماشي المنواضع الذي لبسته في اليوم السابق متوهمة اني افعل ذلك لآخر مرة . ثم اني جلست ، فقد استشعرت اني موهونة متعبّة . واسندت ذراعي الى الطاولة ، فتدلى رأسي عليهما . وانشأت افكر : حتى الان كان كل ما فعلته هو الاستماع ، والنظر ، والتحرك ، والانتقال الى حيث وجدت نفسي مقوودة او مسوقة ، ومراقبة الاحداث تندفع في اثر الاحداث ، والسر ينكشف تلو السر . . . اما الان فاني افكر .

لقد كان ذلك الصباح صباحا هادئا الى حد غير يسير ، اجل ، كان كل ما فيه ، ما خلا الشجار القصير مع المجنونة ، متسما بطابع الهدوء : ان حادثة الكنيسة نفسها لم تكن صاخبة ، فلم يكن ثمة اي انفجار عاطفي ، اية مشاحنة صارخة ، اي نزاع ، اي تحد ، اية دموع ، اي نشيج . لقد قيلت كلمات معدودات ، وقدم اعتراض هادئ على الزواج ، وطرح مستر روتشيستر بضعة اسئلة قصيرة متجهمة ، فقدمت اجوبة وشروح واقسم دليل ، واطلق سيدي اعترافا بالحقيقة صريحا ، وبعد ذلك شوهده البرهان الحي ، ومضى المتطفلون لسبيلهم . . . وقضى الامر !

كنت الان في حجرتي كالعادة - كما انا تماما ، ومن غير ايما تغيير واضح : ان ايما آفة لم تصبني ، أو تؤذني ، أو تشوهني . ومع ذلك فأين كانت

جين ايير الامس ؟ . واين كانت حياتها ؟ . اين كانت آمالها ؟

ان جين ايير التي كانت امرأة متقدمة النشاط بعيدة مرامي الامل - والتي كادت ان تصبح عروسا - قد عادت الان من جديد فتاة باردة متوحدة : كانت حياتها شاحبة ، وكانت آمالها موحشة . كان صقيع اشبه بصقيع عيد الميلاد قد اجتاح الارض في عز الصيف ، وكانت عاصفة من عواصف كانون الاول ( ديسمبر ) المثلوجة قد دوّمت في حزيران ( يونيو ) ، لقد زجّج الجليد التفاحات اللبنة ، وسحقت أكوام الثلج الورود المنورة . كان يحجب حقل التين وحقل القمح كفن جليدي ، وكانت الدروب التي احمرت وجنتها الليلة البارحة بما حفلت به من رياحين قد امست اليوم وعرة المسالك بما تراكم عليها من ثلج لما تطاه الاقدام ، وكانت الغابات التي تمايلت - قبل اثنتي عشرة ساعة - مورقة فاعمة - وكأنها غياض في بعض المناطق الاستوائية قد انبسطلت الان جرداء موحشة بيضاء مثل غابات الصنوبر في بلاد النرويج ايام فصل الشتاء . كانت آمالي كلها قد ماتت . . بعد ان الم بها هلاك خبيث كذلك الذي الم ، ذات ليلة ، بجميع المواليد في ارض مصر \* . لقد القيت نظرة على ما غدوته من آمال كانت امس منورة جدا متوهجة جدا فاذا بها الان جثت يابسة باردة مزرقة لا سبيل الى بعثها من جديد . ونظرت الى حبي : تلك العاطفة التي كانت ملكا لسيدي . . . والتي كان هو قد خلقها ، فرأيته يرتعد في فؤادي مثل طفل موجع في مهد بارد . كان المرض والالم المبرح قد استبدا به ، ولم يكن في ميسوره ان يلتبس ذراعي مستر روتشيستر - لم يكن في ميسوره ان يستمد الدفء من صدره . اوه ، انه ما عاد قادرا على ان يفرغ اليه البتة ، ذلك بأن الايمان كان قد صوّح ، والثقة كانت قد حطّمت ! ان مستر روتشيستر لم يعد ، عندي ، ما كانه من قبل ، ذلك بأنه لم يكن ما كنت قد حسبته . انا لا انسب اليه اثما ما ، انا لا اقول انه قد خانني : ولكن صفة الحقيقة التي لا تشوبها شائبة كانت قد فارقت صورته ، وكان علي ان انأى بنفسه عنه . . . ذلك شيء ادركنه ادراكا حسنا . اما متى وكيف ، والى اين فهذا ما لم اكن قد تبينته بعد : ولكنه هو نفسه كان خليقا ، من غير ريب ، بأن يتعجل ابعادي عن ثورفيلد . لقد بدا لي وكأنه ما كان قادرا على ان يكن لي حبا صادقا ، كانت عاطفته نحوي مجرد عاطفة محبومة مؤقتة ، ما لبثت ان كُبحت ، ومن هنا فلن يستشعر اياما حاجة الي منذ اليوم ، بل ان علي ان اجشى الآن مجرد المرور به ، فليس من ريب في ان رؤيتي امست بغيضة الى نفسه . اوه ، لشد ما كانت عيناى مكفوفتين ! لشد ما كان سلوكي ضعيفا !

كانت عيناى محجوبتين مغمضتين . ولقد بدا لي وكأن ظلاما عاصفا يسبح من حولي ، وتدفقت افكارى كالسيل سوداء مشوشة . وفي حال من الهيجان الذاتي والاسترخاء وعدم الكد بدا لي وكأنني منطرح في قعر نهر عظيم جفّت

\* اشارة الى ما حدث قبل ولادة النبي موسى مما اضطر امه الى وضعه في صندوق والقائه في اليم على ما ورد في الكتب المقدسة . ( المغرب )

مياحه . وتناهى الى سمعي هدير سيلٍ اطلق من عقاله في جبال قصية ،  
واحسست بالتيار يندفع نحوي : لم تكن بي في النهوض رغبة ، ولم يكن لي  
على الفرار قوة . وهكذا لزمت مكاني فاقدة الرشيد ، تواقا الى الموت . ان فكرة  
واحدة ظلت تختلج في جوانحي اختلاجة نابضة بالحياة ، ولم تكن تلك الفكرة  
غير تذكر الله . وعن هذا التذكر نشأت صلاة مغفمة : لقد هامت هذه الكلمات  
على وجهها في ذهني المظلم ، كشيء يجب ان يهمس به ، ولكني لم اجد في  
نفسي القدرة على التعبير عنها .

« رب لا تبتعد عني ، فالبلاء قريب ، وليس ثمة من يمد الي يد العون » .  
ولقد كان قريبا مني حقا . واذا لم ارفع الى السماء ايما ضراعة لدفعه ، ولم  
اشبك ذراعي في الصلاة او احني ركبتي او احرك شفتي فقد اقبل ذلك البلاء .  
لقد اندفع السيل نحوي عارما طاغيا ، وسرعان ما سحقني وعيي الكامل لحياتي  
المضيئة ، وحبى المفقود ، وأملى المخذ ، وايماني الطعين . . . . . سحقني بكلكلة  
المتجهم الجبار الذي جثم علي دفعة واحدة . ان البيان ليعجز عن وصف تلك  
الساعة : فالحق « ان المياه نفذت الى صميم ذاتي . لقد غصت في حمأة بعيدة  
الغور ، لم اجد فيها موطننا لقدمي . ولقد انتهيت الى مياه عميقة ، وهنالك  
غمرتني السيول » .

## ٢٧

وفي فترة ما من اصيل ذلك اليوم رفعت رأسي ، واذا اجلت الطرف في ما  
حولي ورأيت الشمس الآخذة سبيلها نحو الغرب ترسم على الجدار صورة  
غروبها بصبغ ذهبي اخذت اتساءل : « ما الذي يتعين علي ان افعله ؟ »

ولكن الجواب الذي اعطاه عقلي - « غادري ثورنفيلد على التو » كان  
سريعا ورهيبا الى حد جعلني اصم اذني عنه . لقد قلت اني لا اقوى على احتمال  
كلمات مثل هذه الان . وزعمت « ان عدم زواجي من ادورد روتشيستر هو  
الجانب الاهون من بلائي . وان يقظتي من ارووع الاحلام واكتشافي انها كلها  
جوفاء باطلة هما هول يستطيع ان اطيقه واتغلب عليه . ولكن الذي لا يستطيع  
الصبر عليه هو فراقه في غيب تردد ، وفي الحال ، وبالكلية . لا ، هذا شيء  
ليس لي قبيل به » .

ولكن صوتا في اعماق نفسي ما لبث ان جزم بانني اقدر على ذلك ، وتنبأ  
بانني سوف اقدم عليه . وشرعت اصارع قراري : لقد اردت ان اكون من العجز  
بحيث اجتنب سلوك ذلك المجاز الرهيب ، الحافل بمزيد من الالم ، الذي رأيت  
منبسطا امامي . ولكن الضمير استحال الى طاغية ، فأخذ بخناق الحب ، وقال  
له معنفا انه \* لم يزد على ان غمس قدمه الناعمة في الحمأة ، واقسم ليقذفن

به - بذراعه الحديدية تلك - في اعماق من الالم المبرح لا يُسبر لها غور .

وصحت : « فلأمزق اربا اربا اذن ! فلتهرع يد اخرى الى نجدتي ! »

- « لا . انك سوف تمزقين نفسك بنفسك ، ولن يهرع الى نجدتك احد . انك سوف تفقنين ، بنفسك ، عينك اليمنى ، وبنفسك سوف تقطعين يدك اليمنى : ان قلبك سوف يكون الفداء ، ولسوف تكونين انت الكاهن الذي يطعنه . »

ونهضت فجأة وقد روعتني الوحدة التي عكر صفوها مثل ' هذا القاضي المتحجر الفؤاد ، والصمت الذي ملأه مثل ' هذا الصوت الرهيب . ودار رأسي وانا انهض واقفة ، ولا حظت ان الاهتياج والجوع كادا يُسلماني الى الانغماس : ان شيئا من اللحم او الماء لم يَعْبُرْ شفتي ذلك اليوم ، اذ لم اكن قد تناولت طعام الصباح حتى تلك الساعة . وفي غُصّة عجيبة لاحظت الان ان مستر روتشيستر لم يبعث الي ، منذ ان اوصدت الباب على نفسي هنا ، من يسألني عن حالي او يدعوني للهبوط الى الدور الاسفل . حتى ادبل الصغيرة لم تقرع باب حجرتي . . . . وحتى مسز فيرفاكس لم تسعّ الي . وغمغمت وأنا ارفع المزالج واغادر الحجرة : « الاصدقاء ينسون دائما من يتخلي الحظ عنهم » . وتعثرت بعقبة ما : كان الدوار لا يزال يعصف برأسي ، وكانت غشاوة ترين على بصري ، وكانت اطرافي واهنة . وعجزت عن لمّ شتات قواي ، فسقطت ، ولكن ليس على الارض : لقد امسكت بي ذراع مبسوطة . ورفعت بصري ، فاذا بي مستندة الى مستر روتشيستر ، الجالس على كرسي عند عتبة حجرتي .

وقال : « ها قد خرجت آخر الامر . حسنا ، لقد انتظرتك منذ فترة طويلة ، ورحت اصغي ، ولكني لم اسمع اية حركة ، ولم اسمع اية زفرة . ولو قد استمر هذا الصمت الشبيه بصمت الموت خمس دقائق اخرى اذن لكان خليقا بي ان اقتحم عليك الحجرة الموصدة مثل لص من اللصوص . واذن فانت تتجنبينني ؟ . . . . انت تغلقين الباب على نفسك وتأسسين بمفردك ! لقد كنت اؤثر لو هبطت الى الدور الاسفل وعثفتني في حدة بالغة . انك فتاة انفعالية ، ولقد توقعت انفجارا عاطفيا من هذا النوع . كنت مستعدا لو ابل دموعك الحار ، بيد اني اريد ان اراها تستفح على صدري انا ، بدلا من ان تسفح على ارض الحجرة التي لا حس فيها وعلى منديلك المبلل . ولكنني مخطيء : انت لم تذرفي عبرة واحدة ! اني ارى وجنة شاحبة وعينا ذابلة ، ولكني لا ارى اي اثر لدموع . ويخيل الي ، اذن ، ان فؤادك كان يبكي دما . . . . »

- « حسنا ، يا جين ، اليس عندك كلمة لوم ؟ اليس عندك ايما شيء همير . . . . ايما شيء موجه ؟ اليس عندك ما يجرح شعورا او يلدغ عاطفة ؟ انت تقبعين حيث وضعتك وتنظرين الي نظرات كليلة سلبية . »

- « جين ، انا لم ارد ان اجرحك على هذا النحو . ولو ان الرجل الذي كان لا يملك غير نعجة صغيرة اثيرة على قلبه وكأنها بنته فلذة كبده ، نعجة أكلت من خبزها وشربت من كأسه واضطجعت في صدره . . . اقول لو ان هذا الرجل

ذبح هذه النعجة نتيجة لخطأ ما في المسلخ اذن لما ندم على غلطته الداميه اثر  
مما افعل انا الان . ان تغفري لي ابد الدهر ، يا جين ؟

ايها الفارء ، لقد غفرت له في الحال ، وفي تلك اللحظة نفسها . فقد  
كان في عينيه من الندم العميق ، وفي نبرته من الاشفاق الصادق . وفي مسلكه  
من القوة الجديرة بالرجال ، بل لقد كان في محياه كله من الحب الثابت غير  
المتغير ما دعاني الى ان اغفر له كل شيء . . . . ومع ذلك فانا لم اغفر له بكلمات  
ملفوظة ، لم اغفر له جهارا . . . . لقد غفرت له في سويداء قلبي ليس غير .

وسرعان ما سألني في كآبة وقد عجب ، في ما احسب ، لصمتي ووداعتي  
اللذين كانا ثمرة العنف اكثر مما كانا ثمرة الارادة :

« اتعتقدين اني وغد ، يا جين ؟ »

« نعم ، يا سيدي » .

« اذن قل لي ذلك في صراحة وقسوة . . ولا تقتصدي في تعنيفي » .

« لست استطيع . انا متعبة يعصف برأسي الدوار . انا اريد جرعة  
ماء . » فأطلق ضربا من الزفرة المرتعدة ، واحتواني بين ذراعيه ، وهبط بي السلم  
الى الدور الاسفل . ولم ادر بادى الامر الى اية حجرة حملني ، فقد كان كل شيء  
غائما في عيني شبه الزجاجتين ، ولكنني سرعان ما استشعرت دفء النار المحيي .  
بعد ان تمسنى البرد المثلوج في جسدي ، متحديا فصل الصيف ، خلال  
احتجابي في حجرتي . وبلل شفتي بقطرات من خمر . وتذوقتها واستعدت  
وعيي . ثم اني اكلت شيئا قدمه الي ، وما لبث النشاط ان دب في اوصالي .  
كنت في حجرة المكتبة ، جالسة على كرسيه ، وكان هو على مقربة دانية  
مني . وقلت في ذات نفسي : « اذا استطعت ان افارق الحياة الان ، من غير  
ان استشعر كربا بالغا ، كان ذلك خيرا لي ، وعندئذ لن أضطر الى بذل ايما  
جهد لفصل نياط قلبي عن نياط قلب مستر روتشيستر فصلا لا بد ان  
تنقطع معه وتنمق . ان علي ، في ما يبدو ، ان افارقه . ولكني لا اريد ان  
افارقه . . . انا لا استطيع ان افارقه » .

« كيف انت الان ؟ »

« احسن كثيرا ، يا سيدي . ولسوف استعيد كامل نشاطي عما

قريب » .

« خذي جرعة اخرى من الخمر ، يا جين » .

وامثلت امره . ثم انه وضع الكأس على الطاولة ، ووقف تجاهي ،  
وانشأ يرنو الي في انتباه . وفجأة استدار مطلقا صيحة بكاء ، حافلة بضرب  
من الانفعال المشبوب . وذرع الغرفة في سرعة ، ثم رجع ومال علي وكأنه  
يريد ان يقبلني ، ولكنني تذكرت ان المعانقات امست الان محظورة . فأشحت  
بوجهي عنه ، ورددت وجهه جانبا .

فصاح في احتياج : « ماذا ؟ كيف ذلك ؟ اوه ، انا ادري ! انت لن تقبلي  
زوج بيرتا مايسون ؟ انت تعتبرين ذراعي مليئتين ، وقبلاتي ملكا لغيرك ؟ »

- « ليس لي ، على اية حال ، لا مكان في قربك ولا حق في حبك ، يا سيدي » .

- « لماذا ، يا جين ؟ سوف اكفيك مؤونة الكلام ، سوف اجيب بالنيابة عنك ، فأقول انك تقفين مني هذا الموقف لان لي زوجة ... أمصيبُ أنا في حدسي ؟ »

- « نعم » .

- « اذا كنت تفكرين هكذا فلا بد ان يكون لك رأي عجيب في ... لا شك في انك تنظرين الي نظرتك الى متهتك متأمر - نظرتك الى فاجر سافل وضع كان يتظاهر بالحب النزيه لكي يجذبك الى شرك نصبه عامدا متعمدا ، ولكي يجردك من شرفك ، ويسلبك احترامك الذاتي . ما قولك في هذا الكلام ؟ انا ارى انك لا تستطيعين ان تقولي شيئا : فانت ، اولا ، لا تزالين في حال من الاعماء وانك لتجدين في مجرد التنفس مشقة كافية ؟ وانت ، ثانيا ، لا تزالين عاجزة عن تعويد نفسك اتهامي وشتمي . والى هذا فان سدود دموعك مفتوحة على مصاريعها ، وخليق بهذه الدموع ان تندفق اذا ما اسرفت في الكلام . وليست بك رغبة في العتاب ، في التعنيف ، في المشاجرة . انت تفكرين في ما يتعين عليك ان تعمليه ، اما الكلام فانت تعتبرينه عبثا لا طائل تحته . انا اعرفك ... واني لعلی حذر » .

فقلت : « انا لا اريد ان اعمل ضدك » ونبهني صوتي المتهدج الى ضرورة بتر جمعتي .

- « انت ترسمين خطة للقضاء علي ، لا بمفهومك انت للكلمة ، ولكن بمفهومي انا . لقد قلت لي ، عمليا ، انني رجل متزوج - وبوصفي رجلا متزوجا سوف تتجنبيني ... سوف تتبعدين من طريقي : ولقد رفضت منذ لحظة ان تقبليني . انت تعتزمين ان تجعلي من نفسك مخلوقة غريبة عني بالكلية ، وان تعيشي تحت هذا السقف كمرربة لآديل ليس غير . فاذا وجهت اليك في ايما يوم كلمة ودية ، واذا ما احسست نحوي من جديد ايما شعور ودي فعندئذ ستقولين : « هذا الرجل كاد ان يجعل مني خليلته : يجب ان اكون معه ثلجا وصخرا » . ولسوف تصبحين ، وفقا لذلك ، ثلجا وصخرا » .

وجلوت حنجرتي وثبتت صوتي لكي اجيب ، ثم قلت : « كل شيء من حولي قد تغير يا سيدي ، فيجب ان اغير انا ايضا - هذا شيء لا ريب فيه . وليس امامي ، لكي اجتنب تقلبات العاطفة واتحاشى الصراع الموصول مع الذكريات ، غير سبيل واحدة : يجب ان تعهد في تربية آديل الى مربية جديدة ، يا سيدي » .

- « اوه ، آديل سوف تذهب الى المدرسة . لقد عقدت العزم على ذلك ، الان . ولست ابتغي ، في الوقت نفسه ، ان اشقيك بذكرياتك البشعة في قصر ثورنفيلد ... هذا الموطن الملعون ... الشبيه بخيمة آخان ... هذا

السرداب الوقح الذي يقدم الى ضياء الشمس الطلقة شحوب الموت في الحياة . . . هذا الجحيم الحجري الضيق بعفريتته الحقيقية الوحيدة التي هي اسوأ من كتيبة كاملة من العفاريت المتخيلة ! جين ، انك لن تبقي هنا ، لا ، ولن ابقى انا ايضا . لقد اخطأت خطأ كبيرا عندما اجزت لك ان تغدي علي قصر ثورنفيلد ، برغم علمي انه قصر مسكون بالاشباح . ولقد اصدرت امري اليهم بأن يكتموا عنك ، قبل ان تقع عليك عيناى ، لعنة هذا المكان . وانما فعلت ذلك لمجرد خوفاى ان لا توفق آديل الى مربية ترضى بالبقاء الى جانبها اذا ما عرفت هذه المربية مع من ستجد نفسها في هذا البيت . ولم تساعدني خططي على نقل المجنونة الى مكان اخر ، برغم انى املك بيتا عتيقا ، في فيرنديان ، هو اشد انعزالا وتواريا عن الانظار حتى من هذا القصر . بيتا كان في ميسوري ان انزلها فيه في سلام ، لولا ان ساورنى ريب في مدى ملائمة موقعه - في قلب احدى الغابات - لصحتها ، فاذا بضميري يكرهني على الاحجام عن ذلك الصنيع . واغلب الظن ان تلك الجدران الرطبة كان خليقا بها ان تريحنى ، وشيكا ، من عبثها ، ولكن لكل وغد عيبه ، وعيبي هو انى لا انزع الى الاغتيال غير المباشر ، حتى لمن اكن له اعظم البغض .

« بيد ان كتمان جوار المرأة المجنونة عنك كان اشبه شيء بتغطية طفل بمعطف ووضع قرب شجرة يوباس \* : ان جوار تلك الشيطانة سام\* ، ولقد كان دائما ساما . ولكنى سوف اغلق قصر ثورنفيلد : سوف اسمر بابها الامامى ، واسد نوافذه السفلى بالواح خشبية . وسوف ادفع الى مسز بول مثتي جنينه في العام لتعيش هه مع زوجتي ، كما تسمين انت هذه الشمطاء الرهيبة . ان غرايس مستعدة لان تعمل اشياء كثيرة في سبيل المال ، وسوف تكلف ابنها ، حارس غريمسبي ريتريست ، بالاقامة معها وبالاسراع الى نجدتها كلما عمدت قرينة \*\*\* زوجتي الى اغرائها ، في نوبة من نوباتها المسعورة ، باحراق الناس في مضاجعهم ليلا ، وبطعنهم بالمدية ، او بعضهم وسلخ لحمهم عن عظامهم الخ . . »

فقاطعتها قائلة : « انت يا سيدي قاس على تلك السيدة التعيسة : انك تتحدث عنها في بغض . . . في كراهية حقود . . . هذه وحشية منك . . اذ ليس لها في جنونها حيلة ، »

« جين ، يا حبيبتي الصغيرة ( هكذا سوف ادعوك ، لانك هكذا في الواقع ) ، انت لا تعرفين ماذا تقولين . انك تجورين في الحكم علي ، كرة اخرى : انا لا اكرهها لانها مجنونة ، اذ لو اصابك انت مس من جنون اتحسبن انى لا بد مبغضك ؟ »

upas tree شجرة سامة تنبت في « جاوا » ويتخذ من نسفها ( عصيرها ) سسم يعرف بالاسم نفسه . ( المغرب )  
\*\*\* أي الجنية الملازمة لها .

- « من غير ريب ، يا سيدي » .

- « اذن فانت مخطئة ، وانت لا تعرفين ايما شيء عني وعن نوع الحب الذي يستطيع قلبي ان ينبض به . ان كل ذرة من لحكم اثيرة لدي مثل اي ذرة من لحمي ، ولسوف تبقى اثيرة لدي في حالي الالم والمرض . ان عقلك هو كنزي ، فاذا ما قدر عليه ان يصاب بمس فعندئذ يظل هو كنزي ابد الدهر . واذا ما اهتجت فعندئذ ستضحك ذراعاي لا صدرة ضيقة . ان قبضتك ، حتى في حال الحنق والثورة ، سوف يكون لها عندي سحر وفنتة : واذا ما انقضضت علي بمثل الضراوة التي غلبت علي تلك المرأة هذا الصباح فعندئذ سأثلك بعناق ، فيه من الحنان بقدر ما فيه من التقييد والكبح . وخليق بي ان لا اجتنبك في اشمزاز كما حاولت ان اجنبها . اما في لحظاتك الواعدة فلن ينهض بعء السهر عليك والعناية بصحتك احدي غيري . سوف يكون في ميسوري ان الازمك في حنان لا يعتوره كلل ، ولو لم تمنحيني لقاء ذلك ابتسامة واحدة ، ولن امل النظر الى عينيك ولو خلنا من ايما وميض يؤذن بانك تعرفين من انا . . . ولكن لماذا اتبع هذا المجرى الفكري البغيض ؟ لقد كنت اتحدث عن رغبتني في نقلك من ثورنيلد . وانت تعلمين ان كل شيء معد للرحيل العاجل : انك سوف ترحلين غدا ، وكل ما اسألك اياه هو ان تحتلمي الاقامة ليلة اخرى ، ليس غير ، تحست هذا السقف ، يا جين ! ان لدي منوى أفئ اليه ، منوى سوف يكون حرما آمنا من الذكريات البغيضة . . . من التطفل غير المستحب . . . بل من البهتان والنميمة » .

فقاطعته بقولي : « وخذ آديل معك ، يا سيدي . انها سوف تكون لك بمثابة الرفيق المونس » .

- « ماذا تعنين ، يا جين ؟ لقد قلت لك اني سوف ارسل آديل الى المدرسة ، وما حاجتي الى رفقة طفلة مثلها ؟ طفلة ليست هي ابنتي ايضا . . . ولكنها بنت غير شرعية لراقصة فرنسية ؟ وعلام هذا الالحاف كله في امرها ؟ اقول ، لماذا تفرضين علي ان اتخذ منها رفيقة ؟ »

- « لقد تحدثت عن العزلة يا سيدي ؟ والعزلة والتوحد موحشان . . . موحشان الى حد لا يستطيع مثلك احتماله » .

فردد في انفعال : « التوحد ! التوحد ! يخيل الي ان من واجبي ان اوضح هذه النقطة . ولست ادري اية انطباعة من انطباعات ابي الهول ترسم على محياك . ان عليك انت ان تشاطريني توحيدي . اتفهمين ؟ »

فهزرت رأسي . والواقع ان مجرد المفارقة بابداء امارة المخالفة الخرساء هذه كان يتطلب قدرا من الشجاعة غير قليل ، بالنظر الى سورة القضب التي كانت قد شرعت تعصف به . كان يذرع الحجر في عصبية ، فما ان رأى الى هزة رأسي تلك حتى توقف وكأنه سنمر فجأة الى بقعة واحدة . وانشأ يحرق الي تحديقا طويلا قاسيا ، فحولت عيني عنه وثبتتهما



على النار ، محاولة ان اصطنع مظهرا هادئا رابط الجأش وان الزم هذا المظهر .

واخيرا قال ، متكلمنا بنبرة احفل بالهدوء من تلك النبرة التي اوحشت اليّ ملامحه بأنه سوف يصطنعها : « ها قد وصلنا الى العقدة في خلق جين ايير . ان بكرة التحرير قد دارت ، حتى الان ، في سلاسة غير يسيرة . ولكنني كنت اعلم دائما انها لا بد ان تنتهي الى عقدة او عقبة . وها هي ذي العقدة قد اطلعت رأسها . والان حدث عن الاغاطة والاسخاط والبلاء المقيم ولا حرج ! وحق الاله اني لتتواق الى بذل جزء من قوتي الشمشونية لاقطع هذه العقدة كما تقطع نسالة القنّب ! »

واستأنف ذرع الحجرة ، ولكنه ما لبث ان وقف ، ولكن تجاهي مباشرة هذه المرة ، وقال :

- « جين ! ارجوك ان تصيخي الى صوت العقل ! » ( وانحنى وادنى شفتيه من اذني ) « لانك ان لم تفعلني لجأت الى العنف » . كان صوته اجش ، وكانت اساريره اشبه بأسارير رجل يوشك ان يحطم قيّدا ثقيل لا يطاق ويندفع في تهور ورعونة نحو حرية طائشة لا تخضع لضابط . وادركت اني تشبّث بموقفي لحظة اخرى وان هبت عليه هو رياح الحق هيّة اضافية فلن اقوى عندئذ على مقاومته . كانت الثانية الحاضرة - تلك الثانية المندفعة في مجرى الزمن - هي كل ما املكه لكبحه والسيطرة عليه . وكان خليقا بأيا حركة نفور او فرار او خوف ان تقضي بي ، وبه ايضا ، الى الهلاك . ولكنني لم استشعر خوفا . . . لم استشعر ذرة من خوف . لقد آنست في ذات نفسي قوة باطنية ، ولمست فيها احساسا بالسلطان اعانني وشد ازري . كانت الازمة محفوفة بالمخاطر ، ولكنها لم تكن لتخلو من فتنة وسحر . . فتنة وسحر شبيهين بدينك اللذين ربما كان الهندي يستشعرهما حين يندفع بزورقه في موضع من النهر جارف التيار موفور الصخور . وهكذا امسكت بيده المتشنجة ، وارخيت اصابعه المنقبضة ، وقلت له في لهجة مهدئة :

- « اجلس . سوف اتحدث اليك ما شئت لي ان اتحدث ، ولسوف اصغي الى كل ما تريد ان تقوله ، سواء أكان معقولا أم غير معقول » .

وجلس ، ولكنه لم يوفق الى الكلام مباشرة . ذلك بأني كنت قد غالبت الدموع برهة ، وكنت قد بذلت جهدا بالغا في كبحها لعلمي انه لم يكن يجب ان يراني ابكي . اما الان فقد رأيت من المستحسن ان ادعها تتدفق ما وسعها التدفق . فاذا ما غاظه ذلك كان خيرا وابقى . وهكذا استسلمت ، وانشأت ابكي بكاء مريرا .

وسرعان ما سمعته يتوسل الي في حرارة ان اهدئ من روعي . فقلت اني لا اقوى على ذلك ما بقي هو مستسلما للانفعال .

فقال : « ولكنني لست مفضبا ، يا جين . كل ما في الامر اني احبك

حبا عارما ، وانك كنت قد فولدت وجهك الشاحب الصغير بانطباعة  
مثلوجة مصممة لم يكن لي قبيل باحتمالها . اهـدي الان ، وكفكفي  
عبراتك .

وكان في الرقة التي اتسم بها صوته ما اشعرنني بأن ثورته قد خمدت .  
وهكذا اخلدت انا بدوري الى السكينة . عندئذ حاول ان يريح رأسه على  
كتفي ، ولكنني لم اجز له ذلك . ثم جرب ان يجذبني اليه ، فامتنعت .

فقال في نبرة من الحزن المرير اوقعت القشعريرة في كل عصب من  
اعصابي : « جين ! جين ! انت لا تحبينني اذن ؟ انت لم يعجبك مني غير  
مكانتي الاجتماعية وغير المنزلة التي يجدر بمن اختارها زوجة لي ان تنعم  
بها ؟ اما وقد اعتقدت الان انني غير اهل لان اصبح لك زوجا فأنتك تنفرين  
كلما لمستك وكأنني قرد او ضفدع بري » .

واوجعتني هذه الكلمات ، ومع ذلك فما الذي كان في ميسوري ان  
اقوله او ان افعله ؟ اغلب الظن انه كان من واجبي ان لا افعل شيئا او ان لا  
اقول شيئا ، ولكن حسا من الندم كان يعذبني لاني جرحت مشاعره على  
هذا النحو تعذيبا مبرحا ، فلم استطع ان اقاوم الرغبة في وضع شيء من  
البلسم على الجرح الذي احدثته .

فقلت : « انا احبك اكثر مما احببتك في أي وقت مضى . ولكن من  
واجبي ان لا اظهر هذا الشعور او انغمس فيه . وهذه هي اخر مرة يتعين  
علي ان اعبر فيها عنه » .

— « اخر مرة ، يا جين ! ماذا ؟ اتحسبين ان في استطاعتك ان تعيشي  
معي ، وتشاهدينني كل يوم ، ومع ذلك تظلين — اذا أقمتِ على حبي — باردة  
دائما ، نافرة دائما ؟ »

— « لا ، يا سيدي . انا واثقة من اني لا استطيع . ومن اجل ذلك ارى  
ان ثمة سبيلا واحدة ليس غير ، ولكن سورة الغضب سوف تعصف بك اذا  
ما ذكرتها » .

— « اوه ، اذكرها ! فاذا ما ثرت لجأت انت الى حيلتك الماكرة : سفح  
الدموع » .

— « مستر روتشيستر ، ان علي ان افارقك » .  
— « الى متى ، يا جين ؟ بضع دقائق ، ريثما تسرحين شعرك ...  
الذي هو مشعثٌ بعض الشيء ، وتفسلين وجهك الذي تبدو عليه امارات  
الحمى ؟ »

— « علي ان افارق آديل وثورنفيلد . علي ان انفصل عنك بقية عمري  
كله : علي ان استهل حياة جديدة بين وجوه غريبة ومشاهد غريبة » .

— « من غير ريب : لقد قلت انا لك ان عليك ان تفعل ذلك . وعلى  
اية حال فاني سأضرب صفحا عن حماقة انفصالك عني . انت تمنين من غير

ريب انك تريد ان تصبحي جزءا مني \* . اما الحياة الجديدة فشيء حسن جدا : انك ، برغم كل ما حدث ، سوف تصبحين زوجتي . انا لست متزوجا . ولسوف تصبحين مسز روتشيستر ، بالواقع وبالاسم على حد سواء . سوف أبقى الى جانبك ما دمت انت وما دمت انا على قيد الحياة . انك ستمضين الى مكان املكه في جنوب فرنسا : داره بيضاء على شواطئ البحر الابيض المتوسط . وهناك سوف تحيين حياة سعيدة ، آمنة ، وطاهرة الى اقصى حدود الطهارة . ولا تحسبي اني اريد ان اغريك باقتراف الاثم . . . ان اجعلك خليلتي . لماذا تهزين رأسك ؟ جين ، يجب ان تحكمي العقل ، والا جن جنوني كرة اخرى من غير ريب » .

وتهدج صوته ، وارتعدت يده ، واتسعت خياشيمه الضخام ، والتهبت عيناه : ومع ذلك فقد جرؤت على القول : « سيدي ، ان زوجتك لا تزال على قيد الحياة : هذه حقيقة اعترفت بها انت نفسك هذا الصباح . فاذا ما عشت معك كما تبتغي فعندئذ اصبح خليلتك . وكل زعم مخالف هو مجرد سفسطة . . . مجرد بهتان » .

— « جين ، انا لست رجلا دمى الطبع . . . انك تنسين ذلك . انا لست رجلا طويل الاناة . . . لست فاترا ولست رزينا . من اجل ذلك اسألك ، رحمة بي وبنفسك ، ان تجسي نبضي وتري الى تسارعه . . . وان تأخذني حذرک ! »

وكشف عن معصمه ، وبسطه نحوي : كان الدم يفارق خديه وشفثيه فهي تزرق ازرقا رصاصيا . ومن هنا ألم بي الكرب من اقطاري جميعا . فلأن اثره اعمق الاثارة بمقاومة يبغضها كل هذا البغض ضرب من القسوة يجاور الوحشية . ولأن استسلم له امر غير وارد الیمة . واخيرا فعلت ما يفعل البشر ، على نحو غرزي ، عندما ينوءون بأثقال الغم وتسد في وجوههم سبل النجاة : لقد التمسست العون عند من هو فوق الانسان ، فاذا بالكلمات « ساعدني يا رب ! » تنفجر من شفثي انفجارا غير ارادي .

فصاح مستر روتشيستر ، فجأة : « اني لمعتوه حقا ! فانا لا افتأ اقول لها اني غير متزوج ، ولكني لا اشرح لها كيف ذلك . اني انسى انها لا تعرف شيئا عن خلق تلك المرأة وعن الملابس التي رافقت زواجي الجهنمي منها . اوه ، انا واثق من ان جين سوف تتفق معي في الرأي عندما تعلم كل ما اعلمه ! انا لا اسألك الا ان تضعي يدك في يدي ، يا جانيت — لكي اتأكد ، ببيئة اللمس وبيئة البصر على حد سواء ، من انك على مقربة مني — ولسوف اصورك بكلمات قليلة حقيقة الحال . هل تستطيعين ان تصغي الي ؟ »

— « اجل ، يا سيدي ، وطوال ساعات اذا شئت » .

— « لا اسألك غير دقائق معدودات . جين ، هل سمعت ذات يوم او

❁ في الاصل تلاعب لفظي ظاهر بين parting from me ( الانفصال عني ) وبين to become a part of me ( ان تصبحي جزءا مني ) . « المغرب »

علمت اني لم اكن اُرشد اخوتي : انه كان لي أخ اكبر مني سنا ؟ »

« اذكر ان مسز فيرفاكس انبأتني بذلك ذات مرة » .

« وهل سمعت في ايما يوم من الايام ان ابي كان رجلا بخيلا

منقبض الكف ؟ »

« حسنا ، يا جين ، لقد حدا به شحته هذا الى عقد النية على ابقاء ممتلكاته سليمة متماسكة . انه لم يكن ليطبق فكرة تقسيم هذه الممتلكات بحيث يترك لي نصيبا عادلا منها ، وهكذا قرر ان يجعل ثروته كلها وقفا على اخي راولاند . بيد أنه لم يطق ، في الوقت نفسه ، التفكير في ان ولدا متحدرا من صلبه سوف يقضي حياته فقيرا : كان لا بد له من ان يكفل لي رفاه العيش من طريق زواج نري\* . وسرعان ما راح يبحث لي عن شريكة حياة . وكان مستر مايسون ، احد مزارعي جزر الهند الغربية وتجارها ، صديقا من اصدقائه القدماء . وكان ابي على مثل اليقين من ان مستر مايسون كان يتمتع بثروة عقارية ضخمة ، فراح يجري بعض الاستطلاعات ، فاكشف ان لمستر مايسون ولدا وبنتا ، وعرف منه ان في امكانه ، وفي نيته ، ان يهب هذه الاخيرة ثروة مقدارها ثلاثون الف جنيه : وكان هذا كافيا . فما ان تركت الكلية حتى أرسلت الى جامايكا لاتزوج عروسا كانت قد حفظت لي من قبل . ولم يقل لي ابي اية كلمة عن ثروتها ، ولكنه قال لي ان مس مايسون كانت في جمالها الساحر مفعرة « سبانيشتاون » وموضع اعتزازها . ولم يكن هذا كذبا . فقد الفيتها امرأة فاتنة ، من طراز بلانش اينغرام : امرأة فارعة الطول ، سمراء ، مهيبة . وكانت اسرتها حريصة على الفوز بي لنبل محتدي ، وكذلك كانت مس مايسون نفسها . كانوا يبدونها لناظري، في الحفلات الساهرة ، رافلة بأبهى الحلل واسنائها . ولكنني نادرا ما رأيتها منفردة ، ونادرا ما ادرت معها حديثا شخصيا موجزا . كانت تملقني ، وتسرف في محاولة امتاعي باظهار مفاتها ومواهبها . ولقد بدا لي وكان جميع الرجال من حولها كانوا معجبين بها ، وكانوا يحسدونني عليها . وبُهرت ، واثرت ، وغلب على حواسي الاهتياج ، واذ كنت جاهلا ، غرا ، قليل التجربة ، فقد خيل الي اني احببتها . والواقع انه ليس ثمة من حماقة يعجز التنافس المعتوه في دنيا المجتمع المترف ويعجز شبق الشباب وطيشه وعماء عن دفع المرء الى ارتكابها . وشجعني انسباؤها ، واثارني المنافسون ، واغوتني هي : وهكذا تم زواجي منها قبل ان اعرف . او اكاد ، اين انا . اوه ، انا لا انظر الى نفسي نظرة احترام عندما افكر في ذلك الصنيع ! . . . ان ازدراء باطنيا مبرحا ليستحوذ علي . انا لم احبها قط . انا لم احترمها قط ، بل اني لم اعرفها قط . ولم اكن واثقا من وجود ايما فضيلة في طبيعتها : انا لم المح في ذهنها او في مسلكها لا تواضعا ولا طيبة ولا صراحة ولا دماثة . وتزوجتها . . . فما كان اشد حماقتي وخساستي وعنادي وعماي ! ولو قد كانت خطيئتي اقل خطورة اذن لاستطعت ان . . .

ولكن يحسن بي ان اذكر مع من اتحدث .

« اما والدة العروس فاني لم ارها قط . لقد توهمت انها ميتة . حتى اذا انقضى شهر العسل ادركت خطاي ، فقد كانت مخبلة حبيسة في مستشفى للأمراض العقلية . وكان لزوجتي اخ اصغر منها سنا ايضا . اخ معتوه اخرس . اما اخوها الاكبر ، الذي رأيته ( والذي لا يستطيع ان يبفضه برغم اني اكره افراد اسرته جميعا ، لأن في عقله الضعيف بضع ذرات من الحنان تتمثل في اهتمامه الموصول باخته البائسة وفي المودة البالغة ، الشبيهة بمودة الكلب ، التي كان يكتئب لي في يوم من الايام ) فأغلب الظن انه سوف ينتهي الى المصير نفسه ذات يوم . لقد عرف والدي واخي راولاند هذا كله ولكنهما لم يفكرا الا بالثلاثين الف جنيه ، ولقد شاركما في المؤامرة المدبرة ضدي .

« كانت هذه مكتشفات خسيصة . ولكن لولا الخداع الذي انطوى عليه اخفاؤها عني لما جعلتها موضوع تعنيف لزوجتي . وحتى عندما وجدت اطوارها مختلفة كل الاختلاف عن اطواري ، واذواقها بغيضة الى نفسي ، وطراز عقلها حقيرا ، وضيقا ، ضيقا ، عاجزا عجزا فريدا عن الانقياد الى ما هو اسمي وعن الانفساح لما هو ارحب . . . عندما وجدت اني لا استطيع ان انفق معها ليلة واحدة او ساعة من ساعات النهار في اطمئنان ورفه ، وان لا سبيل الى الاستمرار في ايما حديث لطيف معها اذ كنت لا اكاد استهمل موضوعا من موضوعات الكلام حتى اتلقى منها جوابا جافيا مبتذلا ، فاسدا واحمق في آن معا . . . عندما ادركت اني لن اوفق الى خدم يرتضون الاستقرار في بيتي لان ايا منهم ما كان ليطبق سورات غضبها العنيفة غير المعقولة ومضايقات اوامرها الحمقاء المتناقضة ، المتطلبة - اقول حتى عندما اكتشفت ذلك كله كبحت جماح نفسي : لقد اجتنبت التعنيف ، واوجزت في الاحتجاج . لقد حاولت ان ازدد ندمي وتقززي في غير ما ضجة ، ولقد كظمت تلك الكراهية العميقة التي اعملت في نفسي .

« جين ، انا لن ازعجك بسر مد مختلف التفاصيل البغيضة : ان بعض الكلمات اللاذعة سوف تعبر عما اريد ان اقله . لقد عشت مع تلك المرأة التي في الدور الاعلى اربع سنوات ، لم تكذ تنقضي حتى كنت قد بلّيت منها بمحنة قاسية حقا : لقد اينعت شخصيتها وتطورت في سرعة رهيبية ، واطلعت رذائلها رأسها على نحو زنج راسخ الجذور : كانت من القوة بحيث تعذر كبجها الا بالقسوة الوحشية ، ولكني ابّيت اصطناع القسوة الوحشية . لشد ما كان عقلها قزما ، ولشد ما كانت نزواتها عملاقة ! وما افطع البلايا التي انزلتها بي هذه النزوات ! لقد اورثتني بيرتا مايسون - الابنة البارة لام فاقدة الاهلية - جميع ضروب الآلام الشنيعة المذلة التي لا بد ان تلازم رجلا موثقا الى امرأة هي في آن معا سكيرة وخليعة العذار .

« وفي غضون ذلك كان اخي قد توفي ، حتى اذا تصرّمت السنوات

الاربع توفي ابي ايضا . وكنت انعم آنذاك بقدر من الغنى كافٍ ، ومع ذلك فقد كنت معسرا ابشع ما يكون الاعسار : كانت حياتي قد سُدَّت الى مخلوقة لم ار اشد منها فظاظة وبذاءة وفسوقا ، مخلوقة يعتبرها القانون ويعتبرها المجتمع جزءا مني . وعجزت عن التخلص منها من طريق اللجوء الى الشرع واجراءاته المألوفة . ذلك بأن اطباء اكتشفوا الان ان **زوجتي** مجنونة - كانت اشتطاطاتها قد ولدت ، قبل الاوان ، بذور الخبل والجنون . جين ، انت غير مرتاحة الى سماع قصتي هذه ، اني لارى على وجهك امارات التفزز والفثيان . . . هل ارجى بقية القصة الى يوم آخر ؟ »

- « لا ، يا سيدي . اتمها الان : انا ارثي لك . . . انا ارثي لك من كل قلبي » .

- « الرثاء ، يا جين ، لا يعدو ان يكون - حين يصدر من بعض الناس - ضربا من المنحة الوبيلة المهينة ، يحق للمرء ان يقذفها في وجوه واهبيها ، بيد ان هذا النوع من الرثاء خليق بالقلوب الانانية المتحجرة : انه الم هجين . اناني يعتبر صاحبه عند سماعه ويلات الناس ، الم ملقح بالاذراء الجاهل للذين المَّت بهم تلك الويلات . ولكن هذا الرثاء ، ليس هو رثاءك ، يا جين . انه لا يتناغم مع العاطفة التي يطفح بها وجهك كله في هذه اللحظة . . . والتي تكاد عيناك ان تفيض بها الان . . . والتي يجيش بها فؤادك . . . والتي ترتعد بها يدك وهي في يدي . ان رثاءك ، يا حبيبتي ، هو أم الحب المعذبة : وان الم المبرح هو الكرب نفسه الذي يرافسق ولادة العاطفة الالهية . اني اتقبَّلُه ، يا جين ، قبولا حسنا . دعي البنت ترى النور في حرية . . . ان ذراعيَّ لمشوقتان الى استقبالها » .

- « والان ، تابع يا سيدي . ما الذي فعلته عندما وجدت انها قد خولطت في عقلها ؟ »

- « لقد اشرفت على شفير اليأس ، ولم يحل بيني وبين تلك الهاوية غير بقية من احترام الذات . كنت في أعين الناس مجلبيا - من غير ريب - بلباس من الخزي قدر ، ولكني وطنت العزم على ان اكون طاهرا في عين ذاتي . . . ونأيت بنفسي ، حتى النهاية ، عن دُنَس جرائمها وترفعت عن كل اتصال بنقائصها العقلية . ومع ذلك فقد ربط المجتمع اسمي وشخصي باسمها وشخصها . وبرغم هذا كله بقيت اراها واسمعتها كل يوم : كان شيء من انفاسها ( أف ! ) يمازج الهواء الذي تنشَّفته ، والى هذا فقد تذكرت اني كنت في يوم من الايام زوجها . . . وكانت تلك الذكرى مقيتة الى نفسي آنذاك ، كشأنها اليوم ، على نحو يجل عن الوصف . وفوق هذا ، فقد ادركت اني لن اوفق البتة الى ان اصبح زوجا لامرأة اخرى ، لامرأة افضل ، ما بقيت هي على قيد الحياة . وعلى الرغم من انها كانت اكبر مني بخمس سنوات ( لقد خدعتني اسرتها وخدعني ابوها حتى في مسألة سنها ) فقد كان من المحتمل ان يفسَح من اجلها فتعمَّر قدر ما أعمَّر ، اذ لم يكن ثمة

ما يضارع ضعف عقلها غير قوة بنيتها . وهكذا انتهيت ، وانا بعد في السادسة والعشرين ، الى حال ميؤوس منها .

« وذات ليلة ايقظتني صيححاتها من نومي ( وكنا قد احتجزناها ، طبعا ، في احدى الحجرات بعد ان اعلن اطباء جنونها ) . وكانت ليلة نارية من ليالي جزر الهند الغربية ، من ذلك الضرب الذي يسبق ، عادة ، هبوب الاعاصير في تلك المناخات . واذ عجزت عن الاستسلام للنوم من جديد ، فقد نهضت من فراشي وفتحت النافذة . كان الهواء اشبه بأبخرة الكبريت ، فلم اجد في أي مكان ما ينعش نفسي . وتوافد البعوض بطنيته وازيزه ، وراح يدندن على نحو كالح في ارجاء الحجرة . كان البحر - الذي سمعت هديره من هناك - يدمدم دمدمة مكظولة مثل زلزال ، وكانت السحب السوداء تتلبد فوقه ، وكان القمر يأفل بين الامواج ، عريض الوجه احمر اللون ، مثل قنبلة مدفع حارة . . . لقد القى آخر نظرة من نظراته الدامية على عالم يرتعد امام اختمار العاصفة . وكان الجو والمشهد قد اثرا في جسدي ، وكانت اذناي مليئتين باللعنات التي كانت المجنونة ما تزال تطلقها ، مقحمة اسمي فيها ، بين الفينة والفينة ، بنبرة من البغض الشيطاني وبلغة لم تصطنع ايما عاهرة محترفة اقذر من الفاظها قط . وعلى الرغم من ان غرفتين اثنتين كانتا تفصلانني عنها فقد سمعت كل كلمة ندت من فمها : ان جدران ذلك البيت من بيوت جزائر الهند الغربية لم يعق انطلاق صيححاتها الذئبية الا قليلا .

« وقلت اخر الامر : هذه الحياة هي جهنم عينها ! وهذا هو هواؤها . . . وهذه هي اصدقاء هاويتها التي لا قرار لها ! ان لي ملء الحق في النجاة بنفسي منها اذا استطعت . وعندئذ تفارقني آلام هذه الحال الميته مع هذا اللحم الثقيل الذي يرهق الان روحي . اما ابدية المتعصبين اللاهبة فلا اخافها ، فليس ثمة حياة مستقبلية أسوأ من حياتي الحاضرة . . . فلاول فرارا ، ولانقلب عائدا الى الله !

« قلت ذلك وانا اركع وافتح صندوقا اشتمل على مسدسين مشحونين : كنت قد عزمت على الانتحار . ولكن هذه النية لم تستحوذ علي الا لحظة واحدة ليس غير . ذلك بأن ازمة القنوط الشديد الصُرف ، التي كانت قد ولدت الرغبة في قتل النفس والعزم عليه ما لبثت - بوصفي عاقلا غير مخبول - ان تلاشت في ثانية واحدة . . .

« وهبت على الاوقيانوس ريح عليلة مقلبة من اوروبة ، واندفعت عبر النافذة المفتوحة . وانفجرت العاصفة ، وامطرت ، ورعدت ، وامضت ، وغدا الهواء نقيا . عندئذ اتخذت قرارا وعقدت العزم على تنفيذه . فبينما كنت اتمشى تحت شجرات البرتقال المبللة في حديقتي الندية وبين شجرات الرمان والانااس المطورة ، وبينما كان فجر المناطق الاستوائية المتألق البهي يتقد من حولي ساورتني فكرة ، يا جين . . . والان اصيخي لي ، لان الحكماء

الحقيقية هي التي حملت الي العزاء في تلك الساعة ، وهدتني سواء السبيل .

« كانت الريح الاوروبية العليلة لا تزال توشوش اوراق الاشجار التي انتعشت بعد ذبول ، وكان المحيط الاطلسي لا يزال يرعد في حرية مجيدة . واستبشر فؤادي بذلك اللحن - بعد ان اتت عليه فترة طويلة جف فيها وتصوَّح - وفاض بالدم المحيي . . . . . وتاق كياني الى التجدد . . . . . وظمئت روحي الى جرعة صافية . ورايت الامل يبعث حيا ، واستشعرت ان التجدد ممكن . ومن قوسٍ مزهرةٍ في اقصى حديقتي رنوت الى البحر - وكان اشد من السماء زرقة - فألفت العالم القديم وراه ، وانفسحت مجالي المستقبل أمام ناظري على هذا النحو :

« لقد قال لي الامل : اذهب وعش في اوروبة من جديد . فهناك لا يعرف احد اي اسم ملوث تحمل ، ولا اي عبءٍ قد يُنقض ظهرك . وفي استطاعتك ان تصطحب المجنونة الى انكلترا . احبسها في ثورنفلد واحطها باسباب الرعاية والاحتراس الضرورية ، ثم ارتحل انت الى اياما منطقة تشاء ، وانشئ ضروب العلاقات الجديدة التي تحلو لك . ان هذه المرأة التي طالما نوئت اسمك ، وهاجت شرفك ، وصوحت شبابك ليست امرأتك . . . . . لا ولست انت زوجها . احرص على العناية بها وفق ما تقتضيه حالها تكن قد اديت كل ما يكلفك اياه الله وتكلفك اياه الانسانية . ادفن هويتها وصلتها بك في مطاوي النسيان : ان عليك ان لا تفضي بهما الى اياما كائن حي . احطها باسباب السلامة والرفه ، غلّف هوانها بالكتمان ، واهجرها .

« وعملت بهذا الایحاء في دقة بالغة . كان ابي واخي قد كتما نبأ زواجي عن معارفهما . لاني كنت قد الححت ، حتى في اول رسالة كتبتها اليهما معلنا اياهما نبأ زواجي - بعد ان شرعت بالغشيان من نتائجه ، وبعد ان رايت على ضوء خلق الاسرة ومزاجها ان مستقبلا بشعا ينتظرني - اقول لاني كنت قد الححت عليهما في تلك الرسالة ان يبقي النبأ سرا من الاسرار . وسرعان ما استفحل السلوك الشائن الذي سلكته الزوجة التي اختارها لي ابي استفحالاً جعله يخجل من الاعتراف بها زوجة لولده . واذا زهد في اعلان هذه المصاهرة على الناس فقد امسى حريصا على كتمانها كحرصي انا سواء بسواء .

« الى انكلترا نقلتها اذن ، ولقد كانت رحلة زهية حقا ومثل هذه الهولة على ظهر السفينة ! وسعدت اعظم السعادة عندما انتهت بها اخر الامر الى ثورنفلد ، وعندما رايتها تنزل آمنة في تلك الحجرة التي في الدور الثالث ، حيث جعلت من جزئها الداخلي الخفي ، طوال عشر سنوات متعاقبة ، وجارا من اوجرة السباع الضارية - زنازة غول من الغيلان . ولقد لقيت بعض العسر في العثور على خادم تلازمها ، اذ كان علي ان اختار خادما ذات اخلاص يجعلها موضع الثقة ، ذلك بأن هذيانها كان لا بد له ان



يفضح سري . والى هذا فقد كانت لها فترات صحو او تعقل تستمر اياما - واحيانا اسابيع - تعودت ان تملأها بسبي وشتمي . واخيرا استأجرت غرايس بول من مستشفى المجاذيب في غريسمبي . وهي والجراح كارتر ( الذي ضمّد جراح مايسون ليلة طعين ونهش ) هما الشخصان الوحيدان اللذين افضيت اليهما بسري . وجائز ان تكون مسز فيرفاكس قد ساورتها الرّيب . ولكنها ما كانت بقادرة على النفاذ الى الحقائق نفاذا دقيقا . فقد اثبتت غرايس ، على الجملة ، انها حارسة يقظة ، برغم ان يقظتها هذه خدعت غير مرة واغرّيت بالتراخي ، وبعض ذلك راجع الى علة فيها هي ، علة يبدو ان اياها شيء لا يستطيع ان يشفيها منها وانها من الظواهر الملازمة لمهنتها المزعجة . فالمجنونة مأكرة ومؤذية في آن معا . وهي لم تغفل قط عن الافادة من الهفوات التي ارتكبتها حارستها ، فآخفت ذات مرة تلك المدينة التي طعنت بها اخاها ، واستولت مرتين على مفتاح زنزانتها فغادرتها تحت جنح الظلام . وفي اولى هاتين المناسبتين حاولت احراقى وانا مضطجع في فراشي ، وفي ثانيتهما زارتك تلك الزيارة المروعة . واني لاحمد العناية الالهية ، التي حرستك ، على انها صبت نقيتها على ثوب زفافك ، الذي ربما اعاد الى مخيلتها بعض ذكريات عرسها الغامضة . ولكني لا اطيع التفكير في ما كان يمكن ان يحدث نتيجة لثورتها تلك . اني كلما تخيلت تلك المخلوقة التي انقضت على عنقي هذا الصباح تنحني بوجهها الاسود القرمزي على عُسْ يمامتي الحلوة ترتعد اوصالي ويجف الدم في عروقي . . »

فسألته وقد تمهل لحظة : « وما الذي فعلته ، يا سيدي ، بعد ان انزلتها هنا ؟ الى اين رحلت ؟ »

« ما الذي فعلته ، يا جين ؟ لقد حولت نفسي الى وهم اجمي \* . الى اين ارتحلت ؟ لقد همت على وجهي هيام الارواح على التخوم ما بين انكلترا واسكتلندة . ولقد شخصت الى اوروبة وطوفت في ارجائها كلها . كانت رغبتى الراسخة ان اهتدي الى امرأة صالحة ذكية استطيع ان احبها . . . امرأة مغايرة كل المغايرة لتلك المسعورة التي خلّفتها في ثورنفيلد . . »

« ولكنك لم تستطع ان تتزوج ، يا سيدي . »

« كنت قد عقدت العزم على ذلك وكنت موقنا من ان في امكاني ذلك . ولم يكن في نيتي ، بادىء الامر ، ان اخدع عروسي عن نفسها كما قد خدعتك عن نفسك . لقد اعتمدت ان اقص عليها قصتي في وضوح وان اقدم اليها عروضي في صراحة . ولقد بدا لي ان من المنطقي ان اعتبر حرا في ان احب واحب . وكان هذا الظن من القوة والرسوخ بحيث لم اشك لحظة في اني لا بد واجد امرأة ترغب في فهم قضيتي ، وتقدر على هذا الفهم ، ومن ثم ترخصيني زوجا لها ، على الرغم من اللعنة التي تنقض ظهري . »

– ثم ماذا ، يا سيدي ؟

– « كلما غلب عليك الفضول ، يا جين ، غلب علي الابتسام . انك تفتحين عينيك مثل طائر متلهف وتأتين بين الفينة والفينة بحركة قلقة . لكن الاجوبة التي يشتمل عليها كلامي لا تتدفق نحوك في سرعة كافية ، او لكأنك تريدان ان تقرأى ما خط على لوح فؤادي . ولكن قل لي ، قبل ان اتابع الحديث ، ماذا تعنين بقولك « ثم ماذا ، يا سيدي ؟ » انها عبارة قصيرة كثيرا ما يضطرب بها لسانك ، عبارة استطاعت في كثير من الاحيان ان تستدرجني ، ولست ادري لماذا ، الى الافاضة في حديث لا نهاية له . »

– « اعني . . وماذا حدث بعد ذلك ؟ ما الذي فعلته ؟ ما الذي نشأ عن هذه الحادثة ؟ »

– « تماما . وما الذي تريدان ان تعرفيه الان ؟ »

– « اريد ان اعرف هل وجدت ايما امرأة خفق بحبها قلبك ، وهل سألتها ان تقبل بك بعلا ، وماذا كان جوابها ؟ »

– « في استطاعتي ان اقول لك ما اذا كنت قد وجدت ايما امرأة خفق بحبها قلبي ، وما اذا كنت قد سألتها ان تقبل بي بعلا ، اما جوابها فلمّا يدوّن بعد في سجل القدر . لقد ضربت في الارض طوال عشر سنوات ، اقيم في هذه العاصمة مرة ، وفي تلك العاصمة مرة : احيانا في سانت بطرسبرج ، ومعظم الاحيان في باريس ، وبين الفينة والفينة في رومة ، او نابولي ، او فلورنسة . واذ كنت متزودا بشروة ضخمة وبجواز سفر يحمل اسما عريقا فقد استطعت ان اصطفي المجتمعات التي تاقّت اليها نفسي : ان ايما وسط من الاوساط لم يوصد ابوابه في وجهي . لقد رحت ابحت عن المرأة التي اعتبرتّها المثل الاعلى لبنات جنسها ، فالتقيتها بين السيدات الانكليزيات ، والكونتيسات الفرنسيات ، والسينيورات الايطاليات ، والغرافينات الالمانيات . ولكني لم اهتد اليها . وكان يخيل الي في بعض الاحيان ، خلال لحظة عابرة ليس غير ، اني لمحت نظرة او سمعت جرسا او شهدت شكلا يؤذن بتحقيق حلمي ، ولكني سرعان ما كنت افيق على الحقيقة . ولا يذهب بك الظن الى اني نشدت الكمال ، سواء في العقل او في الجمال . لا ، لقد تقّت الى نقائص تلك المرأة الخلاسية ، ولكن توقّي كان على غير طائل . فبينهن جميعا لم اجد واحدة خليقا بي لو كنت املك الحرية – انا الذي خربت مخاطر الزواج غير الملائم واهواله وتقززاته كلها – ان اسألها الزواج مني . واحالتني خيبة الامل الى فتى متهور طيّاش . ففزعت الى الملذات انغمس فيها ، ولكن ليس الى الفسوق البتة : فهذا شيء كرهته ولا ازال اكرهه . كانت هذه هي حسنة « ميساليتني » ❀❀

❀ في الاصل ladies وهي جمع « لايدي » ( المغرب )

❀❀ Messalina الزوجة الثالثة للامبراطور الروماني كلوديوس وكانت معروفة بفسوقها .

وقد توفيت عام ٤٨ بعد الميلاد . ( المغرب )

الهندية : ان اشمئزازي منها ومن فسوقها ذلك الاشمئزاز الراسخ الجذور  
كان يكبح من جماحي اشد الكبح ، حتى في لحظات الانغماس في الملذات .  
ولقد خيل الي ان كل متعة معربة كانت تدنيني منها ومن رذائلها ، فاناى  
بنفسي عنها واجتنبها .

« ومع ذلك فلم استطع ان اعيش وحيدا . وهكذا جربت معايشة  
الخليلات . ولقد وقع اختياري اول ما وقع على سيلين فارينز - وتلك خطوة  
اخرى من تلك الخطى التي تجعل المرء يزدرى نفسه حين يتذكرها . وانت  
تعرفين حقيقة هذه المرأة وكيف انتهت صلتني بها . وكانت لسيلين خليفتان :  
احدهما ايطالية ، هي جيبا سينتا ، والاخرى المانية ، هي كلارا . وكان  
الناس يعتبرون كلا منهما امرأة ذات جمال فذ . ولكن الام انتهت جمالهما ،  
في نظري ، بعد اسابيع معدودة ؟ كانت جيبا سينتا امرأة مخادعة نزاعة  
الى العنف فستمتها في مدى ثلاثة اشهر . وكانت كلارا مخلصه مؤثرة  
للهدوء ، ولكنها كانت بليدة ، حمقاء ، متحجرة الفؤاد ، لا يسيغها ذوقي  
البته . ولقد سعدت بان امنحها مبلغا من المال كافيا لان يمكنها من العيش  
من احدى الصناعات الصالحة ، وهكذا تخلصت منها بطريقة لائقة . ولكنني  
اتبين في وجهك ، يا جين ، انك لم تكوني عني حتى الان فكرة حسنة  
جدا . انت تحسبنني خليعا عاطلا عن الشعور ، فاجرا لا يقيم للمبادئ  
وزنا . اليس كذلك ؟ »

- « الواقع اني لا اكن لك مثل ذلك الحب الغامر الذي استحوذ عليَّ  
في فترة سابقة ، يا سيدي . الم يبدو لك ، بأية حال ، ان من الخط ان تحيا  
على ذلك النحو : مع هذه الخلية حينا ، ومع تلك حينا ؟ انك تتحدث عن  
مسلكك هذا وكأنه مسلك طبيعي الى ابعد الحدود » .

- « كان مسلكا طبيعيا بالنسبة الي ، ولكنني لم احبه . كان ضربا من  
الحياة الخسيسة ، وخليق بي ان لا انزع الى العودة اليه البته . ان استنجا  
خليلة ما لصنيع بغيض الى النفس - صنيع ليس ثمة ما هو اشنع منه غير  
شراء جارية ما . وكلتا الخلية والجارية وضيفة بفطرتها في اكثر الاحوال ،  
وضيفة بمرکزها الاجتماعي في جميعها . والعيش مع الوضعاء ، في غير ما  
كلفة ، مذل مهين . واني لاكره الان ذكرى الايام التي سلختها مع سيلين ،  
وجيبا سينتا ، وكلارا » .

وجدت في هذه الكلمات حرارة الصدق . وخلصت منها الى هذه النتيجة  
اليقينية : لو قدّر لي ان انسى نفسي وجميع التعاليم التي لقنتها في  
طفولتي ، وان اصبح - مهما تكن الذريعة ، وايا ما كان المبرر ، وتحت وطأة  
ايما اغراء - خليفة هاته الفتيات البائسات ، اذن لكان خليقا به ان يستشعر  
نحوي مثل هذا الشعور الذي يدنس الان ذكراهن في ذهنه . ولم افسح عن  
هذا اليقين : كان حسبي ان احس به احساسا . ولقد نقشته في قلبي رجاء  
ان يستقر هناك لكي يهرع لنجدتي عند المحنة .

- « والان ، يا جين ، لماذا لم تقولي : « ثم ماذا يا سيدي ؟ » انا لم انته بعد . ان علائم الغم لتبدو على وجهك . واني لارى انك لا تزالين تستنكرين مسلكي . ولكن دعيني اصل الى النقطة الجوهرية . ففي كانون الثاني ( يناير ) المنصرم دعاني داع من عمل الى العودة الى انكلترا ، وكنت قد تخلصت من خليلاتي جميعا ، فانقلبت راجعا ، يغلب علي مزاج قاس مرير - هو ثمرة الحياة العابثة ، الهائمة ، المتوحدة - وتتأكلني الخيبة ، ويقرضني الحقد على الناس جميعا ، وبخاصة على النساء كجنس ( ذلك بانني بدأت اعتبر ان المرأة المحبة المخلصة المفكرة لا وجود لها في دنيا الواقع . . انها مجرد حلم من الاحلام ) .

« وذات اصيل شتوي يلفه الصقيع ، انطلقت بجوادي حتى اصبحت على مقربة دانية من قصر ثورنفيلد . يا لها من بقعة بغيضة ! انا لم اكن اتوقع ان اجد فيها ايما أمن او هناءة . وعلى سلم السياج في طريق « هاي » رايت مخلوقة ضئيلة الجسم جالسة وحدها في وداعة . فاجتزت بها بمثل اللامبالاة التي اجتزت بها بالصفصافة المشدبة التي كانت تواجهها : ان قلبي لم يحدثني بأيا شيء استشف منه اية منزلة سوف تحتل من فؤادي ، لا ، ولم ينبئني اي هاتف باطني بأن الفتاة التي ستكون لها الكلمة الفاصلة في حياتي والجنينة التي ستلهمني الخير او الشر كانت تنتظرني هناك متنكرة بقناع بسيط متواضع . انا لم اعرفها ، حتى عندما كبا « مسرور » بي وهرعت كاسفة البال تعرض علي العون والمساعدة . يا للمخلوقة الطفولية المزهولة ! لقد بدا وكأن زقيةة \* راحت تشب عند قدمي وتقترح حملي على جناحها الضئيل . وقابلتها في شكاسة وعبوس ، ولكن تلك المخلوقة أبت ان تنصرف . لقد لزمت مكانها الى جانبي في عناد غريب ، ونظرت اليّ وحدثنني بضرب من السلطان . كان علي ان احظى بالعون ، ومن تلك اليد ! ولقد حظيت بالعون فعلا .

« ولحظة ضغطت على تلك الكتف الهشة سرى في اوصالي شيء غريب علي : نسغٌ جديد ، واحساس لم اعرفه من قبل . وابتهجت عندما علمت ان هذه العفريئة الصغيرة سوف ترجع معي . . . انها تقيم في قصري ذاك ، القائم هناك ، والا لما كان في طوقي ان ادعها تفر من تحت يدي وان اراها تختفي خلف السياج القاتم من غير ان يستبد بي ندم فذ . وسمعت وقع خطاك وانت تعودين الى القصر تلك الليلة ، يا جين ، على الرغم من انك لم تعي في اغلب الظن اني فكرت فيك او انتظرت عودتك . وفي اليوم التالي راقبتك - من غير ان تريني - طوال نصف ساعة فيما كنت تلعبين مع آديل في الرواق . انا اذكر انه كان يوما تساقط فيه الثلج فلم يكن في ميسوركما ان تنطلقا خارج الجدران . وكنت انا في حجرتي ، وكان الباب

\* طائر صغير يأكل حب الكنان .

مفتوحاً نصف فتحة : لقد كان في وسعي ان اصغي وارى في آن معا . واستحوذت أدبل على انتباهك الخارجي فترة من زمان ، ومع ذلك فقد خيل الي ان افكارك كانت شاردة في مكان آخر : ولكنك كنت طويلة الاناة معها الى حد بعيد ، يا صغيرتي جين . لقد تحدثت اليها وسلّيتها برهة طويلة . حتى اذا فارقتك اخر الامر استغرقت على التو في حلم عميق من احلام اليقظة : لقد مضيت في تودة لتدري الرواق . وبين الفينة والفينة كنت تطلين - كلما اجتزت باحدى النوافذ - وتلقين نظرة على الثلج المساقط في كثافة ، وتصيخين الى الريح المنتحبة ، لتعاودي من ثم سيرك الرفيق واستسلاكك للاحلام . واحسب ان احلام اليقظة تلك لم تكن قاتمة ، فقد كان يلتمع في عينيك احيانا بريق بهيج ويغلب على محياك اهتمام رقيق لا ينمان عن تفكر مرير ، صفراوي ، ميلانخولي : بل لقد نمت اساريك عن تلك التأملات العذبة التي يهيم الشباب في واحتها عندما تسير روحه ، على اجنحة مطواعة ، طيران الامل نحو سماء مثالية . وايقظك صوت مسز فيرفاكس ، وكانت تتحدث الى خادم في الردهة ، وكم كانت بديعة تلك الابتسامة التي افترت عنها شفتاك بينك وبين نفسك ، يا جين ! لقد كان في ابتسامتك كبير معنى : كانت لبينة جدا ، وبدا وكأنها تلقي ضوءا على شروذ ذهنك . لقد خيل الي انها تقول : « ان رؤاي الرائعة حسنة جدا ، ولكن علي ان لانسى انها وهمية بكل ما في الكلمة من معنى . ان في مخيلتي لسماء وردية ، وجنة خضراء مورقة . اما في خارجها ، وانا اعني ذلك اكمل الوعي ، فتنبسط تحت قدمي طريق وعرة علي ان اسلكها ، وتتجمع من حولي عواصف سوداء يتعين علي ان اواجهها » وهبطت السلم مسرعة ، وسألت مسز فيرفاكس ان تعهد اليك بعمل ما ، كتسوية حسابات القصر الاسبوعية ، في ما اظن ، او شيء من مثل ذلك . واغتظت انا منك ، لابتعادك عن متناول ناظري .

« وفي فروغ صبر ، رحت ارتقب هبوط الليل ، اذ كان في ميسوري آنذاك ان ادعوك الى المتول بين يدي . لقد خيل الي انه كان لك خلق غير مألوف ، خلق كان عندي جديدا بالكلية ، ولقد تقى الى ان اسبر غوره . الى ان اعرفه معرفة افضل . ودخلت الحجرة وعلى محياك سيماء تنسم عن حياء واستقلال في الرأي ، في آن معا : كنت ترتدين ثيابا غريبة . . . كمثل الثياب التي ترتدينها الان . واستدرجتك الى الكلام ، ولم يمض طويل وقت حتى اكتشفت انك حافلة بالمناقضات العجيبة : كانت ملابسك واخلاقك مترمنة تقيدتها قواعد العرف ، وكانت تصرفاتك حية في معظم الاحيان ، جديرة بفتاة صقلتها الطبيعة ولكنها لم تالف الحياة الاجتماعية البتة ، فتاة تخشى اشد الخشية ان يند من شفتيها هراء ما او ترتكب خطأ فاضحا يجملائها موضع سخرية السامع ، ومع ذلك فقد كنت كلما وجّه الكلام اليك ترفعين الى وجه مخاطبك عينا ملتزمة ، جريئة ، ناقبة : كان ثمة نفاذ وقوة في كل نظرة من نظراتك ، حتى اذا الح عليك مخاطبك بأسئلة محرجة

سارعت الى الرد عليه بأجوبة حاضرة وصريحة . وما هي غير فترة قصيرة حتى بدا وكأنك قد الفتِ معاشرتي : وانا اعتقد انك استشعرت مشاركة وجدانية بينك وبين سيدك المتجهم النزق ، يا جين ، اذ كان من دواعي دهشي ان ارى بأية سرعة بالغة كانت الطمأنينة العذبة تهدى من روعك . كنت مهما دمدت' او كشرت' لا تتكشفين عن ايما دهش او خوف او تبرم او استياء من نكدي وشكاستي ، وكنت تراقبيني ، وتبتسمين لي بين الفينة والفينة في لطف بسيط ولكنه اريب ، لطف يعجز بياني عن وصفه . كنت في آن معا راضيا ومثارا بما قد رأيت : لقد احببت ما رأيت وطمعت في مزيد . ومع ذلك ، فقد عاملتك ، طوال فترة غير قصيرة ، في شيء من التحفظ ، ولم اقصد الى الاجتماع بك الا نادرا . كنت ابقوري الهوى ، عقليا ، وكنت اريد ان اطيل أجل الاستمتاع بهذه الصداقة الجديدة الحريفة . والى هذا ، فقد استحوذ علي ، فترة من الزمان ، خوف صور لي اني اذا لمست الزهرة في غير احتراس ذبل بهاؤها . . . وفارقها سحر النضارة العذب . انا لم اعرف آنذاك انه لم يكن تفتحا زائلا البتة ، ولكنه ضرب من التفتح المشع المميز لزهرة منقوشة في جوهرة ممتعة على التلف والفساد . وفوق هذا ، فقد احببت ان ارى ما اذا كنت سوف تسعين للقائي ان عمدت' الى اجتنابك . . . ولكنك لم تفعلي . لقد لُزمت حجرة الدرس جامدة مثل مقعدك ومسند رسمك ، فاذا ما اتفق لي ان لقينك مصادفة اجتزت بي في سرعة ولا مبالاة لا يخفف من غلوائهما غير حرصك على التشبث بأهداب الاحترام . وكانت انطباعتك المألوفة في تلك الايام ، يا جين ، سيماء متفكرة : لم تكن قانطة ، اذ لم تكوني آنذاك رقيقة الصحة ، ولكنها لم تكن بهيجة اذ كان صدرك لا ينطوي الا على قليل من امل ، وكانت نفسك لا تعرف الجبور الحقيقي البتة . وتساءلت : ترى ما رأيك في ، أو هل كنت تولينني جانبا مهما يكن ضئيلا من تفكيرك . ولكي أهتدي الى جواب لهذين السؤالين استأنفت مراقبتي لك . كان ثمة مسحة من البهجة علي محياك ، وشيء من الود في تصرفاتك ، كلما تحدثت . لقد رأيت ان لك قلبا اجتماعيا يأنس بالمعاشرة ، وان حجرة الدرس الصامتة ورتابة حياتك هما اللتان اوقعتا الكآبة في نفسك . واجزت لنفسي ان تسعد بالتلطف في معاملتك ، وسرعان ما اثار التلطف عاطفتك : لقد غدا وجهك رقيق الانطباع ، وغدت لهجتك رقيقة . وكنت أطرب لسماع اسمي يلفظ من بين شفتيك في نبرة سعيدة ترشح بالاعتراف بالجميل . وكان من دأبي ان استمتع ببعض اللقاءات العَرَضية معك ، يا جين ، في تلك الفترة . لقد كان في تصرفاتك تردد غريب : كنت تنظرين الي في قلق طفيف . . . في ارتياب مخيم ، ذلك بأنك كنت تجهلين أي مزاج كان خليقا به ان يغلب علي آنذاك : اعتزم ان امثل دور السيد فاصطنع القسوة ، أم امثل دور الصديق فافزع الى الرافة . ولكنني كنت قد امسيت آنذاك مولعا بك ولوعا جعل من المتعذر علي ان اعمد الى اثاره النزوة الاولى ، وكنت اذا ما بسطت يدي نحوك في محبة ،

اشرقت اسازيرك الغضة الكثيبة بهتلل وضياء وسعادة جعلتني القى عسرا  
بالغا ، في كثير من الاحيان ، في اجتناب ضمك الى قلبي ، .

– «ارجوك ان تكفي بهذا القدر من الحديث عن تلك الايام ، يا سيدي ،  
كذلك قاطعته ، وأنا اكفك عبرات تفرقت في عيني . كانت كلماته تعذب  
نفسي ، ذلك بأنني كنت اعرف ما الذي يتعين علي ان افعله – وان افعله  
وشيكاً – وكانت هذه الذكريات وهذه المكاشفات العاطفية لا تزيد مهمتي الا  
صعوبة وعسرا .

فقال : « أجل ، يا جين ، سوف اكتفي بهذا القدر . وأية حاجة لي في  
الاسهاب في الكلام على الماضي ما دام الحاضر ادعى الف مرة الى الثقة  
والاطمئنان . . . وما دام المستقبل احفل الف مرة بالبشر والاشراق ؟ »

وارتعدت لسماع ذلك التوكيد المتين المخبول .

واردف يقول : « انت ترين ، الان ، حقيقة الوضع . . . اليس كذلك ؟  
فبعد ان سلخت سنوات شبابي ورجولتي في شقاء يعز على الوصف ، من  
ناحية . وفي توحد موحش ، من ناحية ، اكتشفت للمرة الاولى من استطيع  
ان احبه حبا حقيقيا . . . اكتشفتك أنت . انت شقيقة روحي . . . انت  
نفسي الفضلى . . . انت ملاكي الكريم . ان حبا عارما ليشدني اليك ، واني  
لاراك فتاة طيبة ، موهوبة ، بهية الطلعة . ان فؤادي ليضمر لك عاطفة مهيبة  
متقدة . وهذه العاطفة تجنح اليك ، وتجذبك الى قلب حياتي وينبوعها ،  
وتلفئك بكياني . . . وتصهرك وتصهرني ، بلهبها الطاهر المشبوب ، في كل  
واحد .

« وانما كان احساسي بهذا وادراكي اياه همسا الحافزين للذين جعلاني  
اعقد العزم على البناء بك . وما قولك ان لي زوجة غير سخرية فارغة ،  
فانت تعرفين الان انه ليس لي غير شيطانة رهيبة . لقد اخطأت عندما حاولت  
أن اخدعك ، ولكنني خسيت عنادا يتسم به خلقتك . لقد خشيت ان تؤدي  
مصارحتك بالواقع الى اشراب قلبك بكراهية لي مبكرة ، ولقد اردت ان اطمئن  
الى انك قد صرت ملكي قبل الافضاء اليك بأي حديث ينطوي على مخاطرة .  
وكان ذلك جينا : فقد كان علي ان استصرخ نيلك وشهامتك اولا ، كما افعل  
الان . . . ان اصارحك بحياتي الطافحة بالالام . . . ان اصف لك جوعي  
وظمأي الى حياة اسمى واجدر . . . ان اظهر لك ، لا عزمي ( فهذه كلمة  
ضعيفة ) بل تصميمي الذي لا يقاوم على ان احب في اخلاص وقوة من يبادلني  
الحب في اخلاص وقوة . وبعد ذلك كان يتعين علي ان اسألك ان تأخذني  
علي عهد الوفاء ، وان تعطيني عهدك . جين ، عاهديني ، الان على الوفاء ! »

وران الصمت .

– « لم لا تتكلمين يا جين ؟ »

كنت اجتاز محنة قاسية : لقد اعتصرت فؤادي يد حديدية ملتهبة .  
وكانت لحظة رهيبة ، ملأى بالنضال ، والكآبة ، والاحترق ! ان ايما كائن

بشري قدّر له ان يحيا على سطح هذه الارض لم يكن في ميسوره ان يطمع في ان يلقي من الحب اكثر مما لقيت ، ولقد عبت أنا ، بكل ما في الكلمة من معنى ، ذلك الذي احبني هذا الحب كله . ومع ذلك فقد كان علي أن اشيع عن الحب وعن المعبود في أن معا ! كان ثمة كلمة واحدة موحشة تشتمل على واجبي الثقيل الذي لا يطاق : « الرحيل ! »

« جين ، انت تفهمين ما اريده منك . . . أنا لا اريد غير هذا العهد : سوف أكون ملكك ، يا مستر روتشيستر ! »

« مستر روتشيستر ، أنا لن أكون ملكك . »

وران صمت طويل كرة اخرى .

فاستطرد في رقة حطمتني باللوعة والاسى وحجرتني برعب مشؤوم ، فقد كان صوته برغم هدوئه أشبه بلهات اسد : « جين ، اعتزمين ان تتخذي لنفسك طريقا في الحياة ، وان تدعيني اتخذ لنفسي طريقا مختلفة ؟ »

« نعم ، اعتزم ذلك . »

« جين ، ( ومال علي وعافقني ) الا تزالين تعتزمين ذلك الان ؟ »

« نعم ، لا ازال . »

« والان ؟ » وطبع على جيبيني وخدي قبلات رقيقة .

« نعم ، لا ازال . . . » وتحررت من اساره تحررا سريعا وكاملا .

« أوه ، جين ، هذا مرير ! هذا . . . هذا اثم . انه ليس من الاثم ان

تجيبيني . »

« ومن الاثم ان اطيعك . »

فرفعت حاجبيه سيماء ضارية عصفت بلامح وجهه . ونهض ، ولكنه ظل معتصما بالصبر . ووضعت يدي على ظهر احد الكراسي حذر السقوط . لقد ارتعدت اوصالي . . . لقد خفت . . . ولكني عقدت العزم .

« لحظة واحدة ، يا جين . فكري لحظة واحدة في ما ستؤول اليه حياتي الرهيبة عندما ترحلين . ان السعادة كلها سوف تمرق بذهابك . ما الذي سيبقى لي بعد ذلك ؟ لن تكون لي زوجة غير تلك المجنونة التي في الدور العلوي ، غير جنة اشبه بتلك الجثث الراقدة هناك في المقبرة . . . ما الذي سأفعله ، يا جين ؟ الى من سأطلع التماسا للرفيق . . . التماسا لشئ من أمل ؟ »

« افعل ما افعله أنا . ضع ثقتك في الله وفي نفسك . آمن بالسماء .

ارج' ان نلتقي هناك كرة اخرى . »

« واذن فانت لن تدعني ؟ »

« لا . »

فقال وقد ارتفع صوته : « واذن فانت تحكمين علي بأن احيا بانسا ، وبأن اموت ملعونا . »

« انا انصح لك ان تعيش من غير خطيئة ، وارجو لك ان تموت



في سلام .

« واذن فأنت تسليبيني الحب والبراءة ؟ انك ترديني إلى الشهوة استغني بها عن الهيام ، وإلى الرذيلة أملاً بها ساعات حياتي ؟ »

« أنا لا افرض عليك هذا المصير البتة ، يا مستر روتشيستر ، الا اذا كنت انا ارتضيه لنفسى واتشبث به . لقد خلقنا لكي نكدح ونحتمل . . . شأنك في ذلك كشأني . . . فاعمل وفق ما خلقت له . . . ولسوف تنساني قبل ان انساك . »

« انك تتهميني ، بهذا الكلام ، بالكذب والبهتان : انك تغمزين من قناة شرفي . لقد اعلنت اني لا استطيع ان اتغير ، ومع ذلك فأنت تقولين لي ، في وجهي ، اني سوف اتغير وشيكا . ولشد ما يثبت سلوكك مدى الانحراف في حكمك ، ومبلغ الضلال في آرائك ! أيسكون دفع آخر لك في الانسانية نحو اليأس والقنوط خيراً من مخالفة مجرد قانون بشري . . . قانون لن ينزل انتهاكه اذى ما بأي امرئ من الناس ؟ ذلك بأنه ليس لك انساب ولا معارف تخشين اغصابهم بالعيش معي . »

وكان هذا صحيحاً . وفيما كان يتكلم خائني ضميري نفسه وعقلي نفسه ، وأتهماني بالإجرام اذا ما قاومته . لقد تكلم بصوت لا يقل ارتفاعاً عن صوت العاطفة ، وكانت هذه قد صرخت في ضراوة : لقد قالت : « اوه ، ادعني ! فكري في بؤسه ، فكري في الخطر الذي يحف به . . . تصوري حاله بعد ان تتركه وشأه ، تذكري طبيعته الرعناء ، اعتبري الطيش الذي لا بد ان يعقب يأسه . . . هديه ، انقيذه ، احبيه ، قل لي له انك تحببته وانك سوف تكونين له . من الذي يحفل بك في العالم كله ؟ او من ذا الذي سوف يمسسه الاذى من جراء ما تفعلين ؟ »

ومع ذلك فقد كان الجواب جموحاً لا سبيل الى تطويعه : انا احفل بنفسى . وكلما اشتد توحيدي ، وكل اصدقائي ، وعدمتي من يعينني ازداد احترامي لنفسى . سوف اتشبث بالشرعية التي سنّها الله ، وأقرّها الانسان . سوف اتعلق بالمبادئ التي لقيتُها يوم كنت عاقلة ، لا وأنا مخبولة . . . كشأني اليوم . ان الشرائع والمبادئ لم تجعل للاوقات التي يُفْتَقَد فيها الاغراء : لقد جعلتُ للحظات مثل هذه اللحظة ، عندما يتمرد الجسد والروح على قسوتها . والحق انها صارمة ، ومصونة سوف تظل . واذا ما اجزت لنفسى ان انتهك حرمتها كلما حلا لي ذلك فاية قيمة تبقى لها ؟ ان لها لقيمة . . . هذا ما آمنت به دائماً ، واذا كنت لا استطيع ان اؤمن به الان فما ذلك الا لانني مخبلة . . . مخبلة بكل ما في الكلمة من معنى : تسري النار في عروقي ، ويخفق قلبي بأسرع مما استطيع ان احصي نبضاته . ان الآراء المدركة على نحو سبقي والقرارات المتخذة سلفاً هي كل ما أملك الان ان الزمه واخلص له ، وهناك يجب ان أثبت قدمي . »

ولقد اثبتتها فعلاً . وقرأ مستر روتشيستر اسارير وجهي فأدرك اني

أقدمت على ذلك . كان حنقه قد استشير الى أبعد حدود الاستشارة ، فستسلم له لحظة ايا ما كانت العاقبة . وهكذا عبر ارض الحجرة ، وقبض على ذراعي وأمسكني من خصري . لقد بدا وكأنه يفترسني بنظراته اللاهبة . وفي تلك اللحظة استشعرت ، جسديا ، اني عاجزة مثل عقب من اعقاب الحنطة عرض لانفاس احد الافران ووهج ناره . أما عقليا فقد بقيت مالكة زمام نفسي وثقتي بالسلامة المطلقة . ومن حسن الطالع ان للنفس مترجما - كثيرا ما يكون لا واعيا ولكنه برغم ذلك صادق ، وما ذلك المترجم غير العين . ولقد ارتفعت عيني لتواجه عينه ، وفيما كنت احدث الى وجهه الضاري اطلقت زفرة لا ارادية . كانت قبضته موجهة وكانت قوتي المبهدة قد نفدت او كادت .

وقال وهو يصرُ بأسنانه : « ان ايا شيء لم يبلغ قط من قبل مبلغ هذه المخلوقة من الهشاشة ومبلغها من الصلابة في آن معا . اني لاحس بها بين يدي وكأنها مجرد قصبه ! ( وهزني بقبضته القوية ) ان في ميسوري أن الويها بسبابتي وابهامي : ولكن أية فائدة ارتجيهما اذا ما لويتها ، اذا ما اقتلعتها ، اذا ما سحقتهما ؟ انظر الى تلك العين : تأمل ذلك الشيء الحر ، الضاري ، المصمم المطل منها ليتحداني بما هو اكثر من الشجاعة . . . بانتصار صارم . اني مهما افعل بقفصها - يا للمخلوقة المتوحشة الجميلة ! - أظل عاجزا عن بلوغها . ولو اني مزقت هذا القفص الضئيل اذن لما ادى هياجي الى اكثر من اطلاق سراح الاسير . اني قد اوفق الى احتلال ذلك المثوى ، ولكن نزيلته سوف تفر الى السماء قبل ان استطيع الاعتزاز بأني مالك بيتها الفخاري . انك انت ، ايها الروح - بعزيمتك وطاقتك ، بفضيلتك وطهارتك - ما اتوخاه واريد ، لا هيكلك الهش فحسب . وخليق بك ، ان تترك لك الحرية ، ان تطيري في رقة ورشاقة وتستكني في فؤادي اذا شئت . اما اذا اكرهت على ذلك برغم ارادتك فعندئذ لا بد ان تفري من قبضة اليد مثل عطر من العطور . . . انك سوف تتلاشين قبل ان استروح عبيرك الفاغم . اوه ، تعالي ، يا جين ، تعالي ! »

قال ذلك واطلقني من مخالبه ، واجتزأ بالتحديق الي . كانت نظرتي تلك اقصى من ضغطه المسعور واكثر امتناعا على المقاومة . بيد ان الابله وحده ينزع الان الى الاستسلام . لقد تحدثت ثورته واحبطتها ، فيتعين علي ان انجو بنفسني من سلطان اساء . وهكذا انسحبت نحو الباب .

- « انت ذاهبة ، يا جين ؟ »

- « انا ذاهبة ، يا سيدي . »

- « ولسوف تتركينني ؟ »

- « نعم . »

- « الن تأتي ، الن تكوني مؤاسيتي ومنقذتي ؟ . . . وحي العميق ، وبليتي الضارية ، وضراعتي المشبوبة ، ليس لها كلها ، عندك ، أي اعتبار ؟ »  
يا للشجن المكبوح الذي انطوى عليه صوته ! وكم كان عسيرا علي أن

اجيب في ثبات : « انا ذاهبة » .

- « جين ! »

- « مستر روتشيستر ! »

- « ارحلي اذن ... انا اوافق ... ولكن تذكرني : انك تخلّفينني هنا فريسة لكرب عظيم . اصعدي الى حجرتك ، فكري في كل ما قلته لك ، يا جين ، واقفي نظرة على آلامي ... فكري بي » .

واستدار ، وانطرح على وجهه على الاربكة ، ومن شفثيه انطلقت هذه الكلمات في ألم مبرح : « أوه ، جين ! ... يا أملي ... يا حبي ... » .  
حياتي ! « وارسل زفرة عميقة قوية .

وكننت قد انتهيت الى الباب . ولكني ، ايها القارئ ، عدت ادراجي ... عدت ادراجي بمثل العزم والتصميم اللذين كننت قد انسحبت بهما . وركعت ازاءه ، وادرت وجهه المكبّ على الوسادة ، نحوي ، وطبعت على خده قبلة ، وامررت يدي على شعره في رفق .

وقلت : « فليباركك الله ، يا سيدي الغالي . فليصنك الله من الاذى والخطأ ... ليهذك سواء السبيل ، ويوقع في قلبك العزاء ... فليحسن ثوابك علي ما ابديته من سالف عطف علي » .

فأجاب : « ان حب جين الصغيرة كان خليقا به ان يكون خير ثواب لي . بدونه ينظر قلبي . ولكن جين سوف تجود علي بحبها : اجل ، سوف تجود علي به في نبل وفي سخاء » .

وشاع الدم في وجهه ، وانطلق الشرر من عينيه ، وانتصب واقفا . لقد بسط ذراعيه نحوي ، ولكنني اجتنبت عناقه ، وغادرت الحجرة في الحال .

- « وداعا ! » تلك كانت صيحة فؤادي وانا افارقه . ثم ان اليأس اضاف : « وداعا ، الى الابد ! »



في تلك الليلة لم يخطر ببالي ان انام قط . ولكن الكرى غلب علي حالما اضطجعت في الفراش . وحملت علي جناح الفكر الى مسارج الطفولة : لقد حلمت اني في الحجرة الحمراء في قصر غايتسهيد ، وان الليل حالك ، وان مخاوف غريبة استحوذت علي عقلي . وبدا لي وكأن الضوء الذي ذهب برشدي في ذلك العهد البعيد ، والذي انبعث من جديد في هذه الرؤيا ، قد انزلق متسلقا الجدار واستقر مرتعشا في منتصف السقف القاتم . ورفعت رأسي لارى : كان السقف قد استحال الى سحب شامخة داكنة ، وكان الضياء يشبه ذلك الذي يسفحه القمر على الضباب استعدادا لتبيده . وانشأت اراقب طلوع القمر ، اراقبه في جزع ليس ثمة ما هو اغرب منه علي الاطلاق ، وكان الحكم بهلاكي سيكون مسطورا علي قرصه . لقد انبثق كما لم ينبثق قمر ، في ايما ليلة ، من خلال السحاب : ان يدا اخترقت بادی الامر تلك الطيات القاتمة وردتها الى بعيد . وبعد ذلك لم يشرق في اللازورد قمر ، ولكن

شبح بشري ابيض حتى جبينه البهي نحو الشرق . لقد حذق الي ، فاطال  
التحديق . ولقد تحدث الى روحي : كان صوته ينبعث من مكان قصي الى حد  
يمنتع على القياس ، ومع ذلك فقد كان من القرب بحيث همس في فؤادي :

« انجي بنفسك ، يا ابنتي ، من الاغراء ! »

« سوف انجو بنفسي ، يا اماء ! »

بذلك اجبت بعد ان افقت من ذلك الحلم الذي كان اشبه بغيبوبة من  
غيبوبات التنويم المغناطيسي . كان الليل مسدلا استاره ، ما يزال ، ولكن  
ليالي تموز ( يوليو ) قصار ، ما ان تنتصف حتى يقبل الضحى . وقلت في  
ذات نفسي : « لست احسب ان الوقت لا يزال ابكر من ان اشرع في اداء  
مهمتي » . ونهضت من فراشي : كنت مرتدية ملابسني ، ذلك بانني لم اكن  
قد خلعت غير نعلي . وكنت اعلم اين اجد في ادراجي بعض القمصان ،  
وقلادة ، وخاتما . وفيما كنت التمس هذه الاشياء وقعت على حبات عقد  
لؤلؤي كان مستر روتشيستر قد اكرهني على قبوله قبل بضعة ايام .  
فتركته . انه لم يكن ملكا لي : كان ملكا للعروس الوهمية التي كانت قد  
تلاشت في الهواء . اما الاشياء الاخرى فجمعتها في رزمة . واما كيس نقودي ،  
المشتمل على عشرين شلنا ( كانت هي كل ما املك ) فوضعت في جيبني .  
واعتمرت بقبعتي القشبية ، وشكلت شالي بدبوس ، وحملت الحزمة ومشائتي ،  
ولم اكن قد لبستها من قبل قط ، وانسللت من الحجرة .

وهمست وانا اجتاز ، على رؤوس اصابعي ، بباب مسز فيرفاكس :  
« وداعا يا مسز فيرفاكس الكريمة ! » حتى اذا التفت نحو حجرة الاطفال  
قلت : « وداعا ، يا عزيزتي آديل ! » ولم يكن في امكاني ان اذعن لايما رغبة  
تغريني بالدخول ابتغاء تقييلها ومعانقتها . كان علي ان اخدع اذنا واعية ،  
فقد كنت اعلم على اية حال انها قد تكون الان مصغية .

وكان خليقا بي ان اجتاز بحجرة مستر روتشيستر من غير توقف ،  
ولكن قلبي كف عن الخفقان حالما بلغت تلك العتبة ، فأكرهت قديماي على  
التوقف ايضا . ان النوم لم يفي ، تلك الليلة ، الى هذه الحجرة : كان نزيلها  
يذرعا ، في قلق ، من جدار فيها الى جدار ، ومرة تلو مرة تنهد فيما كنت  
اصغي . كان ثمة جنة لي - جنة مؤقتة - في هذه الحجرة ، اذا ما اخترت  
ذلك : لم يكن علي الا ان ادخل عليه واقول :

« مستر روتشيستر ، سوف احبك واحيا معك مدى الحياة وحتى  
تدركني المنية » وعندئذ يتفجر الى شفتي ينبوع من جدل غامر . لقد فكرت  
في ذلك .

ان هذا السيد الكريم ، الذي امتنعت عيناه الان على الغمض ، كان  
ينتظر ارتفاع الضحى في صبر نافذ . انه سوف يرسل في طلبي ، مع  
الصباح . ولكنني سوف اكون قد مضيت لسبيلي ، ولسوف يبحث عني ، على  
غير طائل . وعندئذ لا بد ان يشعر اني قد تخليت عنه ، واني قد رفضت

حبه ، فيتردى في وهدة العذاب ، وقد يغلب عليه القنوط . لقد فكرت في هذا ايضا ، فامتدت يدي نحو القفل . ولكنني رددتها عنه ، وتسلسلت متابعة طريقي .

لقد هبطت السلم في كآبة : كنت اعرف ما الذي يتعين علي ان افعله ، ولقد فعلته على نحو آلي . وهكذا التمسست مفتاح الباب الجانبي في المطبخ ، والتمسست ، ايضا ، قنينة زيت وريشة ورحت ازيت المفتاح والقفل . وجئت بشيء من ماء ، وبشيء من خبز : فلربما تعين علي ان اسير مرحلة بعيدة ، وليس ينبغي لقوتي التي زلزلت في الايام الاخيرة بعنف ، ان تهن وتنهار . وهكذا كله فعلته من غير ان احداث اية ضجة . وفتحت الباب ، وخرجت ، ثم اوصدته في رفق . كان الضحى قد ارتفع اغبش باهتا في فناء القصر . وكانت الابواب الخارجية مغلقة ومقفلة . ولكن بويبا واحدا في احدها كان موصدا بالمزلاج ليس غير . ومن خلال هذا البويب بالذات ارتحلت ، وحتى هذا البويب اغلقتة من ورائي ، فاذا بي اجد نفسي خارج قصر ثورنفيلد .

كان علي مبعدة ميل واحد ، وراء الحقول ، طريق ينسبط في اتجاه معاكس لميلكوت ، طريق لم اسلكه قط من قبل ، ولكنني كثيرا ما لمحتة ، وتساءلت الى اين يفضي . فما كان مني الا ان اتجهت نحو هذا الطريق ، غير مجيزة لنفسي ان افكر بأي شيء ، او القي اياما نظرة الى الوراء ، بل حتى الى الامام . كان علي ان لا التفت الى الماضي ، وان لا اطلع الى المستقبل . فقد كان الاول صفحة عذبة علي نحو سماوي - مخزونة علي نحو مهلك - حتى لقد كان في مجرد تلاوة سطر من سطورها ما يذيب شجاعتي ويهد طاقتي . وكان الثاني صفحة بيضاء رهيبة : شيئا اشبه بالعالم بعد انقضاء الطوفان .

ورحت اسير في محاذاة الحقول ، والاسيجة ، والدروب ، الى ما بعد طلوع الشمس . واحسب انه كان صباحا صيفيا جميلا ، واني لاذكر ان نعلي ، اللذين كنت قد لبستهما عندما غادرت القصر ، سرعان ما تبللا بالندى . ولكنني لم ارن' لا الى الشمس البازغة ، ولا الى السماء المبتسمة ، ولا الى الطبيعة المستيقظة من رقادها . ان من يساق الى المشنقة ، عبر مناظر طبيعية ساحرة ، لا يفكر في الرياحين التي تبتسم في طريقه ولكن في آلة الاعدام وشفرة الفأس ، في كسر العظام وتمزيق الاوردة ، في القبر الفاجر فاه اخر الامر : ولقد فكرت انا في هروبي الموحش وضربي في الارض على غير هدى ، وفكرت - بمثل سكرة الموت - في الذي خلّفته ورائي . انا لم اتمالك نفسي عن ذلك . اجل ، لقد تصورته وقد وقف الان في حجرته يشهد طلوع الشمس راجيا ان افد عليه وشيكا لكي اعلن له اني سوف ابقى الى جانبه ، واكون ملكه . لقد تقمت الى ان اكون ملكه ، وتلهفت على العودة : فلم يكن الاوان قد فات ، وكان لا يزال في ميسوري ان اكفيه مؤونة الحرمان وغصصه المريرة . وكنت على مثل اليقين من ان هروبي لما يكتشف بعد . لقد كان في امكاني ان اعود ادراجي واكون مصدر عزائه ، وموضع اعتزازه ،

ومنقذته من البؤس ، وربما من الخراب . اوه ، لشد ما نخسني الان ذلك  
 الخوف من تخليه عن نفسه ، وهو شر من تخليّ انا عنه واسوأ منه بكثير !  
 لقد كان سهمها شائك النصل مغروزا في قلبي ، وحاولت نزعها فمزقني تمزيقا ،  
 حتى اذا اقحمتها الذكريات الى ابعد فأبعد كاد الاغماء يطرحني ارضا . وانشأت  
 الطيور تغرد في الآجام والادغال : كانت الطير تخلص الود لاقراها ، وكانت  
 الطير رمز الحب . اما انا فأني شيء كنت ؟ وفي غمرة من آلام قلبي وجهودي  
 المهووسة لاحترام مبادئي ، ابغضت نفسي واجتويتها . ولم يحمل الي رضائي  
 عن نفسي ايما عزاء ، بل لم يحمل الي احترامي لذاتي سلوانا ما . كنت قد  
 آذيت سيدي . . . وجرحته . . . وهجرته . فاذا بي اصبح ، في عيني نفسي ،  
 بغیضة الى نفسي . ومع ذلك ، فلم يكن في وسعي ان اعود ادراجي او ان ارتد  
 خطوة واحدة الى الوراء . لا ريب في ان الله كان هو الذي سدد خطاي . اما  
 ارادتي وضميري فكان الاسى المشبوب قد داس احدهما وخنق الاخر . وكنت  
 ابكي بكاء مريرا وانا امضي في سبيلي المتوحدة : ورحلت اغذ السير في سرعة  
 بالغة مثل من عصف به احتياج مسعور . ولكن ضعفا ، بدأ باطنيا ثم امتد الى  
 اوصالي ، ما لبث ان استبد بي فهويت . ولقد بقيت طريحة الارض بضع  
 دقائق ، ضاغطة وجهي على الاعشاب الندية . وخشيت - او رجوت - ان  
 يدركني الموت هناك ، ولكنني سرعان ما نهضت : لقد زحفت اولا على يدي  
 وركبتي ، ثم استويت على قدمي ، وبني لهفة وعزم على بلوغ الطريق لم  
 اعرف لهما ضربيا من قبل .

حتى اذا انتهيت الى هناك اضطرت الى الجلوس ، التماسا للراحة ،  
 تحت السياج . وفيما كنت جالسة تناهى الى سمعي وقع عجلات ، ورأيت  
 مركبة تقترب . فنهضت ورفعت يدي ، فكفت عن السير . وسالت الحوذي  
 عن طيئة المركبة \* فسمي موضعا نائيا كنت واثقة من ان مستر روتشيستر  
 لم تكن له صلات به . وسألته عن الاجر الذي يتعين علي دفعه لقاء نقلي الى  
 هناك فقال : « ثلاثون شلنا » . فاجبته اني لا املك غير عشرين . فقال :  
 « لا بأس ، سوف احاول الاكتفاء بهذا المبلغ » . ثم انه اذن لي في الصعود الى  
 داخل المركبة ، اذ كانت خالية . ففعلت ، مغلقة الباب من ورائي . وتابعت  
 المركبة سبيلها .

الا فليصمك الله ، ايها القارئ الكريم ، من ان تستشعر ابد الدهر ما  
 استشعرته آنذاك ! ومن ان تسفح عيناك ابد الدهر مثل تلك العبرات العاصفة  
 المحرقة الممزقة للفؤاد ، التي سفحتها عيناى ! ومن ان تضرع الى السماء ابد  
 الدهر بمثل الصلوات اليائسة الموجعة التي انطلقت من شفتي في تلك الساعة !  
 ومن ان ترهب ابد الدهر ، كما رهبت انا ، ان تصبح اداة شر تعود بالاذى على  
 من محضته حبك كله !

\* الطية : الناحية التي تصعد اليها .

وانقضى يومان . وكان مساءً من اماسي الصيف . وانزلني الحوذي في موضع يدعى هويتكروس ، اذ لم يكن في ميسوره ان يقلّني الى مكان ابعد لقاء المبلغ الذي دفعته . كنت لا املك من حطام الدنيا اي شئ اخر . وكانت المركبة قد امست على مبعده ميل ، وكنت قد خلّفت ثمة وحيدة . وفي تلك اللحظة اكتشفت اني نسيت رزمتي في جيب المركبة وكنت قد وضعتها فيه زيادة في الحرص . هناك قد بقيت ، وهناك كان يجب ان تبقى . وها انا ذي الان معدمة بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى .

ان هويتكروس ليست بلدة وليست قرية صغيرة . انها مجرد معلم حجري اقيم عند ملتقى طرق اربع : معلم طلوه بطلاء ابيض لكي تراه العين من بعيد ، وفي غمرة من الظلام ، على نحو اوضح ، في ما احسب . ان اربح اذرع لتنبثق من قمته . واقرب المدن التي تشير اليها هذه الاذرع كانت تبعد ، وفقاً لما دون على الذراع ، عشرة اميال ، في حين ان اقصاها كانت تبعد عشرين ميلاً ونيفاً . ومن اسماء هذه المدن الشهيرة عرفت في اية مقاطعة ترجلت : اقليم من الاقاليم الوسطى الشمالية ، قاتم بالاراضي السبخة ، مكتنف بالجبال . وكان في ميسوري ان ارى ذلك . ان خلفي وعن يميني وشمالي لاراضي سبخة مترامية الاطراف ، وان وراء ذلك الوادي السحيق الغائر عند قدمي لسلسلة من جبال متلاحقة . ولا ريب في ان سكان تلك الدبار كانوا قلة متناثرة هنا وهناك ، فأنا لا ارى اي عابر سبيل في هذه الطرق : لقد امتدت شرقاً ، وغرباً ، وشمالاً ، وجنوباً - خالية ، عريضة ، موحشة . ولقد شقّت كلها وسط الاراضي السبخة ، وكان نبات الخلنج ينمو كثيفاً ضارياً حتى حافّاتها نفسها . ومع ذلك فقد يتفق لمرتلح ما ان يحتاج بها . وكنت ارجو ان لا تراني الان عين ما . فخليق بالاغراب ان يتساءلوا عم كنت افعله متسعة هنا عند معلم الطريق ، وقد بدت علي امارات الحيرة واللاهدف . وقد أسأل عم كنت بسبيله ، فلا استطيع ان اجيب الا بكل ما يبدو عسيراً على التصديق ، مثيراً للريبة . ان ايا من الروابط لا تشدني الى المجتمع البشري في هذه اللحظة . . . وليس من سحر او رجاء يجذبني الى حيث يقيم اخواني في الانسانية . ولن يخامر احداً ممن قد يروني اي ظن حسن بي او امنية طيبة لي . لقد غدوت وليس لي من نسيب غير الام الكلية : الطبيعة . فلاأفرز الى صدرها ، ولالتمس فوقه الراحة !

وفجأة اندفعت الى المرج ، متجهة نحو غور رأيته يشق الاراضي السبخة السمراء شقاً عميقاً . ورحت اخوض حتى ركبتني في أعشابه الداكنة ، منعطفة مع متعرجاته . حتى اذا اكتشفت عند زاوية خفية من زواياه صخرة صوانية سامقة سودتها الطحالب ، جلست تحتها . كانت ضفاف المستنقع العالية تحيط بي من كل جانب ، وكانت الصخرة تحمي رأسي ، وكانت السماء فوق

ذلك كله .

وانقضت برهة قبل ان استشعر السكينة حتى في وحدتي تلك . لقد ساورني خوف غامض من ان يكون على مقربة دانية مني بهيمة ضارية ، ان يكتشف وجودي قانص من القناصة او سارق من سرّاق الصيد . كنت كلما عصفت الريح في ذلك القفر رفعت رأسي متوهمة ان عزيها ليس غير اندفاعه ثور هائج ، وكلما زقزق سقساق \* خلته رجلا . حتى اذا وجدت اخر الامر ان مخاوفي غير قائمة على اساس من الواقع ، وحتى اذا افرخ روعي اثر ذلك السكون العميق الذي ران مع هبوط الليل ، عاودتني الثقة . ولم اكن قد فكرت ، حتى ذلك الحين ، في شيء البتة . كنت قد اصفيت ، وراقبت ، وواجست خيفة ليس غير . اما الان ، فقد استرددت قدرتي على التفكير .

ماذا اعمل ؟ الى اين اذهب ؟ اوه ، ما كان امر هذين السؤالين في موقف عجزت فيه عن ان اعمل شيئا او امضي الى مكان ! . . . في موقف تعين علي فيه ان اقيس بقدمي المرهقتين المرتعدتين دربا لا نهاية له ، قبل ان ابلي موضعاً أهلاً بالناس . . . في موقف كان لا بد لي فيه من ان التمس الصدقة في توسل وضراعة قبل ان افوز بسقف يؤويني ، ومن ان الحف في طلب العطف واتعرض لشيء من الصد قبل ان تجد قصتي اذنا واعية ، او قبل ان تقضى حاجة واحدة من حاجاتي !

ولست نبات الخلنج فاذا هو جاف محتفظ بدفته من اثر حرارة النهار الصيفي . ونظرت الى السماء فاذا هي صافية الاديم : كان نجم رؤوف ياتلق فوق حافة الخندق مباشرة . وسقط الندى ، ولكن في رقة متعطفة ، ولم تنفَس ايما ريح . لقد بدت الطبيعة شفيقة بي عطوفا علي ، لقد خيل الي انها تحبني ، برغم كل ما قاسيت من نبذ وتشرد ، وتعلقت انا بها - انا من كانت لا تتوقع من الانسان غير الاهانة والصد وسوء الظن - تعلقا اشبه بهيام الطفل بأمه . وهذه الليلة ، على الاقل ، سوف اكون ضيفها ، كما كنت طفلتها ، وان امي سوف تؤويني من غير ما مال ومن غير ما ثمن . وكان لا يزال لدي كسرة من خبز ، هي البقية الباقية من رغيف كنت قد اشتريته من بلدة اجتزنا بها ظهرا ببئس ضال - اخر قطعة نقدية في جيبني . وبصرت بالتوت الشوكي البانع يلتصع ههنا وههناك مثل حبات الكهرمان الاسود وسط نبات الخلنج . فجئيت منه حفنة وأكلتها مع كسرة الخبز . فاذا بطعام الناسك هذا يسكن من جوعي ، الذي كان مُمضاً ، ان لم يُشبعه . حتى اذا فرغت من تناول الطعام تلوت صلواتي المسائية ، ثم اخترت مضجعي .

وكان نبات الخلنج كثيفا الى حد بعيد عند الصخرة الشامخة ، فما ان اضطجعت حتى غُمرت قدماي فيه . لقد ارتفع عاليا عن يميني وعن شمالي غير تارك الا فسحة ضيقة يستطيع نسيم الليل ان يغزوها . ثم اني طويت شالي طية ضاعفت من كثافته والتحفّت به . اما وسادتي فكانت نتوءا خفيضا

\* السقساق : طائر يشبه الحمام . ( المرب )



مكسوا بالطحالب • واذ رقدت على هذا النحو فأنى لم استشعر اي برد ، في  
مستهل الليل على الاقل •

وكان خليقا براحتي تلك ان تكون سعيدة الى حد كافٍ لو لم يعكر  
صفوها فؤاد محزون راح يتشكى من جراحه الفاغرة ، ونزيفه الباطني ، ونياطه  
الممزقة • لقد ارتعد جزعا على مستر روتشيستر وما ينتظره من مصير كالح ،  
وانتحب عليه في اشفاق مرير ، وهفا اليه في توق موصول • وفي مثل عجز  
الطائر المهيبض الجناحين ظل يصفق بقواده وخوافيه المهشمة محاولا على غير  
طائل ان يطير اليه •

ونهضت راحة على ركبتني وقد اضناني عذاب الفكر ذاك • كان الليل  
قد تقدم ، وكانت نجومه قد طلعت : كان ليلا آمنا ساكنا ، وكان اروق من ان  
يجعل من الخوف رفيقا لمن يسري فيه • اننا نعلم ان الله موجود في كل مكان ،  
ولكننا من غير ريب نستشعر وجوده اقوى ما نستشعره عندما تتجلى آثاره  
لانظارنا على اوسع نطاق • وانما ندرك لانهايته ، وقدرته الكلية ووجوده في  
كل مكان ، اوضح ما يكون الادراك ، في سماء الليل المنزهة عن الغيوم ، حيث  
تجري عوالمه في سبيلها الصامت • وكنت قد نهضت راحة على ركبتني لكي  
اصلي من اجل مستر روتشيستر • واذ رفعت بصري الى السماء رايت ، بعيني  
اللتين غشاهما الدمع ، المجرة الجبارة • وحين تذكرت ماهيتها - واية نظم  
شمسية لا تحصى كانت تمر الفضاء مثل وميض ناعم رقيق - استشعرت  
بأس الله وقوته • كنت واثقة من قدرته على انقاذ ما قد خلق ، ولقد اقتنعت  
الآن بان الهلاك لن يلم لا بالارض ولا باي من النفوس التي تدخرها • عندئذ  
حولت صلاتي الى حمد ، فقد كان مصدر الحياة هو منقذ الارواح ايضا •  
واطمأن فؤادي الى سلامة مستر روتشيستر : كان لله ، وبرعاية الله سوف  
يحاط • وكرة اخرى انسنت الى صدر الرابية ، وما هي غير لحظات حتى  
نسيت اساي في غمرة الرقاد •

ولكن العوز ما لبث ان اقبل نحوي ، صباح اليوم التالي ، شاحب الوجه  
عاريا • فبعد فترة غير يسيرة انقضت على مبارحة العصافير اعشاشها ، وبعد  
فترة طويلة من اقبال النحل في مطلع النهار العذب لكي تجني عسل نبات  
الخلنج قبل ان يجف الندى - عندما تقاصرت ظلال الصباح الطويلة ، وغمرت  
الشمس بضياؤها الارض والسماء جميعا - نهضت من رقادي ، وانشأت اجيل  
الطرف في ما حولي •

يا له من نهار ساكن ، دافئ ، كامل ! اية صحراء ذهبية كانت هذه  
الارض السبخة المترامية الاطراف ! كانت اشعة تملأ الكون كله ، ولكم تمنيت  
لو استطيع ان اعيش فيها وعليها • وبصرت بعظاية تجري فوق الصخرة  
الشامخة ، ورايت نحلة تطوف ناشطة بين ثمرات التوت الشوكي الحلوة ،  
فتمنيت في تلك اللحظة لو انقلب الى نحلة او عظاية ، عساي اجد في هذا  
المكان ، غذاء ملائما ومثوى دائما • ولكنني كنت بشرا ، وكانت لي مطالب

وحاجات مثل التي للبشر ، فيتعين علي ان لا اتسكع حيث لا شيء يرضيها ويشبعها . ونهضت . والتفت الى المضجع الذي فارقتة . واذا يست من المستقبل فاني لم اتعن غير هذا : لو ان بارئي تفضل تلك الليلة فتوفاني اليه وانا نائمة ، ولو ان هذا الهيكل المظني الذي أحلته الموت من اي صراع اضافي مع القدر يفنى الان بهدوء ويمتزج في سلام بشرى هذا الفقر . بيد ان الحياة كانت لا تزال في حوزتي ، بجميع مطالبها وآلامها وتبعاتها . فلم يكن لي من حمل ذلك العبء مناص ، ومن اشباع هذه المطالب ، واحتمال تلك الآلام ، واداء هاتيك التبعات معدى او مفر . وانطلقت .

حتى اذا بلغت هويتكروس من جديد سلكت طريقا استدبر معها الشمس ، وكانت الان متقدة الاوار بالغة الارتفاع . ان ايما اعتبار آخر لم يُعمل عليّ هذا الاختيار . واجتزت مسافة طويلة ، حتى اذا بدا لي اني بذلت جهدا كافيا وان في ميسوري ان استسلم ، مرتاحة الضمير ، للتعيب الذي كاد يقهرني وان استريح من هذا العمل الالزامي ، وحتى اذا جلست على حجر رأيتة قريبا مني وخضعت - في قلق - للبلادة التي اثقلت قلبي واوصالي . . . سمعت رنين جرس - رنين جرس كنيسة .

واستدردت نحو منطلق الصوت - وهناك - بين الهضاب الرومانتيكية التي كنت قد كفت منذ ساعة عن ملاحظة مظاهرها المتغيرة - رأيت قرية صغيرة وبرجا مستنقدا . كان الوادي الفائر عن يميني مليئا كله بالمراعي وحقول القمح والاحراج ، وكان ثمة جدول ملتصع يجري متراجسا عبر ظلال الخضرة المتبدلة ، والقمح الآخذ سبيله الى النضج ، والغابة القائمة ، والمرج المشرق المشمس . وفجأة سمعت قرقرة عجلات في الطريق الممتد امامي ، فافقت من استغراقي في النظر الى تلك المشاهد ، ورأيت عربية مثقلة بالاحمال تصعد في الكثيب جاهدة كادحة ، وغير بعيد عنها كانت بقرتان وراعيهما . كانت الحياة البشرية والعمل البشري على مقربة مني . فلاناضل ، ولاكافح في سبيل العيش ولانصرف الى الكدح مثل سائر الناس .

وحوالي الساعة الثانية بعد الظهر دخلت القرية . . . كان في اقصى شارعها الوحيد دكان صغير في واجهته بعض الارغفة . وتشهيت رغيفا منها . ومن يدري ، فلعل في هذه اللقيمات المنعشة ما يمكنني من استرداد بعض القوة ، ولا ريب في انه سوف يكون من العسير علي ، بدونها ، ان اتابع السير . وانما عاودتني الرغبة في شيء من القوة وشيء من النشاط حالما وجدت نفسي بين اخواني واخواتي في الانسانية . لقد استشعرت ان من المذل ان اقع مغشيا عليّ ، تحت وطأة الجوع ، فوق طريق قرية من القرى . وفكرت قائلة في ذات نفسي : « أليس معي ايما شيء استطيع ان اعرضه على سبيل المقايضة بواحد من هذه الارغفة ؟ » كان لدي منديل حريري صغير يطوق جيدي . وكان لدي قفازي . ولم استطع ان احزر كيف يتأني الناس للامر في اقصى حالات الفاقة والعوز . ولم ادر هل يحظى اي من هذين الشئيين

بالقبول ام لا . اغلب الظن انهما سوف يرفضان . ولكن علي ان اجرب .  
 ودخلت الدكان ، فالفيت فيه امرأة . واذ رأت في دكانها شخصا حسن  
 البزة ، شخصا حسبته سيدة نبيلة ، فقد تقدمت في لطف واحترام ،  
 وسألتني عن الخدمة التي تستطيع ان تؤديها الي . فاستحوذ علي الخجل :  
 لقد ابى لساني ان ينطق بالطلب الذي كنت قد اعدته . ولم اجرؤ علي ان  
 اعرض عليها قفازي نصف المهترئ ومنديلي المتغضن ، والى هذا فقد استشعرت  
 ان مثل هذا العرض خليق به ان يكون سخيفا . وهكذا اکتفيت بسؤالها ان  
 تسمح لي بالعود لحظة ، اذ كنت متعبة حتى الارهاق . فأجابتنني ، في فتور ،  
 الي طلبي ذاك بعد ان خاب ظنها فيّ وظهر لها اني لم افد عليها لشراء شيء ما .  
 لقد اشارت الي مقعد ، فتقدمت نحوه وغصت فيه . واستشعرت حافزا قويا  
 يدعوني الي البكاء . واذ وعيت ان مثل هذا الكشف عما اعتمل في نفسي لم  
 يكن ليتلام البتة مع الموقف والظرف فقد كبحت جماح عبراتي . وسرعان ما  
 سألتها : « هل في القرية اية خياطة ؟ »

- « اجل ، هناك خياطتان او ثلاث . علي قدر ما تقتضيه الحاجة الى  
 مثل هذا العمل » .

وفكرت . كنت الان قد انتهيت الى ورطة . لقد وضعت وجهها لوجه مع  
 الحاجة والعوز . وكنت في موقف فتاة من غير مورد : من غير صديق ، من  
 غير قطعة نقدية . ان علي ان افعل شيئا . ولكن ماذا ؟ وان علي ان التمس  
 عملا في مكان ما . ولكن اين ؟

- « أفي علمك ان في هذا الجوار من يحتاج الى خادمة ؟ »

- « لا . لست اعرف احدا » .

- « ما هي الصناعة الرئيسية في هذا الموطن ؟ ما العمل الذي تمارسه  
 كثرة الناس ؟ »

- « بعضهم عمال زراعيون . وكثير منهم يعملون في مصنع الابر الذي  
 يملكه مستر اوليفر ، وفي مصهر الحديد » .

- « وهل يستخدم مستر اوليفر النساء ؟ »

- « لا . ذلك عمل من اعمال الرجال » .

- « وما الذي تفعله النساء ؟ »

فكان الجواب : « لست ادري . بعضهن يفعلن كيت ، وبعضهن يفعلن  
 كيت . وعلى الفقيرات ان يحتلن على الحياة كيفما استطعن » .

وبدت وكأنها قد سئمت اسئلتني . وهل كان لي ، في الواقع ، اي حق  
 في اللاحاح عليها في السؤال ؟ واقبل جار او جاران ، فادرکت اني احتل  
 مقعدا قد يكون احدهما في حاجة اليه . فاستأذنت في الانصراف .

ورحت اصعد في الشارع ، ناظرة الى مختلف البيوت القائمة عن يمين  
 وعن شمال ، ولكني لم أستطع ان اكتشف ايما ذريعة او اجد ايما حافز لدخول  
 واحد منها . وهبت علي وجهي في القرية الصغيرة ، مجتازة في بعض الاحيان

مسافة قصيرة لاعود ادراجي بعد ذلك الى حيث كنت . وسلخت على هذا النحو ساعة او يزيد . حتى اذا غلب علي الاجهاد واورثني الجوع الما شديدا انعطفت الى احد الازقة فجلست تحت الوشيع ، بيد اني ما لبثت ان انتصبت ، بعد بضع دقائق ، واقفة على قدمي ورحت ابحت كرة اخرى عن شيء . . . عن ملاذ افزع اليه او عمن يهديني الى هذا الملاذ . وكان في اعلى الدرب بيت صغير جميل تتقدمه حديقة . . . حديقة بالغة الاناقة منورة على نحو مؤتلق . فوقفت عنده . ولكن بأية ذريعة اقترب من ذلك الباب الابيض وتلك المطرقة المتوهجة ؟ وما الذي يغري سكان المثوى بأسداء يد العون الي ؟ ومع ذلك فقد دنوت من الباب وقرعته ، ففتحت لي فتاة لطيفة الطلعة حسنة البزة . وفي صوت كالذي يتوقع من قلب يائس وجسد مشرف على الاغماء - صوت خفيض متلجلج الى حد يائس - سألتها ما اذا كانوا في حاجة الى خادمة .

فقلت : لا . نحن لا نستعين بأية خادمة .

فأصفت : « هل تستطيعين ان تنبئيني اين اجد عملا ايا كان نوعه ؟ انا غريبة ، ولست اعرف احدا ، في هذه القرية . انا في حاجة الى عمل . . . عمل من اي نوع » .

بيد انه لم يكن من شأنها ان تفكر بالنيابة عني او ان تلتمس لي عملا ما . والى هذا فلا ريب في ان شخصيتي ووضعتي وقصتي بدت في عينها شيئا مريباً الى حد بعيد . من اجل ذلك هزت رأسها قائلة انها « آسفة لعجزها عن اعطائي اية معلومات » . واوصد الباب الابيض في رفق وادب بالغين ، ولكنه برغم ذلك حظّر علي الدخول . ولو قد ابقت مشرعا بضع لحظات اخرى اذن لكان خليقا بي ان التمس منها كسرة خبز ، ذلك بأن قواي كانت الآن قد وهنت وخارت .

ولم اطق التفكير في العودة الى القرية الحقيبة ، حيث لم تلح لي - على اية حال - بارقة امل في الفوز بمساعدة ما . ولقد كان خليقا بي ان اتوق ، بدلا من ذلك ، الى الانحراف نحو غابة بصرت بها على مقربة دانية . . . غابة بدا لي وكأنها تقدم الي من ظلها الوارف ملاذا حسن الوفادة . ولكنني كنت من وهن القوى ووشك الاغماء ومن الاشتياق العارم الى اشباع الحاجات الطبيعية بحيث حملتني الغريزة على مواصلة التطواف حول مختلف المواطن التي لاحت لي فيها فرصة العثور على شيء من قوت . ان الوحدة خليق بها ان لا تكون وحدة ، والراحة خليق بها ان لا تكون راحة ، حين ينشب النسر ، الجوع ، منقاره ومخالبه في جنبي على هذا النحو .

وانشأت ادنو من البيوت ، ولكنني سرعان ما فارقتها ، ثم انقلبت راجعة اليها كرة اخرى ، لاعود بعد ذلك فأهيم على وجهي وقد صدّني في كل مرة شعور بأنه لا حق لي في ان التمس من احد الاهتمام بمصيري المعزول ، او في ان اتوقع مثل هذا الاهتمام من احد . وتقدم الاصيل ، في غضون ذلك ، بينا

كنت اطوف ههنا وههناك مثل كلب ضالٍ اضر به الجوع . حتى اذا عبرت  
 حقلًا من الحقول لمحت برج الكنيسة المستدق منتصبًا امامي : فرحت اغذ  
 الخطي في اتجاهه . وعلى مقربة من فناء الكنيسة كان يقوم منزل حسن البناء ،  
 وعلى الرغم من صغره . كان من غير ريب بيت الكاهن . عندئذ تذكرت ان  
 الاغراب الذين تسوقهم اقدامهم الى موضع لا اصدقاء لهم فيه ، والذين يطلبون  
 عملاً ، كثيراً ما يلتمسون من الكاهن ان يعرفهم الى بعض رعيته او ان يمد  
 اليهم يد العون . ان من مهمة رجل الكنيسة ان يساعد - بنصائحه على  
 الاقل - اولئك الذين يرغبون في مساعدة انفسهم . وبدا لي اني املك ما  
 يشبه الحق في التماس المشورة في هذا المكان . وهكذا جددت شجاعتي ،  
 واستجمعت بقايا قوتي الواهنة ، واندفعت قدماً ، فبلغت البيت ، وقرعت  
 باب المطبخ ، ففتحت امرأة عجوز فسألتها : « اهذا بيت الكاهن ؟ »

« نعم » .

« هل الكاهن هنا ؟ »

« لا » .

« هل سيعود عما قريب ؟ »

« لا . لقد رحل » .

« الى موطن بعيد ؟ »

« لا . . . الى مكان يبعد ثلاثة اميال ليس غير . لقد دعاه الى الرحيل  
 موت ابيه المفاجيء ، وهو الان في « مارش ايند » ، واغلب الظن انه سوف  
 يقضي هناك اسبوعين آخرين » .

« وهل في البيت سيدة ما ؟ »

« لا ، ليس فيه احد غيري . اني مدبرة المنزل » .

ولا اخفى عليك ، ايها القارئ ، اني لم احتمل ان اسأل هذه المرأة ان  
 تنتشلني من العوز الذي كنت اغوص فيه . ولم يكن في ميسوري ، بعد ، ان  
 استجدي . وهكذا جررت قدمي عائدة ادراجي كرة اخرى .

ونزعت منديلي من جديد ، ومن جديد فكرت في ارغفة الخبز التي رايتها  
 في الدكان الصغير . آه ، من لي بكسرة منها ليس غير ! من لي بلقمة واحدة  
 ليس غير اسكّن بها ألم الجوع ؟ وكرة اخرى وجهت وجهي ، على نحو  
 غرزي ، قبيل القرية ، فبلغت الدكان من جديد ، فدخلته . كان ثمة ، بالاضافة  
 الى المرأة ، نفر اخرون ولكنني غامرت برغم ذلك فطرحت عليها هذا السؤال :

« هل لك ان تعطيني بهذا المنديل رغيفاً من خبز ؟ »

فنظرت الي في ارتياب واضح وقالت :

« انا لا ابيع بهذه الطريقة ابداً » .

وكاد اليأس ان يغلب علي ، فسألتها ان تعطيني نصف رغيف . ولكنها  
 رفضت ، كرة اخرى ، قائلة : « وما يدريني من اين جئت بهذا المنديل ؟ »

« انا مستعدة ان اعطيك قفازي » .

« لا ! وماذا اصنع به ؟ »

ان الافاضة في هذه التفاصيل ليست ، ايها القارىء ، بالامر المستعذب . والواقع ان بعضهم يزعم ان الالتفات الى الخبرات الاليمة المنقضية ينطوي على شيء من البهجة ، ولكنني لا اكاد اطبق ، حتى يوم الناس هذا ، استعادة ذكرى تلك الايام التي المَحُّ اليها : ان الاذلال المعنوي ، المشوب بالالم الجسدي ، ليشكل ذكرى هي اشد اثاره للاسى من ان ارغب ، راضية ، في اطالة التفكير فيها . انا لم اَلَمْ ايا من اولئك اللواتي نهرنني ، فقد شعرت ان ذلك كان عين ما ينبغي للمرء ان يتوقعه ، وانه كان امرا لا حيلة لهـن فيه : ان المتسول العادي كثيرا ما يكون موضع ريبة ، اما المتسول ذو البزة الحسنة فموضع الريبة دائما . صحيح ان ما التمسته كان هو العمل ليس غير ، ولكن من ذا الذي كانت مهمته ان يزودني بالعمل ؟ ان ذلك لم يكن ، طبعا ، مهمة اولئك الاشخاص الذين رأوني آنذاك للمرة الاولى ، والذين لم يعرفوا ايما شيء عن خلقي . وحتى المرأة التي اُبت ان تأخذ منديلي مقابل رغيف من خبزها . . . حتى هذه المرأة كانت على حق ، اذا ما بدا العرض - في عينيها - مشؤوما ، وبدت المقايضة غير رابحة . فلاؤجز الان . ان الكلام على هذه المسألة ليثير تقززى .

وقبيل سقوط العتمة بقليل اجتزت ببیت في مزرعة ، وكان الفلاح قاعدا عند بابه المفتوح يتناول عشاءه المؤلف من خبز وجبن . فوقفت ، وقلت :

« هل تتكرم علي بكسرة من خبز ؟ اني جائعة جدا » .

فألقي علي نظرة ترشح بالدهش . ومن غير ان يجيب ، قطع جزءا ضخما من رغيفه وقدمه اليّ . ويخيل الي انه لم يحسبني شحادة ، ولكن مجرد سيدة غريبة الاطوار اعجبت برغيفه الاسمر . وما ان نأيت بنفسي عن مرمى بصره ، حتى قعدت والتهمت قطعة الخبز .

وما كان ليرادوني ايما امل في المبيت تحت سقف من السقوف ، فالتمسته في الغابة التي المعت اليها من قبل . ولكن كيلتي كانت بائسة ، وراحتي متقطعة : كانت الارض رطبة ، والهواء باردا . والى هذا فقد مر بي المتطفلون غير مرة فكان علي ان اغير مقرى مرة بعد مرة : ان ايما شعور بالسلامة او الطمأنينة لم يحالفني . وقبيل ارتفاع الضحى ، هطل المطر ، ولقد تواصل تهطاله طوال اليوم التالي . ولا تسألني ، ايها القارىء ، ان اقدم اليك وصفا دقيقا لذلك اليوم . فقد التمسست عملا ما ، شأنى من قبل ، فانتُهِرْتُ شأنى من قبل . وكشأنى من قبل ايضا امضني الجوع ، ذلك بأن الطعام لم يدخل فمي الا مرة واحدة . وعند باب احد الاكواخ بصرت بفتاة صغيرة توشك ان تطرح طبقا من عصيدة باردة في حوض من احواض الخنازير . فسألتها : « هل لك ان تعطيني هذا الطبق ؟ »

فحدقت الي ثم صاحت : « أماء ! ههنا امرأة تريد ان اعطيها هذه العصيدة » .

فأجابها صوت من داخل : « حسنا ، يا بنيتي ، اعطيها اياها اذا كانت شحادة . ان الخنزير غير راغب فيها » .

فافرغت الفتاة ذلك القالب المتصلب في يدي ، فالتهمته بنهم .

حتى اذا احلوك الغسق المطر كفتت عن السير في طريق منعزل خاص\* براكبي الخيل كنت قد سلكته طوال ساعة او يزيد . وقلت مناجية نفسي : « ان قوتي لتخذلني خذلانا كاملا . ويخيل الي اني لن اقوى على الذهاب الى ابعد من هذا بكثير . هل سأقضي ليلتي هذه ايضا طريدة منبودة ؟ وفيما يهطل المطر على هذا النحو ، هل يتعين علي ان القي رأسي على التراب البارد المبلل ! انا اخشى ان لا اوفق الى غير ذلك : اذ من ذا الذي سوف يفتح بابي لاستقبالي ؟ ولكن ذلك سوف يكون رهيبا جدا ، وانا على مثل هذه الحال من الجوع والاعياء والقشعريرة وهذا الشعور بالعزلة - هذا الانقطاع الكامل للرجاء . ولكنني سوف اموت ، في اغلب الظن ، قبل منيلج الصباح . فلماذا لا اهيء نفسي لتقبُّل هذا الاحتمال . . . احتمال الموت ؟ لماذا اناضل للاحتفاظ بحياة لا قيمة لها ؟ لاني اعرف ، او اؤمن ، ان مستر روتشيستر لا يزال على قيد الحياة ، واذن فالموت جوعا او بردا مصير\* لا تستطيع الطبيعة ان تستسلم له من غير مقاومة . اوه ، ايتها العناية الالهية ! ادعمني بضع لحظات اخرى ! ساعديني . . . سدي خطاي ! »

وتاهت عيناى شبه الزاجتين في البرية القاتمة المضيئة ، فأدركت اني قد اسرفت في الابتعاد عن القرية : كانت قد امست وراء مرمى النظر تماما . وحتى الحقول المحيطة بها كانت قد اختفت . وكنت قد اقتربت كرة اخرى - بما سلكت من طرق فزعية ودروب جانبية - من الارض السبخة ، فليس يفصلني عن الهضبة التي احتضنها الغسق غير بضعة حقول تكاد تكون مهملة عقيمة مثل نبات الخلنج الذي لم يُقْتَل منها الا قليلا .

وقلت في ما بيني وبين نفسي : « حسنا ، اني لأوثر ان اقضي نحبي هناك ، في شارع من الشوارع ، او على طريق يألفه السابلة . وانه لخير لي الف مرة ان تنقر الغربان والغربان السود - اذا ما كان في هذه الديار غربان سود - لحمي وتنزعه عن عظمي من ان يُسَجَّن في كفن من اكفان الملاجيء ويفسد في قبر من قبور الشحاذين » .

وهكذا عدت ادراجي الى الهضبة . وبلغتها . ولم يسبق علي الا ان اجد حفرة استطيع ان اضطلع فيها واستشعر اني محجوبة عن الانظار ، على الأقل ، ان لم استشعر اني آمنة . ولكن ارض القفر كلها بدت مستوية . انها لم تنكشف عن ايما تفاوت الا في اللون والصبغة : فهي خضراء حيث حجب الطحالب وسمار الحُصْر وجه المستنقعات ، وهي سوداء حيث لم تطلع التربة الجافة غير نبات الخلنج . وعلى الرغم من الظلمة الهابطة فقد استطعت ان الملح هذه الفروق ، وان بدت لي وكأنها مجرد تعاقب اضواء وظلال : ذلك بأن اللون كان قد نَصَلَ مع نصول ضياء النهار .

وكانت عيناى ما تزالان تجولان فى الهضبة المتجهمة وعلى طول حافة المستنقع المتلاشى وسط اراضٍ ليس ثمة ما هو اشد منها اقفارا عندما انبثق ضياءٌ ما فى نقطة قاتمة ، بعيدا بين الاراضى السبخة والهضاب . فكان اول خاطر بدا لى هو ان هذا الضياء ليس الا سرايا من السراب ، سرايا توقعت ان يتلاشى وشيكاً . بيد انه ظل يتقد فى ثبات ، من غير ان يتقدم او ان يتأخر . وتساءلت : « اهى ، اذن ، نار من نيران الابتهاج اضرمت منذ لحظات ؟ » ورحت اراقبها لارى ما اذا كانت سوف تنتشر وتمتد : ولكن لا ، انها لم تتعاطم ، كما انها لم تتضاءل . وعندئذ حدثت قائلة : « قد تكون شمعة فى بيت . ولكن اذا كانت كذلك فأنى لن اوفق الى بلوغها ابدا . انها بعيدة اكثر مما ينبغي : وحتى لو كانت على بعد ياردة واحدة منى ليس غير . . . . اي فائدة ترجى منها ؟ انى لن اقرع الباب الا لكى اراه يغلق فى وجهى » .

وانطرحت على الارض حيث كنت واقفة واخفيت وجهى فى التراب . واضطجعت فترة من غير حراك . وهبت رياح الليل على الهضبة وعلى ، ثم تلاشت منتجة فى المدى البعيد . اما المطر فانهزم فى قوة وعنف مبللا ثيابى من جديد تبليلا نفذ معه الماء الى جلدي نفسه . ولو قد وفقت الى مجرد التصلب تحت وطأة الصقيع الهادى - خدر الموت الودود - اذن لكان خليقا به ان يواصل تهطاله من غير ان احس به . ولكن لحم جسدى الذى كان لا يزال حيا ارتعد تحت تأثيره القارس . وما هى الا فترة قصيرة حتى نهضت .

كان الضوء لا يزال يلتمع ، هناك ، قاتما - خلال المطر - ولكنه موصول غير منقطع . وحاولت ان استأنف السير ، فجزرت قدمي المنهوكتين نحوه فى تودة . فقادني الضوء الى التصعيد ، على نحو منحرف ، فى الهضبة . عبر مستنقع كان خليقا به فى شهور الشتاء ان يكون غير قابل للاجتياز . . . . مستنقع كان حتى فى هذه الآونة ، فى غمرة الصيف ، موحلا يتطاير منه الرشاش . وههنا سقطت طريحة الارض مرتين اثنتين ، ولكنى كنت فى كل مرة اعاد النهموض واحشد شتات قواى . كان ذلك الضوء هو املى الاخير . وان علي ان ابغى بآية حال .

حتى اذا عبرت المستنقع رأيت اثرا من بياض فوق الارض السبخة - فدنوت منه . كان طريقا او مجازا ، وكان يفضي مباشرة الى ذلك الضوء الذى شع الان من شبه رابية من الروابي ، وسط باقة من الاشجار - اشجار الشربين ، فى ما يبدو ، تبعا لما استطعت ان اتبينه خلال العتمة من اشكالها واوراقها . وتوارى نجمي الهادي فيما كنت ادنو منه : كانت عقبة ما قد اعترضت ما بينى وبينه . وبسطت يدي لاتلمس الكتلة المظلمة المنتصبّة أمامى ، فاذا هي سور خفيض خشن الحجارة . وفوق ذلك السور كان شيء



اشبه بسياج من اعمدة خشبية ، ووراء هذا السياج كان وشيع \* عال وشائك . فرحت اتمسّس طريقي وسط الظلام . وكرة اخرى التمتع امامي شيء ضارب لونه الى البياض . لقد كان بابا - او على الاصح كوة في باب . ولم اكد امسها حتى استدارت على مفصلاتها . وعلى كلا الجانبين كانت أيكه سوداء من السدر الجبلي او من شربة الراعي .

حتى اذا نفذت من خلال الباب وتجاوزت الاعشاب بدا لناظري خيال بيت اسود ، خفيض ، هو الى الطول اميل . بيد ان الضوء الهادي لم يشع في ايما موضع . كان الظلام يلف المكان كله . فهل كان نزلاء البيت مستسلمين للرقاد؟ لقد خشيت ان يكونوا كذلك . وفيما كنت ابحث عن مدخل البيت انعطفت حول احدى الزوايا ، وهناك انبثق الوميض الودود كرة اخرى ، من زجاج ذي شكل الماسي في نافذة صغيرة ذات شعرية قائمة على ارتفاع قدم واحد عن سطح الارض . نافذة زادها صغرا نمو شجرة لبسلا - او ضرب اخر من النباتات المتعرشة - تعنقدت اوراقها كثيفة فوق موضع تلك النافذة من جدار البيت . وكانت النافذة مظلمة وضيقة الى حد جعل تزويدها بستار او شعرية امرا غير ضروري البتة . وحين انحنيت وازحت الافنان المبرعمة فوقها استطعت ان ارى ما في الداخل . كان في ميسوري ان اشهد ، في وضوح ، غرفة منظمة احسن تنظيف مفروشة ارضها بالرمل ، وخوانا من خشب الجوز ، نُصِدَت فوقه صفوف من اطباق صفيحية ينعكس منها احمرار واشعاع كاللذين ينبعثان من نار متوهجة بوقود من تراب نفطي . وكان في ميسوري ان ارى ساعة جدار ، وطاولة بيضاء من خشب الشوح ، وبعض الكراسي . وبصرت بالشمعة ، التي كان شعاعها مشعلي ، تحترق فوق الطاولة . وعلى ضوئها كانت امرأة عجوز ، جافية المظهر بعض الشيء ولكنها نظيفة الى حد مغالى فيه ككل شيء حولها ، تحرك جوربا .

وانما القيت على هذه الاشياء نظرة سريعة ليس غير ، اذ لم يكن فيها ايما شيء استثنائي . وعلى مقربة من المستوقد كانت جماعة اكثر امتاعا مغلدة الى السكينة في غمرة من الامن والدفع الورديين اللذين كانا يغمرانه . لقد جلست ثمة شابتان انيقتان - سيدتان بكل ما في لفظة « سيدة » من معنى - الاولى على كرسي خفيض هزاز ، والاخرى على كرسي من غير ظهر فهو اشد انخفاضاً . وكانت كلتا الشابتين ترتدي ثياب حداد مخيطة من كريب اسود ونسيج صوفي مشوب بقطن ، ثيابا اظهرت بقتامها محاسن جيدها ووجهها الناصعي البياض . وكان كلب ضخّم يربح رأسه الهائل على ركبة احدى الفتاتين ، في حين كانت هرة سوداء تجثم فوق وسادة في حجر الفتاة الاخرى .

ما كان اغرب هذا المطبخ المتواضع مستقرا مثل هاتين السيدتين ! ولكن من كانتا ؟ لم يكن من المعقول ان تكونا بنتي المرأة العجوز الجالسة الى تلك

الطاولة ، اذ بدت علي وجهها امارات الجلالة الريفية ، في حين كانتا هما مثال الرقة والصقل . انا لم ارقط في ايما مكان وجهين كوجهيهما ، ومع ذلك فقد بدا لي ، وانا ارنو اليهما ، اني على الفة بكل قسمة من قسماتهما . انا لا استطيع ان ازعم انهما كانتا وسيمتين - فقد كان في شحوبهما ورزانتهم المسرفتين ما يبعدهما عن الوسامة : لقد بدتا ، وقد انكبت كل منهما على كتاب تطالعه ، مستغرقتين في التفكير حتى الصرامة تقريبا . وكانت تقوم بينهما منضدة عليها شمعة اخرى ومجلدان ضخمان كثيرا ما كانتا ترجعان اليهما ، وكانهما تقارنان ما بينهما وبين الكتابين الصغيرين اللذين كانا في ايديهما ، فعّل من يرجع الى معجم يستعين به في مهمة الترجمة . والحق ان هذا المشهد كان صامتا الى درجة يخيل معها للمرء ان جميع الوجوه لم تكن غير ظلال ، وان الحجرة المضاة بنار المستوقد لم تكن غير لوحة فنية . وكان كل شيء غارقا في السكون حتى لقد استطعت ان اسمع قطع الوقود المحترقة تتساقط وراء شباك المستوقد ، وساعة الجدار تنك في زاويتها المظلمة . بل لقد خيل الي اني استطعت ان اسمع طقطقة ابرتي الحوك في يدى العجوز . حتى اذا عكر هذا السكون العجيب صوتا ما في اخر الامر تناهى الى اذني ، ولا عجب ، واضحا مفهوما .

« اسمعي ، يا ديانا ! » كذلك قالت احدي التلميذتين المستغرقتين في المطالعة . « ان الليل ليلف كلا من فرانز ودانيال العجوز ، وان فرانز ليروي حلما استيقظ من غمرته مذعورا . اسمعي ! »

وفي صوت خفيض راحت تتلو شيئا لم افهم منه كلمة واحدة . ذلك بأنه كان مكتوبا بلغة مجهولة . . . ليست بالفرنسية وليست باللاتينية . ولم استطع ان اجزم هل كانت تلك اللغة يونانية ام المانية .  
وحين فرغت من التلاوة قالت : « هذا قوي جدا . واني لاستسيغه ، فما كان من الفتاة الاخرى ، التي كانت قد رفعت رأسها لتصغي لاختها ، الا ان كررت فيما هي تحديق الى النار سطرا مما قرء . وفي يوم تال عرفت اللغة والكتاب . ومن اجل ذلك سوف اقتبس ههنا ذلك السطر ، على الرغم من انه لم يكن حين سمعته اول مرة غير صوت مبهم شبيه بالضرب على نحاس رنان ، فهو لا ينطوي على أي معنى :

« Da trat hervor Einer, anzusehen wie die Sternen Nacht. » ❀

وهتفت وقد التمتعت عينها بالسوداوان العميقتان : « جيد ! جيد ! ان لديك هنا وصفا صادقا لكبير ملائكة متجهم جبار ! وهذا السطر يساوي مثله صفحة من الكلام الطنان :

« Ich wäge die Gedanken in der Schale meines Zornes und die Werke mit dem Gewichte meines Grimms. » ❀❀

❀ « وتقدم احدهما ليري الى النجوم في الليل » . ( المغرب )  
❀ « اني اذن الافكر في ميزان غضبي ، والآثار بمتقال سخطي » . ( المغرب )

أنا احب هذا ! »

واعتصمت كلتاهاما بالصمت من جديد .

وتساءلت المرأة العجوز رافعة بصرها عن حبكهما : هل ثمة بلاد يتكلم الناس فيها بهذه الطريقة ؟ »

« اجل ، يا حنة . وانها لبلاد اكبر من انكلترة بكثير ، بلاد لا يتكلمون فيها بأية طريقة اخرى » .

« حسن ، ولكن الشيء الثابت هو اني لا افهم كيف يستطيع احدهم ان يفهم الاخر . ولو قد ذهبت احداكما الى هناك فهل تستطيع ان تفهم ما يقولون ؟ »

« في استطاعتنا ان نفهم بعض ما يقولونه ليس كله . . . لاننا لسنا من البراعة بقدر ما تحسبننا ، يا حنة . نحن لا نتكلم الالمانية ، ولا نستطيع ان نقرأها من غير قاموس يعيننا على ذلك » .

« واي فائدة تجنيانها من هذه اللغة ؟ »

« نحن نعتزم ان ندرّسها في يوم من الايام . . . أو على الاقل ان ندرّس مبادئها ، كما يقولون . وعندئذ سوف نكسب قدرا من المال اكبر من الذي نكسبه الان » .

« محتمل جدا . ولكن كفاكما درسا . لقد بذلتما جهدا غير يسير هذه الليلة » .

« اظن اننا قد بذلنا . انا ، على الاقل ، استشعر تعباً . فهل انت متعبة مثلي ، يا ماري ؟ »

« حتى الهلاك . وعلى اية حال فانها مهمة عسيرة ان يكدح المرء في درّس لغة ما وليس لديه من يعلمه اياها غير معجم من المعاجم » .

« هذا صحيح . وبخاصة اذا كانت كهذه اللغة الالمانية المعقدة المربكة ، على الرغم من انها مجيدة . ترى ، متى سيعود سانت جون ؟ »

« لا ريب في انه لن يتأخر اكثر مما فعل . الساعة الان هي العاشرة تماما ( قالت ذلك ، ناظرة الى ساعة ذهبية صغيرة اخرجتها من زيارها ) . ان المطر ينهمر في قوة . هل لك يا حنة ان تتكرمي بالقاء نظرة على النار في حجرة الجلوس ؟ »

فنهضت المرأة ، وفتحت بابا رأيت من خلاله - على نحو باهت - ممرا أو مجازا . وسرعان ما سمعتها تثير جمرات نار موقدة في حجرة داخلية .

ثم انها ما لبثت ان عادت وقالت : آه ، يا صغيرتي ! يؤلمني اشد الايلام أن امضي الان الى تلك الحجرة التي هناك . انها لتبدو موحشة جدا بذلك الكرسي الخالي المنحني في احدى الزوايا » .

وكفكت عبراتها بفضل مثررها . فاذا بالفتاتين ، اللتين كانتا متجمعتي الوجه من قبل ، تصبحان محزونتين .

وتابعت حنة كلامها : : ولكنه الان في موطن افضل . وليس ينبغي لنا

ان نتمنى لو يعود الى هنا • وفوق هذا ، فان احدا لا يمكن ان يموت ميتة اكثر هدوءا من ميتته •

فسألتها احدى السيدتين : « تقولين انه لم يذكرنا البتة ؟ »

— « لم يكن لديه متسع من وقت ، يا بنيّتي : لقد قضى ابوك نحبه في دقيقة واحدة • كانت صحته قد اعتلت ، في اليوم السابق ، بعض الشيء ، ولكن ذلك لم يكن امرا ذا بال • وعندما سأله مستر سانت جون ما اذا كان يود ان يبعث في طلب أي منكما سخر منه • ثم استقبل اليوم التالي وفي رأسه شيء من الثقل — وكان ذلك منذ اسبوعين اثنين — وأوى للرقاد ثم لم يفق بعد ذلك قط • حتى اذا دخل اخوكما الحجرة عليه وجده شبه متصلب • آه ، يا صغيرتي ! لقد كان هو بقية السلف الصالح • لانكما انتما ومستر سانت جون من ضرب اخر مختلف عن اولئك الذين قضوا نحبهم من افراد الاسرة • لقد كانت امكما مثلكما تماما ، وكانت مثقفة مثلكما تماما • والواقع انك صورة عنها ، يا ماري • أما ديانا فتشبه اباهما اكثر •

بيد انني حسبتهما متماثلتين الى أبعد حدود التماثل ، ولم ار اين وجدت الخادم العجوز ( ذلك اني استنتجت الان انها كانت خادما ) ذلك الفرق • فقد كانت كل منهما بيضاء البشرة مشوقة القوام ، وكان لكل منهما وجه يتسم بالامتياز والذكاء • غير ان شعر احدهما كان أشد سوادا الى حد لا يكاد يبين ، من شعر الاخرى ، وانه كان ثمة اختلاف في طريقة تسريحه • فأما شعر ماري الداكن بعض الشيء فكان مفروقا ومجدولا جدلا منسدلا ، واما صفائر ديانا الاشد حلكة فكانت تغطي جيدها بحليقات كثيفة • واعلنت ساعة الحائط العاشرة مساء •

فقالت حنة : « انا واثقة من انكما تريدان ان تتناولوا طعام العشاء • وكذلك سيكون مستر سانت جون راغبا في تناول الطعام عندما يعود • »

وشرعت تعد المائدة • ونهضت السيدتان ، وبدتا على وشك الانصراف الى حجرة الجلوس • وكنت قد عكفت — حتى تلك اللحظة — على تأملها ، وكان مظهرهما وحديثهما قد اثار اهتمامي اعظم ما تكون الاثارة حتى لقد نسيت ، او كدت ، وضعي البائس • اما الان فسرعان ما تذكرته • فبدأ لي ، على ضوء المفارقة بين حالي وحاليهما اني كنت اشد بؤسا واعظم يأسا من ايما وقت مضى ، وان من المتعذر ان استشير عطوف نزلء هذا البيت وأوفق الى حملهم على العناية بأمرى — ان اقنهم بصدق ما اقايسه من عوز وبلايا ، وان اغريهم بمنحي ملاذا يقيني من التشرد ! حتى اذا تلمست طريقي نحو الباب وقرعته في تردد استشعرت ان الفكرة الاخيرة لم تكن غير وهم من الاوهام •

وفتحت حنة ، وسألتني في صوت يغلب عليه الدهش فيما كانت تقلّب طرفها في ضوء الشمعة التي حملتها : « ماذا تريدان ؟ »

فقلت : « هل تسمحين لي ان اتحدث الى سيدتك ؟ »

— « من الخير لك ان تخبريني بما تريدان ان تقولييه لهما من ايزن

انت مقبلة ؟

- « انا غريبة » .

- « وما الذي جاء بك الى هنا في مثل هذه الساعة ؟ »

- « اني التمس المبيت هذه الليلة في سقيفة او زريبة او ايما مكان

اخر ، وكسرة من خبز اتبلى بها » .

فبدت على وجه حنة امارات الارتياب - ذلك الشعور عينه الذي كنت

اخشاه وارهبه - وقالت بعد تمهل : « سوف اعطيك كسرة خبز ، ولكننا لا

نستطيع ان نؤوي متشردة . هذا غير ملائم » .

- « اتوسل اليك ان تدعيني اخاطب سيدتيك » .

- « لا . لست انا من تقدم على ذلك . وما الذي تستطيعان ان تفعلاه

من اجلك ؟ انه ليس من حقك ان تتسكعي الان في الطرق . يبدو لي ان هذا

شنيع جدا » .

- « ولكن الى اين اذهب اذا ما طردتني ؟ ما الذي سوف اصنعه ؟ »

- « اوه ، انا اؤكد لك انك تعرفين الى اين تذهبين وما الذي يجب ان

تفعله . ولكن حذار ان تقارفي اثما ، هذا كل ما استطيع ان اقوله لك . اليك

هذا البنس ، وامضي الان لسبيلك . . . »

- « هذا البنس لا يستطيع ان يغنيني من جوع ، ولم تبقي لي قدرة على

السير اكثر مما فعلت . لا توصدي الباب في وجهي . . . اوه ، لا توصديه

اكراما لله ! »

- « يتعين علي ان افعل . ان المطر يتسرب الى الداخل . . . »

- « اخبري السيدتين . . . دعيني اراهما . . . »

- « لن افعل ذلك من غير ريب . انت لست ما ينبغي ان تكوني ، والا

لما اخذت مثل هذه الضجة كلها . انصرفي ! »

- « ولكنني لا بد ان اموت اذا طُردت من هنا » .

- « لست انت من تموت اذا طُردت . واني لاخشى ان تكون لك اهداف

شريرة تحدد بك الى الامام ببيوت الناس في مثل هذه الساعة من الليل .

واذا كان لك بعض الاتباع - من سرّاق البيوت او ما شابه - في مكان غير

بعيد ، ففي استطاعتك ان تخبرهم اننا لا نقيم وحدنا في هذا المنزل ، وان

لدينا رب بيت وكلابا وبنادق » .

وهنا اغلقت الخادمة الامينة ، ولكن العنيدة القاسية الفؤاد ، باب

البيت ، واحكمت ايضاده بالملزاج .

عندئذ بلغ السيل الزبى . لقد مزقت قلبي وورمته غصة من الم

مبرح . . . وكرب من قنوط حقيقي . كنت منهوكة القوى حقا ، ولم يكن في

ميسوري ان اخطو خطوة اخرى . فتهاكت على عتبة الباب المبللة . . . واخذت

أئن . . . واعتصر يدي . . . وابكي في لوعة ليس وراءها لوعة . اوه ، هو ذا

شبح الموت ! اوه ، هي ذي الساعة الاخيرة تدنو بمثل هذا الهول كله !

وا أسفاه ، أموت في هذه العزلة وهذا الاقصاء عن بني جنسي ! انا لم افقد  
الامل في لقاء مرساتي في بيت ما ، فحسب ، بل فقدت موطني الجلد والشبات  
ايضا - طوال فترة قصيرة على الاقل . ولكني سرعان ما ناضلت لاسترداد  
موطني القدم هذا .

وقلت : « لم اعد اقدر على شيء غير الموت . واني لأؤمن بالله .  
فأحاول ان انتظر مشيئته في صمت » .

هذه الكلمات لم اقلها بفكري فحسب ، بل قلتها بشفتي ايضا . ثم  
انني رددت بؤسي كله الى فؤادي ، وبذلت جهدا غير يسير لكي ابقيه هناك ،  
اخرس ساكنا .

فقال صوت على مقربة دانية مني : « لقد كتب الموت على الناس  
جميعا ، ولكن لم يكتب على الناس كلهم ان يلحقوا مثل هذه الميته المتطاولة ،  
الفطيرة ، التي ستنتهين اليها اذا ما قضيت نحبك هنا جوعا وعوزا » .

وتساءلت ، وقد روغني الصوت اللامتوقع وامسيت عاجزة عن ان اري في  
ايما حادثة ، مهما تكن ، بصيص امل في العثور على عون : « من الذي ، او ما  
الذي ، يتكلم ؟ » كان ثمة شبح قريب مني ، ولكن الليل ذا الظلام الحالـك  
وبصري الذي اصابه الوهن حالا بيني وبين تبيئته . وانشأ الوافد الجديد  
يطرق الباب طرقا غنيقا طويلا .

فصاحت حنة : « اهذا انت ، يا مستر سانت جون ؟ »

- « اجل . . اجل . . افتحي في سرعة » .

- « حسنا ، ولا ريب في انك تشكو البرد والبلل في مثل هذه الليلة  
الضارية ! ادخل . . . ان اختيك قلقتان عليك اعظم القلق ، وانا اعتقد ان  
بعض الاشرار يحومون حول البيت ويترصدون بنا الدوائر . . . فقد وفدت  
علينا ، منذ لحظات ، شحادة . . ولكنها لما تنصرف بعد ! انها منطرحة على  
الارض هناك . انهضي ! يا للعار ! اقول لك امضي لسبيلك ! »

- « صه ، يا حنة ! ان لدي كلمة اريد ان اقولها لهذه المرأة . لقد  
اديت انت واجبك بطردها ، فدعيني اؤدي انا واجبي بأدخالها . فقد كنت  
واقفا غير بعيد فأصغيت اليك واليها . ويخيل الي ان هذه حالة استثنائية ،  
وان من واجبي ان ادرسها على الاقل . ايته الشابة ، انهضي وتقدميني الى  
البيت » .

فصدعت بما امرني في صعوبة وعسر . وسرعان ما وجدت نفسي واقفة  
ضمن جدران ذلك المطبخ النظيف المشرق ، امام المدفأة نفسها ، وانا ارتجف  
واغالب الاغماء ، وأعي ان مظهري لا بد ان يكون غاية الغايات في الشحوب ،  
وانتفاش الشعر ، والارهاق من جراء السير تحت المطر والرياح . كانت  
السيداتان ، واخوهما سانت جون ، والخادمة العجوز ، كلهم يحدقون الي .

وسمعت احدهن تسأله : « سانت جون ، من هذه المرأة ؟ »

فكان الجواب : « لست ادري . لقد وجدتها بالباب » .

فقلت حنة : « انها تبدو مسرفة في الشحوب » .

« بل انها شاحبة شحوب الصلصال او الموت . وهي توشك ان تقع  
مفشيا عليها . دعيها تجلس » .

والواقع ان الدوار كان يعصف برأسي . وهويت ، ولكن احد الكراسي  
تلقائي . كنت لا ازال مالكة زمام حواسي ، برغم اني كنت عاجزة في تلك  
اللحظة عن الكلام .

« لعل شيئا من الماء قادر على انعاشها . ايتيني بقليل منه ، يا حنة .  
ولكن الضنى قد انهكها فلم يبق منها غير الجلد والعظم . آه ، ما اشد هزالها ،  
وما اعظم امتناع لونها ! »

« انها مجرد شبح » .

« اهي مريضة ام جائعة وحسب ؟ »

« جائعة ، في ما اظن . هل هذا لبن ، يا حنة ؟ ايتيني به وبكسرة  
من خبز » .

فكسرت ديانا ( لقد عرفت من جدائلها الطويلة التي رأيتها تنسدل بيني  
وبين النار عندما انحنت فوقى ) شيئا من خبز وغمسته في اللبن ، ووضعت  
في فمي . كان وجهها على مقربة من وجهي : لقد رأيت علائم الاشفاق فيه ،  
واستشعرت المشاركة الوجدانية في انفاسها المتسارعة . وبكلماتها البسيطة ،  
ايضا ، تكلمت العاطفة البلسمية نفسها فقالت : « حاولي ان تأكلي » .

فكرت ماري في لطف : « اجل ... حاولي » .

ونزعت يد ماري قبعتي المبللة ورفعت رأسي . وذقت ما قدموه الي ،  
على نحو واهن ، اولا ، ثم في لهفة بعد ذلك .

وقال سانت جون : « ليس ينبغي لها ان تسرف في الطعام اول الامر . .  
اكبحي جماحها . . . لقد اصابت منه مقدارا كافيا » . واقصى كوب اللبن  
وطبق الخبز عني .

« دعها تصيب مقدارا اضافيا قليلا ، يا سانت جون ، انظر الى النهم  
في عينيها » .

« لا . يجب ان لا تعطى مزيدا ، في الوقت الحاضر ، يا اختاه . حاولي  
ان تري ما اذا كان في ميسورها الان ان تتكلم . اسأليها ما اسمها » .

واستشعرت اني قادرة على الكلام ، فأجبت : « اسمي جين ايليوت » .  
ذلك بأن حرصي ، اكثر من ايما وقت مضى ، على ان لا يكشف هويتي احد  
كان قد دعاني الى توطين النية على اصطناع اسم مستعار .

« واين تقيمين ؟ اين اهلك ؟ »

فاعتصمت بالصمت .

« هل نستطيع ان نستدعي احدا من معارفك ؟ »

فهزرت رأسي .

« هل تستطيعين ان تروي لنا قصتك ؟ »

وبطريقة ما ، لم اعد اشعر - بعد ان اجتزت عتبة هذا المنزل ووجدت نفسي وجها لوجه مع اصحابه - اني منبوذة ، متشردة ، انكرها العالم كله . من اجل ذلك جرؤت على اطراح صفة المتسولة ، واستعادة شخصيتي ومسالكي الطبيعية . وشرعت اعرف نفسي ، كرة اخرى . حتى اذا سألني مستر سانت جون ان اروي قصتي - وهو شيء كنت آنذاك اضعف من ان اقوى على ادائه - قلت بعد تمهل وجيز : « سيدي ، ليس في استطاعتي ان اقدم اليك الليلة اية تفاصيل » .

فقال : « ولكن ما الذي تتوقعين مني ، اذن ، ان افعله من اجلك ؟ » فأجبت : « لا شيء » .

كانت قوتي لا تساعدني على اكثر من الرد بأجوبة قصيرة . فتولت ديانا الكلام قائلة : « هل تعنين اننا قد اسدينا اليك العون الذي تبتغيه ؟ وان في ميسورنا ان نسرّحك لتعودي الى الارض السبخة والليل الممطر ؟ »

ونظرت اليها . كانت لها ، في ما خيل الي ، سيماء اخاذة تتميز بالقوة والطيبة في آن معا . وآنست في نفسي شجاعة مفاجئة . واذا اجبت عمن نظرتها الرؤوف بابتسامة قلت : « ان لي ثقة فيكم . وانا اعرف اني لو كنت كلبا ضالا لا سيد له لما طردتموني من مستوقدكم الليلة . وهكذا فاني لا استشعر خوفا البتة . افعلوا بي ومن اجلي ما تشاءون ، ولكن اعفوني من الاسراف في الكلام - ان انفاسي لقصيرة ، واني لاستشعر ان التشنّج يستبد بي كلما تكلمت » .

وراح الثلاثة ينظرون الي من قمة رأسي الى اخمص قدمي ، واعتصموا كلهم بالصمت .

واخيرا ، قال سانت جون : « حنة ، دعيها تقعد هناك موقتا ، ولا توجهي اليها اي سؤال . وبعد عشر دقائق اعطيها بقية ذاك اللبن وذلك الخبز . ولنذهب ، يا ماري وديانا ، الى حجرة الجلوس وننتحدث في المسألة » .

وانسحبوا . وما هي الا لحظات حتى عادت احدي السيدتين - ولم استطع ان اجزم اكانت هي ماري ام ديانا . وكان ضرب من الخدر العذب يتمشى في مفاصلي وانا قاعدة على مقربة من النار الانيسة . وفي كلمات مهموسة ، اصدت الى حنة بعض التعليمات . ولم تمض غير دقائق حتى رحت ابذل قصارى جهدي ، مستعينة بالخادمة ، لارتقاء درجات سلم ما . ونزلت ملابسي . وسرعان ما استقبلني فراش دافئ جاف . وحمدت الله . . . وراودتني وسط اعياء لا سبيل الى وصفه ، حميّا ابتهاج مقرون بعرفان الجميل . . . واستسلمت للرقاد .

اني لا اذكر الثلاثة الايام والليالي التي تلت ذلك الا ذكرى مبهمة جدا . في استطاعتي ان اذكر بعض المشاعر التي خامرتني خلال تلك المدة ، ولكنني



لا اذكر الا قلة قليلة من الافكار التي راودتني : اما الاعمال التي قمت بها  
 فلست اذكر منها شيئا البتة . لقد عرفت اني كنت في حجرة صغيرة ، وفي  
 سرير ضيق . ولقد بدا لي اني كنت مشدودة الى ذلك السرير شدا : لقد  
 اضطجعت فيه جامدة كالحجر ، وكان انتزاعي منه خليقا به ان يفضي الى قتلي  
 او يكاد . ولم افطن قط الى تصرُّم الزمن - الى تحول الصباح الى ظهر ، والظهر  
 الى مساء . لقد لاحظت دخول الداخلين الى الحجرة وخروج الخارجين منها .  
 بل لقد كان في ميسوري ان اعرفهم باسمائهم ، وكان في طوقي ان افهم ما  
 يقال كلما اتفق ان كان المتكلم واقفا على مقربة مني ، ولكنني كنت عاجزة عن  
 الاجابة . فقد كان من المتعذر علي ان افتح شفتي وان احرك اطرافي ، على حد  
 سواء . وكانت حنة ، الخادمة اكثر القوم اختلافا الى حجرتي . وكان وفودها  
 علي يزعجني : كنت اشعر انها حريصة على ابعادي عن المنزل ، وانها لم  
 تفهمني او لم تفهم ظروفي ، وانها كانت متحاملة علي . اما ديانا وماري فكانتا  
 تفدان علي حجرتي مرة او مرتين في اليوم . وكان من دأبهما ان تتهامسا بمثل  
 هذه الجمل ، امام سريري :

« لقد احسنا صنعا ، الى حد بعيد ، بايواننا اياها » .

« اجل . ولو قد تركت طوال الليل خارج البيت اذن لكان خليقا  
 بنا ان نجدها في الصباح جثة هامدة طريحة لدى الباب . ليست شعري اي  
 خطب الم بها ؟ »

« يخيّل الي انها قاست شدائد عجيبة . يا لها من متشردة بائسة  
 مهزولة شاحبة الوجه ! »

« يبدو لي ، من طريقتها في الكلام ، انها ليست امرأة غير مثقفة .  
 ان نبرتها صافية ككل الصفاء ، ولقد كانت الملابس التي خلعتها - برغم ما  
 اصابها من وحل وبلل - ملابس مترفة شبه جديدة » .

« ان لها لوجها فريدا ، واني لاجبه على الرغم من هزاله وشحوبه .  
 ويخيّل الي ان سيماءها سوف تكون ، يوم تسترد صحتها وعافيتها ، مستحبة  
 قريبة الى النفس » .

ولم اسمع في محاوراتهما ، ولو مرة واحدة ، ايما كلمة تنم عن ندم  
 علي ما احاطتاني به من حسن ضيافة ، او عن ارتياب فيّ او كره لي . ولقد  
 كان في ذلك ما سرى عني .

ولم يفد مستر سانت جون علي حجرتي الا مرة واحدة : لقد نظر الي  
 وقال ان حالة السبات التي غلبت علي ناشئة عن اعياء متطاوّل مغالٍ فيه .  
 واعلن ان ليس ثمة حاجة الى استدعاء طبيب ، وانه واثق من ان الطبيعة خليق  
 بها ، اذا ما تركت وشأنها ، ان تصلح ما فسد . لقد قال ان كل عصب من  
 اعصابي كان مرهقا بطريقة ما ، وان الجهاز العصبي كله يجب ان يخلد الي  
 السكينة والرقاد فترة من الزمن ، وانني لا اشكو ايما داء ، وانه يميل الى  
 الاعتقاد بأنني ما ان اشرع في استرداد العافية حتى انعم بالشفاء علي نحو

عاجل . وانما عبر عن هذه الآراء في كلمات معدودات ، وفي صوت خفيض هادئ . ثم اضاف ، بعد تمهل ، في نبذة رجل لم يألّف التبسط في الشرح والتعليق الا قليلا : « سحنة غير عادية . . . لا تنم من غير شك عن ابتذال او حطة » .

فاجابته ديانا قائلة : « بل انها ابعد ما تكون عن الابتذال والحطة . اقول لك الحق ، يا سانت جون ، ان قلبي لياسى لهذه النفس الصغيرة البائسة ويعطف عليها . ولشد ما اتمنى لو نستطيع ان نسدي اليها عونا سرمديا » .

فكان الجواب : « هذا امرٌ بعيد الاحتمال . ولسوف تجددين عما قريب انها شابة نشأ بينها وبين اهلها سوء تفاهم ، وانها في اغلب الظن قد هجرتهم من غير ما روية ولا تبصر . ومن يدري ، فلعلنا ان نوفق الى اعادتها اليهم ، اذا لم تتكشف عن تصلب في الرأي . ولكنني المح امارات العناد على وجهها ، وهذا ما يجعلني اعتقد انها لن تكون سهلة الانقياد » . وراح يتأملني بضع دقائق ، ثم اضاف : « انها تبدو ذكية ، ولكنها غير وسيمة البنة » .

— « ولكنها رازحة تحت وطأة المرض ، يا سانت جون » .

— « تحت وطأة المرض او تحت وطأة الصحة . . . انها سوف تظل دميمة ابد الدهر . هذه الاسارير يعوزها بهاء الجمال وتناغمه » .

وفي اليوم الثالث ، غدوت احسن حالا . وفي اليوم الرابع امسى في ميسوري ان انكلم ، واتحرك ، وارفع نفسي واتقلب في الفراش من جنب الى جنب . وحوالي موعد الغداء ، في ما احسب ، حملت الي حنة ، بعض الشريد وقطعة من خبز محمص . فأكلت في شهية : كان الطعام جيدا ، خلوا من نكهة الحمى التي كانت قد سممت كل ما اذردته حتى ذلك الحين . وعندما فارقتني حنة استشعرت قوة ونشاطا نسبين . وما هي غير فترة يسيرة حتى ضقت ذرعا بالراحة الموصولة وحتى استحوذت علي رغبة في التحرك والعمل . لقد نزعتم الى مفادرة الفراش ، ولكن اي شيء ارتدي ؟ لم يكن ثمة غير ملابس الرطبة الملوخة بالوحل . . . تلك التي نمت بها على الارض وهويت بها في المستنقع . واستشعرت الخجل من ان اظهر بتلك الملابس امام من احسنوا الي ، ولكنني سرعان ما كفييت هذا الهوان .

فعلى كرسي الى جانب سريري كانت ثيابي كلها ، نظيفة جافة . وكان فستاني الحريري الاسود معلقا على الحائط ، وقد ازيلت منه آثار الوحل وتلك التفضنات التي كان البلبل قد احدثها فيه : لقد كان في وضع حسن . وحتى حذائي وجوربي كانا قد نظفنا وجعلنا لائقين . وفي الحجرة ايضا كانت جميع اسباب الاغتسال ، ومشط وفرشاة لكي استعين بهما على تسريح شعري . وبعد جهود جاهدة ، كنت اخلد خلالها الى الراحة مرة كل خمس دقائق ، وفقت الى ارتداء ملابسني واتخاذ زينتي . وتهدلت ملابسني على جسدي ، بسبب من الهزال الذي المّ بي ، ولكنني حجبت هذه العيوب بشالي . حتى اذا استعدت مظهري النظيف اللائق — فليس فيه لطخة من قذر وليس فيه

ايما اثر من آثار الاضطراب الذي امقته اشد المقت والذي بدا وكأنه يُنزل بي اعظم المهانة - تحاملت على نفسي ورحت اهبط ، مستعينة بالندابزون ، سلما حجرية افضت بي الى مجاز ضيق خفيض . وسرعان ما اكتشفت طريقي الى المطبخ .

كان المطبخ عابقا كله بعبير الخبز الطازج ، ودفع ناري حسنة الضرام . كانت حنة تخبز . ومعروف لدى الخاص والعام ان من اعسر العسير استئصال جذور التحامل من قلب لم تدمت الثقافة تربته او لم تُصطنع في اخصابها ، لانها تمتد ثمة راسخة ثابتة كالاعشاب الضارة بين الحجارة . والواقع ان حنة وقفت مني بادى الامر موقفا باردا قاسيا ، ثم شرعت تلين بعد ذلك بعض الشيء . وعندما رأيتني ادخل عليها المطبخ انيقة حسنة البزة ذهبت الى حد استقبالي بابتسامة .

وقالت : ماذا ؟ لقد نهضت من فراشك ؟ انت اذن احسن حالا . في ميسورك ان تجلسي على كرسي الى جانب المستوقد ، اذا شئت .

واشارت الى الكرسي الهزاز ، فاستويت عليه . ثم انها انهمكت في عملها بهمة ونشاط ، مختلصة النظر الي بين الفينة والفينة . وفيما كانت تخرج بعض الارغفة من الفرن ، التفتت الي ، وسألتنني في فظاظة :

- « هل لجأت الى التسول ، في ايما يوم من الايام ، قبل ان تجيئي الى هنا ؟ »

وعصف بي السخط لحظة . حتى اذا تذكرت ان الغضب كان امرا غير وارد ، واني كنت قد بدوت لها في الواقع في مظهر شحادة ، اجبتها في هدوء ، ولكن في شيء من الحزم الصارخ :

- « انت تخطين اذ تتوهمينني شحادة . انا لست بالشحادة . . . . الا اذا كنت انت وكانت سيدتاك الشابتان من زمرة الشحاذين ! »

وبعد تمهل قالت : « انا لا افهم ذلك . انك فتاة لا بيت لها ولا نحاس ، في ما اظن ؟ »

- « ان افتقار المرء الى بيت ونحاس ( الذي تعنين به المال ، على ما احسب ) لا يجعل منه شحاذا بالمعنى الذي تفهمينه من الكلمة . »

فسألتنني على التو : « هل انت متعلمة ؟ »

- « اجل . الى حد بعيد . »

- « ولكنك لم تلتحقي قط بمدرسة داخلية ! »

- « لقد سلخت ثمانية اعوام في احدى المدارس الداخلية . »

فتفتحت عينيها اوسع ما استطاعت ان تفتحهما ، وقالت : « واذن ، فما الذي يجعلك عاجزة عن كسب رزقك بنفسك ؟ »

- « لقد كسبت رزقي بنفسي . واني لآمل ان اوفق الى كسبه في المستقبل ، كرة اخرى . ما الذي تعتزمين ان تفعليه بعنب الثعلب هذا ؟ »  
كذلك سألتها عندما جاءت بسلة حافلة بذلك الثمر .

- « سوف اصنع منه بعض المعجنات » .
- « ادفعيه الي حتى انتقي جيده واطرح خبيثه » .
- « لا . انا لا اريدك ان تأتي عملا ما » .
- « ولكنني يجب ان اعمل شيئا . ادفعي الثمار الي » .
- ووافقت اخر الامر . ليس هذا فحسب ، بل انها جاءتني بمنشفة نظيفة لكي انشرها فوق فستانني ، « خشية ان اوسخه » كما قالت .
- ولاحظت قائلة : « ان يدبك توحيان الي بانك لم تتعودي الخدمة المنزلية من قبل . هل كنت خياطة ؟ »
- « لا . لقد جانبك الصواب . والان ، دعي عنك ما كنته من قبل . لا تشغلي بالك بأمرى أكثر مما فعلت . ولكن قللي لي ما اسم المنزل الذي نحن فيه » .
- « بعضهم يدعونه « مارش اند » ، وبعضهم يدعونه « مور هاوس » .
- « والسيد الذي يقيم هنا يدعى مستر سانت جون ؟ »
- « لا . انه لا يقيم هنا : فهو لن يمكث غير فترة يسيرة . حتى اذا انقلب الى موطنه انقلب الى ابرشيتته في مورتون » .
- « تلك القرية الواقعة على مبعده بضعة اميال ؟ »
- « نعم » .
- « وما عمله ؟ »
- « انه قسيس » .
- عندئذ تذكرت جواب مدبرة المنزل العجوز في بيت راعي الكنيسة عندما التمسست مقابلة القسيس . فقلت : « اذن ، فهذا هو بيت ابيه ؟ »
- « نعم ، لقد عاش مستر ريفرز العجوز هنا ، وكذلك عاش ابوه ، وجده ، وجده الاعلى من قبله » .
- « واذن فاسم ذلك السيد هو مستر سانت جون ريفرز ؟ »
- « نعم . ان « سانت جون » هو اسمه الصغير كما يقولون » .
- « واختاه تدعيان ديانا وماري ريفرز ؟ »
- « نعم » .
- « وقد مات ابوهم ، اليس كذلك ؟ »
- « مات منذ ثلاثة اسابيع بضربة شلل » .
- « اليس لهم ام ؟ »
- « لقد توفيت سيدتي منذ سنوات عديدة » .
- « وهل عشت مع هذه الاسرة طويلا ؟ »
- « لقد سلخت هنا ثلاثين سنة . ولقد ربيت الاولاد الثلاثة جميعا » .
- « هذا يشبه انك كنت طوال هذه الفترة خادمة امينة مخلصه . اقول لك هذا برغم انك لم تتورعي عن الزعم اني شحاذاة » .

فحدقت الي ، كرة اخرى ، بنظرات ترشح بالدهش ، وقالت : « اعتقد اني كنت مخطئة تماما في رأيي فيك . ولكن كثيرا من الماكرين والماكرات يختلفون الى هذه البقعة ... ومن اجل ذلك يتعين عليك ان تغفري لي » .

فتابعت ، في نبرة هي الى القسوة اقرب : « برغم انك اردت ان تطرديني عن باب البيت ، في ليلة ما كان من حقك ان تطردي فيها كلبا » .

— « حسنا ، لقد كنت قاسية عليك : ولكن ما الذي يستطيع المرء ان يفعله ؟ لقد فكرت بالفاتنتين الصغيرتين اكثر مما فكرت في نفسي . يا للمخلوقتين البائستين ! اذ ليس لهما من يعنى بهما غيري . وخلق بي ان انزع الى الحدة في بعض الاحيان » .  
واعتصمت ، بضع دقائق ، بصمت كئيب .

فلاحظت من جديد : « يجب ان لا تقسي ، اكثر مما يجب ، في الحكم علي » .

فقلت : « ولكني لا استطيع الا ان اقسو عليك ، ولسوف اقول لك لماذا ... انا لا اقسو عليك لانك رفضت ايوائي او اعتبرتي محتالة بقدر ما اقسو عليك لانك جعلت الان من افتقاري الى « نحاس » وداري مطعنا علي وموضوعا لتعيري . ان جمهرة من افضل الذين اقلتهم الارض كانوا لا يقلون عني عوزا . واذا كنت مسيحية فيتعين عليك ان لا تعتبري الفقر جريمة » .

فقالت : « لن اعتبره كذلك منذ اليوم . ان مستر سانت جون يقول لي ذلك ايضا ، واني ادرك اني مخطئة .. ولكني كوّنت الان فكرة جديدة عنك تختلف عن فكرتي السابقة كل الاختلاف . انك تبدين لي مخلوقة صغيرة محترمة الى ابعد حد » .

— « كفى ... اني اغفر لك الان . صافحيني ! »  
فوضعت يدها الصلبة المخبّرة بالدقيق في يدي . واضاءت وجهها الجافي ابتسامة اخرى احفل بالصدق والحرارة . ومنذ تلك اللحظة توثقت بيننا عرى الصداقة .

كانت حنة مولعة بالكلام ، من غير ريب . وفيما كنت افصل رديء الثمار عن جيدها وفيما كانت هي تعدّ الرقاقات لصنع المعجنات راحت تقدم الي تفاصيل شتى عن سيدها الفقيد وسيدتها المرحومة وعن « الصغيرتين » كما كانت تدعو بنتيهما الشابتين .

لقد قالت ان مستر ريفرز العجوز كان رجلا ساذجا الى ابعد الحدود ولكنه كان سيدا ماجدا ينتمي الى اسرة من اعرق الاسر . وقالت ان « مارش اند » كان ، منذ انشائه ، ملكا لآل ريفرز ، واكدت ان « انشاءه » يرقى الى مثني عام خلت . انه لم يكن غير بيت صغير متواضع ، بالقياس الى قصر مستر اوليفر الضخم القائم في وادي مورتون . ولكنها لا تزال تذكر ابا « بيسل اوليفر » ، وكان صانع ابر مترحلا . ولقد كان آل ريفرز من اثرياء الطبقة

الوسطى على عهد ملوك انكلترا القدامى المتخذين اسم هنري ، وهو شيء يستطيع كل امرئ ان يدركه بالاطلاع على السجلات المحفوظة في كنيسة مورتون . ومع ذلك فقد « كان السيد العجوز مثل سائر القوم ، يسلك مسالكهم ويلتزم عمودهم : كان مفتونا بالصيد والزراعة وما شابههما » . اما السيدة فكانت من طراز مختلف . كانت مولعة بالمطالعة ، منكب على الدرس ، ولقد حذا « صغارها » حذوها في ذلك . لم يكن في هذه الديار نظير لهم ، ولم يوجد قط مثل ذاك النظير في ايما وقت مضى . لقد اولعوا ، ثلاثتهم ، بالمطالعة ، منذ ان جرت السننهم بالنطق تقريبا . ولقد كانوا دائما ممن نسيج مختلف عن نسيج الآخرين . ولم يكد مستر سانت جون يبلغ الحلم حتى التحق بالكلية وامسى قسيسا . اما الفتاتان فلم تكادا تغادران المدرسة حتى بحثتا عن العمل كمريرتين : ذلك بانهما اخبرتاها ان والدهما كان قد فقد منذ بضع سنوات جزءا كبيرا من ماله ، بسبب من افلاس رجل كان قد ائتمنه ووثق به . واذ لم يعد من الثراء بحيث يخلّف لهما ثروة تعيشان عليها فقد تعين عليهما ان تعيلا نفسيهما بنفسيهما . لقد سلختا فترة طويلة من الزمن بعيدتين عن بيتيهما لا يختلفان اليه الا لاما ، ولقد وفدتا الان على البيت لتلبنا فيه بضعة اسابيع ليس غير بسبب من وفاة ابيهما . ولكنهما كانتا تحبان « مارش اند » و « مورتون » وكل هذه السباخ والهضاب المجاورة حبا عظيما . لقد اقامتا زمنا طويلا في لندن وفي كثير من المدن الكبيرة الاخرى ولكنهما كانتا تقولان دائما انهما لم تجدا البتة ما هو اروع واجمل من مسقط رأسيهما . والى هذا ، فقد كانتا على غاية التناغم والانسجام ، فلم تختلفا مرة ولم تتشاجرا البتة . وهي لا تحسب ان في الدنيا كلها اسرة متأزرة متكاتفة كهذه الاسرة .

حتى اذا فرغت من تنقية عنب الثعلب سألتها اين كانت السيدتان واخوهما الان .

— « لقد ذهبوا الى مورتون في نزهة على الاقدام ! ولكنهم سوف يرجعون لتناول الشاي بعد نصف ساعة ليس غير » .

والحق انهم رجعوا في الموعد الذي حددته لهم حنة ، ودخلوا البيت من باب المطبخ ، فأما مستر جون فاكتمى ، حين وقع بصره علي ، بالانحناء تحية لي ، وتابع تقدمه الى احدى الحجرات . واما السيدتان فوقفتا : لقد عبرت ماري ، في كلمات قليلة ، تعبيرا كريما هادئا عن الابتهاج الذي راودها اذ رأته على نشاط مكنني من هبوط السلم الى الدور الارضي . وامسكت ديانا بيدي ، وهزت رأسها لي وقالت :

« كان ينبغي ان تنتظري حتى آذن لك بالنزول ، ان امارات الشحوب الشديد لا تزال بادية على وجهك . وانت لا تزالين مهزولة الى حد بالغ ! يا لك من طفلة مسكينة ! يا لك من فتاة مسكينة ! »

كان لديانا صوت يقع في اذني موقع هديل الحمام . وكانت ذات عيني

ابتهج كلما التقت نظراتي نظراتهما . لقد بدا لي وجهها كله حافلا بالسحر والفتنة . وكان محيا ماري لا يقل عن محياها ذكاء . . . . وكانت اساريرها مثل اسارير اختها حسنا وجمالا ، ولكن الانطباع الغالبة على وجهها كانت اكثر تحفظا ، وكان سلوكها نحوي ، برغم لطفه ، اكثر برودة . وكان في نظرة ديانا وحديثها شيء من السيطرة والسلطان : لقد كانت ، من غير ريب ، ذات ارادة فعالة . وكنت انا مفطورة على الابتهاج بالخضوع لسلطان كسلطانها ، وبالاذعان - حيث يجهز لي ضميري واحترامي لذاتي ذلك - للارادة الفعالة .

ثم انها اضافت : « واي شأن لك بالمطبخ ؟ انه ليس مكانك . ان من دأبي ودأب ماري ان تجلس ، في بعض الاحيان ، في المطبخ لاننا نحب ، ان ننعم ، في البيت ، بالحرية . . . ان ننعم بها حتى الاسراف . اما انت فضيف ، ويجب ان تمضي الى حجرة القعود » .

- « ولكنني اجد متعة في الجلوس هنا » .

- « لست اظن ذلك البتة . . . ما دامت حنة تضطرب ههنا رائحة غادية ، وما دامت تغطيك بالدقيق » .

وهنا تدخلت ماري فقالت : « والى هذا فالنار هنا حامية الى حد تعجزين عن احتماله » .

واضافت اختها : « من غير ريب . تعالي ، يجب ان تكوني مطيعة » . وحملتني على النهوض - وكانت لا تزال ممسكة بيدي - وقادتني الى الحجرة الداخلية .

وقالت وهي تقعدني على الاربكة : « اجلسي هنا ريشما نغير ثيابنا ونعد الشاي . اذ من الامتيازات التي ننعم بها في بيتنا هذا ، المجاور للمستنقعات ، ان نعد طعامنا بأيدينا حين نؤانس في نفسينا ميلا الى ذلك ، او حين تكون حنة منصرفة الى الخبز او صنع الجعة او غسل الملابس او كيها » .

واغلقت الباب ، تاركة اياي وحدي مع مستر سانت جون الذي كان جالسا قبالي ، وفي يده كتاب او صحيفة . وانشأت اتأمل الحجرة ، اولا ، واتأمل محتلتها ، بعد ذلك .

كانت حجرة الجلوس حجرة هي الى الصغر اقرب ، وكانت مفروشة بأثاث بسيط الى حد بعيد ، ومع ذلك فهي مريحة بسبب من نظافتها وحسن ترتيبها . كانت الكراسي العتيقة الطراز شديدة اللمعان ، والطاولة المصنوعة من خشب الجوز صقيلة كالمرآة . وكانت بضع صور عتيقة غريبة لرجال ونساء من اهل العهود الغابرة تزين جدرانها المدهونة . وكان يقوم في ركن من اركانها خوان ذو ابواب زجاجية يشتمل على بعض الكتب ومجموعة من الآنية الخزفية . لم يكن في الحجرة اي من اسباب الزينة غير الضرورية ، او اية قطعة من الاناث العصري ، ما خلا علبتين خاضعتين بأشغال الابرة ، وقيمطر نسوي من خشب الورد موضوع على طاولة جانبية : لقد بدا كل شيء - حتى السجادة والستائر - عتيقا جدا ومصونا جدا في آن معا .

وكان مستر سانت جون جالسا في مثل سكون اللوحات القاتمة المعلقة على الجدار ، مثبتا عينيه على الصفحة التي كان يطالعها في روية وامعان ، مطبقا شفثيه على نحو ابكم ، فليس من العسير على المرء ان يدرسه ويتفحصه . ولو قد كان تمثالا لا بشرا اذن لما كان درسه وتفحصه اشد يسرا . كان فتى تراوح سنه في اغلب الظن ما بين الثامنة والعشرين وبين الثلاثين ربيعا - فارع الطول ، مهزول الجسم ، يتسمر نظر المرء على وجهه الاغريقي ، ذي القسمات الصافية الى حد بالغ ، والانف الكلاسيكي المستقيم ، وعلى فمه وذقنه الاثينيين الخالصين . والواقع ان من النادر ان يشبه الوجه الانكليزي النماذج العتيقة بقدر ما اشبهها وجهه . وكان طبيعيا ان يصدمه تناثر قسماتي ما دامت قسماته هو على هذا التناغم كله . اما عيناه فكانتا نجلاوين زرقاوين ، ذواتي اهداب سمراء . واما جبينه العالي ، الشاحب كالعاج ، فكانت تنوس فوقه ذوائب شعناء من شعره الاشقر .

وتلك صورة حبيبة الى النفس ، اليس كذلك ايها القارئ ؟ ومع ذلك فان صاحبها كان لا يوقع في نفس الناظر انه ذو طبيعة لطيفة ، لدنة ، يسهل التأثير فيها . بل كان لا يوقع في نفس الناظر انه ذو طبيعة وادعة . وحتى في جلسته الساكنة تلك كان كل من انفه وفمه وجبينه يتسّم ، في ما خيل الي ، بشيء ينم عن نفس قلقة ، او قاسية ، او متلهفة . انه لم يوجه الي اية كلمة ، بل لم يوجه الي نظرة الا بعد عودة اختيه . وحملت الي ديانا ، في رواحها وغدوها خلال اعداد الشاي ، كعكة صغيرة خبزت على ظهر الفرن ، وقالت :

- « كلي هذه الان ، فلا بد ان تكوني جائعة . تقول حنة انك لم تصيبي ، منذ فطور الصباح ، غير بعض الشريد » .

ولم ارفض الكعكة ، ذلك بان شهوتي الى الطعام كانت قد اوقظت فهي قوية حادة . عندئذ طوى مستر ريفرز كتابه ودنا من المائدة ، مثبتا علي ، فيما كان يتخذ مقعده ، عينيه الزرقاوين الشبيهتين بتلك العيون التي تمثلها اللوحات القديمة . كان في نظرتة ، الان ، استقامة جافية ورسوخ ثاقب عازم اظهرا ان اجتنابه النظر الي ، انا الغربية ، كان عن عمد لا عن استحياء . وقال : « انت جائعة جدا » .

- « اجل ، يا سيدي » . لقد كان من شيمتي دائما ، بحكم الغريزة ، ان ارد على الملاحظة الموجزة بأيجاز ، وعلى الكلام المباشر ببساطة .

- « كان من حسن طالعك ان اكرهتك حمي خفيفة على الامتناع عن الطعام خلال الايام الثلاثة الماضية : اذ كان ثمة خطر في الاستسلام لرغبات شهيتك في بادئ الامر . اما الان ، ففي ميسورك ان تاكلي ، ولكن في غير اسراف » .

- « آمل ان لا يطول تناولي الطعام على نفقتك يا سيدي » . كذلك كان جوابي اللفظي المصوغ على نحو اخرق الى ابعد الحدود .



فقال في فور : « لا . لن يطول . اذ سيكون في ميسورنا ، حين تعطينا عنوان اهلك ، ان نكتب اليهم ، وعندئذ يصبح بإمكانك ان تعودى الى بيتك » .  
- « يتعين علي ان اقول لك ، في صراحة ، ان هذا امر لا قبيل لي به . اذ لا بيت لي ولا اهل على الاطلاق » .

وحقق الثلاثة الي ، ولكن في غير ما ارتياب . لقد استشعرت انه لم يكن في نظراتهم شك ما : كانت اقرب الى الفضول منها الى اي شيء اخر . وانما اتكلم بخاصة عن السيدتين الشابتين . اما سانت جون ، فكانت عيناه ، برغم وضوحهما البالغ بالمعنى الحرفي للكلمة ، غامضتين يعسر على المرء سبر غورهما ، بالمعنى المجازي لها . لقد بدا وكأنه يصطنعهما اداتين للكشف عن افكار الناس اكثر من اصطناعه اياهما كعاملين للابانة عن افكاره هو ، وان تمازج الحدة والتحفظ فيهما كان يراد به ارباك الآخرين اكثر بكثير من تشجيعهم .

وسألني سانت جون : « هل تريد ان تقولي انه ليس لك انسباء البتة ؟ »

- « اجل ، فليس ثمة اية صلة تربطني بأي كائن حي . وليس لي ايما حق في ان استظل ايما سقف في انكلترا كلها » .

- « ذلك وضع غريب جدا بالنسبة الى فتاة في مثل سنك ! »

وهنا رأيت عينيه تتجهان الى يدي ، اللتين كانتا متصالبتين امامي على المائدة . وتساءلت في ما بيني وبين نفسي عن الغرض من نظراته تلك . ولكن كلماته سرعان ما حملت الي الجواب .

- « ألم يقدّر لك ان تتزوجي البتة ؟ هل انت عانس ؟ »

فضحكت ديانا ، وقالت : « ولكن سنها لا يمكن ان تعدو السابعة عشرة او الثامنة عشرة ، يا سانت جون » .

- « انا في نحو التاسعة عشرة . ولكنني غير متزوجة » .

واستشعرت وهجا لافحا يدب الى وجهي ، ذلك بأن هذا الاماع الى الزواج ايقظ في ذات نفسي ذكريات مريرة مثيرة . ولاحظوا كلهم ما اعتراني من ارتباك وانفعال . فسارعت ديانا وماري الى تحويل نظراتهما عن وجهي المضرج مخففتين بذلك من وطأة اضطرابي . ولكن اخاهما ، الاشد قسوة وبرودة ، لم يرفع بصره عني ، حتى افضى الارتباك الذي اورثني اياه الى اغراق عيني بالدمع واغراق وجهي بالدم في آن معا .

ثم انه سألني : « واين كنت تقيمين قبيل وفودك علينا ؟ »

فغمغمت ماري في صوت كالهمس : « انك لشديد الفضول ، يا سانت جون » .

ولكنه انحنى فوق المائدة مطالبا - من طريق نظرة اخرى ثابتة ثاقبة - بالحصول على جواب .

فاجبت في اقتضاب : « ان اسم المكان الذي اقمته فيه واسم الشخص

الذي عشت معه هما من اسراري الخاصة » .

فلاحظت ديانا : « ومن حقل ، في نظري ، ان تكتنميهما عن سانت جون وعن اي مستجوب اخر اذا رغبت في ذلك » .

فقال : « ومع ذلك ، فلن يكون في ميسوري ان اساعدك اذا لم اعرف شيئا عنك وعن ماضيك . وانك لفي حاجة الى المساعدة ، اليس كذلك ؟ »

– « اجل اني لفي حاجة الى المساعدة ، ولسوف التمسها حتى اعثر على محسن حقيقي محب للانسانية يرشدني الى سبيل تمكنني من الفوز بعمل استطيع اداءه واستعين بالاجر الذي اكسبه منه على العيش ، وسد ابسط حاجات الحياة على الاقل » .

– « انا لا ادري ما اذا كنت محسنا حقيقيا محبا للانسانية ... ومع ذلك فاني اود ان اساعدك ، بكل ما اوتيت من قوة ، على تحقيق مثل هذا الغرض الشريف . ولكن قل لي اولا ما الذي الفت ان تفعله ، وما الذي تستطيعين ان تفعله » .

وكنت الان قد فرغت من تناول الشاي . وكان ذلك الشراب قد اوقع في نفسي نشاطا عارما ، كالذي توقعه الخمرة في نفس عملاق من العمالقة : لقد منح اعصابي المرهقة قوة جديدة ، ومكنني من ان اخاطب هذا القاضي الشاب ، الفطن البصير ، في عزم وثبات .

فقلت ، مستديرة نحوه ناظرة اليه – كما نظر الي – في قوة ومن غير ما استحياء : « مستر ريفرز ، لقد اسديت الي انت وشقيقتك خدمة جليلة – اعظم خدمة يستطيع ان يسديها امرؤ الى اخوانه في الانسانية . لقد انقذتموني ، بنبل وفادتكم ، من الموت . وهذه اليد التي اسديتموها الي تجعل لكم علي حقين : حقا في اعترافي بجميلكم على نحو غير محدود ، وحقا في ايلانكس ثقتي الى حد ما . من اجل ذلك سأروي لكم من ماضي المتشردة التي آويتموها ذلك المقدار الذي استطيع روايته من غير ان اسئ الى راحة بالي ، ومن غير ان اعرض سلامتي ، الادبية والجسدية ، وسلامة الآخرين ، لا يما خطر .

« انا يتيمة ، بنت رجل من رجال الدين . مات عني ابواي قبل ان يُقدّر لي ان اعرفهما ، فنشأت عالة على بعض اهلي ، وتلقيت العلم في مؤسسة خيرية . اني سوف اذهب الى حد اخباركم باسم تلك المؤسسة ، حيث قضيت ست سنوات بوصفي تلميذة ، وستين بوصفي مدرسة : ماوي اليتيمات في لوود ، مقاطعة ... واحسب انك سمعت به ، يا مستر ريفرز . ان المحترم بروكلهورست هو خازن تلك المؤسسة » .

– « لقد سمعت بمستر بروكلهورست ، ولقد رأيت تلك المدرسة » .

– « وغادرت لوود ، منذ عام تقريبا ، لاعمل مربية خصوصية . فوفقت الى الفوز بوظيفة حسنة في بيت عرفت فيه السعادة . ولكنني اضطررت الى مبارحة ذلك البيت قبل اربعة ايام من مجيئي الى هنا . اما سبب رحيلي فلست استطيع الافضاء به وليس ينبغي لي ذلك . ولو قد فعلت اذن لكان ذلك عبثا

لا طائل تحته ، واذن لكان خطرا • واغلب الظن انه سوف يبدو غريبا ممتنعا على التصديق • ولا تحسبنّ أني كنت انا الملوثة في ذلك ، لا ، فأنا بريئة من اللوم براءتكم انتم الثلاثة منه • مسكينة انا ، ولا بد ان ابقى كذلك فترة من زمان • ذلك بأن الكارثة التي اقصنتني عن البيت الذي وجدته جنة كانت من ضرب مروع • ولقد راعيت في وضع خطة رحيلي نقطتين اثنتين ليس غير : السرعة ، والكتمان • ووفاء بهذين الغرضين تعيّن علي ان اخلف ورائي كل ما املكه ، ما خلا رزمة صغيرة نسيتهها ، بسبب من تعجّلي وانشغال بالي ، في العربة التي اقلتني الى هويتكروس • وهكذا وفدت على هذه المنطقة معدمة بكل ما في الكلمة من معنى • لقد نمت ليلتين اثنتين في العراء ، وهمت على وجهي نحو يومين اثنين من غير ان اجتاز عتبة ما : انا لم اذق الطعام ، خلال تلك المدة ، غير مرتين • حتى اذا هدّني الجوع والاعياء واليأس وكدت الفظ نفسي الاخير منعنتني انت ، يا مستر ريفرز ، من الموت - تحت وطأة العوز - عند بابك ، وآويتني تحت سقفك • انا اعرف كل ما فعلته شقيقتك ، منذ ذلك الحين ، في سبيلي - اذ لم اكن غائبة عن الوعي خلال سباتي الظاهري - اني لمدينة لحنائهما العفوي ، الاصيل ، البهيج دينا لا يقل عن ديني لاحسانك الانجيلي » •

فقالت ديانا حين تمهلت لحظة : « لا تحملها على الاسترسال في الكلام ، يا سانت جون • فمن الواضح انها لا تزال غير قادرة على احتمال الهياج والانفعال • تعالي الى الاريكة ، واجلسي هنا ، يا مس ايليوت » •

واجفلت نصف اجفالة لا ارادية لدن سمعت ذلك الاسم المستعار : كنت قد نسييت اسمي الجديد • فما كان من مستر ريفرز ، الذي بدا وكأن اياها شيء لم يكن ليفوته ، الا ان لاحظ ذلك في الحال وقال :

« لقد قلت ان اسمك هو جين ايليوت ؟ »

« اجل ، لقد قلت ذلك • وان هذا هو الاسم الذي اعتقد ان من الملائم ان ادعى به في الوقت الحاضر : ولكنه ليس اسمي الحقيقي ، وانه ليبدو - حين اسمعه - غريبا علي » •

« اما اسمك الحقيقي فلن تصرحي به ؟ »

« لا ، انا اخشى الفضيحة قبل كل شيء • واني لاجتنب كل تصريح قد يفضي الى ذلك » •

فقالت ديانا : « انا واثقة من انك على صواب • والان ، دعها يا اخي تنعم بالهدوء والطمأنينة ، فترة قصيرة من الزمان » •

ولكن سانت جون ، الذي كان قد استغرق في التفكير بضع لحظات ، سرعان ما عاد الى الكلام بمثل برودته وفطنته السابقتين فقال :

« ليس من ريب في انك لا ترغيبين في الاتكال على حسن ضيافتنا زمنا طويلا • وانك تتوقفين ، في ما ارى ، الى التحرر على اسرع وجه تستطيعينه من حنان شقيقتي ، والى التحرر - قبل كل شيء - من احسانني ( انا اعني

التمييز الذي تصطنعونه وعيا حسنا . ولست استنكره . . . فهو حق ) . هل تريدان الانفصال عنا ؟ «

– « أجل ، ولقد عبرت عن رغبتني هذه من قبل . دلني كيف اعمل ، او كيف اجد عملا : هذا كل ما اسألك اياه الان . ثم دعني امضي لسييلي ، ولو الى احقر كوخ . . . ولكن أجز لي – حتى ذلك الحين – ان ابقى هنا . انا اخشى ان اقع في تجربة اخرى مخوفة بأهوال الفاقة المتشردة » .

فقالت ديانا ، واضعة يدها البضة على يدي : « ولكنك سوف تبقيين هنا من غير ريب » .

وكررت ماري في نبرة راشحة بالصدق غير المنفعل ، نبرة بدت طبيعية بالنسبة اليها : « أجل ، سوف تبقيين » .

فقال مستر سانت جون : « ان شقيقتي لتجدان ، كما ترين ، متعة في الاحتفاظ بك ، كنتلك المتعة التي يخلق بهما ان تجداهما في احتضان طائر نصف متجمد ساقته اليهما ، عبر النافذة ، ريح مطيرة . اما انا فاشد نزوعا الى دفعك في السبيل التي تمكنك من اعالة نفسك بنفسك . ولكن يحسن بك ان تلاحظي ان نطاقني ضيق . انا لست غير راعي ابرشية ريفية فقيرة ، ومن هنا فان مساعدتي لك لا بد ان تكون متواضعة الى ابعد حدود التواضع . فاذا كنت تزدرين الاشياء الصغيرة فالتمسي نجدة اكثر فعالية من تلك التي تستطيع ان اقدمها اليك » .

فأجابت ديانا بالنيابة عني : « لقد قالت من قبل انها راغبة في اداء ايما عمل شريف تستطيع ان تؤديه . وانت تعلم ، يا سانت جون ، انه ليس لها في المسعفين خيار . انها مكرهة على احتمال اناس اجلاف مثلك » .

فأجبت : « سوف اشتغل خياطة ، او عاملة . سوف اعمل خادمة او ممرضة اذا لم اوفق الى ما هو افضل » .

فقال سانت جون في فتور بالغ : « حسن . اذا كانت هذه هي روحك فأني اعدك بالمساعدة ، حين اجد ذلك مناسباً وبالطريقة التي اراها ملائمة » .

وهنا ارتد الى الكتاب الذي كان مستغرقا في مطالعته قبل تناول الشاي . وسرعان ما انسحبت من الحجرة ، ذلك بأنني كنت قد تحدثت ، وجلست ، بقدر ما اجازت لي قوتي الحاضرة ان اتحدث واجلس .

## ٣٠

كنت كلما ازددت معرفة بنزلاء « مور هاوس » ازددت لهم حبا . وكنت قد استعدت ، خلال بضعة ايام ، مقدارا من صحتي مكنتني من الجلوس طوال النهار والتنزه خارج البيت في بعض الاحيان . لقد امسى في ميسوري ان اشارك ديانا وماري في اعمالهما كلها ، وان اتحدث اليهما ما رغبتا في ذلك ، وان اساعدهما كلما اجازتا لي – وحيثما اجازتا لي – مثل هذه المساعدة .

لقد كان في هذه العشرة متعة محيية ، من ضرب ذقته الان للمرة الاولى . . .  
متعة ناشئة عن التجانس الكامل في الاذواق ، والعواطف ، والمبادئ .

لقد احببت ان اطالع ما كانتا تحبان مطالعته ، وكان ما يسرهما يبهجني ، وما يرضيهما يحظى بأعجابي وتقديري . لقد احبنا بيتهما المعزول ، وكذلك وجدت انا فتنة قوية وسرمدية في آن معا في ذلك المبني الرمادي العتيق ، بسقفه الخفيض ، ونوافذه ذوات الشعريات ، وجدرانها العفنة ، ومجازه المحاط بصفيين من شجرات الشربين المسنة ، وقد نمت كلها مائلة تحت وطأة الرياح الجبلية ، وحديقته المعتمة بأشجار السدر وشرابة الراعي ، حيث لا ينور من الزهور الا اشدها بأسا . لقد تعلقنا بالسباخ الارجوانية الممتدة خلف بيتهما وحوله ، وبالوادي الغائر الذي هبط نحوه طريق الخيالة الكثير الحصى ، ذلك الطريق المفضي اليه من بابهما الخارجي ، والمتعرج بين ضفاف الخنشار ، اولا ، ثم وسط عدد يسير من المراعي الصغيرة التي لم يقدر لاي فلاة حافلة بنبات الخلنج ان حقت بأشد منها وحشية ولم يقدر لاي قطع من خراف السباخ الرمادية ولحملانها الصغيرة الخضراء الوجوه ان رعت في ما هو اكثر منها ضراوة . اقول لقد تعلقنا بهذا المشهد في حماسة كاملة ، وكان في ميسوري ان افهم شعورهما ذاك ، وشاركهما قوته وصدقه معا . لقد رأيت سحر المنطقة وشعرت بقدسية عزلتها . كانت عيناى تستمعان بنبوءاتها والتواءاتها ، وبضروب الالوان البرية التي اضفتها الطحالب ، والاراضي المخضوضرة المفروشة بالرياحين ، والخنشار المتألق ، والصخور الصوانية الملساء على هضابها ووهادها . كانت هذه الدقائق بالنسبة الي ما كانته بالنسبة اليهما تماما : مصادر متعددة ، كلها صاف وعذب ، للسرعة والبهجة . كانت الريح العاتية والنسيم العليل ، واليوم العاصف واليوم الوداع ، وساعات الشروق وساعات الغروب ، والليالي القمرية والليالي الغائمة - كانت كلها تثير في نفسي ، في هذه الديار ، مثل ذلك الاعجاب الذي اثارته في نفسيهما وترقي ملكاتي بمثل الرقية التي كانت تغلب ملكاتهما .

وضمن جدران البيت كان التناغم بيننا كاملا ايضا . كانت كلتاها ارفع منى ثقافة واغزر مطالعة ، ولكنى اتبعت في لهفة وحماسة نفس سبيل المعرفة الذي كانتا قد سلكتاه قبلي . لقد التهمت الكتب التي اعارتاني اياها ، وجعلت من دأبي ان اناقشهما في المساء في ما كنت قد طالعته خلال النهار ، واجدة في ذلك ارتياحا غامرا . لقد لاءم الفكر الفكر ، والتقى الرأي الرأي . وبكلمة ، لقد توافقنا توافقا كاملا .

واذا كان بين ثلاثينا متفوق وزعيم فقد كانت ديانا هي التي احتلت هذه المنزلة . فمن الناحية الجسدية برزني ديانا كثيرا : كانت بهية الطلعة موفورة النشاط . وكان في قوتها البدنية وفرة حيوية ، وبقينية تدفق ، اثارنا دهشتي وامتنعتنا ، في الوقت نفسه ، على فهمي . كان في ميسوري ان

اتحدث ، برهة ، عندما يهبط الليل ، ولكن ما ان تتلاشى اولى دقات حيويتي وطلاقة لساني حتى تراودني رغبة في الجلوس على كرسي خفيض لا ظهر له ، عند قدمي ديانا ، وراحة رأسي على ركبتها ، والاصغاء لها حيناً ولما ري حيناً ، فيما هما تسبران غور الموضوع الذي كنت قد مسستهُ مسّاً رقيقاً ليس غير . واقتрحت ديانا ان تعلمني الالمانية . واحببت ان اتعلمذ عليها ، فقد رأيت ان دور المعلمة يرضيها ويلائهما ، وان دور طالبة العلم يرضيني ويلائمني الى حد مكافئ . لقد تناغمت طبيعتانا ، فاذا بشرة ذلك محبة متبادلة - محبة من ضرب ليس اقوى منه . واكتشفنا اني اجيد الرسم ، وفي الحال وضعتا ريشاتهما وعلبتي ألوانهما تحت تصرفي . وادهشتما براعتي ، التي كانت في هذا الفن بالذات اعظم من براعتهما وفننتهما . فكان من دأب ماري ان تجلس وتراقبني ساعات طوالا . وبعد ذلك سالتني ان اعطيها بعض الدروس في الرسم ، فاذا بها تتكشف عن تلميذة ودیعة ، ذكية ، مجدة . وفي مثل هذا الجو الذي ملأت فيه وقتي بالعمل والتسلية المتبادلة تصرمت الايام وكأنها ساعات ، وتقضت الاسابيع وكأنها ايام .

اما مستر سانت جون فان الالفة ، التي نشأت بيني وبين شقيقتيه نشوءاً طبيعياً جداً وسريعاً جداً ، لم تمتد اليه . ومن اسباب تلك الشقة التي ظلت تفصل ما بيننا انه كان نادراً - نسبياً - ما يقيم في البيت : كان جزء كبير من وقته مكرساً ، في ما يبدو ، لعيادة المرضى والمعوذين من ابناء ابرشيته المتناثرين ههنا وههناك .

ولم يكن ايماً تقلب في الاحوال الجوية ليحول بينه وبين القيام برحلاته الرعائية هذه . كان من دأبه كلما انقضت ساعات درسه الصباحي ، سواء اكان الجو ممطراً ام صاحياً ، ان يعتمر قبعته وينطلق - يتبعه كلب ابيه العجوز ، كارلو - لاداء رسالته ، رسالة الحب او رسالة الواجب ، فما كنت اعلم الا قليلا على أي ضوء كان ينظر اليها . وكان من دأب شقيقتيه ، كلما هم بالخروج في يوم مكفهر عاصف ، ان تجادلاه في ذلك معترضتين . وعندئذ كان يقول ، في ابتسامة فريدة حفلت بمعاني الجلال اكثر مما حفلت بمعاني البشَر :

- « اذا اجزت لهبة ریح او رشاش مطر ان يصداني عن اداء هذه المهام اليسيرة فبئس هذا الكسل مهيدا للمستقبل الذي اعد نفسي له ! »  
وكان رد ديانا وماري العام على هذا الكلام هو زفرة تطلقانها ، وبضع دقائق من التأمل الفاجع .

بيد انه كان ثمة ، الى جانب غيابه المکرور ، حاجز اخر يحول دون توطد الصداقة ما بيني وبينه : لقد بدا لي انه ذو طبيعة متحفظة ، موزعة اللب ، بل ذو طبيعة نزاعة الى الاستغراق في التأمل . وعلى الرغم من حاسته في اداء اعماله الكهنوتية وطهارة سيرته وعاداته فانه لم يتمتع ، في ما يبدو ، بذلك الصفاء الذهني وبذلك الرضا الباطني اللذين لا بد ان يكافأ بهما كل

مسيحي مخلص وكل محب عملي من محبي الانسانية . وما اكثر الليالي التي كان يجلس فيها مستقبلاً النافذة ، وأمامه مكتبه وأوراقه ، ليكفّ بعد ذلك - فجأة - عن القراءة او الكتابة ، ويسند ذقنه الى يده ، ويستسلم لافكار لست ادري كنهها ، ولكن الذي ادريه انها كانت افكاراً قلقة مثيرة على ما رأيت من وميض عينيه المتواتر واتساع حدقتيهما المتفاوت .

واحسب ، فوق هذا ، ان الطبيعة لم تكن عنده كنز بهجة وحبور كما كانت عند شقيقتيه . لقد عبّر مرة على مسمع مني ، ولم يشنّ البتة ، عن احساس قوي بسحر الهضاب المتجهم ، وعن حب فطري للسقف الداكن والجدران الشائبة التي كان يدعوها بيته . ولكن النبرة والكلمات التي اظهر بها هذه العاطفة كانت ادنى الى الكتابة منها الى الابتهاج . ولم يطوّف البتة في ما خيل الي - في الاراضي السبخة استمتاعاً يسكونها المهدي للنفس ، ولم يلتمس او يفكر ملياً في مئات المباهج الوادعة التي كان خليقاً بها ان توفرها .

واذ كان زاهداً في العشرة والافصاح عن ذات نفسه فقد انسلخت فترة قبل ان تتاح لي فرصة اسبر فيها غور عقله . وانما كونت فكرة عن صفة عقله هذا ، اول ما كونت ، عندما سمعته يعظ في كنيسته في مورتون . وكما اتمنى لو اصف تلك العظة ، ولكن ذلك وراء قدرتي . بل اني لا استطيع التعبير ، في صدق وامانة ، عن الاثر الذي خلّفته في نفسي .

لقد بدأت هادئة ، والواقع انها ظلت حتى النهاية هادئة اذا اعتبرنا الاداء و « مقام » الصوت ليس غير . وسرعان ما سرت في نبراتها الواضحة حرارة ملموسة ، ولكنها مكبوحه في صرامة ، اغرته باصطناع اللغة العصبية . ثم تطورت هذه الحرارة الى قوة - قوة مكبوتة ، مركزة ، ملجّمة . وعرت الفؤاد ، من قوة الواعظ ، هزة عنيفة ، واستبد بالعقل دهش بالغ . ولم يعتر الوهن تلك الهزة وهذا الدهش . وخلال العظة كلها هيمنت مرارة عجيبة وتجلّى اشتقار الى الرقة المؤاسية ، وكثرت الاشارات المتجهمه الى المعتقدات الكالفينية : الاختيار ، والقضاء والقدر ، والنّبذ . وكانت كل اشارة الى هذه النقاط تبدو وكأنها حكم بالهلاك يصدر من بين شفّتيه . حتى اذا اتمّ عظته لم استشعر اني امسيت افضل واهداً واكثر استنارة مما كنت ، بل غلب علي حزن لا سبيل الى وصفه . ذلك بانه بدا لي - ولست ادري ما اذا كان الآخرون قد آنسوا الشيء نفسه - ان الفصاحة التي كنت اصغي اليها انما انبعثت من اعماق استقرت فيها رواسب الخيبة العكرة ، واعتلجت في جنباتها حوافز مكدّرة من اشواق نهمة واطماح مقلقة . لقد كنت على مثل اليقين من ان سانت جون ريفرز - برغم طهارة حياته ، ويقظة ضميره ، وغيرته المشبوبة - لمّا يجد ذلك الامن الالهي الذي يتخطى كل فهم : انه لمّا يجده - كذلك تراءى لي - اكثر مما وجدته انا في غمرة حسراتي المكتومة الملوّعة على صنمي المحطم وفردوسي المفقود . . . حسراتي التي احجمت في الفترة

الاحيرة عن الاماع اليها والتي استحوذت علي ، برغم ذلك ، واستبدت بي على نحو لا يعرف الرحمة .

وتصرّم في غصون ذلك شهر كامل . وكان علي ديانا وماري ان تغادرا « مور هاوس » وشيكا وتعودا الى حياة مختلفة جدا كانت تنتظرهما كمربيتين خصوصيتين في مدينة كبيرة عصرية من مدن انكلترا الجنوبية ، حيث كانت كل منهما تعمل في خدمة اسرة لم يكن افرادها الموسرون المتشامخون ينظرون اليها الا نظرتهم الى مرؤوسة حقيرة ، ولم يكونوا يعرفون او يحاولون ان يعرفوا ايا من كفاءاتها الفطرية فهم لا يقدرون غير براعاتها المكتسبة كما يقدرون مهارة طاهيتهم ، او ذوق وصيقتهم . ولم يكن مستر سانت جون قد قال لي شيئا عن العمل الذي كان قد وعد بتأمينه لي ، ومع ذلك فأن حصولي على عمل من ضرب من الضروب كان قد امسى الان ملحقا . وذات صباح غامرت ، وقد تزلزلت وحدي معه في حجرة الجلوس دقائق معدودات ، فدنوت من فجوة النافذة التي كرسستها طاولته وكرسیه وقمطره شبه مكتب له . . . . . وكنت علي وشك ان اتكلم - برغم اني لم اكن اعرف معرفة جيدة بآية كلمات اصوغ سؤالي ، اذ من العسير دائما كسر جليد التحفظ الذي يزجج الطبائع المشابهة لطبيعته . . اقول كنت علي وشك ان اتكلم عندما كفاني هو مؤونة ذلك بأن كان البادئ في الحديث . لقد قال ، وهو يرفع بصره نحوي فيما كنت ادنو منه :

- « احسب ان لديك سؤالا تودين ان تطرحيه علي ؟ »

- « اجل ، اريد ان اعرف ما اذا كنت قد اهتمت الى ايما عمل استطيع اداءه » .

- « لقد وجدت ، او ابتدعت ، لك شيئا منذ ثلاثة اسابيع . ولكن لما كان قد بدا لي انك سعيدة هنا ومفيدة في آن معا . . . . . ولما كانت شقيقتاي قد اولعتا بك ولوعا واضحا فهما تجدان في معاشرتكم متعة استثنائية فقد رأيت من غير الملائم ان اقطع عليكن ارتياحكن المتبادل ، وآثرت الانتظار حتى يحتم رحيلهما الوشيك عن « مارش اند » رحيلك انت ايضا » .

فقلت : « ولسوف ترحلان بعد ثلاثة ايام ، اليس كذلك ؟ »

- « اجل ، وعندما ترحلان اعود انا الى بيتي في مورتون . ان حنة سوف ترافقني ، وعندئذ يوصد هذا المنزل العتيق » .

وانتظرت بضع لحظات ، متوقعة ان يسترسل في الكلام على الموضوع الذي طرقته في مستهل الحديث . ولكنه بدا وكأن افكاره اتخذت وجهة اخرى مغايرة : لقد انبأني اساريه انه كان ذاهلا عني وعن عملي . فاضطرت لرده الى موضوع كان بالضرورة ذا اهمية بالغة عندي . فقلت :

- « ما هو العمل الذي خطر لك ، يا مستر ريفرز ؟ ارجو ان لا يفضي هذا التأخر الى مزيد من الصعوبة في الحصول عليه » .

- « اوه ، لا . ما دام عملا مرهونا بنا نحن الاثنين ليس غير : انا



اعرض ، وانت تقبلين او ترفضين » .

وصمت كره اخرى . لقد بدا وكأنه كان يكره ان يتابع الحديث . وضقت بصمته ذرعا ، فأثيت بحركة قلقه او بحركتين قلقتين وسمرت على وجهه نظرة لاهفة متطلبة استطاعت جميعها ان تبلغه شعوري على نحو فعال وكأنها كلمات مبينة ، وبقدر من العناء اقل .

فقال : « ليس ثمة ما يدعوك الى تعجل السماع . دعيني اخبرك ، في صراحة ، انه ليس لدي ايما شيء لائق او راجح اقترحه . ولكن قبل ان اشرح تذكرني ، اذا سمحت ، ما كنت قد اوضحته من قبل ، وهو اني اذا ساعدتك كان مثلكي معك كمثلك اعمى يساعد اعرج . انا رجل فقير . لانني ارى ان الميراث الذي سيبقى لي ، بعد ان افي ديون ابي ، لن يعدو هذا البيت الريفى المتداعي ، وصف شجرات الشربين المسفوعة الممتد وراه ، وتلك القطعة من الارض السبخة ، واشجار السدر وشرابة الراعي القائمة امامه . وانا وجل مغمور . ان اسرة ريفرز عريقة ، ولكن اثنتين من اصل الثلاثة الذين لم يبق منها غيرهم تكسبان خبزهما بالخدمة في بيوت الغرباء ، على حين يعتبر الثالث نفسه اجنيا عن مسقط رأسه لا طوال الحياة فحسب ، بل بعد الموت ايضا . اجل ، ويعتبر ، وليس له من ذلك بد ، ان الله قد شرّفه بحظه هذا . . . . فهو لا يطمح الا الى اليوم الذي يلقي فيه صليب الانفصال عن الروابط الجسدية على كتفيه ، والا الى اليوم الذي ينادي فيه امام تلك الكنيسة المجاهدة التي هو واحد من احقر اعضائها : « انهضوا ، واتبعوني ! »

قال سانت جون هذه الكلمات كما تعود ان يلفظ عظامه ، في صوت هادئ عميق ، وبوجنة لم يشع فيها الدم ، ونظرة مؤرارة بأشعاع متألق . ثم انه اضاف قائلا :

« واذا كنت انا نفسي فقيرا ومغمورا فليس في وسعي ان اقدم اليك غير عمل فقير مغمور . بل انك قد تحسبين هذا العمل مهينا لك . . . . ذلك بانى ارى ان عاداتك كانت من ذلك الضرب الذي يدعو الناس مصقولا ، وان أذواقك تنزع الى المثل الاعلى ، وان حياتك كانت على الاقل بين المثقفين . ولكنى لا اجد ايما هوان في ايما عمل قادر على تحسين النور البشري . وانا أؤمن بأنه كلما كانت التربة التي يُعْمَد الى المناضل المسيحي بحراستها اكثر جدبا . . . . وكلما كان ثواب كدحه اضال كان الشرف الذي يحظى به اعظم . ان حظّه ، في مثل هذه الاحوال ، هو حظ الرائد ، ولقد كان رواد الانجيل الاولون هم الرسل ، ولقد كان امامهم هو يسوع ، المخلص نفسه » .

فقلت وقد تمهل من جديد : « حسنا ؟ تابع ! »

فنظر الى قبل ان يتابع ، وراح يقرأ وجهي مليا وكان اساريه كانت حروفا مسطورة على صفحة كتاب . ولقد عبر بعض التعبير عن ثمرات افعاله النظر الي ، في ملاحظاته التي تلت .

قال : « انا اعتقد انك سوف تقبلين الوظيفة التي ساعرضها عليك .

وانك سوف تؤدينها فترة من الزمن فحسب ، وليس ابد الدهر ، الا اذا استطعت انا ان انهض ابد الدهر بوظيفة القس الانكليزي الريفي ، هذه الوظيفة الهادئة ، المحجوبة ، الضيقة ، المضيقّة . ذلك بأن في طبيعتك معدنا لا يقل عدا للراحة والسكينة عن المعدن الذي في طبيعتي ، برغم انه من ضرب اخر .

فألححت ، عندما كف عن الكلام كرة اخرى : « اشرح ، ارجوك ! »

— سوف اشرح . وستسمعين اي اقتراح هزيل . . . . . تافه . . . . . ومعقّد هو اقتراحي ، انا لن امكث طويلا في مورتون ، بعد ان توفي والدي واصبحت سيد نفسي . واغلب الظن اني سأغادر ذلك المكان في خلال اثني عشر شهرا . ولكنني سوف ابذل قصارى جهدي ، ما اقمته فيه ، لتحسينه . ان مورتون لم يكن فيها ، يوم وفدت عليها منذ سنتين ، مدرسة ما : كان ابناء الفقراء محرومين كل امل في التقدم . فانشأت مدرسة للصبية ، واني لا اعترم الان انشاء مدرسة ثانية للبنات . لقد استأجرت مبنى لهذا الغرض ، مع كوخ ملحق به مؤلف من حجرتين ليكون مثنى للمعلمة . ان راتبها سيكون ثلاثين جنيها في العام ، ولقد تمّ تأثيث بيتها هذا ، على نحو بسيط جدا ، ولكنه كاف ، بفضل كرم سيدة نبيلة ، هي مس اوليفر ، البنت الوحيدة للثري الوحيد في ابرشيتي — مستر اوليفر ، وهو صاحب مصنع ابر ومصنّع حديد في الوادي . وهذه السيدة نفسها سوف تدفع نفقات تعليم يتيمة من يتيمات الملجأ ونفقات كسوتها ، شريطة ان تساعد المعلمة في اداء بعض الاعمال الحقيرة المتصلة ببيتها وبالمدرسة ، لان انشغالها بالتعليم سوف يحول بينها وبين ادائها بنفسها . هل ترضين ان تكوني هذه المعلمة ؟

لقد طرح السؤال في شيء من التعجل ، وبدا وكأنه كان يتوقع ، نصف توقع ، ان ارفض عرضه في حق ، او على الاقل في اذراء . انه لم يستطع ، بسبب من عدم معرفته كل افكاري ومشاعري — وان يكن قد حزر بعضها — ان يتنبأ بموقفي من العمل الذي اقترحه علي . لقد كان ، في الواقع ، عملا متواضعا ، ولكنه كان يتيح لي سقفا استظل بظله ، وكنت انا في حاجة الى مأوى آمن . لقد كان مرهقا ورتيبا ، ولكنه كان — اذا ما قورن بوظيفة المربية الخصوصية في بيت موسر — عملا يتّسم بسمة الاستقلال ، وكان الخوف من العبودية للغرباء يحز في نفسي كالسكين . ان العمل المقترح لم يكن خسيسا . . . . . لم يكن غير لائق . . . . . لم يكن مهينا . وهكذا اتخذت قراري ، فقلت :

— « اشكرك على اقتراحك ، يا مستر ريفرز . واني لاقبله من صميم فؤادي » .

فقال : « ولكن هل فهمتني ؟ انها مدرسة قروية : ان تلميذاتك لن يكن غير فتيات فقيرات — بنات قوم يسكنون الاكواخ . . . . . وفي احسن الاحوال بنات قوم من الفلاحين . ان الحبك ، والخياطة ، والقراءة ، والكتابة ، والحساب سوف تكون كل ما سيتعين عليك ان تعلّميه . ما الذي سوف

تفعلينه بشقاقتك ؟ ما الذي سوف تفعلينه بالجزء الاعظم من عقلك ... من عواطفك ... من اذواقك ؟

« سأدخرها ليوم احتاجها فيه . انها لن تتلف » .

« اذن ، فقد عرفت المهمة التي ستنهضين بعبثها ؟ »

« أجل لقد عرفت » .

عندئذ تبسم ... لا ابتسامة مريرة او محزونة ، ولكن ابتسامة راضية جدا ، مرضية جدا .

« ومتى ستشرعين في اداء وظيفتك ؟ »

« سوف امضي الى بيتي غدا . وسافتح المدرسة ، اذا شئت ، في الاسبوع التالي » .

« حسن جدا . فليكن ذلك » .

ونفض وانشأ يذرع الحجرة جيئة وذهوبا . ثم انه كف عن ذلك وراح ينظر الي من جديد . وهز رأسه .

فسألته : « ما الذي يقلق بالك ، يا مستر ريفرز ؟ »

« انك لن تلبثي في مورتون طويلا . لا ، لا ! »

« لماذا ؟ ما الذي يدعوك الى هذا القول ؟ »

« انا اقراه في عينك . انها ليست من ذلك الضرب الذي يعيد بالتشبيث بسياق حياة هادئ » .

فقلت : « انا لست طموحا » .

فأجفل لدن سماعه كلمة « طموح » . وكرر : « لا . ما الذي جعلك تفكرين في الطموح ؟ من هو الطموح ؟ انا ادري انني ذو مطامع . ولكن كيف اكتشفت ذلك ؟ »

« لقد كنت اتحدث عن نفسي » .

« حسنا ، اذا كنت غير طموح ، فانت ... » وكف عن الكلام .

« ماذا ؟ »

« كنت على وشك ان اقول : عاطفية . ولكنني خشيت ان تسيئي فهم اللفظة ، وان يأخذك الغضب . انما اعني ان العواطف البشرية لها اعظم السلطان عليك . واني لوائق من انك لا تستطيعين ان تقنعي طويلا بتزجية اوقات فراغك في وحدة وانعزال ، وبتكريس ساعاتك العاملة لجهد خلو من كل مانع مشير ، باكثر مما تستطيع انا ان اقمم بالعيش هنا دفينا في مستنقع ، حبيسا في جبل . اني باقامتي هنا انما اخالف طبيعتي التي وهبني الله اياها ، واشل ملكاتي التي اغدقتها السماء علي ، فهي من ثم غير ذات غناء . واحسب انك تلاحظين كيف اناقض الان نفسي ... انا الذي بشر بالرضا بالنصيب المتواضع ، وبرر حتى مهنة الخطابين ومهنة السقائين ، ما دام ذلك كله يتم في سبيل الله ... انا ، كاهنه المرسوم ، اكاد اهذي في قلقي . ولكن علينا ان نوفق بين الميول والمبادئ ، بطريقة ما » .

وغادر الحجرة ، وكنت قد عرفت عنه - في هذه الساعة القصيرة -  
اكثر مما عرفت خلال الشهر المنصرم كله . ومع ذلك فقد ظل يثير  
دهشي وحيرتي .

وتعاطفم حزن ديانا وماري ريفرز وصمتها باقتراب موعد فراقهما  
لاخييهما وبييتهما . ولقد حاولت كل منهما ان تبدو على سجيتهما ، ولكن  
الاسى الذي تعين عليهما ان تقاوماه كان من ضرب لا سبيل الى قهره او الى  
اخفائه . . والمعت ديانا الى ان هذا الفراق سوف يكون مختلفا عن ايما فراق  
قدّر لهما ان تعرفاه في ماضيات الايام ، ذاهبة الى انه سوف يكون ، في  
اغلب الظن ، وبقدر ما يتعلق الامر بسانت جون ، فراقا الى سنوات عديدة :  
وقد يكون فراقا الى الابد .

وقالت : « انه سوف يضحى بكل شيء في سبيل اهدافه التي نصبها  
لنفسه منذ عهد بعيد . . . سوف يضحى حتى بعواطفه الطبيعية وبمشاعره  
الاكثر قوة ايضا . ان سانت جون ليبدو هادئا ، يا جين . ولكنه يخفي في  
احشائه حوى شديدة الاوار . انك قد تحسبينه رقيقا ، ومع ذلك فهو في  
بعض الاشياء عنيد كالصخر . واسوأ ما في الامر ان ضميري لن يجيز لي ان  
اثنيه عن عزمه الصارم . وليس من ريب في انني لا أستطيع ، لحظة واحدة ،  
ان الومه على ذلك . ان ما اعتزم عليه حق ، ونبييل ، ومسيحي ، ومع ذلك  
فانه يسحق فؤادي » . وطفرت الدموع الى عينيها النجلاوين . ونكست ماري  
رأسها فوق شغلها وغمغمت :

- « لقد فقدنا ابانا منذ فترة يسيرة ، ولسوف نفقد ، عما قريب ،  
بيتنا واخانا » .

وفي تلك اللحظة وقعت حادثة صغيرة بدا وكان القدر ارادها عامدا لكي  
يقيم الدليل على صحة المثل الذي يقول « ان المصائب لا تأتي فرادى » ، ولكي  
يضاعف آلامهما باقامة الدليل ايضا على المثل الاخر القائل : « ان ثمة مزالق  
كثيرة ما بين الكأس والشفة » ، \* لقد اجتاز سانت جون بالنافذة وهو يقرأ  
رسالة . ثم دخل علينا الحجرة وقال :

- « مات خالنا جون » .

وبدت كلتا الشقيقتين وكأنها قد ذهلت ، ولكنها لم تُصدَم ولم  
تروّع . لقد بدا النبأ ، في اعينهما ، خطيرا اكثر منه محزنا .

وكررت ديانا : « مات ؟ »

- « نعم » .

فسمّرت على وجه اخيها نظرة ثاقبة ، ثم سألته في صوت خفيض :  
« وماذا بعد ؟ »

فاجابها ، محتفظا دائما بجمود اساريره الرخامية : « ماذا بعد ؟ ماذا

\* مثل انكليزي مفاده ان عقبات جمة كثيرا ما تنشأ لتحول دون تنفيذ خطة من الخطط (المحرب)

بعد ؟ لا شيء .. اقراي » .

والقى الرسالة في حِجْرها ، فتصفحتها ، ثم اسلمتها الى ماري .  
فقرأتها ماري في روية وصمت ، ثم اعادتها الى اخيها . وتبادل الثلاثة النظرات ،  
وابتسم الثلاثة جميعا ... ابتسموا ابتسامة كئيبة متفكرة .

وقالت ديانا ، اخر الامر : « فلتكن ارادة الله ! ومع ذلك ، فلا يزال في  
ميسورنا ان نعيش » .

ولاحظت ماري : « وعلى اية حال فان هذا لن يجعلنا اشد فقرا مما  
كنا من قبل » .

فقال مستر ريفرز : « ولكنه يطبع في الذهن ، بقوة وعنق ، صورة ما  
كان يمكن ان يكون ، ويكره المرء على مقارنته بما هو كائن » .

ثم طوى الرسالة ووضعها في قمطره ، وغادر الحجرة من جديد .  
وطوال بضع دقائق لم تنطق اي منا بكلمة . ثم ان ديانا التفتت الي  
وقالت :

- « جين ، انك لا بد ان تعجبي لنا ولالغازنا ، وان تحسبينا كائنات  
قاسيات القلوب الى حد جعلنا لا نتأثر لوفاة نسيب ، كخالنا ، من اقرب  
الناس الينا . ولكننا لم نره قط من قبل ، ولم نعرفه قط من قبل . لقد  
كان اخا لامي ، ولقد تشاجر هو ووالدي منذ عهد بعيد . ذلك بان ابي غامر  
بمعظم ثروته في المضاربة نزولا عند نصيحته ، فآلم الخراب بساحته . لقد  
تبدلا السباب والمهاترات ، وافترقا على غضب ، ثم لم يتصالحا بعد ذلك  
قط . ومن ثم انصرف خالي الى اعمال تجارية اقترنت بحظ من النجاح اكبر ،  
ويبدو انه جني من ورائها ثروة مقدارها عشرون الف جنيه . انه لم يتزوج  
البتة ، ولم يكن له ايما انساب اذ تين غيرنا ، وغير شخص اخر لا تشده  
اليه قرابة اوثق من تلك التي تشدنا نحن اليه . وكان والدي يأمل دائما ان  
يكفر خالي عن غلطته بأن يوصي لنا بممتلكاته ، ولكن هذه الرسالة تنبئنا  
بانه اوصى بكل فلس من ثروته للنسيب الاخر ، ما خلا ثلاثين جنيها تقسم  
بين سانت جون وديانا وماري ريفرز لشراء ثلاثة خواتم حديد . كان له ملء  
الحق ، من غير ريب ، في ان يفعل ما يحلو له ، ومع ذلك فان تلقي مثل هذا  
النبا كان لا بد له ان يورثنا غما موقنا ، فقد كان خليقا بي وماري ان نعتبر  
نفسينا موسرتين لو فازت كل منا بألف جنيه ، وكان خليقا بمثل هذا المبلغ ان  
يكون بالنسبة الى سانت جون مبلغا ذا غناء ، بسبب من الخير العظيم الذي  
يمكنه من ادائه » .

حتى اذا اعطيَتْ هذا التفسير اسقط الموضوع فلم يُشر اليه مستر  
ريفرز او اختاه ايما اشارة بعد ذلك البتة . وفي اليوم التالي غادرت « مارش  
اند » الى مورتون . وفي اليوم الذي بعده غادرت ديانا وماري الى بلدة « ب » ،  
النائية . وما هو غير اسبوع حتى شخص مستر ريفرز وحنه الى البيت  
الخاص براعي الكنيسة في مورتون . وهكذا هُجِر البيت الريفي العتيق .

واذن فقد كان بيتي ، يوم وجدت اخر الامر بيتا ، مجرد كوخ صغير : حجرة ضيقة ذات جدران طليت بالكلس ، وارضية فرشت بالرمل ، واربعة كراسي مدهونة ، وطاولة ، وساعة ، وخوان يشتمل على بضعة اطباق وصحون ، وآنية شاي خزفية كاملة . وفوقها ، كانت حجرة ذات مساحة مماثلة لمساحة المطبخ تشتمل على سرير من خشب الشوح وخزانة ذات ادراج : خزانة صغيرة حقا ، ومع ذلك فان ملابسي القليلة لم تشغل غير حيز ضئيل منها . على الرغم من ان كرم اصدقائي ذوي اللطف والسخاء عزز تلك الملابس بمجموعة متواضعة من الاشياء الضرورية .

لقد هبط الليل . ولقد سرّحت اليتيمة الصغيرة التي تعينني على اداء الاعمال المنزلية بعد ان اعطيتهما برتقالة اجرا لها على ما عملت ذلك اليوم . وكانت مدرسة القرية قد فتحت هذا الصباح ، وكان عدد طالباتي عشرين ، ثلاث منهن فحسب كنّ قادرات على القراءة . ولكن ايا من هاته العشرين لم تكن تعرف الكتابة او الحساب . ان كثيرا منهن يحبكن ، وقليل منهن يخطن . وهن يتكلمن بلهجة المقاطعة في اقوى مظاهرها ، فانا أجد الان عسرا في فهم لغتهن وهن يجدن عسرا في فهم لغتي . ان بعضهن تغلب عليهن الغلظة ، والفظاظة ، والجموح ، والجهل . ولكن الاخريات لينات العريكة ، راغبات في التعليم ، وهن يتكشفن عن ميول ترضيني . ويتعين علي ان لا انسى ان هاته الريفات الصغيرات الخشنات اللباس هن من لحم ودم كسليات انبل الاسر ، وان بذور التفوق الفطري ، والرقّة ، والذكاء والحنان خليق بها ان تنمو في قلوبهن كما تنمو في قلوب ذوات المحتد الكريم . ولسوف يكون واجبي هو العمل على تطوير هذه البذور ، وليس من ريب في اني سأجد بعض السعادة في اداء هذه المهمة . انا لا اتوقع ان القى متعة بالغة في الحياة التي تتفتح الان امامي ، ومع ذلك فلست اشك في انها سوف تتيح لي ، اذا ما عدّلت تفكيري وانفقت قواي كما ينبغي ان انفقها ، قدرا من المتعة كافيا لتمكينني من العيش من يوم الى يوم .

هل كنت موفورة الحظ من السعادة والاطمئنان والرضا خلال الساعات التي سلختها في حجرة التدريس تلك ، العارية الحقيمة ، هذا الصباح وهذا الاصيل ؟ ولكي لا اخدع نفسي يتعين علي ان اجيب بقولي : لا . لقد استشعرت - اجل ، ويا لبلاهي ! - شيئا من حطة وازدراء . لقد تراءى لي اني خطوت خطوة هبطت بي بدلا من ان ترفعني في سلم الوجود الاجتماعي . لقد روّعنتني وارمضتني ضروب الجهالة والفقر والخشونة التي تكشفت عنها كل ما سمعته ورأيت من حولي . ولكن ليس يحسن بي ان ازدري نفسي اكثر مما ينبغي بسبب من هذه المشاعر . انا اعلم انها كانت خاطلة . . . وهذه خطوة واسعة الى الامام من غير ريب ، ولسوف اسعى جهدي لمقاومة تلك المشاعر .

وانا اؤمن اني سأ تغلب عليها ، في غدٍ ، بعض التغلب . وقد لا تنقضي بصعة  
اسابيع حتى افهرها نهائيا . ومن يدري ، فقد يفضي ابتهاجي برؤية التقدم  
الذي ستحرزه طالباتي وتطورهن نحو الاحسن الى احلال الرضا في نفسي  
- خلال شهور قليلة - محل الاشمتزاز .

وفي غضون ذلك دعني اسأل نفسي سؤالا : اي افضل ؟ ان استسلم  
للاغراء . وان اصغي لصوت العاطفة ، وان لا ابدل اي جهد موجه او اخوض ايما  
نضال . . . ان اقع في الشرك الحريري ، وانام على الرياحين التي تغطيها ثم  
استيقظ في بقعة جنوبية ، وسط متارف دارة من دارات المتعة : ان اكون الان  
عائشة في فرنسة ، خليفة لمستر روتشستر ، نشوى بحبه نصف ايامي  
كلها ، ذلك بانه لا بد ان يحبني حبا جما زمنا ما . والواقع انه قد احبني  
**فعلا** ، وان ايما امرئ لن يحضني مثل هذا الحب كره اخرى ، ابد الدهر .  
ولن يقدر لي ان اعرف ، منذ اليوم ، ذلك الولاء الحلو الذي يقدم الى الجمال ،  
والشباب ، والكياسة ، اذ لن يقدر لي ، حتى اخر الدهر ، ان ابدو في نظر  
احد من الناس وكأنني املك هذه المفاتيح . لقد كان مولعا وفخورا بي ، وهو  
شيء لن يكونه اي انسان اخر غيره . . . ولكن في اية متاهة يهيم فكري ؟ وما  
هذا الذي اقلوه ؟ بل ما هذا الشعور الذي يخامرني ؟ اني لأسأل ، اي افضل :  
ان اكون عبدة مستترقة في جنة وهمية في مرسيليا ، محمولة بالسعادة  
الخادعة حيناً ، مخنقة بأمراً دموع الندم والخزي حيناً اخر ، ام ان اكون  
مدرسة قروية ، حرة وامينة ، في زاوية جبلية كثيرة الرياح في قلب انكلترة  
الصحي ؟

اجل ، انا استشعر الان اني كنت على صواب عندما تمسكت بالمبدأ  
والقانون ، وازدريت وسحقت المعريسات المخبولة الذي طوّقتني بها احدى  
اللحظات المسعورة . لقد سدد الله خطاي فأحسن الاختيار ، واني لاحمد  
العناية الالهية على ما هدتني اليه .

حتى اذا انتهت بي تأملاتي المسائية الى هذه النقطة نهضت ومضيت الى  
بابي ، فرنوت الى غروب الشمس في ذلك اليوم الحصادي ، والى الحقول  
الوادعة المنبسطة امام كوخى ، الذي كان يقع هو والمدرسة على مبعدة نصف  
ميل من القرية . فسمعت الطير تتغنى بأخر الحانها :

« كان الهواء عليلا ، وكان الندى بلسما » .

وفيما كنت ارنو ، حسبت نفسي سعيدة ، ولكني سرعان ما ذهلت اذ  
وجدت نفسي انخرط في البكاء - ولماذا ؟ للقدّر الذي اكرهني على الانفصال  
عن سيدي : اذ لن يكتب لي بعد اليوم ان اراه ، وللاسى القانط والغيط  
القاتل - وهما ثمرة من ثمرات رحيلي - اللذين ربما كانا الان يحيان به عن  
جادة الصواب ويقاليان في التطويج به بعيدا عنها بحيث ينقطع كل رجاء في  
اعادته اليها في ايما يوم من الايام . وما خطرت لي هذه الخاطرة حتى اشحت  
بوجهي عن سماء المساء الرائقة ، وعن وادي مورتون الموحش - اقول الموحش ،

لانه في ذلك المنحنى البادي منه لناظري لم المح اي مبنى غير الكنيسة وببيت راعي الكنيسة نصف محتجبين بالاشجار ، وفي طرفه الاقصى لم المح غير سقف « قصر الوادي » ( فايل هول ) حيث كان مستر اوليفر الثري وابنته يقيمان . وحجبت عيني ، واسندت رأسي الى الاطار الحجري الذي يطوق باب كوخى ، ولكن صوتا خافتا منبعثا من على مقربة من البوَّيب الذي يفصل حديثي الضئيلة عن المرج القائم خلفها سرعان ما دعاني الى ان ارفع بصري . كان كلب - هو كارلو العجوز ، كلب مستر ريفرز - يدفع الباب الخارجى بأنفه ، وكان سانت جون نفسه مستندا اليه مطوي الذراعين ، وقد زوى ما بين حاجبيه وحقق الي بنظرة جادة تكاد تشعر بالامتعاض . فدعوته الى الدخول فقال :

- « لا . انا لا استطيع البقاء . لقد حملت اليك رزمة صغيرة تركتها لك اختاي . واحسب انها تشتمل على صندوق الوان ، وريشات ، وورق » .  
وتقدمت لآخذها : لقد كانت هدية لطيفة . وخيل الي انه راح يتحرى وجهي ، بتجهم ، فيما كنت ادنو منه ، وكانت آثار الدموع بادية عليه من غير ريب .  
وسألني : « هل وجدت اول يوم من ايام عملك اشق مما توقعت ؟ »  
- « اوه ، لا ! على العكس . واحسب اني سوف انسجم مع تلميذاتي ، عما قريب ، انسجاما حسنا » .

- « ولكنني اخشى ان تكون اسباب عيشك . . . وكوخك . . . واثاثك قد خيبت آمالك . انها ، في الحق ، هزيلة الى حد بعيد . ولكن . . . »  
فقاطعته قائلة : « ان كوخى نظيف وهو يعصمني من غائلة الجو وتقليباته ، وان اثاثي كاف ومريح . والواقع ان كل ما اراه قد اوقع في نفسي عرفان الجميل ، لا اليأس والقنوط . ولست حمقاء ولا مؤثرة للرفاه الحسني الى درجة تجعلني آسى لخلو بيتي من سجادة او اريكة او طبق فضي . والى هذا ، فقبل اسابيع خمسة كنت لا املك شيئا . . . لقد كنت منبوذة ، شحاذة ، شريدة . اما الان فقد امسيت ذات معارف ، وبيت ، وعمل . والحق اني لاعجب لفضل الله ، وسخاء اصدقائي ، ووفرة النعم المغدقة علي . انا لا اتذمر ولا اتظلم » .

- « ولكنك تضيقين ذرعا بالوحدة الموحشة ؟ ان المنزل القائم وراءك مظلم وخال » .  
- « انا لم اكد اجد متسعا من الوقت للاستمتاع بالهدوء والطمأنينة حتى اضيق ذرعا بالوحدة والوحشة » .

- « حسن جدا . انا ارجو ان تستشعري فعلا هذا الرضا الذي تعبرين عنه . وعلى اية حال ، فان عقلك السليم سوف ينبئك بأن الوقت لمّا يحن بعد للاستسلام لمثل ما كان ينتاب امرأة لوط من مخاوف متراوحة . انا اجهل ، طبعاً ، ما الذي خلّفته وراءك قبل ان اتعرف اليك . ولكنني انصح لك ان



تقاومي ، في قوة وثبات ، كل اغراء قد يدعوك الى الالتفات للوراء • واصلي  
اداء عملك الراهن ، في اطراد ، طول اشهر معدودات على الاقل » •

فأجبتة : « هذا ما اعتزم ان افعله » •

واستمرسل سانت جون قائلا : « انه لمن العسير على المرء ان يسيطر  
على جَيْشَان الرغبة ، وان يعدل نزعات الطبيعة البشرية • ولكن هذا امر  
ممكن : انا اعرف ذلك بالتجربة • لقد منحنا الله ، الى حد ما ، القدر على صنع  
قَدَرِنا بأنفسنا • وعندما يبدو لنا ان طاقاتنا في حاجة الى غذاء لا تقوى على  
الفوز به ••• عندما تَجْهَدُ رغباتنا لاتباع سبيل لا نستطيع ان نسلكه فلا  
داعي لان نتحرق من الظمأ ، او ان نستسلم للقنوط ، لا ، ليس علينا في مثل  
هذه الحال الا ان نلتمس غذاء اخر لعقولنا لا يقل قوة عن الغذاء المحظور الذي  
تاقت لتذوقه ، ولعله ان يكون اثبت وضمن • والا ان نهدد للقدم المفامرة  
طريقا مستقيمة واسعة كتلك التي سدّها الحظ في وجوها ، وان تكن اوغر  
منها •

« فمئذ سنة واحدة كنت انا نفسي استشعر تعاسة بالغة ، بسبب من  
اعتقادي انني اخطأت في الانتظام في سلك رجال الدين • والواقع ان واجباتي  
الكهنوتية الرتيبة اضجرتني حتى الموت • لقد تحرقت شوقا الى حياة دنيوية  
اكثر فعالية ونشاطا ••• الى ضروب الكدح الاكثري اثاره ، الملازمة لعمل  
الاديب ••• الى قَدَرٍ قَدَرٍ الفنان ، او الكاتب ، او الخطيب ، او اي شيء  
اخر غير قَدَرٍ الكاهن • اجل ان قلبا كقلب السياسي ، او الجندي او المتعبد  
للمجد ، او المحب للشهرة ، او الشبق الى القوة والسلطان لينض تحت الحلة  
الكهنوتية التي ارتديها • وتأملت وضعي • كانت حياتي هي غاية الغايات في  
البؤس ، وكان علي اما ان اغيرها واما ان اقضي نحبي • وبعد فترة من الظلام  
والنضال انبلج الفجر وجاء الفرج : لقد انبسط وجودي المقيّد ، فجأة ، الى  
سهل مديد لا يعرف الحدود ••• لقد سمعت طاقاتي نداء من السماء يدعوها  
الى ان تنهض ، ان تستجمع كامل قواها ، ان تنشر جناحيها ، وتحلق الى ما  
وراء مدى البصر • لقد قيضني الله لرسالة سامية ، لا يحتاج حملها الى بعيد  
واداؤها اداء حسنا الا الى البراعة والقوة ، والشجاعة والفصاحة وهي خير  
سجاياء الجندي ورجل الدولة والخطيب : ذلك بأن هذه كلها تتركز في المبشر  
الصالح •

وهكذا عقدت العزم على ان اكون مبشرا صالحا • ومنذ تلك اللحظة  
تغيرت حالتي الروحية ، وانحلت الاصفاة وسقطت عن كل ملكة من ملكاتي  
غير مخلّقة من العبودية الا مراتها المحنقة ، وهي مرارة لن يشفيني منها  
شيء غير مرّة الزمان • والواقع ان ابي عارضَ قرارِي هذا ، حتى اذا توفي  
لم تبق ثمة عقبة شرعية يتعين علي ان اقاومها • وما ان اسوي بعض القضايا ،  
واجد من يخلفني في مورتون ، واتحرر من بعض المشاعر المتشابكة او اقطع  
عقدتها ، واخوض غمرة نضال اخير مع الضعف البشري ، نضالٍ انا على مثل

اليقين من انني سوف انتصر فيه ، لاني اخذت على نفسي عهدا ان انتصر ...  
اقول ما ان يتم لي هذا كله حتى اغادر اوروبة موليا وجهي قِبَل الشرق ،

قال ذلك بصوته الغريب ، المكبوح ، ولكن الجازم في آن معا ، ناظرا  
حين كف عن الكلام لا اليّ ولكن الى الشمس الجانحة الى المغيّب ، التي رنوت  
اليها انا ايضا . وكان كلانا قد ولى ظهره ذلك المجاز المفضي عبر الحقل الى  
البويب . ولم تكن قد سمعنا اي وقع اقدام على المجاز المكسو بالاعشاب ،  
فقد كانت المياه الجارية في الوادي هي الصوت المسكّن الوحيد في تلك الساعة  
وذلك المكان . من اجل ذلك كان طبيعيا ان نجفل عندما سمعنا صوتا بهيجا ،  
عذبا مثل رنين جرس فضي ، يهتف :

« طاب مساؤك ، يا مستر ريفرز . وطاب مساؤك ، يا كارلو العجوز .  
ان كلبك يتبيّن اصداقه بأسرع مما تتبين انت اصداقك ، يا سيدي . لقد  
ارهف اذنيه وبصيص بذنبه عندما كنت في جوف الوادي . في حين انك ما  
زلت حتى الان توليني ظهرك » ،

وكان ذلك صحيحا . فعلى الرغم من ان مستر ريفرز اجفل لدن سماعه  
اولى هذه النبرات الموسيقية ، وكان صاعقة شقت احدى السحب فوق رأسه ،  
فقد كان لا يزال واقفا ، عند انتهاء الجملة ، في نفس الوضع الذي فاجاه  
المتحدث فيه : فأما ذراعه فمستندة الى الباب الخارجي ، وامّا وجهه فموجّه  
قِبَل الغرب . واخيرا استدار ، في تروء متعمد . لقد بدا لي وكان رؤيا قد  
تجسّدت في جانبه . وبرزت ، على مبعده ثلاثة اقدام منه ، مخلوقة ترتدي  
ملابس بيضاء ناصعة - مخلوقة فتية بهية الطلعة ، مثلثة الجسم ولكنها  
رشيقة . حتى اذا رفعت رأسها ، بعد ان انحنت لتداعب كارلو ، وردّت الى  
الوراء خمارا طويلا ، اشرق تحت نظرتها وجه ذو جمال كامل . والحق ان  
« الجمال الكامل » تعبير قوي ، ولكنني لن ارجع عنه او اعدّله . لان اساريرها  
الحلوة التي لم يصنّ مثلها جو انكثرة المعتدل في ايما يوم من الايام ، ولان  
وجنتيها الورديتين اللتين لم تبدع رياحاها الرطبة وسماواتها الغائمة ولم  
تظِلّ ما هو اروع منهما ... اقول لان هاتين الوجنتين وهاتيك الاسارير  
تبرّر اصطناع ذلك التعبير . لم تكن أي فتنة لتعوز ذلك الوجه ، ولم تكن  
العين لتقع فيه على ايما عيب .

كانت للفتاة قسمات متناغمة دقيقة ، وعينان شبيهتان في شكلهما  
ولونهما بتلك العيون النجلاء الداكنة التي نراها في الصور البديعة . وكانت  
لها تلك الاهداب الطويلة الظليلة التي تطوق العيون الجميلة بسحر بالغ  
الركة ، وذلك الحاجب المزجج الذي يضيء على الوجه وضوحا شديدا ، وذلك  
الجبين الناعم الواضح الذي يضيف الى جمالات اللون والاشراق الاشد بهاء  
جمال الوداعة ، وتلك الوجنة البيضاء الغضة الناعمة ، وتلك الشفتان  
الغضتان ايضا المورّدتان المثلثتان صعبة وعذوبة ، وتلك الاسنان المستوية  
البراقة المنزهة عن العيب ، وتلك الذقن الصغيرة ذات الطابع ، وتلك الجداول

الخصبة الغزيرة ٠٠٠ وبكلمة موجزة ، كانت لها على نحو موفور كل المزايا التي تحقق ، مجتمعة ، مَثَلُ الجمال الاعلى ٠ واخذني الدهش وانا ارنو الى هذه المخلوقة الوسيمة : لقد اعجبت بها من كل قلبي ٠ وليس من ريب في ان الطبيعة فد حابتها يوم خلقتها محابة كبيرة ، ناسية مألوف تفتيرها - الذي يذكر بتفتير زوجة الاب - فوهبتها عطاياها - هي حبيبته الصغيرة - بمثل سخاء الجدة واغداها ٠

ما كان رأي سانت جون ريفرز في هذا الملاك الارضي ؟ لقد كان طبيعيا ان اطرح على نفسي هذا السؤال عندما رأيته يستدير نحوها ويرنو اليها ٠ وكذلك كان طبيعيا ان التمس الجواب على هذا السؤال في محياه ٠ وكان قد حول بصره الان عن الملاك الارضي ، وانشأ ينظر الى باقية من الاقاحي نمت على مقربة من البويب ٠

وقال وهو يسحق بقدمه رؤوس الرياحين المبرعمة الثلجية البياض :  
« انها امسية بدیعة ٠ ولكن ما كان يحسن بك ان تخرجي وحدك في مثل هذه الساعة المتأخرة » ٠

- « اوه ، لقد رجعت هذا الاصيل من س ٠٠٠ ( وذكرت اسم بلدة كبيرة واقعة على مبعده عشرين ميلا تقريبا ) ٠ لقد انباني ابي انك فتحت مدرستك ، وان المعلمة الجديدة قد اقبلت ٠ وهكذا اعتمرت قلنسوتي ، بعد تناول الشاي ، ورحت اصعد في الوادي لكي اراها ٠ اهذه هي ؟ » ( وأشارت الي ) ٠

فقال سانت جون : « اجل ، انها هي » ٠

وعندئذ سألتني في بساطة ساذجة صريحة ، تكاد تكون طفليّة ، ولكنها راقت لي : « هل تعتقدين انك سوف تحبين مورتون ؟ »

- « ارجو ان اوفق الى ذلك ٠ ان ثمة مغريات كثيرة تدعو الى ذلك » ٠

- « هل وجدت طالباتك راغبات في الدرس بقدر ما توقعت ؟ »

- « من غير ريب » ٠

- « هل تحبين بيتك ؟ »

- « كثيرا جدا » ٠

- « هل اثثته على نحو حسن ؟ »

- « على نحو حسن جدا ، من غير ريب » ٠

- « وهل كان اختياري « أليس وود » خادمة لك اختيارا موفقا ؟ »

- « اجل كان اختياري موفقا ، من غير ريب ٠ انها قابلة للتعليم ، بارعة

رشيقة اليد ٠ وقلت في ذات نفسي « اذن فهذه هي مس اوليفر ، الوريثة ، التي حابتها الاقدار ، في ما بدا ، فاغدقت عليها نعيم الثراء ونعم الجمال على حد سواء ! وتساءلت : اية مجموعة سعيدة من النجوم قد اشرفت على ولادتها ؟ ! »

واضافت : « سوف آتي بعض الاحيان واساعدك في التدريس ٠ ولسوف يكون في زيارتي اياك بين الفينة والفينة ضرب من التغيير يخفف من رتابة

الغيش هنا . وانا احب مثل هذا التغيير . لقد كنت مبتهجة جدا ، يا مستر ريفرز ، خلال مقامي في س . س . . . لقد رقصت ، الليلة البسارحة ، او على الاصح ، هذا الصباح ، حتى الساعة الثانية . ان الكتيبة الـ . . . معسكرة هناك منذ نشوب الاضطرابات ، وان ضباطها هم خير رجال الدنيا قاطبة واقربهم الى الفؤاد : انهم يخزون شاحذي سكاكيننا وتجار مقصّاتنا الشبان ، .

لقد بدا لي ان سانت جون قد مدّ شفته السفلى وان شفته العليا قد تشنجت لحظة . وليس من ريب في ان فمه بدا مُحكّم الاطباق ، وان الجزء الادنى من وجهه كان متجهما مكثبا اكثر من العادة ، عندما حدثته الفتاة الضاحكة بذاك الحديث . ليس هذا فحسب ، بل لقد رفع بصره ايضا عن الاقاحي وحوله نحوها . لقد كانت نظراته مكفهرة ، ثاقبة ، ذات مغزى . فما كان من الفتاة الا ان قابلتها بضحكة ثانية ، ولقد لأم الضحك شبابهها ، ووجنتيها الورديتين ، وغمازتيها ، وعينيها الوضاءتين .

وفيما كان هو واقفا ، ابكم كئيبا ، عاودت مداعبة الكلب كارلو قائلة : « ان كارلو المسكين يحبني . انه ليس غليظ القلب صارما ، وليس يجفو اصدقاءه . ولو قد استطاع الكلام اذن لما لزم الصمت ، .

وبينا كانت تربت على رأس الكلب ، منحنية في بهاء فطري امام سيده الشاب المتجهم ، لمحت وجه ذلك السيد يتقد . لقد رأيت عينه الكئيبة تتوهج بنار مفاجئة ، وترتمش بانفعال لا يقاوم . وعلى هذه الحال من الاضطرام وشيوع الدم في الوجه ، بدا جميلا بين الرجال بقدر ما كانت هي جميلة بين النساء . وارتفع صدره مرة ، وكأن قلبه الكبير الذي سئم القهر الاستبدادي كان قد تضخم ، برغم ارادته ، وقام بوثة جسارة للفوز بالحرية . ولكنه كبهه ، في ما اعتقد ، كما يكبح فارس ذو بأس جوادا حرونا . انه لم يستجب ، لا بكلمة ولا بحركة ، للمحاولات اللطيفة التي قامت بها الفتاة لاستمالاته .

وتابعت مس اوليفر رافعة بصرها الى اعلى : « بابا يقول انك انقطعت عن زيارتنا انقطاعا كاملا . لقد امسيت غريبا في « قصر الوادي » ( فايل هول ) . انه متوحد هذه الليلة ، وهو منحرف الصحة ، فهل لك ان ترجع معي وتزوره ؟ »

فأجابها سانت جون : « ليست هذه بساعة ملائمة للتطفل على مستر اوليفر » .

— « ليست بساعة ملائمة ! ولكني اعلن انها ملائمة . انها هي بالذات الساعة التي يحتاج فيها اكثر ما يحتاج الى رفيق يؤنسه : حين يوحد العمل ابوابه ، ولا يبقى لديه اي عمل يشغله . والان ، يا مستر ريفرز ، ارجوك ان تذهب معي . ما الذي يجعلك حيا الى هذا الحد ، مفتما الى هذا الحد ؟ »

ثم انها ملأت الثغرة التي احداثها صمته بجواب من عندها ، فهتفت وهي تهز رأسها الجميل ، ذا الشعر المعقوص ، وكان تصرفها ذاك قد روعها :

« لقد نسيت ! انا طائشة حقاً ، حمقاء حقاً ! واني لاتوسل اليك ان تغفر لي .  
لقد فاتني ان لديك اسباباً وجيهة تزهذك في ثرثرتي ، فقد فارقتك ديانا  
وماري ، واوصدت ابواب « مور هاوس » ، وخلّفت في وحدة موحشة . اني  
لارثي لك من غير ريب . هيا ، امض معي لنرى بابا » .

– « ليس الليلة ، يا مس روزاموند . ليس الليلة » .

لقد تكلم مستر سانت جون وكأنه انسان ميكانيكي تقريبا . ولقد كان  
هو وحده يعرف مدى الجهد الذي بذله لرفض هذا العرض .

– « حسناً ، اذا كنت على هذا القدر كله من العناد فسوف افاركك .  
ذلك باني لا استطيع البقاء اكثر مما فعلت . لقد بدأ الندى يسقط . طاب  
مساؤك » .

وبسّطت يدها له . فمسّها مساً رقيقاً ، وكرر في صوت خفيض وغائر  
كانه صدى : « طاب مساؤك » .

ومضت لسييلها ، ولكنها ما لبثت ان استدارت وسألته : « هل تشكو  
شيئاً ؟ » ولقد كانت على حق في سؤالها ذاك . اذ كان وجهه ابيض شاحباً  
كفستانها .

فاعلن قائلاً : « لا ، انا في احسن حال » . وانحنى تحية لها ، وغادر  
الباب الخارجي . ومضت هي في طريق ، ومضى هو في اخرى . والتفتت  
مرتين لكي ترى اليه ، فيما كانت تهبط الحقل في حفة ورشاقة ، مثل جنية  
حسناء . اما هو فأوسع الخطى ، في رسوخ وثبات ، عبر الحقل ، غير  
ملتفت البتة .

وكان في مشهد الالم والتضحية مرتسمين على وجه شخص اخر ما  
صرف ذهني عن التفكير في المي وتضحيتي دون غيرهما . لقد سبق لديانا  
ريفرز ان وصفت اخاها بقولها انه عنيد كالمت . والحق انها لم تغل ولم  
تبالغ .

## ٣٢

وواصلت النهوض بعبد المدرسة القروية بأقصى ما استطعته من فعالية  
واخلاص . ولقد كان ذلك عملاً شاقاً ، حقاً ، في بادئ الامر . وتصرّمت فترة  
ما قبل ان اوفق ، برغم جهودي كلها ، الى فهم طالباتي وطبيعتهن . لقد بدوّن  
لي ، بجهلهم المطبق وملكاتهن الهامدة ، غبيّات الى حد يائس ، بل بدوّن لي ،  
للوهلة الاولى ، متساويات في الغباء ، ولكنني سرعان ما ادركت اني كنت  
مخطئة . فقد كانت بينهن فروق كذلك التي بين المثقفات . حتى اذا وفقت الى  
معرفتهن ، ووفقت الى معرفتي ، تطورت هذه الفروق واتسعت على نحو سريع .  
وما ان خمدت دهشتهم مني ومن لغتي وعاداتي وطرائقي حتى وجدت ان بعض  
هاته القرويات الذاهلات المتبلدات لطيفات قريبات الى الفؤاد ، ايضاً . لقد

اكتشفت بينهن امثلة غير قليلة على الكياسة الطبيعية ، واحترام الذات الفطري ، كما اكتشفت بينهن مواهب ممتازة انتزعت اعجابي ومودتي . وسرعان ما اخذ هؤلاء يجدن متعة في اداء عملهن اداء حسنا ، وفي الحرص على نظافة اجسامهن ، وفي حفظ دروسهن على نحو منتظم ، وفي اكتساب عادات تنسم بالهدوء والنظامية . والواقع ان سرعة تقدمهن ، في بعض الاحوال ، كانت تثير الدهش ، ولقد اعتززت بذلك التقدم اعتزازا صادقا سعيدا . والى هذا ، فقد شرعت انا احب بعض الممتازات منهن ، وشرعن هنّ يحبيني . وكان بين طالباتي عدة من بنات الفلاحين بلغن مبلغ الفتيات الياقات ، او كدن . وهؤلاء كان في ميسورهن ، قبل نهوضي بعبء التدريس ، ان يقرأن ويكتبن ويخطن ، فكنت اعلمهن مبادئ النحو والجغرافية والتاريخ وضروب اشغال الابرّة الاكثر دقة . لقد وجدت بينهن نفوسا جديرة بالتقدير - نفوسا متعطشة الى المعرفة ، نزاعة الى التحسن - قضيت في بيوتها كثيرا من الامسيات العذبة . لقد كان آباؤهن ( الفلاحون وزوجاتهم ) يغفرونني في تلك الامسيات بفيض من المحبة والرعاية . وكنت اجد متعة في تقبّل عطفهم الساذج ، وفي مكافأتهن على ذلك بالاحترام البالغ لمشاعرهم ، وهو احترام لعلمهم لم يالفوه دائما ، فاذا به يفتنهم وينفعهم في آن معا . لانه رفعهم في عيون انفسهم ودعاهم في الوقت نفسه الى ان يتنافسوا في عمل كل ما يجعلهم اهلا للمعاملة الكريمة التي كانوا يلقونها .

واستشعرت اني اصبحت اثيرة لدى ابناء تلك البقعة . فحيثما مضيت كنت اسمع تحيات ودية تنطلق من كل حذب وصوب ، وكنت استقبل بابتسامات صادرة عن القلب . ان حياة المرء في غمرة من الاحترام العام ، حتى ولو كان هذا الاحترام منبعثا من ابناء الطبقة العمالية دون غيرها ، لتوقع في نفسه ، مثل القعود في ضياء الشمس ، طمانينة ورضا . فالمشاعر الباطنية الرائقة انما تبرعم وتنور تحت خيوط الشعاع . وفي تلك الفترة من حياتي كان قلبي يفيض بعرفان الجميل ، ونادرا ما غار بالكآبة والخور . ومع ذلك فيتعين علي ، ايها القارئ ، ان انص ، لكي اصور لك الحقيقة كاملة ، على انني في غمرة هذه الحياة المطمئنة النافعة كنت - بعد نهار اقضيه في جهود مشرّفة ابذلها لخدمة تلميذاتي ومساء انفقه في الرسم او المطالعة الراضية المتوحدة - استغرق ، ليلا ، في احلام عجيبة : احلام متعددة التلاوين ، مهتاجة ، مفعمة بالمثل الاعلى وبكل مشير وعاصف ، احلام كانت تتيح لي - وسط المشاهد الاستثنائية المثقلة بالمغامرة ، والمخاطرة المهيجة ، والمصادفة الرومانتيكية - ان القي مستر روتشبيستر مرة ومرة ومرة ، وهو دائما في محنة مستفزة . وعندئذ كان يتجدد شعوري بأني بين ذراعيه ، واني اسمع صوته ، والقي عينه ، والمس يده ووجنته ، واني احبه وانه يحبني ، وان املني كبير في قضاء عمري كله الى جانبه - اجل كان ذلك كله يتجدد بكامل قوته الاولى واضطرامه القديم . وبعد ذلك كنت افيق من رقادي : فاتذكر اين انا وما هو وضعي الحقيقي ، وانهض من سريري العاري عن الستائر ، مرتعشة

مرتعدة • ومن ثم كان الليل الحالك الساكن يشهد تشنج اليأس ويسمع انفجار العاطفة • حتى اذا كانت الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي فتحت ابواب المدرسة واستأنفت التدريس في ميقاته ، هادئة مطمئنة النفس مستعدة لاداء واجبات النهار المطردة •

ودفت روزاموند اوليفر بوعدها ، فكانت تزورني في المدرسة • وانما كانت تقوم بزيارتها هذه ، عادة ، خلال رياضتها الصباحية ممطية جوادها الضئيل الجسم • كان من دأبها ان تنطلق على صهوته حتى المدرسة ، يتبعها على متن جواد اخر خادم من خدم الاصطبلات • والحق ان المرء نادرا ما يستطيع ان يتخيل ما هو اروع من مظهرها ، في رداؤها الارجواني الخاص بركوب الخيل ، وقبعتها الامازونية المخملية السوداء المستوية في ظرف فوق جدائلها الطويلة التي لثمت وجنتيها وطفت على كتفيها • وعلى هذا النحو البهي كانت تدخل المبنى القروي ، وتخطر خلال صفوف بُنيّات القرية المبهورات • وكان من دأبها ان تفد في الساعة التي يكون مستر ريفرز منصرفا اثناءها الى القاء درسه اليومي في التعليم المسيحي • ويخيل اليّ ان عيني الزائرة كانتا تضرمان نارا متقدة في فؤاد القس الشاب • وبدا لي وكأن ضربا من الغريزة كان ينذر بدخولها ، حتى ولو لم ير ذلك • وكان اذا ما برزت لدى الباب لحظة يكون بصره منصرفا عنه انصرافا كاملا ، يتوهج خداه ، وتتبدل اساريره شبه الرخامية – برغم اصرارها على عدم الاسترخاء – تبدا يعز على الوصف • وكانت هذه الاسارير تعبر في سكونها البالغ عن حرارة مكبوتة تعبيرا اقوى مما تستطيع العضلات المختلجة او النظرات الثاقبة ان تؤذن به •

كانت من غير ريب تدرك قوتها • والواقع انه لم يخف ذلك عنها ، لانه كان عاجزا عن ذلك • فعلى الرغم من رواقيته المسيحية فانه كان ما ان تتقدم نحوه ، وتخطبه ، مبتسمة في وجهه بابتهاج وتشجيع بل بمحبة وولوع ، حتى ترتعش يده ، وتضطرم بالنار عينه • لقد بدا وكأنه يقول ، بنظراته الكثيبة العازمة ، ان لم يقل ذلك بشفتيه : « انا احبك ، وانا اعلم انك تؤثرينني على غيري • وليس ما يعقد لساني هو اليأس من النجاح • انني لو قدمت اليك قلبي اذن لقبيلته في ما اعتقد • ولكن ذلك القلب مستقر الان فوق مذبح مقدس : اضرمت النار من حوله ، ولن تنقضي فترة يسيرة حتى يصبح قربانا للثمة الضرام » •

وعندئذ كانت تتجههم مثل طفل مخيب • كانت سحابة متفكرة ترقق من حيويتها المشعة • وكان من دأبها ان تسارع الى سحب يدها من يده ، وتشيع بوجهها ، في نزق سريع الزوال ، عن معياه المتشتم بسمة البطولة البالغة وسمة الاستشهاد في آن معا • وليس من ريب في ان سانت جون كان خليقا به – حين تفارقه على هذا النحو – ان يتنازل عن العالم كله لو ملكه من اجل اللحاق بها ، واستردادها ، والاحتفاظ بها • ولكنه ما كان ليطرّح حظا واحدا

من حظوظ الفوز بالنعيم السماوي او ليتخلى - من اجل فردوس حبا - عن امل واحد في دخول الجنة الحقيقية السرمدية . والى هذا ، فانه لم يستطع ان يحتجز كل ما اشتملت عليه فطرته - الرحالة ، والطامح ، والشاعر ، والكاهن - ضمن تخوم عاطفة مفردة . انه لم يستطع - وما كان ليرغب في ذلك - ان يتخلى عن ميدان حربه الرسالية العريض طمعا في ابهاء « قصر الوادي » وامنه . وانما عرفت هذا القَدْر من حقيقة امره من طريق غزوة جرؤت ذات يوم ، برغم تحفظه البالغ ، على القيام بها ، على حصون اسراره .

وكانت مس اوليفر قد شرفتني قبل ذلك بزيارات متعددة قامت بها لكوخي . وكنت قد فهمت خلقتها كله في وضوح ، ومن غير ما تقنّع او تنكّر : لقد كانت ذات غنج ودلال ، ولكنها لم تكن بلا قلب . وكانت كثيرة المطالب ولكنها لم تكن انانية على نحو تافه . لقد دُلّت منذ ان ابصرت عيناها النور ، بيد ان هذا التدليل لم يفسدها افسادا كاملا . كانت طيئاشة ، ولكنها ودية . وكانت مختالة معجبة بنفسها ( ولم يكن لها في ذلك حيلة ، اذ كانت كل نظرة الى المرأة تطالعها بفيض من نضارة وملاحة ) ولكنها لم تكن متكلفة متصنعة . وكانت سخية الكف ، بريئة من غرور الشراء . وكانت صريحة ، ذكية الى حد كاف ، بهيجة النفس ، ناشطة ، تعوزها الروية . وباختصار ، كانت فاتنة جدا ، حتى في عين مراقبة باردة من بنات جنسها مثلي . ولكنها لم تكن لتثير الشوق والاهتمام الى حد عميق ، ولم تكن لتخلف في نفس المرء انطباعا راسخة . كان عقلها ، مثلا ، مختلفا اختلافا عظيما عن عقل كل من شقيقتي سانت جون . ومع ذلك فقد احببتها بقدر ما احببت تلميذتي أديل ، تقريبا . في ما خلا ان المرء يكنّ للطفلة التي رعاها وعلمها محبة اقوى من تلك التي يستطيع ان يكنها لصديقة يافعة لا تقل عنها جاذبية .

وكانت قد اولعت بي واحببني . لقد قالت اني اشبهه مستر ريفرز ( ولكنها اقرت ، من غير ريب ، بأن جمالي لا يبلغ عشر جماله ، برغم اني كنت مخلوقة حلوة ظريفة صغيرة . اما هو فكان ملاكا ) . بيد انني كنت ، مثله ، صالحة ، بارعة ، رابطة الجاش ، رصينة . ولقد اكدت قائلة اني ، بوصفي معلمة في قرية ، « فلنت من فلتات الطبيعة » . وكانت على مثل اليقين من ان حياتي السالفة - لو كشف النقاب عنها - خليق بها ان تكون مادة صالحة لرواية مائعة .

وذاذ مساء بينا كانت ، بنشاطها الطفلي المألوف وفضولها الطيئاش ولكن غير العدواني ، تقلّب محتويات الخزانة ودرج الطاولة في مطبخي الصغير ، اكتشفت ، اولا ، كتابين فرنسيين ، ومجلدا من تأليف شيلر ، ومعجما وكتاب نحو المانيين . واكتشفت ، بعد ذلك ، ادوات رسمي الخاصة ، وبعض رسومي الاعدادية ، وفي جملتها صورة بالقلم لرأس فتاة صغيرة مليحة شبيهة بالملائكة ، كانت هي احدي تلميذاتي ، ومشاهد شتى من الطبيعة انتزعت من وادي مورتون ومن السباح المحيطة به . وشلّها الدهش ، بادىء



الامر ، ثم كهر بها الابتهاج ، فقالت :

- « هل رسمت انت هذه الصور ؟ هل تعرفين الفرنسية والالمانية ؟ ما اروعك ! واية معجزة انت ! انك ترسمين خيرا مما يرسم استاذي في المدرسة الاولى في س . . . هل لك ان ترسمي لي صورة تمثلني لكي اريها لوالدي ؟ »  
فاجبتها : « بكل سرور » . واستشعرت رعشة ابتهاج كذلك التي تلم بالفنان حين فكرت بأنه سوف يتاح لي ان انقل عن مثل هذا النموذج الكامل المشع . وكانت آنذاك ترتدي ثوبا حريريا ازرق داكنا يكشف عن ذراعيها وعن جيدها . وكانت الحلية الوحيدة التي تزينها هي جدائلها الكستنائية التي تموجت فوق كنفها بكل ما تتميز به حليقات الشعر الطبيعية من جمال . وتناولت قطعة من الورق المقوى ، وانشأت ارسم - في عنابة - الخطوط الكبرى لصورة تمثلها . ومنيت نفسي بمتعة تلوينها عندما تنجز . واذ كان الليل قد تقدم ، الان ، بنا ، فقد قلت لها ان عليها ان تقد في يوم اخر لاتمام الرسم .

ويبدو انها اطرنتني امام ابها اطراء جعله يرافقها بنفسه في مساء اليوم التالي - وكان مستر اوليفر رجلا في خريف العمر فارع الطول ، ضخيم التقاطيع ، مشتعل الرأس بالشيب - فبدت ابنته الفاتنة ، بجنبه ، اشبه بزهرة مشرقة على مقربة من برج بناية اشيب . لقد بدا لي رجلا سكوتا ، وربما رجلا يغلب عليه العجب والغرور ، ولكنه كان بالغ اللطف معي . وسرته صورة روزاموند الاعدادية سرورا عظيما ، وقال ان علي ان اجعل منها لوحة منجزة . وكذلك دعاني لقضاء سهرة الغد في « قصر الوادي » ( فايل هول ) والح علي في ذلك .

ولبيت دعوته . فالفيت « فايل هول » قصرا ضخما جميلا يقدم بيئات وافرة علي غنى صاحبه . وكان الجدل والبشر يفعمان روزاموند طوال زيارتي تلك . وكان ابوها انيسا ودودا . وحين جاذبني اطراف الحديث بعد الشاي عبث لي في تعابير قوية عن رضاه عما قمت به في مدرسة مورتون . وقال انه يخشى - بعد الذي رآه وسمعه - ان اكون اكبر من المكان الذي اعمل فيه ، وان اغادره - وشيكا - الى مكان افضل .

وصاحت روزاموند : « حقا ! انها بارعة الى حد يؤولها لان تكون مربية في اسرة من الاسر الكبيرة ، يا بابا ، » .

وقلت في ذات نفسي : اني لأؤثر البقاء حيث انا على العمل في خدمة اية اسرة كبيرة من اسر البلاد . وتحدث مستر اوليفر عن مستر ريفرز - وعن اسرة ريفرز كلها - في احترام عظيم . وقال انها احدي الاسر العريقة في تلك الديار ، وان اسلافها كانوا موسرين ، وان مورتون كلها كانت في يوم من الايام ملكا لهم ، وانه حتى في يوم الناس هذا يرى ان ممثل تلك الاسرة اهل ، اذا شاء ، لمصاهرة خير الاسر . وبعتبر من الامور الداعية الى الاسى والاسف ان يكون شاب في مثل امتيازه ومواهبه قد وطن النية على الانتظام في سلك المبشرين ،

وان صنيعه ذاك لا يعدو ان يكون اطرأحا لحياة نافعة . ولقد بدا ، من ثم ، انه ما كان ليقيم اية عقبة في طريق زواج روزاموند من سانت جون ، وانه كان يجد في كرم معتمد القس الشاب ، وعراقا اسرته ، وقدسية مهنته ما يعوضه تعويضا كافيا عن فقره وعوزه .

وصادف ان كان اليوم الخامس من تشرين الثاني ( نوفمبر ) يوم عطلة . وكانت خادمتي الصغيرة قد مضت لسبيلها ، بعد ان ساعدتني في تنظيف بيتي ، راضية ابعد الرضا بننس واحد دفعته اليها اجرا على مساعدتها لي . كان كل ما حولي نظيفا مشرقا - ارضية مغسولة ، ومدفأة مصقولة ، وكراسي مجلوثة . وكنت انا ايضا قد اتخذت زينتي ، ففي ميسوري ان افيد من فترة الاصيل تلك وانفقها كيف اشاء .

وهكذا انشأت اترجم بضع صفحات عن الالمانية منققة في ذلك ساعة كاملة . ثم اني تناولت ريشاتي ولوحة الرسم وشرعت في اداء مهمة اكثر عذوبة ، لانها ايسر واسهل - مهمة اتمام صورة روزاموند المصغرة . وكنت قد فرغت قبل ذلك من رسم الرأس ، ولم يكن قد بقي علي غير تلوين الخلفيّة بأصباغ خفيفة ، وغير تظليل الثياب ، وازافة لمسة من اللون القرمزي الى الشفتين الممثلتين ، وبضع حليقات نواغم الى الجداول ، وخضاب اعمق لظلال الاهداب تحت الجفن اللازوردي . وكنت مستغرقة في استكمال هذه التفاصيل عندما فُتح باب بيتي ، اثر ضربات عليه متمجلة ، ودخل سانت جون ريفرز .

وقال : « لقد وفدت لارى كيف تنفقين عطلتك ، راجية ان تكوني منصرفة الى انفاقها في غير الاستغراق في التفكير . لا ، هذا حسن : انك لن تستشعري اي وحشة ما دمت مكبّة على الرسم . ومن هنا ترين اني لا ازال في ريب منك ، على الرغم من انك تكشّفت حتى الان عن صبر رائع . ولقد جئت بكتاب ارجو ان تقمي فيه على بعض السلوى في ساعات المساء ، . والقي على الطاولة كتابا صدر حديثا - قصيدة من تلك الآثار الاصيلية التي كثيرا ما جادت بها تلك الايام - عصر الادب الحديث الذهبي - على جمهور القراء المحظوظ . وأسفاه ! ان القراء في عصرنا هذا اقل حظا . ولكن ، قليلا من الشجاعة ! اني لن اتهل لحظة لانهم او اتذمر . فانا اعلم ان الشعر لم يمت ، وان العبقريّة لم تضع ، وان شيطان الجشع لما يهيمن على اي منهما ، لكسي يقيدهما او ينجرهما : انهما كليهما سوف يؤكدان وجودهما ، ومثولهما ، وحيثتهما ، وقوتهما ، كرة اخرى ذات يوم . ان الملائكة الجبابرة الآمنة في السماء لتبتسم حين تنتصر النفوس الخسيسية ، وتندب النفوس الواهنة هلاكها . اصحيح ان الشعر قد هلك ؟ وان العبقريّة قد نفيت ؟ لا ! لا ، ايها التوسطية ❀ ، لا تدعي الحسد يدفعك الى مثل هذا الاستنتاج . لا ، ان الشعر والعبقريّة ليسا على قيد الحياة فحسب ، ولكنهما يهيمنان ويُعتقان . ولولا

❀ حالة التوسط بين السمو والوضاعة .

سلطانهما الالهي المنتشر في كل مكان لكننت في جحيم - جحيم حقارتك بالذات .

وفيه كنت اقلب في لهفة صفحات ماريون ( فقد كانت القصيدة من نظم ماريوز فعلا ) انحنى سانت جون ليتأمل رسمي . وفجأة انتصبت قامته الفارعة في اجفال ، ولم ينبس بأية كلمة . ورفعت بصري اليه ، فأشاح عني بوجهه . لقد فهمت ما كان يجول في ذهنه فهما حسنا ، واستطعت ان اقرأ صفحة فؤاده في وضوح . وفي تلك اللحظة استشعرت اني اهدأ نفسا ، وآنست آنذاك - مؤقتا - اني في مركز اقوى من مركزه ، وراودتني نزعة الى اسداء خدمة ما اليه ، اذا استطعت ذلك .

وقلت في ذات نفسي : « انه ، على الرغم مما يمتاز به من ثبات وضبط نفس ، يجتاز بمحنة قاسية . فهو يكبت عواطفه كلها وآلامه كلها ، وهو لا يفصح عن شيء ، ولا يعترف او يدلي بشيء . واني على مثل اليقين من ان بعض الحديث عن روزاموند الحلوة هذه ، التي اعتقد هو بأنه ليس ينبغي له ان يتزوجها ، خلق به ان يسري عنه . ومن هنا فسأعتمد الى اغرائه بالكلام » .

فقلت بادى الامر : « اجلس ، يا مستر ريفرز » . ولكنه اجاب ، جريا على مألوف عاداته ، قائلا انه لا يستطيع البقاء . فرددت عليه ، في ما بيني وبين نفسي ، قائلة : « حسن جدا . ابق واقفا اذا شئت . ولكني لمن ادعك تذهب ، فقد وطنت النية على ذلك : ان العزلة تؤذك بقدر ما تؤذيني . ولسوف ابذل قصارى جهدي لكي اكتشف ثغرة في ذلك الصدر الرخامي استطيع ان اسقط من خلالها قطرة واحدة من بلسم المشاركة الوجدانية » .

وسألته في غير مداراة : « هل هذه الصورة تشبه الاصل ؟ »

- « تشبه الاصل ؟ اي اصل ؟ انا لم انعم النظر فيها » .

- « بل لقد فعلت ، يا مستر ريفرز » .

واجفل ، او كاد ، لفظاظتي المفاجئة الغريبة ، ونظر الي ذاهلا . وغمغمت في ما بيني وبين نفسي : « اوه ، انت لم تر شيئا بعد » ، ثم تابعت حديث النفس قائلة : « انا لن ايجز لبعض الخشونة ، من جانبك ، ان يصدني عن سبيلي . واني لمستعدة لان امضي في ذلك الى ابعد مدى . لقد انعمت النظر فيها انعاما بالغا ، ولكنني لن اعارضك اذا رغبت في معاودة النظر اليها مرة اخرى » .

ونفضت ووضعتهما بين يديه ، فقال : « لوحة بارعة الاداء . ان ألوانها لوضّاحة جدا ، ورقيقة جدا . وان خطوطها لرشيقة ، ودقيقة الى درجة بالغة » .

- « اجل ، اجل . انا اعرف ذلك كله . ولكن ماذا عن الشبه ؟ من تشبه هذه الصورة ؟ »

فأخذه شيء من تردد ، ولكنه ما لبث ان سيطر على نفسه وقال : مس اوليفر ، في ما اظن ، .

« طبعاً . والان ، يا سيدي ، لكي اكافئك على حدسك الصائب اعدك بأن ارسـم لك نسخة دقيقة امينة عن هذه الصورة بالذات ، شريطة ان تعلن ان الهدية سوف تحظى منك بالقبول . فانا لا اريد ان انفق وقتي وجهدي على هبة قد تعتبرها انت تافهة . »

وواصل التأمل في الصورة . وكلما اطال النظر اليها ازداد تشيـبهـه بها ، وتعاطف اشتهاؤه لها . وغغم : « انها تشبهها ! والعين مرسومة ادقّ رسم . اجل ، ان كل ما فيها لكامل : اللون ، والضوء ، والتعبير . انها تبسّم ! »

« ايسرّي عنك الفوز بصورة مماثلة ام يشجيك ؟ اصدقني القول . وحين تكون في ماديرا ، او في مدينة الرأس ، او في الهند ، هل تلقي بعض العزاء في وجود هذا التذكار بين يديك ؟ ام ان النظر اليه خليق به ان يبعث ذكريات من شأنها ان تشير اعصابك وتوقع في نفسك الاسى ؟ »

رفع عينيه واختلس النظر الي في تردد واضطراب . ثم راح يتأمل الصورة كرة اخرى .

« اما اني احب الفوز بها فأمر لا ريب فيه . واما ما اذا كان هذا الصنيع حكيما او غير حكيم فتلك مسألة اخرى . »

واذ كنت قد استيقنت ان روزاموند كانت تؤثره حقا ، وان اباهـا ما كان ليعارض في زواجهما فأني - وكنت اقل اعتزازا بأرائي من سانت جون - ملت ميلا قويا صادقا الى العمل من اجل اقناعه بطلب يدها . لقد بدا لي انه اذا ما قدّر له ان يكون هو المسيطر على ثروة مستر اوليفر الضخمة فعندئذ يصبح في امكانه ان يخدم الناس بها بقدر ما يخدمهم لو مضى وعرض عبقريته للذبول وقوّته للضياع تحت شمس استوائية موقدة . وبهذا اليقين اجبته :

« انه لخير لك واحفل بالحكمة ، على قدر ما ارى ، ان تسارع الى امتلاك الاصل في الحال . »

ولكنه كان قد جلس ، هذه المرة . وكان قد وضع الرسم امامه ، على الطاولة ، وانحنى فوقها في محبة وولوع ، مسندا جبينه الى كتفـيـه يديه . وادركت انه لم يكن الان لا غاضبا ولا مروّعا لجراعتي عليه . بل لقد رأيت انه شرع بجذ في محادثته على هذا النحو الصريح في موضوع كان يعتبره محظورا وفي سماعه اياه يعالجُ بمثل هذه الحرية ، متعة جديدة ، وارتياحا لم يكن ليطمع فيه . والحق ان المتحفظين من الناس كثيرا ما يحتاجون ، اكثر من غير المتحفظين ، الى من يناقش عواطفهم وشجونهم مناقشة صريحة . والرواقيون الذين يتكشّفون عن اشد الصرامة والتجهم هم بشر على كل حال . وكثيرا ما يكون في افتتاحنا « بحر نفوسهم الصامت » ، في جراءة ومودة ، خدمة جلي تسدي اليهم .

وقلت ، فيما كنت اقف وراء كرسيه : « انها تحبك ، انا واثقة من ذلك . »

وان والدها ليحترمك . والى هذا ، فانها فتاة فاتنة ، وان تكن اميل الى الطيش . ولكنك تملك من التبصّر والفطنة ما يكفيك ويكفيها . وان من واجبك ان تتزوجها .

وسألني : « هل تعجبني حقاً ؟ »

- « من غير ريب . انها تعجبك اكثر مما تحب ايما امرىء اخر . وهي تتحدث عنك على نحو موصول . وليس ثمة موضوع ادعى الى ابهاجها من هذا الموضوع ، فهي تحرص ابداً على اثارته . »

فقال : « انه ليسعدني جداً ان اسمع ذلك . اجل ، يسعدني جداً فواصل حديثك ربع ساعة اخرى . » واخرج ساعته ، فعلا ، ووضعها على الطاولة لكي يقيس الزمن .

فسألته : « ولكن اية فائدة ترتجى من مواصلة الحديث ، ما دمت - في أغلب الظن - تعدّ ضربة حديدية من المعارضة ، او تسبك قيдаً جديداً تصفد به قلبك ؟ »

- « لا تتخيلي مثل هذه الاشياء القاسية . تخيليني استسلم واميع ، كما هي حالي في الواقع . ان الحب البشري ليتفجر في عقلي مثل ينبوع بكر ، ويغمر بفيض عذب ارجاء الحقل الذي حرثته بأعظم الكدح واكبر العناية ، والذي غرست فيه بذور النيات الطيبة والخطط القائمة على انكار الذات . لقد غرق الان في طوفان من شراب الآلهة ، فجُرّفت البذور الغضة وتأكّلتها السم اللذيذ . واني لاتخيل نفسي الآن مضطجعا على اريكة في حجرة الاستقبال في « قصر الوادي » ( فايل هول ) ، عند قدمي عروسي روزاموند اوليفر : انها تتحدث الي بصوتها العذب ، ناظرة الي من علّ بتينك العينين اللتين صورتها يدك الباربة فأحسنّت تصويرهما ، مبتسمة لي بهاتين الشفتين المرجانيتين . انها ملكي . . . واني ملكها . . . وان هذه الحياة الدنيا ، الفانية ، لتكفيني . صه ! لا تقولي شيئاً . . . ان فؤادي لمفعم بالابتهاج . . . وان حواسي لذهالة . . . دعي المهلة التي حدّتها لنفسني تنقضي في سلام . »

ونزلت عند رغبته : لقد واصلت الساعة تكآتها ، وأخذ صدره يعلو ويهبط ، واخلدت انا الى الصمت . وفي غمرة من هذا السكون تصرّمت الدقائق الخمس عشرة . فاعاد الساعة الى جيبه ، ووضع الصورة على الطاولة ، ونهض ، ووقف على مقربة من المستوقد .

وقال : « والان ، لقد كرّست تلك الفترة القصيرة للهيذان والوهم . لقد ارحت صدغيّ على صدر الاغسراء ، ووضعت عنقي - طوعاً واختياراً - تحت نيره المصنوع من رياحين . لقد ذقت كأسه . كانت الوسادة مضطربة ، ولقد كان في الاكليل حبة صغيرة سامة . ان الخمر ذات طعم مرير ، وان وعودها جوفاء ، وعروضها زائفة . اني لارى هذا كله ، واعرفه . »

وحدّقت اليه في دهش .

وثابع كلامه : « ومن عجب اني بينا احب روزاموند اوليفر هذا الحب المشبوب - بكامل زخم الحب الاول لمخلوقة هي على مثل هذا الجمال والبهاء والسحر كله - أعني في الوقت نفسه ، وعيا هادئا نزيها - انها لن تكون لي زوجة صالحة .. انها لن تكون لي شريكة حياة ملائمة ... واني لا بد ان اكتشف ذلك في مدى عام ينقضي على الزواج .. وانه لا بد ان يعقب ابتهاج الشهور الاثني عشر عمر - كامل من الندامة - ذلك شيء أعرفه » .

فلم اتمالك عن القول ، في نبرة عالية : « هذا عجيب ، حقا ! »

وثابع قائلا : « وفيما يتكشف شيء ما في عن اعظم الحساسية لمفاتنها يتكشف شيء آخر عن اعماق التأثير بنقاظصها . وهذه النقاظص قوية الى درجة تجعل روزاموند غير قادرة على مشاركتي ، وجدانيا ، في أيما شيء مما اطمح اليه ، او على التعاون معي في أيما شيء مما سأنهض بعينه . هل تستطيعين ان تتخيلي روزاموند رسولة ، مناضلة تقاسي المتاعب والآلام ؟ هل تستطيعين ان تتخيلي روزاموند زوجة لمبشر ؟ أنا لا استطيع ! »

- « ولكنك في غير حاجة الى العمل كمبشر . في استطاعتك ان تتخلي عن هذه الخطوة » .

- « أتخلي ! ماذا ! عن مهمتي ؟ عن رسالتي العظيمة ؟ عن الاساس الذي ارسيته في الارض لاقامة قصر في الجنة ؟ عن آمالي في أن أدخل في عداد تلك العصبة التي صهرت جميع المطامح في مطمح مجيد واحد ، هو تحسين النوع البشري .. ونقل المعرفة الى عوالم الجهل ... واحلال السلم محل الحرب ، والحرية محل العبودية ، والدين محل الخرافة ، ورجاء الجنة محل خوف جهنم ؟ هل ينبغي لي ان اتخلي عن هذا كله ؟ انه اعز عندي من الدم الجاري في عروقي . انه ما يجب ان اطلع اليه ، وان احيا من اجله » .  
وبعد صمت استمر فترة غير يسيرة قلت : « ومس اوليفر ؟ الا يهكم اسأها وخيبة أملها ؟ »

- « مس اوليفر محاطة ابدا بجمهرة من الخطاب والمتملقين . وما هو غير شهر واحد ، او اقل من شهر واحد ، حتى تمحي صورتني من فؤادها . انها سوف تنساني . ولسوف تتزوج ، في اغلب الظن ، من رجل يسعدها اكثر مما استطيع أنا ان اسعدها ، بكثير » .  
- « انت تتحدث في فتور بالغ . ولكن الصراع يعذبك . انه يضنيك ويُبلييك » .

- « لا . اذا كان شيء من الهزل قد اعتراني فليس ذلك الا بسبب من قلقي على مشروعاتي التي لمّا تتحقق يعد .. بسبب من رحيلي الذي لا يفتأ يُرجأ ويؤجل . ففي هذا الصباح بالذات تلقيت نبأ يفيد ان خلقتي ، الذي توقعت وصوله منذ فترة طويلة ، لن يستطيع الحصول محلي الا بعد شهور ثلاثة . ومن يدري ، فقد تتطاول الشهور الثلاثة لتصبح شهورا ستة » .  
- « انك لترتعد وان الدم ليشيع في وجنتيك كلما دخلت مس اوليفر غرفة الصف » .

وكررة اخرى غلبت الانطباعة المشدوهة على محياه . ذلك بأنه لم يتخيل أن تجرؤ امرأة على التحدث الى رجل ما بمثل هذه اللهجة . أما انا فلم اجد أي حرج في مثل ذلك الحديث . ذلك بأنني ما كنت لارتاح الى الاتصال بالعقول القوية الحصيفة المهذبة - سواء أكان اصحابها رجالا او نساء - الا بعد ان اجتاز حصون التحفظ التقليدي ، واتخطى عتبة الثقة ، وافوز بموضع في سويداء قلوبهم .

وقال : « انت فتاة ذات اصالة ، ولست بالهيأة . ان في روحك لشيئا باسلا ، وان في عينيك لشيئا ثاقبا . ولكن دعيني أؤكد لك انك تسئين فهم عواطفني ، بعض الشيء . انت تنوهمينها اعمق وأقوى مما هي في الواقع . وتنسبين الي قدرًا من المشاركة الوجدانية اعظم مما استحق . وحين يتضرج وجهي وحين ارتعد امام مس اوليفر لا أرثي لنفسني البتة . أنا ازدري ضعفي . واعلم انه عارٌ وخسّة . . . انه مجرد حمى من حميات الجسد ، وليس تشنجا من تشنجات الروح . ان روحي لثابتة مثل صخرة راسخة في اعماق بحر متلاطم الامواج . الا فاعرفيني على حقيقتي : رجلا باردا صلبا . »

وابتسمت ابتسامة تؤذن بعدم التصديق . واسترسل قائلا : « لقد نفذت الى سري بهجوم صاعق ، وانه الان رهن ارادتك . انا لا اعدو ان أكون ، في حقيقتي - مجردا من ذلك الثوب الابيض الذي تغطي به النصرانية عيوب البشر - رجلا باردا ، قاسي القلب ، طموحا . والحنان الطبيعي له ، من بين سائر العواطف ، سلطان سرمدى علي . العقل ، لا الشعور ، هو قائدي وهادي . ان طموحي طموح لا حد له ، وان رغبتني في السمو على الآخرين وفي القيام بأكثر مما يقومون من اعمال رغبة لا تعرف الشبّع . أنا اقدس الجلد والمثابرة والكد والموهبة ، لان هذه هي الوسائل التي بها يحقق الناس اهدافا عظمية ، ويبلغون منازل السمو السامقة . أنا اراقب سيرتك في اهتمام ، لاني اعتبرك نموذجا للمرأة المثابرة ، المنظمة ، الناشطة ، لا لاني أسى لك ، على نحو عميق ، بسبب مما اصابك من قبل او بسبب مما لا تزالين تقاسينه . »

فقلت : « لعلك تريد ان تقول انك مجرد فيلسوف وثني » .

- « لا . هناك هذا الفارق بيني وبين الفلاسفة الذين يفرضون الايمان بالوحي : اني انا أو من بالتعاليم المسيحية . لقد خانك التوفيق في اختيار النعت ، فانا لست فيلسوفا وثنيا ، بل فيلسوف نصراني - تابع من اتباع نحلة المسيح . وبوصفي تلميذا من تلاميذه اراني اتبنى عقائده الطاهرة ، الرحيمة ، الخيرة . انا انادي بها ، ولقد اخذت على نفسي عهدا بان ابثها وانشرها . واذا نذرت نفسي ، في صدر الشباب ، للدين هذب الدين سجايي الفطرية على هذا النحو : فمن البذرة الدقيقة ، الحنان الطبيعي ، انشا الشجرة الوارفة الظلال ، حب الانسانية . ومن جذر الاستقامة الانسانية البري ربى احساسا واجبا بالعدالة الالهية . ومن الطموح الى اكتساب السلطان والشهرة

لذاتي البائسة كوّن الطموحَ الى توسيع مملكة الهي ، الى تحقيق الانتصارات  
لراية الصليب . ذلك كله فعله الدين من اجلي : لقد مكنتني من ان افيد من  
المواد الخام التي منحنتني اياها الحياة احسن ما تكون الافادة ، ومن تشذيب  
طبيعتي وتدريبها . ولكنه لم يستطع ان يستاصل هذه الطبيعة ، ولن يستطيع  
استئصالها « حتى يوفق هذا الانسان الفاني الى الفوز بالخلود » .  
قال ذلك وتناول قبعته التي كانت على الطاولة بجانب لوحة الواني . وكرة  
اخرى انشأ ينظر الى رسم روزاموند اوليفر .  
وغمغم : « انها فاتنة . ولقد اصاب من سمّاها « زهرة العالم » حقاً » .  
- « الا تريدني ان ارسم من اجلك لوحة مثلها ؟ »  
- « وما الفائدة من ذلك ؟ لا » .

وحجب اللوحة بتلك الورقة الرقيقة التي كان من دأبي ان اريح يدي  
عليها اثناء الرسم صيانةً للورق المقوى من التلوث . ان من المتعذر علي أن  
احزر ما الذي رآه فجأة على تلك الورقة البيضاء ولكن شيئاً ما قد جذب  
بصره . فانتزعها انتزاعاً ، وراح يحدّق الى زاويتها ، ثم حدجني بنظرة ..  
نظرة عجيبة لا سبيل الى وصفها ، مبهمة لا سبيل الى فهمها . نظرة بدا وكأنها  
كانت تسجل كل شاردة وواردة من شكلي ، ووجهي ، وملابسي . ذلك بأن  
جاءت كل ذلك خاطفة نافذة كالبرق . وانفجرت شفتاه ، وكأنه يريد ان  
يقول شيئاً . ولكنه كبج الجملة التي اوشكت ان تنطلق من بينهما ، ايا ما  
كانت تلك الجملة .  
وسأله : « ما بالك ؟ »

فكان جوابه : « لا شيء على الاطلاق » . واذا اعاد الورقة الى موضعها  
رأيته يقطع ، في رشاقة ، جانبا ضيقا من هامشها ويغيبه في قفازه . ثم انه  
حياني تحية عاجلة ، وتمني لي اصيلا طيبا ، وتواري .  
وهتفت ، مصطنعة تعبيراً من تعابير المنطقة : « هذا يتوّج الكرة  
الارضية على اية حال ! »  
ورحت بدوري اتأمل تلك الورقة . ولكني لم الملح عليها اي شيء  
غير لطخات قليلة من الاصباغ التي جربتها بريشتي . واستغرقت في التفكير  
في ذلك اللغز دقيقة او دقيقتين . حتى اذا استعصى علي حلّه ، وحتى اذا  
استيقنت انه لا يمكن ان يكون ذا خطر عظيم ، اقلعت عن ذلك ، وسارعت  
الى نسيان المسألة كلها .

## ٣٣

وكان الثلج قد شرع يتساقط عندما مضى مستر سانت جون لسبيله ،  
وواصلت العاصفة انطلاقها عنيفة مدوّمة طوال الليل . وفي اليوم التالي

✻ تتألف كلمة روزاموند من لفظتين rose ومعناها الورد ، و monde ومعناها العالم . (المغرب)



هبّت ريجٌ مثلوجة هطلت في اعقابها امطار جديدة تعمي البصر . حتى اذا هبطت العتمة كان الثلج قد ملأ الوادي وجعل اجتيازه شبه متعذر . وكنت قد اوصدت مصراع نافذتي ، ووضعت عند الباب حصيرة اردت بها ان تحول دون تسرب الثلج من تحته ، وأصلحت النار في موقدي . وبعد ان جلست في جواره نحوامن ساعة اصغيت خلالها الى ثورة العاصفة المكبوحة اضأت شمعة وتناولت قصيدة ماريون وانشأت اقرا :

« ارتفع الضحي فوق القصر القائم عند منحدر نورهام ،  
فوق نهر « تويد » الجميل ، العريض ، العميق ،  
وجبال « شيفيو » المنغزلة .  
ان الابراج الضخمة ، والحصن الداخلي ،  
والاسوار المنيفة التي تكتنفها  
لتتوهج بريق اصفر . »

وسرعان ما نسيت العاصفة في غمرة من تلك الموسيقى .  
وسمعت جلبة . وخيل الي ، بادى الامر ، ان الريح قد هزت الباب .  
ولكني ما لبثت ان ادركت ان سانت جون ريفرز قد عاد . لقد رفع المزلاج ،  
وانبثق من غمرة الزوبعة الثلوجة . . . والظلمة العاوية . . . ووقف امامي ،  
وقد بدت العباءة التي غطت قامته الفارغة بيضاء كلها مثل نهر متجمد .  
واستبد الذعر بي او كاد . اذ لم اكن اتوقع ان يفد علي تلك الليلة ، من  
الوادي الذي سد الثلج مسالكه ، اي زائر .

وسألته : « أليدك اية انباء سيئة ؟ هل حدث ايما شيء ؟ »  
فأجابني ، نازعا عباءته ، معلقا اياها على الباب : « لا . ما ايسر ما  
استبد الذعر بك ! » واعاد دفع الحصيرة التي كان دخوله قد ازاحها عن  
موضعها . وضرب الارض بقدميه نافضا الثلج عن حذائه .

وقال : « سوف الوث ارض حجرتك النظيفة . ولكن عليك ان  
تعذريني هذه المرة وحسب » . ثم انه دنس من المستوقد و اضاف وهو  
يصطلي بناره : « اؤكد لك اني بذلت جهدا عظيما للوصول الي هنا . فقد  
غمرتني الثلوج برهة ، حتى خصري . ولكن هذه الثلوج كانت ، لحسن  
الطالع ، دمثة الى حد بعيد » .

ولم اتمالك نفسي عن سؤاله : « ولكن ما الذي جاء بك ؟ »  
- « سؤال ليس من حسن الضيافة توجيهه الى زائر . ولكن ما  
دمت قد طرحته علي فسأجيب عنه لمجرد رغبتي في التحدث اليك فترة  
قصيرة . فقد سئمت كتبي الخرساء وحجراتي الخالية . والى هذا ، فقد  
غلب علي منذ امس مثل ذلك الاهتياج الذي يغلب علي من لم يسمع من  
قصة ما الا نصفها ، فهو مشوق الى سماع تنتمتها » .  
وجلس . وتذكرت ما تكشف عنه امس من سلوك شاذ ، فشرعت

أخشى في الواقع ان يكون قد خولط في عقله . ولكن خبله ، اذا صبح ان الخبل قد المّ به حقاً ، كان خبلاً فاتراً رابط الجأش الى حد بعيد . ولست احسب اني رأيت ذلك الوجه المليح السمات اشدّ شبهاً بالرخام المنقوش مما رأيته في هذه اللحظة بالذات ، بينا كان يرد شعره المطلول بالثلج عن جبينه ويجيز لوهج النار ان يتألق في حرية على جبهته الشاحبة ، وجنته التي ما كانت باقل شعوباً ، وجنته التي آلمني ان المسح عليها آثار الهم او الاسى محفورة على نحو واضح . وترقبت ، متوقعة ان يقول شيئاً استطيع على الاقل ان افهمه . ولكن يده كانت الان عند ذقنه ، واصبعه كانت على شفته : كان مستغرقاً في التفكير . وقد راعني ان تبدو يده مرهقة مضناة مثل وجهه . وعندئذ فاض قلبي بدفق من الاشفاق ربما كان غير ارادي . ودفعت الى القول :

« اتمنى لو تفد ديانا او ماري وتقيم معك . فمن المؤسف جداً ان تضطر الى العيش وحدك ، وانت رجل قليل الاحتفال بصحتك الى حد طائش » .

« لا ، على الاطلاق . انا اعنى بنفسى حين يكون ذلك ضرورياً . واني الان لفي خير . هل تجددين فيّ علةً ما ؟ »

قال ذلك في لا مبالاة ذاهلة اظهرت ان جرّعي كان ، في رأيه على الاقل ، غير ضروري البتة . وهكذا اكرهت على الصمت .

وواصل سانت جون تحريك اصبعه ، في تؤدة ، فوق شفته العليا ، وواصلت عينه رنوّها الحالم الى الموقد المتوهج . واذا رأيت من واجبي ان اقول شيئاً فقد سارعت الى سؤاله ما اذا كان يحسّ بأي تيار من الهواء البارد منبعث من الباب القائم خلفه .

فأجابني في اقتضاب وبعض شكاسة : « لا ! لا ! »

فقلت في ذات نفسي : « حسناً ، اذا ابيت ان تتكلم ، ففي وسعك ان تخلد الى الصمت . سوف اتركك الان وشأنك ، واعدود الى كتابي » .

وهكذا ازلت الجزء المحترق من فتيل الشمعة واستأنفت مطالعة ديوان مارميون . وسرعان ما تحرك . وفي الحال جذبت عيني الى حركاته . ولكنه اجتزأ بان اخرج حافظة اوراق مصنوعة من جلد مراكشي ، ومسحب منها رسالة تلاها في صمت ، ثم طواها ، واعادها الى الحافظة ، واستغرق في التفكير من جديد . كان من العبث الذي لا طائل تحته ان اطالع كتابي ما بقي هذا الشيء المتسمر المبهم تجاهي . وفي الوقت نفسه لم استطع - وقد نفذ صبري - ان ارضى بالتزام الصمت . ومن هنا وطنت النية على الكلام ، ولينتهرنى اذا شاء .

وقلت : « هل تلقيت في الفترة الاخيرة أية رسالة من ديانا وماري ؟ »

« لم اتلق اية رسالة منذ تلك التي اطلعتك عليها منذ اسبوع » .

« الم يطرأ على خططك ايما بديل ؟ ان تدعى الى مغادرة انكلترا »

بأسرع مما توقعت ؟ »  
- « لست اظن ذلك ، في الواقع . فمثل هذا الحظ اسعد من ان يحالفني » .

واذ احبطت محاولاتي كلها فقد عمدت الى تغيير خطتي . لقد خطر لي ان اتحدث عن المدرسة وعن تلميذاتي .

- « ان صحة أم ماري غاريت ، قد تحسنت ، ولقد عادت ماري الى المدرسة صباح اليوم ، وسوف يفسد على مدرستي من « حظيرة المصهر » في الاسبوع القادم اربع فتيات صغيرات . ولقد كان خليقا بهن ان يفدن اليوم ، ولكن الثلج صدهن عن سبيلهن » .  
- « حقا ! »

- « ان مستر اوليفر تعهد بدفع نفقات اثنتين منهن » .  
- « صحيح ؟ »

- « انه يعتزم ان يقيم وليمة لطالبات المدرسة كلهن عند حلول عيد الميلاد » .

- « ادري » .

- « هل كان ذلك بناء على اقتراح منك ؟ »

- « لا » .

- « بناء على اقتراح من ، اذن ؟ »

- ابنته ، في ما احسب » .

- « انه اقتراح متناغم مع طبيعتها . فهي طيبة القلب حتى الاسراف » .

- « اجل » .

وكرة اخرى ، ران الصمت علينا . ودقت الساعة ثمانى دقات . فأيقظته من ذهوله . وانزل رجلا عن رجل ، واعتدل في جلسته ، والتفت الي وقال : « اطرحي كتابك لحظة ، واقتربي من النار اكثر قليلا » .

واذ استبد بي عجب لم اجد له نهاية فقد امتثلت امره .

وتابع حديثه قائلا : « منذ نصف ساعة تحدثت عن شوقي اللاهب الى سماع بقية قصة ما . ولكنني رايت ، بعد شيء من التفكير ، ان من الخير ان امثل دور الراوية ، وان اجعل منك مستمعة . وقبل ان ابدأ اجد من الانصاف ان انبهك الى ان القصة قد تبدو لك مبتذلة بعض الشيء . ولكن الاحداث الذابلة كثيرا ما تكتسب درجة من النضارة عندما تنطلق عبر شفاه جديدة . والى هذا ، وسواء اكانت حكايتي مبتذلة او طريفة ، فانها موجزة » .

« منذ عشرين سنة اغرم كاهن فقير - ولا بأس في اغفال اسمه الان - بابنة احد الموسرين . واغرمت الفتاة بدورها به ، وتزوجت منه مخالفة بذلك نصائح اهلها جميعا . . . . اهلها الذين تبرأوا منها بعد الزواج مباشرة . ولم تكذ تنقضي سنتان حتى قضى الزوجان الطائشان

نحبهما ، ودُفنا جنباً الى جنب تحت بلاطة واحدة . ( لقد رأيت قبرهما .  
 كان يشكل جزءاً من رصيف فناء ضخم يكتنف كاتدرائية عتيقة كالحلة ،  
 من أثر سخام المداخن ، في مدينة صناعية نامية أكثر مما ينبغي من اعمال  
 مفاطعه . . . ) . ولقد خلفنا طفلة احتضنها الاحسان ، منذ ولادتها ، في  
 حجره . . . حجره البارد برود اكوام الثلج التي كادت تعوق سبيلي  
 الليلة . وحمل الاحسان تلك المخلوقة اليتيمة الى بيت خالها الثري حيث  
 ربّتها امرأة خالٍ تدعى ( وهنا اصل الاسماء ) مسز ريد اوف  
 غايتسهيد . . . انت تجفلين . . . هل سمعت ايه ضجة ؟ اغلب الظن ان  
 مصدر الضجة لا يعدو ان يكون فارة تتسلق سقف حجرة التدريس  
 المحاذية الخشبي المنحدر . لقد كانت هذه الحجرة قبل ان اصلحها  
 واعدلها مخزناً للمحصولات الزراعية . ومخازن المحصولات الزراعية  
 كثيراً ما تختلف اليها الفئران . فلاتابع . . . لقد اعالت مسز ريد تلك البنت  
 اليتيمة عشر سنوات . فاذا سالتني هل كانت هذه المخلوقة البائسة  
 سعيدة في كنف امرأة خالها ام غير سعيدة اجبتك : لست ادري ، لان احداً  
 لم ينيئني بذلك البتة . ولكنها نقلت في ختام تلك المدة الى مكان تعرفينه ،  
 لانه لا يعدو ان يكون مدرسة لـوود التي اقامت انت فيها فترة طويلة جداً .  
 والذي يبدو ان سيرتها هناك كانت مشرقة جداً ، اذ ما لبثت ، بعد  
 تخرجها ، ان اصبحت معلمة في تلك المدرسة بالذات ، كما اصبحت انت .  
 والواقع اني لا اقضي العجب من تعدد وجوه الشبه بين ماضيها وماضيك .  
 وما هي غير فترة حتى تركت التعليم لتعمل مربية خصوصية في احد  
 البيوت . وهنا ايضا يتجلى الشبه بين قدريكما ، فقد تولت تثقيف فتاة  
 صغيرة كان رجل يدعى مستر روتشيستر قد كفلها . »

فقاطعته : « مستر ريفرز ! »

فقال : « في استطاعتي ان احزر اي الاحاسيس تعتلج في نفسك .  
 ولكنني اسألك ان تكبحيها لحظة ، فقد كدت اوفي من القصة على نهايتها ،  
 فاسمعيها حتى تلك النهاية . اننا لا أعرف عن خلق مستر روتشيستر  
 شيئاً . كل ما اعرفه هو انه عرض على هذه الفتاة ان يتزوج منها  
 زواجا مشرفاً ، وانها اكتشفت - امام المذبح بالذات - ان له زوجة لا تزال  
 على قيد الحياة وان تكن مجنونة . اما كيف كان مسلكه معها بعد ذلك ،  
 والعروض التي تقدم اليها بها فذلك ما لا ادريه على وجه اليقين . ولكن  
 ما ان نشأت من ثم مناسبة اوجبت استدعاء المربية حتى اكتشفت انها  
 مضت لسبيلها . . . ان احداً لم يعرف متى وكيف والى اين مضت . ذلك  
 بأنها غادرت قصر نورفيلد تحت جناح الظلام . واخذ القوم يبحثون عنها ،  
 ولكن جهودهم ذهبت ادراج الرياح . لقد رادوا البلاد كلها طولاً وعرضاً  
 فلم يوفقوا الى الفوز بأي نبأ من انبائها . ومع ذلك فان العثور عليها كان  
 قد امسى ضرورة ملحة . فنشرت في جميع الصحف اعلانات حولها

واذاعات • وانا شخصيا تلقيت رسالة من رجل اسمه مستر بريغز ، وهو محام ، اشتملت على هذه التفاصيل التي ادليت بها منذ لحظات • ليست هذه القصة قصة عجيبة ؟ »

فقلت : « لست اريد الا ان تفيدني عن امر واحد ••• وما دمت تعرف هذا القدر كله فليس من ريب في انك قادر على افادتي عن هذا الامر : ماذا حل بمستر روتشيستر ؟ كيف هو ، واين هو ؟ ما الذي يفعله الان ؟ اهو بخير ؟ »

– « اني اجهل كل ما يتصل بمستر روتشيستر ، فالرسالة لم تشر اليه الا لتروي محاولته الخادعة غير الشرعية التي الممت اليها ، وانه لخير لك ان تسالي عن اسم تلك المربية ••• وعن طبيعة الحادث الذي يوجب ظهورها • »

– « الم يذهب احد الى قصر ثورنفلد ؟ الم ير احد مستر روتشيستر ؟ »  
– « لست اظن ذلك » •

– « ولكنهم كتبوا اليه ؟ »

– « من غير ريب • »

– « وماذا قال ؟ من الذي يحتفظ برسائله ؟ »

– « يشير مستر بريغز الى ان الجواب الذي جاءه لم يكن من مستر روتشيستر ، ولكن من سيدة : لقد كان مذيلا بتوقيع « أليس فيرفاكس » •

وعصفت بي قشعريرة ورعب • واذن فأغلب الظن ان اسوأ مخاوفي كانت حقيقية • فلا ريب في انه قد غادر انكلترا واندفع ، في يأسه المتهور ، الى موطن سابق من تلك التي كان يألفها في القارة الأوروبية • واي مخدر لآلامه المبرحة وأي هدف لعواطفه الجياشة التمسهما هناك ؟ اني لم اجزؤ على الاجابة عن ذلك السؤال • ايه ، يا سيدي المسكين – الذي كاد ذات مرة ان يكون زوجي – والذي طالما دعوته : « ادوردي العزيز ! » فلاحظ مستر ريفرز قائلا : « لا ريب في انه كان رجل سوء • »

فقلت في حرارة : « انت لا تعرفه ••• فلا تبد ايما رأي فيه • »

فاجابني في سكون : « حسن جدا • والواقع ان ذهني منشغل بغيره : ان لدي قصتي التي يجب ان اتم روايتها • وما دمت تسأليني ما اسم المربية فالواجب يقتضي ان انبك به من تلقاء نفسي ••• تمهلي ••• انه لدي هنا ••• وانه لادعى الى الرضا ، دائما ، ان يرى المرء الاشياء الهامة مدونة سوادا على بياض »

وفي تودة اخرج حافظة اوراقه من جيبه كره اخرى وفتحها ، وراح يتحراها • ثم انه اخرج من احدى طبقاتها قطناصة رثة من ورق ، اقتطعت على عجل • فعرفت في نسيجها وفي لطخات الاصباغ الزرقاء الصافية ، والحمراء القائمة والقرمزية التي عليها هامش غطاء الصورة المختطف •

ونفض من مكانه ، ووضعها تحت ناظري . وقرأت هاتين الكلمتين ، « جين ايير » ، مكتوبتين بخط يدي بحبر صيني .

ولا ريب في اني كتبت ذلك في ساعة من ساعات الذهول .

وقال : « لقد كتب بريغز الي عن فتاة تدعى جين ايير . ولقد تساءلت الاعلانات المنشورة في الصحف عن فتاة تدعى جين ايير ، ولكني لم اكن اعرف غير جين ايليوت . واعترف لك ان الشكوك كانت قد ساورتني ، ولكن تلك الشكوك لم تنقلب الي يقين الا اصيل امس . فهل تقرين بأن هذا هو اسمك وتطرحين اسمك المستعار ؟ »

« اجل ، اجل ، ولكن اين مستر بريغز ؟ لعله يعلم من امر مستر روتشيستر اكثر مما تعلم . »

« بريغز في لندن . وانا اشك في انه يعرف ايما شيء مهما يكن عن مستر روتشيستر ، لان اهتمامه ليس منصباً على مستر روتشيستر . وفي الوقت نفسه ، لاحظ ان انشغالك بتعقب الامور الجزئية قد انسلك بعض النقاط الاساسية . فانت لا تسألين لماذا يبحث مستر بريغز عنك . وما الذي يبتغيه منك . »

« حسنا ، ما الذي كان يريد مني ؟ »

« كان يريد مجرد اعلامك بأن عمك ، مستر ايير الماديري \* قد توفي ، وانه قد ترك لك ثروته كلها ، وانك الان غنية . . . ذلك كل ما يريده ، ولا شيء غير ذلك . »

« انا غنية ؟ »

« اجل ، انت ، غنية . لقد ورثت ارثا كبيرا . »

وران الصمت لحظات .

ثم ان مستر سانت جون استطرد قائلا : « ان عليك ان تثبتي هويتك ، من غير ريب . وهي خطوة لا تنطوي على اية مصاعب . وعندئذ يصبح في ميسورك ان تضعي يدك ، في الحال ، على التركة . ان ثروتك هي كناية عن سندات على الحكومة الانكليزية ، وبريغز يملك الوصية والوثائق الضرورية . »

وهنا قلبت في حياتي صفحة جديدة ! والواقع انه لشيء رائع ، ايها القارئ ، ان يجد المرء نفسه وقد ارتفع في لحظة واحدة من الفاقة الى الثروة . . . شيء رائع جدا ، ولكنه ليس شيئا يستطيع المرء ان يفهمه ، وبالتالي ان يستمتع به في الحال . والى هذا ففي الحياة مصادفات اخرى ادعى الى الاثارة والابتهاج الغامر : ان المصادفة التي رفعتني من العوز الى الغنى هي شيء حقيقي ، مسألة من مسائل العالم الواقعي ، ليس فيها اية نفحة من نفحات المثالية . ان كل المعاني المتصلة بها معانٍ حقيقية وهادئة ، وكذلك ظواهرها جميعا . وان المرء لا يشب ، لدن وقوعها ، ولا

يقفز ، ويهتف هتاف الفرح والنصر . لا ، فهو ما ان يسمع انه امسى صاحب ثراء حتى يشرع في التفكير في التبعات ، وينصرف الى التأمل في قضايا العمل والتجارة وما اليها . وعلى اساس من الرضا الراسخ تنهض بعض الهموم الكثيرة - وعندئذ نتمالك انفسنا ، ونستغرق في تأمل السعادة وقد زوينا ما بين اعيننا .

وفوق هذا ، فأن تعبيرَيَّ « الارث » و « الارث المخلف بوصية » يجريان جنباً الى جنب مع لفظتي « الموت » و « الجنائزة » . فقد سمعتُ ، مع نبأ الثروة التي آلت الي ، ان عمي - وهو نسبي الاوحد - قد مات . كان الامل قد راودني ، منذ عرفتُ بوجوده ، بأن اراه ذات يوم ، وهنا ان املي ذاك يتلاشى ولن يُقدَّر لي ان اري عمي ابد الدهر . دز على ذلك ان هذه الثروة هبطت علي وحدي ، انا الفتاة التي لا انسباء لي ، ولم تهبط علي وعلى اسرة متهلة . لقد كانت نعمة كبرى من غير ريب ، وخليقٌ بتحرري من الفقر ان يكون شيئاً في غاية الروعة - اجل ، لقد استشعرت هذا - وكان في تلك الفكرة ما افعم قلبي بالارتياح .

وقال مستر ريفرز « ها قد حُلَّت عقدة جبينك اخر الامر . وكنت حسبت ان « مدوسة » قد نظرت اليك ، وانك قد انقلبت الى حجر . . . ولعلك الان ان تسأليني ما مبلغ ثروتك ؟ »

- « ما مبلغ ثروتني ؟ »

- « اوه ، شيء هزيل ! انه ليس شيئاً يستحق الذكر ، طبعاً ! عشرون الف جنيه . . . ذلك ما ورد على السنتهم في ما احسب . ولكنه مبلغ تافه ، اليس كذلك ؟ »

- « عشرون الف جنيه ؟ »

وكان ههنا مبعث دهش جديد . فقد كنت على مثل اليقين من ان التركة لا تزيد على اربعة الاف جنيهه او خمسة الاف جنيه . فاذا بهذا النبأ يقطع انفاسي ، حقاً ، لحظة قصيرة . وهنا ضحك مستر سانت جون ، وهو الرجل الذي لم اسمعه يضحك قط من قبل .

وقال : « حسناً ، لو انك كنت قد ارتكبت جريمة قتل فحُت اقول لك ان جريمتك قد اكتُشفت اذن لما شُد هت باكثر مما شُد هت الان . »

- « انه مبلغ ضخم . . . الا تعتقد ان ثمة خطأ ؟ »

- « ليس ثمة خطأ البتة . »

- « ربما قرأت الرقم على نحو مغلوط . . . انه قد يكون الف جنيه ! »

- « لقد كتب المبلغ بالحروف ، لا بالارقام : عشرون الفا . »

وكرة اخرى استشعرت وكأنني شخص متوسط الشراهة يجلس

Medusa ، في الميثولوجيا اليونانية ، احدى ثلاث شقيقات كانت لرؤوسهن بدل الشعر افاع وثعابين . (المغرب)

وحده الى مائدة افعمت بما يشبع مئة طاعم . وهنا نهض مستر ريفرز ،  
وارتدى معطفه وقال :

- « لو لم تكن هذه الليلة بالغة الضراوة لارسلت حنة للبقاء الى  
جانبك ، اذ يبدو لي انك اشد تعاسة من ان تتركي وحيدة . ولكن مسكينة  
هي حنة ! انها لا تحسن التخويض في الثلج كما افعل . ان رجلها ليست  
طويلتين مثل رجلي . وهكذا يتعين علي ان اتركك لاحزانك . طاب مساؤك » .  
وكان يرفع مزلاج الباب حين خطرت لي فكرة مفاجئة .  
وصحت : « قف دقيقة واحدة » .  
- « ماذا تريدن ؟ »

- « ان بي لشوقا عنيفا الى ان اعرف لماذا كتب اليك مستر بريغز  
في شأني ، وكيف عرفك ، او كيف استطاع ان يتخيل ان في امكانك - انت  
المقيم في مثل هذا الموطن النائي - ان تساعده في العثور علي . . . »  
فقال : « اوه ، انا قس » ، والقسس كثيرا ما يفزع اليهم في القضايا  
الغريبة » . وكرة اخرى ، صرّ مزلاج الباب .

فهمت : « لا ، هذا لا يقنعني ! » والواقع انه كان في ذلك الجواب  
المتعجل المتعصب شيء اثار فضولي اكثر من ايما وقت مضى ، بدلا من ان  
يسكنه ويلطفه .

واضفت قائلة : « انها لمسألة عجيبة جدا . ويتعين علي أن اعرف  
عنها اكثر من هذا القدر » .  
- « في فرصة اخرى » .

- « لا : الليلة ! . . . الليلة ! » وفيما كان يبتعد عن الباب بعض الشيء  
اقحمت نفسي بينه وبين ذلك الباب . فبدت عليه امارات الارتباك .  
وقلت : « لا ريب في انك لن تمضي لسبيلك الا بعد ان تنبئني  
بكل شيء ! »

- « انا اؤثر ان لا افعل ، في هذه اللحظة بالذات » .  
- « بل سوف تفعل . . يتعين عليك ان تفعل ! »  
- « اؤثر ان تنبئك ديانا او ماري بذلك » .

وكان طبيعيا ان تثير هذه الاعتراضات لهفتي وتشوقي حتى الاوج .  
فلم يكن بد من اشياعهما ، ومن ان يتم ذلك في غير ابطاء . ولقد عبرت له  
عن ذلك كله فأجاب :

- « ولكنني اعلمتك اني رجل عنيد يصعب اقناعه » .  
- « وانا امرأة عنيدة . . . من المستحيل مماطلتها » .

وتابع قائلا : « والى هذا ، فانا بارد لا تحركني ايما حرارة » .  
- « اما انا فملتهبة » . والنار تذيب الثلج . ان نار الموقد الذي هناك قد



اذابت الثلج كله عن معطفك ، واسالته كذلك على ارض مطبخي ، فجعلتها  
اشبه شيء بطريق تدوسها الاقدام . واذا كنت تريد ، يا مستر ريفرز ،  
ان تحظى بالعفو عن الجريمة الكبرى التي ارتكبتها عندما لوئت مطبخا  
مفروشا بالرمل فليس عليك الا ان تنبئني بالذي ارغب في معرفته .

فقال : « حسن ، اذن ، سوف اذعن . . ان لم يكن لحماستك ،  
فلماوظبتك . كالحجر تبليه قطرات الماء المتساقطة على نحو موصول .  
والى هذا فلا بد لك من ان تعرفي ذات يوم . . . عاجلا كان ذلك اليوم ام  
أجلا . ان اسمك جين ايير ، اليس كذلك ؟ »

- « طبعاً . لقد حُسِمت هذه المسألة من قبل . »

- « لعلك لا تعلمين اني سَمَيْتُكِ . . ان اسمي هو سانت جون ايير

ريفرز ؟ »

- « لا ، من غير ريب ! انا اذكر الان اني رأيت الحرف « أ » ضمن  
حروف اسمك الاولى المدونة على تلك الكتب التي اعرتني اياها في مناسبات  
مختلفة . ولكنني لم اتساءل مرة واحدة اي اسم يمثل . ولكن ماذا  
بعد ؟ لا ريب في . . . »

وامسكت عن الكلام . ذلك بأنني لم اكن واثقة من قدرتي على تقبُّل ،  
بلِّه على التعبير عن ، الفكرة التي خطرت لي على نحو مفاجئ . . . والتي  
تجسَّدت . . . وانتصبت - في ثانية واحدة - امرا مرجحاً الى ابعد حدود  
الترجيح . لقد تواءمت الاحداث ، وتناغمت . وانتظمت في نَسَقٍ . ان  
السلسلة التي كانت حتى تلك اللحظة كتلة من الحلقات لا شكل لها قد  
سُحبت الان على نحو قويم . . . فاذا كل حلقة فيها كاملة ، واذا الصلة  
بين الحلقات تامة . لقد عرفت بالفريزة - حتى قبل ان يقول سانت جون  
كلمة اضافية - حقيقة الوضع . ولكنني لا استطيع ان اتوقع ان يكون لدى  
القارئ مثل هذا الادراك الحدسي ، وهكذا يتعين علي ان اكرر شرحه للمسألة :

- « كانت امي من آل ايير . وكان لها اخوان اثنان ، احدهما قس  
تزوج من مس جين ريد الفايتسهيدي ، والاخر السيد جون ايير التاجر  
الراحل الذي كان يقيم في فونشال عاصمة ماديرا . وفي شهر آب (اغسطس)  
الماضي كتب الينا مستر بريغز ، بوصفه محامي مستر ايير ، رسالة طواها  
على نعي خالنا ، واعلمنا فيها انه ترك ثروته لابنة اخيه القس ، اليتيمة ،  
متجاهلا ايانا بسبب من نزاع - لم تستطع الايام ان تسحب عليه ذيل  
النسيان - كان قد نشب بينه وبين ابي . ولقد عاود الكتابة منذ بضعة  
اسباع ليعلمنا بأن الوارثة لم يُعثر لها على اثر ، وليسألنا ما اذا كنا نعرف  
ايما شيء عنها . ثم انني اهتديت اليها بفضل اسم كان قد كُتِب مصادفة  
على قصاصة من ورق . اما البقية فانت تعرفينها . »

وكرة اخرى حاول ان يمضي لسبيله ، ولكنني اسندت ظهري الى  
الباب حائلة بينه وبين ذلك ، وقلت : « دعني اتكلم . امنحني دقيقة واحدة

حتى أخذ نفسا وافكر .

وامسكت عن الكلام . وكان واقفا تجاهي ، رابط الجاش ، وقبعته  
في يده . ولكنني ما لبثت ان استطردت قائلة :

« لقد كانت امك شقيقة ابي » .

« نعم » .

« وبالتالي فهي عمتي ؟ »

فحنى رأسه .

« لقد كان عمي جون ، اذن ، هو خالك جون ؟ وانت ، وديانا ،

وماري ابناء اخته ، كما انني ابنة اخيه ؟ »

« هذا شيء لا مجال لانكاره » .

« واذن فانتم ثلاثتكم ابناء عمتي ؟ واذن فنصف الدم الذي يجري

في عروقي وفي عروقكم يتفجر من ينبوع واحد ؟ »

« اجل ، آن رباط الخوالة ليشدنا اليك » .

وسرحت بصري فيه . وبدالي وكأنني عثرت على أخ . . أخ

استطيع أن افخر به . . . استطيع ان احبه . وعلى اختين كانت سجاياهما

من السمو بحيث اوقعت في نفسي - يوم كانتا عندي مجرد غريبتين -

محبّة خالصة واعجابا اصيلا . أن الفتاتين اللتين كنت قد حدقت اليهما -

اذ ركعت على الارض الندية واختلست النظر من خلال نافذة مطبخ « مور

هاوس » الخفيضة ذات الشعرية - تحديقنا انطوى على مزيج مرير من

الشوق واليأس لم تكونا غير نسيبتين من اقربائي الادنين . وان الفتى المهيب

الذي وجدني شبه محتضرة عند عتبة داره لم يكن غير ابن عمتي لحنّا .

اكتشاف ماجد بالنسبة الى بائسة متوحدة ! اكتشاف كان في الواقع بمثابة

ثروة ! ثروة للفؤاد ! ومنجم للمحبة البهيجة الخالصة . كانت هذه نعمة ذات

اشراق وحيوية وابهاج - لا كمنحة الذهب الثقيل . انها مثلها غنية محببة الى

النفس ، ولكنها تحرر من ثقلها . وهنا رحت اصفق في جدل مفاجيء - لقد

تسارعت نضات قلبي ، واهتزت عروقي طربا .

وهتفت : « اوه ، انا سعيدة ! . . . انا سعيدة ! »

واتسّم سانت جون وسألني : « الم اقل لك انك اهملت النقاط الاساسية

لكي تتعقبي توافه ليس لها كبير شأن ؟ لقد غلب عليك الوقار عندما انبأتك

بانك ورثت ثروة . وها انت ذي الان يغلب عليك الاهتياج لمسألة غير

ذات خطر » .

« ما الذي يمكن ان تعنيه ؟ قد لا تكون هذه المسألة ذات خطر

عندك . ان لك شقيقتين ، فلست تبالي بابنة خال تكتشفها . اما انا فلم

يكن لي احد ، وها ان ثلاثة انسباء - او نسيبتين ، اذا آثرت ان لا تُعدّ

معهما - قد ولدوا الان في عالمي اليافع . اكرر القول من جديد اني سعيدة ! »

وانشأت اذرع الحجر في خطي واسعة . ثم ما لبثت ان توقفت

نصف مختنقة بالافكار التي راودتني بأسرع مما استطعت ان استقبل وافهم وابت... وكانت افكارا تدور على ما قد يكون ، وما يمكن ان يكون ، وما ينبغي ان يكون ، وذلك قبل انقضاء فترة من الوقت طويلة . ونظرت الى الجدار العاري : لقد بدا في عيني سماء حافلة بالنجوم ، كل نجم منها هداني الى غرض او مسرة . ان في ميسوري الان ان افيد اولئك الذين انقذوا حياتي ، والذين احببتهم - حتى تلك اللحظة - حبا عاقرا عقيما . كانوا يرزحون تحت نير ثقيل ، ففي طاقتي ان احررهم . وكانوا مشتتين ، ففي مستطاعي ان اجمع شملهم . ان الغنى والبجوحة اللذين افاءهما الله علي ممكن اسباغهما عليهم ايضا . الم تكن اربعة ؟ اننا اذا قسمنا العشرين ألف جنيه ، في ما بيننا جميعا بالتساوي ، لاصاب كلا منا خمسة الاف جنيه - وهو مبلغ كاف واكثر من كاف : انه يحقق العدالة للجميع ، ويكفل السعادة المتبادلة . وعندئذ لم تعد تلك الثروة حملا انوء تحت ثقله . انها ما عادت مجرد تركة من مال اوصي لي به ... لقد غدت ميراث حياة ، وامل ، وأبتهاج .

اما كيف بدوت فيما كانت هذه الافكار تقتحم عقلي اقتحاما فذلك ما لا استطيع الجزم به . ولكنني سرعان ما لاحظت ان مستر ريفرز كان قد وضع خلفي كرسيًا ، وكان يحاول - في تلافيف ورفق - ان يجلسني عليه . ولقد نصح لي ايضا بان احتفظ برباطة جأشي . ولكنني سخرت من تلميحه الى ضعفي وذهولي ، فرددت يده عني ، وعدت اذرع الحجرة من جديد .

وقلت له : « اكتب غدا الى ديانا وماري ، وقل لهما ان ترجعا الى البيت في الحال . لقد قالت ديانا انه خليف بهما ان تعتبرنا نفسيهما من اهل الثراء لو فازت كل منهما من التركة بألف جنيه ليس غير . وهكذا فان فوز كل منهما بخمسة الاف جدير بان يجعلهما تعيشان في سعة بالغة » . فقال سانت جون : « قولي لي من اين استطيع ان آتيك بكوب ماء ان عليك ، في الحق ، ان تبذلي جهدا لتهدئة مشاعرك » .

- « هراء ! واي ضرب من التأثير سوف يخلفه الارث في ذات نفسك ؟ هل سيبقيك في انكلترا ، ويفريك بالزواج من مس اوليفر ، وبالاخلاق الى الاستقرار مثل اي بشري عادي ؟ »

« انك لتهدين . وان الاضطراب ليغلب على تفكيرك . ويخيل الي اني تعجلت في الاقضاء اليك بذلك التبا تعجلا ما كان ينبغي لي ان اصطنعه . فقد اثار احتياجك الى درجة عجزت قوتك عن احتمالها » .

- « مستر ريفرز ! انك لتخرجني عن طوري ، فانا مالكة زمام عقلي ، وانك انت الذي تسيء فهمي ، او على الاصح تتظاهر بأساء فهمي » . - « حاولي ان تشرحي رأيك علي نحو اوسع بعض الشيء ، فلعلني عندئذ ان اوفق الى فهمك فهما افضل » .

- « اشرح ؟ وهل ثمة ما يحتاج الى شرح ؟ انك لن تعجز عن ادراك

هذه الحقيقة البسيطة ، وهي ان عشرين الف جنيه - المبلغ الذي هو موضوع البحث - اذا قسمت بالتساوي بين ابنة أخ الفقيد واولاد اخه الثلاثة تورث كلا منهم خمسة الاف جنيه . وكل ما اريده منك هو ان تكتب الى اخيتك وتبلغهما نبأ الثروة التي آلت اليهما .

- « تعنين .. التي آلت اليك » .

- « لقد ادليت اليك برأيي في المسألة ، واني غير قادرة على اعتناق اي رأي اخر . انا لست انانية على نحو وحشي ، ظالمة على نحو اعمى ، منكرة للجميل الى حد جهنمي . والى هذا ، فقد عقدت العزم على ان يكون لي بيت وانسباء . انا احب « مور هاوس » ، ولسوف اقيم في « مور هاوس » . انا احب ديانا وماري ، ولسوف اشد نفسي - مدى الحياة - الى ديانا وماري . انه ليسعدني وينفغني ان املك خمسة الاف جنيه ، وانه ليعذبني ويضايقني ان املك عشرين الف جنيه . والى هذا ، فإن هذه العشرين الف جنيه لا يمكن ان تكون ملكي في منطق العدل وان تكن قد امست ملكي في منطق القانون . وهكذا فاني اتخلى لكم عن شيء فائض عن حاجتي بكل ما في الكلمة من معنى . ورجائي اليك ان تكف عن كل معارضة لذلك ، وعن كل مناقشة فيه . فلنتفاهم في ما بيننا ، ولنحسم الامر في الحال ،

- « انك تصدري الان عن حوافز آنية ، على حين ان الواجب يقتضيك ان تسلخي اياما متعددة في تقليب الرأي في مسألة مثل هذه قبل ان يصبح في الامكان ان تُعتبر كلمتك وجيهة » .

- « اوه ! اذا كان كل ما ترتاب فيه هو اخلاصي في ما اقول كنت بذلك راضية : هل ترى عدالة القضية ؟ »

- « الواقع اني اري بعض العدالة ، ولكنها عدالة منافية لكل عرف . والى هذا فإن الثروة بكاملها حق من حقوقك . لقد كسبها خالي بجهوده الخاصة ، ولقد كان له ملء الحرية في تركها لمن يشاء : وانما تركها لك انت . وايا ما كان ، فان العدالة تجيز لك الاحتفاظ بها : ان في ميسورك ، بضمير مرتاح ، ان تعتبرها ملكا خالصا لك » .

فقلت : « المسألة بالنسبة الي هي مسألة شعور بقدر ما هي مسألة ضمير : ان علي ان اطيع احاسيسي وادلها ، فنادرا ما اتحت لي فرصة الاقدام على ذلك . ولو قد أثرت ان تجادلني ، وتعارضني ، وتضايقني سنة كاملة لما استطعت ان اتخلى عن المتعة اللذيذة التي قدّر لي ان المبح منها وميضاً - متعة الوفاء ، على نحو جزئي ، بالتزام ضخم ، واكتساب اصدقاء لي يقيمون على عهدي مدى الحياة » .

فاجاب سانت جون : « هذا ما تخالينه الان . لانك لا تعرفين معنى التملك ، وبالتالي معنى الاستمتاع بالثروة . انت غير قادرة على تكوين المنزلة الرفيعة التي ستمكنك من احتلالها في المجتمع ، وعن المستقبل الباسم الذي ستفتح ابوابه في وجهك . انت غير قادرة ... »

فقاطعته : « وانت ايضا غير قادر ، البتة ، على تخيل التوق الذي يعتمل في نفسي الى حب الاخوة والاخوات . فلم يكن لي في ايما يوم من الايام بيت ، ولم يكن لي قط اخ او اخوات . اما الان فيتعين علي ان يكون لي ذلك ، ولسوف يكون . انت لن تأبى الاعتراف بي اختا لك ، اليس كذلك ؟ »  
- « جين ، اني سوف اكون اخاك . . . . وان شقيقتي سوف تكونان اختيك ، ولكن من غير ما اشتراط لهذه التضحية بحقوقك المشروعة » .

- « اخ ؟ اجل ، ولكن على مبعدة الف فرسخ ! اختان ؟ اجل ، ولكنهما تكدحان كدح العبيد الارقاء في بيوت الغرباء ، بينما أنتخمن أنا بذهب لم أتعب في كسبه قط ولست استحقه ! يا له من ثراء سخيف انعم به ، على حين تخلو جيوبكم انتم من بنس واحد ! ويا لها من مساواة واخاء ! ومن نسب وثيق وقرى حيمة ! »

- « ولكن مطامحك الى الصلات العائلية والسعادة البيئية يمكن ان تتحقق ، يا جين ، بوسائل غير تلك التي تفكرين فيها : في استطاعتك ان تتزوجي » .

- « عدنا الى الهراء ، من جديد ! الزواج ؟ انا لا اريد ان اتزوج ، ولن اتزوج ابد الدهر » .

- « هذا ارسال للكلام على عواهنه . ومثل هذه التوكيدات الخطيرة دليل على الاهتياج الذي ترزحين تحت عبئه » .

- « لا ، أنا لا اطلق الكلام على عواهنه : اني اعرف مشاعري الخاصة ، ومبلغ ما يخامر ذاتي من مقت لمجرد فكرة الزواج . ان ايما امرئ لن يتزوج مني بسائق من الحب ، ولست ارضى لنفسي ان ينظر الناس نظرتهم الى مضاربة تجارية . انا لا اطمع في العيش مع رجل غريب . . رجل اجنبي لا يشبهني البتة ولا تشده الي اية مشاركة وجدانية . انا اريد ذوي قرباي : اولئك الذين استشعر نحوهم انعطافا وميلا بالغين . قل كرة اخرى انك سوف تكون اخي ، فقد احسست ، حين نطقت بتلك الكلمات ، بالرضا والسعادة . أعدّها على مسمعي ، اذا استطعت ، أعدّها في صدق واخلاص ! »

- « احسب ان في استطاعتي ذلك . انا اعلم اني احببت ، دائما اختي » . واعلم على أي اساس تنهض محبتي : الاحترام لقيمتها الذاتية والاعجاب بمواهبها . وانت ايضا فتاة ذات مبادئ وعقل : ان اذواقك وعاداتك لتشبه اذواق ديانا وماري وعاداتهما ، ولقد طالما أنسنت بالاجتماع اليك ، ووجدت في حديثك - منذ فترة بعينها - عزاء نافعا . انا استشعر ان باستطاعتي ، في يسر وعلى نحو طبيعي ، ان افسح لك مجالا في قلبي ، بوصفك نالثة اخواتي واصغرهن سنا » .

- « اشكرك : هذا يكفيني لهذه الليلة . والان ، من الخير لك ان تمضي لسيلك . لانك اذا لبثت مدة اطول كان من الجائز ان تثيرني من جديد ببعض وسائلك المرتابة » .

« والمدرسة ، يا مس ايير ؟ يجب ان نعمل الان ، في ما احسب ، الى اغلاقها » .

« سوف احتفظ بوظيفتي ك معلمة الى ان تجد بديلا عني » .

فافتتر ثغره عن ابتسامة راشحة بالموافقة . وصافحني ، وانصرف .

ولست في حاجة الى ان اروي ، في اسهاب ، ضروب النضال التالية التي خضتها والحجج التي اصطنعتها لكي أسوي المسائل المتصلة بالارث وفق ما أشاء . لقد كانت مهمتي شاقة جدا : ولكن لما كنت قد عقدت النية عقدا لا انفصام له . . . . . ولما كان ابناء عمتي قد رأوا اخر الامر اني كنت مصممة تصميميا حقيقيا لا رجعة عنه على قسمة الثروة بيننا بالتساوي . . . . . ولما كانوا قد استشعروا في قرارة نفوسهم عدالة تلك القسمة . . . . . ولما كانوا الى ذلك قد ادركوا على نحو غرزي انهم لو كانوا مكاني اذن لفعلوا مثل الذي رغبت في فعله على وجه الضبط . . . . . فقد وافقوا اخر الامر على عرض المسألة على هيئة المحكمين . وكان القاضيان اللذان اختيرا لهذه المهمة هما مستر اوليفر وأحد المحامين المقتدرين . وأقررتي كلا الرجلين على رأيي ، فوفقت الى تحقيق ما سعت بسبيله . واعدت وثائق التنازل . واصبح كل منا نحن الاربعة ، انا وسانت جون وديانا وماري ، يملك ثروة كافية .

## ٣٤

ولم يكد كل شيء يُسَوَّى حتى كان عيد الميلاد قد دنا ، وحتى كانت فترة العطلة العامة قد اقتربت . عندئذ اغلقت ابواب مدرسة مورتون ، باذلة جهدي لكي اجعل الفراق غير عقيم ، من ناحيتي . ان الحظ السعيد ليفتح اليد كما يفتح الفؤاد على نحو يدعو الى الاعجاب . ونحن حين نعطي شيئا ما من أصل ما تلقيناه بغير حساب انما نتيح مُنْتَقِسا لغليان احاسيسنا الاستثنائي . وكنت استشعرت ، في ابتهاج ، منذ فترة غير يسيرة ، ان كثيرا من طالباتي الريفيات قد احببنني ، حتى اذا افرقنا استيقنت من حقيقة ذلك الشعور : لقد عبرن عن محبتهم في بساطة وفي قوة . ولشد ما كان سروري عظيما عندما وجدت اني احتل ، فعلا ، مكانا رفيعا في قلوبهن الطاهرة : لقد وعدتهن بأن لا يعبر بي في المستقبل ، اسبوع واحد من غير أن اقوم بزيارة لهن في المدرسة ، ومن غير ان اعطيهم درسا يستغرق ساعة كاملة .

ووفد مستر ريفرز علينا لحظة استعرضت الطالبات ، اللواتي كان عددهن قد بلغ ستين ، وقد انصرفن من المدرسة على نحو نظامي ، ولحظة اوصدت الباب ووقفت والمفتاح في يدي اتبادل بضع كلمات وداعية خاصة مع نصف دزينة من افضل طالباتي : فتيات كان خليقيا بالمرء ان لا يجد في طول الريف البريطاني وعرضه نساء يَفْقُنهن أدبا وقدرا ، وخفرا ، وحسن اطلاع . وليس بالقليل هذا المديح . لان أهل الريف البريطاني اعلى ثقافة ، وخير اخلاقا ، واشد احتراما للنفس من ابناء الريف في ايما بلد اوروبي اخر .

فقد قدّر لي منذ تلك الايام ان القى كثيرا من الريفيات فبدا لي ان خيرهن كن جاهلات ، جافيات ، حمقاوات بالقياس الى فتياتي المورتونيات .

وسألني مستر ريفرز عندما انصرفن : « هل تعتبرين انك فزت بالشواب الذي تستحقينه لقاء شهور الكدح التي أنفقتها هنا ؟ أليس في شعورك بأنك قد اسديت خدمة حقيقية ما لابناء عصرك وجيلك ما يوقع في نفسك البهجة ؟ »  
- « من غير ريب » .

- « وأنت لم تكدحي الا شهورا قليلة جدا ! أليس خليقا بالحياة الموقوفة لخدمة أبناء جنسك ان تكون حياة قد أنفقت على وجه صالح ؟ »  
فقلت : « أجل ، ولكنني لا استطيع ان اسلخ العمر كله على هذا النحو . انا ارغب في ان استمتع بملكاتي الخاصة بقدّر رغبتني في تثقيف ملكات الآخرين . بل ان علي ان استمتع بها الان ، فلا تدعْ عقلي أو جسدي للعودة الى المدرسة . اني الان خارج بابها ، واني لعلى اتم الاستعداد لولوج باب العطلا الكاملة » .

عندئذ ران على وجهه الغم . وقال : « ثم ماذا ؟ ما هذه اللفهة المفاجئة التي تنكشقين عنها ؟ ما الذي تعتمزين ان تفعلينه ؟ »

- « ان انشط . . . ان انشط ما وسعني ذلك . وقبل كل شيء يتعين علي ان اتوسل اليك ان تحرر حنة ، وتعهد في أمر السهر على راحتك الى شخص آخر » .  
- « وهل تريدونها ؟ »

- « أجل ، اريد ان تصحبني الى «مور هاوس» . ان ديانا وماري سوف ترجعان الى البيت بعد اسبوع ، وانا اريد ان يكون كل شيء مرتبا استعدادا لاستقبالهما » .

- « الان فهمت . ولقد ظننت بادى الامر انك تودين الابتعاد عن المنطقة في رحلة ما . ان ما وطنت النية عليه خير » وابقى . وحنة سوف تذهب معك » .

- « قل لها اذن ان تكون مستعدة غدا لمرافقتي . وهناك الان مفتاح المدرسة . اما مفتاح كوخى فسوف اعطيك اياه في الصباح » .

وتناوله مني وقال : « انت تتخلين عنه في جدل بالغ . والواقع اني لا أفهم تماما سر طربك . لانني اجهل ماهية العمل الذي تعتمزين ان تتخذي منه بدلا عن ذلك الذي تهجرينه . ترى أي هدف وأي غرض وأي مطعم لك في الحياة الان ؟ »

- « ان هدفي الاول سوف يكون العمل على تنظيف مور هاوس تنظيفا شاملا ( هل تدرك كامل القوة التي ينطوي عليها هذا التعبير ؟ ) من الحجرات الى القبو . ثم فكره بشمع العسل ، والزيت ، وبعدد لا يحصى من الخرق ، حتى يعاود اثلاقله كرة اخرى . أما هدفي الثالث فسيكون ترتيب كل كرسي ، ومائدة ، وسرير ، وسجادة ، في دقة رياضية . وبعد ذلك سأمضي

الى حد دفعكم الى شفير الافلاس بسبب من الاموال الباهظة التي سأنفقها على الفحم الحجري والتراب النفطي ابتغاء ايقاد نارٍ شديدة الضرام في كل حجرة .  
واخيرا فان اليومين اللذين يسبقان موعد وفود اختيك سوف يخصصان من جانبي وجانب حنة لخفق البيض ، وتصنيف الزبيب ، وسحق التوابل ، واعداد حلوى عيد الميلاد ، وتجهيز المواد الضرورية للفظائر الدقاق ، واقامة بعض الشعائر الطبخية الاخرى على نحو لا تستطيع الكلمات ان تحمل عنه ، الى امثالك من اللامطلعين على اوليات الفن ، الافكرة غير وافية . وبالاختصار ، فان غرضي هو ان تكون الاشياء كلها في اكمل حال من الاستعداد لوفود ديانا وماري ، قبل يوم الخميس القادم . ومطمحي ان استقبلهما ، حين تفدان ، استقبالا مثاليا .

فاتررت شفتا سانت جون عن ابتسامة واهنة : كان لا يزال غير مقتنع . وقال : « كل شيء حسن جدا بالنسبة الى اللحظة الحاضرة . ولكني ارجو ، جديا ، ان اجدك ، حين تنحسر موجة الحماسة الاولى ، تتطلعين الى ما هو اسمى بعض الشيء من ضروب التودد العائلي والمباهج البيتية » .  
فقاطعتها : « ولكن هذه هي خير ما يملكه العالم » .

- « لا ، يا جين ، لا . هذا العالم ليس موطن ابتهاج ، فلا تحاولي ان تجعليه كذلك . وليس موطن راحة ، فلا تجعليه كسولا » .  
- « اني اعترم ، على العكس ، ان اعمل في همة ونشاط » .

- « اني اعذرک ، مؤقتا ، يا جين . وامنحك مهلة شهرين للاستمتاع الكامل بوضعك الحديد ، ولا بهاج نفسك بسحر القربى هذا الذي لم تكتشفه الا مؤخرا . اما بعد انقضاء هذين الشهرين فأرجو ان تشرعي في التطلع الى ما وراء « مور هاوس » ومورتون ومجتمع الاخوات الضيق ، والسكون الاناني والرفه الحسي الملازمين للبحبوحة المتمدنة . ارجو ان تعود طاقاتك الى ازعاجك ، كرة اخرى ، بقوتها ونشاطيتها » .

فنظرت اليه في دهش ، وقلت : « سانت جون ، يخيل اليّ انك يجب ان تكون شريرا ، تقريبا ، حتى تتكلم على هذا النحو . ايرودني نزوع الى التمتع بالطمأنينة ، مثل ملكة من الملكات ، وتحاول انت ان تدفع بي الى دنيا القلق ؟! اية غاية تطمح في تحقيقها من وراء ذلك ؟ »

- « أنا اطمح في ان ارى الناس يفيدون من المواهب التي آثرك الله بها وجعلها امانة لديك ، والتي لا بد ان يسألك ذات يوم ان تقدمي اليه عنها حسابا دقيقا . اني سوف اراقبك عن كثب وفي لهفة ، يا جين ، فخذني حذرک . وحاولي ان تكبحي جماح الحماسة البالغة التي تندفعين بها نحو المباهج البيتية المبتذلة . لا تشبثي بهذا الاصرار كله ، بروابط الجسد . ادخري جلتدك وحماسك لقضية لائقة . اجتنبي تبديدهما في اشياء تافهة زائلة . هل تسمعين ما اقله ، يا جين ؟ »

- « نعم ، تماما وكأنك تتكلم باللغة اليونانية . أنا اشعر ان التماسي



السعادة هو في ذات نفسه قضية لا نقية ، وسوف انعم بالسعادة . الى اللقاء ! ،

والواقع اني نعمتُ في « مورهاوس » بالسعادة ، واني عملت في جد ونشاط . وكذلك كان شأن حنة : لقد فتنها ما رأت من عظيم ابتهاجي وسط صخب بيت قلب رأسا على عقب ، وما تكشفته عنه من براعة في نفث الغبار ، والفرك بالفرشاة وفي التنظيف والطهو . وكان مما ابهج نفسي ، في الواقع بعد يوم او يومين من الفوضى المبلبلة ، ابهاجا تدريجيا ان نستخرج من ذلك العناء الذي احدثناه بأيدينا نظاما وترتيباً . وكنت قد شخصت قبل ذلك الى بلدة س. ٠٠٠ لاشترى بعض الاثاث الجديد ، بعد ان فوضني ابناء عمتي باجراء أية تعديلات تحلو لي ، وبعد ان أفرّد مبلغ من المال لهذا الغرض . لقد تركت حجرتي القعود والنوم العاديتين مثلما كانتا تقريبا ، ذلك بأنني ادركت ان ديانا وماري خليق بهما ان تسعدا بتكحيل طريقيهما من جديد بروية الطاولات والكراسي والسرر القديمة الساذجة أكثر مما تسعدان بمشهد التجديدات الأشد امعانا في الاناقة . ومع ذلك فلم يكن من بعض التجديد بُد لكي اضفي على عودتهما تلك الروعة التي رغبتُ في ان تجلبب بها . وانما حققت هذه الغاية من طريق شرائي بعض البسط والستائر الجديدة الانيقة الداكنة ، ومجموعة من التحف العتيقة المصنوعة من الخزف والبرونز اختيرت في كثير من العناية ، واغطية ومرايا ، وصناديق تجميل لموائد الزينة جديدة . لقد بدت كلها ناضرة من غير ان تكون متوهجة . وكان ثمة حجرة استقبال وحجرة نوم احتياطيتان فأعدت تأنيثهما إعادة كاملة برياش مصنوع من خشب الماهوغاني ومجتل بنسيج قرمزي . حتى اذا تم لي ذلك كله اعتبرت «مورهاوس» نموذجا كاملا للاناقة المشرقة المتواضعة ، من داخل ، بقدر ما كان ، في هذا الفصل ، نموذجا للاقفار الشتوي وللوحشة الصحراوية من خارج .

واخيرا أطل يوم الخميس المشهود . وكان وصولهم مرتقباً حوالي العتمة . وقبل الفسق اضربت النيران في مواقد الدورين الاعلى والادنى . وكان المطبخ في ذروة النظام والترتيب . ورفلت انا وحنة بحلل قشبية ، وكان كل شيء مُعداً .

وكان سانت جون اسبق الثلاثة الى الوصول . وكنت قد رجوته ان ينأى بنفسه عن البيت ريثما يرتب كل شيء . والواقع ان مجرد التفكير في ذلك الهرج والمرج ، الحقيرين التافهين ، القائمين على قدم وساق ضمن جدرانها كان كافيا لترويعه حتى النفور . وألفاني ، لدن وصوله ، في المطبخ ، اشرفُ على اعداد بعض الكعك المحلّى للشاي وخبزِهِ . فدنا من الموقد وسألني : « هل رضىت نفسك ، اخر الامر ، باداء مهام الخدم هذه ؟ » فكان جوابي ان دعوته الى مرافقتي لالقاء نظرة عامة على ثمره اعماله تلك . وفي شيء من العسر اقنعتة بالقيام بجولة في البيت . فكان يكتفي بالوقوف لدى الابواب التي فتحتها وبالبقاء نظرة على الحجرات من غير ان يدخلها . حتى اذا

طاف بالدورين العلوي والسفلي قال اني لا بد ان اكون قد كلفت نفسي قدرا كبيرا من المشقة والبلاء لكي اجري هذه التغييرات الضخمة كلها في مثل تلك المدة الوجيزة . ولكنه لم ينطق بأية كلمة تنم عن ابتهاجه بمظهر بيته المحسن .

واحمد صمته ذاك جذوة حماستي . وخيل الي ان التعديلات كانت قد عُدّت على بعض الذكريات القديمة العزيزة على قلبه فحرمته منها . وسألته ، في جرس ذليل من غير ريب ، هل صحيح ما خيل الي أم لا . فأجابني قائلا :

« لا على الاطلاق . على العكس ، لقد لاحظت انك قد احترمت ، في حرص بالغ ، كل ذكرى من تلك الذكريات . والواقع اني أخشى ان تكوني قد اوليت المسألة من تفكيرك اكثر مما تستحق . فكم من دقيقة ، مثلا ، كرّستها لدراسة ترتيب هذه الحجرة بالذات ؟ وبالمناسبة ، هل تستطيعين ان تقولتي لي أين يوجد كتاب كذا وكذا ؟ »

فأرثته المجلد على الرف ، فأنزله عنه ، وانسحب الى مجلسه المألوف عند فجوة النافذة ، وانشأ يطالعه .

والواقع ان ذلك لم يرق لي ، ايها القارئ . كان سانت جون رجلا صالحا ، ولكنني بدأت اشعر بأنه صدق في وصف نفسه عندما قال انه صلب وبارد . فلم يكن لمسرات الحياة ولسماتها البشرية أي سلطان عليه ، ولم يكن يجد في مباحثها الوادعة أي فتنة . صحيح انه لم يعيش ، بالمعنى الحرفي للتعبير ، الا للتطلع والطموح لما هو صالح وعظيم ، ولكنه كان يأبى ان يستريح ابد الدهر ، ويُنكر على الآخرين ان يستريحوا من حوله . وفيما كنت ارنو الى جبينه الشامخ ، الساكن الشاحب مثل حجر ابيض ، والى ملامحه الدقاق المركزة على صفحة كتابه - ادركت فجأة انه لن يكون زوجا ناجحا الا بشق النفس ، وان التي قد يقدّر لها الزواج منه سوف تلقى عنتا ورهقا بالغين . وفهمت ، وكأنما بمثل الالهام ، طبيعة حبه لمس اوليفر ، ووافقته على انه لم يكن غير حب حسي . لقد ادركت الى أي مدى كان يخلق به ان يزدرى نفسه بسبب من ذلك السلطان المحموم الذي فرضه حبه عليه ، ومدى توقه الى خنقه وتحطيمه ، ومدى ارتياحه في قدرة ذلك الحب على ايقاع السعادة على نحو سرمدى في ذات نفسه او ذات نفسها . لقد رأيت انه كان من ذلك المعدن الذي تبدع الطبيعة منه ابطالها - المؤمنين والوثنيين - وواضعي شرائعها ، وسياسيها ، وقوادها الفاتحين ، وانه كان حصنا منيعا تعتصم فيه القضايا الكبرى . أما حين يجالسك على مقربة من المدفأة فكثيرا ما يكون اشبه بعمود ثقيل ، بارد ، كئيب ، وفي غير محله .

وقلت في ما بيني وبين نفسي : « ان حجرة الاستقبال هذه ليست ميدانه . وخليق بسلسلة جبال هيمالايا ، او دغل « قافر » ، وحتى مستنقعات ساحل غينيا الموبوءة بالطواغين ، ان تلائمه اكثر . ان في وسعه ان يجتنب هدوء الحياة البيتية ، فهو لم يخلق لها : ان ملكاته لتصاب هناك بالركود

- انها لا تستطيع ان تنمو ، او تبرز على نحوٍ ينمّ عن ميزاتِها . لقد خلق للكلام والحركة في مواقف الكفاح والخطر - حيث تُمْتَحِن الشجاعة ، وتصطنع الطاقة ، وترهق القوة - فهناك يحظى بالتفوق وينهض بعَبء القيادة . أما امام هذا المستوقد فخليق" بأيما طفل مسرح ان يبرز . انه لمصيب في اختياره حياة التبشير . . . هذا شيء اصبحت ادركه الان ،

وصاحت حنة ، وهي تفتح باب حجرة الاستقبال فجأة : « انهما مقبلتان ! انهما مقبلتان ! » وفي تلك اللحظة نفسها نبج « كارلو » العجوز في ابتهاج . ووثبت 'مندفعة' الى الخارج . كانت العتمة قد هبطت ، ولكنني استطعت ان اسمع قرقرة عجلات عربة . وفي الحال اضأت حنة مصباحا . وكانت العربة قد توقفت عند البوَيْب : وفتح الحوذي الباب ، فترجل منها اولا شكل مألوف لدي ، ثم شكل آخر . وما هي غير دقيقة واحدة حتى غاب وجهي تحت قبعتيهما ، ملامسا اول الامر وجنة ماري الناعمة ثم حليقات شعر ديانا المنسدلة . وضحكتنا ، وقبّلْتاني ، ثم قبلتا حنة ، وربّتتا على ظهر كارلو الذي استبدت به البهجة حتى السُّعار ، وسألْتاني في لهفة ما اذا كان كل شيء جاريا وفق المرام . حتى اذا اكدت لهما ذلك اندفعتا الى داخل البيت .

كانت اوصالهما قد تصلّبت بسبب من رحلة العربة الطويلة المُتَخَضّضة من هويتكروس ، وكانتا مقرورتين بهواء المساء المثلوج . بيد ان قسَمَاتهما العذبة ما لبثت ان انبسطت امام ضياء النار البهيجة . وفيما كان الحوذي وحنة يدخلان الحقائب الى البيت سألتا اين سانت جون . وفي تلك اللحظة اقبل من حجرة الاستقبال ، فطوقت كل منهما ، في آن معا ، عنقه بذراعيها . فقبلهما قبلتين هادئتين ، وفي صوت خفيض رحب بهما ببضع كلمات ، ثم اعتصم بالصمت لحظات ريثما تتحدثان هما اليه . حتى اذا ألمح اخر الامر الى اعتقاده بأنهما لا بد ان تلحقا به ، وشيكا ، الى حجرة الاستقبال ، انسحب الى هناك . وكأنه يَفْزَع الى ملاذ او ملجأ .

وكنّت قد اضأت شمعتيهما لكي تصعدا الى الدور الاعلى ، ولكن ديانا تريثت بعض الشيء لكي تصدر امرها بأكرام الحوذي . حتى اذا تم لها ذلك مضت كلتاهما في اثري . لقد سُرّتَا بما ادخلت على حجرتيهما من تجديد وزخرفة ، واعجبتا بالسناثر والبسط الجديدة ، وبالزهريرات الخزفية المصبّغة على نحوٍ سخّي . وعبّرْتا ، بطيْب نفس ، عن تقديرهما لما فعلت . وابتهجت اذ شمعت ان ترتيباتي تلك جاءت وفق رغباتهما تماما ، وان ما قمت به قد اضاف الى عودتهما البهيجة الى البيت سحرا نابضا بالحياة .

كانت تلك الليلة ليلة عذبة حقا . وكانت بنتا عمتي ، المفعتان بالمسرة ، تفيضان فصاحة في الرواية والتعليق على نحوٍ حجب جنوح سانت جون للصمت : كان سعيدا من غير ريب برؤية اختيه ، ولكنه لم يستطع ان يشاركهما حماستهما وتدفّق حبورهما . لقد سره حَدَثُ اليوم - اعني عودة ديانا وماري - ولكن ما رافق ذلك الحدث من صخب جذلان ، واستقبال طرِبٍ

مهذار ، أثاره واضجره : لقد لمحت انه كان يتوق الى انبلاج فجر الغد الاحفل بالهدوء . وفي اوج ابتهاجنا بتلك الليلة بالذات ، بعد ان تناولنا الشاي بساعة او نحوها ، سمعنا الباب يُقرع قرعا خفيفا ، ودخلت حنة علينا لتعلمنا ان ولدا بائسا قد اقبل ، في تلك الساعة غير المناسبة ، ليطلب الى مستر ريفرز ان يمضي معه الى حيث كانت امه تحتضر .

« أين تقيم هذه المرأة ، يا حنة ؟ »

« عند قنة هويتكروس ، على مبعدة اربعة اميال تقريبا . ان الطريق الى هناك كلها طحالب ومستنقعات . »

« قولي له انني سوف اذهب . »

« من الخير لك ان لا تفعل ، يا سيدي . انا على مثل اليقين من هذا . فتلك الطريق هي اسوأ طريق يمكن للمرء ان يجتازها بعد هبوط الليل . والواقع انك لن تجد عبر ذلك المستنقع كله أثرا لقدم . ثم ان الليلة قارسة ، والريح عاتية الى حد لم يُسبق الى مثله . ولعله من الافضل لك ، يا سيدي ، ان تعلم القوم انك سوف تغد عليهم في الصباح . »

ولكنه كان قد امسى الان في الرواق ، حيث ارتدى معطفه ، ومضى لسبيله من غير اعتراض ، او همهمة . كانت الساعة قد بلغت التاسعة حين انطلق ، وكان الليل قد انتصف عندما عاد . والواقع انه كان جائعا جدا ، متعبا جدا ، ولكنه بدا اسعد مما كان عند انطلاقه . كان قد ادى واجبا ، وبذل جهدا ، واستشعر قوته على العمل وانكار الذات ، فهو الان راضٍ عن نفسه اكثر من ذي قبل .

وطوال الاسبوع الذي تلا امتحن اضطراب سانت جون ، في ما احسب ، بأشد البلاء واقساه . كان هو اسبوع عيد الميلاد : اننا لم نعكف خلاله على اي عمل ثابت مستقر ، بل انفقناه في ضروب من العبث المنزلي المرح . وكان لهواء السباح ، والتحرر المنزلي ، وفجر الرخاء مثل الاكسير المحيي في نفسي ديانا وماري ، فهما ترفلان بالبهجة من الصباح حتى الظهيرة ، ومن الظهيرة حتى المساء . كان في ميسورهما ان يتحدثا على نحو موصول . ولقد وجدت في حديثهما الفكاهة ، الخصب ، الاصيل مفساتن كثيرة اغرتني بأن أثر الاستماع اليه والمشاركة فيه على القيام بأيا عمل اخر . ولم ينتهرا سانت جون على ما انغمسنا فيه من مرح ، ولكنه نأى بنفسه عنه : كان نادرا ما يلبث في البيت . لقد كانت ابرشيته مترامية الاطراف ، وكانت رعيته متناثرة في ارجائها ، ولقد وجد في زيارة المرضى والفقراء في مختلف بقاعها عملا يملأ وقته كل يوم على نحو موصول .

وذات صباح ، وكنا نتناول الفطور ، سألته ديانا بعد ان استغرقت في التفكير بضع دقائق : « الا تزال خططك على حالها لما تتبدل ؟ »

فكان جوابه : « انها لما تتبدل ، وانها غير قابلة للتبديل . ومن ثم انبأنا ان موعد مغادرته انكثرة قد حُدِّد الان ، وان ذلك سيتم في العام

## التالي .

فبالت ماري : « روزاموند اوليفر ؟ » وقد بدا وكأن هاتين الكلمتين ندبا من شفيتها على نحو غير ارادي ، اذ انها ما كادت تنطق بهما حتى اومات ايماء خيل الي و كانها انما قصدت بها الى استردادهما . وكان في يد سانت جون كتاب - اذ كان من عاداته غير الاجتماعية ان يطالع خلال تناول الطعام - فطواه ، ورفع بصره قائلا :

- « روزاموند اوليفر على وشك ان تزوج من مستر غرابي ، وهو واحد من اكرم ابناء بلدة س . . . محتدا واشرفهم مكانة ، وحفيد السير فريدريك غرابي ووريثه . ذلك شيء انبائي به ابوها ، امس » .

نظرت كل من شقيقتيه الى الاخرى ، ثم نظرتا الي . ونظرنا ثلاثنا بعد ذلك اليه : كان رائقا باردا كالبور .

وقالت ديانا : « يجب ان تكون الخطبة قد تمت على عجل . اذ ما كان في ميسور احدهما ان يعرف الاخر معرفة طويلة » .

- « لقد تعارفا منذ شهرين ليس غير . وانما كان اول لقاء بينهما في شهر تشرين الاول ( اكتوبر ) في حفلة المقاطعة الراقصة في بلدة س . . . ولكن حيث لا عقبات تعترض الزواج ، كما هي الحال في هذه القضية . وحيث يكون القران مرغوبا فيه كيفما نظرت اليه ، فلا محل للتأخير . ان كل ارجاء خليق به ان يكون ، ثمة ، امرا غير ضروري . وهكذا سيتم زواجهما حالما 'ينجز اعداد ' قصر س . . . » - الذي تخلى السير فريدريك لهما عنه - لاستقبالهما .

وحين وفقت للمرة الاولى بعد اعلان هذا النبأ الى الاجتماع بسانت جون على انفراد استشعرت رغبة ملحة في استطلاع امره ومعرفة ما اذا كان الحدث قد اوقع في نفسه اسي بالغا ، ولكنه بدا غير محتاج الى العطف البتة ، فلم اغامر بمواساته ، بل خامرني شيء من الخجل اذ تذكرت ما كان قد سلف لي ان خاطرت به من ذلك . والى هذا ، فاني لم اعد آلف عادة التحدث اليه : كان الجليد قد كسا تحفظه كرة اخرى ، وكانت صراحتي قد انجمدت تحته . ولم يف بوعده اياي ان يعاملني كما يعامل اختيه . فقد ظل يميز بيني وبينهما ، على نحو موصول ، تمييزا ضئيلا اخمد جذوة المودة ولم يتح لها في مجال النماء البتة . وبكلمة مختصرة ، استشعرت الان ، بعد ان عرفت فيه نسيبا لي وعشت معه تحت سقف واحد ، ان الشقة بيننا امست اوسع بكثير مما كانت يوم لم يعرفني الا كمعلمة في مدرسة قروية . وحين تذكرت الى اي حد فتح لي قلبه ، ذات مرة ، استغلق علي فهم برودته الحالية .

واذ كان الامر كذلك فقد استشعرت دهشا غير يسير البتة عندما رفع رأسه فجأة عن منصدته التي كان منحنيا فوقها ، وقال :

- « وهكذا ترين ، يا جين ، اني خضت غمار المعركة وخرجت منها

منتصرا » .

واذ اجفلت' لتوجيهه الخطاب الي على هذا النحو فاني لم اعمد الى الرد عليه في الحال . وبعد لحظة من التردد قلت :

« ولكن اوافق انت من انك لست في وضع كوضع اولئك الفاتحين الذين كلفتهم انتصاراتهم ثمنا اعلى مما ينبغي ؟ الن يؤدي انتصار اخر مماثل الى القضاء عليك ؟ »

« لست اظن ذلك . وحتى لو كان هذا صحيحا فانه لن يعني شيئا كثيرا . انا لن ادعي ابد الدهر للكفاح من اجل انتصار اخر كهذا الانتصار . ان نتيجة الصراع كانت حاسمة : لقد اصبحت طريقي الان لاجبة واضحة ، واني لاحمد الله على ذلك » .

قال هذا وارعد الى اوراقه وصمته .

حتى اذا استقرت سعادتنا المتبادلة ( اعني سعادتي وسعادة ديانا وماري ) على صفة احفل بالهدوء واستأنفنا عاداتنا المألوفة ودراساتنا النظامية شرع سانت جون يأنس الى البيت ويمكث فيه اكثر من ذي قبل : أصبح يجلس معنا في حجرة واحدة طوال ساعات متعاقبة . وبينما كانت ماري ترسم ، وديانا تواصل سلسلة من القراءات الانسيكلوبيدية فرضت على نفسها ( ولشد ما روغني ذلك واذهلني ) القيام بها على نحو نظامي ، وبينما كنت انا اكدح في تعلم الالمانية كدحا ، كان هو عاكفا على تعمق ضرب من العلم الغامض خاص به : اعني التضلع من لسان شرقي كان يعتبر ان تعلّمه ضروري للنجاح في خططه ومشروعاته .

وكان يبدو ، خلال محكوفه ذاك - في زاوية من الحجرة قصية - ساكنا مستغرقا في الدرس الى حد غير يسير . ولكن عينيه الزرقاوين كان من عادتهما ان تهجرا كتاب النحو الغريب وتطوّفا في الحجرة ، لتتركزا في بعض الاحيان علينا نحن ، زميلاته في طلب العلم ، وتخصمنا لمراقبة فضولية باللغة . حتى اذا فاجاناهما تحدقان الينا على هذا النحو للممت كل منهما نفسها وانسحبت في الحال . ومع ذلك فانهما كانتا لا تلبثان ان تحطّتا من جديد ، بين فينة واخرى ، على مائدتنا وكلهما فضول واستطلاع . وكنت اعجب لذلك واتساءل عن مغزاه ، كما عجبت ايضا للارتياح الذي كان لا يفتأ يبديه ، على نحو نظامي ، كلما حلّت مناسبة بدت لي ذات اهمية صغيرة - اعني زيارتي الاسبوعية لمدرسة مورتون . وكان عجبني هذا يتعاضم حتى الانشدهاء في الايام التي تسوء فيها الاحوال الجوية ، فيسقط الثلج ، او يهطل المطر ، او تهب ريح عاتية ... في تلك الايام كانت اختاه تطلبان الي ، في الحاح ، ان لا اذهب الى المدرسة وكان هو لا يني يستخف ، في كل مرة ، بقلقهما وجزعهما ، ويشجعني على اداء المهمة بصرف النظر عن عوامل الطبيعة ، قائلا : « جين ليست على شيء من الوهن والخَوَر اللذين ترغبان في الايحاء بهما اليها . ان في ميسورها ان تحتمل ريحا جبلية ، او وابلا من مطر ، او بضع رقاقات من ثلج بقدر ما يتحملها اي منا . والواقع ان بنيتّها صحيحة ومرنة في آن

معا ، بل انها مؤهلة لاحتمال تقلبات الاحوال الجوية اكثر من كثير ممن يفوقونها قوة وبأسا .

وكننت اذا رجعت ، متعبّة حتى الارهاق في بعض الاحيان ، مجهدة بالصراع ضد الاحوال الجوية ، لا اجرؤ على التشكي ، لاني لمحت ان اقل تدمير كان خليقا به ان يفيظه ويسخظه . كان الجلد يرضيه في جميع المناسبات ، وكان التراخي يضايقه اشد ما تكون المضايقة .

بيد انني اجزت لنفسي ، ذات اصيل ، ان الزم البيت لاني كنت اشكو ، في الواقع ، زكاما . وهكذا مضت اختاه الى مورتون بدلا عني . لقد جلست اقرا شيئا من شعر شيلر ، على حين راح هو يحل طلاسم اوراقه المشرقية المعقدة . حتى اذا انتقلت من الترجمة الى احد التمارين شأت المصادفة ان انظر ناحيته ، فاذا بي الفي نفسي تحت سلطان عينه الزرقاء الآخذة باسباب المراقبة على نحو موصول . هل سلخت فترة طويلة في التحديق الي وتفحصي مرة بعد مرة ؟ لست ادري . لقد كانت تلك العين ثاقبة الى حد بالغ ، ولكنها مع ذلك باردة اكثر مما ينبغي ، حتى لقد غلب علي في تلك اللحظة ضرب من الايمان بالخرافات - لكنني كنت اجالس في تلك الحجرة كائنا غريبا يوقع في النفس ذعرا اسطوريا .

- « ما الذي تفعلينه ، يا جين ؟ »

- « ادرس اللغة الالمانية » .

- « انا اريد منك ان تطرحي الالمانية وتتعلمي الهندستانية » .

- « انت غير جاد في ما تقول ... »

- « انا جاد الى درجة تجعل انصياك لرغبتني امرا واجبا . ولسوف

اشرح لك سبب ذلك » .

وراح يوضح ان الهندستانية كانت اللغة التي عكف هو نفسه على دراستها آنذاك ، وانه كان عرضة - كلما اوغل في مجاهلها - لان ينسى ما تعلمه منها بادىء ذي بدء ، وان ظفّره بطالب يستعيد معه مبادئها مرة ومرة خليق به ان يعينه على مهمته ، اذ يمكنه من تثبيت تلك المبادئ في ذهنه تثبيتا راسخا ، وانه تردد فترة من الزمان بين ان يختارني لهذا الغرض وبين ان يختار احدي اختيه ، ولكن اختياره استقر اخر الامر علي ، لانه لاحظ ان في ميسوري ان انكب على اداء ايما مهمة من المهام انكبابا جلدًا تقصّر كلتاهما عن مثله . فهل اضن عليه بهذا الفضل ؟ ثم انه ختم حديثه بالقول اني لن اضطر ، في اغلب الظن ، الى الاسترسال في التضحية برهة طويلة ، اذ لم يعد يفصله الان عن موعد الرحيل غير ثلاثة اشهر على التكثير .

ولم يكن سانت جون بالرجل الذي يرفض طلبه في استخفاف : كان المرء يستشعر ان كل انطباعة من انطباعات وجهه ، سواء في حال الالم او في حال السرور ، كانت عميقة الخطوط ثابتة . وهكذا نزلت عند ارادته . حتى اذا عادت ديانا وماري وجدت اولاهما ان تلميذتها قد تحولت عنها وتعلمت على اخيها . فضحكت . واجمع رأياها ورأي ماري على ان سانت جون احسن

الاختيار وانه لو حاول اقناعهما بالاقدام على مثل هذه الخطوة لما حالفه التوفيق . فأجاب في هدوء :  
- « اعرف ذلك » .

والقيته استنادا طويل الاناة ، بالغ الجند ، ولكنه كثير المطالب : لقد توقع مني ان ابذل جهدا عظيما . وحين حققت كل ما توقعه مني عبر ، بطريقته الخاصة ، تعبيرا وافيا عن رضاه واستحسانه . وشيئا بعد شيء ، اكتسب سلطانا ما علي سلبني حرية التفكير : لقد كان اطراؤه والتفاته اكثر تقييدا لي من لامبالاته . فلم يبق في مسوري ان اتكلم او اضحك في حرية كلما وجدته في حضرته ، لان غريزة ملحاحة مضجرة كانت تذكرني بان المرح ، اذا ما صدر عني انا على الاقل ، امرٌ بغيض الى نفسه . كنت اعني ان المزاج الجاد والاعمال الجادة كانت وحدها مقبولة لديه ، وكان وعيي هذا من القوة بحيث امسى كل جهد يبذل ، في حضرته ، لسلوك ايما سبيل اخر او مواصلته عبثا لا طائل تحته : لقد هيمن علي سحر شل ارادتي . كان اذا قال لي « اذهبي » ذهبت ، او « اقبلي » اقبلت ، او « افعلي هذا » فعلت . ولكنني لم احب عبوديتي تلك : لقد تمنيت ، مرات عديدة ، لو انه اقام على اهمالي واغفالي .

وذات مساء ، عندما تحلقت واختيه حوله - بعد ان حان موعد ابواننا الى مضاجعنا - لنتمنى له ليلة طيبة طبع على جبين كل منهما قبلة ، جريا على مألوف عاداته . وجريا على مألوف عاداته ايضا بسط يده لي . وهنا هتفت ديانا ، التي اتفق ان جرفتها آنذاك موجة من المرح ( ان ارادة سانت جون لم تستعبد لها ، اذ كانت ذات ارادة لا تقل عن ارادته ، ولكن بطريقة اخرى ، قوة وبأسا ) قائلة :

- « سانت جون ! لقد كان من دأبك ان تدعو جين اختك الثالثة . ولكنك لا تعاملها على هذا النحو : ان عليك ان تقبلها ايضا » .

ودفعتني نحوه . وحسبت ان موقف ديانا هذا مشيرٌ للغيظ حقا ، واستشعرت ارتباكا مزعجا . وفيما كنت مستغرقة هكذا في الحسبان والشعور حتى سانت جون رأسه ، وانزل وجهه الاغريقي الى مستوى وجهي ، وراحت عيناه تسائلان عيني على نحو ثاقب ، وقبّلني . والواقع انه ليس ثمة شيء اسمه القبل الرخامية او القبل الجليدية ، والا لتعين علي ان اقول ان قبلة ابن عمتي الاكليركي كانت تنتسب الى واحد من هذين الضربين . ولكن قد يكون ثمة قبل تجريبية ، ولقد كانت قبلته قبلة تجريبية . ولم يكدها يطبعها على جبيني حتى نظر الي ليستطلع نتيجتها . فاذا هي نتيجة رائعة : فانا واثقة من ان الدم لم يشع في وجهي ، بل لعل لون وجهي امتقع بعض الشيء ، ذلك بأنني استشعرت وكان القبلة كانت ختما ثبتت على اصفادي . ومنذ ذلك الحين لم يغفل هذا « التقليد » البتة ، ولقد بدا وكان الرزاة والسكون اللذين تلقينتهما بهما كانا يصفيان عليه ، عنده ، سحرا خاصا .



اما انا فقد ازددت ، كل يوم ، رغبة في ارضائه . ولكنني استشعرت اكثر فاكثر ، يوما بعد يوم ، ان علي لكي اوفق الى هذه الغاية ان اتنكر لنصف طبيعتي ، وان اكظم نصف ملكاتي ، واحرف اذواقي عن مجراها الاصلي ، واكره نفسي على السعي في سبيل اغراض ومطالب لم اكن اؤانس في نفسي ميلا طبيعيا اليها . لقد ودّ ان يرتفع بي الى سماء ما كان في ميسوري ان ابلفها البتة ، ولقد انهكني التطلع الى المثل الاعلى الذي رفعه لي انهاكا موصولا . فقد كان هذا المطلب متعذرا كتعذر افراغ قسما وجهي غير النظامية في قالب محيّا الكلاسيكي القويم ، او كتعذر اعطاء عيني الخضراوين المتحولتين زرقة البحر التي تصبغ عينيه وذلك البريق المهيب الذي يترقق فيهما .

بيد ان سلطانه علي لم يكن هو وحده الذي استعبدني آنذاك . فقد كان من اليسير علي ، في الفترة الاخيرة ، ان ابدو محزونة النفس : كان بلا مقررّ يحثم علي فؤادي ، ويصوّح سعادتي من جذورها - اعني بلا التردد .

ولعلك تحسب ، ايها القارئ ، اني قد نسيت مستر روتشيستر ، في غمرة هذه التغيرات في المواطن والحظوظ . ولكن لا ، انا لم انسه لحظة واحدة . كان ذكره لا يبرح ذهني ، لانه لم يكن بخارا تستطيع اشعة الشمس ان تبدده ، او صورة مرسومة علي رمل تستطيع العواصف ان تطمسها : لقد كان اسما منقوشا علي لوح ، مقدرا له ان يبقى ما بقي الرخام الذي رقيم عليه . وكان التوق الى معرفة ما قد حل به قد لاحقني في كل مكان . فحين كنت في مورتون كان من دأبي كلما رجعت مساء الى كوكبي ان افكر فيه ، والآن وانا في مور هاوز اراني لا اوي الى مضجعي كل ليلة الا لا طيل التفكير فيه .

وخلال تراسلي الضروري مع مستر بريغز في امر الوصية كنت قد سألته ما اذا كان يعرف شيئا عن مقر مستر روتشيستر الحالي وعن صحته . ولكنه كان ، كما حدس سانت جون من قبل ، جاهلا كل ما يتصل به جهلا مطبقا . عندئذ كتبت الى مسز فيرفاكس اتوسل اليها ان تزودني بمعلوماتها عن الموضوع . وكنت علي مثل اليقين من ان هذه الخطوة سوف تفي بغرضي : لقد خامرتني ثقة بان اقدامي عليها لا بد سيعود علي بجواب عاجل . ولكنني دهشت عندما تصرم اسبوعان اثنان من غير ان اتلقى اي جواب . حتى اذا انسلخ شهران ، والبريد يصل كل يوم ولا يحمل الي شيئا ، امسيت فريسة قلق ليس اعنف منه ولا اقسى .

وكتبت كرة اخرى ، فمن يدري ؟ لعل رسالتي الاولى قد ضاعت . وكان في هذا الجهد المجدّد ما جدّد الامل في نفسي : لقد اشرق هذا الامل ، مثل سابقه ، طوال بضعة اسابيع . ومثله ايضا خبا ، بعد ذلك ، وخفق وكأنه يريد ان يلفظ انفاسه الاخيرة . اذ لم يصلني سطر واحد ، بل لم تصلني كلمة واحدة . وحين تبددت شهور ستة في ترقب لا طائل تحته تلاشى املي ، وغلبت علي الكتابة حقا .

ونور من حولي ربيعٌ حلوه لم يكن في ميسوري ان استمتع به . ودنا الصيف ، وحاولت ديانا ان توقع البشر في نفسي : لقد قالت ان علائم المرض تبدو على وجهي ، واعلنت عن رغبتها في اصطحابي الى شاطئ البحر . ولكن سانت جون عارض ذلك : لقد قال اني في غير ما حاجة الى لهو ، وان ما احتاج اليه هو العمل ، و اضاف قائلا ان حياتي الحالية كانت خلوا من الغرض اكثر مما ينبغي ، وانني كنت في حاجة الى هدف اعمل من اجله . واحسب انه امعن في اطالة دروسي في الهندستانية ابتغاء سد هذا الفراغ وانه امسى اشد الحافا في حملي على انجازها . وكنت انا ، مثل امرأة بلهاء ، لا افكر البتة في مقاومته - لقد عجزت عن مقاومته .

وذات يوم استهللت دروسي وانا اشد كآبة من مألوف عادتي . وانا نشأت هذه الكتابة الاستثنائية عن شعوري بخيبة امل موجهة : كانت حنة قد انبأتني في الصباح ان رسالة قد وردتني ، حتى اذا هبطت الى الدور السفلي لكي اتسلمها ، وانا شبه واثقة من ان الزمان قد جاد علي ، اخر الامر ، بالانباء التي طالما تقت الى سماعها ، لم اجد غير مذكرة تافهة من مستر بريغز حول قضية من قضايا العمل . وكانت الصدمة المريعة قد اعتصرت من عيني بعض الدموع ، وها انا ذا الان - وقد جلست انعم النظر في احد النصوص الهندية ، بحروفه المعقدة وصوره البلاغية المنمقة - استشعر الخيبة المريعة فتفيض عيناى بالدمع ، كرة اخرى .

ودعاني سانت جون الى الجلوس بجانبه والبدء في القراءة . حتى اذا حاولت ان افعل خانني صوتي : لقد ضاعت الكلمات في غمرة التنهدات الناشجة . ولم يكن في حجرة الاستقبال احدهم غيري وغيره : كانت ديانا تتدرب على الاداء الموسيقي في حجرة القعود ، وكانت ماري تعمل في الحديقة - اذ كان ذلك اليوم يوما نوّاريا بالغ الجمال صافيا مشمسا ذا نسيم عليل الى حد بعيد . ولم يعبر رفيقي عن ايما دهش لانفعالي ذاك ، ولم يوجّه الي ايما سؤال عن سببه . لقد اجتزأ بالقول :

- « حسنا ، سوف انتظر بضع دقائق ، ريثما تصبحين اكثر هدوءا ورباطة جأش » .

وبينا كنت اخمد نوبة الانفعال في عجلة بالغة ظل هو هادئا صابرا ، متكئا على قمطره ، وكأنه طبيب يراقب بعين العلم ازمة متوقعة وغير مستغربة في داء مريض من المرضى . حتى اذا خنقت تنهداتي ، وكفكت عبراتي ، وغمغمت بكلام ما مفاده اني كنت منحرفة الصحة ذلك الصباح ، استأنفت عملي ووقفت الى انجازه . وما لبث سانت جون ان نحى كتبه وكتبني ، واغلق قمطره ، وقال :

- « والان ، يا جين . سوف تقومين بنزهة على القدمين . وستقومين بهذه النزهة برفقتي » .

- « سوف ادعو ديانا وماري للذهاب معنا » .

« لا . انا لا اريد هذا الصباح غير رفيق واحد ، هو انت من دون الناس جميعا . ارتدي فستانك ، واخرجي من باب المطبخ . اسلكي الطريق المفضية الى رأس « مارش غلين » ، ولسوف الحق بك بعد لحظة » .

انا لا اعرف اي خطة وسطية . بل لم اعرف طوال حياتي ، في تعاملتي مع ذوي الشخصيات العملية الصارمة المناقضة لشخصيتي ، اية خطة وسطية بين الاذعان المطلق وبين التمرد المصير . ولقد لزمت دائما احدى الخطتين التزاما امينا حتى لحظة الانتقال نفسها - وفي بعض الاحيان في حُميًّا بركانية - الى الخطة الاخرى . واذ كانت ظروف الحاضرة لا تبيح التمرد واذ كان مزاجي الحالي لا يميل الى شيء من مثل ذلك فقد التزمت ، في عناية ، جانب الخضوع لاوامر سانت جون . وما هي غير دقائق عشر حتى وجدتهني اسلك معه جنبا الى جنب درب الوهدة المهجور الذي عيَّنه لي .

كان النسيم يهب من ناحية الغرب : لقد اقبل عبر الهضاب مضمخا بعير نبات الخلنج ونبات سَمَّار الحصر . وكانت السماء زرقاء لا شائبة فيها ، وكان الجدول المنحدر نحو الوادي ، معززا بأقطار الربيع المنصرم ، يندفع صافيا موفورا ، متلَقِّفا من الشمس ومضات ذهبية ، ومن القبة السماوية اصباغا ياقوتية زرقاء . حتى اذا تقدمنا واجتزنا الدرب ، وطئنا ارضا معشوشبة دقيقة الحاشية طحلبية النعومة ، زمردية الخضرة ، مطلَّية الوجه بزهورات بيضاء ومزركشة برياحين صفراء اشبه ما تكون بالنجوم . وفي غصون ذلك اطبقت الهضاب علينا ، ذلك بأن الوهدة تعرجت ، عند قمته ، حتى صميم تلك الهضاب بالذات .

- « فلنسترح هنا ! » كذلك قال سانت جون عندما بلغنا الشوارد الاولى من كتبية صخور كانت تحرس شبه شعب من الشعاب حيث تساقط الجدول على صورة شلال ، وحيث نفّض الجبل - في نقطة ابعد بعض الشيء - عنه ضروب الاعشاب والرياحين ، فليس يكسو جسمه غير نبات الخلنج ، وليس يزين جيده غير الصخور ، وحيث استفتحل المهجور فأمسى وحشيا ، وانقلبت النضارة الى تجهم . هناك كان يعتصم امل العزلة النهائي ، وهناك كان يقوم اخر مفرع يلجأ اليه الصمت .

وقعدت . ووقف سانت جون على مقربة مني ، ورفع بصره الى الشعب ثم خفضه نحو الغور . وتاهت نظراته مع الجدول ، ثم ارتدت لتجتاز السماء الصافية التي لونته . لقد نزع قبعته ، واجاز للنسيم ان يداعب شعره ويقبّل جبينه . لقد بدا وكأنه ينادي جنيّة تلك البقاع ، وبدت عيناه وكأنهما تودعان مخلوقا ما .

وقال في صوت مرتفع : « ولسوف اراها ، كرة اخرى ، في الاحلام ، عندما انام على ضفاف الغانج ، ولسوف اراها بعد ذلك ايضا ، في ساعة اكثر امعانا في البعد - عندما يقهرني رقاد من نوع اخر - على شاطئ نهر اشهد ققاما ، » .

الفاظ عجيبة لحب عجيب ! عاطفة وطني صارم لارض وطنه ! وقعد ،  
وسلخنا نصف ساعة لم ننطق فيها بكلمة البتة . فلا هو وجه الي الخطاب ،  
ولا انا وجهت اليه الخطاب . حتى اذا تصرمت تلك الفترة قال لي :

« جين ، سوف ارحل بعد ستة اسابيع . لقد حجزت لنفسي سريرا  
في سفينة من سفن شركة الهند الشرقية سوف تبحر في العشرين من حزيران  
( يونيو ) » .

فقلت : « حماك الله . ذلك بأنك تعمل في سبيله » .

« اجل ، ففي ذلك مجدي وبهجتي . انا الخادم الامين لسيد معصوم  
عن الخطأ . انا لا اعترم الضرب في الارض تحت لواء قيادة انسانية خاضعة  
لقوانين ناقصة من وضع حشرات ضعيفة مثلي ، ولسيطرة ضالة تفرضها هذه  
الحشرات نفسها . ان ملكي ، ومشرعي ، وقائدي ، هو الكلي الكمال . ومن  
دواعي عجيبي ان لا يتحرق كل من حولي شوقا الى الانضواء تحت الراية  
نفسها - ان لا يشاركوا في المغامرة نفسها » .

« ليس للناس كلهم مثل الذي لك من القوة . وانها لحماقة من جانب  
الضعفاء ان يتوقوا الى الزحف مع الاقوياء » .

« انا لا اتحدث الى الضعفاء او افكر فيهم . انما اوجه خطابي الى من  
هم اهل لذلك العمل ، والى الذين تمكنهم كفاءتهم من انجازه » .  
« هؤلاء قليل . وعسير اكتشافهم » .

« حق ما تقولين . ولكن ما ان نكتشفهم حتى يصبح من حقنا ان  
نثيرهم الى العمل . ان نحثهم ونحضرهم على بذل الجهد . . . ان ندلهم على  
مواهبهم ونشرح لهم السبب الذي من اجله منحوها . . . ان نلقي في آذانهم  
رسالة السماء . . . ان تقدم اليهم ، من لدن الله مباشرة ، مكانا في صفوف  
اولئك الذين اصطفاهم واصطنعهم لنفسه » .

« ليس خليقا بأفئدتهم ذاتها - اذا كانوا مؤهلين فعلا لاداء المهمة -  
ان تكون اول من يشعرهم بذلك ؟ »

لقد شعرت وكان سحرا رهيبا يتكون من حولي وينعقد من فوق رأسي .  
وارتعدت خشية ان اسمع اية كلمة ملفوظة يكون من شأنها ان تعلن ذلك  
السحر وتسمّره .

وسألني سانت جون : « وماذا يقول فؤادك انت ؟ »

فاجبت مصعوقة مروعة : « ان فؤادي ابكم . . ان فؤادي ابكم . . »

فتابع الصوت العميق الذي لا يلين : « اذن فيتعين علي ان اتكلم بالنيابة  
عنه . جين ، امضي معي الى الهند ، امضي معي بوصفك زوجة ورفيقة نضال » .

ودار بي الوادي ، ودارت السماء . وجاشت الهضاب واضطربت ! لقد  
بدا وكأنني سمعت دعوة من السماء - وكان بشيرا غير منظور ، كبشير  
مقدونيا ذاك ، قد اهاب بي : « تعالي الينا وساعدينا ! » ولكنني لم اكن  
بالرسول الذي يوحى اليه . فلم استطع ان ارى البشير . . . ولم استطع ان

اتلقى نداه .

وصحت : « اوه ، سانت جون ! قليلا من الرحمة ! »

ولكنني كنت اناشد امرأة لا تأخذه ، في اداء ما كان يعتقد واجبه ، رحمة او تبكيت صمير . ومن ثم واصل حديثه قائلا :

– « ان الله والطبيعة قد قيَّضا لك ان تكوني زوجة مبشر . ومن هنا فانهما جادا عليك بالمنح العقلية ، لا بالمنح الجسدية : لقد خلقت للكدح ، لا للحب . ويتعين عليك ان تصبحي ، ولسوف تصبحين ، زوجة مبشر . انك ستكونين رفيقة حياتي : انا ادعيك – لا من اجل متعتي الشخصية ، ولكن من اجل خدمة ربي » .

فقلت : « انا غير مؤهلة لهذا . انا لا اؤانس في نفسي اي ميل اليه » .

وكان قد توقع هذه الاعتراضات الاولى ، ومن اجل ذلك لم يثر ولم يسخط . والواقع اني استطعت – فيما اسند ظهره الى الصخرة الشامخة القائمة خلفه وطوى ذراعيه على صدره وثبتت قسما وجهه – ان ارى انه كان قد اعد نفسه لمعارضة طويلة مرهقة ، وانه كان قد تزود من طول الاناة بذخيرة تكفيه حتى تبلغ تلك المعارضة نهايتها ، عاقدا العزم – ايا كانت الحال – على ان تحمل اليه تلك النهاية النصر والغلبة .

فقال : « الاتضاع ، يا جين ، هو اساس الفضائل المسيحية : لقد اصبحت الحقيقة حين قلت انك غير مؤهلة لاداء المهمة . ولكن قولني لي من هو المؤهل لادائها ؟ او من هو الذي دعي فعلا لهذا العمل ، في ايام من الايام ، وآمن بأنه جدير بتلقي النداء ؟ فانا ، مثلا ، لست غير تراب ورماد . واني لاقر ، مع القديس بولس ، بأنني اكبر الآثمين ، ولكنني لا اجيز لهذا الاحساس بالدانة الذاتية ان يروعني او يشبط عزمي . انا اعرف قائدي ، واعرف انه عادل وجبار في آن معا . وانه وقد اختار اداة ضعيفة للنهوض بمهمة عظيمة سوف يمد تلك الاداة – من ذخائر عنايته اللانهائية – بما يجعلها اكثر ملاءمة للغاية المنشودة . فكري كما افكر يا جين . . . . ثقي كما اتق . انما اسألك ان تستندي الى « صخرة الاجيال » لا الى اي شيء اخر . فلا يداخلتك ريب في انها لن تنوء بثقل ضَعْفِكَ البشري ! »

– « انا لا افهم الحياة التبشيرية . ولم يسبق لي قط ان درست

اعمال المبشرين » .

– « هنا استطيع انا ، برغم حقارتي كلها ، ان اقدم اليك العون الذي تحتاجين اليه : في ميسوري ان اعين لك مهمتك ساعة فساعة ، ان اقف الى جانبك على نحو موصول ، ان اساعدك لحظة بعد لحظة . ذلك شيء في ميسوري ان افعله في اول الامر . ولن ينقضي طويل وقت ( ذلك بأنني اعرف ما تتمتعين به من طاقات ) حتى يتم لك من القوة والكفاءة مثل الذي تم لي ، وعندئذ لن تحتاجي الى طلب العون مني » .

– « ما اتمتع به من طاقات . . . ولكن اين هي الطاقات التي تؤهلني

للنهوض بهذه المهمة ؟ انا لا احس بها . ان اياما شيء لا يهتف في باطني ولا يشيرني عندما تتحدث . انا لا استشعر ضياء يشع ، او حياة تتسارع ، او صوتا يرشد او يشجع . اوه ، لشد ما اتمنى لو استطيت ان اريك الى اي حد يشبه عقلي ، في هذه اللحظة ، سبجنا دامس الظلام ليس في اعماقه غير خوف واحد مكبّل بالاصفاد - هو الخوف من ان توفق الى اقناعي فأحاول القيام بمهمة لا اقوى على انجازها ! »

- « ان لدي ردا على هذا ، فاسمعيه . لقد راقبتك منذ التقيتك اول مرة ، جاعلا منك محور دراستي طوال شهور عشرة . وخلال هذه المدة اختبرتكم بضروب من الاختبار شتى . فما الذي رأيته واستنتجته ؟ لقد وجدت انك استطعت ان تؤذي في مدرسة القرية ، في احسان وضبط واستقامة ، عملا غير متناغم مع عاداتك وميولك ، ورأيت انك استطعت ان تؤديه في مقدرة ولباقة : لقد استطعت ان تستميلي قلوب القوم بينا كنت تفرضين سلطانك عليهم . ومن خلال الهدوء الذي تلقيت به نبأ انتقالك المفاجيء من الفقر الى الثروة ، اكتشفت عقلا متحررا من رذيلة ديماس ❀ : ان الكسب المادي ليس له عليك سلطان مفرط . ففي السرعة المصممة التي عمدت بها الى قسمة ثروتك اقساما اربعة ، غير مبقية لنفسك سوى قسم واحد منها ، متخيلة عن الاقسام الثلاثة الاخرى لدعوى العدل المجرد ، تبيّنت نفسا تطرب في لهب الفداء واهتياجه . وفي الوداعة التي اطرحت بها ، نزولا عند رغبتني ، دراسة كانت موضع اهتمامك وتبنيّت دراسة اخرى لاني كنت انا مهتما بها . وفي الكد الدائب الذي اتّسمت به ، منذ ذلك الحين ، مواظبتك عليها . وفي الطاقة اللامتراخية والعزم اللامتزعزع اللذين واجهت بهما مصاعبها . وفي هذا كله عرفت ما يكمل الصفات التي انشدها . جين ، انت لينة العريكة ، دؤوب على العمل ، منزهة عن الاغراض ، مخلصّة ، وفيّة ، شجاعة . وانت بالغة اللطف ، بطولية المنازع الى حد بعيد ، فكفّتي عن الارتياح في نفسك : ان في ميسوري ان اثق بك في غير احتياط ولا تحفظ . وخليق بمساعدتك لي ، بوصفك مديرة مقبلة لبعض المدارس الهندية وزميلة تعينني على نشر الرسالة بين النسوة الهنديات ، ان تكون مساعدة لا تقوّم بمال . »

وانقبض الكفن الحديدي من حولي ، وتقدم الاقتناع في خطي بطينة ثابتة . واغمضت عيني مرة ومرة ، ومع ذلك فقد وفّقت كلماته الاخيرة هذه الى تذليل الطريق التي بدت من قبل مسدودة ، والى جعلها سالكة نسبيا . والواقع ان المهمة التي عرضها علي والتي كانت قد بدت مبهمة جدا مائعة الى حد مغالى فيه ، ما لبثت ان كثّفت نفسها تدريجيا ، بعد كل كلمة من كلماته ، واتخذت - تحت يده الصنّاع - شكلا محددا . وانتظر مني جوابا . فسألته ان يمهلني ربع ساعة اقلب خلالها الرأي ، قبل ان اخاطر ، كرة اخرى ، باعطاء جواب ما .

فقال : « بكل سرور » ونهض . واوسع الخطى مصعدا في الشعب ،

مسافة" ما ، ثم ارتمى على رابية يكسوها نبات الخلنج ، ولزم موضعه هناك ثابتا لا يريم .

وقلت في ذات نفسي : « في ميسوري ان افعل ما يريدني ان افعله : انا مكرهة على ان ارى ذلك واعترف به . اعني اذا ما مدت الاقدار في عمري . ولكنني استشعر ان حياتي لن تطول تحت الشمس الهندية . ثم ماذا ؟ انه لا يبالي بذلك : وما ان تدق ساعة منيَّتِي حتى يسلمني ، في رصانة ويركاملين ، الى الله الذي منحه اياي . ان السبيل جد واضحة امامي . ذلك بانني اغادر - يوم اهجرك انكلترة - ارضا حبيبة ولكنها فارغة - فمستتر روتشيستر ليس هنا . وحتى لو كان هنا فاي معنى لذلك بالنسبة الي ؟ بل اي معنى يمكن ان يكون لذلك ، في ايما يوم من الايام ، بالنسبة الي ؟ ان الواجب يقتضي اني الان ان احيا بدونه : وليس ثمة ما هو اسخف وادل على العجز من ان اسلخ العمر ، متحاملة على نفسي من يوم الى يوم ، وكأنني انتظر ان يطرا على الاحوال والملابسات تغيير متعذر ما ، تغيير قد يوحد ما بيني وبينه من جديد . ولا ريب ( كما قال سانت جون مرة ) في انه يتعين علي ان ابحث في الحياة عن اهتمامات واشواق جديدة استعويض بها عن تلك التي فقدتها : ليس العمل الذي يعرضه الان علي اسنى الاعمال التي يستطيع الانسان ان يتولاها او يستطيع الله ان يعيئها ؟ اليس ذلك العمل ، بهومو النبيلة وثمراته السامية ، اجدر الاعمال بأن يملأ الفراغ الذي خلّفته العواطف الممزقة والآمال المحطمة ؟ اعتقد ان علي ان اقول نعم . ومع ذلك فاني ارتعد . واأسفا ! اني اذا التحقت بسانت جون فعندئذ اهجرك نصف ذاتي : اذا مضيت الى الهند مضيت الى موت مُبْتَسِرٍ فطير . وكيف سأملا تلك الفترة الفاصلة ما بين مغادرتي انكلترة الى الهند وبين مغادرتي الهند الى القبر ؟ اوه ! انا اعرف الجواب معرفة جيدة ! ان هذا جد واضح ، هو الآخر ، امام عيني . اني - من طريق الكدح في سبيل ارضاء سانت جون حتى يلمّ الالم بكل وتر من اوتار عضلاتي - لا بد ان اوفق الى ارضائه . . . . . والى ارضائه حتى اصغر نقطة مركزية من نقاط توقّعه واقصى دائرة خارجية من دوائر امله . وحين اوطد العزم على الذهاب . . . حين اقدم ، فعلا ، على التضحية التي يدعوني اليها في الحاح ، فاني سوف افعل ذلك على نحو كامل غير منقوص : سوف اقدف الى المذبح بكل شيء : بقلبي ، وعقلي ، وسائر اعضاءي الحيوية - بالضحية برمتها . انه لن يحبني البتة . ولكنه سوف يرضى عني . اني ساريه طاقات لم يرها من قبل ، وقدّرات لم يتوقعها في ايما يوم من الايام . اجل ، ان في ميسوري ان اعمل ما وسعني العمل ، وبأقل قدر من التذمر والتشكي .

« واذن ، فالاستجابة الى مطلبه ممكنة : لولا شيء واحد . . شيء رهيب واحد . وهو انه يسألني ان اكون زوجته ، وليس يملك نحوي من قلب الزوج اكثر مما تملكه تلك الصخرة الجبارة المتجهة التي ينحدر الجدول نحوها ، مُزْبدا ، في ذلك الشعب القائم هناك . انه يقدرني كما يقدر جندي سلاحا

صالحا ... هذا كل ما في الامر . وعلى اية حال ، فإن هذا لن يحزنني البتة ما دمت غير متزوجة ، ولكن هل يستطيع ان ادعه يُتم حساباته وتخميناته ... ان ادعه يضع خطته - في برود - موضع التنفيذ ويمضي قدماً في اجراء مراسيم الزفاف ؟ هل يستطيع ان اتلقى منه خاتم الزواج ، واتحمل جميع شكليات الحب ( التي لا اشك في انه سوف يحرص على احترامها في عناية بالغة ) وانا اعلم ان روحه غائبة عن ذلك كله غياباً كاملاً ؟ هل يستطيع ان احتمل مجرد التفكير في ان كل تحبب يفدقه علي لا يعدو ان يكون تضحية يقوم بها من اجل المبدأ ؟ لا . مثل هذا الاستشهاد خليق به ان يكون رهيباً . اني لن اقوى على احتمال ذلك البتة . في ميسوري ان ارافقه كأخت ، ولكن لا كزوجة . ولسوف ابلغه ذلك » .

ووجهت بصري نحو الراية . كان منظرها هناك ، جامداً مثل عمود . والتفت الي ، وعيناه تشعان ببريق يقظ ثاقب . ثم انه وثب واقفاً على قدميه ، وتقدم نحوي .

« انا على استعداد للذهاب الى الهند ، اذا اجيز لي ان اذهب طليقة » .

فقال : « ان جوابك ليحتاج الى تفسير . انه غير واضح » .

« لقد كنت ، حتى هذه اللحظة ، اخي بالتبني وكنت انا اختك بالتبني . فلنستمر على هذه الحال : ان من الخير لك ولي ان لا يجمع الزواج ما بيننا » .

فhez رأسه وقال : « ان اخوة التبني لن تفيد في هذه الحالة . ولو قد كنت اختي الحقيقية اذن لتغير الموقف ، ولصحبتيك من غير ان ابحت عن زوجة . اما وحالنا هي ما هي فنحن بين امرين لا ثالث لهما : اما ان يكرس اتحادنا ويختم بخاتم الزواج ، واما ان لا يكون بيننا اتحاد البتة . ان ثمة عقبات عملية تحول دون اصطناع ايما خطة اخرى . الا ترين ذلك ، يا جين ؟ فكري لحظة ، ولا بد لعقلك الحصيف من ان يهديك سواء السبيل » .

وفكرت . ولكن عقلي ، سواء اكان حصيفاً او غير حصيف ، لم يرشدني الا الى حقيقة واحدة ، وهي ان كلا منا لم يكن يحب الاخر كما ينبغي للزوج والزوجة ان يتحابا . ومن هنا خلص الى القول بأن علينا ان لا نقدم على الزواج . وابلغته نتيجة تفكيري ، قائلة : « سانت جون ، انا اعتبرك اخاً لي ... وانت تعتبرني اختاً لك ... فلنبق على هذه الحال » .

فأجاب في جزم موجز حاد : « لا نستطيع ... لا نستطيع . ان ذلك لن يفيد . لقد سبق لك ان قلت انك سوف تذهبين معي الى الهند : تذكري ... لقد قلت ذلك » .

« ولكنني قيدته بشرط » .

« حسن ... حسن ... انك لا تعترضين على النقطة الاساسية - وهي مرافقتي في الهجرة من انكلترا والتعاون معي في اعمال المصلحة - لقد شرعت ، او كدت ، في الاقدام على عمل عظيم ، وانك لتتمتعين بحظ من



الثبات والاستقامة يجعل من العسير عليك ان تتراجعني عن ذلك . ان ثمة غاية واحدة يجب ان تضعيها نصب عينك ، وهي : ما السبيل الى اداء العمل الذي اخذت على نفسك القيام به احسن ما يكون الاداء ؟ بسططي اهتماماتك ، واحاسيسك ، وافكارك ، ورغباتك واهدافك المعقدة . امزجي كل الاعتبارات في غرض واحد : اعني ان تؤدي ، في فعالية ، في قوة ، رسالة سيدك الالهي . ولكي توفقي الى ذلك يتعين ان يكون لك معاون - لا اخ ، فرابطة الاخوة واهنة جدا ، ان يكون لك زوج . وانا ايضا لا احتاج الى اخت ، فالأخت قد تنتزع مني في يوم من الايام . انا اريد زوجة ، لان الزوجة هي الرفيق الوحيد الذي يستطيع ان افرض سلطاني الفعال عليه ، في الحياة ، وان احتفظ به حتى الموت احتفاظا مطلقا .

وارتعدت فيما كان يتكلم : لقد استشعرت اثر سلطانه في مخ عظمي ، واثر سيطرته في اوصالي .

وقلت : « ابحت اذن عن امرأة غيري ، يا سانت جون . ابحت عن واحدة تلائمك » .

- « تعنين امرأة تلائم غرضي ... تلائم رسالتي . فاسمحي لي ان اقول لك كرة اخرى اني لا اطمع في الزواج من مجرد امرأة تافهة ، مجرد امرأة ذات حواس انانية . لا ، اني اطمع في الزواج من مبشرة » .

- « ولسوف اهتّب المبشر قواي وطاقتي - فذلك كل ما يبتغيه ، ولكن لن اهتّب نفسي . ان ذلك اشبه بأضافة القشور الى اللباب . وليست به اية حاجة الى القشور : من اجل ذلك سأحتفظ بها » .

- « ليس في ميسورك ان تفعلي ذلك ... بل ليس ينبغي لك ان تفعلي ذلك . اتحسبين ان الله سوف يرضى بنصف قربان ؟ هل يرضى بتضحيه بتراء ؟ انما ادعوك الى الدفاع عن قضية الله ... وانما اريدك ان تنضوي تحت لوائه هو لا تحت اي لواء اخر . فليس في ميسوري ان اقبل ، بالنيابة عنه ، لواء جزئيا ... ان ولاءك يجب ان يكون كاملا » .

فقلت : « اوه ، سوف اقدم قلبي الى الله . اما انت فلست في حاجة اليه » .

وليس في مستطاعي ، ايها القارئ ، ان اقسام يمينا على انه لم يكن ثمة شيء من السخرية المكبوحة في كل من اللهجة التي قيلت بها هذه الجملة والاحساس الذي رافقها . فقد كنت ، حتى ذلك الحين ، اخشى سانت جون واخافه على نحو صامت ، لاني لم اكن قد فهمته . كان قد ابقاني في دوامة من الرعب ، لانه كان قد ابقاني في دوامة من الشك ، وكنت حتى ذلك الحين عاجزة من معرفة مبلغ ما انطوت عليه نفسه من سجايا القديسين ومبلغ ما انطوت عليه من خصال البشر . ولكن هذه المحادثة كشفت لي عن اشياء كثيرة ، وكنت قد شرعت احلل طبيعته . لقد رأيت مواطن ضعفه ، ووقفت الى فهمها . وادركت اني ، اذ جلست في مكاني ذاك عند ضفة المرج وامامي ذلك

الوجه الوسيم ، انما كنت اجلس عند قدمي رجل ضال\* مثلي . لقد سقط النقاب عن قسوته واستبداده . حتى اذا لمست فيه هاتين الخصلتين استشعرت بعده عن الكمال ، فاستعدت شجاعتي . لقد كنت مع ند\* لي - مع شخص استطيع ان اناقشه . . . شخص استطيع ، اذا استصوبت ذلك ، ان اقاومه .

واعتصم بالصمت بعد ان نطقت بالجملة الاخيرة ، وسرعان ما غامرت فرفعت بصري الى مجيئه . كان قد خفض عينيه نحوي ، وكاننا تعبران عن دهش متجهم وفضول حاد في آن معا . لقد بدنا وكأنهما تقولان : « اهي تسخر ، وتسخر مني انسا ؟ »

- « ما معنى هذا ؟ » -

وما عثم ان قال : « لا تنسَي انسا نبحث مسألة مقدسة ، مسألة لا نستطيع ان نفكر فيها او نتحدث عنها في استخفاف من غير ان نأثم . انسا واثق ، يا جين ، من انك جادة عندما تقولين انك سوف تقدمين قلبك الى الله : ان هذا هو كل ما ابغي . والحق انك ما ان تتأين بقلبك عن البشر لكي تمنحيه خالقك حتى يصبح تعزيز\* مملكة ذلك الخالق الروحية على الارض هو مسنعاك الاساسي ومصدر بهجتك الرئيسي . انك سوف تجددين نفسك مستعدة للقيام ، على التو ، بأيا شيء يساعدك على تحقيق ذلك الهدف . ولسوف ترين اي زخم تمنحه\* جهودك وجهودي من طريق اتحادنا الجسدي والعقلي بالزواج ، وهو الاتحاد الوحيد الذي يضيف صفة من التطابق السرمدى على مصائر الكائنات البشرية وخطتها . ولن تلبثي ان تتفاضي عن جميع الاهواء الصفري ، وجميع المصاعب الثقافية ولذات الشهور ، وجميع الوسواس عن درجة الميل الشخصي ونوعه وقوته او لطفه ، وتسارعي الى الدخول في ذلك الاتحاد في الحال . »

فقلت في اقتضاب : « اتظن ذلك ؟ » ونظرت الى اساريه ، الجميلة في تناعمها ، ولكن الرهيبة الى حد عجيب في صرامتها الجامدة . نظرت الى جبينه الآمر ولكن غير الصريح ، والى عينيه البراقنتين ، العميقتين ، الناقبتين ولكن غير الرفيقتين ابدا ، والى قامته الفارعة المهيبة ، وتصورت نفسي زوجته\* . اوه ! ان هذا لا يمكن ان يتم ! ان في استطاعتي ان اصبح معاونة له ، او ان اصبح رفيقته . واني لعلى استعداد لان اعبر معه ، بوصفي ذاك ، البحار والمحيطات ، وان اكدح تحت الشمس الشرقية في الصحاري الآسيوية ، وان أعجب بشجاعته وتقانيه وعلو همته واقتدي بها ، وان اعود نفسي - في هدوء - الخضوع لسلطانه ، وان ابتسم في غير ما قلق كلما رايت الى طموحه الذي لا يقهر ، وان اميز فيه بين المسيحي وبين الانسان فأقدر الاول تقديرا عميقا واغفر للثاني في سخاء . وخليق بي من غير ريب ، وقد اقتصرت صلتى به على هذا الوصف ، ان اقاسي آلاما كثيرة في معظم الاحيان : ان جسدي سوف يبرز تحت نير ثقل ، ولكن فؤادي وعقلي سيكونان حريين . ولسوف تبقى لي نفسي غير المصوحة ففي استطاعتي ان افء اليها ، ومشاعري الطبيعية

غير المستعبدة ففي استطاعتي ان اتحدث معها في لحظات الوحدة الموحشة .  
ولسوف تبقى في ذهني فجوات لن ينفذ اليها البتة لانها وقف علي وحدي .  
كما ستبقى عواطف نامية هناك ، عواطف ناضرة مُطلّلة لا تستطيع صرامته  
ان تصوّحها البتة ولا تستطيع خطواته العسكرية الموزونة ان تدوسها . اجل ،  
في امكاني ان اصبح معاونة له او رفيقة ، ولكن ليس في امكاني ان اصبح له  
زوجة - زوجة مشدودة الي جانبه دائما ، مقيدة دائما ، مكبوجة دائما ...  
مكرهة علي اخماد جذوة طبيعتي علي نحو موصول ، وعلى اجبارها علي  
الاحتراق داخلها ، من غير ان اطلق صرخة البتة ، برغم اكتوائي باللهب  
الحبيس واهلاكه اياي عضوا عضوا .

وهتفت عندما انتهيت في تأملاتي الى ذلك المدى : « سانت جون ! »

فأجابني علي نحو مثلوج : « ماذا تريدن ؟ »

- « اريد ان اكرر : اني اوافق ، بملء رضي ، على الذهاب معك كرفيقة  
في ميدان التبشير ، ولكن لا كزوجة . انا لا أستطيع ان اتزوجك وان اصبح  
جزءا منك » .

فأجاب في حزم : « بل يتعين عليك ان تصبحي جزءا مني . والا فان  
الصفقة كلها تُمسي باطلة . اذ كيف استطيع ، وانا الرجل الذي لمّا يبلغ  
الثلاثين ، ان اصطحب الي الهند فتاة في التاسعة عشرة ، ما لم تشدها الي  
رابطة الزواج ؟ كيف يجوز لنا ان نكون معا الى الابد - على انفراد احيانا ،  
وبوسط قبائل متوحشة احيانا - من غير ان يُزَفَّ احدنا الى الآخر ؟ »

فقلت في شيء من الغظاظ : « حسن جدا . في امكانك ان تحسب ، في  
مثل هذه الحال ، اني اختك الحقيقية ، او تنظر الي نظرتك الى رجل او  
قسيس مثلك » .

- « القوم كلهم يعلمون انك لست اختي ، فليس في ميسوري ان اقدمك  
الى الناس بهذا الوصف : وكل محاولة الى القيام بمثل هذا الصنيع خليق بها  
ان تثير حولي وحولك اخطر الرّيب واشدها اذى . وفي ما يتصل بالاشياء  
الآخري لاحظ ان لك - برغم ما تتمتعين به من عقل رجالي حصيف - قلب  
امراة ... وهذا لا يساعد كثيرا علي الاخذ بوجهة نظرك » .

فأكدت في شيء من الازدراء : « بل انه ليساعد افضل ما تكون المساعدة .  
صحيح ان لي قلب امراة ، ولكن ليس في ما يتصل بك انت . انا لا املك ما  
اقدمه لك غير وفاء الصديق ، او غير صراحة رفيق السلاح واخلاصه واخائه  
اذا شئت . واني لاحترمك كما يحترم المتنصّر حديثا كاهنه الذي يعلمه  
الدين ، واذعين لك مثل ادعائه له . هذا كل ما عندي لك . فلا تجزع » .

فقال كمن يخاطب نفسه : « ذلك كل ما ابتغي . انه عَيْنُ ما اطلبه  
تماما . ان ثمة عقبات تعترض السبيل ، وهي عقبات يجب ان تذلل . جين ،  
انك لن تندمي علي الزواج مني . كوني من ذلك على يقين . ان علينا ان  
نتزوج . وانا اكرر قولتي : ليس ثمة اي سبيل آخر . ولا ريب في ان قدّرنا

من الحب كافيًا لا بد أن يَعْقَبَ الزواج ، فيجعل اتحادنا عملاً صائبًا ، حتى في عينيك أنت . »

فلم أتمالك عن القول ، وأنا انهض وأقف تجاهه ، مسندة ظهري إلى الصخرة : « أنا أزدري فكرتك عن الحب . أنا أزدري العاطفة الزائفة التي تعرضها . أجل ، يا سانت جون ، وأزدريك أنت عندما تعرضها » .

عندئذ سَمَّرَ عينيه علي ، ضاغطا إحدى شفتيه البديعتين على الأخرى . ولم يكن من اليسير علي أن أقرر هل كان مَغِيظًا أم كان مندهشًا : لقد وَفَّقَ إلى السيطرة على أساري وجهه سيطرة كاملة .

وقال : « لم أكن أتوقع أن اسمع منك هذا التعبير . واحسب أنني لم أفعل أو أقل أيًا شيء يستحق الأزدراء » .

ومسَّتْ نبرته الرقيقة وترا في قلبي ، وروعنسي محيَّاه الهادئ المتشامخ ، وقلت :

« اغفر لي تلك الكلمات ، يا سانت جون . ولكن إذا كنت قد حُمِلت على الكلام بمثل ذلك التهور كله فالذنب ذنبك أنت . فقد أثرت موضوعًا تختلف في أمره طبيعتانا - موضوعًا كان يتعين علينا أن لا نناقشه البتة : أن لفظة الحب نفسها هي مصدر شقاق بيننا . . . وإذا احتجنا إلى التزام الحقيقة فما الذي يتعين علينا أن نفعله ؟ كيف يتعين علينا أن نشعر ؟ اطَّرح ، يا ابن عمي العزيز ، مشروع الزواج ذاك . . . أجل اطَّرحْه وانسه »

فقال : « لا . انه مشروع أثيرٌ لذي . لقد غَدَوْتُهُ منذ عهد غير يسير ، وهو المشروع الوحيد القادر على تحقيق غايتي العظمى . ولكنني لن أرحل عليك في الوقت الحاضر ، أكثر مما فعلت . وغدا سوف ارتحل إلى كايمبروج : أن لي هناك كثيرًا من الأصدقاء الذين أرغب في توديعهم . ولسوف يطول غيابي أسبوعين اثنين ، فأفيدي من هذه الفترة للتفكير في ما عرضته عليك ، ولا تنسي أنك إذا ما رفضته لم يكن رفضك ذاك استخفافًا بي أنا ، بل استخفاف بالله . انه يفتح لك ، من طريقي ، أبواب رسالة نبيلة . . . رسالة لن توفَّقني إلى حملها إلا إذا امسيت لي زوجًا . أرفض الزواج مني تحكمي على نفسك إلى الأبد بالسير في دروب الرفه الاناني والظلمة المجدبة . ارتعدي جزعًا ، والا امسيت في عداد أولئك الذين انكروا العقيدة ، والذين هم شر من الكافرين ! » وهكذا أتى على نهاية حديثه . واذ اشاح بوجهه عني

« نظر إلى النهر ، ونظر إلى الهضبة »

كرة أخرى . ولكن مشاعره هذه المرة ، كانت حبيسة كلها في فؤاده : أنا لم أكن أهلاً لسماعها ملفوظة . وفيما كنت أمشي إلى جانبه عائدين إلى البيت قرأت في صمته الحديدي ما استشعره نحوي : خيبة نفس صارمة استبدادية لقيت مقاومة في حيثما كانت تتوقع ادعانا ، واستنكار عقل بارد عنيد اكتشف في عقل آخر مشاعر وآراء لا يستطيع أن يعطف عليها . وبكلمة موجزة لقد كان خليقًا به ، كرجل ، أن يتمنى لو يكرهني على الخضوع .

وهو لم يحتمل عنادي بمثل هذا الصبر كله ولم يمنحني هذه الفترة الطويلة للتفكير والتوبة الا بوصفه مسيحيا صادقا .

وتلك الليلة استصوب - بعد ان قبّل شقيقتيه - ان يتناسى حتى مجرد مصافحتي ، وغادر الحجرة في صمت . والواقع اني تأملت - انا التي كنت اكنّ له صداقة بالغة وان لم اكنّ له شيئا من حب - لهذا الاغفال الصارخ . . . وكان المي من القوة بحيث طفرت الدموع من غيني .

وقالت ديانا : « لاحظ ، يا جين ، انك تشاجرت مع سانت جون في اثناء النزهة التي قمتم بها في الارض السبخة . ومن الخير لك ان تلحقي به . . انه الان يجزر قدميه في المجاز ، متوقعا ان يراك الى جانبه . ولا ريب في انه سوف ينسى كل ما حدث » .

وما كنت لاجيز للكبرياء ان تتحكم بي في مثل هذه الظروف ، ولقد كان من دأبي ان اؤثر السعادة على الوقار . وهكذا اندفعت لاحقة به ، فالفيتيه واقفا عند ادنى السلم .

وقلت : « طاب مساؤك ، يا سانت جون » .  
فاجابني في هدوء : « طاب مساؤك ، يا جين » .  
فأضفت : « صافحني ، اذن » .

اية لمسة باردة رخوة كانت تلك اللمسة التي طبعها على اصابعي ! فقد حزّ في نفسه ما حدث ذلك اليوم ، فليس في ميسور المودة ان توقع الدفء في قلبه وليس في ميسور العبرات ان تحرك عواطفه . ولم يكن ثمة سبيل الى عقد مصالحة سعيدة معه ، او الى انتزاع بسمة مشجعة او كلمة كريمة منه : ومع ذلك فقد ظل « المسيحي » صابرا وادعا . وحين سألته هل غفر لي اجاب انه لم يتعود دغدغة الذكريات المؤذية ، وانه ليس ثمة ما يحتاج الى الغفران ، باعتبار ان ايما اساءة لم توجه اليه .

قال ذلك وفارقتني . ولقد كنت اؤثر ، السف مرة ، لو انه جنسدلني وطرحتني ارضا .

## ٣٥

ولم يرحل الى كايمبرج في اليوم التالي ، كما كان قد اعلن . لقد ارجأ رحلته اسبوعا كاملا . وخلال تلك الفترة اشعرني ايّ عقوبة قاسية يستطيع الرجل الصالح ولكن الصارم ، الرجل ذو الضمير الحي ولكن العنيد ، ان ينزلها في من اساء اليه . ذلك بأنه سعى ، من غير ان يصدر عنه ايما عمل عدائي صريح او اية كلمة معنّفة ، الى ان يوقع في نفسي - على نحو موصول - اني مُبْعَدَةٌ عن حظيرة عطفه .

وليس معنى هذا ان سانت جون كان يضمر روحا من الحقد غير المسيحي ، وليس معناه انه كان لا يرى حرجا في ان يمس شعرة من شعرات رأسي بأذى ، لو كان في ميسوره - على نحو مطلق - ان يفعل ذلك . لا ،

فقد كان - بحكم الطبيعة والمبدأ على حد سواء - ارفع من ان يُغرَى بمتعة الانتقام الحقيرة : لقد غفر لي قولي اني ازدرية وازدري حبه ، ولكنه لم يكن قد نسي الكلمات ، وكان خليقا به ان لا ينساها ما امتد الاجل بي وبه . ولقد كنت ارى في محيائه ، كلما التفت الي ، ان تلك الكلمات كانت ايدا مرسومة على صفحة الهواء الطائف بيني وبينه . وكلما تحدثت اليه ضج بها صوتي في اذنيه ، وكيف صداها نبرة كل جواب من اجوبته .

انه لم يقلع عن التحدث الي . بل انه كان يدعوني كل صباح ، جريا علي مألوف عاداته ، الى القعود بجانبه امام مكتبه . ويخيل الي ان الرجل الناسد الذي في بُرْدَيْه كان يجد متعة ، لم يشاركه فيها المسيحي المحض ، في اظهار مدى البراعة التي استطاع بها - بينا هو يتصرف ويتكلم ، ظاهريا ، كعادته - ان يجرد كل عمل وكل جملة من روح الشوق والمواقفة التي كانت ، في ما مضى ، تضي شيئا من السحر المتجهم على لفته وتصرفاته . والواقع انه لم يعد ، بالنسبة الي ، لحما ودما . ولكن رخاما ، لقد امست عينه جوهره زرقاء ساطعة باردة ، وامسى لسانه مجرد اداة ناطقة ليس غير .

وعذَّبني ذلك كله - عذَّبني عذابا مصقولا متطاولا . لقد اضرمت في جوانحي نار سخط بطيئة واثار في ذات نفسي قلقت مرعدا مشوبا بالاسى . ولقد اضجرني هذا السخط وذلك القلق وسحقاني سحقا . ذلك بانني ادركت بأية سرعة كان في ميسور هذا الرجل الصالح ، الصافي كاعماق ينبوع لا يرى الشمس - ولو امسيت زوجة له - ان يقتلني . ان يقتلني من غير ان يهرق من عروقي قطرة دم واحدة او يلوث ضميره النقي كالبلور بأقل لطخة من لطخات الاجرام . ولقد استشعرت هذا ، اكثر ما استشعرت ، عندما قمت بالمحاولة اثر المحاولة الى استمالته واسترضائه . انه لم يرد علي حناني بأيا قدّر من الحنان . ولم يورثه النفور اية غصّة ، ولم يأخذه ايما توق الى المصالحة . وعلى الرغم من ان عبراتي المنهمرة بللت ، غير مرة ، صفحة الكتاب الذي كنا نتدارسه معا ، فانها لم تخلّف في نفسه اثرا اعظم من ذلك الذي كان خليقا بها ان تخلّفه لو ان فؤاده كان مقدودا ، في الواقع ، من صخر او معدن . اما اختاه فكان من دأبه ان يتلطف في معاملتهما اكثر من ذي قبل ، بعض الشيء ، وكأنه خشي ان لا يكون مجرد البرود كافيا لاقناعي بانني مُبْعَدَة من دنياء ابعادا كاملا فمزّزه بالمغايرة الصارخة بين موقفه مني وموقفه منهما . ولست أشك البتة في انه فعل ذلك ، لا بدافع من خبث ، ولكن انسجاما مع مبدأ .

واتفق لي ان رأيت ، عشية رحيله الى كايمبرج ، يتمشّي - قبيل غروب الشمس - في الحديقة . وتذكرت ، فيما كنت ارنو اليه ، ان هذا الرجل - على شدة ما بيني وبينه الان من نفرة وتباعد - كان قد انقذ حياتي يوما ، وانه من اقربائي الادتيّن . فنازعني نفسي الى القيام بمحاولة اخيرة

لاستعادة صداقته . وهكذا خرجت الى الحديقة ودنوت منه ، فيما كان متكئا على البوابة الخارجية الصغيرة . وفي الحال بادرت به بالحديث في غير مداورة ، فقلت :

« سانت جون ، انا غير سعيدة ، لانك لا تزال غاضبا علي . فلنكن صديقين » .

« احسب اننا صديقان ، وارجو ان نكون » . ذلك كان جوابه الممتنع على التأثر ، قاله وهو لا يزال ، كما الفيته حين دنوت منه ، يراقب القمر البازغ .

« لا ، يا سانت جون . نحن لم نعد صديقين كما كنا . وانك لتعرف ذلك » .

« السنا صديقين ؟ هذا غير صحيح . فانا من ناحيتي لا اتمنى لك اي شر ، بل اتمنى لك الخير كله » .

« انا اصدقك ، يا سانت جون ، ذلك بانني واثقة من انك عاجز عن ان تتمنى لايما امرئ شرا . ولكن لما كنت انا نسيبتك فاني اطمع في قدّر من المحبة اكثر ، بعض الشيء ، من ذلك العطف العام الذي تقدمه الى الغرباء انفسهم » .

فقال : « من غير ريب . ان مطعمك لمعقول . وانا ابعد ما اكون عن اعتبارك غريبة » .

وكان هذا الكلام ، المقول في لهجة فاترة هادئة ، مذلا حقا ، مخيبا للامل حقا . ولو قد اصغيت لايحاءات الكبرياء والغيظ اذن لكأن عليّ أنّ اناى عنه بجانبى فى غير ابطاء . ولكن شيئا اعتمل فى ذات نفسى اقوى مما استطاع هذان الشعوران ان يعتملا . فقد كنت اكبر مواهب ابن عمتي ومبادئه اعمق الاكبار ، وكانت صداقته ذات قيمة عندي ، فخسارتها بلاء اضناني على نحو قاس . ومن هنا كان خليقا بي ان لا اتخلى ، فى سرعة بالغة ، عن السعي لاستردادها .

« ايتعين علينا ان نفترق على هذه الصورة ، يا سانت جون ؟ وحين ترتحل الى الهند هل ستتركني على هذا النحو ، من غير ان تقول كلمة ارقّ مما نطقنت به حتى الان ؟ »

« عندئذ حوّل بصره عن القمر وواجهني .

وقال : « عندما ارتحل الى الهند ، يا جين ، هل سأتتركك ؟ ماذا ! الن ترتحلي انت الى الهند ؟ »

« لقد قلت اني لا استطيع الارتحال الى هناك ما لم اتزوج منك » .

« وانت لن تتزوجي مني ؟ الا تزالين مصرة على هذا القرار ؟ »

هل تعرف ، ايها القارئ ، كما انا أعرف اي هوّل يستطيع اولئك القوم الباردون ان يسكبوه في ثلج اسئلتهم ؟ واي قدّر من انهيار الجليد ينطوي عليه غضبهم ؟ ومن تكسّر البحر المتجمد يتمثل في استيائهم ؟

- « لا ، يا سانت جون ، انا لن اتزوج منك . اني التزم قراري » .  
 كان التيهور \* قد زُحِرَ عن موضعه وانزلق الى الامام بعض الشيء .  
 ولكنه لم يكن قد انهار بعد .  
 فقال : « اترفضين كرة اخرى ؟ وما الذي يدعوك الى هذا الرفض ؟ »  
 فأجبتة : « لقد رفضت ، في المرة الاولى ، لانك كنت لا تحبني . اما الان  
 فاني ارفض لانك تبغضني او تكاد . ولو قد تزوجت منك اذن لقتلتني .  
 والواقع انك تقتلني الان » .

فشجبت شفتاه ووجنتاه - شجبت حتى لامست بيضاء ناصعة .  
 - « لو تزوجت مني اذن لقتلتك ؟ ... انا اقتلك الان ؟ ان كلماتك هذه  
 هي من ضرب ما كان يجوز لك ان تستعمليه : انها عنيفة ، خلوة من الانوثة ،  
 وغير صحيحة . وهي تنم عن حال عقلية تعيسة . انها تستحق تعنيفا قاسيا ،  
 ويخيل الي انه من المتعذر على المرء ان يفتقرها لو لم يكن من واجب الانسان  
 ان يصفح عن اخيه سبعا وسبعين مرة » .

كنت قد انجزت ، الان ، مهمتي . والواقع اني ، في توقي الصادق  
 الى ان امحو من ذهنه آثار اساءتي السابقة ، كنت قد خلّفت على ذلك السطح  
 الكتيم انطباعة اخرى اعمق بكثير : كنت قد سفعتهُ بمثل النار .  
 وقلت : « الان سوف تبغضني حقا . وانه لمن العبث الذي لا طائل تحته  
 ان احاول استرضائك . يخيل الي اني جعلت منك عدوا سرمديا لي » .  
 وانزلت هذه الكلمات في نفسه اذى اشد واعمق لانه لامس الحقيقة .  
 فاذا بشفته التي غار منها الدم ترتعد في تشنج عابر . وادركت اي غيظ قاسٍ  
 اثرتهُ بتلك الكلمات ، فانقبض قلبي واعتصره الالم .

فقلت ، وانا امسك بيده : « انك تسيء فهم كلماتي اساءة كاملة . انا  
 لا اقصد الى ايلامك او احزانك ... صدقني ، انا لا اقصد الى ذلك » .  
 وابتسم ابتسامة ليس احفل منها بالمرارة ، وسحب يده من يدي في كثير  
 من الاصرار . ثم قال بعد صمت غير يسير : « ولسوف تعمدين الان الى  
 الرجوع عما وعدتني به ، ولن تذهبي الى الهند بأية حال ، في ما احسب ؟ »  
 فأجبتة : « بل ساذهب ، بوصفي مساعدة لك » .

وتلا ذلك صمت طويل . ولست ادري اي صراع نشب في ذات نفسه  
 بين الطبيعة وبين الفضيلة خلال تلك الفترة . ولكن اشارات فذة اومضت في  
 عينيه ، وظلالا عجيبة طافت بوجهه . وتكلم اخيرا فقال :

- « لقد اثبت من قبل بطلان ما تعرضين : ان ترافق امرأة عزباء في  
 مثل سنك رجلا اعزب في مثل سني الى ما وراء البحار . لقد اثبتته لك في  
 تعابير كان من حقها ، في ما حسبت ، ان تمنعك من الالام الى تلك الخطة  
 كرة اخرى . اما وقد فعلت ذلك ، الان ، فاني آسف ... من اجلك » .  
 وقاطعته ، فقد كان ايما تعنيف صريح خليقا به ان يمنحني الشجاعة



في الحال : « الزم حدود المنطق ، يا سانت جون ، فانت تنحرف نحو الهراء .  
انك تتظاهر بأن ما قلته لك قد اصابك بصدمة . في حين انه ، في الواقع لم  
يصدمك البتة . ذلك بأنك - بما تتمتع به من عقل متفوق - لا يمكن ان  
تكون من البلادة او الغرور بحيث تسيء فهم المعنى الذي رميت اليه . وها  
انا ذا اكرر ثانية : اني سوف اكون مبشرة مساعدة لك ، اذا شئت انت ذلك ،  
ولكنني لن اكون زوجة لك بأية حال » .

وشحِب وجهه ، كرة اخرى ، على نحو ازرق رصاصي ، ولكنه سيطر  
على انفعاله - كشانه من قبل - سيطرة كاملة ، ثم اجابني ، في جزم ، ولكن  
في هدوء :

- « لن تلائمني ابدا مبشرة مساعدة لا تشدها الي رابطة الزواج . ومن  
هنا يبدو لي انك لن تستطيعي الذهاب . اما اذا كنت مخصصة في عرضك  
فعندئذ اتحدث ، خلال مقامي في لندن ، الى مبشر متزوج تحتاج زوجته الى  
مساعدة . ان ثروتك سوف تجعلك في غنى عن العون المادي الذي تقدمه  
الجمعية عادة ، وهكذا تنجين بنفسك من عار الحنث بوعدك ، والتخلي عن  
العصبة التي عاهدتني على الانصواء تحت لواها » .

والحق اني ، كما يعرف القارئ ، لم اعط اي وعد رسمي ولم آخذ على  
نفسي اي عهد . من اجل ذلك كانت لغته تلك قاسية واستبدادية بأكثر مما  
تقتضيه المناسبة . فأجبتة :

- « ليس في الامر ايما عار ، او حنث بوعد ، او تخل عن عصبة .  
ولست مقيدة بأي التزام يحتم علي الذهاب الى الهند ، وبخاصة مع قوم غرباء .  
لقد كان خليقا بي ، في حال الذهاب معك ، ان اغامر بأشياء كثيرة لاني أعجب  
بك واثق فيك ولاني احببتك كأخت لك . ولكنني - ايا من كان الاشخاص  
الذين سأذهب معهم وايا ما كان الزمان الذي سأقدم فيه على هذه الخطوة -  
مقتنعة بأنني لن احيا طويلا في ذلك المناخ » .

فقال وهو يزم شفته : « آه ! انت خائفة من نفسك » .

- « اجل ، انا خائفة . ان الله لم يهبني حياتي لكي ابددها . ولقد  
بدأت ارى ان النزول عند رغبتك يعدل الانتحار او يكاد . والى هذا ، فقبل  
ان اعقد العزم نهائيا على مغادرة انكلترا يتعين علي ان استيقن من ان بقائي  
فيها لا يتيح لي مجالا للافادة اكبر من ذلك الذي تتيحه لي الهجرة منها » .  
- « ماذا تعنين ؟ »

- « من العبث الذي لا طائل تحته ان احاول الشرح . ولكن ثمة نقطة  
طالما اورثتني شكاً اليما . وليس في مستطاعي ان ارحل الى ايما مكان الا بعد  
ان اتحرر من ذلك الشك » .

- « انا اعرف الى اين يهفو فؤادك وبأي شيء هو مولع . ان الشوق الذي  
تضميرينه ليس شرعيا ولا مقدسا . ولقد كان الواجب يقتضيك سحقه منذ  
زمن بعيد . وكان جديرا بالدم ان يشيع في وجهك ، الان ، مجرد الالماع اليه .

انت تفكرين بمستتر روتشيستر ، اليس كذلك ؟  
 وكان هذا صحيحا . ولقد اعترفت به بصمتي .  
 - « اتعزمين البحث عن مستتر روتشيستر ؟  
 - « يتعين علي ان اعرف ما الذي حل به » .

فقال : « يبقى علي ، اذن ، ان اذكرك في صلواتي ، وان اضرع الى الله بكل اخلاص ان لا تصبحي ضالة او منبوذة حقا . لقد حسبت اني تبينت فيك واحدا من اولئك اللواتي اصطفاهن الله . ولكن الرب يرى ما لا يراه الانسان : ان ارادته لا بد ان تتم » .

وفتح البوابة الخارجية ، وخرج منها ، وراح يهيم على وجهه في الوادي الصغير . وسرعان ما غاب عن ناظري .

حتى اذا انقلبت الى حجرة الاستقبال الفيت ديانا واقفة عند النافذة ، وامارات الاستغراق في التفكير بادية عليها . وكانت ديانا اطول مني بكثير ، فوضعت يدها على كتفي ، وانحنت وراحت تنعم النظر في وجهي .

ثم قالت : « جين ، اراك في هذه الايام مهتاجة شاحبة على نحو موصول . واني لواقفة من ان وراء ذلك امرا . قولي لي اية مسألة كنت تدرسين مع سانت جون . فقد راقبتك ، طوال نصف الساعة الماضية ، من هذه النافذة : ان عليك ان تغفري لي مثل هذا التجسس ، ولكنني تصورت فترة من زمان شيئا لا اكاد اعرف ما هو . سانت جون مخلوق عجيب . . . »

وكفت عن الكلام . ولم انطق انا بحرف . وما هي الا لحظات حتى استأنفت حديثها : « ان لآخي ذاك ، في ما يتصل بك ، آراء غريبة بعض الشيء . انا واقفة من ذلك . ولقد آثرت ، منذ عهد طويل ، بعناية واهتمام لم يظهر مثلها نحو اي امرأة اخرى من قبل . فما الذي يستهدفه من وراء ذلك ؟ اتمنى لو يكون مفرما بك . هل يحبك ، يا جين ؟ »

فوضعت يدها الفاترة على جبيني الحار . وقلت : « لا ، يا ديانا ، انه لا يحبني مثقال ذرة » .

- « واذن فلماذا يلاحقك هكذا بعينه ، ويخلو بك على هذا النحو المكرور ، ويبقيك الى جانبه ابقاء موصولا الى هذا الحد كله ؟ لقد انتهيت انا وماري الى ان نستنتج انه سآلك الزواج منه » .

- « لقد فعل . لقد سألني ان اقبل به زوجا » .

فصفت ديانا بيديها ، وقالت : « ذلك عين ما رجونا وفكرنا فيه ! ولسوف تتزوجين منه ، يا جين ، اليس كذلك ؟ وعندئذ يبقى في انكلترة » .  
 - « ما ابعد ما تتوهمينه عن الصواب ، يا ديانا . ان غرضه الوحيد من العرض الذي تقدم به الي هو الفوز بمساعدة ملائمة تشاركه النضال في بلاد الهند » .

- « ماذا ؟! اريد منك ان تذهبي الى الهند معه ؟ »

- « اجل ! »

فصاحت : « جنون ! انك لن تستطيعي الحياة هناك اكثر من ثلاثة اشهر . انا واثقة من ذلك . لا ، انك لن تذهبي بأية حال . وانت لم توافقي على الذهاب طبعاً - هل وافقت ، يا جين ؟ »

- « لقد رفضت ان اتزوجه » .

- « وبذلك اغضبته . . . »

- « الى ابعد مدى . واخشى ان لا يغفر لي ذلك ابد الدهر . ومع هذا ،

فقد عرضت ان ارافقه بوصفي اخته » .

- « لقد كان عرضك ذاك حماقة متهوسة ، يا جين . فكري في المهمة

التي اخذتها على عاتقك - مهمة قوامها الارهاق الموصول . . . حيث الارهاق

يقتل حتى الاقوياء . . وانت ضعيفة . ان سانت جون - ولست تجهلينه -

خليق به ان يحضك على القيام بكل متعذر مستحيل . . . وهو لن يجيز لك

ان تنعمي بشيء من الراحة خلال ساعات النهار القاظة . ولقد لاحظت ، لسوء

الطالع ، انك تكرهين نفسك على اداء ايما عمل يفرضه عليك . والواقع اني

لاعجب كيف وجدت الشجاعة التي مكنتك من رفض يده . انت لا تحبينه ،

اذن ، يا جين ؟ »

- « لست احبه كزوج » .

- « ولكنه شاب وسيم » .

- « وأنا دميعة جدا ، كما ترين ، يا ديانا . ان ايا منا لن يلائم الاخر

أبدا » .

- « دميعة ! انت دميعة ؟ معاذ الله ! انت اجمل واطيب من ان تشوئي

حياة في كلكتا . » وناشدتني ، كرة اخرى ، في حماسة ، ان اطرح كل

تفكير في الارتحال مع اخيها .

فقلت : « اجل ، يتعين علي ذلك من غير ريب . لاني عندما كررت

عليه ، منذ لحظة ، اقتراحي القاضي بأن اعمل في خدمته كشماسة ، عبّر

عن استيائه البالغ لقلة لياقتي وذوقي . ولقد بدا وكأنه يعتبر اني ارتكبت

عملاً غير لائق عندما اقترحت ان ارافقه من غير زواج : كأنني لم أمل منذ

البدء ان اجد فيه اخاً لي ، ولم اعتبره دائماً اخاً لي » .

- « ما الذي يجعلك تحسبين انه لا يحبك ، يا جين ؟ »

- « يتعين عليك ان تسمعي اليه هو كيف يتكلم في هذا الموضوع .

لقد اوضح لي مرة ومرة انه لا يريد رفيقة لنفسه ولكن رفيقة لوظيفته . ولقد

قال لي اني خلقت للعمل - لا للحب ، وهو شيء صحيح من غير ريب .

ولكنني ارى انني اذا كنت لم اخلق للحب فيلزم عن ذلك ، منطقاً ، اني لم

اخلق للزواج . أئن يكون عجباً ، يا ديانا ، ان اكبل نفسي ، مدى العمر ،

بقيود تشدني الى رجل لا يرى في غير اداة نافعة » .

- « هذا امر غير محتمل . . . غير طبيعي . . . غير وارد ! »

فتابعت قائلة : « والى هذا ، فعلى الرغم من اني لا اكن له الان غير حب

اخوي ففي استطاعتي ان اتصور - اذا ما اجبرت على الزواج منه - ان من الجائز ان احس نحوه بضرب من الحب غريب ، معذب ، لا مفر منه - لانه رجل موهوب الى ابعد مدى ، ولان ثمة في كثير من الاحيان ضربا من الجلال البطولي في سيمائه ، وتصرفاته ، وأحاديثه . وخليق بقدري أن يصبح ، في مثل هذه الحال ، بانسا على نحو لا سبيل الى وصفه . انه لن يقرّ حبي اياه . واذا ما افصححت عن عواطفي فعندئذ سوف يشعروني ان ذلك ترف لا حاجة له به ، فضلا عن انه لا يليق بي . أنا على مثل اليقين من انه سوف يعتمد الى ذلك » .

فقلت ديانا : « ومع ذلك فسانت جون رجل طيب » .

- « انه رجل طيب ورجل عظيم . ولكنه ينسى ، في غمرة من سعيه بسبيل تحقيق أفكاره السامية ، مشاعر بسطاء الناس ومطالبهم ، وينساها في غير ما رحمة . من أجل ذلك ، يحسن بالتأفهي ان يتعدوا عن طريقه خشية ان يدوسهم ، خلال زحفه ، بقدميه الاثنين . هو ذا قد اقبل ! سوف اتركك يا ديانا » . واذا رأيته يدخل الحديقة هزولت صاعدة السلم الى الطابق الاعلى .

ولكنني اضطرت الى الالتقاء به ، كرة اخرى ، عند العشاء . ولقد بدا ، خلال هذه الوجبة ، رابط الجأش كمألوف عاداته . وكنت قد حسبت انه لن يوجه الي الا كلمة او كلمتين وأيقنت انه عدل عن خطّة الزواج ، ولكن ما حدث بعد ذلك اظهر ان الصواب لم يحالفني في ما حسبت وما ايقنت . فقد خاطبني بطريقته المعتادة تماما ، او بما كان قد اصبح - في الفترة الاخيرة - طريقته المعتادة : اعني في كياسة حنبلية . وليس من ريب في انه كان قد التمس معونة الروح القدس ابتغاء كظم الغضب الذي اثرته في ذات نفسه . وهكذا اعتقدت انه غفر لي كرة اخرى .

وللتلاوة المسائية التي تسبق اداء الصلاة اختار الاصباح الحادي والعشرين من سفر الرؤيا . ولقد كان مما يشرح صدري ، في كل آن ، ان اصغي بيّنا تنطلق آيات الكتاب المقدس من بين شفثيه : ان صوته الرخيم لم يكن ليبدو بالغ العذوبة والامتلاء في وقت واحد ، وان سلوكه لم يكن ليغدو في بساطته النبيلة اشد ما يكون تأثيرا في النفس الا حين ينطق بالوحي الالهي . وتلك الليلة اكتسب ذلك الصوت جرّسا اكثر مهابة واكتسب ذلك السلوك مغزى آخذ بمجامع القلوب ، عندما توسّط عقد اسرته ( وقد اشرق قمر نوار - مايو - من خلال النافذة غير المحجوبة بستار ، جاعلا ضياء الشمعة الموضوعة على المائدة غير ضروري تقريبا ) واكب ثمة على نسخة ضخمة عتيقة من الكتاب المقدس ، وانشأ يصف - نقلا عن صفحاته - رؤيا السماء الجديدة والارض الجديدة ، ويروي كيف سيهبط الرب ليحيا بين البشر ، وكيف سيكفكف الدموع كلها من اعينهم ، واعداد اياهم بأن لا يبقى على الارض ، بعد ذلك ، لاموت ، ولا اسي ، ولا بكاء ، ولا الم ، لان النواميس

السابقة امست في خبر كان .

وهزنتي الكلمات التالية هزا عجبيا فيما كان ينطق بها : وبخاصة عندما استشعرت - من التغير الطفيف الذي ألمَّ بجَرَسِهِ - ان عينه تحولت اليّ بينا انطلقت تلك الكلمات من فمه :

« من يغلب يرث كل شيء واكون له الها وهو يكون لي ابنا . واما ، وهنا اخذ يتلو في بطنه ووضوح بالغ ، « الخائفون وغير المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة عبدة الاثان وجميع الكذبة فنصيبهم في البحيرة المتقدة بنار وكبريت ، وذلك هو الموت الثاني » .

ومنذ ذلك الحين عرفت أي مصير كان سـانـت جون يخشى علي من الانتهاء اليه .

وانما طُبعت تلاوته هذه الآيات الاخيرة المجيدة من ذلك الاصحاح بطابع من الظفر المكبوح تخالطه حرارة تواقـة . كان واضحا ان قارئ تلك الآيات مؤمن بأن اسمه قد سطر في « سفر الحياة للسيد المسيح ، وانه كان مشوقا الى تلك الساعة التي سوف تتيح له الدخول الى المدينة التي يحمل اليها ملوك الارض امجادهم ومآثرهم والتي هي في غنى عن شمس او قمر يشرقان فيها ، لان مجد الله ينيرها ، ولان المسيح هو ضياؤها .

وفي الصلاة التي عقبـت تسلوة الاصحاح احتشدت قوته كلها ، واستيقظت حماسه المتجهمـة كلها . كان يخوض معركة جديـة ، وكان قد عقد العزم على الانتصار . لقد تضرع الى الله أن يهب ضعاف القلوب قوة ، والناتحين خارج الحظيرة هداية ، واولئك الذين اغرتهم مغريات العالم والجسد بالابتعاد عن الصراط المستقيم عودة ولو في اللحظة الاخيرة . لقد رجا ، وألحف في الرجاء ، وطالب لهم بنعمة الخلاص من هلاك محتوم . ان للحماسة المشبوبة جلالة عميقا في كل آن . ولقد عجبت لحماسه ، أولا ، وأنا اصغي لتلك الصلاة . حتى اذا استمرت بعد ذلك واتقدت مسّت من قلبي وترأ ، ثم روّعـتني . لقد استشعر عظمة غرضه وخيرية ذلك الغرض استشعارا صادقا الى أبعد الحدود . ولم يكن في ميسور الآخرين الذين سمعوه يتضرع من اجل تحقيق هذا الغرض الا ان يستشعروا مثل شعوره .

وحين خُتمت الصلاة استأذناه بالانصراف ، فقد كان مزمعا الرحيل في ساعة مبكرة جدا من صباح اليوم التالي . حتى اذا قبّلته ديانا وماري غادرتا الحجره ، نزولا عند رغبة منه ، في ما اظن ، عبّر عنها ببضع كلمات مهموسة . وبسّطت انا يدي اليه ، وتمنيت له رحلة مائعة .

- « شكرا ، يا جين . اني سأعود من كايمبريدج ، كما قلت من قبل ، بعد اسبوعين اثنين . واذن فلا يزال امامك هذه المهلة تفرغين خلالها للتفكير . ولو قد اردت ان اصغي لنداء الغرور البشري اذن لتعيّن علي ان لا أقول أية كلمة اضافية عن زواجك مني . ولكنني اصغي الى نداء واجبي ، وابقى نصب عيني - على نحو موصول - هدفي الاول ، وهو أن افعل كل شيء لمجد الله .

لقد صبر « معلّمي » \* على العذاب صبرا طويلا ، وكذلك سوف افعَل . اني لا استطيع ان اتخلّى عنك للهلاك الابدِي ، بوصفك وعاء مترعاً بغضب الله . توبي الى خالك ، وسارعي الى اتخاذ قرارك قبل فوات الاوان . تذكرني اننا اُمرنا بأن نعمل ما بقيت الشمس ترسل اشعتها ، واننا جُذّرنا من انه « لا بد من هبوط الليل الذي يُحال فيه بين كل امرئ وبين العمل » . تذكرني مصير « دافيس » \* الذي تمتع بكل مناعم الحياة ومتارفها . ولقد منحك الله القوة على اختيار الجزء الافضل الذي لن يُنتزع منك !

ووضع يده على رأسي فيما كان ينطق بالكلمات الاخيرة . كان قد تكلم في اخلاص وفي رفق . ولم تكن نظرته ، في الواقع ، نظرة عاشق يرنو الى صاحبتة ولكنها كانت نظرة قس يدعو خرافه الضالة للعودة الى الحظيرة ، بل كانت اكثر من ذلك : نظرة ملاك حارس يراقب النفس التي هو مسؤول عنها . ان لجميع الموهوبين ، سواء اكانوا عاطفيين أم لا ، وسواء اكانوا متعصبين أم طموحين أم طفاة - شريطة ان يكونوا صادقين - لحظاتهم السامية التي يهيمنون فيها ويحكمون . وهكذا استشعرت احتراما بالغا لسانت جون - احتراماً كان من القوة بحيث ردّني زخمه ، في الحال ، الى النقطة التي طالما جهدت في سبيل اجتنابها . لقد اُغرّيت بالكف عن مقاومته ، وبالاندفاع مع تيار ارادته الى دواءة وجوده ، حيث افقد ارادتي الذاتية . كان الآن قد حاصرني حصاراً لا يقلّ عنفاً عن ذلك الذي ضربه عليّ من قبل ، ولكن بطريقة اخرى مختلفة . ولقد كنت حمقاء في كلتا المراتين . ان الاستسلام في المرة الاولى كان خليفاً به ان يكون خروجاً على المبدأ . وان الاستسلام الآن كان خليفاً به ان يكون خطأ في التقدير . ذلك ما اعتقده في هذه اللحظة ، التي التفت فيها الى الازمة عبر الزمان الملطّف : لقد كنت آنذاك لا اعي حماقتي .

ووقفت جامدة تحت انامل كاهني . كانت رفوضي \* قد نُسيّت . وكانت مخاوفي قد ذُلّت ، وكانت مقاومتي قد شلّت . وكان « المتعذر » اعني زواجي من سانت جون - يتحول سريعاً ليصبح هو « الممكن » . كان كل شيء يتبدل تبديلاً كاملاً مفاجئاً . لقد دعا الدين . . . وأشارت الملائكة . . . واصدر الرب امره . . . لقد التفت الحياة مثل طومار \* من الطوامير . . . وفتحت ابواب الموت ، مُبديّة عن الابدية القائمة خلفها : لقد بدا وكان في الامكان - التماساً للسلامة والسعادة هناك - أن يُضَحّى بكل شيء هنا في ثانية واحدة . ولقد امتلأت الحجرة القائمة بضروب الرؤى .

وسألني المبشر : « هل تستطيعين ان تقرري الآن ؟ » كان السؤال قد

\* المراد هو السيد المسيح ( العرب )

\* هو الغني الوارد ذكره في سفر لوقا ، الاصحاح السادس عشر ١٩ ٢١ ( العرب )

\* جمع رفض . كوعود جمع وعد .

\* صحيفة يكتب عليها .

طُرح بنبرات رقيقة ، ولقد جذبني سانت جون اليه بالرقّة نفسها . اوه ، يا لتلك الرقة ! لقد بدت لي أقوى من العنف بكثير ! كان في ميسوري ان اقاوم غضب سانت جون ، ولكنني امسيت الآن مطسوعة مثل قصبه تحت نسايم لطفه . ومع ذلك فقد كنت اعرف معرفة جيدة اني اذا استسلمت الآن فلن أحمّل في يوم من الايام على الندم على تمردي السابق . ان ساعة واحدة من الصلاة المهيبة لم تغيّر ، وليس في ميسورها ان تغير ، طبيعته التي فطر عليها . لقد رفعت هذه الطبيعة وسمت بها فحسب .

وأجبت : « في استطاعتي ان اقرر . . شريطة ان اثق واقتنع بأن ارادة الله هي التي تقضي بزواجي منك . وخليق بي اذا وثقت من ذلك واقتنعت به ان اعاهدك على الزواج منك هنا وفي هذه اللحظة - وليحدث بعد ذلك ما يحدث ! »

فهمت سانت جون : « لقد استجيبتم دعواتي ! » وضغط بيده على رأسي ضغطاً أشد ، وكأنه يدعيني . وطوقني بذراعه وكأنه يكاد يحبني . ( أقول يكاد - فقد عرفت الفرق - ذلك بأنني كنت قد خبّرت ما معنى أن يكون المرء محبوباً . ولكنني كنت ، الآن ، مثله هو ، قد اخرجت الحب من الحساب ولم أفكر الا بالواجب ) . وناضلت ضد ضعف بصيرتي وضبايئها ، تلك البصيرة التي كانت السحب لا تزال تدّرُج أمامها . لقد تفتت توقاً صادقاً ، عميقاً ، متقدماً ، الى ان اعمل ما هو خير ، مجتزئة بذلك ليس غير . وتضرعت الى الله قائلة : « أهدني . . أهدني الصراط المستقيم ! » كان الانفعال يعصف بي اكثر مما عصف بي في أي مناسبة ماضية ، وسوف يكون في ميسور القارئ ان يقرر ما اذا كان ما حدث بعد ذلك هو ثمرة الاحتياج أم لا .

كان السكون يربن على المنزل كله ، اذ كان الجميع ، ما عداي وعدا سانت جون ، قد آووا في ما اعتقد الى مضاجعهم . كانت الشمعة الوحيدة تلفظ انفاسها الاخيرة ، وكانت الحجرة طافحة بضياء القمر . وخفق قلبي في سرعة وقوة : لقد استطعت ان اسمع وجيبه . وفجأة كفّ عن الخفقان تحت وطأة شعور لا سبيل الى التعبير عنه - شعور هزّه هزاً عنيفاً ثم انتقل في الحال الى رأسي وأطرافي . ولم يكن ذلك الشعور صدمة كهربائية ، ولكنه كان حاداً وغريباً مثل اجفال : لقد اثر في حواسي وكان نشاط هذه الحواس الاقصى كان حتى تلك اللحظة مجرد خدر وسبات ، انتزعت منهما الآن وأكرهت على الاستيقاظ . لقد نهضت متوقعة متطلعة : فأما العين والأذن فقد انتظرتا ، وأما اللحم فقد ارتعد فوق عظامي .

وسألني سانت جون : « ما الذي سمعته ؟ ما الذي تَرَيْنَه ؟ »

أنا لم أر شيئاً ، ولكنني سمعت صوتاً يصيح من مكان ما : « جين ! جين ! جين ! » ليس غير .

رسمت : « اوه ، يا الهي ! ما هذا ؟ »

ولو قد قلت : « أين هو ؟ » لما كان قلبي مستغرباً . فقد بدا أنه ييس في الحجرة ، وليس في المنزل ، وليس في الحديقة . أنه لم ينبعث من الهواء ، ولم ينبثق من باطن الأرض ، ولم ينطلق من فوق سمّت الرأس . كنت قد سمعته . . . أما أين سمعته ومن أين فذلك ما لن أستطيع معرفته أبد الدهر ! آه ، لقد كان صوت كائن بشري - صوتاً معروفاً ، محبوباً ، لست أنساه البتة - صوت ادوارد فيرفاكس روتشيستر . ولقد تكلم في ألم وأسى وعلى نحو ضارب ، راعب ، ملحاح .

فصحت : « أنا آتية ! انتظرنني ! أوه ، سوف آتي ! » واندفعت الى الباب ، والقيت نظرة على المجاز ، فإذا به مظلم . وعدوت الى الحديقة ، فإذا بها خاوية .

وهتفت : « أين انت ؟ »

فما كان من الهضاب ، القائمة وراء وادي « مارش غلين » ، الا ان اعادت اليّ الجواب على نحو واهن : « أين انت ؟ » واصغيت . وتنهدت الريح تنهداً رقيقاً وسط شجرات الشربين : كانت وحشة الاراضي السبخة وسكون منتصف الليل يهيمنان على كل شيء .

وقلت عندما برز ذلك الشبح اسود اللون ازاء شجرات السدر السوداء عند البوابة الخارجية : « أغرب ايها الوهم ! هذا ليس خداعاً من خداعك ، ولا سحراً من سحرك . انه عمل الطبيعة . لقد أوقظت من سباتها ، ولم تجترح أي معجزة . . . لا ، لقد بذلت غاية جهدها ليس غير . »

وأقلت من سانت جون ، الذي كان قد لحق بي ، والذي كان خليقاً به ان يحتجزني . لقد جاء دوري في السيطرة والتحكم ، وكانت قواي كلها محتشدة تعمل في همة ونشاط . فسألته ان يمتنع عن طرح أي سؤال او ابداء ايما ملاحظة . ورغبت اليه ان يتركني ، فقد كان يتعين عليّ - وكنت انا أودّ أيضاً - ان اخلو الى نفسي . فنزل عند رغبتني في الحال . فحيث تكون القدرة التي تمكّن المرء من اصدار الاوامر فلا مفرّ من الطاعة . وصعدت الى حجرتي ، واوصدت الباب على نفسي ، وركعت ، وصليت على طريقتي - وهي مختلفة من طريقة سانت جون ، ولكنها فعّالة على صورتها الخاصة . لقد بدا لي اني امسيت على مقربة دانية من روح جبارة ، واسرعت الى السجود عند قدميها عرفاناً للجميل . ثم انني نهضت من صلاة الشكر تلك . . . واتخذت قراراً . . . واضطجعت وقد زایلني الرعب واتضح امامي الطريق . . . واخذني التوق الى شيء واحد ليس غير ، هو ان ينحسر الظلام وينبج الفجر .

وتنفّس الصبح آخر الامر . ونهضت مع الضحى . وشغلت نفسي طوال ساعة او ساعتين بترتيب امتعتي في حجرتي وادراجي وخزانة ملابسي على



النسق الذي ارغب في تركها عليه خلال غيبة وجيزة . وفي غضون ذلك سمعت سانت جون يغادر حجرته ، ويقف لدى باب حجرتي . وخشيت ان يقرع الباب ولكنه لم يفعل : لقد امر من تحته قصاصة من ورق ليس غير . فرفعتها عن الارض ، فاذا هي تحمل هذه الكلمات :

« لقد فارقتني الليلة البارحة على نحو مفاجئ اكثر مما ينبغي . ولو انك لبثت بضع دقائق اضافية اذن لوضعت يدك على صليب المسيحي وتاج الملاك . واني لاتوقع ان اسمع قرارك الواضح عندما ارجع بعد اسبوعين اثنين . وفي غضون ذلك احترسي من التردّي في مهاوي الاغراء وصلّي من اجل ذلك . انا واثق من ان روحك راغبة ، ولكن جسدك - في ما ارى - واهن ضعيف . اني سوف اصلّي لاجلك ساعة بعد ساعة . - المخلص لك ، سانت جون . »

فأجبت في ما بيني وبين نفسي : « ان روحي راغبة في الاقدام على ما هو حق . وان جسدي ، في ما ارجو ، هو من القوة بحيث ينفذ ارادة السماء ، حالما تتجلى لي تلك الارادة على نحو لا لبس فيه . وعلى اية حال ، فسوف يكون من القوة بحيث يبحث ويسأل عن مخرج من ظلمات الشك هذه ، ويتلمّس السبيل القويم ويسعى لبلوغ نور اليقين . »

كنا الان في مطلع حزيران ( يونيو ) ، ومع ذلك فقد كان الصباح غائما باردا . وشرع المطر يقرع زجاج نافذتي في سرعة بالغة . وسمعت الباب الخارجي يفتح ، وسانت جون يغادر البيت . واذا نظرت من خلال النافذة رأيته يجتاز الحديقة . لقد سلك سبيل الاراضي السبخة التي كان الضباب يلفّها ، متجها نحو هويتكروس - كان عليه ان يدرك العربة العمومية هناك .

وقلت في ذات نفسي : « لن تنقضي بضع ساعات حتى احذو حذوك واسلك ذلك الدرب ، يا ابن عمتي . ان لديّ ، انا ايضا ، عربة عمومية يتعين عليّ ان ادركها في هويتكروس . وان لديّ ، انا ايضا ، شخصا يجب ان اراه واطمئن على صحته في انكلترا ، قبل ان ارحل الى الابد . »

كانت ثمة ساعتان تفصلاننا عن فطور الصباح . ولكي املأ هذه الفترة رحلت اذرع الحجرة في رفق ، جيئة وذهوبا ، وافكر في ذلك الطائف الذي المّ بي فوجّه خططي وجهتها الحالية . لقد استحضرت ذلك الشعور الباطني الذي خامرني - ذلك بأنني كنت قادرة على استحضاره - بكل ما اتّسم به من غرابة تعزّ على الوصف . واستحضرت الصوت الذي كنت قد سمعته . وكرة اخرى تساءلت من اين اقبل ، ولكنني لم احظ - كشأنني من قبل - بأي جواب شاف : لقد بدا لي انه انبعث من ذات نفسي ، لا من العالم الخارجي . وتساءلت هل كان مجرد انفعال عصبي - مجرد وهم ؟ ولم استطع ان افهم او ان اؤمن : لقد كان اقرب الى الالهام منه الى اي شيء آخر . وكانت هزة الاحساس العجيبة التي اجتاحتني اشبه بالزلزلة التي زعزت أساس سجن القديس بولس وسيلاس . لقد اشترعت ابواب زنازة الروح وفكّت قيودها .

لقد انقضت من رقادها ، فوثبت من غمرته مرتعدة مصغية مشدودة . ثم ان صيحه صارخة تردت في اذني المجفلة ، وفي فؤادي المرتجف ، وفي روحي التي لم توجس خيفة ولم ترتعد ، ولكنها تهللت وكأنما ازدهاها وابهجها نجاح ذلك الجهد الذي خولت حق القيام به بمعزل عن الجسد المعرقل المربك .

وقلت ، اذ ختمت تأملاتي : « لن تنقضي غير ايام معدودات حتى اعرف شيئا عن صاحب ذلك الصوت الذي بدا ، الليلة البارحة ، وكأنه يناديني . لقد اثبتت التجربة ان الرسائل لا تجدي . . . من اجل ذلك سوف استعيض عنها بالتحري الشخصي . »

وخلال فطور الصباح انبأت ديانا وماري اني اعتزم القيام برحلة ، واني سوف اغيب اربعة ايام على الاقل . فسألتني : « وحدك ، يا جين ؟ »

– « اجل . انما ابتغي ان ارى صديقا ساورني القلق عليه فترة من الزمان ، او ان استطلع نبأه . »

ولقد كان خليقا بهما ان تقولوا – فليس عندي من ريب في ان ذلك كان هو اعتقادهما – انهما حسبنا ان ليس لي من اصدقاء غيرهما . فالواقع اني كثيرا ما قلت ذلك على مسامعهما . ولكنهما احجمتا – بما فطرنا عليه من كياسة صادقة – عن التعليق على كلامي . وسألتني ديانا : « هل انت واثقة من ان صحتك تساعدك على الرحلة ؟ » مضيفة الى ذلك قولها انها تراني شاحبة الوجه الى حد بعيد . فأجبتها قائلة : اني لا اشكو غير قلق البال ، وهو شيء ارجو ان اتحرر منه عما قريب .

وكان من اليسير عليّ ان اتخذ ترتيباتي الاضافية . ذلك بانني لم ازعج بأيا مسئلة ، او بأيا ظنون . فما ان اوضحت لهما اني لا استطيع الآن ان افصح عن طبيعة خططي حتى تقبلتا الصمت الذي احطتها به بقبول حسن . وبذلك اتاحا لي فرصة التصرف الحر ، التي كان خليقا بي ان اتيحها لهما لو نشأت ظروف مماثلة .

وغادرت « مور هاوس » في الساعة الثالثة بعد الظهر . وما كادت الساعة تتجاوز الرابعة حتى وقفت عند معلم طريق هويتكروس ، في انتظار وصول المركبة المتوقّعة ان تقلّني الى ثورنفيلد القصية . وفي غمرة من صمت تلك الطرق المتوحدة والهضاب المقفرة سمعتها تدنو من مسافة بعيدة . كانت هي المركبة عينها التي ترجلت منها – قبل عام واحد وفي ذات ليلة من ليالي الخريف – في هذه البقعة نفسها وانا في غاية من الكآبة ، واليأس ، وفقدان الهدف ما وراءها غاية . واومات اليها ، فتوقفت . وامتلطت متنها ، من غير ان اضطر الآن الى دفع كل ما املك من مال اجرا لها . واذا وجدتني اسلك الطريق الى ثورنفيلد ، كرة اخرى ، استشعرت وكأنني حمام الزاجل يطير عائدا الى موطنه .

واستغرقت الرحلة ستا وثلاثين ساعة . كنت قد فصّلت من

هو يتكروس اصيل" يوم الثلاثاء ، وفي ساعة مبكرة من صباح الخميس التالي كفتت المركبة عن المسير لاطفاء ظمأ الخيل عند خانز قائم على جانب من الطريق في ريف طالعنتي وشائعته' الخضر وحقوله الواسعة وهضابه المعشوشبة الخفيضة ( لشد ما كان مظهرها عذبا ولونها خضرا بالقياس الى اراضي مورتون السبخة المتجهمة الواقعة في الجزء الاوسط الشمالي من البلاد ! ) وكأنها اساريير وجه كان في يوم من الايام مألوا عندني . اجل ، لقد عرفت طبيعة هذا الريف ، وكنت على مثل اليقين من اننا كدنا نبلغ الموطن الذي كنت اقصد اليه .

وسالت سائس الخيل : « كم ميلا تفصل قصر ثورنفيلد عن هذا المكان ؟ »

— « ميلان اثنان تماما ، عبر الحقول ، يا سيدتي . »

فقلت في ذات نفسي : « لقد خُتِمت رحلتي . » وترجلت من المركبة ، فأودعت حقيبتني سائس الخيل ريثما أعود فأطلب اليه ردها اليّ ، ودفعت اجر المركبة ، ودفعت الى الحوذي حلوانا ( بخشيش ) ، ومضيت لسبيلي . لقد التمعت اشعة الفجر على لافتة الخان ، فقرأت عليها هذه الكلمات مسطورة بأحرف مذهبة : « نزل اسلحة روتشيستر » ووثب قلبي من مكانه : كنت الآن اطا اراضي سيدي بالذات . ثم انه عاد فهبط من جديد : لقد خطرت له هذه الفكرة :

— « ان سيدك نفسه قد يكون ، بقدر ما تعرفين ، وراء القناة البريطانية . ولنفرض انه في قصر ثورنفيلد ، الذي تغذّين الخطي اليه ، فمن ذا الذي يقيم الى جانبه هناك ؟ زوجته المجنونة ! والى هذا فانت لم تعد لك به علاقة ما . انك لا تجرؤين على التحدث اليه او السعي للمثول بين يديه . لقد فقدت وظيفتك . . . . ومن الخير لك ان لا تذهبي الى ابعد من هذا . » — كذلك الح' الناصح المنذر — « اسألي اصحاب الخان ان يزودوك ببعض المعلومات . ان في استطاعتهم ان يقدموا اليك كل ما تتوقين الى معرفته . وفي ميسورهم ان يبددوا شكوكك في الحال . امضي الى ذلك الرجل ، واسأليه عن مستر روتشيستر اقيم في قصره الآن ؟ »

كان الاقتراح معقولا ، ومع ذلك فلم يكن في استطاعتي ان اكره نفسي على العمل وفقته . فقد كنت الحشي ، اشد ما تكون الخشية ، ان القى جوابا يسحقني بالياس سحقا . ان اطالة الشك كانت تعني اطالة الامل . ومن الخير لي ان ارى الى القصر ، كرة اخرى ، تحت اشعة نجمه . وها هي ذي سلم السياج امامي — الحقول نفسها التي كنت قد هرولت عبرها عمية ، صماء ، شاردة اللب تجتاحني وتدفعني سورة غيظ حقود ، صباح ذلك اليوم الذي فررت فيه من ثورنفيلد . وقبل ان استيقن اي اتجاه يتعين عليّ ان اسلكه وجدت نفسي وسط تلك الحقول . الا ما كان اسرع سيرى ! ولشد ما عدوت في بعض الاحيان ! وكم كان توقي الى تكحيل الطرف بأول نظرة القياها علم القابة المألوفة لدي ! وبأي ابتهاج غامر استقبلت الشجرات المفردة الصديقة

والومضات المعهودة من المرج والهضبة القائمين بينها .

واخيرا برزت الغابة . وتعددت الغربان سوداء ساحمة . وعكّر سكون الصباح نعيبٌ عالٍ . وحثني على الاسراع ابتهاجٌ عجيب ، فرحت اغد الخطى . حتي اذا عبرتُ حقلًا آخر . . . وتمعّجت في سيري حول درب من الدروب الفيتني امام اسوار الفناء . . . امام الجناح الخلفي الاسود من القصر . اما القصر نفسه ، واما مسرح الغربان فكانا لا يزالان محجوبين عن ناظري . وقررتُ : « سوف تكون الواجهة اول ما سآراه من القصر ، وهناك سوف تبدهني شرفاته البارزة بجلالها ونبلها ، وسوف يكون في مستطاعي ان اميّز نافذة سيدي نفسها من بين النوافذ جميعا ، ولعله ان يكون واقفا لديها . انه ينهض من رقاده باكرا ، ولعله الآن يتمشى في الجنيّة ، او في المجاز المعبد امام القصر . ليتني اوفق الى ان اراه . . ! لحظة واحدة ليس غير ! وليس من ريب في اني ، في هذه الحال ، لن أكون من الخبل بحيث اهرول الى لقائه ! لا ، لست استطيع ان اقطع برأي في هذه المسألة . . . انا لست واثقة . واذا هرولت للقائه ، ايُّ بأس في ذلك ؟ فليباركه الله ! ايُّ بأس في هذا ايضا ؟ من ذا الذي سوف يصاب بأذى اذا ما تذوقتُ كرة اخرى تلتك الحياة التي تستطيع نظرتة ان تغدقها عليّ ؟ لا ، انا اهذي . . . لعله في هذه اللحظة يشهد الشمس وهي تشرق فوق جبال البرانس ( البيرينيّه ) ، او على بحر الجنوب الساجي » .

وكنت قد سرت في محاذاة جدار الجنيّة الداخلي ، واستدرت عند زاويته : كان في تلك النقطة بالذات بوابة خارجية ، تفضي الى المرج ، بين عمودين حجريين تتوجهما كرتان حجريتان . ومن وراء احد العمودين كان في ميسوري ان اختلس النظر ، في سكون ، الى واجهة القصر برمتها . واتلعت عنقي في احتراس ، رغبةً في ان استيقن هل زفّع ايُّ من اجفان النوافذ في حجرات النوم . فاذا بالشرفات ، والنوافذ ، والواجهة الطويلة - كلها تصبح ، من هذا الموقع المحجّب ، في متناول بصري .

ولعل الغربان المقلعة فوق رأسي قد راقبتني وانا اختلس تلك النظرات . وتساءلت : ترى ما الذي خطر في بالها اذ رأتني ؟ لا ريب في انها لاحظت ، بادىء الامر ، حذري وخجلي البالغين ، ثم تبدّى لها اني امسيت ، تدريجيا ، شديدة الجراءة والنهور . ذلك بأن نظرتي المختلّسة سرعان ما استحالت تحديقا طويلا ، وبأنني ما لبثت ان فارقت مخبأي وهمت على وجهي في المرج . وفجأة وقفت امام واجهة القصر مباشرة ، ورحت ارنو اليها بنظرات متطاولة جسورة . واغلب الظن ان الغربان قد تساءلت : « ايّ تكلف للحياء كان هذا بادىء الامر ! والى أية لامبالاة بلهاء انقلب الآن ! »

واليك ، ايها القارئ ، هذه الصورة التمثيلية :

يجد عاشق محبوبته راقدة على ضفة معشوشبة . انه يتمنى لو يلمح

وجبهها الجميل من غير ان يوقظها . فهو يمشي مترفقا على العشب محاذرا ان يصدر عنه صوت ما . ثم انه يقف ، متوهما انها تحركت . وينسحب ، مؤثرا الاحتجاب عن العيون على ثروات العالم كلها . ان كل شيء ساكن ، وكرة اخرى يتقدم العاشق نحو محبوبته ، وينحني فوقها ، فيجد على وجهها حجابا رقيقا ، فيرفعه ، ويغالي في الانحناء فوقها . عندئذ تتوقع عيناه رؤية الجمال - دافئا ، منورا ، فاتنا في سكونه . لشد ما كانت نظرتهما الاولى عاجلة ! ولكن ما اسرع ما تتسمران ! ويجفل العاشق أي اجفال ! وسرعان ما يضم بين ذراعيه ، في قوة وعنف ، ذلك الجسد الذي لم يجرؤ ، قبل لحظة واحدة ، على ان يمسّه بأصبعه ! وفجأة يرفع عقيرته باسم ما ، ويضع حمله على الارض ، ويحرق اليه بنظرات ضارية . ويروح من ثم يعانقه ، ويعول ، ويرنو ، لانه لم يعد يخشى ان يوقظه بأيما صوت يمكن ان يصدر عنه ، وبأيما حركة يمكن ان يقوم بها . لقد اعتقد ان محبوبته قد نامت نوما هائلا ، فاذا به يجدها جثة هامدة !

ذلك كان متخلي انا : لقد تطلّعت في ابتهاج متهيب الى قصر فخم ، فاذا بي ارى اطلالا جليليت بالسواد .

لم تكن ثمة ، في الواقع ، حاجة الى الجثوم وراء احد الاعمدة . واختلاس البصر الى شعريات حجرة من الحجرات خشية ان المح اي امارة من امارات الحياة خلفها ! ولم تكن ثمة حاجة الى الاصغاء الى الابواب رجاء ان تفتح . . . . . والى تصوّر وقع خطي على المجاز المعبّد او على الممشى المفروش بالحصي ! كانت المرجة والحدائق مدوسة بالاقدام ، مهملة . وكان الباب يتشاب مؤذنا بالفراغ . اما واجهة القصر ، فكانت كما رأيتها ذات مرة في ما يراه النائم ، مجرد جدار هيكلّي أجرد ، مرتفع جدا ، هشّ المظهر جدا ، تتخلّله نوافذ لا الواح زجاجية فيها . لم يكن ثمة سطح ، ولا شرفات ، ولا مداخن . كان كل اولئك قد انهار .

ان سكون الموت كان يخيم على القصر : وحشة متجّهل من المجاهل المتوحدة . فلا عجب ان تكون الرسائل التي وُجّهت الى هذا البيت لم تحظّ البتة بأي جواب : لكانها رسائل وُجّهت الى سرّاب في ممشى كنيسة . وافصح سواد الحجارة المكالح عن الكارثة التي ألمّت بالقصر - من طريق الحريق : ولكن كيف احترق ؟ وما قصة هذه النكبة ؟ واية خسارة - الى جانب خسارة الملاط والرخام والابواب والنوافذ - نشأت عن ذلك ؟ هل حدث نقص في النفس كما حدث نقص في الاموال ؟ واذا صحّ هذا ، فأية نفس قدّر لها ان تكون هي الضحية ؟ سؤال رهيب لم يكن ههنا من يجيب عنه - بل لم يكن ثمة اية امارة خرساء ، او اية علامة بكاء .

وبالتطواف حول الجدران المنهارة وخلال الاطلال الداخلية اجتمع لديّ من البيّنات ما أكد لي ان الكارثة لم تكن قريبة عهد بالحدوث . وخيّل الي ان ثلوج الشتاء كانت قد تسربت الى داخل القصر من خلال تلك القنطرة الجوفاء ، وان امطار الشتاء قد نفذت اليه من تلك النوافذ الفارغة . ذلك بأن

الربيع كان قد اطلع الحياة وسط اكوام القاذورات المطلولة هذه ، فنما العشب وضروب النباتات الطفيلية ههنا وههناك بين الحجارة وروافد السقف الخشبية المنهارة . ولكن اين كان صاحب هذا الحطام السيء الحظ ؟ في اية ارض ؟ وفي رعاية مَنْ ؟ وعلى نحو غير ارادي وقع بصري على برج الكنيسة الاغبر ، قرب البوابة الخارجية ، فسألت نفسي : « أليكون مع دامر دو روتشيستر ، يقاسمه سقف مثواه الرخامي الضيق ؟ »

وكان لا بد لي من الحصول على جواب ما عن هذه الاسئلة . ولم يكن في ميسوري ان اقع عليه الا في النزول ، وهكذا فأني سرعان ما رجعت الى هناك . وحمل صاحب النزول بنفسه فطور الصباح الي في حجرة الاستقبال . فسألته ان يوصد الباب ويجلس قائلة له ان لدي بضعة اسئلة احب ان اوجهها اليه . حتى اذا نزل عند ارادتي لم اكد اعرف كيف استهل الكلام . فقد استبدت بي من الاجوبة المحتملة ذعر عظيم . ومع ذلك فان مشهد الخراب الذي فارقت منذ لحظات أعدني ، الى حد ما ، لقصة من قصص البؤس . وكان صاحب النزول رجلا مهيبا في خريف العمر .

ووفقت آخر الامر الى القول : « انت تعرف قصر ثورنفيلد ، من غير ريب ؟ »

— « اجل ، يا سيدتي . لقد عشت فيه زمنا . »

— « صحيح ؟ » اما في ذات نفسي فقلت : لم يكن ذلك في ايامي طبعاً ، فأنا لا اذكر اني عرفتك من قبل .

فاضاف : « لقد كنت كبير خدم مستر روتشيستر رحمه الله . »

عندئذ قلت لاهثة : « رحمه الله ؟ هل مات ؟ »

فاوضح قائلاً : « انما عنيت ابا مستر ادورد مالك القصر الحالي . »

فتنفست الصعداء ، واستأنف دمي تدفقه . فقد استوثقت ، بهذه الكلمات ، ان مستر ادورد — ان روتشيسبري انا ( فليباركه الله ، ايا كان مكانه ! ) حي يرزق ، على الاقل ، وانه بكلمة موجزة « مالك القصر الحالي » . يا لها من كلمات مبهجة ! لقد بدا لي انه قد امسى في ميسوري الآن ان اتلقى ، في سكون نسبي ، كل ما ينتظرني من انباء ، مهما تكن هذه الانباء . ان في طوقي — كذلك قلت في ذات نفسي — ان احتمل ، بعد ان ثبت لدي انه لا يرقد تحت الثرى ، أي نبا عنه ، حتى ولو قيل لي انه يقيم في جزر الآنتيبوديز .

وسألته ، وانا اعلم طبعاً ما سيكون جوابه ولكني رغبت في ان ارجى السؤال المباشر عن مستقره الفعلي : « هل يقيم مستر روتشيستر ، الآن ، في ثورنفيلد ؟ »

— « لا ، يا سيدتي . . . . . اوه ، لا ! ان احدا من الناس لا يقيم هناك . »

وانا احسب انك غريبة عن هذه الديار ، والا لما فاتك ان تسمعي بالذي حدث في الجريف الماضي . . . . لقد استحال قصر ثورنفيلد الى خراب ، وانما التهمته النار قبيل موسم الخصاد . يا لها من كارثة رهيبة ! لقد اتى الحريق على مقدار هائل من الممتلكات النفيسة ، فلم يكن في الامكان استنقاذ ايما قطعة من قطع الاثاث . والواقع ان النار اندلعت في جوف الليل البهيم ، وقبل ان تصل عربات الاطفاء من ميلكوت كان المبنى قد اصبح كتلة من لهب . كان مشهداً فظيماً : لقد رأيته بأمر عيني . »

فغمضت : « في جوف الليل البهيم ! » اجل ، كانت هذه هي ، دائماً ، ساعة الشؤم في ثورنفيلد . ثم سألته : « وهل عرفت شيء عن سبب الحريق ؟ »

– « لقد حدسوا ، يا سيدتي ، حدسا . لقد حدسوا حدسا . ومع ذلك ففي استطاعتي ان اقول ان الامر ثابت لا يأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه . » وهنا أدنى كرسيه بعض الشيء الى الطاولة وتابع كلامه في صوت خفيض : « لعلك لا تعرفين ان جدران القصر كانت تشتمل على سيدة . . . سيدة مجنونة ؟ »

– « لقد سمعت بشيء من ذلك . »

– « كانت محتجزة في مَحْبِس حريز ، يا سيدتي . ولقد ظل الناس ، طوال سنوات بكاملها ، غير واثقين من وجودها ثقة تامة . ان احدا لم يرها : كل ما عرفه الناس من طريق الاشاعات انه كان في القصر امرأة من هذا الضرب . أما من كانت تلك المرأة وما كانت فذلك أمر لم يكن من اليسير عليهم ان يحزروه . لقد قالوا ان مستر ادورد كان قد جاء بها من وراء البحار ، وذهب بعضهم الى القول انها كانت خليلته . ولكن شيئاً عجيباً حدث منذ سنة . . . شيئاً عجيباً جداً . »

وخشيت الآن ان اسمع قصتي نفسها . وحاولت ان اردّه الى الواقعة الاساسية .

فقلت : « وتلك السيدة ؟ »

فأجاب : « لقد ظهر في ما بعد ان تلك السيدة كانت زوجة مستر روتشيستر ! وانما تمّ اكتشاف ذلك بطريقة ليس اعجب منها . فقد كانت ثمة سيدة شابة ، مربية خصوصية في القصر ، وقسع مستر روتشيستر في . . . . »

فحاولت رده الى الموضوع الاساسي ، كرة اخرى ، فقلت : « والنار ؟ حدثني عن النار . »

« سوف احدثك عن ذلك بعد لحظة ، يا سيدتي . قلت انه كانت ثمة سيدة وقع مستر روتشيستر في غرامها . ويقول الخدم انهم لم يعرفوا رجلاً تبغ الحب اكثر مما تبغ مستر روتشيستر ، فقد كان يتبعها حيث ذهبت . كان من دأبهم ان يراقبوه – والخدم لا يتورعون عن ذلك ، كما تعرفين ، يا سيدتي – وكان هو معجباً بها اكثر من اعجابه بأيام امرأة اخرى ، ومع ذلك ،

فإن احدا من الناس لم يحسبها بارعة الجمال . لقد كانت مخلوقة صغيرة ضئيلة الجسم ، كما قالوا ، فهي تشبه - أو تكاد - طفلا من الاطفال . انا لم ارها بعيني قط ، ولكني سمعت « ليا » ، الخادمة ، تتحدث عنها . لقد اجبتها « ليا » حبا غير يسير . وكان مستر روتشيستر في نحو الاربعين ، وكانت تلك المربية دون العشرين من العمر . وانت تعلمين ان الرجال في مثل تلك السن اذا احبوا فتاة من الفتيات احبوهما ، في اكثر الاحوال ، وكانهم مسحورون . حسنا ، لقد اراد الزواج منها . »

فقلت : « في امكانك ان تقص عليّ هذا الجزء من الحكاية في فرصة اخرى ، اما الآن فان لدي سببا خاصا يجعلني راغبة في سماع كل شيء عن مسألة الحريق هذه . هل ذهب الظن بالقوم الى ان لهذه المرأة المخبولة ، السيدة روتشيستر ، يدا ما في الامر ؟ »

- « لقد اصبحت الحقيقة ، يا سيدتي . فمن الثابت الذي لا ريب فيه ان تلك السيدة ، ولا أحد سواها ، هي التي اضرمت النار في القصر . كانت لديها امرأة تعني بامرها ، هي مسز بول - وكانت امرأة بارعة في اداء وظيفتها الخاصة ، جديرة بالثقة الى ابعد حد ، لولا عيب واحد - وهو عيب مألوف عند كثير من الممرضات والمدبرّات : كانت تحتفظ الى جانبها دائما بزجاجة خاصة من « الجن » ، فهي تكرر بين الفينة والفينة جرعة اكبر مما ينبغي بقليل . وهو أمر يستطيع المرء ان يجد له مبررا - لان حياتها مع تلك المجنونة كانت جحيما - ولكنه خطر جدا . اذ كثيرا ما كانت مسز بول تستغرق في نوم عميق ، بعد اسراف في الشراب ، فتعتمد السيدة المجنونة - التي كانت ماهرة مثل عرافة من العرافات - الى انتزاع المفاتيح من جيبتها ، وتنطلق الى خارج حجرتها ، وتهيم على وجهها في القصر ، منزلة به أيما اذى ضار قد يخطر لها على بال . ويقولون انها كادت تحرق زوجها في فراشه ذات يوم ، ولكني لست واثقا من ذلك . وعلى اية حال ففي الليلة التي احترق فيها القصر اضرمت النار اول ما اضرمتها في ستائر الحجرة المحاذية لحجرتها ، ثم هبطت الى طابق ادنى ، واتخذت سبيلها الى الحجرة التي كانت حجرة المربية ( لقد بدا وكأنها عرفت ، بطريقة ما ، صلتها بمستر روتشيستر ، فحققت عليها ) واضرمت النار في السرير ، ولكن حسن الحظ شاء ان يكون ذلك السرير شاغرا لا يرقد فيه أحد . كانت المربية قد لاذت بالفرار ، قبل شهرين اثنين . وعلى الرغم من جميع الجهود التي بذلها مستر روتشيستر في البحث عنها ، وكأنما كانت ائمن ما يملكه في هذا العالم ، فانه لم يوفق الى سماع ايما كلمة عنها . وهكذا احتالته خيبة الامل الى وحش ضار : انه لم يكن في ايما يوم رجلا شرسا ، ولكنه أمسى خطرا بعد ان فقدها . ثم انه أثر الوحدة ايضا . فرحل مسز فيرفاكس ، مدبرة شؤون المنزل ، الى اصدقاء لها يقيمون على مسافة ما . ولكنه سرّحها باحسان ، اذ أجرى لها راتب سنويا مدى الحياة . ولقد كانت بذلك جديرة ، فهي امرأة صالحة جدا . اما مس آدبل ، وهي قاصرة كان يكفلها ، فقد ادخلت احدى المدارس . وبعد ذلك قطع



علاقاته مع جميع الاعيان والاثرياء ، واعتزل في القصر وكأنه ناسك من النساء ؟ »

« ماذا ؟ انه لم يغادر انكلترا ؟ »

« يغادر انكلترا ؟ يا الهي ، لا ! لقد أبى ان يتجاوز عتبة القصر ، الا تحت جناح الظلام ، عندما كان من دأبه ان يتمشى ، مثل شبح من الاشباح ، في الحديقة وفي البستان وكأنما قد أصابه مس . والواقع اني اذهب الى القول ان مسًا قد أصابه ، لان احدا لم يراَ يا سيدتي - قبل ان يتعرف الى تلك المربية القزمية - رجلا ارشق منه ، ولا اجراً ، ولا اذكى . كان رجلاً مولعاً بالخمر او بورق اللعب او بسباق الخيل ، شأن بعض الناس ، ولم يكن وسيم الوجه جداً ، ولكنه كان ذا شجاعة بالغة ، وارادة قوية ، اذا قدّر لامرئ ان تكون له ارادة قوية في ايما يوم من الايام . لقد عرفته منذ ان كان طفلاً . ولكم وددت من ناحيتي لو ان مس ايير أغرقت في البحر قبل ان تفيد الى قصر ثورنفيلد . »

« واذن فقد كان مستر روتشيستر في القصر عندما اندلعت النار ؟ »

« اجل لقد كان فيه من غير ريب . ولقد ارتقى السلم الى العلوية عندما كان كل شيء يحترق من فوقه ومن تحته ، وأخرج الخدم من مضاجعهم وساعدتهم بنفسه على النزول ثم رجع لكي يخرج زوجته المخبولة من حجرتها . عندئذ صاح القوم قائلين له انها كانت على السطح ، حيث كانت واقفة ، تلوح بذراعيها ، فوق الشرفات ، وتصيح حتى لقد كان في الامكان سماعها من على مسافة ميل . لقد رأيته انا بعيني وسمعتها بأذني . كانت امرأة ضخمة البنية ، وكانت ذات شعر اسود طويل : لقد كان في ميسورنا ان نراه يتماوج ، وهي واقفة ، بازاء السنة الذهب . ولقد شهدت مستر روتشيستر ، وشهده معي عدد من الناس كثير ، يصعد من خلال الكوة الى السطح : وسمعناه ينادي « بيرتا ! » ، ورأيناه يدنو منها . وعندئذ صاحت هي ، يا سيدتي ، ووثبت . وما هي غير دقيقة واحدة حتى كانت منطرفة ، مهشمة تهشما ، على المجاز المعبد . »

« ميتة ؟ »

« ميتة ؟ أجل ، ميتة كالحجارة التي انتثر عليها دماغها وسال دماها . »

« يا الهي ! »

« من حقا ان تقولي هذا يا سيدتي . فقد كان ذلك رهيباً ! »

وارتعدت اوصاله .

فألحقت : « وماذا حدث بعد ذلك ؟ »

« حسنا ، يا سيدتي ، بعد ذلك احترق القصر من قمته حتى اساسه . »

ولم يبق منه قائما اليوم غير بقايا جدران . »

« هل فقدت ارواح اخرى ؟ »

« لا . ولعله كان من الخير لو فقدت . »

« ماذا تعني ؟ »

فصاح : « مسكين مستر ادورد ! لم يكن يقوم في وهمي اني سوف اشهد ذلك ، الا قليلا . وبعضهم يقولون انها عقوبة له عادلة لابقائه زواجه الاول طي الكتمان ، ولمحاولته ان يتخذ زوجة ثانية على حين ان في عصمته امرأة على قيد الحياة . اما انا ، فأرثي له حقا . »

فهمت : « لقد قلت انه لا يزال حيا ؟ »

— « اجل ، اجل ، انه حي . ولكن كثيرا من الناس يعتقدون ان موته كان خليقا به ان يكون خيرا له . »

— لماذا ؟ كيف ؟ » وجمد دمي في عروقي ، كرة اخرى .

وسألته : « اين هو ؟ اهو في انكلترا ؟ »

— « اجل ، اجل ، انه في انكلترا . هو لا يستطيع ان يغادر انكلترا ، في ما يخيّل الي . انه الآن مسمر الى مكانه . »

يا له من نكال رهيب ! ولقد بدا لي ان هذا الرجل كان مصمما على اطالة ذلك النكال لتلويحي وتعذيبي .

واخيرا قال : « لقد فقد بصره فقدانا كاملا . اجل ، ان مستر ادورد قد فقد بصره فقدانا كاملا . »

والواقع اني كنت قد خشيت شيئا اسوأ . كنت قد خشيت ان يكون قد جُنَّ . واستجمعت قوتي لاسأل عن السبب الذي اورثه هذا البلاء .

— « كان ذلك بسبب من شجاعته ، في المقام الاول ، وفي استطاعة المرء ان يقول بسبب من شفقتة ، بمعنى من المعاني ، يا سيدتي . فقد أبى ان يغادر القصر الا بعد ان يغادره سائر نزلاته . حتى اذا هبط درجات السلم الكبير ، آخر الامر ، بعد ان قذفت مسر روتشيستر بنفسها من فوق الشرفات ، حدثت قرقة هائلة . . . وانهار كل شيء . ولقد انتشل من تحت الانقاض ، حيا ، ولكنه مصاب بجراح بليغة . كانت احدى الدعائم الخشبية قد سقطت على نحو صانه صيانة جزئية ، ولكن احدى عينيه قلعت ، واحدى يديه سُحِقت سحقا اضطر مستر كارتر ، الطبيب الجراح ، الى بترها في الحال . وآلم بالعين الاخرى التهاب ، فاذا به يفقد قدرته على الابصار بها ايضا . انه الآن عاجز ، عاجز حقا — مكفوف البصر مقعد . »

— « اين هو ؟ اين يحيا الآن ؟ »

— « في فيرندبان ، وهو بيت ريفي في مزرعة يملكها ، وتقع على مبعدة ثلاثين ميلا . انها بقعة موحشة حقا . »

— « ومن يقيم معه ؟ »

— « جو العجوز وزوجته . انه لا يريد احدا غيرهما . ويقولون ان صحته منهارة تماما . »

— « هل لديك اية وسيلة من وسائل المواصلات ؟ »

— « ان لدينا عربة خفيفة ذات دولابين وجواد واحد . انها عربة انيقة جدا . »

— « دَعْنهم يُعَدُونها في الحال . واذا كان في ميسور حوزيك ان

يقُلُّني الى فيرنديان قبل ان يهبط الظلام دفعت اليك واليه ضِعف الاجر الذي تتقاضياه عادة .

## ٣٧

كان منزل فيرنديان الريفي مبنى بالغ العتق ، معتدل الحجم ، مبرءاً من ايما مظهر من مظاهر التكلف المعماري ، دفيناً في جوف غابة . وكنت قد سمعت شيئاً عنه من قبل . فكثيراً ما تحدث مستر روتشيستر عنه . ولقد كان يقصد اليه في بعض الاحيان . وكان والده قد اشترى ذلك العقار رغبة في الغابة التي تكنفها والتي تزخر بطيور الصيد والطرْد . ولقد كان خليقاً به ان يؤجّر المنزل ولكنه لم يوفق الى العثور على من يستأجره ، بسبب موقعه غير الملائم وغير الصحي . ومن أجل ذلك ظل منزل فيرنديان غير أهل وغير مؤثث ما عدا غرفتين او ثلاث غرف اُعدّت لاستقبال رب البيت كلما قصد الى هناك في موسم الصيد .

الى هذا المنزل ذهبت ، قبل سقوط العتمة مباشرة ، في أمسية مُتَسِمَة بسماء كثيبة ، وريح باردة ، ومطر موصول ثاقب صغير الحبات . وقد اجتزت الميل الاخير سعياً على القدمين ، بعد ان صرفت العربة وسرحت الحوزي دافعة اليه المكافأة المضاعفة التي كنت قد وعدت بها . وحتى حين امسيّت على مسافة قصيرة جداً من المنزل الريفي لم يكن في ميسوري ان ارى منه شيئاً ، فقد كانت شجرات الغابة المظلمة المحيطة به قائمة جداً ، ملتفة الى ابعد الحدود . وهدتني بوابة خارجية حديدية ، قائمة بين عمودين من حجر الصوان ، الى المدخل . حتى اذا اجتزتها الفيت نفسي ، في الحال ، في غسقٍ من الاشجار الملتفة . وكان ثمة طريق معشوشبة تهبط عبر الغابة ، بين جذوع شائبة كثيرة العُقد وتحت اقواس من اغصان الشجر . فسلكتها ، متوقعة ان ابلغ المنزل بعد لحظات . ولكنها تطاولت وتطاولت ، وتلوّت ابعد فأبعد . ان عيني لم تقع على ايما اثر من آثار الحياة البشرية او الحياة الزراعية .

وحسبت اني اتخذت اتجاهها خاطئاً واني ضللت السبيل . واجتمعت عليّ ظلمة الغروب وظلمة الغابة . واجلت الطرف في ما حولي بحثاً عن طريق اخرى . ولكنني لم اهتمد الى شيء من ذلك . كان كل ما وقعت عليه عيناى اغصانا متشابكة ، وجذوعاً اسطوانية الشكل ، واوراقاً كثيفة صيفية السمات - لم يكن ثمة ايما ثغرة او فرجة .

وتقدمت . واخيراً تبيّنت طريقى ، وخفّت كثافة الغابة بعض الشيء . وسرعان ما لمحت درابزوناً ، ثم لمحت المنزل . كان التمييز ما بينه وبين اشجار الغابة ، بذلك الضياء الباهت ، امراً عسيراً . فقد كانت جدرانها العفنة رطبة خضراء الى مدى بعيد . ودخلت باباً لم يوصد الا بمزلاج ، فوجدتني وسط قطعة من الارض مسيجة انحرفت الغابة منها على شكل

نصف دائرة • لم يكن ثمة رياحين ولا مظاهر • ولكن مجرد ممشي عريض مفروش بالحصى تكتنفه من كل جانب ارض خضرة منبسطة في الجزء الاكثف من الغابة • وكانت واجهة المنزل تزدان بسطحين هرميين مستدقيين ، وكانت النوافذ ضيقة مشعرة • • ، وكان الباب الامامي ضيقا ايضا ، تقضي اليه درجة واحدة ليس غير • ولقد بدا البيت كله ، كما كان صاحب « نزل اسلحة روتشيستر » قد قال : « بقعة موحشة حقاً » • كان ساكنا سكون كنيسة في يوم من ايام الاسبوع العادية ، وكان المطر المدمدم على اوراق الغابة هو الصوت الوحيد المسموع في جواره •

وتساءلت : « أيمن ان تكون ههنا حياة ؟ »

اجل ، كانت ثمة حياة من ضرب ما • ذلك بانني سمعت حركة - كان ذلك الباب الامامي الضيق يُفتح ، وكان شكل ما على وشك الخروج من البيت الريفي •

وانفتح الباب في تؤدة • واطل منه ، في غمرة الفسق ، شخص ما ، ووقف على العتبة • كان رجلا غير معتمر بقبعة : رجلا بسط يده وكأنه يريد ان يتحسس ما اذا كان المطر ينهمر ام لا • وعرفته ، على الرغم من الظلام الدامس • كان هو سيدي ، ادورد فيرفاكس روتشيستر ، وليس احدا غيره • وحسبت خطوتي ، وكدت احبس انفاسي ، ووقفت لاراقبه • • • لاتأمله ، من غير ان يكون في وسعه ، وأأسفاه ! ان يراني • كان لقاء مفاجئا - لقاء كبح الالم فرحته كبحا شديدا • ولم اجد اي عسر في صد صوتي عن الهتاف ، وصد خطوتي عن التقدم المتعجل •

كانت القوة تطبع جسمه كله كعهده من قبل ، وكانت قامته منتصبه ما تزال ، وكان شعره اسود غُدافيا ايضا ، ولم تكن قسما وجهه قد تغيرت او غارت : ان قوته الرياضية ما كان ممكنا ان يُخمدتها ابدا اسى مهما يكن ، خلال عام واحد ليس غير • وان شبابه العزوم ما كان ممكنا ان يصوّحه شيء من مثل ذلك • اما اساريه فقد لمحت فيها تغيرا - تغيرا بدا لي قانطا مستغرقا في التفكير • • • وذكرني بوحش ضار او بطير كاسر أوذي وكبيل بالاصفاد ، فليس من الحكمة ان يدنو منه المرء في محنته الكالحة تلك • ان النسر الحبيس في قفص ، والذي اطاقات يده وحشية عينيه المطوقتين بالذهب ، لا يمكن ان يبدو للنظر مثلما بدا ذلك « الشمشون » الكفيف البصر •

وهل تحسب ، ايها القارئ ، اني خشيتُه في شراسته المكفوفة ؟ - اذا حسبت ذلك كان من حقي ان اقول انك لا تعرفني الا قليلا • ومازج اسايء امل عذب في ان اجرؤ ، وشيكا ، على طبع قبلة على ذلك الجبين المقدود من صخر ، وعلى تينك الشفتين المطبقتين تحته بهذا التجهم كله • ولكن الاوان لم يحن بعد ، فليست بي رغبة ، الآن ، في مبادرته بالكلام •

✻ جمع مزرع : وهو جزء من الحديقة تزرع فيه الزهور •

✻✻ ذات شعريات •

وهبط الدرجة المفردة ، وتقدم في تودة وعلى نحو متلمس نحو الارض الخضيرة . الى اين كانت تتجه خطواته الجريئة الآن ؟ ثم انه كف عن المسير ، وكأنه تردّد ولم يدرك اية سبيل يسلك . ورفع يده ، وفتح جفنيه ، وحدّق تحديقاً اجوف - في جهد جاهد - الى السماء ونحو صفوف الاشجار المدرّجة ، فكان في ميسور المرء ان يدرك ان كل شيء كان عنده ظلاماً خاوياً . وبسط ذراعه اليمنى ( اما ذراعه اليسرى ، الذراع البتسراء ، فأبقاها معجوبة في صدره ) ، وبدا وكأنه يريد ان يكون - من طريق اللمس - فكرة عما يحيط به . ولكنه لم يجد امامه غير الفراغ ، ذلك بان الاشجار كانت تقوم على مبعدة بضع ياردات من موقعه . فتخلّى عن المحاولة ، وطوى ذراعيه ، ووقف ساكناً أبكم تحت المطر ، الهاطل غزيراً على رأسه الحاسر . وفي هذه اللحظة تقدّم جون نحوه من ناحية ما .

وقال : « هل لك ان تمسك بيدي ، يا سيدي ؟ ان الجو ينذر بانهمار وابل عنيف . اليس من الافضل ان تنقلب الى داخل البيت ؟ »

فكان الجواب : « دعني وشأني . »

وانسحب جون ، من غير ان يلمحني . وحاول مستر روتشيستر ، الان ، ان يتمشّى ، ولكن على غير طائل . فقد كان كل شيء موضع ارتياب . وهكذا تلمّس سبيله عائداً الى المنزل ، فدخله ، وأوصد الباب دونه . عندئذ دنوت من الباب وطرقته . ففتحت لي زوجة جون ، فقلت :

« ماري ! كيف حالك ؟ »

فحدقت اليّ وكأن بصرها وقع على شبح . فهدأت من روعها . وحين وجهت اليّ سؤالها المعجل : « أهذه أنت حقاً ، يا آنسة ، وقد وفدت في هذه الساعة المتأخرة الى هذا المكان المنعزل ؟ » أجبتها بأن أمسكت بيدها . ثم اني تبعتها الى المطبخ حيث قعد جون يصطلي بنار حسنة الضرام . وأوضحت لهما ، في بضع كلمات ، اني سمعت بكل ما حدث منذ مغادرتي ثورنفلد ، واني وفدت لأرى مستر روتشيستر . وسألت جون أن يمضي اليّ « بوابة المكوس » التي سرحت ، عندها ، العربة وأن يحمل اليّ حقيبتى التي خلّفتها هناك . وعندئذ سألت ماري ، وأنا أنزع قلنسوتي وشالي ، ما اذا كان في امكاني ان أبيت تلك الليلة في المنزل الريفي . حتى اذا وجدت أن اسباب مبيتى غير متعذرة - وان تكن عسيرة - أعلمتها اني وطلت العزم على البقاء . وفي تلك اللحظة بالذات رن جرس حجرة القعود .

فقلت : « عندما تدخلين حجرة القعود قولى لسيدك ان ثمة شخصاً يود أن يتحدث اليه ، ولكن لا تدلي اليه باسمي . »

فأجابت : « لست أظن انه سوف يوافق على استقبالك . فمن دأبه ان يرفض الاجتماع الى الناس جميعاً . »

وحين رجعت سألتها : « ماذا قال لك ؟ »

« قال ان عليك ان تبعثي اليه باسمك وبالفرض الذي من أجله جئت . »

ثم انها عمدت الى كوب فملأته ماءً ، ووضعتنه هو وبيض شموع على صينية .

وسألتها : « من اجل هذا دق الجرس ؟ »

« أجل . انه يود دائماً أن تحمل اليه الشموع عندما يهبط الليل ، على الرغم من انه كيف . »

« هاتي الصينية . سوف ادخلها انا بنفسي . »

وأخذتها من يدها . فدلتنني على باب حجرة القعود . واضطربت الصينية في يدي ، وأريق بعض الماء من الكأس ، وخفق قلبي خفقاناً سريعاً داوياً ، وفتحت ماري الباب لي ، ثم أوصدته خلفي .

كانت الكابة ترين على حجرة القعود تلك . وكانت بضع جمرات تتقد - وما تكاد - في المدفأة . وبدأ نزيل الحجرة الأعمى منحنياً فوق المدفأة وقد أسند رأسه الى رقبته العالي ذي الطراز العتيق . وكان كلبه العجوز ، بايلوت ، مضطجماً على أحد جنبيه ، منتحياً احدى الزوايا ، ملتفاً على نفسه وكأنه خشي ان تطأه قدما سيده عن غير ما قصد . ورفع بايلوت اذنيه وأرهفهما عندما دخلت الحجرة ، ثم انه وثب نحوي وهو ينبج ويثن ، وكاد يوقع الصينية من يدي . فوضعتها على المائدة ، ثم أخذت أربت على ظهره ، وقلت في رفق : « ارقد ! » فاستدار مستر روتشيستر على نحو آلي لكي يورى علام كان ذلك اللفظ والاضطراب . ولكنه لم يو شيئاً . فارتد الى وضعه الاول وتنهذ ، وقال :

« ناوليني الماء ، يا ماري . »

فقدمت اليه الكأس التي كانت قد أمست الان نصف مملوءة . وتبعني بايلوت والاهتياج لا يزال غالباً عليه .

وتساءل مستر روتشيستر : « ما المسألة ؟ »

فقلت كرة اخرى : « أرقد ، يا بايلوت ! » فصد الماء عن شفتيه ، وكان في سبيله اليهما ، وبدأ وكأنه يصغي . ثم انه شرب ، ووضع الكوب على المائدة ، وقال :

« انت ماري ؟ الست انت ماري ؟ »

فأجبت : « ماري في المطبخ . »

وبسط يده في حركة سريعة ، ولكنه لم يمسنني ، لانه لم ير أين كنت أقف ، وتساءل : « من انت ؟ » محاولاً ، في ما بدا لي ان يورى بتينك العينين المطفأتين . . . ويا لها من محاولة باطلة توقع الأسى في النفس !

ثم أضاف في لهجة امرأة عالية : « أجيبيني ! . . تكلمي كرة اخرى ! » فقلت : هل تريد مزيداً من الماء ، يا سيدي ؟ لقد ارقنت نصف ما كان في الكأس .

« من هذه ؟ ما هذه ؟ من التي تتكلم ؟ »

فأجبت : « بايلوت يعرفني . وجون وماري يعرفان اني هنا . لقد وصلت هذا المساء . »

« يا الهي العظيم ! أيّ وهم قد استحوذ عليّ ؟ أيّ حَبْلٌ عذبٌ استبدَّ بي ؟ »

« لاوهم ... ولا خبل . ان عقلك يا سيدي أقوى من ان يستحوذ عليه الوهم ، وان صحتك أسلم من ان يستبد بها الخبل . »

« وأين المتكلمة ؟ أهي مجرد صوت ليس غير ؟ اوه ! أنا لا أستطيع ان ارى ، ولكن عليّ أن المس ، والا كف قلبي عن الخفقان وانفجر دماغي . كوني من شئت ... كوني ما شئت ... ولكن كوني شيئاً قابلاً للمَس ، والا فقدت القدرة على الحياة ! »

وبسط يده متلمساً ، فقبضت على يده التائهة ، واحتبستها بين يديّ الاثنين .

فصاح : « انها اصابعها نفسها ! الصغيرة النحيلة ! فاذا صح ذلك فلا بدّ ان يكون ههنا مزيدٌ منها أيضاً . »

وأفلتت اليد القوية من محبسي . وأمسك مستر روتشيستر بذراعي ... وكثفي ... وعنقي ... وخصري . لقد هصرني وشدّني اليه . « أهي جين ؟ أيّ شيء تكون ؟ هذا هو شكلها ... هذا هو حجمها ... »

فأصفت : « وهذا هو صوتها . انها كلها هنا ، وقلبها معها أيضاً . فليباركك الله يا سيدي ! اني لسعيدة بأن امسي ، كرةً أخرى ، على مقربة دانية منك . »

فكان كل ما قاله : « جين ايير ... جين ايير . » فأجبت : « نعم ، يا سيدي العزيز . انا جين ايير . لقد وجدتك ... لقد رجعت اليك ! »

« رجعت اليّ فعلاً ؟ بلحمتك ودمك ؟ رجعت اليّ حبيبتني جين وعروقها ما تزال تنبض بالحياة ؟ »

« انت تلمسني يا سيدي ... انت تضمّني اليك ، وفي قوة غير يسيرة : أنا لست باردة مثل جثة ، ولست خاوية كالهواء . هل انا كذلك ؟ »  
« يا حبيبتني النابضة بالحياة ! هذه هي أوصالها من غير ريب ، وهذه هي قسمات وجهها . ولكن من المتعذر ان أتمم بهذه السعادة الغامرة بعد كل ما لقينته من شقاء . انه مجرد حلم . حلم من مثل تلك الاحلام التي سعدت بها في الليل عندما شددتها الى فؤادي كرةً أخرى كما أشدّها الان ، وعندما قبّلتها كما أقبلها الان ... واستشعرت انها تحبني ، وأيقنت أنها لن تفارقني . »

« أنا لن افارقك ، منذ اليوم ، يا سيدي ، مدى الحياة . »  
« لن تفارقني مدى الحياة ، أهذا ما يقوله الطيف ؟ ولكني كنت دائماً أفيق فأجد أن ذلك الوعد لم يكن غير سخريّة فارغة ، وأني كئيب مهجور - ان حياتي قائمة موحشة يائسة ، وان روحي ظمأى محظورٌ عليها أن تشرب ، وان فؤادي جائع ولن يُقدَّر له أبد الدهر أن يفوز بما يُقَيِّته ، أيها الحلم

اللطيف العذب المستكن الان بين ذراعي ، انك انت سوف تفرّ أيضاً ، كما فرّ جميع اخواتك من قبلك . ولكن قبليني قبل ان ترحلي . عانقيني يا جين !

« هدى ، من روعك ، يا سيدي ، هدى من روعك ! »

وضغطت شفطي على عينيهِ اللتين كانتا في يوم مضى متألقتين واللتين أمست الان مظلمتين . . . . . وأزحت شعره عن جبينه ، وقبّلت ذلك الجبين أيضاً . وفجأة بدا وكأنه استيقظ من حلمه : كان الاقتناع بواقعية ذلك كله قد هيم عليه .

« هذا انت . . . . . أليس كذلك ، يا جين ؟ لقد رجعت اليّ اذن ؟ »

« أجل ، لقد رجعت . »

« وانت لا ترقدين ميتة في حفرة من الحفر تحت جدول من الجداول ؟ وانت لست منبوذة يهدّها الضنى بين قوم اغراب عنك ؟ »

« لا ، يا سيدي . أنا الآن امرأة ذات يسار . »

« ذات يسار ! ماذا تعنين ، يا جين ؟ »

« ان عمي الذي كان يقيم في ماديرا قد مات ، ولقد ترك لي خمسة الاف جنيه . »

فصاح : « آه ، هذا شيء عملي . . . . . هذا شيء واقعي ! يتعين عليّ أن لا اشك في ذلك البتة . والى هذا ، فهناك صوتها الغد ، صوتها المحيي الحريّيف ، والرقيق في آن معاً : انه يُبهج فؤادي الذاوي . انه يفرغ الحياة فيه . ماذا ، يا جانيت ! أنت امرأة ذات يسار ؟ امرأة غنية ؟ »

« غنية جداً ، يا سيدي . فاذا أبيت ان تجيز لي العيش معك كان في استطاعتي أن اشيد بيتاً خاصاً بي على مقربة دانية من باب دارك . وفي ميسورك في هذه الحال ان تقعد عليّ وتستريح في حجرة استقبالي كلما احتجت الي من يؤنسك في الأمسيات . »

« ولكن اما وقد أصبحت ثرية ، يا جين ، فليس من ريب في ان لك الآن اصدقاء سوف يُعنون بأمرك ، ولن يجيزوا لك أن تقفي حياتك على مكفوف أعرج مثلي . . . »

« ولكنني ، بالإضافة الى غنائي ، سيدة نفسي . »

« ولسوف تبقيين بقربي ؟ »

« من غير ريب . . . . . الا اذا اعترضت أنت على ذلك . سوف أكون جارتك ، وممرضتك ، ومدبرة شؤون منزلك . اني أراك متوحداً : من أجل ذلك سأكون رفيقتك - لكي أقرأ لك ، لكي امشي معك ، لكي اجلس الي جانبك ، لكي اقوم على خدمتك ، لكي أكون لك عينيّن ويديّن . أدخل عنك ثوب الكتابة الكالاح ، يا سيدي العزيز فلن تترك وحيداً منذ اليوم ما امتدّت بي الحياة . »

فلم يُجب : لقد بدا مفتعاً شارد اللب . وتنهد . وفتح شفطي نصف فتحة وكأنه يريد ان يتكلم ، ثم عاد فاطبقهما من جديد . واستشعرت شيئاً



من الارتباك . ومن يدري ، فلعلني تجاوزت الأعراف والتقاليد في طيشي بالغ ، ولعله قد رأى في تهوؤري - مثل القديس يوحنا - ضرباً من قلّة اللياقة .  
والحق اني تقدّمت اليه باقتراحي ذاك بناءً على اقتناعي بأنه راغب في الزواج مني وبأنه لا بدّ أن يسألني ان أرضي به بعلا . وكان قد حفزني أمل - أمل لم ينتقص من يقينته كونه 'مُضْمَرًا' غير ملفوظ - بأنه سوف يسارع الى اعتباري ملكه من دون كل الناس . حتى اذا لاحظت ان ايما اشارة بهذا المعنى لم تتبدّ من شفّتيه وان اساريه ازدادت تجهماً ، ادركت فجأة اني قد اكون على خطأ فاضح ، واني آذيته على غير قصد مني . وهكذا شرعت انسل من بين ذراعيه في تلطف ... ولكنه شدّني اليه في لهفة شداً اكثر احكاماً .

- « لا ، لا ، يا جين . يجب ان لا ترحلي . لا ... لقد لمستك ، لقد استشعرت سلوى وجودك ... عذوبة مؤاساتك : أنا لا استطيع أن أتخلّى عن هذه المباحج كلها . ان الأقدار لم تبق مني غير القليل ... فلا بدّ لي من الفوز بك . أن الناس قد يسخرون مني ... قد يعتبرونني سخيلاً وأنايا . ولكني لا ابالي بذلك . ان روحي ذاتها لتصبو اليك ، فاما ان تجاوب الى سُؤلها ، وأما ان تنتقم انتقاماً مميّناً من الجسد الذي يحتويها . »

- « حسناً ، يا سيدي ، سوف أبقى بقربك . لقد قلت لك ذلك . »

- أجل ... ولكنك تفهمين من البقاء بقربي شيئاً ، وأفهم أنا منه شيئاً آخر . لعلك تستطيعين أن توطني النية على السعي بين يديّ وحصول مقعدي ... على السهر على راحتي مثل ممرضة صغيرة لطيفة ( ذلك بأن لك قلباً عطوفاً وروحاً سخية يفرانك بالتضحية في سبيل من توثين لهم ) ، وخلق بهذا أن يكفيني ، من غير ريب . وأحسب اني لن اكنّ لك الآن غير مشاعر ابوية : ألا ترين رأيي هذا ؟ تعالي ... اجيبيني . »

- « سوف أرى الرأي الذي يحلو لك ، يا سيدي . واني لأرضى بأن اكون مرضتك ليس غير ، اذا بدا لك أن ذلك أفضل . »

- « ولكنك لا تستطيعين أن تكوني مرضتي الى ما لا نهاية له ، يا جانيت . انت فتاة غضة العود ... ولا بدّ لك أن تتزوجي في يوم من الأيام . »

- « أنا لا ابالي بأمر الزواج . »

- « يجب أن تبالي ، يا جانيت : لو اني كنت ما كنت من قبل اذن لحاولت أن أحملك على المبالاة ... ولكنني كنت عمية ! »

وغلبت عليه الكتابة كرة أخرى . أما أنا فأمسيت ، على العكس ، اكثر بشراً ، واستعدت شجاعتي : لقد بصّرتني هذه الكلمات الاخيرة بموطن الصعوبة . واذ كانت العقبة غير ناشئة عن أمرٍ ذي صلة بي أنا ، فقد سرّني عني وزايلني الارتباك السابق مزيلة كاملة . ومن هنا استأنفت الحديث متخيرة موضوعاً أنضر وأبهج .

فقلت ، وأنا أفرق خصل شعره الاثينة التي لم تقلص منذ عهد بعيد .

« لقد آن لك أن ينهض شخص ما بعبء اعدتك الى الحظيرة البشرية • ذلك بأنني ارى انك في سبيلك الى ان تُمسَخَ أسداً ، أو شيئاً من هذا القبيل • انك لتبدو أشبه بنبوخذنصر زائف ، هذا أمرٌ راهن : وان شعرك ليذكركني بريش النسور • أما ما اذا كانت اظافرك قد نمت حتى أصبحت كبرائن الطير أم لا فذلك ما لم اتبينه حتى الآن • »

فقال وهو يسحب ذراعه البتراء من صدره ويريني اياها : « أنا لا املك في هذه الذراع لا يداً ولا أظافر • انها مجرد جذعٌ يابس • • • مشهده مروع ! ألا تظنين ذلك ، يا جين ؟ »

« يعزُّ عليَّ أن اراها ، ويعزُّ عليَّ أن أرى عينيك ، والنَّدْبَةُ التي خلَّفتها النار في جبينك • وأسوأ ما في الامر ان المرء معرَّضٌ بسبب من هذا كله الى خطر الهيام بحبك أكثر مما ينبغي ، والى خطر تبجيلك أكثر مما ينبغي • »

« لقد حسبت ان التقرز سوف يستبد بك اذا ما رأيت الى ذراعي والى وجهي النديب \* »

« حقاً ؟ لا تقل لي ذلك • والا اضطرت الى أن أقول كلاماً فيه تسفيه لرأيك • والآن ، دعني افارقك لحظة ، لكي أوجع النار وأكتس المستوقد • أقادر أنت على التمييز ما بين نارٍ مستعرة ونارٍ خاملة ؟ »

« أجل • اني لالمح بعيني اليمنى وهجاً • • • ألمح ضباباً ضارباً الى الحمرة • »

« وهل ترى الشموع ؟ »

« على نحو باهت جداً • • • ان كلاً منها تشبه سحابة نيرة • »

« هل تستطيع ان تراني ؟ »

« لا ، يا جنيتي ! ولكنني عاجز عن شكر الاقدار التي لم تحرمني متعة لمسك والاستماع اليك • »

« متى تتناول طعام العشاء ؟ »

« أنا لا أتعشى البتة • »

« ولكنك سوف تَطْعَمُ شيئاً الليلة • أنا جائعة ، وكذلك أنت من غير ريب • ولكنك تنسي ذلك • »

واستدعيت ماري • وسرعان ما رتبتُ الغرفة ترتيباً أكثر بَشَراً وبهجة • وأعددت له ، أيضاً ، عشاء شهياً • كنتُ في نشوة غامرة ، وخلال الطعام - وطوال فترة غير قصيرة بعده - تحدثت اليه في حبور وانطلاق • أنا لم أستشعر في حضرته أيما كبحٍ مضيق أو أيما كبتٍ للجدل والحيوية • اذ كنت أنعم في مجلسه بارتياح كامل ، لاني وعيت مدى ملاءمتي له • لقد بدا وكأن كل ما قلته له كان يوقع في نفسه السلوان أو يحيي في صدره ميت الأمل • ويا له من وعي بهيج ! لقد ردَّ كياني كله الى الحياة والنور • كنت أحياء في وجوده

\* الوجه النديب : الوجه الذي صلبت نديبته • والنَّدْبَةُ هي اثر الجرح •

حياة كاملة ، وكان هو يعيا في وجودي حياة مثلها • وعلى الرغم من انطفاء عينيه ، خطرت البسمات على محياه ، وأشرق الجبور على جبينه : لقد انبسطت اساريره وسرى الدفء فيها •

وبعد العشاء شرع يسألني اسئلة كثيرة : أين كنت ؟ وما الذي كنت افعله ؟ وكيف اهتديت اليه ؟ ولكني لم أعطه غير اجوبة مقتضبة جداً ، فقد كنا في ساعة متأخرة لا تساعد على الخوض ، تلك الليلة ، في التفاصيل المسهبة • والى هذا ، فقد حرصت على أن لا أمس أي وتر يشير شجونه اثاره عميقة ، وان لا أفجّر في قلبه ينبوعاً جديداً من ينابيع العاطفة • كانت غايتي الحالية الوحيدة هي ايقاع البهجة في نفسه • ولقد غلبت عليه البهجة كما قلت : ولكن غلبتها تلك كانت على نحو متقطع • فما ان تعطلّ الحديث لحظة صمت حتى يعاوده القلق ، فيمسّني ، ثم يقول : « جين ! »

– « جين ، هل انت كائنة بشرية حقاً ؟ أو أائعة انت من ذلك ؟ »

– « انا احسب ذلك ، بكل اخلاص ، يا مستر روتشيستر • »

– « ومع هذا ، فكيف تأتي لك – في مثل هذه الليلة المظلمة الكثيبة – ان تبرزي على هذا النحو المفاجيء كله امام مستوقدي الموحش ؟ لقد بسطت يدي لاتناول كأس ماء من خادم ما ، فاذا بك انت تقدمين اليّ تلك الكأس • وطرحته سؤالا وانا أتوقع ان تجيبي عنه زوجة جون ، فاذا بصوتك انت يتناهي الى مسمعي • »

– « لاني دخلت حجرتك ، بدلا من ماري ، جاملة الصينية اليك • »

– « ولكن هذه الساعة نفسها التي أنفقتها الان معك هي ساعة مسحورة ايضا • من ذا الذي يستطيع ان يحزرا اية حياة قاتمة ، موحشة ، يائسة كنت احيائها طوال اشهر خلت ، غير آت عملا ما ، غير متوقع شيئا ما ، مولجا الليل في النهار ، غير شاعرٍ بشيء سوى البرد حين اترك النار تخمد ، والجوع حين انسى ان اتناول طعاما ، ثم بضرب من الاسى موصول ، وفي بعض الاحيان بشوق عارم الى ان احتضن جين من جديد • اجل لقد تفتت الى استعادتها اكثر مما تفتت الى استعادة بصري الضائع بكثير • فكيف استطيع ان اصدق ان جين الى جانبي وانها تقول لي : « أحبك ! » ؟ ألن تفارقني بمثل الفجاءة التي وفدت بها عليّ ؟ اني لاخشى ان ابحث عنها ، في ضحي الغد ، فلا اجدها • »

وكنت على مثل اليقين من ان الجواب العادي العملي ، الخارج عن سياق افكاره المضطربة ، خليق به ان يكون هو الجواب الافضل والادعى الى طمأنته وتهدئة روعه في تلك الازمة النفسية التي كانت تعصف به • فأمررت اصبعي على حاجبيه ، وقلت ان النار قد سفعتهما ، واني سوف اعالجهما بشيء ينبتهما من جديد كثيفين اسودين كعهدهما في الايام الخالية •

– « اية فائدة ترتجي من الاحسان اليّ بأية طريقة ، ايتها الروح الخيرة ، ما دمت ستعمدين في أية لحظة مشؤومة الى هجري كرة اخرى • »

فتمضين مثلما يمضي خيال ، من غير ان ادري الى اين وكيف ، ومن غير ان اوفّق بعد ذلك الى العثور عليك ؟ »

« هل عندك مشط من امشاط الجيب ، يا سيدي ؟ »

« لماذا ، يا جين ؟ »

« لمجرد تسريح هذه العفّرة \* المنفوشة السوداء . اني لأجدك راعبا بعض الشيء حين تأملك عن كشب : انت تزعم اني اشبه بجنيّة من الجنّيات ، ولكنني واثقة من انك انت اشبه شيء بعفريت من العفاريت . »

« هل انا بشع ، يا جين ؟ »

« جدا ، يا سيدي . ولقد كنت دائما بشعا كما تعرف . »

« صه ! ان الحبث لم يفارقك ، أيّا ما كان الموطن الذي قضيت فيه فترة غيابك الاخيرة . »

« اجل ، لقد قضيت تلك الفترة مع قوم صالحين : أناس افضل منك بكثير . . . أفضل منك مئة مرة . اناس تستحوذ عليهم فكرات وآراء لم تراودك في ايما يوم من ايام حياتك ، فهي اصفى واسمى من فكراتك وآرائك بما لا يقاس . »

« ولكن قول لي ، بحق الشيطان ، مع من كنت تقيمين ؟ »

« اذا تحدّثت بهذه النهجة الماكرة فعندئذ تكرهني على ان اقتلع شعر رأسك من جذوره . وعندئذ تكفّ ، في ما احسب ، عن الشك في وجودي الواقعي . »

« مع من كنت تقيمين ، يا جين ؟ »

« انك لن تنتزع مني ، الليلة ايّ جواب ، يا سيدي : يتعيّن عليك ان تنتظر الى غد . ذلك بان اعنصامي بالصمت ، تاركة قصتي نصف مرويّة سوف يكون - كما تعلم - ضربا من الضمان الذي يكفل لي مفاجأتك وانت تتناول طعام الصباح ابتغاء اكمالها . وبالمناسبة ، يتعين عليّ ان احرص على ان لا ابرز آنذ ، امام مستوقدك ، وليس في يدي غير كأس ماء . يجب ان احمل اليك بيضة على الاقل ، هذا اذا لم احمل اليك قطعة مقلوّة من لحم الخنزير . »

« يا لك من جنيّة منشئة بين البشر ! جنيّة ساخرة متحدية ! انك توقعين في روعي اني لم اعش هذه الشهور الانني عشر الاخيرة ، ولو قدّر لشاؤول ان يستعيض بك عن داود اذن لكان في الامكان طرد الروح الشريرة من غير استعانة بالقيثارة . »

« ها انت ذا قد أصبحت انيقا حسن المظهر . ان في ميسوري ان افارقك الان . فقد سلخت ايامي الثلاثة الماضية في سفر موصول ، واحسب اني متعبّة . طاب مساؤك . »

- « كلمة اخرى واحدة ، فحسب ، يا جين . الم يكن في ذلك البيت الذي عشت فيه احدٌ غير اولئك السيدات ؟ »

فضحكت ، ووليت فرارا ، موصلة ضحكي وأنا اصعد الى الطابق العلوي . وقلت في ذات نفسي ، بطرب وجدل : « فكرة حسنة ! يخيل اليّ اني املك الوسيلة الى تبديد كآبته ، من طريق المناكدة ، طوال فترة من الزمان غير يسيرة . »

وفي ساعة جد مبكرة من صباح اليوم التالي سمعته يغادر سريره ويتنقل من حجرة الى حجرة . ولم تكد ماري تهبط الى الدور الاسفل حتى سمعتُ هذا السؤال : « هل مس ايير هنا ؟ » ثم : « في اية حجرة من الحجرات انزلتها ؟ هل كانت حجرة جافة غير رطبة ؟ هل افأقت من نومها ؟ اذهبي واسألها ما اذا كانت تريد شيئا ومتى ستتهبط الى الدور السفلي . »

وهبطت حالما بدا لي انه أضحي علي وشك تناول طعام الصباح . واذ دخلت الغرفة في رفق بالغ فقد وُفِّتْ الى رؤيته قبل ان يفتن لوجودي . والحق انه كان من الفاجع ان اشهد اخضاع تلك الروح الجبارة لعجز جسماني . لقد جلس في كرسيه - ساكناً ولكنه غير مطمئن ، متوقفاً من غير ريب شيئا ما ، وقد طبع الأسى - الذي لازمه الان على نحو موصول - قسما وجهه الناضحة بالقوة . كان محياه يذكّر المرء بمصباح مطفأ ، ينتظر من يُشعله من جديد . واأسفاه ! انه لم يعد هو نفسه قادر على الهاب رونق الاسرار المشبوبة . لقد امسى في ذلك عالة على شخص آخر . وكنت قد عقدت العزم على الاخذ بأسباب البهجة واللامبالاة ، ولكن عجز الرجل القوي مسّ شغاف قلبي . ومع ذلك خاطبته بأكبر قدر من المرح وُفِّتْ الى اصطناعه .

فقلت : « انه صباح رائع مشمس ، يا سيدي ! لقد كفّ المطر عن التهطل ، وحل محله اشراق رقيق . وعمّا قريب سوف تخرج للنزهة . »

كنت قد أذكيت الألق ، فاذا بأسايريه تضيء .

- « اوه ، انت هنا حقاً ، يا قُبْرَتِي ! تعالي اليّ ! انت لم ترحلي ، لم تتلاشي ؟ لقد سمعتُ واحدة من فصيلتك ترفع صوتها بالغناء ، قبل ساعة واحدة ، في الغابة ، ولكن انشودتها خلت - في مسمعي - من الموسيقى بقدر ما خلت الشمس البازغة من الاشعة . ان كل ما في الارض من الحان ليتركز ، عندي ، في لسان محبوبتي جين . ( وانا سعيد بأنه ليس لسانا صموتا بالقطرة ) : ان في استطاعتي ان استشعر دفء اشعة الشمس كلها حين تكون هي بقربي . »

ووقفت العبرات في مقلتي لتسمع هذا الاقرار بتبعيته : لكانه نسرٌ ملكيٌ مقيّد في مجثمه فهو مضطر الى ان يتوسل الى عصفور من عصفافير الدوري ان يصبح ميّارةً . ولكنني لا اريد ان اكون بكاءة ، فكفكت القطرات المألحة وشغلت نفسي باعداد طعام الصباح .

وأنفقنا الشطر الأعظم من الصباح في الهواء الطلق ، لقد قدّمته بعيداً عن الغابة النديّة الأبدية الى بعض الحقول البهيجة . ولقد وصفت له أخضارها المألّقة ، ونضارة الرياحين والوشائع ، وزرقة السماء المتلألئة . والتمست له مقعداً في بقعة محجوبة فاتنة ، عند جذع شجرة يابس . وحين اجلسني على ركبته أجزت له ذلك في غير ممانعة . ولماذا أمانع وأنا اعلم ان سعادتنا خليق بها ان تكون في الاتصال اعظم منها في الانفصال ؟ وبسط « بايلوت » ذراعيه على مقربة منا ، وكان كل شيء ساكناً . وفجأة صاح وهو يضمّني بين ذراعيه :

« ايّتها الهاجرة القاسية ! ايّتها الهاجرة القاسية ! اوه ، جين ، انك لا تستطيعين ان تتصورى ايّ شعور عصّف بي عندما هربت من ثورنفلد ، وعندما تعذّر عليّ الاهتداء اليك في ايما مكان ، وعندما استيقنت - بعد ان تحرّيت حجرتك - انك لم تأخذي معك أي مبلغ من المال ، او ايما شيء يمكن ان يغنيك عن المال ! كان عقد من اللؤلؤ سبق لي ان قدمته اليك مُنطرحاً في علته الصغيرة سليماً لم يمسّ ، وكانت حقائبك مقلّعة مطوّقة بالحبال كما اعددتها لشهر العسل . وتساءلتُ ما الذي سوف تفعله محبوبتي في تلك الحال من العوز والعُدْم ؟ وما الذي فعلتهُ ؟ الا قصّي عليّ الآن حكاية ذلك ،

حتى اذا الحّ عليّ في الطلب شرعت اروي له قصة تجاربي في السنة المنصرمة . ولطّفت احداث الايام الثلاثة الاولى . ايام التيه والجوع ، تلطيفاً كبيراً ، لان انبائه بكل شيء كان خليقاً به ان يورثه آلاماً لا ضرورة لها . وعلى اية حال ، فان القليل الذي رويتهُ له فطّر قلبه الوفي على نحو اعمق مما أردت .

وقال انه ما كان ينبغي لي ان افارقه من غير ان اتزود بشيء استعين به على العيش ، وانه كان من واجبي ان اكاشفه بما عزمت عليه . كان يتعين عليّ ان اثق به ، ولو قد فعلت اذن لما اكرهني بأية حال على ان اكون خليلته . فقد كان في الواقع يحبني - على الرغم من كل ما بدا لي من العنف الذي استبد به في يأسه - حباً اعمق وأرق من أن يجعل من نفسه طاغية يتحكم في مصيري : لقد كان يؤثّر ان يهبني نصف ثروته ، من غير ان يسألني لقاء ذلك ولو قبلة واحدة ، على ان يدعني أهيم على وجهي في ارض الله الواسعة وحيدة لا صديق لي ولا نصير . ثم اضاف قائلاً انه واثق من انني تحمّلت من ضروب البلاء اكثر مما بُحّت له به .

فاجبت : « حسناً ، ايّاً ما كانت آلامي فانها لم تستمر الا برهة قصيرة جداً . » ثم رحت احدثه كيف استقبلت في « مور هاوز » ، وكيف عيّنت معلّمة ، وكيف هبطت الثروة عليّ ، واكتشفت انسبائي . وورد اسم سانت جون ريفرز ، طبعاً ، ووروداً متواتراً في سياق قصتي . حتى اذا انتهيت الى خاتمتها جعل من هذا الاسم ، في الحال ، موضوع حديث جديد .

« ان سانت جون هذا هو ، اذن ، ابن عمك ؟ »

« نعم . »

« لقد اُكثرت من الحديث عنه ، فهل احببته ؟ »

« لقد كان رجلا صالحا جدا ، يا سيدي . فلم يكن لي مناص من

حبّه . »

« رجل صالح ؟ هل يعني ذلك انه كان رجلا وقورا ، حسن السيرة ،

في الخمسين من عمره ؟ أم ماذا يعني ؟ »

« لم تكن سنّ سانت جون تعدو التاسعة والعشرين ، يا سيدي . »

« كان لا يزال غصّ الاهاب jeune encore ، كما يقول

الفرنسيون . أهو رجل قصير القامة ، فاتر ، بشع ؟ رجل يقوم صلاحه على براءته من الرذيلة اكثر مما يقوم على بسالته في الفضيلة ؟ »

« انه عارم النشاط على نحو لا يعرف الكلل . ان المآتي العظيمة

السامية هي ما يعيش لاجل تحقيقه . »

« وعقله ؟ انه في اغلب الظن مهلهل العقل ؟ ان نياته حسنة ، ولكنك

تهزين كفتيك حين تستمعين اليه يتحدث ، أليس كذلك ؟ »

« انه نَزَرُ الكلام ، يا سيدي . وما ينطق به يتَّسم بالسَّداد دائما .

ان عقله لمن الطراز الاول . قد يكون لين العريكة ولكنه ذو قوة وبأس . »

« أهو ، اذن ، رجل بارع ؟ »

« انه بارع حقا . »

« ويتمتع بثقافة عميقة ؟ »

« أن سانت جون عالم متبحر واسع الثقافة . »

« اما اخلاقه فأحسب انك قلت انها لا تتناغم مع ذوقك ... انها

مترزمة واكليركية ؟ »

« انا لم اشر الى اخلاقه قط . ولكنها اخلاق جديرة بان تلائم ذوقي ،

الا اذا كان ذوقي سقيما جدا . انها تتسم بالكياسة والوداعة والنبل . »

« ومظهره ، - لقد نسيت اي وصف خلعتة على مظهره - ، انه ضرب

من كاهن مبتدى ، نصف مختنق بربطة عنقه البيضاء ، ومنصب كالعمود فوق

حذاءه الغليظ النعل ، اليس كذلك ؟ »

« اجل ، ان سانت جون حريص على حُسن البزة . انه رجل وسيم :

فارح الطول ، اشقر ، ذو عينين زرقاوين ، ووجه مظهره الجانبي\* اغريقي

السمات . »

فأشاح بوجهه وقال في صوت خفيض « عليه اللعنة ! » ثم التفت الي

وسألني : « هل احببته ، يا جين ؟ »

« اجل ، يا مَستَر روتشيستر ، لقد احببته . ولكنك وجهت الي هذا

السؤال من قبل . »

وادركت ، طبعاً ، الغرض الذي رمى اليه . كانت الغيرة قد استحوذت

عليه : لقد لُسَعَتَه ، ولكن لُسَعَتها كانت نافعة . فقد اراحته ، مؤقتاً ، من

\* عبرنا بـ « المظهر الجانبي » من الوجه عما يعرف في اللغات الاجنبية بالبروفيل profile

ناب الكآبة القاضم . من اجل ذلك لم اشأ ان اسحر الانعى في الحال .  
فكانت ملاحظته التالية ، غير المتوقعة : « ربما كنت تؤثرين ان لا تقمدي ،  
بعد ، على ركبتي ، يا مس ايير ؟ »

« ولم لا - يا مستر روتشيستر ؟ »

« ان الصورة التي رسمتها ، اللحظة ، لتوحي بتغاير عامر اكثر مما  
ينبغي . فقد اخرجت كلماتك صورة رائعة جدا لـ « ابولو » فاتن . انه لماثل  
في مخيلتك : فهو فارع الطول ، اشقر ، ذو عيني زرقاوين ووجه مظهره  
الجانبى اغريقي السمات . . . اما عيناك الان فتقعان ، مقابل ذلك ، على شبه  
« فولكان » \* - على حداد حقيقي ، اسمر ، عريض المنكبين . . . ثم هو فوق  
هذا مكفوف البصر أعرج . »

« ان ذلك لم يخطر ببالي من قبل قط . ولكنك من غير ريب اشبه ما  
تكون بفولكان ، يا سيدي . »

« حسنا ، في استطاعتك ان تفارقيني ، يا سيدتي . ولكن قبل ان  
ترحلي ( وضمني اليه في احكام كما لم يضمني في ايما يوم من الايام ) سوف  
يسرك ان تجيبيني عن سؤال او سؤالين . »  
وكف عن الكلام .

« عن اية اسئلة ، يا مستر روتشيستر ؟ »

وتلا ذلك هذا الاستجواب :

« هل عهد اليك سانت جون بمهمة التعليم في مورتون قبل ان يعرف  
انك بنت خاله ؟ »

« نعم . »

« وكنت تريه كثيرا ؟ هل كان يزور المدرسة احيانا ؟ »

« كل يوم . »

« وكان يقرء خططك ، يا جين ؟ انا اعرف ان خططك لا بد ان تكون  
بارعة ، فانت مخلوقة موهوبة . »

« لقد اقرءها . . اجل ، لقد اقرءها . »

« وهل اكتشف فيك اشياء كثيرة ما كان يتوقع ان يكتشفها ؟ ان  
بعض براعاتك غير عادية . »

« لست ادري شيئا عن ذلك . »

« تقولين انه كان لك كوخ صغير على مقربة من المدرسة : هل وفد  
الى هناك ، في ايما يوم من الايام ، لكي يراك ؟ »

« بين الفينة والفينة . »

« بعد ان يهبط الليل ؟ »

« لقد فعل ذلك مرة او مرتين . »



وامسك عن الكلام .

ثم استأنف : « ما المدة التي قضيتها معه ومع اختيه بعد اكتشاف ما بينكم من قرابة ؟ »

- « خمسة اشهر . »

- « هل كان ريفرز يقضي وقتا طويلا مع سيدات أسرته ؟ »

- « نعم ، كانت حجرة القعود هي في الوقت نفسه مكتبه ومكتبنا . كان هو يجلس على مقربة من النافذة ، وكنا نحن نجلس على مقربة من المائدة . »

- « هل كان يسرف في الدراسة ؟ »

- « اسرافا كثيرا . »

- « لماذا كان يدرس ؟ »

- « الهندستانية . »

- « وماذا كنت تفعلين في غضون ذلك ؟ »

- « لقد تعلمت الالمانية ، بادى الامر . »

- « وهل علّمك هو الالمانية ؟ »

- « انه لا يعرفها . »

- « ألم يعلمك شيئا ؟ »

- « قليلا من الهندستانية . »

- « ريفرز علّمك الهندستانية ؟ »

- « نعم ، يا سيدي . »

- « وعلمّ اختيه ايضا ؟ »

- « لا . »

- « علّمك انت فقط ؟ »

- « اجل ، انا فقط . »

- « هل سألته ان يعلمك ؟ »

- « لا . »

- « هل ابدى هو رغبته في تعليمك ؟ »

- « نعم . »

وامسك عن الكلام كرة اخرى .

ثم اضاف : « لماذا رغب في ذلك ؟ اي نفع كان يمكن ان تجنيه من تعلّم الهندستانية ؟ »

- « كان يريدني ان اذهب معه الى الهند . »

- « آه ، ها قد وصلت الى لب القضية . لقد ارادك ان تتزوجي منه ؟ »

- « لقد سألني ان اتزوج منه . »

- « هذا حديث خرافة . انه اختلاق وقع تقصدين به الى اغاظتي . »

- « اسألك المَعذرة ، انه الحقيقة الخالصة . لقد سألني الزواج منه غير

مرة . وبالحاح لا يقل عنادا عن اقصى ما قدّر لك ان تظهره ، في ايما يوم ،

من عناد .

« اكرر ، يا مس ايير ، ما سبق ان قلته : ان في امكانك ان تفارقيني .  
كم مرة يتعين عليّ ان اكرر الشيء نفسه ؟ لماذا تظلين جائمة على ركبتني في  
اصرار بعد ان اجزت لك ان تمضي لسبيلك ؟ »

« لاني مرتاحة هنا . »

« لا ، يا جين ، انت غير مرتاحة هنا ، لان قلبك ليس معي . انه مع  
ابن عمك ذاك ، مع هذا السانت جون . اوه ، حتى هذه اللحظة كنت احسب  
ان « جينتي » الصغيرة كانت ملكا خالصا لي ! كنت اعتقد انها احببني حتى  
عندما هجرتني ، ولقد كان ذلك عندي بمثابة ذرة من حلاوة في قنطار من  
مرارة . وعلى الرغم من تطاول فراقنا ، وعلى الرغم من العبرات الحارة التي  
سفحتها بعد انفصالنا فلم يخطر ببالي قط انها ، فيما كنت اندبها ، كانت هي  
تحب رجلا آخر ! ولكن لا جدوى من الحسرة والاسى . جين ، اتركيني ! اذهبي  
وتزوجي من ريفرز ! »

« ردّني عنك ردا ، اذن ، يا سيدي . ادفعني عنك دفعا . لانني لن  
افارقك بطوعي . »

« جين ، اني لاحب جرس صوتك ابد الدهر : انه لا يزال يجدد  
فيّ ذابل الامل ، وان له في اذني رنة صدق ووفاء . فما ان اسمعه حتى  
يردّني سنة الى الوراء . لقد نسيت انك انشأت صلة جديدة . ولكنني لست  
ابله ... امضي ! »

« الى اين يجب ان امضي ، يا سيدي ؟ »

« امضي في طريقك الخاصة ... مع الزوج الذي اخترته . »

« ومن هو ذاك ؟ »

« انت تعرفينه ... هذا السانت جون ريفرز . »

« انه ليس زوجي ، ولن يكون زوجي ابدا . فهو لا يحبني ، وانا لا  
احبه . انه يحب ( لان في ميسوره ان يحب ، ولكن حبه من ضرب مختلف عن  
حبك ) فتاة جميلة غضة العود تدعي روزاموند . لقد اراد ان يتزوجني لمجرد  
اعتقادي بانني استطيع ان اكون زوجة مبشر ناجحة ، في حين انها هي لا تصلح  
لهذه المهمة . انه رجل طيب وعظيم ، ولكنه قاس . وهو ، في ما يتصل بي ،  
بارد مثل جليد . انه ليس مثلك ، يا سيدي : انا لا استشعر السعادة لا حين  
اكون بجانبه ، ولا حين اكون قربه ، ولا حين اكون معه . وهو لا يتكشف  
نحوي عن اي تسامح ... عن أي ولوع . وهو لا يرى فيّ ايما جاذبية ...  
بل لا يرى فيّ اي فتاء او شباب . لقد اعجبته مني بضع خصائص عقلية  
نافعة ليس غير . ومع ذلك تريدني ، يا سيدي ، ان اتركك وامضي اليه ؟ »  
وارتعدت على نحو غير ارادي . وتشبّثت بسيدي الاعمى ، ولكن  
المحبوب ، تشبّثا اشد واكوى . وافترق ثغره عن ابتسامته .

« ماذا ، يا جين ! احق ما تقولين ؟ اهذه هي في الواقع حقيقة الصلة

بينك وبين ريفرز ؟ »

« على وجه الضبط ، يا سيدي . اوه ، لا داعي للغميرة ! لقد اردت ان اغيظك قليلا لكي اجلو عن صدرك بعض الحزن : ذلك بأنني اعتبرت ان الغضب خليقٌ به ان يكون خيرا من الاسى . ولكن اذا كنت راغبا في حبي فليس عليك الا ان ترى الى اي مدى احبك فعلا ، وعندئذ لا بد ان يفتنك الزهو ويخامرك الرضا . ان قلبي كله لك ، يا سيدي . انه ملكك . ومعك انت سوف يبقى ، حتى ولو شاء القدر ان يقتضي سائر جسمي عنك الى الابد . »

وكرة اخرى راودته ، وهو يقبلني ، افكار اليمه اكفهر لها وجهه .  
وغمغم في حسرة : « لَهْف نفسي على بصري المتحجّر ! لهْف نفسي على قوتي العرجاء . »

وعانقته لكي اهدي من روعه . لقد ادركت فيم كان يفكر ، واردت ان اتحدث بلسانه ، ولكنني لم اجرؤ على ذلك . واشاح عني بوجهه بضع لحظات رأيت خلالها عبرة تنزلق من تحت جفنه المختوم ، وتتحدث على خده الناضج بالرجولة . ففاض قلبي بالحزن والاسى .

وسرعان ما لاحظ قائلا : « انا لست خيرا من تلك الشهبلوطة العجوز التي فلققتها الصاعقة في بستان ثورنفيلد . واي حق لذلك الحطام في ان يطلب الى ياسمينه مبرعمة ان تحجب خرابه بالنضارة والطرارة ؟ »

« انت لست حطاما يا سيدي . لا ، ولست شهبلوطة انقضت عليها صاعقة . انت غضٌ وقوي . وان النباتات سوف تنمو حول جذورك ، سواء سألتها ذلك ام لم تسألها ، لانها تبتهج بالتفيؤ بظلك الساخن . ولسوف تنعطف ، فيما هي تنمو ، نحوك وتلتف حولك ، لان قوتك تزودها بسند وطيد الى ابعد الحدود . »

وتبسّم من جديد : لقد سرّني كلامي عنه .

وسألني : « انت تتحدثين عن الاصدقاء ، اليس كذلك يا جين ؟ »

« اجل ، عن الاصدقاء » كذلك اجبت في شيء من التردد . اذ عرفت انني عيّنت شيئا اكثر من الاصدقاء ، ولكنني لم اوفق الى اية كلمة اخرى اعبر بها عن مرادي . فهرع هو لمساعدتي فقال :

« آه ، جين ! ولكنني اريد زوجة . »

« حقا ، يا سيدي ؟ »

« نعم . وهل كنت تجهلين ذلك ؟ »

« طبعاً . انت لم تشر اليه من قبل . »

« وهل هو نبأ غير سار ؟ »

« ذلك رهنٌ بالظروف والملابسات ، يا سيدي . انه رهنٌ بمن ستختارها زوجة لك . »

« انك انت التي ستختارينها لي ، يا جين . ولسوف اخضع لقرارك . »

- « اختر اذن ، يا سيدي ، تلك التي تحبك اعظم الحب . »
- « سوف اختار ، على الاقل ، تلك التي احبها انا اعظم الحب . »
- جين ، هل ترصنين بي بعلا ؟
- « نعم ، يا سيدي . »
- « اتزوجين من رجل بائس مكفوف البصر سوف يتعيئن عليك ان تاخذي بيده كلما اراد ان يخطو بضع خطوات ؟ »
- « نعم ، يا سيدي . »
- « رجل عاجز ، اكبر منك بعشرين سنة ، سوف تجدين نفسك مضطرة الى خدمته والسهر على راحته ؟ »
- « نعم ، يا سيدي . »
- « احق ما تقولين ، يا جين ؟ »
- « انه الحق الذي لا ريب فيه البتة ، يا سيدي . »
- « اوه يا منية النفس ! فليباركك الله وليجزك خير الجزاء . »
- « مستر روتشيستر ، اذا كنت قد عملت في اياما يوم من ايام حياتي عملا صالحا . . . اذا كانت قد راودتني في اياما يوم من ايام حياتي فكرة صالحة . . . اذا كنت قد صليت ذات مرة صلاة صادقة بريئة . . . اذا كنت قد تمنيت اية امنية فاضلة فاني اعتبر اني فزت الان بثواب ذلك كله . فلان اكون زوجتك يعني ، عندي ، ان انعم باوفر قسط من السعادة استطيع بلوغه في هذه الدنيا . »
- « لانك تجدين في التضحية متعة وبهجة . »
- « التضحية ؟ وبماذا اضحي ؟ انا اضحي بالجوع لاحظي بالفداء ، وبالترقب لافوز بالرضا . اتسمي ايشار الاقدار لي وانعامها علي بحق احتضان من اقدره واجله ، وتقبيل من احبه ، والسكون الى من اثق به . . . اتسمي هذا كله تضحية ؟ ! اذا كان ذلك كذلك ، فلا ريب في اني اجد متعة في التضحية وبهجة . »
- « وتجدين مثل ذلك في الصبر على عاهاتي ، يا جين . وفي التغاضي عن ضروب عجزتي . »
- « التي لا وجود لها ، يا سيدي ، في نظري . انا احبك الآن ، بعد ان امسى في مستطاعي ان اسدي اليك نفعا حقيقيا ، اكثر مما احببتك يوم كنت في حال من الاستقلال الفخور ، يوم احتقرت الادوار كلها ما خلا دور الواهب والحامي . »
- « لقد كرهت ، حتى هذه اللحظة ، ان يعتمد احد الى مساعدتي . . ان ياخذ احد بيدي . ولكنني استشعر ، منذ اليوم ، اني لن اكره ذلك البتة . انا لم احب ان اضح يدي في يد خادم من الخدم ، ولكن من العذب ان احس بها مطوقة بأصابع جين الصغيرة . لقد أثرت العزلة المطلقة على رعاية الخدم الموصولة ، ولكن خدمات جين الرقيقة سوف تبعث في نفسي بهجة سرمدية . »

ان جين تلاثمني ، فهل انا الاثمة ؟ »

– « حتى ادقّ خيط من خيوط كياني ، يا سيدي . »

– « ما دام الامر كذلك ، فليس ثمة ما يدعونا الى الانتظار . ان علينا ان

نتزوج في الحال . »

لقد « حدّق » وتحدّث في حرارة : كان اندفاعه القديم قد عاوده .

– « يجب ان نصبح جسدا واحدا في غير ابطاء البتة ، يا جين . وليس

علينا الا ان نستصدر الاجازة الشرعية . . . ثم نتزوج . »

– « مستر روتشيستر ، لقد اكتشفت اللحظة ان الشمس انحدرت عن

خط الهاجرة انحدارا بعيدا ، وقد مضى « بايلوت » فعلا الى البيت التماسا

للغداء . دعني انظر على ساعتك . »

– « علّقها في حزامك ، يا جانيت ، واحتفظي بها منذ اليوم : انا في

غير ما حاجة اليها . »

– « كادت الساعة ان تصبح الرابعة بعد الظهر ، يا سيدي . الا تحس

بالجوع ؟ »

– « ان عرسنا يجب ان يقام بعد ثلاثة ايام ، يا جين . وفي ميسورنا ان

نستغني عن الحلل القشبية والجواهر النفيسة هذه المرة . ان هذه كلها لا

تساوي قلامة ظفر . »

– « لقد جفّفت الشمس قطرات المطر كلها ، يا سيدي . ولقد سكنت

الريح ، وامسى الجو حارا جدا . »

– « هل تعلمين ، يا جين ، ان عقدك اللؤلؤي الصغير يطوّق ، في هذه

اللحظة ، عنقي البرونزي تحت رباط الرقبة الذي ارتديه ؟ ولقد طوّقه منذ

ذلك اليوم الذي خسرت فيه كنزي الوحيد ، لكي يذكّرني ابد الدهر بها . »

– « سوف ننقلب الى البيت من خلال الغابة : تلك هي الطريق التي

سننعم فيها بأوفر قدر من الظل الظليل . »

ولكنه واصل الاستغراق في تأملاته الخاصة من غير ان يلقي اليّ بالا :

– « جين ، استطيع ان اقول انك تحسبنيني كلبا ملحدا . ولكن الواقع

ان قلبي يفيض في هذه اللحظة بالشكر والعرفان لآله هذه الارض الخيّر .

انه يرى ، لا كما يرى الانسان ، ولكن على نحو اوضح وابعد نظرا . وهو

يقضي ، لا كما يقضي الانسان ، ولكن على نحو احفل بالحكمة بكثير . لقد

ارتكبت اثما : كنت على وشك ان ادنّس ريحانتي البريئة . . ان الوث

بالخطيئة طهارتها ، ولكن الله الكلّي القدرة انتزعها مني . وكنت ، في ثورتي

العنيدة ، ان العن هذا القضاء الالهي : وبدلا من ان انحني للقرار ، تحدّيته .

وواصلت العدالة الالهية سبيلها . وتواترت المصائب عليّ . لقد اكرهت على

عبور وادي ظلال الموت . ان عقوبات الرب لجبّارة ، وقد نزلت بي احداها

فأذلّتنني مدى الحياة . انت تعلمين اني كنت معتزا بقوتي : ولكن ما الذي بقي

لي منها الآن بعد ان امسبت مضطرا الى من يأخذ بيدي ، كشأن الطفل في

ضعفه ؟ وفي الفترة الاخيرة ، يا جين ، في الفترة الاخيرة ليس غير ، شرعت اري يد الله والمس اثرها في مصيري . لقد بدأت استشعر الندامة والتوبة والرغبة في الاذعان لمشيئة خالقي . وانشأت اصلي في بعض الاحيان : لقد كانت صلوات موجزة ، جد موجزة ، ولكنها جد صادقة .

« ومنذ بضعة ايام - لا ، ان في ميسوري ان احصيها - منذ اربعة ايام ، وكان ذلك مساء الاثنين الماضي ، غلب علي مزاج فريد ، مزاج حلت فيه الكتابة محل الحق ، والاسى محل التجهم . وكان قد رسخ في نفسي ، منذ عهد بعيد ، ان اخفاقي في العثور عليك في ايما مكان ليس له غير معنى واحد ، هو انك فارقت الحياة . وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة - ولعل ذلك كان بين الحادية عشرة والثانية عشرة - قبل ان آوي الى مضجعي الموحش ابتهلت الى الله ان يتوفاني اليه وشيكا ، اذا ما بدا له ان ذلك خير ، وان يدخلني الى رحاب ذلك العالم الآخر ، حيث لا يزال ثمة امل في ان التقى جين . »

« كنت في حجرتي الخاصة ، جالسا على مقربة من النافذة التي كانت مفتوحة : لقد كان يهدى اعصابي ان استشعر نسيم الليل العليل ، ورغم انه لم يكن في ميسوري ان اري اي نجم من النجوم ، ورغم اني لم ادرك وجود القمر الا من طريق ضباب غامض نير . فاذا بالشوق اليك يعصف بي ، يا جانيت ! اوه ، لقد تقت اليك روحا وجسدا ! فسألت الله ، في كرب وفي اتضاع ، الم يتناول حزني وبلائي وتعذبي اكثر مما ينبغي ؟ . الم يتش لي ان ادوق طعم السعادة والطمأنينة كرة اخرى ؟ لقد اقررت بانني استحق كل ما احتملته من رزايا ، ولكنني تضرعت قائلا اني اكاد انوء تحت اثقالتي وانه لم يعد في طوقي ان احتمل اكثر مما فعلت . وعلى نحو غير ارادي تفجرت ألف رغبات قلبي وياؤها ، من بين شفقتي ، في هذه الكلمات : « جين ! جين ! جين ! »

- « هل نطقت بهذه الكلمات في صوت عال ؟ »

- « اجل ، يا جين . ولو قد رلامرى ان يسمعني اذ لحسبني مخبولا :

لقد نطقت بها في حماسة مسعورة . »

- « وكان ذلك مساء الاثنين الماضي . . حوالي منتصف الليل ؟ »

- « اجل ، ولكن الزمان ليس ذا أهمية : ان ما تلا ذلك هو موضع العجب

في الامر كله . انا ادري انك سوف تحسبنني رجلا يؤمن بالخرافات - والواقع ان في دمي لشيئا من خرافة ، ولقد كان في دمي مثل ذلك دائما - ومع ذلك فهذا الذي حدث صحيح . صحيح على الاقل اني سمعت ما اريد ان اقصه عليك الان . »

« فلم اكد اهتف : جين ! جين ! جين ! حتى اجابني صوت لا ادري من اين اقبل ولكنني ادري صوت من كان : « انا آتية : انتظرنني ! » وبعد لحظة تنامت الي هاتان الكلمتان وقد همست بهما الريح : « اين انت ؟ »

« سوف ارسم لك ، اذا استطعت ، المعنى والصورة اللذين اوقعتهما هاتان الكلمتان في روعي : ومع ذلك فمن العسير علي ان اعبر عما اريد

التعبير عنه . ان « فيرنديان » مدفون ، كما ترين ، في غابة كثيفة تتكسر فيها حدة الصوت ثم يموت غير مُرَجَّح . لقد بدا وكأن لفظتي « أين انت » قد نطقت بهما بين الجبال ، ذلك بأني سمعت صدىً ، منعكسا عن هضاب ، يكرر تينك الكلمتين . وبدا لي وكأن النسيم الذي صافح جبيني امسى في تلك اللحظة اشدَّ بردا واعتلالا : كان في ميسوري ان احسب اني اجتمعت و « جين » في موضع من الارض أبدى موحش . وانا اعتقد ان روحنا قد التقتا من غير ريب . لقد كنت في تلك الساعة مستغرقة ، حتما ، في نوم عميق يا جين . ومن يدري فلعل روحك ان تكون فارقت زنانتها وهامت على وجهها لكي تسعد روحي . لأن ذلك الصوت كان صوتك . . . انا واثق من ذلك وثوقي من نفسي . . . ولقد كان ذلك الجرس جرسك ! »

والواقع اني تلقيت ، ايها القاريء ، في مساء الاثنين نفسه - حوالي منتصف الليل - ذلك النداء العجيب ، وكانت تانك الكلمتان هما عين الكلمتين اللتين اصطنعتهما في الرد عليه . لقد اصغيت لحكاية مستر روتشيستر ، ولكنني لم اكشفه بذلك . فقد راعنتي تلك المصادفة ووجدت فيها شيئا هو من الرهبة ومن الامتناع على التعليل بحيث لا يَحْسُنُ التعبير عنه او مناقشته . ولو قد كاشفتُه بالذي وقع لي اذن لكان خليقا بقصّتي ان تخلف من غير ريب انطباعة عميقة في نفس سامعي . ولم تكن تلك النفس - الشديدة النزوع ، بحكم آلامها الطويلة ، الى الاكتئاب - في حاجة الى ما يعمق عندها ظلّ الأحداث الخارقة للطبيعة . وهكذا احتفظت بتلك الاشياء ، ورحلت اتمامها في ما بيني وبين نفسي .

وتابع سيدي حديثه فقال : « لم يعد في استطاعتك الان ان تعجبي لماذا تعذر عليّ ، أو كاد - حين انبثقت امامي على ذلك النحو غير المرتقب البتة ، الليلة البارحة - ان احسبك غير مجرد هاتفٍ او رؤيا ، غير شيء سوف يتلاشى في الصمت والعدم ، كما تلاشى همس منتصف الليل وصدى الجبل من قبله . والان ، حمدا لله ! لقد استيقنت انه كان شيئا غير ذلك . اجل ، حمداً لله ! »

وانزلني عن ركبته ، ونهض ، رافعا قبعته عن جبينه في احترام بالغ ، خافضا عينيه المظفائين نحو الارض ، ووقف في خشوع أبكم . ولم اوفق الى غير سماع الكلمات الاخيرة من صلاته :

- « انا احمد خالقي اذ تذكر ، في غمرة انفاذ قضائه في » ، الرحمة والرأفة . واني لأضرع الى مُخْلِصِي ، في ضَعْفٍ ، ان يَهَيِّنِي القوة التي تمكنني من أن أحيأ ، منذ اليوم ، حياة اطهر من التي عشتها حتى الآن ! »

ثم انه بسط يده اليّ لكي اقوده . فأخذت بتلك اليد العريزة ، وادنيتهُ لحظة من شفّتي ، ثم تركتهُ تطوّق كتفي : ان الفسارق الكبير بين قامته الفارعة وبين قامتي جعل مني - في آن معا - سنادا له وهاديا . ودخلنا الغابة ، واتخذنا سبيلنا نحو البيت .

## خاتمة

وتزوجت منه ، ايها القاري . وكان عرسنا هادئاً لم يشهده احد غيرنا وغير الكاهن والقندلفت . حتى اذا عدنا من الكنيسة مضيت الى مطبخ البيت الريفي حيث كانت ماري تُعِدُّ طعام الغداء ، في حين كان جون ينظف السكاكين ، وقلت :

« ماري ، لقد زُفِيتُ الى مستر روتشيستر هذا الصباح . »

كانت مدبرة شؤون المنزل وزوجها كلاهما من ذلك الطراز الفاتر المحتشم من الناس الذين يستطيع المرء ان يُبلغهم ، في ايما وقت ، أي نية رائع من غير ان يعرض اذنيه لخطر الانتقاب من جراء صيحة مججلة ما ، وبالتالي لخطر الانصاع بسيل جارف من التعابير الدالة على الدهش . فرفعت ماري بصرها نحوي وانشأت تحديق الي ، فاذا بالمغرفة التي كانت تنضح بها ، بالزبدة ، دجاجتين محمّرتين على النار - تظل معلقة في الهواء نحواً من ثلاث دقائق . وطوال المدة نفسها حظيت سكاكين جون ايضاً براحة من عملية التنظيف والصقل . بيد ان ماري ما لبثت ان عكفت من جديد على طهو دجاجتيها ، واجتزأت بالقول :

« أحق ما تقولين يا آنسة ؟ ذلك حسن ، من غير ريب ! »

واعتصمت بالصمت بضع لحظات ثم قالت : « لقد رأيتك تذهبين مع سيدنا ، ولكني لم اعرف انكما ذهبتما الى الكنيسة لتتزوجا . » وواصلت نضح دجاجتيها بالزبدة . وحين التفت الى جون الفيتنه يضحك ضحكة عريضة امتدت من شحمة اذنه الاولى الى شحمة اذنه الثانية .

وقال : « لقد قلت لماري ألام سينتهي الامر . لقد عرفت ما الذي يجدر بمستر ادورد . . . ( كان جون خادماً عتيقاً ، وقد سبق له ان عرف سيده منذ كان الابن الاصغر في القصر ، ومن اجل ذلك كان كثيراً ما يشير اليه باسمه



الاول ) ٠٠٠ أجل لقد عرفتُ ما الذي يجدر بمستر ادورد أن يفعله ، وكنت واثقا من انه لن ينتظر طويلا أيضاً . ولقد احسن صنعا ، علي قدر ما أعرف .  
انني اتمنى لك السعادة ، أيتها الأنسة . » ومسّ ناصيته تأديبا .

— « أشكرك ، يا جون . لقد سألني مستر روتشيستر أن أقدم اليك والى ماري هذه الورقة . »

ووضعت في يده ورقة نقدية من فئة الخمسة الجنيهات . ومن غير ان انتظر حتى أسمع شيئا اضافيا غادرت المطبخ . وفيما كنت اجتاز بباب ذلك « المقدس » ، بعد فترة يسيرة ، طرقت الكلمات التالية سمعي :

— « في ميسورها من غير ريب ان تنفعه اكثر من أية سيدة عجوز . . . .  
و « اذا لم تكن واحدة من اجمل النساء فانها ليست دمية ، وهي من غير شك دمة الاخلاق . ثم انه يراها جميلة . . وفي استطاعة كل امرئ ان يلاحظ ذلك . »

وكتبت الى مورهاوس والى كايميريدج في الحال ، لكي أروي ما أقدمت عليه . وقد شرحت في تينك الرسالتين أيضاً السبب الذي من اجله فعلت ما فعلت شرحاً وافياً . فأقرت ديانا وماري خطوتي في غير تحفظ . وأعلنت ديانا انها سوف تمهلني ريثما أنعم بشهر العسل ثم تفد لزيارتي . »

وقال روتشيستر عندما تلوت رسالتها عليه : « من الخير لها ان لا تنتظر حتى ذلك الحين ، يا جين . انها لو فعلت اذن لوفدت علينا بعد فوات الاوان ، لأن شهر عسلنا سوف يستمر ما بقينا على قيد الحياة . ان أشعته لن تبهت الا فوق ضريحك أو ضريحي . »

أما كيف تلقى سانت جون النبأ فذلك ما لا أدريه . انه لم يُجب قط عن الرسالة التي طويها عليه . ومع ذلك فقد كتب اليّ بعد ستة اشهر ، ولكن من غير ان يذكر اسم مستر روتشيستر ، او يلتمع الى زواجي . كانت رسالته تلك هادئة برغم ما اتسمت به من جدّ بالغ ولطف عظيم . ومنذ ذلك الحين واصل الكتابة اليّ على نحو نظامي ولكن في فترات متباعدة . لقد رجا أن أكون سعيدة ، وأعلن انه واثق من انني لست من اولئك الذين لا يسترشدون في أعمالهم بالتحاليم الالهية واللذين لا يبالون بغير عَرْض الحياة الدنيا .

انك لم تنسَ أدبل الصغيرة ، أيها القارئ ، نسياناً كاملاً ، وكذلك أنا . وسرعان ما سألت مستر روتشيستر أن يأذن لي بالذهاب لرؤيتها في المدرسة التي كان قد أحققها بها . فأذن . والواقع ان البهجة الفامرة التي اجتاحتها لدن وقعت عينها عليّ من جديد هزت مشاعري . لقد بدت شاحبة الوجه مهزولة الجسم ، وقالت لي انها لم تكن سعيدة . وانما وجدتُ انظمة المؤسسة صارمة اكثر مما ينبغي وبرنامج دروسها مثقلا أكثر مما ينبغي بالنسبة الى طفلة في مثل سنّها ، فصحبتهُا معي الى البيت . لقد اعتزمت أن أنهض بنفسي كرة أخرى بعبء تثقيفها . ولكن سرعان ما وجدت ان ذلك غير

عملي . فقد كنت مضطرة الان الى انفاق وقتي وجهودي على شخص آخر - كان زوجي محتاجاً اليها كلها . وهكذا بحثت لآدليل عن مدرسة ذات نظام اشد رفقاً وتساهلاً ، مدرسة هي من القرب بحيث أستطيع أن أزورها بين الفينة والفينة وأصحبها الى البيت في بعض الاحيان . وحرصت على أن لا يعوزها ايما شيء قد يعزُر رفايتها . وما هي الا فترة يسيرة حتى استقرت في مثواها الجديد ، وغدت جد سعيدة هناك ، واحرزت تقدماً حسناً في دروسها . وفيما هي تتخذ سبيلها نحو النضج الجسماني أصلحت ثقافتها انكليزية سليمة عيوبها الفرنسية اصلاحاً بعيداً ، حتى اذا غادرت المدرسة وجدت فيها رفيقة مرضية كريمة ، فهي وادعة دمثة الخلق ، ذات مبادئ قوية . والواقع انها كافأتني منذ عهد طويل - بما أظهرت نحوي ونحو زوجي من اهتمام مشكور - على أيما قدر من الفضل ضئيل قدّر لي في أيما يوم من الايام أن أسديه اليها .

ان قصتي لنشارف نهايتها ، ولم يبق عليّ حتى اطرح القلم الا أن اقول كلمة صغيرة عن حياتي الزوجية ، والا ان القي نظرة خاطفة على مصائر اولئك الذين ترددت اسماءهم ، أكثر ما ترددت ، في هذه القصة .

لقد انقضى على زوجي ، الان ، سنوات عشر ، فأنا اعرف ما معنى أن يعيش المرء بكليته من أجل من يؤثره بالحب أكثر من أي كائن آخر في هذه الارض ، ومع هذا الحبيب الاثير لديه . اني لأعتبر نفسي سعيدة أقصى ما تكون السعادة . . . سعيدة على نحو يعجز البيان عن وصفه . لاني أنا حياة زوجي بقدر ما هو حياتي . ان أيما امرأة لم يقدر لها قط من قبل أن تكون أدنى الى قرينها مما قدّر لي : لا ، لم يقدر لأيما امرأة ان تكون عظماً من عظم زوجها ولحماً من لحمه أكثر مما كنت أنا . اني لا أمل عشرة ادورد ، وهو لا يملّ عشرتي أكثر مما يملّ كل منا وجيب الفؤاد الذي ينبض في صدرينا المستقلين ، وبالتالي فنحن أبدأ معاً . ولأن نكون معاً هو بالنسبة اليانا ان ننعم - في آن واحد - بمثل الحرية التي تتيحها الوحدة ، وبمثل البهجة التي تتيحها العشرة . اننا نتحدث ، في ما أحسب ، ساعات النهار بطولها . وليس تجاذبنا أطراف الاحاديث غير تفكير مسموع هو أكثر حرارة وحيوية . اني لأمنحه كامل ثقتي ، وانه ليقف عليّ كامل ثقته . ان خلقنا لمتناغمان أحسن تناغم ، وما ثمره ذلك غير الوفاق المطلق .

وظل مستر روتشيستر مكفوف البصر طسوال السنتين الاوليين من زواجنا : ولعل هذه الواقعة هي التي أبقت احدنا على مثل هذا القرب كله من الآخر ، والتي وحدت ما بيننا ذلك التوحيد كله ! ذلك بأنني كنت آنذاك عينه المبصرة ، كما لا أزال حتى اليوم يده اليمنى . لقد كنت ، بالمعنى الحرفي ( كما كان يدعوني في كثير من الاحيان ) انسان عينية . لقد رأى الطبيعة . . . ورأى الكتب ، من خلالي . ولم أتعب أنا ، في أيما يوم ، من التحديق بالنيابة عنه ، ومن التعبير في كلمات عن اثر الحقل ، والشجرة ، والمدينة ، والنهر ،

والسحاب ، وشعاع الشمس ، في نفسي ... وعن أثر الريف المنبسط أمامنا ، والجو المحيط بنا ... وبكلمة ، لقد حرصتُ على ان أطبع في اذنه ، من طريق الصوت ، ما كان النور قد أمسى عاجزاً عن طبعه في عينيه . ولم أكل قط من القراءة له ، ومن قيادته الى حيث كان يود أن يمضي ، ولم احجم البتة عن عمل ايما شيء كان ينبغي أن يعمل . ولقد كان في خدماتي هذه متعة بالغة الى أبعد حد ، عذبة الى أقصى مدى ، برغم ما اتسمت به من كآبة - لانه كان يطالبني باداء تلك الخدمات من غير ان يستشعر أيّ خجل اليم أو ذلٍ مُثَبِّط . لقد كان حبه لي من العمق بحيث لا يجد حرجاً ما في الافادة من رعايتي . ولقد استشعر اني أحبه حباً صادقاً الى درجة تجعل أحاطتي اياه بتلك الرعاية ضرباً من الارضاء لأعذب رغباتي .

وذات صباح ، في نهاية السنتين الاثنتين ، وفيما كنت اكتب رسالة من املانه مال عليّ وقال :

- « جين ، هل تطوّق جيدك حلية متألقة ؟ »

وكانت تطوق جيدي سلسلة ذهبية ، فأجبت :

- « نعم » .

- « وهل ترتدين ثوباً ازرق شاحباً ؟ »

وقد كان ذلك هو لون ثوبي في الواقع . وانبأني ، عندئذ ، انه يستشعر ، منذ فترة يسيرة ، ان الظلمة التي تغشى إحدى عينيه اخذت تشفّ بعض الشيء ، وانه أمسى الان موقناً من ذلك .

وارتحت أنا وهو الى لندن ، حيث راجع طبيباً من اطباء العيون البارزين ، وبذلك استردّ قوة تلك العين على الابصار . انه لا يستطيع الان ان يرى في وضوح بالغ ... انه لا يستطيع ان يقرأ او يكتب كثيراً ، ولكنه أمسى قادراً على ان يتيقّن سبيله ، من غير أن يأخذ أحده بيده : ان السماء لم تعد ، عنده ، خواءً ، وان الارض لم تعد عنده فراغاً . وحين وُضِع وليده' الاول بين ذراعيه استطاع ان يرى ان الطفل قد ورث عينيه ، كما كانتا في عهد مضى - عينيه النجلاوين ، البراقتين ، السوداوين . وفي تلك المناسبة ايضاً أدرك ، في تأثر بالغ ، أن الله قد لطّف بالرحمة قضاءه .

واذن فأنا وادورد سعيدان ، وبخاصة لان اولئك الذين نؤثرهم بأعظم الحب سعداء مثلنا . لقد تزوجتُ كل من ديانا وماري ريفرز ، فهما تفدان لزيارتنا ونحن نمضي لزيارتهما ، بالتناوب ، مرة كل عام . ان زوج ديانا رئيس (كابتن) في البحرية - ضابط شهيم ورجل طيب . وان زوج ماري قسيس كان صديق أخيها في الكلية فهو - بفضل ثقافته ومبادئه - أهلٌ لها وكفوء . وكل من الرئيس فيتزجايمس ومستر وارتون مُحِبُّ زوجته ، حبيبٌ الى قلبها . أما سانت جون ريفرز فقد غادر انكلترا مرتحلاً الى الهند . لقد اتخذ السبيل التي كان قد رسمها لنفسه ، وهو لا يزال ماضياً فيها حتى الان . ولعل الايام لم تعرف رائداً مناظلاً وسط الصخور والمخاطر اشدّ

عزيمة منه وأبعد عن الكلل . كان حازماً ، مخلصاً ، متفانياً ، وكان يناضل ، مفعماً بالطاقة والحماسة والحق ، في سبيل أبناء جنسه ، فهو يمهد لهم سبيل التقدم الوعرة ، وهو يذل - مثل عملاق من العمالقة - أحقاد المعتقد والطبقة الاجتماعية المقفلة التي تعوق تلك السبيل . انه قد يكون متجهماً ، وقد يكون متعنتاً بل قد يكون طموحاً أيضاً ، ولكن تهمته هو تجهّم المحارب « ذي القلب الكبير » الذي يحمي قافلة حجّابه من غارات ابوليون \* . وتعنته هو تعنت الرسول الذي يتكلم باسم المسيح عندما يقول : « ان اراد أحد ان يأتي ورائي فليترك نفسه ويحمل صليبه ويتبعني . » وطموحه هو طموح الروح السامية التي تهدف الى ان تحتل مكاناً لها في الصف الاول من صفوف اولئك الذين فازوا بالخلاص ، والذين يقفون مبرّأين من الخطيئة امام عرش الله ، والذين يشاركون « الحمل » انتصاراته الجبارة الاخيرة والذين ناداهم الله واصطفاهم والذين هم مخلصون .

ولا يزال سانت جون اعزب ، وهو لن يتزوج بعدُ أبد الدهر . فقد استطاع ان ينهض بعبء النضال بمفرده ، وهذا النضال يوشك اليوم ان يوفي على غايته : ان شمسهِ المجيدة لتجنع مسرعة الى الغروب . ولقد استطاعت آخر رسالة تلقيتها منه ان تنتزع من عينيّ عبراتٍ بشرية ، ولكنها مع ذلك ملأت قلبي بهجة الهية : لقد توقّع ان يفوز بثوابه الاكيد ، وتاجه الخالد . وادركت ان يدا غريبة سوف تكتب اليّ في المرة التالية لتقول ان الخادم الصالح الوفي قد دُعي آخر الامر لدخول جنة ربه البهيجة . ولم اذرف العبرات حزناً ولوعة ؟ ان ايما خوف من الموت لن يعكّر لحظات سانت جون الاخيرة : ان عقله سوف يكون صافياً ، وان قلبه سوف يكون باسلاً ، وان رجاءه سوف يكون يقيناً ، وان ايمانه سوف يكون راسخاً . وكلماته نفسها ضمانٌ كفيلٌ بذلك ، قال :

- « ان ربي قد نبّهني . وهو كل يوم يبشرني ، قائلاً في وضوح متعاطف ابداً : « اني لآت ، من غير ريب ، على جناح السرعة ! » وكل ساعة أجيئه في لهفة متعاطفة ابداً : « فلتكن ارادتك . ولتأت ، كما تقول ، أيها السيد المسيح ! »

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الحصرية والرائعة بجودة عالية على موقع

انتهى

<https://jadidpdf.com>